

رُوضَةُ الْمُحِبِّينَ

وَزَهَّةُ الْمُشْتَاقِينَ

تأليف
الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أبي رزق المصلي
المعروف بابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١ هـ

نصّح آياته وأهاده ووضع مراحله
أحمد شمس الدين

منشورات
مكتبة دار الفكر
لتنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

سَنَفَرَاتُ رَافِدَاتِ بَيْرُوتَ



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الثالثة

٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بَيْرُوت - لُبْنَان

رمل الظريف - شارع البحري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ (٥ ٩٦١)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-0890-5



9 782745 108906

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر يا كريم

الحمد لله الذي جعل المحبة إلى الظفر بالمحجوب سبيلا، ونصب طاعته والخضوع له على صدق المحبة دليلا، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إثارة لطلبها وتحصيلها، وأودعها العالم العلوي والسفلي لإخراج كماله من القوة إلى الفعل إيجاداً وإمداداً وقبولا، وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى أشرف غاياتها تخصيصاً لها وتأهيلا، فسيحان من صرّف عليها القلوب كما يشاء ولما يشاء بقدرته، واستخرج بها ما خلق له كل حي بحكمته، وصرّفها أنواعاً وأقساماً بين بريته، وفصلها تفصيلا، فجعل كل محبوبٍ لمحبه نصيباً، مخطئاً كان في محبته أو مصيباً، وجعله بحبه منعماً أو قتيلاً. فقسمها بين محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب النيران، ومحب الصّليبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب النّسوان، ومحب الصبيان، ومحب الأئمان^(١)، ومحب الإيمان، ومحب الألحان، ومحب القرآن. وفضل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلاً، فبالمحبة وللمحبة وُجدت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتّصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها، وتخلصت من معاطبها^(٢)، واتخذت إلى ربها سبيلا، وكان لها دون غيره مأمولاً وسُولا، وبها نالت الحياة الطيبة وذاقت طعم الإيمان لما رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولا. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له شهادة مقرّ بربوبيته، شاهد بوحْدانيته، منقاد إليه لمحَبته، مذعن له بطاعته، معترف بنعمته، فارٌّ إليه من ذنبه وخطيئته، مؤمِّل لعفوه ورحمته، طامع في مغفرته، بريء إليه من حوله وقوّته، لا يبتغي سواه ربّاً ولا يتخذ من دونه وليّاً ولا وكيلاً، عائد به، ملتجئ إليه، لا يروم عن عبوديته انتقالاً ولا تحويلاً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته

(١) الأئمان: الأموال.

(٢) المعاطب: المهالك.

من خلقه، وأمينه عَلَى وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأسمعهم لديه شفاعاً، وأحبهم إليه، وأكرمهم عليه، أرسله للإيمان منادياً، وإلى الجنة داعياً، وإلى صراطه المستقيم هادياً، وفي مرضاته ومَحَابَّه ساعياً، ويكل معروف آمراً، وعن كل منكر ناهياً، رفع له ذكره، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار عَلَى من خالف أمره، وأقسم بحياته في كتابه المبين^(١)، وقرن اسمه باسمه، فإذا ذُكِرَ اللَّهُ ذُكِرَ معه، كما في الخطب والتشهد والتأذين، فلا يصح لأحد خطبة ولا تشهد ولا أذان حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين:

أَغْرَّ عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مِمَّوْنٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمَّ إِلَهُهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذْ قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذَّنَ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَّه فَذُو الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

أرسله على حين فترة من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد محبته وطاعته، وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدَّ إلى الجنة جميع الطرق فلم يفتح لأحدٍ إلا من طريقه. فلا مطعم في الفوز بجزيل الثواب، والنجاة من وبيل العقاب، إلا لمن كان خلفه من السالكين، ولا يؤمنُ عبدٌ حتى يكون أحبَّ إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين، فصلَّى الله وملائكته وأنبيأؤه ورسله وجميع عباده المؤمنين عليه، كما وَحَدَ اللَّهُ وَعَرَّفَ أُمَّتَهُ به ودعا إليه، صلاة لا تروم عنه انتقلاً ولا تحويلاً، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ، وصحبه الطاهرين، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وتقدَّست أسماؤه، جعل هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير والرشاد، وشرَّها أوعاها للغَيِّ والفساد، وسلَّط عليها الهوى، وامتحنها بمخالفته لتنال بمخالفته جنة المأوى، ويستحقَّ من لا يَصْلُحُ للجنة بمتابعته ناراً تلظى، وجعله مركب النفس الأماراة بالسوء وقوتها وغذاها، وداء النفس المطمئنة ومخالفته دواها، ثم أوجب سبحانه وتعالى على العبد في هذه المدة القصيرة التي هي بالإضافة إلى الآخرة كساعة من نهار، أو كبليل ينال الإصبع حين يدخلها في بحرٍ من البحار، عصيان النفس الأماراة ومجانبة هواها، وردعها عن شهواتها التي في نيلها رداها، ومنعها من الركون إلى لذاتها، ومطالبة ما استدعته العيون الطامحة بلحظاتها، لتنال نصيبها من كرامته وثوابه موفراً كاملاً، وتلتذَّ أجلاً بأضعاف ما تركته لله عاجلاً، وأمرها بالصيام عن محارمه ليكون فطرها عنده يوم لقائه، وأخبرها أن معظم نهار الصيام قد ذهب، وأن عيد

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

اللقاء قد اقترب، فلا يطول عليها الأمد باستبطائه. كما قيل:

فما هي إلا ساعةٌ ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويَزول
هياها لأمرٍ عظيم، وأعدّها لخطبٍ جسيم، وأدّخر لها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ
سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ من النعيم المقيم، واقتضت حكمته البالغة أنها لا تصل
إليه إلا من طريق المكاره والنصب، ولا تعبُرُ إليه إلا على جسر المشقة والتعب، فحجبه
بالمكروهات صيانةً له عن الأنفس الدنيّات، المؤثّرة للردائيل والسفليات، وشمّرت إليه
النفوس العلويات، والهمم العليّات، امتطت في السير إليه ظهور العزمات، فسارت في
ظهورها إلى أشرف الغايات:

وركب سرّوا والليل مُزخٍ رواقه على كل مغبرٍ الموارد قاتم
حدّوا^(١) عزماتٍ ضاعت الأرض بينها فصار سُراهم في ظهور العزائم
أرتهم نجومُ الليل ما يطلبونه على عاتق الشعري وهام النعائم^(٢)
فأثّموا حمّى لا ينبغي لسواهم وما أخذتهم فيه لومة لائم

أجابوا منادي الحبيب لما أذن لهم حيّ على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في مرضاته
بذل المحبّ بالرضا والسماح، وواصلوا السير إليه بالغدوّ والرّواح. فحمدوا عند الوصول
مسراهم وإنما يَحْمَدُ القوم السّرى^(٣) عند الصباح، تعبوا قليلا، فاستراحوا طويلا، وتركوا
حقيرا، واعتاضوا عظيما. وضعوا اللذة العاجلة والعاقبة الحميدة في ميزان العقل فظهر
لهم التفاوت، فرأوا من أعظم السّفه بيعَ الحياة الطّيبة الدائمة في النعيم المقيم بلذة ساعةٍ
تذهب شهوتها، وتبقى شقوتها. هذا وإنّ من أيام اللذات لو صفت للعبد من أوّل عمره
إلى آخره لكانت كسحابة صيفٍ تتشعّع عن قليل، وخيال طيفٍ ما استتم الزيارة حتى آذن
بالرحيل. قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧] ومن ظفر بمأموه من ثواب الله، فكأنه
لم يُوتّر^(٤) من دهره بما كان يحاذره ويخشاه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل
بهذا من الشعر:

كأنك لم تُوتّر من الدهر مرةً إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

(١) حدا الإبل وبها: ساقها وحشها على السير بالحداء. (٢) الشعري: كوكب نير يطلع عند شدة الحر.

(٣) السرى: سير عامة الليل. يؤث ويذكر. وهذا المثل يضرب لمن يحتمل المشقة رجاء الراحة، وفي
الحث على مزاوله الأمر، والصبر، وتوطين النفس حتى يحمد عاقبته.

(٤) وتر الرجل: أفزعه وأدركه بمكروهه، ووتره أيضاً إذا أصابه بوتر وهو الذحل، أي الثأر عامة أو الظلم
فيه.

فصل: وهذا ثمرة العقل الذي به عُرف الله سبحانه وتعالى وأسماءه وصفات كماله ونعوت جلاله، وبه آمن المؤمنون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته، وبه عُرفت آيات ربوبيته وأدلة وحدانيته ومعجزات رسله، وبه أمثِلت أوامره واجتُنبت نواهيه، وهو الذي تَلَمَّح العواقب فراقبها، وعمل بمقتضى مصالحها، وقاوم الهوى فردَّ جيشه مفلولا، وساعد الصبر حتى ظفر به بعد أن كان بسهامه مقتولا، وحثَّ عَلَى الفضائل، ونهى عن الرذائل، وفق المعاني وأدرك الغوامض، وشدَّ أزرَّ العزم فاستوى عَلَى سُوقه، وقوى أزرَّ الحزم حتى حظي من الله بتوفيقه، فاستجلب ما يَزِين، ونفى ما يَشِين، فإذا نزل وسلطانه أسر جنود الهوى فحصرها في حبس من ترك لله شيئا عَوَّضه الله خيرا منه، ونهض بصاحبه إلى منازل الملوك، إذا صَيَّر الهوى الملك بمنزلة العبد المملوك، فهي شجرة عِرْقُها الفكر في العواقب، وساقُها الصبر، وأغصانُها العلم، وورقها حسن الخُلُق، وثمرها الحكمة، ومادتها توفيق مَنْ أَرْمَتْهُ الأُمُور بيديه، وابتدأها منه وانتهأها إليه. وإذا كان هذا وصفه، فقبيح أن يُدال^(١) عليه عدوُّه فيعزله عن مملكته، ويحطه عن رتبته، ويستنزله عن درجته، فيصبح أسيرا بعد أن كان أميراً، ومحكوماً بعد أن كان حاكماً، وتابعاً بعد أن كان متبوعاً، ومن صبر عَلَى حكمه أرتعه^(٢) في رياض الأمانى والمنى، ومن خرج عن حكمه أوردته حياض الهلاك والردى، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لقد سبق إلى جنات عدن أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا حجاً ولا اعتماراً، لكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت منه قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسهم، وخشعت له جوارحهم، ففاقوا الناس بطيب المنزلة وعلوِّ الدرجة عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين. وقالت عائشة رضي الله عنها: قد أفلح من جعل الله له عقلا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ولد لكسرى مولودٌ فأحضر بعض المؤدِّبين ووضع الصَّبي بين يديه وقال: ما خير ما أوتي هذا المولود؟ قال: عقلٌ يولد معه. قال: فإن لم يكن؟ قال: فأدبٌ حسنٌ يعيش به في الناس. قال: فإن لم يكن؟ قال: فصاعقةٌ تحرقه. وقال بعض أهل العلم: لما أهبط الله تبارك وتعالى آدم إلى الأرض أتاه جبريل عليه السلام بثلاثة أشياء: الدين، والخلق، والعقل، فقال: إن الله يخيِّرك بين هذه الثلاثة، فقال: يا جبريل ما رأيت أحسن من هؤلاءِ إلا في الجنة، ومد يده إلى العقل فضمَّه إلى نفسه فقال للآخرين: اصعدوا. فقالوا: أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان. فصارت الثلاثة إلى آدم

(١) يدال عليه: يغلبه ويتنصر عليه.

(٢) أرتعه: نعمه، والرتع: التمتع، ورتع: أكل وشرب ما شاء في خصب وسعة.

عليه السلام. وهذه الثلاثة أعظم كرامةٍ أكرم الله بها عبده، وأجلُّ عطيةٍ أعطاه إياها. وجعل لها ثلاثة أعداء: الهوى، والشيطان، والنفس الأمارة. والحرب بينهما دُولٌ وسِجال^(١)، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٦] وقال وهب ابن مُنبه: قرأت في بعض ما أنزل الله تعالى: إن الشيطان لم يكابد شيئاً أشدَّ عليه من مؤمنٍ عاقل، وإنه ليسوق مائة جاهلٍ فيستجرهم حتى يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيُضْعَب عليه حتى ينال منه شيئاً من حاجته، قال: وإزالة الجبل صخرةً صخرةً أهون على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل، فإذا لم يقدر عليه تحوّل إلى الجاهل فيستأسره، ويتمكن من قيادة حتى يُسَلِّمه إلى الفضائح التي يتعجل بها في الدين الجُلْدَ والرجم والقطع والصلب والفضيحة، وفي الآخرة العار والنار والشَتَار^(٢). وإن الرجلين ليستويان في البرِّ ويكون بينهما في الفضل كما بين المشرق والمغرب بالعقل، وما عُبِدَ الله بشيءٍ أفضل من العقل. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: لو أن العاقل أصبح وأمسى وله ذنوب بعدد الرمل كان وشيكاً بالنجاة والتخلص منها، ولو أن الجاهل أصبح وأمسى له من الحسنات وأعمال البرِّ عدد الرمل لكان وشيكاً أن لا يسلم له منها مثقال ذرّة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: إن العاقل إذا زلَّ تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي رُزقه، والجاهل بمنزلة الذي يبني ويهدم، فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله، وقال الحسن: لا يَتِمَّ دين الرجل حتى يَتَمَّ عقله. وما أودع الله امرئاً عقلاً إلا استنقذه به يوماً. وقال بعض الحكماء: من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه كان حتفه^(٣) وهلاكه في أحب الأشياء إليه. وقال يوسف بن أسباط: العقل سراج ما بطن، وزينة ما ظهر، وسائس الجسد، وملاك أمر العبد، ولا تصلحُ الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه. وقيل لعبد الله بن المبارك: ما أفضل ما أعطي الرجل بعد الإسلام؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ صالحٌ يستشير، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موتٌ عاجل. وفي ذلك قيل:

ما وهب الله لامرئ هبةً أحسنَ من عقله ومن أدبه
هما جمال الفتى فإن فقد فققدُ للحياة أجملُ به

فصل: وإذا كانت الدولة للعقل سالمة الهوى، وكان من خدمه وأتباعه، كما أن

(١) الحرب بينهم سجال: يعني أنها مرة لهم ومرة عليهم.

(٢) الشنار: أقبح العيب، العار، الأمر المشهور بالشنعة.

(٣) الحنف: الموت.

الدولة إذا كانت للهوى، صار العقل أسيراً في يديه، محكوماً عليه. ولما كان العبد لا ينفك عن الهوى ما دام حياً - فإن هواه لازم له - كان له الأمر بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهلكة إلى مواطن الأمن والسلامة، مثاله: أن الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة، بل أمره بصرف ذلك الهوى إلى نكاح ما طاب له منهن من واحدة إلى أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرى الهوى من محل إلى محل، وكانت الريح دبوراً^(١) فاستحالت صباً، وكذلك هو الظفر والغلبة والقهر، لم يأمر بالخروج عنه، بل أمر بصرفه إلى الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه، وشرع له من أنواع المغالبات بالسباق وغيره مما يُمرّته ويُعده للظفر، وكذلك هوى الكبر والفخر والخيلاء مأذون فيه، بل مستحب في محاربة أعداء الله. وقد رأى النبي ﷺ أبا دُجانة سِمَاك بن خَرَشَةَ الأنصاري يتبختر بين الصفين فقال: «إنها لَمِشْبَةٌ يبغيضها الله إلا في مثل هذا الموطن». وقال: «إن من الخيلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغيض الله، فالتى يحبها اختيال الرجل في الحرب وعند الصدقة» وذكر الحديث^(٢). فما حرّم الله على عباده شيئاً إلا عوّضهم خيراً منه؛ كما حرّم عليه الاستقسام بالأزلام^(٣) وعوّضهم منه دعاء الاستخارة، وحرّم عليهم الربا وعوّضهم منه التجارة الربحية، وحرّم عليهم القمار وأعاضهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام، وحرّم عليهم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن، وحرّم عليهم الزنا واللواط وأعاضهم منهما بالنكاح والتسري بصنوف النساء الحسان، وحرّم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن، وحرّم عليهم سماع آلات اللهو من المعازف والمثاني، وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثاني، وحرّم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات. ومن تلمّح هذا وتأمله هان عليه ترك الهوى المردى، واعتاض عنه بالنافع المجدي، وعرف حكمة الله ورحمته وتأمّام نعمته على عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وفيما أباحه لهم، وأنه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجةً منه إليهم، ولا نهاهم

(١) الدبور: ريح تهب من المغرب وتقابل القبول وهي الصبا.

(٢) في مسند الإمام أحمد (٤٤٥/٥، ٤٤٦): عن جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغيض الله، وإن من الخيلاء ما يحب الله ومنها ما يبغيض الله. فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في الريّة. وأما الغيرة التي يبغيض الله فالغيرة في غير رية. وأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال واختياله عند الصدقة، والخيلاء التي يبغيض الله فاختيال الرجل في الفخر والبغي».

(٣) جمع زلم: وهو السهم الذي لا ريش له.

عنه بخلاً منه تعالى عليهم، بل أمرهم بما أمرهم إحساناً منه ورحمة، ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة لهم وحِمْيَةٌ^(١). فلذلك وضعنا هذا الكتاب وضع عَقْد الصلح بين الهوى والعقل، وإذا تَمَّ عقد الصلح بينهما سهل على العبد محاربة النفس والشيطان، والله سبحانه المستعان، وعليه التكلان، فما كان فيه من صواب فمن الله فهو الموفق له والمعين عليه، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، واللَّهُ ورسولُهُ من ذلك بريثان. وقد جعلته تسعة وعشرين باباً:

الباب الأول: في أسماء المحبة.

الباب الثاني: في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها.

الباب الثالث: في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض.

الباب الرابع: في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجدا بالمحبة ولأجلها.

الباب الخامس: في دواعي المحبة ومتعلقاتها.

الباب السادس: في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه.

الباب السابع: في ذكر مناظرة بين القلب والعين.

الباب الثامن: في ذكر الشُّبْهِ التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه.

الباب التاسع: في الجواب عما احتجّت به هذه الطائفة وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج.

الباب العاشر: في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه.

الباب الحادي عشر: في العشق وهل هو اضطراريٌّ خارجٌ عن الاختيار، أو أمرٌ اختياريٌّ، واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه.

الباب الثاني عشر: في سكرة العشاق.

الباب الثالث عشر: في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان.

الباب الرابع عشر: فيمن مدح العشق وتمناه، وغَبَطَ صاحبه على ما أُوتيه من مناه.

الباب الخامس عشر: فيمن ذمَّ العشق وتبرّم به، وما احتجّ به كل فريق على صحة مذهبه.

(١) الحمية: الامتناع عما يضر والوقاية منه.

الباب السادس عشر: في الحكم بين الفريقين، وفصل النزاع بين الطائفتين.

الباب السابع عشر: في استحباب تخيّر الصوّر الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله.

الباب الثامن عشر: في أن دواء المحبين، في كمال الوصال الذي أباحه رب العالمين.

الباب التاسع عشر: في ذكر فضيلة الجمال، وميل النفوس إليه على كل حال.

الباب العشرون: في علامات المحبة وشواهداها.

الباب الحادي والعشرون: في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالمحب، وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه.

الباب الثاني والعشرون: في غيرة المحبين على أحبّابهم.

الباب الثالث والعشرون: في عفاف المحبين مع أحبّابهم.

الباب الرابع والعشرون: في ارتكاب سبل الحرام، وما يفضي إليه من المفساد والآلام.

الباب الخامس والعشرون: في رحمة المحبين، والشفاعة لهم إلى أحبّابهم في الوصال الذي يُبيحه الدين.

الباب السادس والعشرون: في ترك المحبين أدنى المحبوبيّين رغبةً في أعلاهما.

الباب السابع والعشرون: فيمن ترك محبوه حراماً فبُذِل له حلالاً، أو أعاضه الله خيراً منه.

الباب الثامن والعشرون: فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام، على لذّة الوصال الحرام.

الباب التاسع والعشرون: في ذمّ الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى. وسميته:

(روضة المحبين، ونزهة المشتاقين)

والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه، فإنه علّقه في حال بعده عن وطنه، وغيبته عن كتبه، فما عسى أن يبلغ خاطره المكدود، وسعيه المجهود، مع بضاعته المزجاة^(١)، التي حقيقٌ بحاملها أن يقال فيه «تسمع بالمعيديّ خيرٌ من أن تراه»

(١) مزجاة: رديئة ومردودة. والمزجي: الشيء القليل.

وها هو قد نصب نفسه هدفاً لسهام الراشقين، وغرضاً لأسنة الطاعنين، فلقاريه غنمه، وعلى مؤلفه غزمه، وهذه بضاعته تعرض عليك، وموليت^(١) تهدي إليك، فإن صادفت كفوّاً كريماً لها لن تعد من إمساكاً بمعروفٍ أو تسريحاً بإحسان، وإن صادفت غيره فالله تعالى المستعان، وعليه التكلان. وقد رضي من مهرها بدعوة خالصة إن وافقت قبولاً واستحساناً، وبرد جميل إن كان حظها احتقاراً واستهجاناً. والمنصف يهب خطأ المخطيء لإصابته، وسيئاته لحسناته. فهذه سنة الله في عبادة جزاء وثواباً. ومن ذا الذي يكون قوله كله سديداً وعمله كله صواباً؟ وهل ذلك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ونطقه وحى يوحى، فما صح عنه فهو نقلٌ مصدق عن قائلٍ معصوم، وما جاء عن غيره فثبوت الأمرين فيه معدوم، فإن صح النقل لم يكن القائل معصوماً، وإن لم يصح لم يكن وصوله إليه معلوماً.

فصل: وهذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس. فإنه يصلح عوناً على الدين وعلى الدنيا، ومرة للذة العاجلة ولذة العقبى، وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها، وصحيحها وفاسدها، وآفاتا وغوائلها^(٢)، وأسبابها وموانعها، وما يناسب ذلك من نكت تفسيرية، وأحاديث نبوية، ومسائل فقهية، وآثار سلفية، وشواهد شعرية، ووقائع كونية، ما يكون ممتعاً لقاريه، مروحاً للناظر فيه، فإن شاء أوسع جداً وأعطاه ترغيباً وترهيباً، وإن شاء أخذ من هزله ومُلحه نصيباً، فتارة يضحكه وتارة يبكيه، وطوراً يبعده من أسباب اللذة الفانية، وطوراً يرغبه فيها ويدنيه. فإن شئت وجدته واعظاً ناصحاً، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحاً. وهذا حين الشروع في الأبواب، والله سبحانه الفاتح من الخير كل باب، وهو المسؤول سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مديناً من رضاه والفوز بجنت النعيم، والله متولي سريرة العبد وكسبه، وهو سبحانه عند لسان كل قائلٍ وقلبه، ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٦].

(١) موليته: من له ولاية عليها.

(٢) جمع غائلة: الفساد، والشر، والداهية.

في أسماء المحبة

لما كان الفهم لهذا المسمى أشدّ، وهو بقلوبهم أعلق، كانت أسماؤه لديهم أكثر. وهذا عادتهم في كل ما اشتدّ الفهم له، أو كثر خُطُورُه على قلوبهم، تعظيماً له، أو اهتماماً به، أو محبةً له. فالأول كالأسد والسيف، والثاني كالداهية، والثالث كالخمر. وقد اجتمعت هذه المعاني الثلاثة في الحب، فوضعوا له قريباً من ستين^(١) اسماً وهي: الْمَحَبَّةُ، وَالْعَلَاقَةُ، وَالْهَوَى، وَالصَّبُوءُ، وَالصَّبَابَةُ، وَالشَّغَفُ، وَالْمِقَّةُ، وَالْوَجْدُ، وَالْكَلْفُ، وَالْتَتِيْمُ، وَالْعِشْقُ، وَالْجَوَى، وَالذَّنْفُ، وَالشَّجْوُ، وَالشُّوقُ، وَالْخِلَابَةُ، وَالْبِلَابِلُ، وَالْتَبَارِيحُ، وَالسَّدْمُ، وَالْغَمَرَاتُ، وَالْوَهْلُ، وَالشَّجْنُ، وَاللَاعِجُ، وَالْاِكْتَابُ، وَالْوَصَبُ، وَالْحُزْنُ، وَالْكَمَدُ، وَاللَّذْعُ، وَالْحَرْقُ، وَالشُّهْدُ، وَالْأَرْقُ، وَاللَّهْفُ، وَالْحَنِينُ، وَالْاِسْتِكَاثَةُ، وَالْتَبَالَةُ، وَاللُّوْعَةُ، وَالْفُتُونُ، وَالْجُنُونُ، وَاللَّمَمُ، وَالْخَبْلُ، وَالرَّسِيسُ، وَالْدَاءُ الْمُخَامِرُ، وَالْوَدَّةُ، وَالْخُلَّةُ، وَالْخِلْمُ، وَالْغَرَامُ، وَالْهِيَامُ، وَالْتَذْلِيَةُ، وَالْوَلَةُ، وَالْتَعَبْدُ. وقد ذُكِرَ له أسماء غير هذه وليست من أسمائه، وإنما هي من مُوجباته وأحكامه فتركنا ذكرها.

(١) لم يذكر المؤلف منها غير خمسين.

في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها

فأما المحبة فقليل: أصلها الصفاء لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حَبَب الأسنان، وقيل: مأخوذة من الحَبَاب وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد، فعلى هذا المحبة غَلِيان القلب وثورائه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب، وقيل: مشتقة من اللزوم والثبات، ومنه أحب البعير إذا برك فلم يَقُمْ، قال الشاعر^(١):

حُلَّتْ عليه بالفلاة ضرباً ضربَ بعير السَّوءِ إذ أَحَبَّ
فكَأَنَّ المحبَّ قد لزم قلبه محبوبه فلم يُرْمِ انتقالاً، وقيل: بل هي مأخوذة من القَلَق والاضطراب، ومنه سُمِّيَ القُرْطُ حَبًّا لَقَلَقَهُ في الأذن واضطرابه، قال الشاعر^(٢):

تبيت الحَيَّة النضناض^(٣) منه مكان الحَبِّ تستمع السَّراراً
وقيل: بل هي مأخوذة من الحَبِّ جمع حَبَّة، وهو لباب الشيء وخالصة وأصله، فإن الحَبَّ أصل النبات والشجر، وقيل: بل هي مأخوذة من الحُبِّ الذي هو إناء واسع يوضع فيه الشيء فيمتلئ به بحيث لا يَسَعُ غيره، وكذلك قلب المحب ليس فيه سَعَةٌ لغير محبوبه، وقيل: مأخوذة من الحُبِّ وهو الخشبات الأربع التي يستقر عليها ما يوضع عليها من جَرَّةٍ أو غيرها فسمي الحب بذلك لأن المحب يتحمل لأجل محبوبه الأثقال، كما تتحمل الخَشَبَات ثِقْلَ ما يوضع عليها، وقيل: بل هي مأخوذة من حَبَّة القلب وهي سُودَاؤُهُ، ويقال: ثمرته، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حَبَّة القلب، وذلك قريب من قولهم: ظَهَرَ إذا أصاب ظَهْرُهُ، وَرَأَسَهُ إذا أصاب رَأْسَهُ، ورَأَهُ إذا أصاب رِئْتَهُ، وَبَطَّنَهُ إذا أصاب بَطْنَهُ، ولكن في هذه الأفعال وصل أثرُ الفاعل إلى المفعول، وأما في المحبة فالأثر إنما وصل إلى المُحِبِّ. وبعدُ ففيه لغتان حَبٌّ وَأَحَبَّ قال الشاعر^(٤):

(١) هو أبو محمد الفقعسي.

(٢) هو الراعي النميري.

(٣) النضناض من الحيات: الذي لا يثبت في مكانه لشترته ونشاطه أو الذي يخرج لسانه ويحركه.

(٤) هو غيلان بن شجاع النهشلي.

أَحَبُّ أَبَا مَرُوانَ مِنْ أَجَلِ تَمَرِهِ^(١) وأَعْلَمُ أَنَّ الرِّفْقَ بِالْمَرءِ أَزْفَقُ
وَوَاللهُ لَوْلَا تَمَرُهُ مَا حَبَبْتُهُ وَلَا كَانَ أَدْنَى مِنْ عُيَيْدٍ وَتُشْرِقِ
كَذَلِكَ أَنشده الجوهري بالإقواء^(٢) فجمع بين اللغتين، ولكن في جانب الفعل واسم
الفاعل غلبوا الرباعي فقالوا: أَحَبَّهُ يَحِبُّهُ فهو مُحِبٌّ، وفي المفعول غلبوا فَعَلَ فقالوا في
الأكثر محبوبٌ ولم يقولوا: مُحَبٌّ إِلَّا نَادراً؛ قال الشاعر^(٣):

وَلَقَدْ نَزَلَتْ فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ مَنِي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ
فهذا من أفعال، وأما حبيب فأكثر استعمالهم له بمعنى المحبوب؛ قال الشاعر:
وَمَا زَرْتُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ حَبِيبَةً إِلَيَّ وَلَا دَيْنُ أَتَا طَالِبِهِ
وقد استعملوه بمعنى المحب، قال الشاعر:

وَمَا هَجَرْتُكَ النَّفْسُ أَنْكَ عِنْدَهَا قَلِيلٌ وَلَا أَنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيْهُهَا
وَلَكِنْهُمْ يَا أَحْسَنَ النَّاسِ أَوْلَعُوا بِقَوْلِ إِذَا مَا جِئْتَ هَذَا حَبِيبُهَا
فهذا يحتمل أن يكون بمعنى المحبوب وأن يكون بمعنى المُحِبِّ، وأما الحُبُّ
بكسر الحاء فلغة في الحُبِّ وغالب استعماله بمعنى المحبوب قال في الصحاح: الحُبُّ
المحبة وكذلك الحُبُّ بالكسر. والحُبُّ أيضاً الحبيب مثل خِذْنِ وَخَذِينِ. قلت: وهذا
نظير ذَنَحَ بمعنى مذبوح، ونَهَبَ بمعنى منهوب، ورَشَقَ بمعنى مرشوق، ومنه السب
ويشترك فيه الفاعل والمفعول، قال أبو عبيد: السَّبُّ بالكسر الكثير السَّبَابِ، قال
الجوهري: وَسِبُّكَ الَّذِي يُسَابُّكَ، قال حسان:

لَا تَسْبِئَنَّيْ فَلَستَ بِسَبِّئِي إِنْ سَبَّيْ مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ
والصواب أنه عبد الرحمن بن حسان. وقد يشترك فيه المصدر والمفعول نحو
رَزَقَ. وفي إعطائهم ضمة الحاء للمصدر سرٌّ لطيف، فإن الكسرة أخفُّ من الضمة،
والمحبوب أخفُّ على قلوبهم من نفس الحُبِّ، فأعطوا الحركة الخفيفة للأخف، والثقيلة
للاثقل، ويقال: أَحَبُّهُ حُبًّا وَمَحَبَّةً والمحبة أُمُّ بَابِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ.

فصل: وأما كلام الناس في حدها فكثير، فقليل: هي الميل الدائم، بالقلب الهائم.
وقيل: إيثار المحبوب، على جميع المصحوب. وقيل: موافقة الحبيب، في المشهد
والمغيب. وقيل: اتِّحَادُ مُرَادِ الْمُحِبِّ وَمُرَادِ الْمُحَبُّوبِ. وقيل: إيثار مراد المحبوب على

(١) في الصحاح: «ثمره».

(٢) الإقواء: اختلاف حركة الروي.

(٣) هو عنتره بن شداد.

مراد المحب. وقيل: إقامة الخدمة مع القيام بالحُرمة. وقيل: استقلال الكثير منك لمحبيك، واستكثار القليل منه إليك. وقيل: استيلاء ذكر المحبوب على قلب المحب. وقيل: حقيقتها أن تَهَبَ كُلُّكَ لمن أحببته، فلا يبقى لك منك شيء. وقيل: هي أن تمحو من قلبك ما سوى المحبوب، وقيل: هي الغيرة للمحبوب أن تُتَقَصَّ حُرْمَتُهُ، والغيرة على القلب أن يكون فيه سواه. وقيل: هي الإرادة التي لا تنقص بالجفاء، ولا تزيد بالبر. وقيل: هي حفظ الحدود، فليس بصادق من ادَّعى محبة من لم يحفظ حدوده. وقيل: هي قيامك لمحبيك بكل ما يحبه منك. وقيل: هي مُجَانَبَةُ السُّلُوِّ عَلَى كل حال كما قيل:

ومن كان من طول الهوى ذاق سَلْوَةً فإني من ليلى لها غير ذائق
وأكثر شيء نلتُهُ من وصالها أمانِي لم تصدُق كَلَمَعَةَ بارق
وقيل: نارٌ تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب. وقيل: ذكر المحبوب على عدد الأنفاس كما قيل:

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نَسِيَانُكُمْ وَتَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى الثَّاقِلِ^(١)

وقيل: عَمَى القلب عن رؤية غير المحبوب، وصَمَّمَهُ عن سَمَاعِ العذل فيه، وفي الحديث: «حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيَصِمُ»^(٢) رواه الإمام أحمد. وقيل: ميلك إلى المحبوب بكُلِّيَّتِكَ، ثم إثارك له عَلَى نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبه، وقيل: هي بَذْلُكَ المجهود فيما يرضي الحبيب. وقيل: هي سكونٌ بلا اضطراب، واضطرابٌ بلا سكون، فيضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه، فيضطرب شوقاً إليه ويسكن عنده. وهذا معنى قول بعضهم: هي حركة القلب على الدوام إلى المحبوب وسكونه عنده، وقيل: هي مصاحبة المحبوب على الدوام كما قيل:

ومن عَجَبَ أَنِّي أَحِنَ إِلَيْهِمْ وأسأل عنهم من لَقِيتُ وهم معي
وتطلبُهُم عيني وهم في سوادها ويشتاقُهُم قلبي وهم بين أضلعي

وقيل: هي أن يكون المحبوب أقرب إلى المحب من رُوحه كما قيل:

يا مقيماً في خاطير وجَنَانِي وبعيداً عن ناظري وعِيَانِي
أنتَ روحي إن كُنْتُ لَسْتُ أراها فهي أدنى إِلَيَّ من كلِّ دَانِي

(١) البيت للمتنبي.

(٢) أخرجه من حديث أبي الدرداء: أحمد في المسند (٩٤/٥) و (٤٥٠/٦) وأبو داود في الأدب باب

وقيل: هي حضور المحبوب عند المحب دائماً كما قيل:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب؟

وقيل: هي أن يستوي قرب دار المحبوب وبعدها عند المحب كما قيل:

يا ثاويًا بين الجوانح والحشى مني وإن بُعدت عليّ دياره
عطفاً على صبّ بحبك هائم إن لم تصله تصدّعت أغشاه^(١)
لا يستفيق من الغرام وكلماً حجبوك عنه تهتكّت أستاره

وقيل: هي ثبات القلب على أحكام الغرام واستلذاذ العدل فيه والملام كما قيل^(٢):

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخراً عنه ولا متقدماً
وأهتني فأهنت نفسي جاهداً ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيدة حباً لذكرك فليكنني اللوم

فصل: وأما العلاقة وتسمّى العلق بوزن الفلق فهي من أسمائها قال الجوهري:
والعلق أيضاً الهوى يقال: نظرة من ذي علق، قال الشاعر^(٣):

ولقد أردت الصبر عنك فعاقني علق بقلبي من هواك قديم
وقد علقها بالكسر وعلق حبها بقلبه، أي هويها وعلق بها علوقاً، وسميت علاقة
لتعلق القلب بالمحبوب، قال الشاعر^(٤):

أعلاقة أم الوليد بعدما أفنان رأسك كالثغام المخلص^(٥)

فصل: وأما الهوى فهو ميل النفس إلى الشيء، وفعله هوى يهوى هوى، مثل عمي
يعمى عمى. وأما هوى يهوى بالفتح فهو السقوط، ومصدره الهوي بالضم، ويقال الهوى
أيضاً على نفس المحبوب، قال الشاعر:

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
ويقال: هذا هوى فلان^(٦) وفلانة هواه، أي مهويته ومحبوبته، وأكثر ما يستعمل في

(١) الأعشار: جمع عشر، القطعة من كل شيء.

(٣) هو ابن الدمينه.

(٢) الأبيات لأبي الشيص.

(٤) هو المزار الفقسي.

(٥) الثغام بالفتح: نبت يكون في الجبل يبيض إذا يبس ويشبه به الشيب، والمخلص: الذي خالط سواده البياض.

(٦) كذا... ولعل الصواب: هوى فلانة.

الحب المذموم كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ويقال: إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه. وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالاً مقيّداً. ومنه قول النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»^(١) وفي الصحيحين عن عروة قال: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة رضي الله عنها: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١] قلت يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. وفي قصة أسارى بدر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه ولم يهوَ ما قلت، وذكر الحديث^(٢). وفي السنن أنَّ أعرابياً قال للنبي ﷺ: جئت أسألك عن الهوى فقال: «المرء مع من أحب»^(٣).

فصل: وأما الصبوة والصبأ فمن أسمائها أيضاً قال في الصحاح: والصبأ من الشوق يقال منه: تصابي وصبأ يصبو صبوةً وصبوًا، أي مال إلى الجهل، وأصبته الجارية وصبي صبأ مثل سمع سماعاً، أي لعب مع الصبيان. قلت: أصل الكلمة من الميل يقال: صبا إلى كذا، أي مال إليه، وسُميت الصبوة بذلك لميل صاحبها إلى المرأة الصبيّة والجمع صبايا مثل مطيّة ومطايا، والتصابي هو تعاطي الصبوة مثل التمايل وبابه. والفرق بين الصبأ والصبوة والتصابي أن التصابي هي تعاطي الصبأ وأن تفعل فعل ذي الصبوة. وأما الصبأ فهو نفس الميل. وأما الصبوة فالمرّة من ذلك مثل الغشوة والكبوة، وقد يقال على الصفة اللازمة مثل القسوة. وقد قال يوسف الصديق عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

فصل: وأما الصبابة فقال في الصحاح: هي رقة الشوق وحرارته، يقال: رجل صبأ عاشقٌ مشتاق، وقد صَبِيتَ يَا رَجُلُ بالكسر، قال الشاعر^(٤):

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (٢١٣/١) والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٦٧) وابن أبي عاصم في السنة (١٢/١) والمتقي الهندي في كنز العمال (١٠٨٤) وابن حجر في فتح الباري (٢٨٩/١٣). والخطيب في تاريخ بغداد (٣٦٩/٤).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٥٨، وأحمد في المسند (٣١/١، ٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٦. ومسلم في البرّ حديث ١٦٥. والترمذي في الزهد باب ٥٠، والدعوات باب ٩٨. والدارمي في الرقاق باب ٧١. وأحمد في المسند (٣٩٢/١ و ٣/١٠٤، ١١٠، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٨٨، ٢٣٦، ٣٩٤، و ١٠٧/٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٥).

(٤) هو الكميّ.

ولست تَصَبُّ إلى الظاعنين إذا ما صديقك لم يَضَبْ
قلت: والصَّابَةُ من المضاعف من صَبَّ يَصَبُّ، وَالصَّابَةُ وَالصَّبُوةُ من المعتلِّ، وهم
كثيراً ما يعاقبون بينهما، فبينهما تناسُبٌ لفظي ومعنوي، قال الشاعر:

تَشْكِي الْمُحِبُّونَ الصَّابَةَ لِيَتَنِي تحمَّلت ما يلقَوْنَ من بينهم وحدي
ويقال: رجلٌ صَبٌّ وامرأةٌ صَبٌّ كما يقال: رجلٌ عَذْلٌ وامرأةٌ عَذْلٌ.

فصل: وأما الشَّعْفُ فمن أسمائها أيضاً: قال الله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾
[يوسف: ٣٠] قال الجوهري وغيره: والشَّغاف غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب
يقال: شَغَفَ الحب، أي بلغ شَغَافَهُ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾
[يوسف: ٣٠] ثم قال: دخل حُبُّهُ تحت الشَّغَافِ.

فصل: وأما الشَّعْفُ بالعين المهملة ففي الصحاح شَعَفَهُ الْحُبُّ، أي أحرَق قلبه،
وقال أبو زيد: أمرضه، وقد شَعِفَ بكذا فهو مشعوفٌ، وقرأ الحسن ﴿قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا﴾
قال: بطنها حُبًّا.

فصل: وأما المِقَّةُ فهي فعلة من وَمَقَّ يَمَقُّ، وَالْمِقَّةُ المحبة والهَاءُ عوضٌ من الواو
كَالِغِظَةِ وَالْعِدَّةِ وَالزَّئِنَةِ، فإن أصلها فعل فحذفوا الفاء فعوضوا منها تاء التأنيث جبراً للكلمة
وتعويضاً لما سقط منها، والفعل وَمَقَّ يَمَقُّه بالكسر فيهما، أي أَحَبَّهُ فهو وامق.

فصل: وأما الْوَجْدُ فهو الحب الذي يتبعه الحزن، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ الْوَجْدُ في
الحزن، يقال منه: وَجَدَ وَجْدًا بِالْفَتْحِ، ونحن نذكر هذه المادة وتصاريدها، يقال: وَجَدَ
مطلوبه يَجِدُهُ وَجُودًا، فإن تعلَّقَ ذلك بالضَّالَّةِ سَمَّوْهُ وَجْدَانًا، وَوَجَدَ عليه في الغضب
مَوْجِدَةً، وَوَجَدَ في الحزن وَجْدًا بِالْفَتْحِ، وَوَجَدَ في المال، أي صار واجداً وَجْدًا وَوَجْدًا
وَوَجْدًا بِالْفَتْحِ والضم والكسر وَجِدَةً إذا استغنى، وأما إطلاق اسم الْوَجْدِ عَلَى مجرد
مطلق المحبة فغير معروف، وإنما يطلق على محبةٍ معها فقد يوجب الحزن.

فصل: وأما الْكَلْفُ فهو من أسماء الحب أيضاً، يقال: كَلِفْتُ بهذا الأمر أي أولعت
به فأنا كَلِفْتُ به، قال الشاعر:

فَتَعَلَّمَنِي أَنْ قَدْ كَلِفْتُ بِكُمْ ثُمَّ اصْنَعِي مَا شِئْتَ عَنْ عِلْمِ
وأصل اللفظة من الْكُلْفَةِ والمَشَقَّةِ، يقال: كَلَّفَهُ تَكْلِيفًا إذا أمره بما يشقُّ. قال الله
تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ومنه تَكَلَّفَتِ الْأُمْرُ تَجَشَّمَتِ،
وَالْكُلْفَةُ مَا يَتَكَلَّفُ مِنْ نَائِبَةٍ أَوْ حَقٍّ. وَالتَّكَلَّفُ الْمُتَعَرِّضُ لِمَا لَا يَعْنيه، قال الله تعالى:
﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] وقيل: هو مأخوذٌ من

الأثر وهو شيءٌ يعلو الوجه كالسَّمْسِم. والكَلَف أيضاً: لونٌ بين السواد والحُمرة وهي حُمْرةٌ كدرةٌ تعلو الوجه، والاسم الكُلْفَةُ.

فصل: وأما التَّيِّم فهو التَّعَبُّد، قال في الصحاح: تَيَّمُ الله أي عبد الله، وأصله من قولهم: تَيَّمَهُ الحب إذا عَبَدَهُ وذلكهُ فهو متيم، ويقال: تامته المرأة، قال لَقَيْطُ بْنُ زُرَّارَةَ:

تَامَتْ فِرَادُكَ لَوْ يَحْزُنُكَ مَا صَنَعْتُ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي ذُهَلٍ بِنِ شَيْبَانَا

فصل: وأما العشق فهو أمرٌ هذه الأسماء وأخبرها، وقُلَّ ما وَلَعَتْ به العرب، وكأنهم سترُوا اسمه وكنُوا عنه بهذه الأسماء فلم يكادوا يُفَصِّحُوا به، ولا تكاد تجده في شعرهم القديم، وإنما أُولِعَ به المتأخرون، ولم يقع هذا اللفظ في القرآن ولا في السنة إلا في حديث سُويْدِ بْنِ سَعِيدٍ^(١) وستكلم عليه إن شاء الله تعالى. وبعد فقد استعملوه في كلامهم، قال الشاعر:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
نعم صدق الواشون أنتِ حبيبةٌ إليَّ وإن لم تَصِفْ منكِ الخلائق

قال في الصحاح: العِشْقُ فَرْطُ الحب، وقد عَشِقَهَا عِشْقاً مثل علم عِلماً وَعَشَقاً أيضاً عن الفراء، قال رؤبة:

ولم يُضَعِّفْها بَيْنَ فِرْكَ^(٢) وَعَشَقْ

قال ابن السراج: إنما حرَّكه ضرورةً وإنما لم يحركه بالكسر إتباعاً للعين كأنه كره الجمع بين كسرتين فإن هذا عزيزٌ في الأسماء، ورجلٌ عِشِيقٌ مثل فِشِيق، أي كثير العشق، والتَّعَشَّقُ تَكَلَّفُ العشق قال الفراء: يقولون امرأةٌ محبٌّ لزوجها وعاشق. وقال ابن سيده: العشق عجب المحب بالمحبوب يكون في عفاف الحب ودعارته، يعني في العفة والفجور. وقيل: العِشْقُ الاسم والعِشْقُ المصدر، وقيل: هو مأخوذ من شجرة يقال لها: عاشقة^(٣) تخضَّرَ ثم تَدَقُّ وتصفَّرُ، قال الزَّجَّاج واشتقاق العاشق من ذلك، وقال الفراء: عَشِقَ عِشْقاً وَعَشَقاً إذا أفرط في الحب، والعاشق الفاعل، والمعشوق المفعول، والعِشِيقُ يقال لهذا ولهذا، وامرأةٌ عاشقٌ وعاشقةٌ قال^(٤):

وَلَذَّ كَطْعَمِ الصَّرْخَدِيِّ طَرَحْتُهُ عَشِيَّةَ خِمْسِ الْقَوْمِ وَالْعَيْنُ عَاشِقَةٌ^(٥)

(١) هو حديث: «من عشق ففكتم فمات فهو شهيد».

(٢) فرك: بغض وكره.

(٣) كذا.. والذي في كتب اللغة عشقة بفتحتين وستأتي قريباً.

(٤) هو الراعي النميري.

(٥) في اللسان: صرخد: موضع نسب إليه الشراب في قول الراعي. والخمس: من أظماء الإبل أن ترد=

وقال الفراء: العشق نبتٌ لَزَجٌ، وسُمِّيَ العشق الذي يكون من الإنسان لِلصَّوْقَةِ بالقلب. وقال ابن الأعرابي: العَشَقَةُ اللبلاية تخضِرُ وتصفِرُ وتعلق بالذي يليها من الأشجار، فاشتقَّ من ذلك العاشق. وقد اختلف الناس هل يُطْلَقُ هذا الاسم في حقِّ الله تعالى؟ فقالت طائفةٌ من الصوفية: لا بأس بإطلاقه، وذكروا فيه أثراً لا يثبت، وفيه: فإذا فعل ذلك عشقني وعشقتي، وقال جمهور الناس: لا يُطْلَقُ ذلك في حقه سبحانه وتعالى، فلا يقال إنه يعشق، ولا يقال عشقه عبده، ثم اختلفوا في سبب المنع على ثلاثة أقوال، أحدها: عدم التوقيف بخلاف المحبة. الثاني: أن العشق إفراط المحبة، ولا يمكن ذلك في حق الرب تعالى، فإن الله تعالى لا يوصف بالإفراط في الشيء، ولا يبلغ عبده ما يستحقه من حبه فضلاً أن يقال أفرط في حبه. الثالث: أنه مأخوذ من التغيُّر كما يقال للشجرة المذكورة عاشقة^(١)، ولا يطلق ذلك على الله سبحانه وتعالى.

فصل: وأما الجَوَى ففي الصحاح: الجوى: الحُرْقَةُ وشدة الوجد من عشق أو حُزْن، تقول منه: جَوِيَ الرجل بالكسر فهو جَوٍ مثل دَوٍ، ومنه قيل للماء المتغير المُتَن: جَوٍ، قال الشاعر^(٢):

ثم كان المزاجُ ماءً سحابٍ لا جَوٍ آجِنٌ^(٣) ولا مطروقٌ

فصل: وأما الدَّنَفُ فلا تكاد تستعمله العرب في الحب، وإنما وَلَع به المتأخرون، وإنما استعملته العرب في المرض. قال في الصحاح: الدَّنَفُ بالتحريك المرض الملازم، رجل دَنَفٌ أيضاً يعني بفتح النون وامراً دنف وقومٌ دَنَفٌ، يستوي فيه المذكر والمؤنث والثنية والجمع، فإن قلت: رجل دَنَفٌ بكسر النون قلت: امرأةٌ دَنَفَةٌ أنثى وثنية وجمعت، وقد دَنَفَ المريضُ بالكسر ثقل وأدْنَفَ بالالف مثله، وأدنفه المرضُ يتعدى ولا يتعدى فهو مُدْنَفٌ ومُدْنَفٌ. قلت: وكأنهم استعاروا هذا الاسم للحب اللازم تشبيهاً له والله أعلم.

فصل: وأما الشَّجْوُ فهو حبٌّ يتبعه همٌّ وحزن. قال في الصحاح: الشَّجْوُ: الهمُّ والحُزْن، يقال: شَجَاهُ يَشْجُوهُ شَجْواً: إذا أحزنه، وأشجاه يُشْجِيهِ إشْجاءً: إذا أغصه. تقول منهما جميعاً: شَجِيَ بالكسر يَشْجِي شَجى قال الشاعر^(٤):

= الإبل الماء في اليوم الخامس من ورودها السابق. وقوله: ولد، يريد نوم لذيذ، والهاء في عاشقة تعود على النوم وذكر العين على معنى الطرف.

(١) الصواب عَشَقَةٌ.

(٣) آجن الماء: تغير طعمه ولونه ورائحته.

(٢) هو عدي بن زيد.

(٤) هو المسيب بن زيد مناة.

لا تنكروا القتل وقد سُيِّنَا في حلقكم عظمٌ وقد شَجِينَا
أراد حلوقكم، والشَّجَى ما يَنْشَبُ في الحلق من عظمٍ أو غيره، ورجلٌ شَجٍ، أي
حزينٌ وامرأةٌ شَجِيَّةٌ على فَعِلَةٍ. فأُطلق هذا الاسم على الحبِّ للزومه كالشَّجَى الذي يعلق
بالحلق ويَنْشَبُ فيه.

فصل: وأما الشوق فهو سفر القلب إلى المحبوب، وقد وقع هذا الاسم في السنة،
ففي المسند من حديث عَمَّار بن ياسر أنه صلى صلاةً فأوجز فيها، فقيل له: أوجزت يا أبا
اليقظان، فقال: لقد دعوت فيها بدَعَوَاتٍ سمعتُهن من رسول الله ﷺ يدعو بهنَّ: اللهم
بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أُخْبِنِي إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت
الوفاة خيراً لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب
والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفَدُ، وأسألك قرّة عينٍ لا
تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر
إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضِرَاءٍ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ، اللهم زيننا بزينة
الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين. وجاء في أثرٍ إسرائيلي: طال شوق الأبرار إلى لقائي،
وأنا إلى لقائهم أشوق. وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾
[العنكبوت: 5]. قال بعض العارفين: لما علم الله شوق المحبين إلى لقائه ضرب لهم
موعداً للقاء تسكن به قلوبهم. وبعد فهذه اللفظة من أسماء الحب، قال في الصحاح:
الشوق والاشتياق: نزاع النفس إلى الشيء، يقال: شاقني الشيء يَشُوقُنِي فهو شائق وأنا
مَشُوقٌ وشَوْقُنِي فتَشَوَّقْتُ: إذا هَيَّجَ شوقك، قال الراجز:

يا دارَ مَيَّةٍ بالدكا ديك البُرْقُ^(١) سَقِيّاً لقد هَيَّجَتِ شوق المُشْتَأَقِ
يريد المشتاق قال سيويه: هَمَزَ ما ليس بمهموزٍ ضرورةً.

فصل: واختلَفَ في الفرق بين الشوق والاشتياق أَيْهَمَا أقوى، فقالت طائفة:
الشوق أقوى فإنه صفةٌ لازمة، والاشتياق فيه نوع افتعالٍ كما يدلُّ عليه بناؤه كالاكتساب
ونحوه، وقالت فرقة: الاشتياق أقوى لكثرة حروفه، وكلما قوي المعنى وزاد زادوا
حروفه. وحكمت فرقةً ثالثةً بين القولين، وقالت: الاشتياق يكون إلى غائب، وأما
الشوق فإنه يكون للحاضر والغائب. والصواب أن يقال: الشوق مصدر شاقه يَشُوقُهُ إذا
دعاه إلى الاشتياق إليه، فالشوق داعية الاشتياق ومبدؤه، والاشتياق مُوجبه وغايته، فإنه

(١) في الصحاح «يا دار مَيَّةٍ» قال: والدكداك من الرمل: ما تلبد منه بالأرض ولم يرتفع والجمع الدكداك
والدكدايك. والبرقة بالضم: غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة والجمع برق.

يقال: شاقني فاشتقت، فلاشتياق فعلٌ مطاوع لشاقني. واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد؟ فقالت طائفة: يزول، فإن الشوق سفر القلب إلى المحبوب، فإذا وصل إليه انتهى السفر.

وألقت عصاها واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عَيْنًا بالإياب المسافر^(١)
قالوا: ولأن الشوق إنما يكون لغائب فلا معنى له مع الحضور، ولهذا إنما يقال للغائب: أنا إليك مشتاق وأما من لم يزل حاضراً مع المحب فلا يوصف بالشوق إليه. وقالت طائفة: بل يزيد بالقرب واللقاء واستدلوا بقول الشاعر:

وأعظم ما يكونُ الشوق يوماً إذا دَنَّتِ الخيامُ من الخيام
قالوا: ولأن الشوق هو حُرقة المحبة والتهابُ نارها في قلب المحب، وذلك مما يزيده للقرب والمواصلة. والصواب أن الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة غير النوع الذي كان عند الغيبة عن المحب، قال ابن الرومي:

أعانقُها والنفْسُ بعدُ مُشَوِّقَةٌ إليها وهل بعد العناق تداني
وألثمُ فاها كي تزولَ صبابتي فيشتدُّ ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدارُ الذي بي من الجوى ليشفيَه ما ترشَّفُ الشفتان
كان فؤادي ليس يشفي غليلَه سوى أن يرى الروحين تمتزجان

فصل: وأما الخلابة فهي الحب الخادع، وهو الحب الذي وصل إلى الخلب وهو الحجاب الذي بين القلب وسواد البطن. وسمي الحب خلابةً لأنه يخدع أنباب أربابه، والخلابة: الخديعة باللسان، يقال: خلِبُهُ يَخْلِبُهُ بالضم واختلبه مثله. وفي المثل: إذا لم تغلب فاخْلُب، أي فاخدع. والخلبة: الخداعة من النساء قال الشاعر^(٢):

أودى الشبابُ وحُبُّ الخالة^(٣) الخلبة وقد برئتُ فما بالقلب من قلبه^(٤)
قال ابن السكيت: رجلٌ خلّاب، أي خدّاعٌ كذاب، ومنه البرق الخلب الذي لا غيث فيه كأنه خادع، ومنه قيل لمن يعد ولا يُنجز: إنما أنت برق خلّب. والخلّب أيضاً:

(١) البيت لمعقر بن حمار البارقى.

(٢) هو النمر بن تولب.

(٣) في الصحاح: امرأة خالة، أي مختالة، وقوم خالة، أي مختالون، ويروى الخلبة أيضاً بفتح اللام على أنه جمع وهم الذي يخدعون النساء.

(٤) أي برئت من داء الحب ولم يعد بالقلب علة.

السحاب الذي لا مطر فيه، ومنه الحديث: «إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ لَا خِلَابَةَ»^(١) أي لا خديعة. والحب أحق ما يُسمَى بهذا الاسم، لأنه يُعْمَى وَيُصَمِّمُ، ويخدع لُبَّ المحب وقلبه.

فصل: وأما البلابل فجمع بَلْبَلَةٍ، يقال: بلابل الحب وبلابل الشوق، وهي وساوسه وهمه. قال في الصحاح: الْبَلْبَلَةُ وَالْبَلْبَالُ: الهمَّ وَوَسْوَاسُ الصدر.

فصل: وأما التباريح فيقال: تباريح الحب، وتباريح الشوق، وتباريح الجوى. ويرج به الحب والشوق: إذا أصابه منه البرح وهو الشدة. قال في الصحاح: لقيت منه بَرْحاً بارحاً، أي شدة وأذى، قال الشاعر:

أَجِدُّ هَذَا عَمَرَكَ اللهُ كَلَمَا دَعَاكَ الْهَوَى بَرْحُ لَعِينِكَ بَارِحُ

ولقيت منه بنات بَرْحٍ وبني بَرْحٍ، ولقيت منه البرحين والبرحين، بكسر الباء وضمها، أي الشدائد والدواهي.

فصل: وأما السَّدَمُ بالتحريك فهو الحب الذي يتبعه ندمٌ وحزن. قال في الصحاح: السَّدَمُ بالتحريك: النَّدَمُ وَالْحُزْنُ وَقَدْ سَدِمَ بالكسر، ورجلٌ نَادِمٌ سَادِمٌ وَنَدَمَانٌ سَدَمَانٌ، وهو إِتْبَاعٌ، وما له همٌّ ولا سَدَمٌ إلا ذاك.

فصل: وأما الغَمَرَاتُ فهي جمع غَمْرَةٍ، والغَمْرَةُ ما يَغْمُرُ القلبَ من حبٍّ أو سكرٍ أو غفلة. قال الله تعالى: ﴿قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]، [١١]. ومنه الماء الغمر الكثير الذي يغطي من دخل فيه، ومنه غَمَرَاتُ الموت، أي شدائده، وكذلك غَمَرَاتُ الحبِّ، وهو ما يغطي قلب المحب فيَغْمُرُهُ، ومنه قولهم: رجلٌ غَمُرُ الرَّدَاءِ، كناية عن السخاء، لأنه يَغْمُرُ العيوب، أي يغطيها فلا يظهر مع السخاء عيب. قال كُثَيْرٌ:

غَمُرُ الرَّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً غَلِقَتْ لَصَحْكُتِهِ رِقَابُ الْمَالِ

وقال القطامي يصف سفينة نوح:

إِلَى الْجُودِيِّ حَتَّى صَارَ حِجْرًا وَكَانَ لَذَلِكَ الْغَمُرُ انْحِسَارُ

أي لذلك الماء الذي غمر الأرض ومن عليها.

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب ٤٨، والاستقراض باب ١٩، والخصومات باب ٣، والحيل باب ٧. ومسلم في البيوع باب ٤٨. وأبو داود في البيوع باب ٦٦. والترمذي في البيوع باب ٢٨. والنسائي في البيوع باب ٥١. ومالك في البيوع حديث ٩٨. وأحمد في المسند (٨٠/٢)، ١٢٩، ١٣٠.

فصل: وأما الوَهْل فهو بتحريك الهاء وأصله الفَزَع والرَّوع، يقال: وَهَلَ يُوْهَلُ وهو وَهْلٌ وَمُسْتَوْهَلٌ. قال القُطَامِيّ يصف إبلاً:

وترى لجِيضَتِهِنَّ^(١) عند رحيلنا وَهَلًا كَأَن بَهَنَ جِنَّةً أَوْلَقِ^(٢)

وإنما كان الوَهْل من أسماء الحب لما فيه من الرَّوع، ومنه يقال: جمالٌ رائع. فإن قيل: ما سبب رَوْعة الجمال ولأي شيء إذا رأى المحبُّ محبوبَهُ فجأةً يرتاع لذلك ويصفرُّ لونه وَيُبْهَتُ. قال الشاعر:

وما هو إلا أن أراها فُجَاءَةً فَأُبْهَتَ حَتَّى لَا أَكَادُ أُجِيبُ

وكثيرٌ من الناس يرى محبوبه فيصفرُّ ويرتعد؟ قيل: هذا مما خفي سببه على أكثر المحبين فلا يدرون ما سببه، فقل سببه أن الجمال سلطانٌ على القلوب، وإذا بدا راع القلوب بسلطانه، كما يرُوعها الملك ونحوه ممن له سلطانٌ على الأبدان، فسلطان الجمال والمجبة على القلوب، وسلطان الملوك على الأبدان، فإذا كان السلطان الذي على الأبدان يَرُوع إذا بدا، فكيف بالسلطان الذي هو أعظم منه؟ قالوا: أيضاً فإن الجمال يَأْسِرُ القلب فيَحْسِنُ القلب بأنه أَسِيرٌ ولا بُدَّ لتلك الصورة التي بدت له، فيرتاع كما يرتاع الرجل إذا أَحْسَنَ بمن يَأْسِرُهُ، ولهذا إذا أَمِنَ الناظر من ذلك لم تَحْصُلْ له هذه الرَّوْعَة. قال الشاعر:

علامةٌ من كان الهَوَى بفؤاده إذا ما رأى محبوبَهُ يتغير

فصل: وأما الشَّجَن فهو من أسمائه، فإن الشَّجَن الحاجة حيث كانت، وحاجة المحب أشد شيء إلى محبوبه. قال الراجز:

إني سأبدي لك فيما أبدي لي شجنان شَجَنٌ يَنْجِدِ
وشجَنٌ لي ببلادِ السُّنْدِ

والجمع شجون. قال: والنفس شَتَّى شُجُونُهَا، ويجمع على أشجان. قال الشاعر:

تَحَمَّلْ أَضْحَابِي وَلَمْ يَجِدُوا وَجْدِي وَلِلنَّاسِ أَشْجَانٌ وَلِي شَجَنٌ وَحْدِي
وقد شَجَّنِي الْحَاجَةُ تَشَجَّنِي شَجْنًا: إذا حِسْتِكَ، ووجه آخر أيضاً وهو أن الشَّجَن الحُزْن والجمع أشجان، وقد شَجَنَ بالكسر فهو شاجِنٌ وأشجنه غيره وشَجَنَهُ، أي أحزنه، والحب فيه الأمران: هذا وهذا.

(١) قال في اللسان: وهو الروغان والعدول عن القصد، وأصل الجيض الميل عن الشيء.

(٢) الأولق: الجنون، وقيل: الخفة من النشاط كالجنون.

فصل: وأما اللعاج فهو اسم فاعل من قولهم: لَعَجَهُ الضربُ إذا ألمَّ وأحرق بجلده. قال الهذلي^(١):

ضرباً أليماً بِسَبْتٍ يَلْعُجُ الْجِلْدَا^(٢)

ويقال: هو لاعجٌ لحرقة الفؤاد من الحب.

فصل: وأما الاكتئاب فهو افتعالٌ من الكآبة، وهي سوء الحال والانكسار من الحزن، وقد كتب الرجلُ يكأبُ كآبةً وكآبةً كَرَأْفَةً وَرَأْفَةً ونشأةً ونشأةً فهو كئيْبٌ، وامرأةٌ كئيبة وكأباء أيضاً. قال الراجز^(٣):

أَوْ أَنْ تُرَى كَأْبَاءَ لَمْ تَبْرَنْشَقِي

واكتأب الرجلُ مثله، وَرَمَادٌ مُكْتَبِبٌ اللون: إذا ضرب إلى السواد كما يكون وجه الكئيْب، والكآبة تتولد من حصول الحب وفوت المحبوب فتحدثُ بينهما حالةٌ سيئة تسمى الكآبة.

فصل: وأما الوَصَبُ فهو ألمُ الحُبِّ ومرضه فإن أصل الوَصَبِ المرض، وقد وَصِبَ الرجلُ يَوْصَبُ فهو وَصِبٌ، وَأَوْصَبَهُ الله فهو مُوَصَّبٌ، وَالْمَوْصَبُ بالتشديد الكثير الأوجاع. وفي الحديث الصحيح: «لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ وَلَا وَصَبٍ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكِهَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(٤) وَوَصَبَ الشَّيْءُ يَصْبُ وَصُوباً إذا دام، تقول: وَصَبَ الرجلُ على الأمر إذا داوم عليه. قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصفات: ٩] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ [النحل: ٥٢] أي الطاعة دائمة.

فصل: وأما الحزن فقد عُدَّ من أسماء المحبة والصواب أنه ليس من أسمائها، وإنما هو حالة تحدث للمحب، وهي ورود المكروه عليه، وهو خلاف المسرة، ولما كان الحُب لا يخلو من ورود ما لا يسر على قلب المحب كان الحزن من لوازمه. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»^(٥)، فاستعاذ ﷺ من ثمانية

(١) في ياقوت: هو عبد مناف بن ربيع الجربي، وصدده:

* إذا تجرد نوح قامتا معه *

(٢) السبت بالكسر: كل جلد مدبوغ. يلعج: يؤلم ويحرق.

(٣) هو جندل بن المثنى الطهوي يخاطب ابنة أخيه. والمبرنشق: الفرع المسرور وقد ابرنشق.

(٤) أخرجه البخاري في المرضي باب ١. ومسلم في البر حديث ٥٢. والترمذي في الجنائز باب ١.

وأحمد في المسند (٣٠٣/٢)، ٣٣٥، و ٤/٣، ١٨، ٢٤، ٣٨، ٤٨، ٦١، (٨١).

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٧٤، والأطعمة باب ٢٨، والدعوات باب ٣٥ و ٤٠. وأبو داود في =

أشياء، كل شيئين منهما قرينان. فالهم والحزن قرينان، فإن ورود المكروه على القلب إن كان لما مضى فهو الحزن، وإن كان لما يستقبل فهو الهم، والعجز والكسل قرينان فإن تخلف العبد عن كماله إن كان من عدم القدرة فهو العجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل، والجبن والبخل قرينان، فإن الرجل يراد منه النفع بماله أو ببدنه، فالجبان لا ينفع ببدنه، والبخل لا ينفع بماله، وَضَلَعَ الدَّيْنُ وَغَلَبَتِ الرِّجَالُ قَرِينَانِ، فإن قهر الناس نوعان: نوعٌ بحقٌّ فهو ضَلَعَ الدَّيْنِ، ونوعٌ بباطلٍ فهو غَلَبَتِ الرِّجَالُ. وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة الخوف والحزن، فلا يحزنون على ما مضى، ولا يخافون مما يأتي، ولا يطيب العيش إلا بذلك، والحب يلزمه الخوف والحزن.

فصل: وأما الكَمَدُ فمن أحكام المحبة في الحقيقة وليس من أسمائها، ولكن المتكلمون في هذا الباب لا يفرقون بين اسم الشيء ولازمه وحكمه، والكَمَدُ الحزن المكتوم، تقول منه: كَمَدَ الرجل فهو كَمِدٌ وَكَمِيدٌ والكُمْدَةُ تَغْيِيرُ اللَّوْنِ وَأَكْمَدَ الْقَصَّارُ الثَّوبَ إِذَا لَمْ يُنْقَه.

فصل: وأما اللَّذَعُ فهو من أحكام المحبة أيضاً، وأصله من لَذَعَ النار. يقال: لَذَعَتْهُ النَّارُ لَذْعاً: أحرقتة، ثم شبهوا لَذَعَ اللسان بلَذَعَ النار، فقالوا: لَذَعَهُ بلسانه، أي أحرقه بكلامه، يقال: أعوذ بالله من لَوَازِعِهِ.

فصل: وأما الْحُرْقُ فهي أيضاً من عوارض الحُب وآثاره، وَالْحُرْقَةُ تكون من الحُب تارةً ومنه قولهم: ما لك حُرْقَةً عَلَى هذا الأمر، وتكون من الغيظ ومنه في الحديث: «تَرَكَتُهُمْ يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ».

فصل: وأما الشَّهْدُ فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها، فالشُّهَادُ: الْأَرَقُّ وقد سَهَدَ الرجل بالكسر يَسْهَدُ سَهْدًا، والشَّهْدُ بضم السين والهاء: القليل النوم. قال أبو كبير الهذلي:

فَأَتَتْ بِهِ حُوشَ الْجَنَانِ مُبْطِنًا سُهْدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الْهَوَجِلِ^(١)
وسهده أنا فهو مُسَهَّدٌ.

فصل: وأما الْأَرَقُّ فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها فإنه السهر، وقد أَرَقْتُ

= الوتر باب ٣٢. والنسائي في الاستعاذة باب ٨ و ٢٥ و ٤٥. والترمذي في الدعوات باب ٧٠. وأحمد في المسند (٢٢٦/٣).

(١) حوش الجنان، أي حديد الفؤاد. والمبطن: الضامر البطن. والهوجل: الرجل الأهوج.

بالكسر أي سهرت، وكذلك ائْتَرَفْتُ على افعلت فأنَا أَرِقُّ، وَأَرَقِي كذا تَأْرِيقًا، أي سهرني.

فصل: وأما اللَّهْفُ فمن أحكامها وآثارها أيضاً، يقال: لَهَفَ بالكسر يَلْهَفُ لَهْفًا أي حزن وتحسّر. وكذلك التَّلَهَفُ على الشيء. وقولهم: يَا لَهْفَ فلان كلمةٌ يَتَحَسَّرُ بها على ما فات، واللَّهْفَانُ المتحسّر، واللَّهْيَفُ المضطر.

فصل: وأما الحَنِينُ فقال في الصحاح: الحَنِينُ الشَّوْقُ وَتَوَقَّانُ النفس، تقول منه: حَنَّ إِلَيْهِ يَحِنُّ حَنِينًا فهو حَانٌّ، وَالْحَنَانُ الرحمة، تقول منه: حَنَّ عليه يَحِنُّ حَنَانًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٢] وَتَحَنَّنَ عليه تَرْحَمَ، والعرب تقول: حَنَانَكَ يَا رَبَّ وَحَنَانِيكَ بمعنى واحد، أي رحمتك، قال امرؤ القيس:

وَيَمْنَحُهَا بَنُو شَمْجَى بَن جَرَمٍ مَعِيزَهُم حَنَانَكَ ذَا الْحَنَانِ
وقال طرفة:

أَبَا مَنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضُنَا حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
وفي الحقيقة الحَنِينُ من آثار الحُبِّ ومُوجِبَاتِهِ، وحَنِينُ الناقَةِ صوتها في نِزَاعِهَا إِلَى وَلَدِهَا. وَحَنَّةُ الرَّجُلِ امْرَأَتُهُ. قال (١):

وَلَيْلَةَ ذَاتِ دُجْجَى سَرَرِيْتُ وَلَمْ تَضِرْ نِي حَنَّةٌ وَبَيَّتُ
قلت: سُمِّيَتْ حَنَّةً لِأَنَّ الرَّجُلَ يَحِنُّ إِلَيْهَا أَيْنَ كَانَ.

فصل: وأما الاستكانة فهي أيضاً من لوازم الحُبِّ وأحكامه، لا من أسمائه المختصة به، وأصلها الخضوع. قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٧] وقال تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦] وأصلها استفعل من الكون، وهذا الاشتقاق والتصريف يطابق اللفظ، وأما المعنى فالمستكين ساكنٌ خاشعٌ ضدَّ الطائش، ولكن لا يوافق السكون تصريف اللفظة فإنه إن كان افْتَعَلَ كان ينبغي أن يقال اسْتَكَنَ لأنه ليس في كلامهم افْتَعَالَ، والحق أنه اسْتَفْعَلَ من الكون ففعلوا حركة الواو إلى الكاف قبلها فتحركت الواو أصلاً وانفتح ما قبلها تقديرًا فقلبت ألفاً كاستقام، والكون الحالة التي فيها إنابةٌ وذَلٌّ وخضوع. وهذا يُخَمَدُ إذا كان لله، وَيَذُمُّ إذا كان لغيره، ومنه الحديث: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوَرِ بَعْدَ الْكُورِ» (٢) أي الرجوع عن الاستقامة بعدما كنت عليها.

(١) هو أبو محمد الفقعسي.

(٢) أخرجه مسلم في الحج حديث ٤٢٦. والترمذي في الدعوات باب ٤١. والنسائي في الاستعاذة باب

فصل: وأما التَّبالَة فهي فعالة من تَبَّلَه إذا أفناه. قال الجوهري: تَبَّلَهُم الدهر وأتَبَّلَهُم إذا أفناهم. قال الأعشى:

أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَضْرَبَهُ رَيْبُ الزَّمَانِ وَدَهْرٌ مُثِيلٌ خَيْلُ
أَي يَذْهَبُ بِالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَتَبَلَهُ الْحُبُّ، أَي أَسْقَمَهُ وَأَفْسَدَهُ. قلت: ومنه قول كعب
ابن زهير بن أبي سُلمى:

بَانَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَبُولٌ مَتَيْمٌ عِنْدَهَا لَمْ يُقَدْ مَكْبُولُ
فصل: وأما اللَّوْعة فقال في الصحاح: لَوْعَةُ الْحُبِّ حُرْقَتُهُ وَقَدْ لَاعَهُ الْحُبُّ يَلْوَعُهُ
وَالْتَّاعُ فُؤَادُهُ أَي احترق من الشوق، ومنه قولهم: أَتَانُ لَاعَةً الْفُؤَادِ إِلَى جَنْحِهَا. قال
الأصمعي: أَي لَاعَتُهُ الْفُؤَادُ وَهِيَ الَّتِي كَانَهَا وَلَهُى مِنَ الْفَرْعِ.

فصل: وأما الفتون فهو مصدر فَتَنَهُ يَفْتِنُهُ فُتُونًا، قال الله تعالى: ﴿وَفْتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] أَي امْتَحَنَّاكَ وَابْتَحَرْنَاكَ. وَالْفِتْنَةُ تَقَالُ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ، أَحَدُهَا: الْامْتِحَانُ
وَالِاخْتِبَارُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ٢٥٤] أَي امْتِحَانُكَ
وَاجْتِبَارُكَ. وَالثَّانِي: الْإِفْتِنَانُ نَفْسَهُ، يُقَالُ: هَذِهِ فِتْنَةُ فَلَانٍ، أَيِ افْتِنَانُهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] يُقَالُ: أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ
وَفَتَنَتُهُ الدُّنْيَا وَفَتْنَتِ الْمَرْأَةُ وَافْتَنَتْهُ. قَالَ الْأَعْشَى:

لَنْ فَتَنَّتْنِي لَهْيٌ بِالْأَمْسِ أَفْتَنْتَ سَعِيدًا فَأُضْحَى قَدْ قَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
وَأُنْكَرَ الْأَصْمَعِيُّ أَفْتَنَتْهُ. وَالثَّالِثُ: الْمَفْتُونُ بِهِ نَفْسُهُ يُسَمَّى فِتْنَةً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا
أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أَي لَمْ تَكُنْ عَاقِبَةُ شِرْكِهِمْ إِلَّا أَنْ تَبَرَّأُوا
مِنْهُ وَأَنْكَرُوهُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]
فَقِيلَ الْمَعْنَى يَحْرَقُونَ، وَمِنْهُ فَتَنَتِ الذَّهَبُ إِذَا أُدْخِلَتْهُ النَّارُ لَتَنْظَرُ مَا جُودَتْهُ
وَدِينَارٌ مَفْتُونٌ. قَالَ الْخَلِيلُ: وَالْفِتْنُ: الْإِحْرَاقُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ
يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] وَوَرَقٌ فِتِينٌ، أَي فَضَةٌ مُحَرَّقَةٌ. وَافْتَنَ الرَّجُلُ وَفُتِنَ: إِذَا أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ فَذَهَبَ مَالُهُ أَوْ عَقْلُهُ. وَفَتَنَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا وَلَّهَتْهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا
أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣] أَي لَا تَفْتَنُونَ
عَلَى عِبَادَتِهِ إِلَّا مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَصْلَى الْجَحِيمِ فَذَلِكَ الَّذِي يَفْتِنُ بِفِتْنَتِكَ إِيَّاهُ،

٤١ = ٤٢. وابن ماجه في الدعاء باب ٢٠. والدارمي في الاستئذان باب ٤٢. وأحمد في المسند
٨٣، ٨٢/٥).

وأما قوله تعالى: ﴿فَسْتَبْصِرْ وَتُبْصِرُونَ﴾ [القلم: ٥، ٦] فقول: الباء زائدة، وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور، والصواب أن يُبْصِرَ مُضَمَّنٌ معنى يَشْعُرُ ويعلم، قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء. وفي الحديث: «الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَسْعُهُمَا الْمَاءُ وَالشَّجَرُ وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْفُتْنَانِ»^(١) يروى بفتح الفاء وهو واحدٌ وبضمها وهو جمعٌ فاتنٍ كتابٍ وتُجَارٍ. والمقصود أن الحُب موضع الفتون فما فُتن من فتن إلا بالمحبة.

فصل: وأما الجنون فمن الحُب ما يكون جنوناً، ومنه قوله:

قالت جُنُنَتْ بمن تهوى فقلت لها العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبه وإنما يُضْرَعُ المجنونُ في الحين
وأصل المادة من السَّتر في جميع تصاريفها، ومنه أَجَنَّهُ الليل وجَنَّ عليه: إذا ستره، ومنه الْجَنِينُ لاستتاره في بطن أمه، ومنه الْجَنَّةُ لاستتارها بالأشجار، ومنه المِجَنُّ لاستتار الضارب به والمضروب، ومنه الْجَنِّ لاستتارهم عن العيون بخلاف الإنس فإنهم يُؤَنِّسُونَ أي يُروْن، ومنه الْجَنَّةُ بالضم وهي ما استترت به وآتقت، ومنه قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦، والمنافقون: ٢] وأجنت الميِّت: واريته في القبر فهو جَنِين. والحُب المفرط يستر العقل فلا يَعْقِلُ المحب ما ينفعه ويضره فهو شعبة من الجنون.

فصل: وأما اللَّمَمُ فهو طَرَفٌ من الجنون، ورجل ملمومٌ، أي به لَمَمٌ، ويقال أيضاً: أصابت فلاناً من الجنِّ لَمَةٌ وهو المس والشيء القليل قاله الجوهري. قلت: وأصل اللفظة من المقاربة، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] وهي الصغائر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رَأَيْتُ أشبه باللَّمَمِ مما قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن العين تزني وزناها النظر، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والفم يزني وزناه القُبْل. ومنه أَلَمَّ بكذا، أي قاربه ودنا منه، وغلامٌ مُلِمٌ، أي قارب البلوغ، وفي الحديث: «إِنَّ مِمَّا يُنْبِئُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبِطًا أَوْ يُلِمُ»^(٢)، أي يقرب من ذلك. وبالجملَة فلا يستبين كون اللَّمَمِ من أسماء الحب

(١) أخرجه أبو داود في الإمارة باب ٣٦. ونسبه السيوطي في الجامع الكبير إلى أبي داود والبيهقي والطبراني.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٣٧، والرقاق باب ٧. ومسلم في الزكاة حديث ١٢١. وابن ماجه في الفتن باب ١٨. وأحمد في المسند (٧/٣، ٢١، ٩١). ومعنى الحديث أن نبات الربيع وخضره =

وإن كان قد ذكره جماعة إلا أن يقال: إن المحبوب قد ألمَّ بقلب المحب، أي نزل به، ومنه أَلِمْنَا بنا، أي أنزل بنا، ومنه قوله:

مَتَى تَأْتِنَا تُلِمُّ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجِجَا

فصل: وأما الخَبْلُ فمن موجبات العشق وآثاره لا من أسمائه وإن ذكر من أسمائه فإن أصله الفساد وجمعه خُبُول، والخَبْل بالتحريك الجن، يقال به خَبْلٌ، أي شيء من أهل الأرض، وقد خَبَلَهُ وخَبَلَهُ واختَبَلَهُ: إذا أفسد عقله أو عضوه، ورجلٌ مُخَبِّلٌ وهو نوع من الجنون والفساد.

فصل: وأما الرَّسِيسُ فقد كثر في كلامهم رَسِيسُ الهوى والشوق ورَسِيسُ الحب، فظن من أدخله في أسماء الحب أنه منها وليس كذلك، بل الرَّسِيسُ الشيء الثابت، فرَسِيسُ الحب ثباته ودوامه، ويمكن أن يكون من رَسَّ الحُمَى ورَسِيسُها وهو أولُ مَسَّها، فشبهوا رَسِيسَ الحب بحرارته وحُرْقته برسيس الحُمَى، وكان الواجب على هؤلاء أن يجعلوا الأوار من أسماء الحب لأنه يضاف إليه، قال الشاعر^(١):

إِذَا وَجَدْتُ أَوَارَ الْحَبِّ فِي كَيْدِي أَقْبَلْتُ نَحْوَ سِقَاءِ الْقَوْمِ ابْتَرَدُ
هَبْنِي بَرَدْتُ بِبَرْدِ الْمَاءِ ظَاهِرَهُ فَمَنْ لِنَارٍ عَلَى الْأَحْشَاءِ تَتَقَدُّ

وقد وقع إضافة الرَّسِيسِ إلى الهوى في شعر ذي الرُّمة حيث يقول:

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكُنْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مِئَةِ يَسْرَحَ
وفيه إشكالٌ نحويٌّ ليس هذا موضعه.

فصل: وأما الداء المُخَامِرُ فهو من أوصافه وسُمي مُخَامِرًا لمخالطته القلب والروح يقال خامره، قال الجوهري: والمُخَامَرَةُ المخالطة، وخامر الرجل المكان إذا لزمه. وقد يكون أَخَذَ من قولهم: استخمر فلانٌ فلاناً إذا استعبده، وكأنَّ العشق داءٌ مستعبدٌ للعاشق، ومنه حديث معاذ: مَنْ اسْتَخَمَرَ قَوْمًا^(٢)، أي أخذهم قهراً وتملَّكَ عليهم، فالحبُّ داءٌ مُخَالِطٌ مُسْتَعْبِدٌ.

= يقتل حطباً بالتحمة لكثرة الأكل أو يقارب القتل، إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة وتحصل به الكفاية المقتصرة فإنه لا يضر. والحبط: التحمة، وهي امتلاء البطن وانتفاخه من الإفراط في الأكل.

(١) هو عروة بن أذينة.

(٢) ذكر الزمخشري في الفائق هذا الحديث وابن الأثير في النهاية وغيرهما من أصحاب اللغة.

فصل: وأما الودُّ فهو خالص الحبِّ وألطفه وأرقه، وهو من الحبِّ بمنزلة الرأفة من الرحمة، قال الجوهري: وَدَدْتُ الرجلَ أودُّهُ وُدًّا إذا أحببته. والودُّ والودَّ والمودَّة، تقول: بودِّي أن يكون كذا، وأما قول الشاعر:

أيها العائد المسائلُ عنا وبودِّيك أن ترى أكفاني

فإنما أشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء. والودُّ الوديد بمعنى المودود والجمع أودُّ مثل قذح وأقذح وذئب وأذؤب، وهما يتوآدان وهم أوداء، والودود المحب، ورجالٌ وُدَّاء يستوي فيه المذكر والمؤنث لكونه وصفاً داخلاً على وصف للمبالغة. قلت: الودود من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من المودَّة، واختلفَ فيه على قولين: فقليل: هو ودودٌ بمعنى وادٍ كضروبٍ بمعنى ضاربٍ وقَتُولٍ بمعنى قاتلٍ ونؤومٍ بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعلٌ كغفورٍ بمعنى غافر، وشكورٍ بمعنى شاکر، وصبورٍ بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مودود وهو الحبيب، وبذلك فسره البخاري في صحيحه، فقال: الودود الحبيب، والأول أظهر لاقتراحه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [البروج: ١٤] وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩] وفيه سرٌّ لطيف وهو أنه يحب التوابين وأنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢] فالتائب حبيب الله، فالودُّ أصفى الحبِّ وألطفه.

فصل: وأما الخلَّة فتوحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحد حبه لمحبيه، وهي رتبة لا تقبل المشاركة، ولهذا اختص بها في العالم الخليان إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٤] وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(١) وفي الصحيح عنه ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ»^(٢)، وفي الصحيح أيضاً: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خَلَّتِهِ»^(٣). ولما كانت الخلَّة مرتبة لا تقبل المشاركة امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ

(١) نسبة السيوطي إلى ابن ماجه والبيهقي وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٨٠، ومناقب الأنصار باب ٤٥، وفصائل الصحابة باب ٣ و ٥، والفرائض باب ٩. ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديث ٢٨، وفصائل الصحابة حديث ٢ - ٧. والترمذي في المناقب باب ١٤ - ١٦. وابن ماجه في المقدمة باب ١١. والدارمي في الفرائض باب ١١. وأحمد في المسند (١/٢٧٠، ٣٥٩ و ١٨/٣، ٤٧٨ و ٤/٤، ٥، ٢١٢).

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١٤، وابن ماجه في المقدمة باب ١١.

شعبةً من قلبه، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره، فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذبحه من قلبه، لا ذبحه بالمُذْبِية، فلما أسلما لأمر الله وقَدَّم محبة الله تعالى على محبة الولد، خلَّص مقام الخُلة وفدى الولد بالذَّبْح.

وقيل: إنما سُمِّيت خُلةً لتخلَّل المحبة جميع أجزاء الرُّوح، قال:

قد تخلَّلَت مسلك الرُّوح مني وبذا سمي الخليل خليلاً
والخُلة الخليلُ يستوي فيه المذكر والمؤنث لأنه في الأصل مصدر قولك خليلٌ بَيْنُ
الخُلة والخُلولة، قال (١):

ألا أبلغَا خُلَّتِي جابراً بأن خليلك لم يُقْتَل
ويجمع على خِلال مثل قُلة وقِلال. والخِلُّ الودَّ والصديق، والخِلَال أيضاً مصدر
بمعنى المُخَالَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال في
الآية الأخرى: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلةً﴾ [البقرة: ٢٥٤]، قال امرؤ القيس:
ولست بمَقْلِي الخلال ولا قالي (٢)

والخليل الصديق والأُنثى خليلة، والخِلالة والخُلالة بكسر الخاء وفتحها
وضمها: الصداقة والمودة. قال (٣):

وكيف تُواصلُ من أصبحت خَلَاتُهُ كأبي مَرْحَبٍ (٤)

وقد ظن بعض من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل، وقال: محمد حبيب
الله وإبراهيم خليل الله، وهذا باطلٌ من وجوه كثيرة، منها: إنَّ الخُلة خاصةٌ والمحبة عامة
فإن الله يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين، وقال في عباده المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾
[المائدة: ٥٧]، ومنها: أن النبي ﷺ نفى أن يكون له من أهل الأرض خليل، وأخبر أن
أحبَّ النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها (٥)، ومنها: أنه قال: «إِنَّ الله اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا
اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً» (٦). ومنها أنه قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ
أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامَ وَمَوَدَّتُهُ» (٧).

(١) هو أوفى بن مطر المازني.

(٢) صدر البيت: صرفت الهوى عنهن من خشية الردى . . . ولست . . .

(٣) هو النابغة الجعدي.

(٤) في الصحاح: وأبو مرحب كنية الظل، ويقال هو كنية عرقوب الذي قيل فيه: مواعيد عرقوب.

(٥) الحديث في الصحيحين وغيرهما.

(٦) تقدم تخريجه ص ٣٣ حاشية ٢.

(٧) تقدم تخريجه ص ٣٣ حاشية ١.

فصل: وأما الخِلْمُ فهو مأخوذ من المُخَالَمَةِ وهي المصادقة والمودة، والخِلْمُ الصديق، والأخلام الأصحاب، قال الكُمَيْت:

إِذَا ابْتَسَرَ الْحَرْبَ أَخْلَامُهَا كِشَافاً وَهَيَّجَتِ الْأَفْحُلُ^(١)

فصل: وأما الغرام فهو الحبُّ اللازم، يقال: رجلٌ مُغرَمٌ بالحبِّ، أي قد لزمه الحب وأصل المادة من اللزوم، ومنه قولهم رجلٌ مُغرَمٌ من الغُرمِ أو الدَّينِ، قال في الصحاح والغَرَامُ الولوع، وقد أغْرَمَ بالشيء، أي أولع به، والغريم الذي عليه الدَّينُ، يقال: خذ من غريمِ السوء ما سَنَحَ، ويكون الغريم أيضاً الذي له الدَّينُ، قال كُثَيْرٌ عَزَّة:

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوْقَى غَرِيمِهِ وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مُعْتَى غَرِيمُهَا

ومن المادة قوله تعالى في جهنم: ﴿إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] والغرام: الشر الدائم اللازم والعذاب، قال بشر^(٢):

وَيَوْمَ النَّسَارِ وَيَوْمَ الْجِفَا رِ كَانَا عَذَاباً وَكَانَا غَرَامَا^(٣)

وقال الأعشى:

إِنْ يِعَاقِبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُعْطِ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يِيَالِي

وقال أبو عبيدة: ﴿إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] كان هلاكاً ولزماً لهم. وللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظَ الغرام وإن لِهَجَّ به المتأخرون.

فصل: وأما الهَيَامُ قال في الصحاح: هام على وجهه يَهِيمُ هَيْمًا وَهَيْمَانًا ذهب من العشق أو غيره، وقلبُ مستهام، أي هائم، والهَيَامُ بالضم: أشدُّ العطش والهَيَامُ كالجنون من العشق، والهَيَامُ: داء يأخذ الإبل فتهم لا ترعى، يقال: ناقة هَيْمَاءٌ، قال: والهَيَامُ بالكسر: الإبل العطاش الواحد هَيْمَانٌ، وناقَةٌ هَيْمَى مثل عطشان وعطشى، وقومٌ هَيْمٌ، أي عطاش، وقد هاموا هَيَاماً، وقوله تعالى: ﴿فَسَارِبُونَ شُرَبَ الْهَيْمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] هي الإبل العطاش. قلت: جمع أهيم هَيْمٌ مثل أحمر وحمَر وهو جمع فعلاء أيضاً كصفراء وصفراء.

فصل: وأما التَّذْلِيَةُ ففي الصحاح: التَّذْلِيَةُ ذهاب العقل من الهوى، يقال: دَلَّهَتْ

(١) في اللسان: وابتسر الفحل الناقة ضربها قبل الضبعة وهي شدة الشهوة. وفي الكشاف أن تلحق الناقة في غير زمان لقاحها، ويقال ذلك في الحرب على المثل.

(٢) وكذلك هو في الصحاح. أما في اللسان فقد نسبته للطرماح.

(٣) النسار: ماء لبني عامر، ومنه يوم النسار. والجفار: ماء لبني تميم بنجد ومنه يوم الجفار.

الحُبِّ، أي حَيَّرَهُ وأدهشه، وَدَلَّهُ هو يَذَلُّهُ قال أبو زيد: الدَّلَوُ: الناقَة لا تكاد تحنُّ إلى إلفٍ ولا ولد، وقد دَلَّهَتْ عن إلفها وعن ولدها تَذَلُّهُ ذُلُوهَا.

فصل: وأما الوَلَةُ فقال في الصحاح: الوَلَةُ: ذهاب العقل والتحيرُ من شدة الوجد، ورجل وَالِه وامرأة وَالِه وَوَالِهَةٌ. قال الأعشى:

فَأَقْبَلْتُ وَالَهَا تُكَلِّي عَلَى عَجَلٍ كُلُّ دَهَاها وَكُلُّ عِنْدَهَا اجْتَمَعَا
وقد وَلَّهَ يَوَلُّهُ وَلَهَا وَوَلَّهَانَا وَتَوَلَّهَ وَاتَّلَهَ وهو افتعل أدغم. قال الشاعر^(١):
واتله الغيور

والتَّوَلَّيْتُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ الأم وولدها، وفي الحديث: «لَا تُؤَلِّهِ وَالِدَةٌ بَوْلِدَهَا»^(٢)، أي لا تُجْعَلِ والهاً وذلك في السَّبايا. وناقَةُ وَالِه: إذا اشْتَدَّ وَجْدُهَا عَلَى ولدها. والمِيلَةُ التي من عاداتها أَنْ يَشْتَدَّ وَجْدُهَا عَلَى ولدها صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وماء مُوَلَّهٌ ومُوَلَّةٌ أرسل في الصحراء فذهب، وقول رؤبة:

بِهِ تَمَطَّطَتْ غَوَلٌ كُلِّ مِيلِهِ بِنَا حَرَّاجِيحُ الْمَهَارَى الثَّقَمِ^(٣)
أراد البلاد التي تَوَلَّهَ الإنسان، أي تحيَّره.

فصل: وأما التَّعَبُّدُ فهو غاية الحب وغاية الذل، يقال: عبده الحبُّ، أي ذلله. وطريقٌ مُعَبَّدٌ بالأقدام، أي مُذَلَّلٌ، وكذلك المحب قد ذلَّه الحب ووطَّأه، ولا تصلح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل، ولا يغفر الله سبحانه لمن أشرك به في عبادته، ويغفر ما دون ذلك لمن شاء. فمحبَّة العبودية هي أشرف أنواع المحبة، وهي خالص حق الله على عباده، وفي الصحيح عن مُعَاذٍ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ سَائِراً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: : ثُمَّ سَارَ سَاعَةً فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّهُ عَلَيْهِمْ

(١) هو مليح الهذلي، والبيت في اللسان:

إذا ما حال دون كلام سعدى تنائي الدار واتله الغيور

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/٨) وابن حجر في تلخيص الجبر (١٥/٣) والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٠٢٣ و ٢٥٠٢٣) والزيلعي في نصب الراية (٢٦٦/٣)، (٢٦٠). والبخاري في التاريخ الكبير (٤٧٧/٦). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٢٤١٢/٦).

(٣) تمططت: أي سارت سيراً طويلاً. والغول: بعد المفازة. والحراجيح جمع حرجوج وهي الناقَة الطويلة على وجه الأرض. والمهاري: الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان. والنفه: الكالة والذليلة.

أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم بالنار . وقد ذكر الله سبحانه رسوله بالعبودية في أشرف مقاماته ، وهي مقام التحدي، ومقام الإسراء، ومقام الدعوة، فقال في التحدي: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]. وإذا تدافع أولو العزم الشفاعة الكبرى يوم القيامة يقول المسيح لهم: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. فقال ذلك المقام بكمال العبودية لله وكمال مغفرة الله له، فأشرف صفات العبد صفة العبودية، وأحبُّ أسمائه إلى الله اسم العبودية، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةٌ»^(١). وإنما كان حارث وهمام أصدقها لأن كل أحد لا بدّ له من همٍّ وإرادة وعزم ينشأ عنه حرثه وفعله، وكلُّ أحدٍ حارثٌ وهمام، وإنما كان أقبحها حربٌ ومُرّةٌ لما في مسمى هذين الاسمين من الكراهة ونفور العقل عنهما وبالله التوفيق .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٦١، وأحمد في المسند (٣٤٥/٤).

في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أو التباين

فالأسماء الدالة على مسمى واحد نوعان: أحدهما أن يدلَّ عليه باعتبار الذات فقط، فهذا النوع هو المترادفُ ترادفاً محضاً، وهذا كالخُنْطَة والقَمْح والْبُرُّ والاسْمِ والكُنْيَةِ واللَّقَبِ إذا لم يكن فيه مدحٌ ولا ذمٌّ وإنما أتى به لمجرد التعريف، والنوع الثاني أن يدلَّ على ذاتٍ واحدة باعتبار تباين صفاتها كأسماءِ الرب تعالى، وأسماءِ كلامه، وأسماءِ نبيه، وأسماءِ اليوم الآخر، فهذا النوع مُترادِفٌ بالنسبة إلى الذات، متباينٌ بالنسبة إلى الصفات، فالرب والرحمن والعزیز والقدير والمَلِكُ يدلُّ على ذاتٍ واحدة باعتبار صفاتٍ متعددة، وكذلك البشير والنذير والحاشر والعاقب والمآحي، وكذلك يوم القيامة ويوم البعث ويوم الجَمْع ويوم التَّعَابُن ويوم الآزِفَة ونحوها، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب والهُدَى ونحوها، وكذلك أسماء السيف فإن تعدُّدها بحسب أوصافٍ وإضافاتٍ مختلفة، كالمهَنَّد والعَضْب والصَّارم ونحوها، وقد عرَفَت تباينَ الأوصاف في أسماء المحبة، وقد أنكر كثيرٌ من الناس الترادف في اللغة، وكأنهم أرادوا هذا المعنى، وأنه ما من اسمين لمسمًى واحدٍ إلا وبينهما فرقٌ في صفةٍ أو نسبةٍ أو إضافة، سواء عُلِمَت لنا أو لم تُعَلَّم، وهذا الذي قالوه صحيحٌ باعتبار الواضع الواحد، ولكن قد يَقَعُ الترادفُ باعتبار واضعَيْن مختلفَيْن يسمي أحدهما المسمى باسم، ويسميه الواضع الآخر باسم غيره، ويشتهر الوضعان عند القبيلة الواحدة، وهذا كثير ومن ههنا يقع الاشتراك أيضاً، فالأصل في اللغة هو التباين وهو أكثر اللغة والله أعلم.

في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب

وهذا باب شريف من أشرف أبواب الكتاب، وقبل تقريره لا بد من بيان مقدمة وهي أن الحركات ثلاث: حركة إرادية، وحركة طبيعية، وحركة قسرية، وبيان الحصر أن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك أو من غيره، فإن كان من المتحرك فإما أن يقارنها الشعور والعلم فهي الطبيعية، وإن كانت من غيره فيه القسرية، وإن شئت أن تقول المتحرك إما أن يتحرك بإرادته أو لا، فإن تحرك بإرادته فحركته إرادية، وإن تحرك بغير إرادته فإما أن تكون حركته إلى نحو مركزه أو لا، فإن تحرك إلى جهة مركزه فحركته طبيعية، وإن تحرك إلى غير جهة مركزه فحركته قسرية، إذا ثبت هذا فالحركة الإرادية تابعة لإرادة المتحرك، والمراد إما أن يكون مراداً لنفسه أو لغيره، ولا بد أن ينتهي المراد لغيره إلى نفسه دفعاً للدور والتسلسل. والإرادة إما أن تكون لجلب منفعة ولذة إما للمتحرك وإما لغيره، أو دفع ألم ومضرة إما عن المتحرك أو عن غيره، والعقل لا يجلب لغيره منفعة ولا يدفع عنه مضرة إلا لما له في ذلك من اللذة ودفع الألم، فصارت حركته الإرادية تابعة لمحبهته، بل هذا حكم كل حي متحرك. وأما الحركة الطبيعية فهي حركة الشيء إلى مستقره ومركزه، وتلك تابعة للحركة التي اقتضت خروجه عن مركزه وهي القسرية التي إنما تكون بقسر قاسر أخرجه عن مركزه إما باختياره كحركة الحجر إلى أسفل إذا رُمي به إلى جهة فوق، وإما بغير اختيار مُحركه كتتحريك الرياح للأجسام إلى جهة مهايها، وهذه الحركة تابعة للقاسر، وحركة القاسر ليست منه بل مبدؤها من غيره، فإن الملائكة مُوكَّلةً بالعالم العلوي والسفلي تدبره بأمر الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أُمْرًا﴾ [النازعات: ٥] وقال: ﴿فَالْمُصَّسَّاتِ أُمْرًا﴾ [الذاريات: ٤] وقال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا، فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥] وقال: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غُرْقًا، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أُمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥] وقد وكل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكة تحركها، ووكل بالرياح ملائكة تصرفها بأمره وهم خزنتها، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] وقال

غير واحد من السلف: عَتَتْ عَلَى الْخَزَّانِ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ضَبْطِهَا (ذكره البخاري في صحيحه) ووكل بالقطر ملائكة، وبالسحاب ملائكة تسوقه إلى حيث أمرت به، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاحٍ مِنَ الْأَرْضِ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ يَقُولُ: اسْتِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ فَتَتَبَعَ السَّحَابَةَ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى حَدِيقَةٍ فَأَفْرَغَتْ مَاءَهَا فِيهَا، فَنَظَرَ فَإِذَا رَجُلٌ فِي الْحَدِيقَةِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَةٍ، فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ فَقَالَ فُلَانٌ الْأَسْمُ الَّذِي سَمِعَهُ فِي السَّحَابَةِ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ فِي هَذِهِ السَّحَابَةِ: اسْتِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَمَا تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَنْظُرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَجْعَلُهُ ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ: ثُلُثٌ أَتَصَدَّقُ بِهِ، وَثُلُثٌ أَنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِي، وَثُلُثٌ أَرِزُهُ فِيهَا»^(١). ووكل الله سبحانه بالجبال ملائكة، وثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحب، فقال: «بَلْ أَسْتَأْذِنِي لَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(٢) ووكل بالرحم ملكاً يقول: يا رب نطفة؟ يا رب علقة؟ يا رب مضغة؟ يا رب ذكر؟ أم أنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقي أم سعيد؟ ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة في هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومُعَقِّبَاتٌ من بين يديه ومن خلفه أقلهن اثنان يحفظونه من أمر الله، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بمسألة الموتى ملائكة يشبثونه ويؤزُّرنه^(٣) إلى الطاعات أژًا، ووكل بالنار ملائكة بينونها ويوقدونها، ويصنعون أغلالها وسلاسلها ويقومون بأمرها، ووكل بالجنة ملائكة بينونها ويفرشونها، ويصنعون أرائكها وسُرُرَها وصحفها ونمارقها وزرابيها^(٤) فأمر العالم العلوي والسفلي والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم تبارك وتعالى وأمره، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] و﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره ليس بهم عجز عنها، بخلاف من يترك ما أمر به عجزاً فلا يعصي الله ما أمره، وإن لم يفعل ما أمره به، وكذلك البحار قد وُكِّلَتْ بها ملائكة تسجرها^(٥) وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلها، وكذلك أعمال بني آدم خيرها وشرها قد وُكِّلَتْ بها ملائكة تحصيها وتحفظها وتكتبها، ولهذا كان الايمان بالملائكة أحد أركان الايمان الذي لا يتم إلا به. وهي خمس: الايمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٤٥، وأحمد في المسند (٢/٢٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٧. ومسلم في الجهاد حديث ١١١ وأحمد في المسند (١/٢٥٨).

(٣) يؤزونه: يغرونه.

(٤) الأرائك: الأسرة المنجدة المزينة. والصحاف: آنية الأكل. والنمارق: الوسائد. والزرابي: البسط.

(٥) تسجرها: تملؤها.

وإذا عُرِفَ ذلك عُرِفَ أن كل حَرَكَةٍ في العالم فسيبُها الملائكة، وحركتُهم طاعةُ الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذِ مرادِ الرب تعالى شرعاً وقَدَرًا، والملائكةُ هم المنفُذون ذلك بأمره، ولذلك سُمُّوا ملائكةً من الألوكة وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

والمقصود أن حركات الأفلاك وما حوته تابعةٌ للحركة الإرادية المستلزمة للمحبة، فالمحبة والإرادة أصلُ كل فعل ومبدأه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة، حتى دفعه للأمور التي يبغضها ويكرهها، فإنما يدفعها بإرادته ومحبة لأضدادها واللذة التي يجدها بالدفع كما يقال: شفى غيظه، وشفى صدره، والشفاء والعافية يكون للمحبوب وإن كان كريهاً، مثل شرب الدواء الذي يُدْفَع به أَلَمُ المرض، فإنه وإن كان مكروهاً من وجه فهو محبوبٌ لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب، وكذلك فعلُ الأشياء المخالفة للهوى، فإنها وإن كانت مكروهةً فإنما تُفْعَلُ لمحبةٍ وإرادة، وإن لم تكن محبوبةً لنفسها فإنها مستلزمةٌ للمحبوب لنفسه. فلا يترك الحيُّ ما يُحِبُّه ويهواه، إلا لما يُحِبُّه ويهواه، ولكن يترك أضعفهما محبةً لأقواهما محبة، ولذلك كانت المحبة والإرادة أصلاً للبغض والكراهة، فإن البغض المكروه ينافي وجودَ المحبوب، والفعلُ إما أن يتناول وجودَ المحبوب أو دَفَعَ المكروه المستلزم لوجود المحبوب، فعاد الفعل كله إلى وجود المحبوب.

والحركة الاختيارية أصلها الإرادة، والقسرية والطبيعية تابعتان لها، فعاد الأمر إلى الحركة الإرادية، فجميع حركات العالم العلوي والسفلي تابعة للإرادة والمحبة، وبها تحرك العالم ولأجلها، فهي العلة الفاعلية والغائية، بل هي التي بها ولأجلها وُجد العالم، فما تحرك في العالم العلوي والسفلي حركةً إلا والإرادة والمحبة سببها وغايتها، بل حقيقة المحبة حركة نفس المحب إلى محبوبه، فالمحبة حركةٌ بلا سكون. وكمالُ المحبة هو العبودية، والذلُّ، والخضوعُ، والطاعة للمحبوب، وهو الحق الذي به وله خُلِقَتِ السموات والأرض والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٦].

والحق الذي خُلِقَ به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته والخضوع والذلُّ له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنة والنار. والسموات والأرض إنما قامت بالعدل

الذي هو صراط الله الذي هو عليه وهو أحبُّ الأشياء إلى الله تعالى قال الله تعالى حاكياً عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فهو على صراطٍ مستقيم في شرعه وقدره، وهو العدل الذي به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهو الحق الذي به وله خلقت السموات والأرض وما بينهما، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] فنزَّهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السموات عبثاً لغير حكمة ولا غايةٍ محمودة، وهو سبحانه يُحمَد لهذه الغايات المحمودة كما يُحمَد لذاته وأوصافه، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يحبها ويرضاها، وخلق ما يكره لاستلزامه ما يحبه وترتَّب المحبوب له عليه، ولذلك يترك سبحانه فعل بعض ما يحبه لما يترتب عليه من فوات محبوبٍ له أعظم منه، أو حصولٍ مكروهٍ أكره إليه من ذلك المحبوب، وهذا كما تُبْطِّق قلوب أعدائه عن الإيمان به وطاعته، لأنه يكره طاعتهم ويُؤمِّت بها ما هو أحبُّ إليه منها من جهادهم وما يترتب عليه من المُوَالاة فيه والمعاداة، وبذل أوليائه نفوسهم فيه، وإيثار محبته ورضاه على نفوسهم، ولأجل هذا خلق الموت والحياة وجعل ما على الأرض زينة لها، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه عن خلق العالم والموت والحياة وتزيين الأرض بما عليها أنه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً، فيكون عمله موافقاً لمحبِّ الرب تعالى، فيوافق الغاية التي خُلِقَ هو لها وخُلِقَ لأجلها العالم، وهي عبوديته المتضمنة لمحبته وطاعته، وهي العملُ الأحسنُ وهو مَوَاقِعُ محبته ورضاه، وقَدَّر سبحانه مقاديرَ تخالفها بحكمته في تقديرها، وامتنح خلقه بين أمره وقدره ليلوهم أيهم أحسنُ عملاً.

فانقسم الخلق في هذا الابتلاء فريقين: فريقاً داروا مع أوامره ومحابَّه، ووقفوا حيث وقف بهم الأمر، وتحركوا حيث حرَّكهم الأمر، واستعملوا الأمر في القَدَر، وركبوا سفينة الأمر في بحر القَدَر، وحكَّموا الأمر على القَدَر، ونازعوا القَدَر بالقَدَر امتثالاً لأمره واتباعاً لمرضاته، فهؤلاء هم الناجون.

والفريق الثاني عارضوا بين الأمر والقَدَر، وبين ما يحبه ويرضاه، وبين ما قَدَّره وقضاه، ثم افترقوا أربع فِرَقٍ:

فرقة كذبت بالقدر محافظةً على الأمر، فأبطلت الأمر من حيث حافظت على القدر، فإن الإيمان بالقدر أصل الإيمان بالأمر، وهو نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه إيمانه.

وفرقة ردت الأمر بالقدر وهؤلاء من أكفر الخلق، وهم الذين حكى الله قولهم في القرآن إذ قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وقالوا أيضاً: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]. وقالوا أيضاً: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبْدْنَاَهُمْ﴾ [الزخرف: ٢]. وقالوا أيضاً: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧].

فجعلهم الله سبحانه وتعالى بذلك مكذبين خارصين ليس لهم علم، وأخبر أنهم في ضلال مبين.

وفرقة دارت مع القدر، فسارت بسيره، ونزلت بنزوله، ودانت به، ولم تبال وافق الأمر أو خالفه، بل دینها القدر، فالحلال ما حلَّ بيدها قدراً، والحرام ما حرّمته قدراً، وهم مع من غلب قدراً من مسلم أو كافر، برّا كان أو فاجراً، وخواصّ هؤلاء وعبادهم لما شهدوا الحقيقة الكونية القدريّة صاروا مع الكفار المسلّطين بالقدر، وهم خفّاءهم، فهؤلاء أيضاً كفّار.

وفرقة وقفت مع القدر مع اعترافها بأنه خلاف الأمر، ولم تدن به ولكنها استرسلت معه، ولم تحكّم عليه الأمر وعجزت عن دفع القدر بالقدر اتباعاً للأمر، فهؤلاء مفترّطون، وهم بين عاجز وعاصٍ لله، وهؤلاء الفرق كلهم مؤثّمون بشيخهم إبليس، فإنه أول من قدّم القدر على الأمر وعارضه به، وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَرِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] وقال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ٥] فردّ أمر الله بقدره، واحتجّ على ربه بالقدر. وانقسم اتباعه أربع فرق كما رأيت، فإبليس وجنوده أرسلوا بالقدر إرسالاً كونياً. فالقدر دينهم. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ [مريم: ٨٤] فدينهم القدر، ومصيرهم سقر. فبعث الله الرسل بالأمر وأمرهم أن يحاربوا به أهل القدر، وشرع لهم من أمره سفناً وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعهم في بحر القدر، وخصّ بالنجاة من ركبها كما خصّ بالنجاة أصحاب السفينة، وجعل ذلك آية للعالمين. فأصحاب الأمر حرب لأصحاب القدر حتى يرُدّوهم إلى الأمر، وأصحاب القدر يحاربون أصحاب الأمر حتى يخرجوهم منه، فالرسل دينهم الأمر مع إيمانهم بالقدر وتحكيم الأمر عليه، وإبليس

وَأَتْبَاعُهُ دِينُهُمُ الْقَدَرُ ودفعُ الأمر به، فتأمل هذه المسألة في القدر والأمر وانقسام العالم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة، وبالله التوفيق.

فحركاتُ العالم العلوي والسفلي وما فيهما موافقة للأمر، إما الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وإما الأمر الكوني الذي قدره وقضاه، وهو سبحانه لم يقدره سدى ولا قضاه عبثاً، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة، وما يترتب عليه من أمور يحب غاياتها وإن كره أسبابها ومبادئها، فإنه سبحانه وتعالى يجب المغفرة وإن كره معاصي عباده، ويجب السَّتر وإن كره ما يستر عبده عليه، ويجب العتق وإن كره السبب الذي يعتق عليه من النار، ويجب العفو كما في الحديث: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»^(١) وإن كره ما يعفو عنه من الأوزار، ويجب التَّوايين وتوبتهم وإن كره معاصيهم التي يتوبون إليه منها، ويجب الجهاد وأهله بل هم أحبُّ خلقه إليه وإن كره أفعال من يجاهدونه، وهذا بابٌ واسع قد فُتح لك فادخل منه يُطلعك على رياضٍ من المعرفة مُوفِّقة مات مَنْ فاتته بحسرتها، وبالله التوفيق.

وهذا موضعٌ يضيق عنه عِدَّة أسفار واللييب يدخل إليه من بابه، وسرُّ هذا الباب أنه سبحانه كاملٌ في أسمائه وصفاته، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما، وهو يحب أسمائه وصفاته، ويجب ظهور آثارها في خلقه، فإن ذلك من لوازم كماله، فإنه سبحانه وترٌ يحبُّ الوتر، جميلٌ يحبُّ الجمال، عليمٌ يحبُّ العلماء، جوادٌ يحبُّ الأجواد، قويٌّ، والمؤمنُ القويُّ أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، حَيٌّ يحبُّ أهل الحياء، وفيَّ يحبُّ أهل الوفاء، شكورٌ يحبُّ الشاكرين، صادقٌ يحبُّ الصادقين، محسنٌ يحبُّ المحسنين.

فإذا كان يحبُّ العفو والمغفرة والحلم والصفح والسَّتر لم يكن بدٌّ من تقديره للأسباب التي تظهر آثارُ هذه الصفات فيها، ويستدلُّ بها عباده على كمال أسمائه وصفاته، ويكون ذلك أدعى لهم إلى محبته وحمده وتمجيده والثناء عليه بما هو أهله، فتحصلُ الغاية التي خَلَقَ لها الخلق، وإن فاتت من بعضهم فذلك الفوات سببٌ لكمالها وظهورها، فتضمن ذلك الفوات المكروه له أمراً هو أحبُّ إليه من عدمه، فتأمل هذا الموضع حقَّ التأمل. وهذا ينكشف يوم القيامة للخلقة بأجمعهم حين يجمعهم في صعيد واحد، ويوصل إلى كل نفس ما ينبغي إيصاله إليها من الخير والشر، واللذة والألم، حتى مثقالِ الذرة، ويوصل كل نفس إلى غاياتها التي تشهد هي أنها أولى بها، فحينئذ ينطق

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٨٤، وابن ماجه في الدعاء باب ٥.

الكونُ بأجمعه بحمده تبارك وتعالى قالاً وحالاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، فحذف فاعل القول لأنه غيرُ معين، بل كل أحدٍ يَحْمَدُهُ عَلَى ذلك الحُكْم الذي حكم فيه، فَيَحْمَدُهُ أهل السموات وأهل الأرض، والأبرارُ والفجارُ، والإنسُ والجنُّ حتى أهلُ النار. قال الحسن أو غيره: لقد دخلوا النار وإن حَمَدَهُ لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً، وهذا والله أعلمُ هو السرُّ الذي حذف لأجله الفاعل في قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر: ٧٢] وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب.

في دواعي المحبة ومتعلقها

الداعي قد يُراد به الشعور الذي تتبَّعه الإرادة والميل، فذلك قائمٌ بالمحب، وقد يُراد به السبب الذي لأجله وُجدت المحبة وتعلقت به، وذلك قائمٌ بالمحجوب، ونحن نريد بالداعي مجموع الأمرين، وهو ما قام بالمحجوب من الصفات التي تدعو إلى محبته، وما قام بالمحب من الشعور بها، والموافقة التي بين المحب والمحجوب، وهي الرابطة بينهما وتسمى بين المخلوق والمخلوق مناسبة وملاءمة.

فهاهنا أمور: وصفُ المحجوب وجماله، وشعورُ المحب به، والمناسبة وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحب والمحجوب، فمتى قويت الثلاثة وكملت، قويت المحبة واستحكمت، ونقصان المحبة وضعفها بحسب ضعف هذه الثلاثة أو نقصها، فمتى كان المحجوب في غاية الجمال، وشعورُ المحب بجماله أتمَّ شعور، والمناسبة التي بين الرُّوحين قوية، فذلك الحبُّ اللازم الدائم، وقد يكون الجمال في نفسه ناقصاً لكن هو في عين المحب كامل، فتكون قوة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فإن حُبَّك للشيء يُعمي ويُبصم، فلا يرى المحبُّ أحداً أحسنَ من محبوه، كما يُحكى أنَّ عزة دخلت على الحجاج فقال لها: يا عزة والله ما أنتِ كما قال فيك كثيرٌ، فقالت: أيها الأمير إنه لم يرني بالعين التي رأيته بها. ولا ريب أن المحجوب أحلى في عين محبه وأكبر في صدره من غيره، وقد أفصح بهذا القائل في قوله^(١):

فوالله ما أدري أزيدت ملاحه وحسناً على النسوان أم ليس لي عقلٌ
وقد يكون الجمال موقراً لكنه ناقصُ الشعور به فتضعف محبته لذلك، فلو كشف له عن حقيقته لأسر قلبه، ولهذا أمر النساء بستر وجوههن عن الرجال، فإن ظهور الوجه يُسفر عن كمال المحاسن فيقع الافتتان، ولهذا شرع للخاطب أن ينظر إلى المخطوبة، فإنه إذا شاهد حسنها وجمالها كان ذلك أدعى إلى حصول المحبة والألفة بينهما كما أشار

(١) هو الحكم بن معمر الخضري.

إليه النبي ﷺ في قوله: «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ خِطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَإِنَّهُ أُخْرَى أَنْ يُؤَدَّمَ بَيْنَهُمَا»^(١) أي يُلَام ويوافق ويصلح. ومنه الأدام الذي يصلح به الخبز، وإذا وُجد ذلك كُلُّهُ وانتفتت المناسبة والعلاقة التي بينهما لم تستحكم المحبة، وربما لم تقع البتة، فإن التناسب الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة.

فكلُّ امرئٍ يصبو إلى من يناسبه

وهذه المناسبة نوعان: أصلية من أصل الخلقة، وعارضة بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمرٍ من الأمور، فإن من ناسب قصدك قصده حصل التوافق بين رُوحك ورُوحه، فإذا اختلف القصد زال التوافق، فأما التناسب الأصلي فهو اتفاق أخلاق وتشاكل أرواح وشوق كلِّ نفس إلى مُشاكلها، فإن شبه الشيء يجذب إليه بالطبع، فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلقة، فتتجذب كلُّ منهما إلى الأخرى بالطبع، وقد يقع الانجذاب والميل بالخاصية، وهذا لا يعلل ولا يُعرف سببه كأنجذاب الحديد إلى الحجر المغناطيس. ولا ريب أن وقوع هذا القدر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات كما قيل:

محاسنها هيولى^(٢) كلِّ حسنٍ ومغناطيسُ أفئدةِ الرجال
وهذا الذي حمَلَ بعضَ الناس على أن قال: إن العشق لا يقف على الحُسن والجمال ولا يلزم من عَدَمِهِ عَدَمُهُ، وإنما هو تشاكل النفوس وتمازُجها في الطباع المخلوقة، كما قيل^(٣):

وما الحُبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحيةٍ ولكنه شيءٌ به الرُّوحُ تكلَّف
قال هذا القائل: فحقيقته أنه مِرَّة يُبصر فيها المحبُّ طباعه ورِقته في صورة محبوبه، ففي الحقيقة لم يحب إلا نفسه وطباعه ومشاكله.

(١) هذا الحديث مركَّب من حديثين. الأول: «إِذَا خَاطَبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ» أخرجه أبو داود في النكاح باب ١٨، والترمذي في النكاح باب ٥، وأحمد في المسند (٢٨٦/٢، ٢٩٩، و ٣٣٤/٣، ٣٦٠، و ٤٢٤/٥). والثاني: عن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأة في عهد رسول الله ﷺ، فقال لي: «أنظرت إليها؟» قلت: لا. قال: «فانظر إليها فإنه أجد أن يؤدم بينكما». أخرجه النسائي في النكاح باب ١٧ واللفظ له، والترمذي في النكاح باب ٥، وابن ماجه في النكاح باب ٩، والدارمي في النكاح باب ٥، وأحمد في المسند (٢٤٥/٤، ٢٤٦).

(٢) الهيولى: مادة الشيء الذي يصنع منها. وعند القدماء: مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة قابلة للتشكيل والتصوير، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية.

(٣) هو لمحمد بن داود الظاهري كما جاء في ديوان الصبابة.

قال بعضهم لمحبيه: صادفتُ فيك جوهرَ نفسي ومُشاكَلَتَها في كل أحوالها،
فانبعثت نفسي نحوك وانقادت إليك، وإنما هَوَيْتُ نفسي. وهذا صحيح من وجه، فإن
المناسبة عِلَّةُ الضَّمِّ شَرْعاً وَقَدَرًا، وشاهدُ هذا بالاعتبار أن أحبَّ الأغذية إلى الحيوان ما
كان أشبهَ بجوهر بدنه وأكثرَ مناسبةً له، وكلما قويت المناسبة بين الغاذي والغذاء كان ميلُ
النفس إليه أكثر، وكلما بعدت المناسبة حصلت التَّفَرُّعُ عنه، ولا ريب أن هذا قَدَرٌ زائدٌ
على مجرَّد الحسن والجمال، ولهذا كانت النفوسُ الشريفة الزكية العُلوية تعشق صفاتِ
الكمال بالذات، فأحبُّ شيء إليها العلم والشجاعة والعِفَّةُ والجودُ والإحسان والصبر
والثبات لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها، بخلاف النفوس اللثيمة الدنيَّة فإنها بِمَعزِلٍ عن
محبة هذه الصفات، وكثيرٌ من الناس يحمله على الجود والإحسان فرطُ عشقه ومحبيته له
واللذة التي يجدها في بذله، كما قال المأمون: لقد حُبَّبَ إليَّ العفو حتى خشيتُ أن لا
أُؤَجَّرَ عليه. وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: تعلمت هذا العلم لله؟ فقال:
أما لله فعزيز، ولكن شيء حُبَّبَ إليَّ ففعلته. وقال آخر: إني لأفرح بالعطاء وألتذ به أكثر
وأعظم مما يفرح الآخذ بما يأخذه مني. وفي هذا قيل في مدح بعض الكرماء من أبيات:
وتأخذه عند المكارم هَزَّةٌ كما اهتَزَّ عند البارح^(١) الغصنُ الرطْبُ
وقال شاعر الحماسة:

تراه إذا ما جتته مُتَهَلِّلًا كأنك تعطيه الذي أنت سائله^(٢)

وكثيرٌ من الأجواد يعشق الجود أعظمَ عشق، فلا يصبر عنه مع حاجته إلى ما يجود
به، ولا يقبل فيه عدلَ عاذل، ولا تأخذه فيه لومة لائم، وأما عشاق العلم فأعظمُ شغفًا به
وعشقًا له من كل عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يَسْغُلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر.
وقيل لامرأة الزُّبَيْرِ بن بكار أو غيره: هنيئًا لك إذ ليست لك ضرة، فقالت: والله لهذه
الكتب أضربُ عليَّ من عِدَّةِ ضرائر. وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه
قال: كان الجَدُّ إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع
وأعرف من أصابه مرضٌ من صداعٍ وحُمى. وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وَجَدَ إفاقةً قرأ
فيه، فإذا غلبَ وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال: إن هذا لا يَحِلُّ لك
فإنك تُعين على نفسك وتكون سبباً لفوات مطلوبك. وحدثني شيخنا قال: ابتدأني مرضٌ

(١) البارح: الريح الحارة في الصيف.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وقد ورد في شرح ديوانه (ص ١٤٢) طبعة دار الكتب المصرية. ونسب
في الأغاني (ج ١٣) طبع بولاق لعبد الله بن الزبير الأسدي.

فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرّت قَوِيَت الطبيعةُ فدفعت المرض؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجدُ راحة، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.

فَعشَقُ صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الرُّوح وتلك الصفات ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أعلاها وأشرفها معشوقاً كما قيل:

أنت القَتِيلُ بكلِّ مَنْ أَحَبَّته فاختَرْتُ لنفْسِكَ في الهوى من تَصْطَفِي
فإذا كانت المحبَّةُ بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكَّنت ولم يُزلَّها إلا مانعٌ أقوى من السبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هي محبَّةٌ لغرضٍ من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحلُّ، فمن أحبَّكَ لأمرٍ ولَّى عند انقضائه، فداعي المحبة وباعثها إن كان غرضاً للمحبِّ لم يكن لمحبهته بقاء، وإن كان أمراً قائماً بالمحجوب سريع الزوال والانتقال زالت محبته بزواله، وإن كان صفةً لازمةً فمحبته باقيةٌ ببقاء داعيها ما لم يعارضه معارضٌ يوجب زوالها، وهو إما تغيُّر حال في المحب، أو أذى من المحجوب، فإن الأذى إما أن يُضَعِّفَ المحبة أو يزيلها.

قال الشاعر:

خذي العفو مني تستديمي مَوَدَّتِي ولا تَنطِقِي في سَوْرَتِي حين أغْضَبَ
فإني رأيتُ الحبَّ في القلب والأذى إذا اجتمعَا لم يَلْبِثِ الحبُّ يذهب

وهذا موضعُ انقسام المحبُّون فيه قسمين: ففرقةٌ قالت: ليس بحبٍّ صحيح ما يزيله الأذى، بل علامةُ الحب الصحيح أنه لا ينقص بالجفوة ولا يذهبه أذى قالوا: بل المحب يلتذُّ بأذى محبوبه له، كما قال أبو الشَّيْص:

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي مُتَأَخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدِّمٌ
وأهتتني فأهنتُ نفسي جَاهِداً ما من يهون عليكِ ممن يكرَمُ
أشبهت أعدائي فصرْتُ أَحِبُّهُمْ إذ كان حظِّي منك حظِّي منهم
أجدُ الملامةَ في هوائِ لذيذة حبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيَلْمِنِي اللُّومُ

فهذا هو الحب على الحقيقة فإنه متضمنٌ لغاية الموافقة، بحيث قد اتخذ مراده ومراد محبوبه من نفسه، فأهان نفسه موافقة لإهانة محبوبه له، وأحبَّ أعداءه لما أشبههم بحبوبيه في أذاه. وهذا وإن كانت الطباع تأباه لكنه مُوجِبُ الحب التام ومقتضاه. وقالت فرقةٌ: بل الأذى مزيلٌ للحب، فإن الطباع مجبولة على كراهة من يؤذيها، كما أن القلوب

مجبولةً على حبٍّ من يحسن إليها. وما ذكره أولئك فدعوى منهم.

والإنصاف أن يقال: يجتمع في القلب بغضٌ أذى الحبيب وكرهه، ومحبته من وجه آخر، فيحبه ويُبغض أذاه، وهذا هو الواقع، والغالب منها يوارى المغلوب ويبقى الحكم له، وقد كشف عن بعض هذا المعنى الشاعرُ في قوله^(١):

ولو قلتَ طأً في النار أعلمُ أنه رضا لك أو مُذن لنا من وصالِك
لقدّمتُ رجلي نحوها فوطئْتُها هدى منك لي أو ضلالةً من ضلالِك
وإن ساءَني أن نلتني بمساءةٍ فقد سرّني أنني خَطَرْتُ بِبَالِكِ^(٢)

فهذا قد أنصف حيث أخبر أنه يسوؤه أن يناله محبوبه بمساءة ويسره خطوره بباله، لا كمن ادّعى أنه يلتذ بأذى محبوبه له، فإن هذا خارجٌ عن الطباع، اللهم إلا أن يكون ذلك الأذى وسيلةً إلى رضى المحبوب وقربه، فإنه يلتذ به إذا لاحظ غايته وعاقبته، فهذا يقع، وقد أخبرني بعض الأطباء قال: إني ألتذ بالدواء الكريه إذا علمتُ ما يحصلُ به من الشفاء، وأضعه على لساني وأترشفه محبةً له، ومن هذا التذاذ المحبين بالمشاق التي توصلهم إلى وصال محبوبهم وقربه، وكلما ذكروا روح الوصال وأن ما هم فيه طريقٌ موصلٌ إليه، لذّ لهم مقاساته، وطاب لهم تحمُّله. كما قال الشاعر:

لها أحاديثٌ من ذكراك تشغلُها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نورٌ تستضيءُ به ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكّت من كلالٍ السير أو عُدّها رَوْحَ اللقاء فتقوى عند ميعاد

والمقصود أن المحبة تستدعي مشاكلةً ومناسبة، وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده من حديث عائشة رضي الله عنها: أن امرأةً كانت تدخل على قريش فتضحكهم، فقدمت المدينة فنزلت على امرأةٍ تضحك الناس، فقال النبي ﷺ: «على مَنْ نزلت فلانة؟» فقالت: على فلانة المضحكة، فقال: «الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا نَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»^(٣). وأصل الحديث في الصحيح. وذكر لبقراط رجلٌ من أهل النقص يحبه فاغتم لذلك وقال: ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه، وأخذ المتنبي هذا المعنى فقلبه وأجاد فقال:

(١) هو عبد الله بن الدمينية.

(٢) سيأتي هذا البيت في الباب العشرين وفيه: «لئن ساءَني... لقد سرّني الخ»، وهو الصواب.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٢. ومسلم في البر حديث ١٥٩ و ١٦٠. وأبو داود في الأدب باب ١٦/. وأحمد في المسند (٥/٣٣، ٢٨٨).

وإذا أتتك مَذْمَتِي من ناقص فهي الشهادة لي بأنني فاضل

وقال بعض الأطباء: العشق امتزاج بالروح لما بينهما من التناسب والتشاكل، فإذا امتزج الماء بالماء امتنع تخليصُ بعضه من بعض، ولذلك تَبْلُغُ المحبة بين الشخصين حتى يتألم أحدهما بتألم الآخر، وَيَسْقَمُ بسقمه وهو لا يَشْعُرُ، ويُذَكَّرُ أن رجلاً كان يحب شخصاً فمرض فدخل عليه أصحابه يعودونه فوجدوا به خفةً فانبسط معهم، وقال: من أين جئتم؟ قالوا: من عند فلانِ عُدْنَاهُ، فقال: أو كان عليلاً؟ قالوا: نعم وقد عُوْفِي، فقال: والله لقد أنكرتُ عِلَّتِي هذه ولم أعْرِفْ لها سبباً غير أنني توهمت أن ذلك لعلّة نالت بعض من أحب، ولقد وجدت في يومي هذا راحةً ففرحتُ طمعاً أن يكون الله سُبْحَانَهُ وتعالى شفاه، ثم دعا بدواةٍ فكتب إلى محبوبه^(١):

إِنِّي حُمِمْتُ وَلَمْ أَشْعُرْ بِحُمَاكَ حَتَّى تَحَدَّثَ عُوَادِي بِشُكْوَاكَ
فَقُلْتُ مَا كَانَتْ الْحُمَّى لَتَطْرُقَنِي مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ إِلَّا لِحُمَاكَ
وَخَصْلَةٍ كُنْتُ فِيهَا غَيْرَ مُتَّهِمٍ عَافَانِي اللَّهُ مِنْهَا حِينَ عَافَاكَ
حَتَّى اتَّفَقْتُ نَفْسِي وَنَفْسَكَ فِي هَذَا وَذَاكَ وَفِي هَذَا وَفِي ذَاكَ

وَيُخْخِي أَنْ رَجُلًا مَرَضَ مَنْ يُحِبُّهُ فَعَادَهُ الْمَحَبَّةُ فَمَرَضَ مِنْ وَقْتِهِ، فَعُوْفِيَّ مَحْبُوبَهُ
فَجَاءَ يَعُودُهُ فَلَمَّا رَأَاهُ عُوْفِيَّ مِنْ وَقْتِهِ وَأَنْشَدَ:

مَرِضَ الْحَبِيبُ فَعُدَّتْهُ فَمَرَضْتُ مِنْ حَذَرِي عَلَيْهِ
وَأَتَى الْحَبِيبُ يَعُودُنِي فَبَرِئْتُ مِنْ نَظَرِي إِلَيْهِ

وأنت إذا تأملتَ الوجودَ لا تكاد تجد اثنين يتحابَّانِ إلا وبينهما مشاكلةٌ أو اتفاقٌ في فعلٍ أو حالٍ أو مقصدٍ، فإذا تباينت المقاصدُ والأوصافُ والأفعالُ والطرائقُ لم يكن هناك إلا التَّفَرُّقُ والبعدُ بين القلوب، ويكفي هذا الحديثُ الصحيح عن رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ»^(٢).

فإن قيل: فهذا الذي ذكرتم يقتضي أنه إذا أحب شخصٌ شخصاً أن يكون الآخر

(١) الشعر لأبي نواس قاله في رحمة بن نجاح كما في ديوانه (ص ٢٩٩) طبع مصر ببعض اختلاف وزيادة بيتين والقوافي فيه مفتوحة خطاباً للذكر. وجاء في ديوان الصبابة لابن أبي حجلة أنها قيلت في عنان جارية الناطفي فهي هناك كما هي هنا مكسورة خطاباً للمؤنث.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٧. ومسلم في البر حديث ٦٦. وأحمد في المسند (٤/٢٦٨)، (٢٧٠).

يحبّه فيشتركان في المحبة، والواقع يشهد بخلافه، فكم من محبٍّ غير محبوب بل بسيف البغض مضروب، قيل: قد اختلف الناس في جواب هذا السؤال، فأما أبو محمد بن حزم فإنه قال: الذي أذهب إليه أن العشق اتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخلقة في أصل عُصْرِها الرفيع، لا عَلَى ما حكاه محمد بن داود عن بعض أهل الفلسفة أن الأرواح أَكْثَرُ مقسومةٌ لكن عَلَى سبيل مناسبة قواها في مَقَرِّ عَالَمِها العُلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها. وقد علمنا أن سرَّ التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال، فالشكلُ إنما يستدعي شكله والمثلُ إلى مثله ساكنٌ. وللمجانسة عملٌ محسوسٌ وتأثيرٌ مشاهد. والتنافرُ في الأضداد، والموافقةُ في الأنداد، والتَّرَاغُ فيما تشابه موجود بيننا، فكيف بالنفس وعَالَمِها العالمُ الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهرُ الصَّعَادُ المعتدل، وسِنْخُها^(١) المَهْيَأُ لِقَبول الاتفاق والميل والتَّوَقُّ والانحراف والشهوة والتَّفَارُ؟ والله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٨] فجعل عِلَّةَ السَّكُونِ أنها منه، ولو كان عِلَّةَ الحب حَسَنُ الصورة الجسدية لوجب أن لا يُسْتَخْسَنَ الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيراً ممن يُؤْثِرُ الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد مَحِيداً لقلبه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرءُ من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيءٌ في ذات النفس، وربما كانت المحبة لسببٍ من الأسباب، وتلك تفتى بفناء سببها.

قال: ومما يؤكد هذا القول أننا قد علمنا أن المحبة ضُروب: فأفضلُها محبةُ المتحابِّين في الله إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل المذهب، وإما لفضل علم يُمنَّحه الإنسان. ومحبةُ القرابة، ومحبةُ الألفة والاشترار في المطالب، ومحبةُ التصاحب والمعرفة، ومحبةُ لبرٍ يضعه المرء عند أخيه، ومحبةُ لطمع في جاه المحبوب، ومحبةُ المتحابِّين لسرٍّ يجتمعان عليه يلزمهما سَرُّهُ، ومحبةُ لبلوغ اللذة وقضاء الوَطَرِ، ومحبةُ العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس. وكل هذه الأجناس فمنقضيةٌ مع انقضاء عِلَلِها، وزائدةٌ بزيادتها، وناقصةٌ بنقصانها، متأكدةٌ بدُنُوها، فائرةٌ ببعدها، حاشا محبةَ العشق الصحيح المتمكن من النفس. ثم أورد هذا السؤال^(٢) قال: والجوابُ أن نفس الذي لا يحب من يُحبه مُكْتَنَفَةٌ الجهات ببعض الأعراض الساترة، والحُجُبُ

(١) السنخ: الأصل من كل شيء.

(٢) يشير إلى السؤال الذي تقدم في آخر الصفحة السابقة وهو: فإن قيل فهذا الذي ذكرتم يقتضي أنه إذا أحب شخص شخصاً أن يكون الآخر يحبه فيشتركان في المحبة والواقع يشهد بخلافه. وهذا السؤال ليس لفظ ابن حزم وإنما أورده المؤلف بالمعنى.

المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلم تُحسّ بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة. ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يتركها في المجاورة طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتية لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغناطيس والحديد، وكالنار في الحجر.

وأجابت طائفة أخرى أن الأرواح خلقت على هيئة الكرة ثم قُسمت. فأَي رُوحين تلاقينا هناك وتجاورتا تألفتا في هذا العالم وتحابتا، وإن تنافرتا هناك تنافرتا هنا، وإن تألفتا من وجهٍ وتنافرتا من وجهٍ كانتا كذلك هاهنا، وهذا الجواب مبني على الأصل الفاسد الذي أصله هؤلاء أن الأرواح موجودة قبل الأجساد، وأنها كانت متعارفة متجاورة هناك، تتلاقى وتتعارف وهذا خطأ، بل الصحيح الذي دلّ عليه الشرع والعقل أن الأرواح مخلوقة مع الأجساد، وأن الملك الموكّل بنفخ الروح في الجسد ينفخ فيه الروح إذا مضى على النطفة أربعة أشهر ودخلت في الخامس، وذلك أول حدوث الروح فيه. ومن قال إنها مخلوقة قبل ذلك فقد غلط، وأقبح منه قول من قال: إنها قديمة، أو توقّف في ذلك، بل الصواب في الجواب أن يقال: إن المحبة كما تقدّم قسماً: محبة عَرَضِيَّة عَرَضِيَّة، فهذه لا يجب الاشتراك فيها بل يقارنها مَقْتُ المحبوب وبغضه للمحب كثيراً، إلا إذا كان له معه غرضٌ نظيرُ غرضه فإنه يحبّه لغرضه منه، كما يكون بين الرجل والمرأة اللذين لكلّ منهما غرضٌ مع صاحبه. والقسم الثاني محبة رُوحانية سببها المشاكلة والاتفاق بين الرُوحين، فهذه لا تكون إلا من الجانبين ولا بدّ، فلو فتنّ المحب المحبة الصادقة قلب المحبوب لوجد عنده من محبته نظير ما عنده أو دونه أو فوقه.

فصل: وإذا كانت المحبة من الجانبين استراح بها كلّ واحد من المحبين، وسكّن ذلك بعض ما به وعدّه نوعاً من الوصال، وقالت امرأة من العرب:

حَجَحْتُ ولم أَخْجِجْ لَذْبِ عَمِلْتُهُ
ذهبت بعقلي في هواه صغيرة
وإلا فسوّ الحبّ بيني وبينه
ولكن لتُعِدِّني على قاطع الجبل
وقد كبرت سنّي فردّ به عقلي
فإنك يا مولاي تُوصفُ بالعدل

وقال آخر:

فيا ربّ أشغلها بحبي كما بها
وقالت امرأة تعاتب بعلها: أسأل الذي قسم بين العباد معاشهم أن يقسم الحبّ بيني وبينك، ثم أنشدت:

أدعو الذي صرّف الهوى
مُنّي إليك ومنك عني

أَنْ يَتْلِيكَ بِمَا ابْتَلَا نِي أَوْ يَسْلُ الْحَبَّ مِنْ نِي
وقال آخر:

فِيَا رَبِّ إِنْ لَمْ تَقْسِمِ الْحَبَّ بَيْنَنَا بَشْطَرَيْنَ فَاجْعَلْنِي عَلَى هَجْرهَا جَلْدًا
وَأَعْقِبْنِي السُّلْوَانَ عَنْهَا وَرُدَّ لِي فَوَادِي مَنْ سَلَّمُنِي أُثْبِتْكَ بِهِ حَمْدًا

وقال أبو الهذيل العلاف: لا يجوز في دَوْر الفلك ولا في تركيب الطبائع ولا في الواجب ولا في الممكن أن يكون محبٌ ليس لمحبوبه إليه ميل، وإلى هذا المذهب ذهب أبو العباس الناشئ حيث يقول:

عَيْنَاكَ شَاهِدَتَانِ أَنْكَ مِنْ حَرِّ الْهَوَى تَجْدِيدِنِ مَا أَجِدُّ
بِكَ مَا بَنَا لَكِنْ عَلَى مَضْضٍ تَتَجَلَّلِيدِنِ وَمَا بَنَا جَلْدُ
وقال أبو عيينة:

تَبَيْتُ بِنَا تَهْذِي وَأَهْذِي بِذِكْرهَا كَلَانَا يَقَاسِي اللَّيْلَ وَهُوَ مُسَهَّدُ
وَمَا رَقَدْتُ إِلَّا رَأْتُنِي ضَجِيعَهَا كَذَاكَ أَرَاهَا فِي الْكُرَى حِينَ أَرْقُدُ
تَقْرُبُ بِذَنْبِي حِينَ أَغْفُو وَنَلْتَقِي وَأَسْأَلُهَا يَقْظَانَ عَنْهُ فَتَجْحَدُ
كَلَانَا سِوَاءَ فِي الْهَوَى غَيْرَ أَنَّهَا تَجَلَّدُ أَحْيَانًا وَمَا لِي تَجَلَّدُ
وقال عروة بن أذينة:

إِنْ التِّي زَعَمْتَ فَوَإِذَاكَ مَلَهَا خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا
فَبِكَ الَّذِي زَعَمْتَ بِهَا فَكَلَاكَمَا أَبَدَى لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةَ كُلَّهَا

فإذا تشاكلت النفوس وتمازجت الأرواح وتفاعلت تفاعلت عنها الأبدان، وطلبت نظير الامتزاج والجوار الذي بين الأرواح، فإن البدن آلة الرُّوح ومركبته، وبهذا ركب الله سبحانه شهوة الجماع بين الذكر والأنثى طلباً للامتزاج والاختلاط بين البدنين، كما هو بين الرُّوحين، ولهذا يسمى جماعاً وخِلاطاً ونكاحاً وإفضاءً، لأن كل واحدٍ منهما يُفْضِي إلى صاحبه فيزول الفضاء بينهما.

فإن قيل: فهذا يوجب تأكيد الحب بالجماع وقوته به والواقع خلافه، فإن الجماع يُطْفِئ نار المحبة ويبرد حرارتها ويسكن نفس المحب، قيل: الناس مختلفون في هذا فمنهم من يكون بعد الجماع أقوى محبةً وأمكن وأثبت مما قبله، ويكون بمنزلة من وُصف له شيء ملائم فأحبه، فلما ذاقه كان له أشدَّ محبة، وإليه أشدَّ اشتياقاً، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث عروج الملائكة إلى ربهم أنه سبحانه يسألهم عن عباده - وهو أعلم بهم - فيقولون: إنهم يسبحونك ويحمدونك ويقدسونك فيقول: وهل

رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوني؟ فتقول الملائكة: لو رأوك لكانوا أشدَّ تسبيحاً وتقديساً وتمجيداً ثم يقولون: ويسألونك الجنة فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فتقول الملائكة: لو رأوها لكانوا أشدَّ لها طلباً وذكر الحديث^(١). ومعلوم أن محبة من ذاق الشيء الملائم وعُدِمَ صبره عنه أقوى من محبة من لم يذُقْهُ، بل نفسه مفطومة عنه، والموذَّة التي بين الزوجين والمحبة بعد الجماع أعظم من التي كانت قبله. والسبب الطبيعي أن شهوة القلب ممتزجة بلذَّة العين، فإذا رأت العين اشتهى القلب، فإذا باشر الجسم الجسم اجتمع شهوة القلب ولذَّة العين ولذة المباشرة، فإذا فارق هذه الحال كان نزاع نفسه إليها أشدَّ، وشوقه إليها أعظم كما قيل:

وأكثر ما يكون الشوق يوماً إذا دنيت الديار من الديار
ولذلك يتضاعف ألمه وحسرتة في مقابلة مضاعفة لذَّة من عاوده، وهذا في جانب المرأة أقوى فإنها إذا ذاقَتْ عُسَيْلَةَ الرجل ولا سيما أوَّل عُسَيْلَةٍ لم تكد تصبر عنه بعد ذلك، قال أيمن بن خُرَيْم:

يميت العتابَ خِلاطُ النساءِ ويُحيي اجتنابُ الخِلاطِ العتابا
وتزوَّج زهير بن مسكين الفهري جارية ولم يكن عنده ما يرضيها به، فلما أمكنته من نفسها لم ترَ عنده ما ترضى به فذهبت ولم تعدَّ، فقال في ذلك أشعاراً كثيرة، منها:

تقول وقد قَبَلْتُهَا أَلْفَ قُبْلَةٍ كفاك أما شيءٌ لديك سوى القُبْلِ
فقلت لها حبٌّ على القلب حفظه وطولُ بكاء تستفيض له المُقْلُ
فقالت لعمرك الله ما لذَّة الفتى من الحب في قولٍ يخالفه الفعل

وقال آخر:

رأت حُبِّي سعاداً بلا جماع ولست أريد حبّاً ليس فيه
فلو قَبَلْتُني ألفاً وألفاً فلو الصبُّ لم يكُ ذا جماع
جماع الصبِّ غايةٌ كلِّ أنثى فقلت لها وقد ولَّتْ تعالِي

قالت حبُّنا جبلٌ انقطاع متاعٌ منك يدخل في متاعي
لما أرضيت إلا بالجماع يرى المحبوب كالشيء المضعاع
وداعيةٌ لأهل العشق داعي فإنك بعد هذا لن تُراعي

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٦٧. ومسلم في الذكر حديث ٢٥. والترمذي في الدعوات باب ١٢٩. وأحمد في المسند (٢/٣٨٢).

وإنك لو سألت بقاء يوم
فقلت مرحباً بفتى كريم
إذا ما البعل لم يك ذا جماع
وقال آخر:

ولما شكوت الحب قلت كذبتي
فما حلّ فيها من إزار للذة
وهل راحة للمرء في ورد منهل
وقال العباس بن الأحنف:

لم يصف وصل لمعشوقين لم يذقا
وقال هذبة بن الخشرم:

والله ما يشفي الفؤاد الهائم
ولا الحديث دون أن تلازما
ولا الفقام دون أن تفاقما^(٣)

وقال آخر:

قولا لعانكة التي
إنني أريدك للنكا
لو كان هذا مقنعي

وقال آخر:

دواء الحب تقبيل وشم
ورهمز تذرف العينان منه

وقالت امرأة وقد طلبت منها المحادثة:

ليس بهذا أمرتني أمي

خلي عن جماعك لن تطاعي
ولا أهلاً بذی الخنع اليراع^(١)
يُرى في البيت من سقط المتاع

فكم زورة مني قصدتك خاليا
قعدت وحاجات الفؤاد كما هيا
ويرجع بعد الورد ظمآن صاديا

وصلاً يجل على كل اللذات

نفث الرقى وعقدك التماثما
ولا اللزام دون أن تفاعما^(٢)
وتعلو القوائم القوائما

في نظرة قضت الوطر
ح ولا أريدك للنظر
لقنعت عنها بالقمر

ووضع للبطون على البطون
وأخذ بالمناكب والقرون^(٤)

ولا بتقبيل ولا بشم

(١) الخنع: الذي يكتفي من النساء بالمغازلة والملاعبة، وخنع فلان إلى النساء: مال لهن وعاشرهن بالمغازلة والملاعبة. واليراع: الجبان الذي لا قلب له. وعلى التشبيه: من لا رأي ولا عقل له.

(٢) الفقام: أن تشم رائحة جسدها وتملا به أنفك.

(٣) الفقام: أن تقبلها حتى ترتوي. والفقم: اللحي؛ وفي الحديث (من حفظ ما بين فقميه) أي ما بين لحييه.

(٤) الرهمز: شدة الحركة في الجماع. والقرون: ذؤابة المرأة، الخصلة من الشعر.

لكن جماعاً قد يسلي همي يسقط منه خاتمي في كمي

وقد كشف الشاعر سبب ذلك حيث يقول:

لو ضَمَّ صبُّ إلفه ألفاً لما أجدى وزادت لوعةً وغرامُ
أرواحهم من قبل ذاك تألفت فتألفت من بعدها الأجسام

وقال المؤلف:

سألت فقيه الحب عن علة الهوى فقال دواء الحب أن تلصق الحشا وتتحداً من بعد ذاك تعانقاً
فتقضي حاجات الفؤاد بأسرها إذا كان هذا في حلال فحبذا
وإن كان هذا في حرام فإنه عذاب به تلقى العنا والمكاويا

قال هؤلاء: ولا يستحكم الحب إلا بعد أن يشقَّ الرجل رداءه وتشقَّ المرأة المعشوقة بُزُقُها، كما قال الشاعر:

إذا شقَّ بُزْدُ شقَّ بالبُزْد بُزُقُ فكم قد شققنا من رداءٍ مُحَبَّرٍ
دَوَالِيكَ حتى كلُّنا غيرُ لابس ومن برقع عن طفلةٍ غيرِ عانس^(١)

ولما بلغ بعضَ الظرفاء^(٢) قولُ المأمون: ما الحبُّ إلَّا قُبلةٌ. الأبيات: قال: كذب المأمون ثم قال:

وباض الحبُّ في قلبي وما ينفعني حبي وإن لم يَضَعِ الأضد
فوا ويلا إذا فرَّخ إذا لم أكنس البَرْبَخُ^(٣) عُ خُرجيه على المطبخ

وقال ابن الرومي:

أعانقُها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ وألثمُ فاهها كي تزولَ صبابتي
إليها وهل بعد العناق تداني ولَمْ يَكْ مقدارُ الذي بي من الجوى
فيشتدُّ ما ألقى من الهيمان ليشتفيه ما ترشِفُ الشفتان

(١) محبر: مزين ومنمق. والعانس: البكر النصف والجمع عوانس وعنس.

(٢) هو أبو العبر كما جاء في الأغاني للأصفهاني.

(٣) البربخ: منفذ المياه ومجرها، والبالوعة من الخزف وغيره وهو هنا يعني الفرج.

كَأَن فَوَّادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سَوَى أَن أَرَى الرُّوحِينَ تَمْتَرِجَانِ

وقال الطبراني في معجمه الأوسط: حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ سَهْلٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَوْسُفَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدَنَا يَتِيمَةٌ قَدْ خَطَبَهَا رَجُلَانِ: مُوسِرٌ وَمُعْسِرٌ، وَهِيَ تَهْوَى الْمُعْسِرَ، وَنَحْنُ نَهْوَى الْمُوسِرَ، فَقَالَ: «لَمْ يَزَلِ الْمُتَحَابَّانِ مِثْلُ التَّرْوِيجِ» قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ: لَمْ يَزَوْهُ عَنْ طَاوُسٍ إِلَّا إِبْرَاهِيمُ، وَلَا رَوَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ، وَسَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، تَفَرَّدَ بِهِ مُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنِ الثَّوْرِيِّ أَنْتَهَى. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ مِنْ حَدِيثِ حَسَّانَ بْنِ بِشْرِ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو، عَنْ جَابِرٍ فَذَكَرَهُ. وَقَالَ الْمَعْفَى بْنُ عَمْرٍو: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى، عَنْ عَمْرُو، عَنْ طَاوُسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ الطَّائِيُّ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ طَاوُسٍ. وَذَكَرَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ فِي كِتَابِ الْغُرَائِبِ وَقَالَ: تَفَرَّدَ بِهِ يَزِيدُ بْنُ مَرْوَانَ، عَنْ عَمْرُو بْنِ هُرُونَ، عَنْ عَثْمَانَ بْنِ الْأَسْوَدِ الْمَكِّيِّ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ طَاوُسٍ.

وقالت هند بنت المهلب: مَا رَأَيْتُ لِصَالِحِي النِّسَاءِ وَشِرَارِهِنَّ خَيْرًا مِنْ إِلْحَاقِهِنَّ بِمَنْ يَسْكُنُ إِلَيْهِ مِنَ الرِّجَالِ، وَلَكَبَّرْتُ مَسْكُونٍ إِلَيْهِ غَيْرَ طَائِلٍ وَالسَّكَنُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَوْفَقُ.

وذكر الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «أَرْبَعٌ لَا يَنْبَغُنَ مِنْ أَرْبَعٍ: أَرْضٌ مِنْ مَطَرٍ، وَأُنْثَى مِنْ ذَكَرٍ، وَعَيْنٌ مِنْ نَظَرٍ، وَعَالَمٌ مِنْ عِلْمٍ»^(١). وهذا باطل قطعاً على رسول الله ﷺ وهو كثير عن أبي هريرة رضي الله عنه. وذكر الطبراني في معجمه الأوسط من حديث ابن عمر يرفعه: «فَضْلٌ مَا بَيْنَ لَذَّةِ الْمَرْأَةِ وَلَذَّةِ الرَّجُلِ كَأَثَرِ الْمَخِيطِ فِي الطِّينِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَتَرَهُنَّ بِالْحَيَاءِ» وقال: لَمْ يَزَوْهُ عَنْ لَيْثٍ إِلَّا أَبُو الْمَسِيْبِ سَلَمُ بْنُ سَلَامٍ عَنْ سُؤَيْدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَسَامَةَ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ خَالِدٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قُلْتُ: وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِسْنَادُهُ مَظْلَمٌ لَا يَحْتَاجُ بِمِثْلِهِ.

فصل: وَرَأَتْ طَائِفَةً أَنَّ الْجَمَاعَ يُفْسِدُ الْعَشْقَ وَيُبْطِلُهُ أَوْ يُضَعِّفُهُ، وَاحْتَجَّتْ بِأُمُورٍ مِنْهَا: أَنَّ الْجَمَاعَ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي تُطَلَّبُ بِالْعَشْقِ فَمَا دَامَ الْعَاشِقُ طَالِبًا فَعَشَقَهُ ثَابِتٌ، فَإِذَا

(١) ذكر هذا الحديث في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى من رواية الحاكم أيضاً عن عائشة لا عن أبي هريرة. وفي سنده عبد السلام بن عبد القدوس، قال فيه أبو حاتم: يروي الموضوعات، لا يحل الاحتجاج به.

وصل إلى الغاية قضى وطّره، وبرّدت حرارة طلبه، وطَفِئَتْ نارُ عشقه. قالوا: وهذا شأن كل طالبٍ لشيءٍ إذا ظَفِرَ به، كالظَّمآن إذا رَوِيَ، والجائع إذا شَبِعَ، فلا معنى للطلب بعد الظفر. ومنها: أن سبب العشق فكريّ وكلما قَوِيَ الفكرُ زاد العشق، وبعد الوصول لا يَبْقَى الفكر، ومنها: أنه قبل الظفر ممنوعٌ، والنفسُ مُولَعَةٌ بحبِّ ما مُنِعَتْ منه كما قال (١):
وزادني كَلَفًا في الحب أن مُنِعْتُ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الإنسان ما مُنِعَا
وقال الآخر: (٢)

لولا طِرَادُ الصيد لم تَكُ لَذَّةٌ فَتَطَارَدِي لِي بِالْوَصَالِ قَلِيلًا
قالوا: وكانت الجاهلية الجهلاء في كفرهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، وكانوا يصنونون العشق عن الجماع، كما ذُكِرَ أن أعرابياً عَلِقَ امرأةً فكان يأتيها سنين وما جرى بينهما ريبة، قال: فرأيت ليلةً بياض كفها في ليلةٍ ظلماء فوضعتُ يدي عَلَى يدها فقالت: مه لا تفسد ما صَلَحَ فإنه ما نكح حبّاً إلا فسد. فأخذ ذلك المأمون فقال:

مَا الْحَبِّ إِلَّا نَظْرَةٌ وَغَمَزُ كَفٍّ وَعَضُّ
أَوْ كُتُبٌ فِيهَا رُقَى أَجَلٌ مِنْ نَفْسِ الْعَقْدِ
مَا الْحَبِّ إِلَّا هَكَذَا إِنْ نَكَحَ الْحَبِّ فَسَدَ
مَنْ كَانَ هَذَا حَبًّا فَإِنَّمَا يَبْغِي الْوَلَدَ

وهو آخرُ امرأةٍ فدام الحالُ بينهما في اجتماعٍ وحديثٍ ونظرٍ، ثم إنه جامعها فقطعت الوصلَ بينهما فقال:

لَوْلِمَ أَوَاقِعَ دَامَ لِي وَصْلُهَا فَلْيَتَنِي لَا كُنْتُ وَاقِعْتُهَا
وقيل لآخر شكاً فراقٍ محبوبيةً له:

أَكْثَرَتْ مِنْ وَطْئِهَا وَالْوَطْءُ مَسَامَةٌ فَارْفُقْ بِنَفْسِكَ إِنْ الرَفْقَ مَحْمُودٌ

وذكر عمر بن شُبَّة عن بعض علماء أهل المدينة قال: كان الرجل يحب الفتاة فإذا ظفر بها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدها وتعدّه، فإذا التقيا لم يَشْكُ حَبًّا ولم يُشَدَّ شعراً وقام إليها كأنه أشهد عَلَى نكاحها أبا هريرة رضي الله عنه.

لَمْ يَخْطُ مِنْ دَاخِلِ الدَّهْلِيزِ مَنْصَرَفًا إِلَّا وَخَلَّخَالَهَا قَدْ قَارَبَ السَّاقَا

(١) هو الأحوص.

(٢) هو كشاجم كما جاء في ديوان الصبابة.

قال الأصمعي: قلت لأعرابية: ما تعدون العشق فيكم؟ قالت: العناق والضمة والعَمَزَةُ والمحادثة.

ثم قالت: يا حضري فكيف هو عندكم؟ قلت: يقعد بين شعبها الأربع ثم يُجهدُها. قالت: يا ابن أخِي ما هذا عاشقٌ هذا طالب ولد.

وسئل أعرابيٌّ عن ذلك فقال: مَصُّ الرِّيقِ، وَلِثْمُ الشَّفَةِ، والأخذ من أطايب الحديث، فكيف هو فيكم أيها الحضري؟ فقال: العَفْسُ^(١) الشديد، والجمع بين الركبة والوريد، ورَهْرُ يوقظ النائم، وَيَشْفِي القلب الهائم. فقال: بالله ما يفعل هذا العدو الشديد فكيف الحبيب الودود؟.

وقال بعضهم: الحب يطيب بالنظر وَيَقْسُدُ بالغمز. قال هؤلاء: والحب الصحيح يوجب إعظامَ المحبوب وإجلالَه والحياءَ منه، فلا تطاوعه نفسه أن يلقي جلباب الحياء عند محبوبه، وأن يُلْقِيَه عنه، ففي ذلك غاية إذلاله وقهره كما قيل:

إذا كان حظ المرء ممن يُحبُّه	حراماً فحظي ما يحلّ ويَجْمُلُ
حديثٌ كماء المُرْنِ بين فُصُوله	عتابٌ به حسن الحديث يُفْصَلُ
ولثْمٌ فَمِ عَذْبِ اللُّثَاثِ كأنما	جناهن شهدَتْ فيهِ القَرَنَقُلُ
وما العشق إلا عفة ونزاهة	وأنسُ قلوبِ أنسهن التغرُلُ
وإني لأستحيي الحبيب من التي	تريبُ وأدعى للجميل فأخْمِلُ

وزعم بعضهم أنه كان يُشَرِّطُ بين العشيقة والعاشق أن له من نصفها الأعلى إلى سُرَّتِها ينال منه ما يشاء من ضمٍّ وتقبيل ورشف، والنصفُ الأسفلُ يَحْرُمُ عليه، وفي ذلك قال شاعر القوم:

فللحب شطرٌ مطلقٌ من عقالِه وللبغل شطرٌ ما يُرام مَنِيعُ

وقال الآخر:

لها شطرٌ فمن حلٍّ وبِلٍّ ونصفٌ كالبحيرة ما يهاج^(٢)

وهذا كان من دين الجاهلية فأبطلته الشريعة، وجعلت الشطرين كليهما للبلع. والشعراء قاطبة لا يرون بالمحادثة والنظر للأجنبيات بأساً، وهو مخالفٌ للشرع والعقل

(١) عَفْسُهُ عَفْساً: طرحه على الأرض وضغطه ضغطاً شديداً، وضربه على عجزه.

(٢) البِلُّ بالكسر: المباح يقال: حل بِل وهو إتباع. والبحيرة: الناقة، كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن شقوا أذنهما وأعفوها أن يتنفع بها ولم يمنعوها مرعى ولا ماء، وقد أبطلها الإسلام.

فإن فيه تعريضاً للطبع لما هو مجبولٌ على الميل إليه، والطبعُ يَسْرِقُ وَيَغْلِبُ، وكم من مفتونٍ بذلك في دينه ودنياه، فإن قيل فقد أنشد الحاكم في مناقب الشافعي له^(١) :

يقولون لا تنظر وتلك بليّةٌ ألا كلّ ذي عينين لا بدّ ناظرٌ
وليس اكتحالُ العين بالعين ربيّةٌ إذا عفّ فيما بين ذاك الضمائر

فإن صحت عن الشافعي فإنما أراد النظر الذي لا يدخل تحت التكليف، كنظرة الفجأة أو النظر المباح. وقد ذهب أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني إلى جواز النظر إلى من لا يحلّ له كما سيأتي كلامه إن شاء الله تعالى. قال أبو الفرج بن الجوزي: وأخطأ في ذلك وجرّ عليه خطؤه اشتهاره بين الناس وافترضه. وذهب أبو محمد بن حزم إلى جواز العشق للأجنبية من غير ربيّة، وأخطأ في ذلك خطأ ظاهراً فإن ذريعة العشق أعظم من ذريعة النظر، وإذا كان الشرع قد حرّم النظر لما يؤدي إليه من المفاسد كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، فكيف يجوز تعاطي عشق الرجل لمن لا يحلّ له؟.

والمقصود أن هذه الفرقة رأت أن الجماع يُفسد العشق فغارت عليه مما يفسده، وإن لم تتركه ديانة. وقيل لبعض الأعراب: ما ينال أحدكم من عشيقته إذا خلا بها؟ قال: اللّمس والقُبْل وما يشاكلها. قال: فهل يتناولان إلى الجماع؟ فقال: بأبي وأمي ليس هذا بعاشق، هذا طالب ولد. ويحكى أن رجلاً عشق امرأةً فقالت له يوماً: أنت صحيح الحب غير سقيم - وكانوا يُسمّون الحبّ على الخنا الحب السقيم - فقال: نعم، فقالت: اذهب بنا إلى المنزل، فما هو إلّا أن حصلت في منزله فلم يكن له همةٌ غير جماعها، فقالت له وهو كذلك:

أسرفت في وطننا والوطء مَقْطَعَةٌ فافرق بنفسك إن الرفق محمود
فقال لها وهو على حاله:

لو لم أطاك لما دامت محبّتنا لكن فعلي هذا فعلٌ مجهود
فنفرت من تحته وقالت: يا خبيث أراك خلاف ما قلت من صحة الحب، ولم تجعل جماعي إلّا سبباً لذهاب حبك، والله لا ضمني وإياك سقفت أبداً. وسيأتي تمام الكلام في هذا في باب عفاف المحبين، إن شاء الله تعالى.

فصل: الخطاب بين الفريقين أن الجماع الحرام يفسد الحبّ، ولا بدّ أن تنتهي المحبةُ بينهما إلى المعادة والتباغض والقلى كما هو مشاهدٌ بالعيان، فكل محبةٍ لغير الله

(١) في معجم البلدان لياقوت أن هذين البيتين للخضيل بن عبيد فلم تتأكد نسبتها إلى الشافعي.

آخرها قلّى وبغض، فكيف إذا قارنها ما هو من أكبر الكبائر؟ وهذه عداوة بين يدي العداوة الكبرى التي قال الله تعالى فيها: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وسنذكر إن شاء الله تعالى من ظفر بمحبوبه وترك قضاء وطّره منه رغبة في بقاء محبته وخشية أن تنقلب قلّى وبغضاً في الباب الموعود به فإن ذلك أليق به. وأما الجماع المباح فإنه يزيد الحب إذا صادق مراد المحب، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى لم تكن حاصلة قبل الذوق. ولهذا لا يكاد البكران يصبر أحدهما عن الآخر، هذا ما لم يعرض للحب ما يفسده ويوجب نقله إلى غير المحبوب. وأما ما احتج به الآخرون فجوابه أن الشهوة والإرادة لم تُطفأ نازها بالكلية، بل فترت شهوة ذلك الوقت ثم تعود أمثالها، وإنما يظهر هذا إذا غاب أحدهما عن حبيب، وإلا فما دام بمرأى منه وهو قادرٌ عليه متى أحب فإن النفس تسكن بذلك وتطمئن به، وهذا حال كل من كان بحضرته ما يحتاج إليه من طعام وشراب ولباس وهو قادرٌ عليه، فإن نفسه تسكن عنده، فإذا حيل بينه وبينه اشتد طلبه له ونزاع نفسه إليه، على أن المحب للشيء متى أفرط في تناول محبوبه نفرت نفسه منه، وربما انقلبت محبته كراهية. وسيأتي مزيد بيان لهذا في باب سلو المحبين إن شاء الله تعالى.

فصل: ودواعي الحب من المحبوب جماله، إما الظاهر أو الباطن أو هما معاً، فمتى كان جميل الصورة جميل الأخلاق والشيم والأوصاف كان الداعي منه أقوى، وداعي الحب من المحب أربعة أشياء: أولها: النظر إما بالعين أو بالقلب إذا وُصف له، فكثير من الناس يحب غيره ويفنى فيه محبة وما رآه لكن وُصف له، ولهذا نهى النبي ﷺ المرأة أن تنعت المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها. والحديث في الصحيح^(١)، الثاني: الاستحسان، فإن لم يورث نظره استحساناً لم تقع المحبة، الثالث: الفكر في المنظور وحديث النفس به، فإن شغل عنه بغيره مما هو أهم عنده منه لم يعلق حبه بقلبه، وإن كان لا يعدم خطرات وسوانح، ولهذا قيل: العشق حركة قلب فارغ. ومتى صادف هذا النظر والاستحسان والفكر قلباً خالياً تمكّن منه كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا
فإن قيل: فهل يتوقف على الطمع في الوصول إلى المحبوب أم لا؟ قيل: الناس في هذا على أقسام: منهم من يعشق الجمال المطلق، فقلبه مُعلق به إن استقلت ركائبه،

(١) حديث: «لا تباشر المرأة المرأة فتنتعها لزوجها كأنه ينظر إليها» أخرجه البخاري في النكاح باب ١١٨، وأبو داود في النكاح باب ٤٣، والترمذي في الأدب باب ٣٨.

وإن حلت مضاربُهُ، وهذا لا يتوقف عشقُهُ على الطمع. ومنهم من يعشق الجمالَ المقيّد
سواءً طَمِعَت نفسهُ في وصاله أم لم تطمع، ومنهم من لا يعشق إلا من طمعت نفسه في
وصاله، فإن يثس منه لم يَعلَقْ حبُّه بقلبه، والأقسام الثلاثة واقعةٌ في الناس، فإذا وُجد
النظرُ والاستحسانُ والفكرُ والطمعُ هاجت بلبله، وأمكن من معشوقه مقاتله، واستحكم
داؤه، وعجزَ عن الأطباء دواؤه.

تالله ما أسَرَ الهوى من عاشقٍ إلا وعزَّ على النفوس فكأكُهُ
وإذا كان النظرُ مبدأ العشق، فحقيقٌ بالمطلق أن لا يعرِّض نفسه للإسار الدائم
بواسطة عينه، وإذا قد أفضى بنا الكلام إلى النظر فلنذكر حُكمه وغائلته.

في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور: ٣٠، ٣١] فلما كان غضُّ البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فبُيِّح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغضه مطلقاً بل أمر بالغض منه، وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال، لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غضَّ العبد بصره غضَّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته. وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رديف رسول الله ﷺ يوم النحر من مُزْدَلِفَةَ إلى مِنَى، فمرت ظُغْنٌ^(١) يجبرين فطَفِقَ الفضل ينظر إليهنَّ فَحَوَّلَ رسول الله ﷺ رَأْسَهُ إِلَى الشَّقِّ الْآخِرِ^(٢)، وهذا منع وإنكار بالفعل. فلو كان النظر جائزاً لأقره عليه. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنى أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا النَّظَرُ، وَاللِّسَانُ يَزْنِي وَزِنَاهُ التَّنْقُطُ، وَالرَّجُلُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْخُطْىُ، وَالْيَدُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْبُطْشُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَتَّى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»^(٣) فبدأ بزنى العين لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج، ونبه بزنى اللسان بالكلام على زنى الفم بالقبْل، وجعل الفرج

(١) جمع ظعينة: الراحلة يرتحل عليها، الهودج، الزوجة.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٧٧، والحد باب ١، والصيد باب ٢٤. ومسلم في الحج حديث ٤٠٧. وأبو داود في المناسك باب ٢٥. ومالك في الحج حديث ٩٧. وأحمد في المسند (٢١٢/١).

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ١٢، والقدر باب ٩. ومسلم في القدر حديث ٢٠ و ٢١. وأبو داود في النكاح باب ٤٣. وأحمد في المسند (٢٧٦/٢)، ٣١٧، ٣٢٩، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٧٢، ٣٧٩، ٤١١، ٤٣١، ٥٣٥، ٥٣٦.

مصدقاً لذلك إن حَقَّقَ الفعلَ، أو مكذباً له إن لم يُحَقِّقْهُ. وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه ردٌّ على من أباح النظر مطلقاً. وثبت عنه ﷺ أنه قال: «يَا عَلِيُّ لَا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَةُ»^(١).

ووقعت مسألة: ما تقول السادة للعلماء في رجل نظر إلى امرأة نظرةً فعَلِقَ حُبُّهَا بقلبه واشتَدَّ عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كله من أول نظرة فلو أَعَدَّتْ النظرَ إليها لرَأَيْتَهَا دون ما في نفسك فسلوتَ عنها، فهل يجوز له تعمُّدُ النظر ثانياً لهذا المعنى؟.

فكان الجواب: الحمد لله لا يجوز هذا لعشرة أَوْجُهٍ: أحدها: أن الله سبحانه أمر بغَضِّ البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرَّمه على العبد. الثاني: أن النبي ﷺ سئل عن نظر الفجأة، وقد علم أنه يؤثِّرُ في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر. الثالث: أنه صرح بأن الأولى له وليست له الثانية، ومحالٌّ أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له. الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تناقضُهُ، والتجربةُ شاهدةٌ به، والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسُّنُ المخاطرة بالإعادة. الخامس: أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه. السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسنٍ لِتَتَمَّ البلية. السابع: أنه لا يُعَانُ على بليته إذا عرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرَّمه عليه، بل هو جديرٌ أن تتخلف عنه المعونة. الثامن: أن النظرة الأولى سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، ومعلومٌ أن الثانية أشدُّ سُمًّا فكيف يتداوى من السمِّ بالسمِّ؟. التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق عزَّ وجلَّ في ترك محبوبٍ كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبيَّن حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضياً تركه، فإذا يَكون تركُهُ لأنه لا يلائم غرضه لا لله تعالى، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله؟. العاشر: يتبين بضرب مثلٍ مطابقٍ للحال وهو أنك إذا ركبْتَ فرساً جديداً فمالت بك إلى درْبٍ ضيق لا ينفذ ولا يمكنها أن تستدير فيه للخروج، فإذا هَمَّت بالدُّخول فيه فأكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوةً أو خطوتين فصَحَّ بها ورُدَّها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولُها، فإن رَدَدْتَهَا إلى ورائها سهَّلَ الأمر، وإن توانيت حتى وَلَجَتْ^(٢) وسُقَّتْهَا داخلاً ثم قمت تجذِّبها بذنْبها عَسُرَ عليك أو تعذَّرَ خروجُها، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سَوَّقَهَا إلى داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثَّرت في القلب، فإن عَجَلَ الحازمُ وحَسَمَ المادَّةَ من أولِّها سهَّلَ علاجُه، وإن كرَّرَ النظر ونقب

(١) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٤٣. والدارمي في الأدب باب ٢٨، والرقاق باب ٣. وأحمد في

المسند (٣٥١/٥، ٣٥٣، ٣٥٧).

(٢) ولجت: دخلت.

عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال شجرة الحب تنمي حتى يفسد القلب ويُعرض عن الفكر فيما أمر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن، ويلقي القلب في التلف. والسبب في هذا أن الناظر التذت عينه بأول نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غصَّ أولاً لاستراح قلبه وسليم، وتأمل قول النبي ﷺ: «النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهامِ إبليس»^(١) فإن السهم شأنه أن يسري في القلب فيعمل فيه عمل السم الذي يسقاه المسموم، فإن بادر واستفرغه وإلا قتله ولا بد.

قال المروزي: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلى المملوكة؟ قال: أخاف عليه الفتنة، كم نظرة قد ألفت في قلب صاحبها البلبال^(٢). وقال ابن عباس: الشيطان من الرجل في ثلاثة: في نظره وقلبه وذكره، وهو من المرأة في ثلاثة: في بصرها وقلبها وعجزها.

فصل: ولما كان النظر من أقرب الوسائل إلى المحرم اقتضت الشريعة تحريمه، وأباحته في موضع الحاجة، وهذا شأن كل ما حُرِّمَ تحريم الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة، كما حُرِّمت الصلاة في أوقات النهي لئلا تكون وسيلة إلى التشبه بالكفار في سجودهم للشمس، وأبيحت للمصلحة الراجحة كقضاء الفوائت وصلاة الجنازة وفعل ذوات الأسباب على الصحيح. وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبي ﷺ أنه قال: «النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهامِ إبليس فمن غصَّ بصره عن محاسن امرأة أوزرت الله قلبه حلاوة يجدها إلى يوم يلقاها»، أو كما قال. وقال جرير بن عبد الله رضي الله عنهما: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري^(٣). ونظرة الفجأة هي النظرة الأولى التي تقع بغير قصد من الناظر، فما لم يعتمذه القلب لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمداً أثم، فأمره النبي ﷺ عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره ولا يستديم النظر فإن استدامته كتكريره، وأرشد من ابتلي بنظرة الفجأة أن يداويه بإتيان امرأته، وقال: إن معها مثل الذي معها، فإن في ذلك التسلي عن المطلوب بجنسه. والثاني أن النظر يثير قوة الشهوة فأمره بتنقيصها بإتيان أهله، ففتنة النظر أصل كل فتنة كما ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرتُ

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) جمع بلبال ولبالة: شدة الألم والوساوس.

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٤٣. والترمذي في الأدب باب ٢٨. وأحمد في المسند (٤/٣٥٨،

عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ^(١)، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ»^(٢) وفي مسند محمد بن إسحاق السَّراج من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي النِّسَاءُ وَالْحَمَرُ» وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قَبْلِ النِّسَاءِ، وكفر من بقي من قَبْلِ النِّسَاءِ.

فصل: وفي غَضِّ البصر عِدَّةُ فوائد: أحدها تخلص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يُريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه، قال الأصمعي: رأيت جارية في الطواف كأنها مهأة، فجعلت أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنْتَ متى أرسلتَ طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كله أنتَ قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرميّة، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرمي في الحشيش اليابس، فإن لم يُحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل:

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومُعظمُ النار من مُستَصغَرِ الشرِّ
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عينٍ يُقلِّبُها في أعين الغيد موقوفٌ على الخطر
يسرّ مقلته ما ضرَّ مهجته لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر
والناظر يرمي من نظره بسهامٍ غرضها قلبه وهو لا يشعرُ، فهو إنما يرمي قلبه، ولي من أبيات:

يارأى بسهام اللّحظ مجتهداً أنت القتل بما ترمي فلا تصبِ
وباعث الطرف يزناد الشفاء له توقُّه إنَّه يأتيك بالعطبِ

وقال الفرزدق:

تزوّد منها نظرة لم تدغ له فؤاداً ولم يشعر بما قد تزوّدا

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ١٧. والترمذي في الأدب باب ٣١. وابن ماجه في الفتن باب ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر باب ٩٩. والترمذي في الفتن باب ٢٦. وابن ماجه في الفتن باب ١٩.

وأحمد في المسند (٣/١٩، ٢٢، ٤٦، ٦١، ٨٤).

فلم أرَ مقتولاً ولم أرَ قاتلاً
وقال آخر:

ومن كان يُؤْتَى من عدُوٍّ وحاسدٍ
هما اعتَوَرَانِي^(١) نظرة ثم فكرة
وقال آخر:

رمانِي بها طَرْفِي فلم تُخْطِ مقلتي
إِذَا مِتُّ فابكوني قتيلاً لَطَرْفِهِ
وقال ابن المعتز:

مَتِيماً يَرَعَى نَجُومَ الدُّجَى
عَيْنِي أَشَاطَتْ^(٢) بدمي في الهوى
ومثله للمتنبّي:

وَأَنَا الَّذِي اجْتَلَبَ الْمَنِيَّةَ طَرْفَهُ
وقال أيضاً:

يَا نَظْرَةَ نَفْتِ الرُّتَادِ وَغَادَرَتْ
كَانَتْ مِنَ الْكَحْلَاءِ سُؤْلِي وَإِنَّمَا
وقال أيضاً:

وُقِيَى الْأَمِيرُ مِنَ الْعَيُونِ^(٣) فَإِنَّهُ
يَسْتَأْمِرُ الْبَطْلَ الْكَمِيَّ^(٤) بِنَظْرَةِ
وقال الصوري:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْنَعِ الْبُرُوقَ اللَّوَامِحَا
غَرَسَتْ الْهَوَى بِاللَّحْظِ ثُمَّ احْتَقَرَتْهُ
وَلَمْ تَدْرِ حَتَّى أَيْنَعْتَ شَجَرَاتُهُ
فَأَمْسَيْتَ تَسْتَدْعِي مِنَ الصَّبْرِ عَازِباً

بغير سلاحٍ مَهْمَا حِينَ أَقْصَدَا

فَلِإِنِّي مِنْ عَيْنِي أُتِيتُ وَمِنْ قَلْبِي
فَمَا أَبْقَا لِي كُلَّ مَنْ رَقَادٍ وَلَا لُبَّ

وَمَا كُلَّ مَنْ يُرْمَى تَصَابِ مَقَاتِلُهُ
قَتِيلَ صَدِيقٍ حَاضِرٍ مَا يُزَايِلُهُ

يَكِي عَلَيْهِ رَحْمَةً عَازِلَةً
فَابْكُوا قَتِيلاً بَعْضُهُ قَاتِلُهُ

فَمَنْ الْمُطَالِبُ وَالْقَتِيلُ الْقَاتِلُ

فِي حَدِّ قَلْبِي مَا بَقِيَتْ فَلَوْلَا
أَجَلِي تَمَثَّلَ فِي فَوَادِي سُولَا

مَا لَا يَزُولُ بِيَأْسِهِ وَسَخَائِهِ
وَيَحُولُ بَيْنَ فَوَادِهِ وَعِزَائِهِ

وَنَمَتْ جَرَى مِنْ تَحْتِكَ السَّيْلُ سَائِحَا
وَأَهْمَلْتَهُ مُسْتَأْنَساً مُتَسَامِحَا
وَهَبْتَ رِيَّاحُ الْوَجْدِ فِيهِ لَوَاقِحَا
عَلَيْكَ وَتَسْتَدْنِي مِنَ النَّوْمِ نَازِحَا^(٥)

(١) اعتوراني: تداولاني.

(٢) أشاط دمه وأشاطه غيره: أهلكه، أو عرضه للقتل.

(٣) في ديوان المتنبّي: وفي الأمير هوى العيون.

(٤) الكمي: الشجاع، الجريء، المقدم كان عليه السلاح أو لم يكن.

(٥) عازباً ونازحاً: بعيداً.

ودخل أصبهان مُغْرً فكان يتغنى بهذين البيتين:

سماعاً يا عبادَ الله مني
فإن الحبَّ آخرُه المنايا

وقال آخر:

وشادن^(١) لما بدا
بظرفه ولطفه
أردت أن أصيـده

وقال آخر يعاتب عينه:

والله يا بصري الجاني على جسدي
تالله تطمّع أن أبكي هوى وضئى
هيهات حتى تُرى طرفاً بلا نظـر

وقال آخر:

يا من يرى سقمي يزيد
لا تعجبـنَّ فهكـذا

وقال آخر:

لواحظنا تجني ولا علم عندنا
ولم أرى أغبى من نفوس عفاف
ومن كانت الأجفان حجاب قلبه

وقال آخر:

ومستفتح باب البلاء بنظرة
فوالله ما تدري أيدي بما جنت

وقال آخر:

أنا من بين عـدوـي

من هما قلبي وطرفي

(١) الشادن: ولد الظبية وجمعه شوادن.

(٢) الجرائر جمع جريرة: الذنوب والجنايات.

(٣) الفواقر جمع فاقرة: الدواهي.

يَنْظُرُ الطَّرْفُ وَيَهْوَى الْقَلْدُ
وقال الخفاجي^(١):
بُ وَالْمَقْصُودُ حَفْـي

رَمَتْ عَيْنَهَا عَيْنِي وَرَاحَتْ سَلِيمَةً
فَمَا طَرَفُ قَدْ حَذَرْتُكَ النُّظْرَةَ الَّتِي
وَيَا قَلْبُ قَدْ أَرَدَاكَ طَرْفِي مَرَّةً
وَلِي مِنْ آيَاتٍ لَعَلَّ مَعْنَاهَا مَبْتَكَّرٌ:

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَسْرِقْ مَلَا حَظَةً
نَصَبْتُ طَرْفِي لَهُ لَمَّا بَدَأَ شَرْكَاءَ
فَسَارِقُ اللَّحْظِ لَا يَنْجُو مِنَ الدَّرَكِ^(٢)
فَكَانَ قَلْبِي أَوْلَى مِنْهُ بِالشَّرْكَاءِ

الفائدة الثانية: أنه يورث القلب نوراً وإشراقاً يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه. ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عقيب قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠، ٣٥] وجاء الحديث مطابقاً لهذا حتى كأنه مشتق منه وهو قوله: «النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، فمن غَضَّ بصره عن محاسن امرأةٍ أورث الله قلبه نوراً» الحديث.

الفائدة الثالثة أنه يورث صحة الفراسة فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلب صحَّتِ الفراسة لأنه يصير بمنزلة المرأة المجلوة تظهر فيها المعلومات كما هي، والنظر بمنزلة التنفُّس فيها، فإذا أطلق العبد نظره تنفَّست نفسه الصُّعْدَاءُ فِي مِرَاةٍ قَلْبِهِ فَطَمَسَتْ نَوْرَهَا كَمَا قِيلَ:

مِرَاةٌ قَلْبِكَ لَا تُرِيكَ صِلَاحَهُ وَالنَّفْسُ فِيهَا دَائِمًا تَتَنَفَّسُ
وقال شجاع الكرماني: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغَضَّ بصره عن المحارم، وكَفَّتْ نفسه عن الشهوات، وأكل من الحلال لم تخطيء فراسته. وكان شجاع لا تخطيء له فراسة. والله سبحانه وتعالى يعجز العبد على عمله بما هو من جنسه، فمن غَضَّ بصره عن المحارم عَوَّضَهُ الله سبحانه وتعالى إطلاق نور بصيرته، فلما حبس بصره لله أطلق الله نور بصيرته، ومن أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرته. الفائدة الرابعة أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه، وذلك بسبب

(١) هو عبد الله بن سعيد المعروف بابن سنان الخفاجي.

(٢) العبري: الباكية.

(٣) الدرك: التبعة أو العقاب وهي ما يترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعماله في الشر.

نور القلب، فإنه إذا استتار ظهرت فيه حقائق المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلى بعض. ومن أرسل بصره تكدر عليه قلبه وأظلم، وانسد عليه باب العلم وطرقه.

الفائدة الخامسة أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة. وفي الأثر: إن الذي يخالف هواه يَفَرِّقُ^(١) الشيطان من ظله، ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن أثر هواه على رضاه. قال الحسن: إنهم وإن هَمَلَجَت بهم البغال وطَقَطَقَتْ بهم البراذين^(٢) إن ذل المعصية لفي قلوبهم؛ أبى الله إلا أن يذل من عصاه. وقال بعض الشيوخ: الناس يطلبون العزَّ بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله. ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه. وفيه قِسْطٌ ونصيبٌ من فعل من عاداه بمعاصيه، وفي دعاء القنوت: إنه لا يَذَلُّ من واليت، ولا يَعْزُّ من عاديت.

الفائدة السادسة أنه يورث القلب سروراً وفرحة، وانشراحاً أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه، وأيضاً فإنه لما كف لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرةٌ نفسه الأمانة بالسوء أعاضه الله سبحانه مسرةً ولذةً أكمل منها، كما قال بعضهم: «والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب». ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحاً وسروراً ولذةً أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما. وها هنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السابعة أنه يُخَلِّص القلب من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه، فهو كما قيل:

طليق برأي العين وهو أسير

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكَّن منه عدؤه وسامه سوء العذاب وصار:

كعصفورة في كف طفلٍ يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب

الفائدة الثامنة أنه يسد عنه باباً من أبواب جهنم، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مُواقعة الفعل، وتحريمُ الرب تعالى وشرعه حجابٌ مانعٌ من الوصول، فمتى هتك الحجاب ضري^(٣) على المحذور، ولم تَقِفْ نفسه منه عند غاية، فإن النفس في هذا

(١) يفرق: يخشى ويخاف.

(٢) الهملجة: حسن سير الدابة. والطققة: حكاية صوت حوافر الدواب. والبراذين: الدواب مفردها برذون وبرذونة.

(٣) ضري به أو عليه: لزمه وأولع به، اعتاده وتجراً عليه.

الباب لا تَقْنَعُ بغايةِ تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يُقْنَعُهُ التلبد^(١)، وإن كان أحسنَ منه منظراً وأطيبَ مَخْبِراً، فغَضُّ البصرِ يَسُدُّ عنه هذا الباب الذي عَجَزَتِ الملوكُ عن استيفاء أغراضهم فيه.

الفائدة التاسعة أنه يقوِّي عقله ويزيده ويثبته، فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصلُ إلا من خِفةِ العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب، فإن خاصّةِ العقل ملاحظةِ العواقب. ومُرْسِلُ النظر لو علم ما تجني عواقبُ نظره عليه لما أطلق بصره، قال الشاعر:

وأعقلُ الناسِ من لم يرتكب سبياً حتى يفكّرَ ما تجني عواقبه

الفائدة العاشرة أنه يُخَلِّصُ القلبَ من سُكر الشهوة ورَقْدَةِ الغفلة، فإن إطلاقَ البصرِ يوجب استحكامَ الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرةِ العشق، كما قال الله تعالى عن عشاقِ الصُّور: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. فالنظرةُ كأسٌ من خمر، والعشقُ هو سكر ذلك الشراب، وسكرُ العشق أعظمُ من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يُفَيِّقُ، وسكران العشق قلّما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سكران سكر هوى وسكر مدامية ومتى إفاقته مَنْ به سُكران؟
وفوائد غَضِّ البصر وآفاتُ إرساله أضعافُ أضعافٍ ما ذكرنا، وإنما نَبَّهْنَا عليه تنبيهاً ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلاً إلى قضاء الوطر منه شرعاً، كالْمُرْدَانِ الحسان، فإن إطلاقَ النظر إليهم السُّمُّ الناقع^(٢) والداءُ العُضَالُ^(٣). وقد روى الحافظ محمد بن ناصر من حديث الشَّعْبِيِّ مُرْسِلاً، قال: قدم وفدُ عبد القيس على النبي ﷺ وفيهم غلامٌ أَمْرُدُ ظاهرُ الوضاعة^(٤)، فأجلسه النبي ﷺ وراء ظهره وقال: كَانَتْ خَطِيئَةُ مَنْ مَضَى مِنَ النَّظَرِ. وقال سعيد بن المسيَّب: إذا رأيتم الرجل يحُدُّ النظرَ إلى الغلامِ الأَمْرُدِ فأنهَموه. وقد ذَكَرَ ابن عديّ في كامله من حديث بقية عن الوازع عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يحُدَّ الرجلُ النظرَ إلى الغلامِ الأَمْرُدِ، وكان إبراهيم النَّخَعِيُّ وسفيانُ الثوريّ وغيرُهما من السلفِ يَنْهَوْنَ عن مجالسة المُرْدَانِ. قال النَّخَعِيُّ: مجالستهم فتنةٌ وإنما هم بمنزلة النساء. وبالجمله فكم من مُرْسِلٍ لحظاته رجع بجيش صبره مغلولاً، ولم يقلع حتى تَشَحَّطَ^(٥) بينهم قتيلاً.

يا ناظراً ما أقلعت لحظاته حتى تشحطَ بينهم قتيلاً

(١) التلبد: القديم وضده الطارف.

(٤) الوضاعة: الحسن والجمال والنظافة.

(٢) السم الناقع: البالغ الأثر، القاتل.

(٥) تشحط: تخبط واضطرب وتمرغ.

(٣) الداء العضال: الشديد المعجز، الذي لا طب له.

في ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل منهما صاحبه والحكم بينهما

لما كانت العين رائداً، والقلب باعثاً وطالباً، وهذه لها لذّة الرؤية، وهذا له لذّة الظفر، كانا في الهوى شريكَي عِنان. ولما وقعا في العناء، واشتركا في البلاء، أقبل كلٌّ منهما يلوم صاحبه ويعاتبه.

فقال القلب للعين: أنتِ التي سَقَيْتِني إلى مواردِ الهَلَكاتِ، وأوقعتِني في الحَسراتِ بِمُتَابَعَتِكَ اللَّحَظَاتِ، ونَزَّهْتَ طَرَفَكَ في تلكِ الرياضِ، وطلبتِ الشفاءَ من الحَدَقِ المِراضِ، وخالفتِ قولَ أَحكمَّ الحاكمين: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣٠] وقولَ رسولِهِ ﷺ: «النَّظَرُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، فَمَنْ تَرَكَهُ [من] خَوْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَثَابَهُ اللَّهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»، (رواه الإمام أحمد) حَدَّثَنَا هَشِيمٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ، عَنْ صَلَةٍ، عَنْ حَذِيفَةَ.

وقال عمر بن شَبَّه: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ، حَدَّثَنَا عَنبَسَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقُرَشِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَنِيُّ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ السَّهْمِ أَغْقَبَهُ اللَّهُ عِبَادَةً تَسْرُهُ». فَمَنْ الْمَلُومُ سِوَى مَنْ رَمَى صَاحِبَهُ بِالسَّهْمِ الْمَسْمُومِ؟ أَوْ مَا عَلِمْتَ شَيْءٌ أَضَرَّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْعَيْنِ وَاللِّسَانِ؟ فَمَا عَطَبَ أَكْثَرُ مَنْ عَطَبَ إِلَّا بِهِمَا، وَمَا هَلَكَ أَكْثَرُ مِنْ هَلَكَ إِلَّا بِسَبِّهِمَا، فَاللَّهُ كَمْ مِنْ مَوْرَدٍ هَلَكَةٍ أَوْرَدَاهُ، وَمَصْدَرٍ رَدَى عَنْهُ أَصْدَرَاهُ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْيَا سَعِيداً أَوْ يَعِيشَ حَمِيداً فَلْيَعْغُضْ مِنْ عِنانِ طَرَفِهِ وَلِسَانِهِ لِيَسْلَمَ مِنَ الضَّرَرِ، فَإِنَّهُ كَامِنٌ فِي فَضُولِ الْكَلَامِ وَفُضُولِ النَّظَرِ. وَقَدْ صَرَّحَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ بِأَنَّ الْعَيْنِينَ تَزِينَانِ وَهَمَا أَصْلُ زَنَى الْفَرْجِ، فَإِنَّهُمَا لَهُ رَائِدَانِ، وَإِلَيْهِ دَاعِيَانِ، وَقَدْ سَثَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظَرَةِ الْفَجَاءَةِ فَأَمَرَ السَّائِلَ أَنْ يَصْرِفَ بَصَرَهُ، فَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ ضَرَرَهُ، وَقَالَ لَابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحَذِّراً لَهُ مِمَّا يَوْقَعُ فِي الْفِتْنَةِ وَيُورِثُ الْحَسْرَةَ: «لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ»^(١). أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْعَقْلَاءِ: مَنْ سَرَّحَ نَازِلَهُ،

(١) تقدم تخريجه.

أتعب خاطره، ومن كثرت لحظاته، دامت حَسَرَاتِهِ، وضاعت عليه أوقاته، وفاضت عبراته، وقول الناظم^(١):

نظرُ العيون هو الذي جعل الهلاك إلى الفؤاد سيلا
ما زالت اللحظات تغزو قلبه حتى تشحط بينهما قتيلا
وقال آخر^(٢):

تَمَتَّعْتُ مَا يَا مَقْلَتِيَّ بِنَظْرَةٍ وَأُورِدْتُ مَا قَلْبِي أَمَرَ الْمَوَارِدِ
أَعْيَنِي كُفَا عَنْ فُؤَادِي فَإِنَّهُ مِنْ الظُّلَمِ سَعْيُ اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدِ
فصل: قالت العين: ظلمتني أولاً وآخراً، وبُوتَ بِإِثْمِي بَاطِناً وَظَاهِراً، وما أنا إلا رسولك الداعي إليك، ورائدك الدالُّ عليك.

وإذا بعثت برائد نحو الذي تهوى وتعتبه ظلمت الرائد
فأنت الملك المطاع، ونحن الجنود والأتباع. أركبني في حاجتك خيل البريد، ثم أقبلت عليّ بالتهديد والوعيد. فلو أمرتني أن أغلق عليّ بابي، وأرخي عليّ حجابي، لسمعتُ وأطعت، ولَمَّا رَعَيْتُ فِي الْحِمَى^(٣) ورعت، أرسلتني لصيدٍ قد نُصِبَتْ لَكَ حَبَائِلُهُ وأشراكه، واستدارت حولك فخاخُه وشبَّاكُه. فغدوت أسيراً، بعد أن كنت أميراً، وأصبحت مملوكاً، بعد أن كنت ملكاً. هذا وقد حكم لي عليك سيد الأنام وأعدل الحكام عليه الصلاة والسلام، حيث يقول: «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٤)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: القلبُ ملك والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده. ولو أنعمت النظر لعلمت أن فساد رعيك بفسادك، وصلاحتها ورشدها برشادك، ولكنك هلكت وأهلك رعيك، وحملت على العين الضعيفة خطيئتك، وأصل بليتك أنه خلا منك حبُّ الله وحبُّ ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته، وأقبلت على غيره وأعرضت عنه، وتعوّضت بحب من سواه والرغبة فيه منه. هذا وقد سمعت ما قص عليك من إنكاره سبحانه على بني إسرائيل استبدالهم طعاماً بطعام أدنى

(١) البيتان لابن مرداس كما جاء في سحر العيون.

(٢) البيتان للأرجاني كما جاء في تزيين الأشواق وفيهما: أعيناي.

(٣) الحمى: الموضع فيه كلاً يحمى من الناس أن يرمى فيه. وحمى الله: محارمه. ورعت الماشية: رعت كيف شاءت في خصب وسعة.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٩. ومسلم في المساقاة حديث ١٠٧. وابن ماجه في الفتن باب ١٤. والدارمي في البيوع باب ١.

منه، فذمَّهم على ذلك ونعاه عليهم، وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [النور: ٦١] فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه وفاطره، وولَّيه ومالك أمره، الذي لا صلاح له ولا فلاح، ولا نعيم ولا سرور، ولا فرحة ولا نجاة، إلا بأن يوحِّده في الحب، ويكونَ أحبَّ إليه مما سواه، فانظر بالله بمن استبدلت؟ وبمحبة من تعوضت؟ رضىت لنفسك بالحبس في الحبس^(١)، وقلوبٌ محبيه تجول حول العرش. فلو أقبلت عليه وأعرضت عمن سواه لرأيت العجائب، ولأمنت من المتالف والمعاطب، أو ما علمت أنه خصَّ بالفوز والنعيم، من أتاه بقلب سليم، أي سليم مما سواه، ليس فيه غير حبه واتباع رضاه. قالت وبين ذنبي وذنبك عند الناس كما بين عمائي وعماك في القياس. وقد قال من بيده أزمَّة الأمور: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فصل: فلما سمعت الكبد تحاورهما الكلام، وتناولهما الخصام، قالت: أنتما على هلاكي تساعدتما، وعلى قتلي تعاونتما. وقد أنصف من حكى مناظرتكما، وعلى لساني منظماً منكما:

يقول طرفي لقلبي هجّت لي سقماً والجسمُ يشهد أن العينَ كاذبةٌ
والعيونُ وما يَجْنِينَ من سَقَمٍ فقالَت الكبدُ المظلومةُ اتَّيْداً
والعينُ تزعمُ أن القلبَ أنكأها^(٢) وهي التي هيَّجت للقلب بُلُوها
ما كنتُ مُطَرِّحاً من بعضِ قَتْلَها قطعتماني وما راقبتم اللّهُ
وقال آخر^(٣):

يقول قلبي لطرفي أن بكى جزعا فقال طرفي له فيما يعاتبه
حتى إذا ما خلا كلُّ بصاحبه نادتهما كبدي لا تبعدا فلقد
وقال آخر:

عاتبْتُ قلبي لما فألزم القلبُ طرفي
رأيتُ جسمي نخيلاً وقال كنتَ الرسولا

(١) الحبس مثله: البستان. وهو أيضاً المخرج. وكانوا يقضون حوائجهم في البساتين.

(٢) أنكأها: أوقع بها؛ ونكى: غلب وقهر وانتصر.

(٣) في سحر العيون أنه ابن جنكيتا البغدادى.

فقال طرفي لقلبي بل كنت أنت الدليلا
فقلت كُفّا جميعاً تركتمانني قتيلا

ثم قالت: أنا أتولى الحكم بينكما. أنتما في البلية شريكا عِنان، كما أنكما في اللذة والمسرة فرسا رهان. فالعينُ تلتذُّ، والقلبُ يتمنى ويشتهي، ولهذا قال فيكما القائل:

ولما سلّوتُ الحبَّ بَشَّرَ ناظري لقلبي فقال القلبُ لي ولك الهنا
تخلّصت من إحياء ليلك ساهراً وخلّصتني من لوعة الهجر والضنا
كلانا مُهْتَباً بالبقاء فإن تُعَذِّدْ فلا أنتَ يبيك الغرامُ ولا أنا

وإن لم تُدْرِكُكُما عناية مُقلِّبِ القلوب والأبصار، وإلا فما لك من قُرّة ولا للقلب من قرار، قال الشاعر:

فوالله ما أدري أنفسي ألوْمُها على الحبِّ أم عيني المشؤمة أم قلبي
فإن لُمتُ قلبي قال لي العين أبصرتُ وإن لُمتُ عيني قالت الذنبُ للقلب
فيعيني وقلبي قد تقاسمتما دمي فيا رب كن عوناً على العين والقلب

قالت: ولما سقيت القلب ماء المحبة بكؤوسك، أوقدت عليه نارَ الشوق فارتفع إليك البخار، فتقاطر منك فشرقت بشربه أولاً، وشرقت بحرّ ناره ثانياً، قال:

خذي بيدي ثم اكشفي الثوبَ فانظري ضنى جسدي لكنني أنستُ
وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنها رُوحٌ تذب فتقطر

قالت: والحاكم بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصما بين يديه فإن في الأثر المشهور: لا تزالُ الخصومةُ يومَ القيامةِ بينَ الخلائقِ حتّى تختصمَ الرُوحُ والجسدُ فيقولُ الجسدُ للروح: أنتِ الذي حرّكتيني وأمرتيني وصرّفتيني، وإلا فأنا لم أكن أتحركُ ولا أفعلُ بدونك. فتقول الروحُ له: وأنت الذي أكلت وشربت وباشرت وتنعمت، فأنت الذي تستحقُّ العقوبةَ، فيُرسلُ الله سبحانه إليهما ملكاً يحكمُ بينهما فيقول: مثلكما مثلُ مُقْعَدٍ بصيرٍ وأعمى يمشي، دخلاً بستاناً فقال المقعدُ للأعمى: أنا أرى ما فيه من الثمار ولكن لا أستطيعُ القيامَ، وقال الأعمى: أنا أستطيعُ القيامَ ولكن لا أبصرُ شيئاً، فقال له المقعدُ: تعالِ فاخملني فأنت تمشي وأنا أتناولُ، فعلى من تكونُ العقوبة؟ فيقول: عليهما، قال فكذلك أنتما. وبالله التوفيق.

في ذكر الشبه التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه

قالت هذه الطائفة: بيننا وبينكم الكتاب والسنة، وأقوال أئمة الإسلام والمعقول الصحيح.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا يعم جميع ما خلق الله فما الذي أخرج من عمومه الوجه المليح؟ وهو من أحسن ما خلق. وموضع الاستدلال به والاعتبار أقوى، ولذلك يُسبِّحُ الخالق سبحانه عند رؤيته، كما قال بعض الناظرين إلى جميل الصورة:

ذي طلعة سبحان فآلق صبحه ومعاطف^(١) جلت يمين الغارس
مرّت بأرجاء الخيال طيوفه فبكت على رسم السُّلُو الدارس^(٢)

ورؤية الجمال البديع تُنطق ألسنة الناظرين بقولهم: سبحان الله رب العالمين، وتبارك أحسن الخالقين، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن عبثاً، وإنما أظهرها ليستدل الناظر إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعه، فلا تُعطل عما خلقت له.

وأما السنة فالحديث المشهور: «النَّظَرُ إِلَى الْوَجْهِ الْمَلِيحِ عِبَادَةٌ»^(٣).

وفي الحديث الآخر: «اطْلُبُوا الْخَيْرَ مِنْ حَسَنِ الْوُجُوهِ»^(٤). وفي هذا إرشادٌ إلى

(١) المعاطف: المواضع التي تشنى من الجسد.

(٢) درس درساً: عفا وزهد أثره وبلي وتقادم عهده.

(٣) أورده علي القاري في الأسرار المرفوعة (٣٥، ٣٧٠، ٤٣٦). بلفظ: «النظر إلى الوجه الجميل عبادة».

(٤) وفي بعض ألفاظ الحديث: «... عند صباح الوجوه». أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٤/٨) والذهبي في ميزان الاعتدال (٣٤٢٧، ٤٠٠٨، ٥١٣٦، ٧٨٧٩، ٨٣٥٣) وابن حجر في لسان الميزان (١٥٨٧/٣، ٤١٨/٤، ٥٣٨/٥) وابن حبان في المجروحين (٢٤٨/١، ٣١٣/٢) والزيدي في إتحاف السادة المتقين (١٩/٩) والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١٠٣/٤) والسيوطي في اللآلئ المصنوعة (٤١/٢) والخطيب في تاريخ بغداد (١٨٥/٤، ١١/٧، ٤٣/١١، ٢٩٦، = روضة المحبين / م ٦

تصَفَّحَ الوجوه وتَأَمَّلَهَا. وخطب رجلٌ امرأةً فاستشار النبي ﷺ في نكاحها، فقال: «هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟» فقال: لا، قال: «اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا». ولو كان النظرُ حراماً لما أُطلق له أن ينظر فإنه لا يأمن الفتنة.

وأما أقوال الأئمة فحكى السمعاني أن الشافعي رضي الله عنه كتب إليه رجلٌ في رقعة:

سل المُفْتِي المَكِّيَّ هل في تزاورٍ ونظرةٍ مشتاقِ الفؤادِ جُناحٍ^(١)
فأجابه الشافعي:

معاذَ إِلَه العَرُش أن يُذهب التقى تَلاصُّقُ أَكْبَادٍ بهنَّ جراح
وذكر الخرائطي هذا السؤال والجواب عن عطاء بن أبي رباح، وأوله: سألت عطاء المكي. وذكر الحاكم في مناقب الشافعي رضي الله عنه من شعره:

يقولون لا تنظر وتلك بليَّةٌ ألا كلُّ ذي عينين لا بدَّ ناظر
وليس اكتحالُ العين بالعين ريبَةً إذا عفَّ فيما بين الضمائر
وذكر الاسترباباذي في كتاب مناقب الشافعي أن رجلاً كتب إلى سعيد بن المسيَّب:

يا سيد التابعين والبرَّة
فكن بفتواك مشفقاً رفقاً
هل حرم الله لئِمَ خدَّ فتى
أوصافه بالجمال مشتهرة
فأجابه سعيد:

يا سائلي عن خفيٍّ لوعته
ولا تكن طالباً لفاحشة
وراقب الله واخش سَطَوَتَه
وقبِّل الخد من حبيبك ذا
عليك بالصبر تحمَدَن أثرة
أو كالذي ساق سيلُه مطرة
وخالف الفاسقين والفجرة
في كل يومٍ وليلةٍ عَشرة

(١٣/١٥٨). والبخاري في التاريخ الكبير (١/٥١، ١٥٧) والتاريخ الصغير (٢/١٧٦) والشجري في أماليه (٢/١٥٤) والعقيلي في الضعفاء (٢/١٢١، ١٣٩، ٣/٣٤٠، ٤/١٠٢) وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٣/١١٣٨) والسيوطي في الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة (٣٩). وابن الجوزي في تلبيس إبليس (٢٦٥) والموضوعات (٢/١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢) وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (٥١) وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (١١٦) والسهمي في تاريخ جرجان (٣٨٥) وأبو نعيم في تاريخ أصفهان (٢/٥٩).
(١) الجناح بالضم: الإثم والجرم والميل إلى الإثم.

وقال أبو العباس المبرد في الكامل: قال أعرابي أنشدني أبو العالية:

سألتُ الفتى المكِّيَّ ذا العلم ما الذي يحلّ من التقبيل في رمضان
فقال لي المكِّيُّ أما لزوجةٍ فسبغُ وأما خُلَّةٌ^(١) فثمان

وذكر أبو بكر الخطيب في كتاب رواه مالك عن بعضهم:

أقول لمُفتٍ بين مَكَّةَ والصفَا لك الخيرُ هل في وصلهنَّ حرام
وهل في صَمُوتِ الحَجَلِ مهضومة الحشا عَذَابِ الثَّايَا إِنْ لَثَمْتُ أَثَامَ^(٢)
فقال لي المفتي وسالت دموعةً عَلَى الخَدِّ من عينيه فهي تُؤَامُ
ألا ليتني قَبَلْتُ تلكَ عشيَّةً يبطن مِنِّي والمُحَرِّمونَ نيام

وقال الحاكم في كتاب مناقب الشافعي: حدثنا أبو العلاء بن كوشيار الحاري، أنبأنا علي بن سليمان الأخفش، عن محمد بن الجهم قال: سمعت الربيع يقول: حضرت الشافعي بمكة وقد دفع إليه رجل رقعة فيها:

أقول لمفتي خَيْفِ مَكَّةَ والصفَا لك الخيرُ هل في وصلهنَّ حرام
وهل في صَمُوتِ الحَجَلِ مهضومة الحشا عَذَابِ الثَّايَا إِنْ لَثَمْتُ أَثَامَ
قال: فوقَّع الشافعي فيها:

فقال لي المفتي وفاضت دموعةً عَلَى الخَدِّ من عينٍ وهنَّ تُؤَامُ
ألا ليتني قَبَلْتُ تلكَ عشيَّةً يبطن مِنِّي والمُحَرِّمونَ قِيَام
وقال عمرو بن سفيان ابن ابنة جامع ابن مُرْخِيَّة^(٣):

إِنَّا سَأَلْنَا مَالَكاً وَقَرِينَهُ لَيْثَ بَنِ سَعْدٍ عَنِ لِثَامِ الْوَامِقِ^(٤)
أَيَجُوزُ قَالَا وَالَّذِي خَلَقَ الْوَرَى مَا حَرَّمَ الرَّحْمَنُ قَبْلَةَ عَاشِقِ

ذكر ذلك صاحب كتاب رستاق الاتفاق وهو شاعر المصري، وأنشد فيه لعمرو ابن سفيان هذا وكتب بها إلى ابن عُيَيْنَةَ:

(١) الخلّة: الصداقة والمحبة التي تخللت القلب. والصدّيق يستوي فيه المذكر والمؤنث. وخلّة الإنسان أهل مودته. وخلّة الرجل: الزوجة.

(٢) الحجل: القيد وهو الخلخال أيضاً. وجارية صموت: لا يسمع لخلخالها صوت لامتلاء ساقها، ومهضومة الحشا: ضامرة البطن.

(٣) في تاج العروس: ومرخية كمحسنة لقب جامع بن مالك بن شداد قال: وفي التكملة لقب جامع بن شداد بن ربيعة بن عبد الله بن أبي بكر بن قلاب.

(٤) الوامق: المحب.

قلنا لسفيان الهلالي مرةً حرّمت ضَمَّ العاشق المشتاق
لحبيبه من بعد نأْي ناله فأجاب لا والواحد الخلاق
وأنشد فيه لجذّه جامع، وكتب بها إلى علي بن زيد بن جُدعان:

سألنا ابن جُدعان بن عَمْرٍو أخا العلا أيحرم لثَمُ الحُبِّ في ليلة القدر
فقال لنا المكيّ وناهيك عِلْمُهُ ألا لا ومن قد جاء بالشفع والوتر
وأنشد لإبراهيم بن المدبّر وكتب بها إلى أبي بكر بن عياش أحد أئمة القراء:

سألت ابن عَيَّاش وكان معلّماً لك الخير هل في ضَمّة الحُبِّ من وزر
فقال أبو بكر ولا في لثامه ألم يأتنا التنزيل بالوَضْع للإضر
وأنشد لآخر، وكتب بها إلى الإمام أحمد بن حنبل قال: وزعم بعضهم أنه إسحاق
ابن مُعاذ بن زهير شاعر أهل مصر في وقته:

سألتُ إمام الناس نَجْلَ ابنِ حَنْبَلٍ عن الضمِّ والتقييل هل فيه من باس
فقال إذا جَلَّ العِزَّاء فواجبٌ لأنك قد أحيت عبداً من الناس
وأنشد لابن مُرَحِيّة، وكتب بها إلى أبي حنيفة:

كتبتُ إلى النعمان يوماً رسالةً نسائله عن لثَمِ حِبِّ ممْنَع
فقال لنا لا إثم فيه وإنه شهيّ إذا كانت لعشرٍ وأربع
وكتب رجل إلى أبي جعفر الطحاوي:

أبا جعفرٍ ماذا تقول فإنّه إذا نابنا خَطْبُ عليك المعوّل
فلا تُتكرَن قولِي وأبشر برحمة الـ إله عن الأمر الذي عنه نسأل
أبالحُبِّ عارٌ أم من الحب مَهْرَبٌ وهل من لَحَا^(١) أهل الصباية يجهل
وهل بمباح فيه قتلٌ مُتَيَّمٌ يهاجره أحبابه وهو يوصل
فراؤيك في ردّ الجواب فإنني بما فيه تقضي أيها الشيخُ أفعل
فأجابه الطّحاوي:

سأقضي في الذي عنه تَسأل وأحكّم بين العاشقين فأعدل
فديتك ما بالحب عارٌ عِلْمُته لعمرِكَ عندي من ذوي الجهل أجهل
وليس مباحاً عندنا قتلٌ مسلمٍ بلا تِرّة^(٢) بل قاتلُ النفس يُقتل

(١) لحا: لام.

(٢) الترة: الدحل، أي الثار عامة أو الظلم فيه.

ولكنه إن مات في الحب لم يكن له قودٌ فيه ولا عنه يُعقل^(١)
 وصالك من تهوى وإن صدَّ واجبٌ عليك كذا حكمُ المقيم يفعل
 فهذا جوابٌ فيه عندي قناعةٌ لما جئت عنه أيها الصب تسأل
 ويكفي أن المعتزلة من أشدَّ الناس تعظيماً للذنوب، وهم يخلدون أصحاب الكبائر
 ولا يرون تحريم ذلك، كما ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه المشهور
 لبعض المعتزلة:

سألنا أبا عثمان عمراً وواصلاً عن الضمِّ والتقييل للخذِّ والجيد
 فقالوا جميعاً والذي هو عادلٌ يجوز بلا إثمٍ قولٌ تفييد^(٢)
 وقال إسحاق بن شبيب:

سألنا شيوخَ الواسطيين كلَّهم عن الرِّشْفِ والتقييل هل فيهما إثمٌ
 فقالوا جميعاً ليس إثمٌ لزوجَةٍ ولا خُلَّةٍ والضمُّ من هذه غُثمٌ
 وأنشد أبو الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن سعد الخير في كتابه شرح الكامل:

فلما أن أبيض لنا التلاقي تعانقنا كما اعتنق الصديق
 وهل حرجاً تراه أو حراماً مشوقٌ ضمَّه صبُّ مشوق

وقال الخطيب في تاريخ بغداد: حدَّثنا أبو الحسن علي بن أيوب بن الحسن إملاء،
 حدَّثنا أبو عبد الله المرزباني وابن حيويه وابن شاذان قالوا: حدَّثنا أبو عبد الله إبراهيم
 ابن محمد بن عرفة نَفْطَوِيهِ بِقُرْطَبَةِ قَالَ: دخلت على محمد بن داود الأصبهاني في مرضه
 الذي مات فيه فقلت له: كيف تجدك؟ قال: حبٌّ مَنْ تعلم أورشني ما ترى، فقلت له:
 مامنك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ قال: الاستمتاع على وجهين: أحدهما النظرُ
 المباح، والثاني اللذة المحظورة. فأما النظر المباح فأورشني ما ترى، وذكر القصة.
 وستأتي في باب عفاف العشاق. والمقصود أنه لم يرَ النظر إلى معشوقه ولا عشقه حراماً.
 وجرى على هذا المذهب أبو محمد بن حزم في كتاب «طوق الحمامة» له. قالوا: ونحن
 نحاكمكم إلى واحدٍ يُعدُّ بالآلاف مؤلفة وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه سئل:

ما تقول السادة الفقهاء رضي الله عنهم في رجلٍ عاشقٍ في صورة وهي مُصِرَّةٌ على
 هجره منذ زمنٍ طويل لا تزيده إلا بعداً، ولا يزداد لها إلا حبّاً، وعشقه لهذه الصورة من

(١) القود: القصاص. والعقل: الدية. عقل القتيل: أعطى دية. وقد عقل عنه، أي غرم عنه إذا لزمته
 دية فأداها عنه.

(٢) تفند فلان: تندم لرأي أخطأ فيه.

غير فسقٍ ولا خنى، ولا هو ممن يُدَنَسُ عشقه بزنى، وقد أفضى به الحال إلى الهلاك لا محالة، إن بقي مع محبوبه على هذه الحالة، فهل يحلّ لمن هذه حاله أن يُهجَرَ؟ وهل يجب وصّاله على المحبوب المذكور؟ وهل يأثم ببقائه على هجره؟ وما يجب من تفاصيل أمرهما؟ وما لكل واحدٍ منهما على الآخر من الحقوق مما يوافق الشرع الشريف؟

فأجاب بخطه بجوابٍ طويل قال في أثنائه: فالعاشقُ له ثلاثُ مقامات: ابتداء، وتوسُّط، ونهاية. أم ابتداءه فواجبٌ عليه فيها كتمانُ ذلك وعدمُ إفشائه للخلق، مراعيًا في ذلك شرائطَ الفتوة من العفة مع القدرة، فإن زاد به الحال إلى المقام الأوسط فلا بأس بإعلام محبوبه بمحبته إياه، فيخفّ بإعلامه وشكواه إليه ما يجد منه، ويحذر من اطلاع الناس على ذلك، فإن زاد به الأمر حتى خرج عن الحدود والضوابط التحق بالمجانين والموسوسين. فانقسم العشاق قسمين: قسمٌ قنعوا بالنظرة بعد النظرة، فمنهم من يموت وهو كذلك ولا يُظهر سرّه لأحد، حتى محبوبه لا يدري به، وقد روي عن النبي ﷺ: «مَنْ عَشِقَ فَعَقَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(١)، والقسم الثاني أباحوا لمن وصل إلى حدٍّ يخاف على نفسه منه القبلة في الحين، قالوا: لأن تركها قد يؤدّي إلى هلاك النفس، والقبلة صغيرة وهلاك النفس كبيرة. وإذا وقع الإنسان في مَرَضَيْنِ داوَى الأخطر ولا خطر أعظم من قتل النفس، حتى أوجبوا على المحبوب مطاوعته على ذلك إذا علم أن ترك ذلك يؤدّي إلى هلاكه، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرْ عَنْكُمْ سَبْعًا تَكُونُ﴾ [النساء: ٣٠] وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] وبحديث الذي قال: يا رسول الله، إني لقيت امرأة أجنبية فأصبت منها كلّ شيءٍ إلّا النكاح، قال: «أَصْلَيْتِ معنا؟» قال: نعم، قال: «إِنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَكَ»^(٢) فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٥]، ثم قال: فإن كان هذا السائلُ كما زعم ممن لا يدنس عشقه بزنى، ولا يصحبه بخنى فيُنظَرُ في حاله، فإن كان من الطبقة الأولى فالنظر كافٍ لهم إن

(١) ذكره بلفظ: «من عشق فظفر فعقّ فمات مات شهيداً» الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/٤٤٠) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٦٣). ولفظ: «من عشق فعقّ ثم مات فهو شهيد» الزبيدي في الإتحاف (٧/٤٤٠) والمتقي الهندي في كنز العمال (١١٧٩) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٦٤) ورؤي بالفاظ مقاربة في مواضع أخرى.

(٢) أخرجه الترمذي بنحوه وفي إسناده قيس بن الربيع وضعفه وكيع وابن المديني وقال ابن معين: ضعيف الحديث لا يساوي شيئاً. كما رواه الترمذي أيضاً من طريق آخر وقال: هذا الحديث ليس بمتصل لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ وكذا قال ابن المديني وابن خزيمة: لم يسمع من معاذ بن جبل رضي الله عنه. راجع تفسير الخازن وتهذيب التهذيب.

صدقت دعواهم، وإن كان من الطبقة الثانية فلا بأس بشكواه إلى محبوبه كي يرقَّ عليه ويرحمه، وإن غلب عليه الحال فالتحق بالثالثة أُبيح له ما ذكرنا بشرط أن لا يكون أنموذجاً لفعل القبيح المحرم، فيلتحق بالكبائر ويستحق القتل عند ذلك ويزول عنه العذر ويحقَّ عليه كلمة العذاب. انتهى ما ذكرناه من جوابه.

قالوا: وقد جَوِّزَت طائفة من فقهاء السلف والخلف والعلماء استمناء الإنسان بيده إذا خاف الزنى، وقد جَوِّزَت طائفة من الفقهاء لمن خاف على نفسه في الصوم الواجب من شدة السَّبَق أن تتشقق أنثيَّاه أن يجامع امرأته، وَيَنوِّا على ذلك فرعاً: وهو إذا كان له امرأتان حائضٌ وصائمة فهل يطأ هذه أو هذه؟ عَلَى وجهين؛ ولا ريب أن النظر والقبلة والضمُّ إذا تَضَمَّنَّ شفاء من دائه كان أسهلَّ من الاستمناء باليد والوطء في نهار رمضان. وقد جَوِّزَ بعض الفقهاء للمرأة إذا خافت الزنى أن تتخذ لها شيئاً تدخله في فرجها وتخرجه لثلاً تقع في محذور الزنى.

ولا ريب أن الشريعة جاءت بالتزام الدخول في أدنى المفسدتين دفعاً لأعلاهما، وتقويت أدنى المصلحتين تحصيلاً لأعلاهما، فأين مفسدة النظر والقبلة والضمُّ من مفسدة المرض والجنون أو الهلاك جملة؟ فهذا ما احتجت به هذه الفرقة ونحن نذكر ما لها وما عليها في ذلك بحول الله وقوَّته وعونه.

في الجواب عما احتجت به هذه الطائفة وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج

وَسُبُّهُمْ التي ذكروها دائرة بين ثلاثة أقسام: أحدها: نُقُولُ صحيحة لا حجة لهم فيها، والثاني: نُقُولُ كاذبة عمن نسبت إليه من وضع الفساق والفجار كما سنبينه، الثالث: نُقُولُ مُجْمَلَةٌ محتملة لخلاف ما ذهبوا إليه.

فأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤] فهو نظير احتجاجهم بعينه على إباحة السماع الشيطاني الفسقي بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، قالوا: والقول عامٌ فحملوا لفظه ومعناه ما هو بريء منه. وإنما القول هاهنا ما أمرهم الله باستماعه، وهو وخيه الذي أنزله على رسوله وهو الذي قال فيه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١] فهذا هو القول الذي أمروا باتباع أحسنه كما قال: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] والنظر الذي أمرنا سبحانه به المؤدي إلى معرفته والإيمان به ومحبيه والاستدلال على صدق رُسله فيما أخبروا به عنه من أسمائه وصفاته وأفعاله وعقابه وثوابه، لا النظر الذي يوجب تعلق الناظر بالصورة التي يخرم عليه الاستمتاع بها نظراً ومباشرة، فهذا النظر الذي أمر الله سبحانه وتعالى صاحبه بغض بصره، هذا مع أن القوم لم يبتكروا بالمُردان، وهم كانوا أشرف نفوساً، وأطهر قلوباً من ذلك، فإذا أمرهم بغض أبصارهم عن الصورة التي تباح لهم في بعض الأحوال خشية الافتتان، فكيف النظر إلى صورة لا تباح بحال؟ ثم يقال لهذه الطائفة: النظر الذي ندب الله إليه نظرٌ يثاب عليه الناظر، وهو نظرٌ موافق لأمره، يقصد به معرفة ربه ومحبيه، لا النظر الشيطاني. ويشبه هذا الاستدلال استدلال بعض الزنادقة المتسبين إلى الفقه على حل الفاحشة بمملوك الرجل بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦، والمعارج: ٣٠]، ومعتقد ذلك كافرٌ حلالٌ الدم بعد قيام الحجة عليه، وإنما تسترت هذه الطائفة لهواها وشهواتها، وأوهمت أنها تنظر عبرة

واستدلالاً، حتى آل ببعضهم الأمرُ إلى أن ظنُّوا أن نظرهم عبادةً، لأنهم ينظرون إلى مظاهر الجمال الإلهي، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى عن قول إخوان النصارى يظهر في تلك الصورة الجميلة، ويجعلون هذا طريقاً إلى الله، كما وقع فيه طوائف كثيرة ممن يدَّعي المعرفة والسلوك.

قال شيخنا رحمه الله تعالى^(١): وكفر هؤلاء شرٌّ من كفر قوم لوط، وشرٌّ من كفر عبّاد الأصنام، فإن أولئك لم يقولوا: إن الله سبحانه يتجلّى في تلك الصورة، وعبّاد الأصنام غاية ما قالوه: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وهؤلاء قالوا: نعبدهم لأن الله ظهر في صُورهم. وحكى لي شيخنا: أن رجلاً من هؤلاء مرَّ به شابٌ جميلٌ فجعل يُتبعه بصره، فأنكر عليه جليساً له وقال: لا يصلح هذا لمثلك، فقال: إني أرى فيه صفاتٍ معبودي وهو مظهرٌ من مظاهر جماله، فقال: لقد فعلت به وصنعت، فقال: وإن. قال شيخنا: فلعن الله أمةً معبودها مَوطوؤها. قال: وسئل أفضلُ متأخريهم العفيفُ التلمساني فقيل له: إذا كان الوجود واحداً فما الفرق بين الأخت والبنت والأجنبية حتى تحلَّ هذه؟ فقال: الجميعُ عندنا سواء ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرامٌ، فقلنا: حرامٌ عليكم. ومن هؤلاء الزنادقة من يخصّ ذلك ببعض الصُور، فهؤلاء من جنس النصارى بل هم إخوانهم، فالنظر عند هؤلاء إلى الصُور المحرّمة عبادة، ويشبه أن يكون هذا الحديث من وضع بعض هؤلاء الزنادقة، أو مُجَّان الفُسَّاق، وإلا فرسول الله ﷺ بريء منه. وسئل شيخنا عن قول: النظر إلى الوجه الحسن عبادة، ويروى ذلك عن النبي ﷺ، فهل ذلك صحيحٌ أم لا؟ فأجاب بأن قال: هذا كذبٌ باطل، ومن روى ذلك عن النبي ﷺ أو ما يشبهه فقد كذب عليه ﷺ، فإن هذا لم يَرَوْه أحدٌ من أهل الحديث لا بإسناد صحيح ولا ضعيف بل هو من الموضوعات، وهو مخالفٌ لإجماع المسلمين. فإنه لم يقل أحدٌ إن النظر إلى المرأة الأجنبية والصبيّ الأمرد عبادة. ومن زعم ذلك، فإنه يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل، فإن النظر منه ما هو حرامٌ، ومنه ما هو مكروهٌ، ومنه ما هو مباحٌ والله أعلم. وأما الحديث الآخر، وهو: «أَطْلُبُوا الْخَيْرَ مِنْ حَسَنِ الْوُجُوهِ»^(٢) فهذا وإن كان قد روي بإسناد إلا أنه باطلٌ لم يصحَّ عن رسول الله ﷺ. ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة، فإنه إنما أمر بطلب الخير منهم لا بطلب وصالهم ونيل المحرّم منهم، فإن الوجه الجميل مَطَنَةُ الفعل الجميل، فإن الأخلاق في الغالب مناسبةٌ لِلخَلْقَةِ بينهما نسبٌ قريب، وأما أمر النبي ﷺ للخاطب بأن ينظر إلى المخطوبة فذلك نظرٌ للحاجة،

(١) هو شيخه أبو العباس أحمد بن تيمية.

(٢) تقدم تخريجه قبل صفحات.

وهو مأمور به أمر استحباب عند الجمهور، وأمر إيجاب عند بعض أهل الظاهر، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجحة، وهو دخول الزوج على بصيرة وأبعد من ندمه ونفرتة عن المرأة، فالنظر المباح أنواع هذا أحدها بخلاف النظر إلى الصورة المحرمة.

فصل: وأما ما ذكره السمعاني عن الشافعي - رحمه الله تعالى - فمن تحريف الناقل. والسائل لم يذكر لفظ الشافعي، والبيتان هكذا هما:

سألت الفتى المكِّي هل في تزاورٍ ونظرة مشتاق الفؤاد جناح
فقال معاذ الله أن يُذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

فهذا السائل هو الذي ذكر السؤال والجواب، وهو مجهول لا يُعرف هل هو ثقة أم لا؟ ثم إن الجواب لا يدل على مقصود هذه الفرقة بوجه ما، بل هو حجة عليها فإنه نهى أن يُذهب التقى تلاصق هذه الأكباد، فكأنه قال: لا تتلاصق هذه الأكباد لئلا يُذهب تلاصقها التقى، فالتلاصق المذكور فاعلٌ، والتقى مفعولٌ، فكأنه قال: لا يفعل لئلا يُذهب التلاصق التقى. وجواب آخر وهو أن هذا التلاصق إنما يكون غير مذهبٍ للتقى إذا كان في عشق مباح بل مستحب كعشق الزوجة والأمة.

وأما ما ذكروا عن سعيد بن المسيب - رحمه الله تعالى - فقد أجاب عنه سعيد نفسه، فإنه لما مرَّ به مُرخية هذا السائل - وكان من بني كلاب - قال سعيد: هذا من أكذب العرب، قيل: كيف يا أبا محمد؟ قال: أليس الذي يقول:

سألت سعيد بن المسيب مفتي الـ مدينة هل في حب دهماء^(١) من وزر
فقال سعيد بن المسيب إنما تلام على ما تستطيع من الأمر

كذب والله ما سألتني عن شيء من هذا قط ولا أفتيته. وإذا كان هذا جواب سعيد في مثل هذا فما جوابه لمن سأله أن يقبل حبياً أجنبياً كل يوم وليلة عشرة؟ فقبح الله الفسقة الكذابين على العلماء لا سيما على مثل سعيد، فهؤلاء كلهم فسقة كاذبون أرادوا تنفيق فسقهم بالكذب على علماء وقتهم، كما نفق الفاسق أبو نؤاس كذبه على إسحاق بن يوسف الأزرق. قال عبد الله بن محمد ابن عائشة: أتيت إسحاق بن يوسف الأزرق يوماً، فلما رأيته بكى، قلت: ما يبكيك؟ قال: هذا أبو نؤاس، قلت: ما له؟ قال: يا جارية، أئتينى بالقرطاس فإذا هو فيه مكتوب:

يا ساحر المقلتين والجيد وقاتلي منه بالمواعيد

(١) الدهماء: السوداء. والشفة الدهماء: الخالصة الحمراء وعامة الناس وسوادهم.

توعدني الوصلَ ثم تُخْلِفُنِي ويلاه من مخلف لموعودي
 حَدَّثَنِي الْأَزْرَقُ الْمُحَدَّثُ عَنْ شَمْرِ وَعُوفٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ
 لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ غَيْرَ كَافِرَةٍ أَوْ كَافِرٍ فِي الْجَحِيمِ مَصْفُودٍ
 كَذَبَ وَاللَّهِ عَلَيَّ وَعَلَى التَّابِعِينَ وَعَلَى الصَّحَابَةِ. وَلَوْ صَحَّ عَنْ سَعِيدٍ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِ
 حُجَّةٌ فَإِنْ سَعِيداً أَمَرَهُ بِالصَّبْرِ أَوَّلًا، وَمِرَاقِبَةِ اللَّهِ وَخَوْفِ سَطْوَتِهِ وَمُخَالَفَةِ الْفَسَقَةِ، ثُمَّ أَمَرَهُ
 بِتَقْبِيلِ خَدِّ مَنْ يَحِبُّهُ كُلَّ يَوْمٍ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَهَذَا قَطْعاً إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ مَنْ يَحِلُّ لَهُ تَقْبِيلُهُ مِنْ
 زَوْجَةٍ أَوْ سُرِّيَّةٍ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَعَاضَ بِقَبْلَتِهَا مِنْ لَا يَحِلُّ لَهُ، وَلَا يَظُنُّ بَعْلَمَاءَ الْإِسْلَامِ غَيْرَ هَذَا
 إِلَّا مُفْرِطٌ فِي الْجَهْلِ أَوْ مُتَّهَمٌ عَلَى الدِّينِ.

وأما ما ذكره المبرّد عن الأعرابي الذي سأل المفتي المكيّ عن القبلة في رمضان
 فقال: للزوجة سبعٌ وللخُلَّةِ ثمان فهذا المستفتي والمفتي لا يُعرَفُ واحدٌ منهما حتى يقبل
 خبره، ولو صحَّ ذلك وعُرف المستفتي والمفتي لكانت الخُلَّةُ هي أُمّتُهُ الجميلة، وهي التي
 يَحِلُّ تَقْبِيلُهَا ثَمَانِيًا فَأَكْثَرَ.

وأما أن يفتي أحدٌ من أهل الإسلام بأنه يَحِلُّ تَقْبِيلُ الْمَرْأَةِ الْأَجْنِبِيَّةِ الْمَحْرَمَةِ عَلَيْهِ
 ثَمَانِيًا فِي رَمَضَانَ أَوْ غَيْرِهِ فَمَعَاذَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَكَذَا حَكَمُ الْأَثَرِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْخَطِيبُ فِي
 كِتَابِ رِوَاةِ مَالِكٍ، وَلَا يُظَنُّ بِعَالِمٍ أَنَّهُ تَمَتَّى أَنْ يَقْبِلَ امْرَأَةً أَجْنِبِيَّةً وَهُوَ مُحْرَمٌ بِبَطْنِ مَنَى،
 فَإِنَّ الْقُبْلَةَ الْمَذْكُورَةَ تَعَرَّضُ الْحُجَّ لِلْفَسَادِ وَتُبْطِلُهُ عِنْدَ طَائِفَةٍ، فَإِنْ صَحَّ هَذَا فَإِنَّمَا أَرَادَ
 امْرَأَتَهُ أَوْ أُمَّتَهُ.

وأما الأثر الذي ذكره الحاكم في مناقب الشافعي - رحمه الله تعالى - فليس بين
 الحاكم وبين الربيع من يحتجّ به. ويدلّ على أن القصة كذبٌ ظاهرٌ أن المستفتي زعم أن
 الشافعي أجاب بقوله: فقال لي المفتي وفاضت دموعه. وهذا إنما هو حكاية المستفتي
 قول المفتي فمن هو الحاكي عن الشافعي؟ فدعوا هذه الأكاذيب والترّهات.

وأما ما ذكرتم عن عمرو بن سفيان ابن بنت جامع فمن ذكر هذا عن عمرو بن
 سفيان؟ ومن هو عمرو بن سفيان ابن بنت جامع بن مُرْخِيَّةَ هَذَا؟ وَهَذَا مَوْضِعُ الْبَيْتَيْنِ
 الْمَشْهُورَيْنِ:

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ فَقَالَ الْقَائِلُونَ وَمَنْ ثُمَالَةُ^(١)

(١) في ترجمة المبرّد لابن خلكان: ثُمَالَةُ واسمه عوف بن أسلم بطن من الأزد. وذكر القالي في
 الأمالي: أنها لعبد الصمد بن المعذل وأورد هذين البيتين وبعدهما ثالث قال: ويقال: إن هذه
 الأبيات للمبرّد وكان يشتهي أن يشتهر بهذه القبيلة فصنع هذه الأبيات فشاعت وحصل له مقصوده من
 الاشتهار.

فقلتُ محمدُ بنُ يزيدَ منهم فقالوا زدتنا بهمُ جهالةً
 وهل يحِلُّ لأحدٍ أن يصدّقَ عن مالكٍ والليثِ بن سعدٍ أنهما أجازا تقبيلَ خَدِّ المرأةِ
 الأجنبية المعشوقةِ أو خَدِّ الأُمردِ الجميلِ الصورةِ؟ هذا وقصةُ مالكٍ مع الذي ضمَّ صبيًّا
 إليه فأفتى بضربه ستمائةِ سوطٍ فمات، فقال له أبو الفتى: قتلتَ ابني، فقال: قتله الله.
 فمَن هذا تشديدهُ وفتواه هل يفتي بجواز تقبيلِ خدودِ المُردِ الحسانِ؟ نعم ما حرّمَ الرحمنُ
 قُبلةَ عاشقٍ يحِلُّ لمعشوقه مواصلتهُ، ولا قُبلةَ الرجلِ خَدَّ ولده كما قبَّلَ الصديقُ - رضي الله
 عنه - خَدَّ ابنته عائشةَ رضي الله عنها، ورأى أعرابيُّ النبيَّ ﷺ يقبِّلُ أحدَ ابني ابنته فقال:
 وإنكم لتقبَّلون الصبيانَ؟ إنَّ لي عشرةً من الولدِ ما قبَّلْتهم، فقال: «أَوْ أَمْلِكُ لَكَ إِنْ نَزَعَ
 اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ؟»^(١).

وأما صاحبُ كتابِ رُستاقِ الاتفاقِ وهو شاعرُ المصريين فلمعمرُ الله لقد أفسدت إذ
 أسندت، فإنه الفاسقُ الماجنُ المسمَّى أبا الرَّقَعَمَقِ^(٢)، ولكن لا يُنكَرُ هذا المتنُّ بهذا
 الإسناد، فإنه لا يليقُ إلا به.

وأما قصة إبراهيم بن المدبر عن أبي بكر بن عيَّاش فنقلُ غير مُصدّقٍ عن قائلٍ غير
 معصوم.

وأما ما ذكروا عن الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - فوالذي لا إله غيره إنه لَمِنَ أقبحِ
 الكذبِ عليه، ولو أن هذا الكاذبُ الفاسقُ نفقَ هذه الكَذِبَةَ بغيره لراجَ أمرُها بعضُ
 الرواجِ، ولكن من شدّةِ جهله نفَقَها بأحمد بن حنبلٍ وهو كمن نسب إليه القولَ بأن القرآنَ
 مخلوقٌ أو تقدِيمَ عليٍّ على أبي بكرٍ، أو تقدِيمَ الرأيِ على الشَّئِ، وأمثال ذلك، وكذلك
 ما ذكره عن أبي حنيفةٍ رحمه الله تعالى، ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة، فإنه
 قال: لا إثمَ فيه إذا كانت لعشرٍ وأربع، ولم يقل إذا كانت أجنبية، ونحن نقول بما قال أبو
 حنيفة - رحمه الله تعالى - إذا كان المعشوق حلالاً.

وأما ما ذكر عن الطحاويِّ فلا نعلم صحته، وإن صحَّ فإنما أراد به التقبيلَ المباح،
 فإن الرجلَ قد يُبتلى بهجر زوجته أو أمته له فيسأل أطباءُ الدين وأطباءُ الجسمِ وأطباءُ
 الحبِّ عن دوائه، فيجيبه كلٌّ منهم بمقتضى علمه وما عنده، وقد شكى مُغيثٌ زوجَ بَريرةَ
 حبّه لها فشفع عندها النبيُّ ﷺ أن تراجعهُ فلم تفعل^(٣)، وشكى إليه رجلٌ أن امرأته لا تردُّ

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٦٤. وأبو داود في الأدب باب ١٨. وابن ماجه في الأدب باب ٣.
 وأحمد في المسند (٥٦/٦)، (٧٠).

(٢) هو أحمد بن محمد الأنطاكي له ترجمة في يتيمة الدهر للثعالبي ووفيات الأعيان لابن خلكان.

(٣) الحديث رُوي من عدة طرق في صحيح البخاري وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه،
 ومُسند الإمام أحمد، وغيرها من الصحاح.

يَدَ لَامَسَ فَقَالَ: طَلَّقَهَا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَتَّبِعَهَا نَفْسِي، فَقَالَ: اسْتَمْتِعْ بِهَا. ذَكَرَهُ
 الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ دَفَعَ أَعْلَى الْمَفْسَدَتَيْنِ
 بَأَدْنَاهُمَا، فَإِنَّهُ لَمَّا شَكَى إِلَيْهِ أَنَّهَا لَا تَرُدُّ يَدَ لَامَسَ أَمْرَهُ بِطَلَّاقِهَا، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ حُبِّهَا وَأَنَّهُ
 يَخَافُ أَنْ لَا يَصْبِرَ عَنْهَا وَلَعَلَّ حُبَّهَا يَدْعُوهُ إِلَى مَعْصِيَةِ أَمْرِهِ أَنْ يُمْسِكَهَا مَدَاوَةً لِقَلْبِهِ
 وَدَفْعاً لِلْمَفْسَدَةِ الَّتِي يَخَافُهَا بِاحْتِمَالِ الْمَفْسَدَةِ الَّتِي شَكَى مِنْهَا. وَأَجَابَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَنْهُ بِأَنَّهَا
 كَانَتْ لَا تَرُدُّ يَدَ لَامَسَ يَطْلُبُ مِنْهَا الْعَطَاءَ، فَكَانَتْ لَا تَرُدُّ يَدَ مِنْ سَأْلِهَا شَيْئاً مِنْ مَالِ
 الزَّوْجِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ هَذَا التَّأْوِيلُ بِأَنَّهُ لَا يَقَالُ لَطَالِبِ الْعَطَاءِ لَامَسٌ وَإِنَّمَا يَقَالُ لَهُ مَلْتَمَسٌ.
 وَأَجَابَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى عَنْهُ بِأَن طَرَأَ الْمَعْصِيَةُ عَلَى النِّكَاحِ لَا تَوْجِبُ فُسَادَهُ. وَقَالَ
 النَّسَائِيُّ: هَذَا الْحَدِيثُ مُنْكَرٌ. وَعِنْدِي أَنَّ لَهُ وَجْهًا غَيْرَ هَذَا كُلَّهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَشْكُ مِنَ
 الْمَرْأَةِ أَنَّهَا تَزْنِي بِكُلِّ مَنْ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهَا، وَلَوْ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ لَمَّا أَقْرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى
 أَنْ يَقِيمَ مَعَ بَغْيٍ وَيَكُونَ زَوْجٌ بَغْيٍ دُبُونًا^(١)، وَإِنَّا شَكَى إِلَيْهِ أَنَّهَا لَا تَجْذِبُ نَفْسَهَا مِمَّنْ
 لَا عِبَاءَ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ جَذَبَ ثَوْبَهَا وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَإِنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَلِينَ عِنْدَ الْحَدِيثِ
 وَاللَّعِبِ وَنَحْوِهِ وَهِيَ حَصَانٌ^(٢) عَفِيفَةٌ إِذَا أُرِيدَ مِنْهَا الزَّنى، وَهَذَا كَانَ عَادَةً كَثِيرًا مِنْ نِسَاءِ
 الْعَرَبِ وَلَا يَعُدُّونَ ذَلِكَ عِبَاءً، بَلْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَرُونَ لِلزَّوْجِ النِّصْفَ الْأَسْفَلَ وَلِلْعَشِيقِ
 النِّصْفَ الْأَعْلَى.

فَلِلْحَبِّ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ نَقَابِهَا وَلِلْبَغْلِ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْمَآزِرُ
 وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا مَعَ الْعَاشِقِ عَلَى مَعْشُوقِهِ إِذَا كَانَ يُبَاحُ لَهُ وَصَالُهُ، وَسَنَذَكُرُ
 ذَلِكَ فِي بَابِ مَسَاعِدَةِ الْعَشَاقِ بِالْمُبَاحِ مِنَ التَّلَاقِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا مَا ذَكَرُوا عَنْ شَيْوُخِ الْمَعْتَزِلَةِ وَشَيْوُخِ الْوَاسْطِيِّينَ، فَأَمَّا أَبُو عَثْمَانَ الْمَذْكُورُ وَهُوَ
 عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ، وَوَاصِلٌ وَهُوَ وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ وَهُمَا شَيْخَا الْقَوْمِ وَلَوْ أَفْتِيَا بِذَلِكَ لَكَانَتْ
 فُتْيَا مِنْ مُبْتَدِعَيْنِ مَذْمُومَيْنِ عِنْدَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، فَكَيْفَ وَالْمَخْبِرُ بِذَلِكَ رَجُلٌ مُجْهُولٌ مِنَ
 الْمَعْتَزِلَةِ كَذَبَ عَلَى مَنْ يَعْظَمُهُمَا الْمَعْتَزِلَةُ لِيَنْفَقَ فِسْقُهُ؟

وَأَمَّا قِصَّةُ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الْأَصْبَهَانِيِّ فَغَايَتُهَا أَنَّ تَكُونَ مِنْ سَعْيِهِ الْمَعْفُو الْمَغْفُورَ، لَا
 مِنْ عَمَلِهِ الْمَشْكُورَ، وَسَلَّطَ النَّاسُ بِذَلِكَ عَلَى عَرْضِهِ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَنَا وَلَهُ، فَإِنَّهُ تَعَرَّضَ
 بِالنَّظَرِ إِلَى السَّقَمِ الَّذِي صَارَ بِهِ صَاحِبَ فِرَاشٍ، وَهَذَا لَوْ كَانَ مِمَّنْ يُبَاحُ لَهُ لَكَانَ نَقْصاً
 وَعَيْباً، فَكَيْفَ مِنْ صَبِيٍّ أَجْنَبِيٍّ؟ وَأَرْضَاهُ الشَّيْطَانُ بِحُبِّهِ وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ عَنْ مَوَاصِلَتِهِ، إِذَا لَمْ

(١) الديوث: الذي يقود على أهله.

(٢) المرأة الحصان: المتزوجة والعفيفة.

يطمع في ذلك منه، فنال منه ما عَرَفَ أَنْ كَيْدَهُ لَا يَتَجَاوِزُهُ وَجَعَلَهُ قَدْوَةً لِمَنْ يَأْتُمُّ بِهِ بَعْدَهُ كَأَبِي مُحَمَّدِ بْنِ حَزْمِ الظَاهِرِيِّ وَغَيْرِهِ، وَكَيْدُ الشَّيْطَانِ أَذْقُ مِنْ هَذَا.

وَأَمَّا أَبُو مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ عَلَى قَدَرِ يُؤَيِّسُهُ وَقَسْوَتِهِ فِي التَّمَسُّكِ بِالظَّاهِرِ وَالْغَاثِ لِلْمَعَانِي وَالْمُنَاسِبَاتِ وَالْحُكْمِ وَالْعِلَلِ الشَّرْعِيَةِ انْمَاعٍ فِي بَابِ الْعَشْقِ وَالنَّظَرِ وَسَمَاعِ الْمَلَاهِي الْمَحْرَمَةِ، فَوَسَّعَ هَذَا الْبَابَ جَدًّا وَضَيَّقَ بَابَ الْمُنَاسِبَاتِ وَالْمَعَانِي وَالْحُكْمِ الشَّرْعِيَةِ جَدًّا، وَهُوَ مِنْ انْحِرَافِهِ فِي الطَّرَفَيْنِ حِينَ رَدَّ الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي تَحْرِيمِ آيَاتِ اللّٰهُوِّ بِأَنَّهُ مَعْلُقٌ غَيْرُ مُسْنَدٍ، وَخَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّ الْبُخَارِيَّ لَقِيَ مِنْ عُلُقِهِ عَنْهُ وَسَمِعَ مِنْهُ، وَهُوَ هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، وَخَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّ الْحَدِيثَ قَدْ أَسْنَدَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أُمَّةِ الْحَدِيثِ غَيْرِ هِشَامِ بْنِ عَمَّارٍ، فَأَبْطَلَ سُنَّةً صَحِيحَةً ثَابِتَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا مَطْعَنَ فِيهَا بَوَاحٍ^(١).

وَأَمَّا مَنْ حَاكَمْتُمُونَا إِلَيْهِ وَهُوَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فَنَحْنُ رَاضُونَ بِحُكْمِهِ، فَأَيْنَ أَبَاحَ لَكُمْ النَّظَرَ الْمَحْرَمَ وَعَشَقَ الْمُزْدَانَ وَالنِّسَاءَ الْأَجَانِبَ؟ وَهَلْ هَذِهِ إِلَّا كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَيْهِ؟ وَهَذِهِ تَصَانِيفُهُ وَفَنَآوَاهُ كُلُّهَا نَاطِقَةٌ بِخِلَافِ مَا حَكَيْتُمُوهُ عَنْهُ؟ وَأَمَّا الْفُتْيَا الَّتِي حَكَيْتُمُوهَا فَكَذِبٌ عَلَيْهِ لَا تَنَاسَبَ كَلَامُهُ بِوَجْهِهِ، وَلَوْ لَا الْإِطَالَةُ لَذَكَرْنَاهَا جَمِيعَهَا حَتَّى يَعْلَمَ الْوَاقِفُ عَلَيْهَا أَنَّهَا لَا تَصْدُرُ عَنْ دُونِهِ فَضْلًا عَنْهُ، وَقُلْتُ لِمَنْ أَوْقَفَنِي عَلَيْهَا: هَذِهِ كَذِبٌ عَلَيْهِ لَا يَشْبَهُ كَلَامُهُ، وَكَانَ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ قَدْ أَوْقَفَنِي عَلَيْهَا قَدِيمًا وَهِيَ بِخَطِّ رَجُلٍ مَتَّهَمٍ بِالْكَذْبِ، وَقَالَ لِي: مَا كُنْتُ أَظُنُّ الشَّيْخَ بَرَقَّةَ هَذِهِ الْحَاشِيَةِ، ثُمَّ تَأَمَّلْتُهَا فَإِذَا هِيَ كَذِبٌ عَلَيْهِ، وَلَوْ لَا الْإِطَالَةُ لَذَكَرْنَا مِنْ فِتَاوَيْهِ مَا يَبِينُ أَنَّ هَذِهِ كَذِبٌ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ مَسْأَلَةِ التَّزَامِ أَدْنَى الْمَفْسَدَتَيْنِ لِدَفْعِ أَعْلَاهُمَا، فَنَحْنُ لَا نَنْكَرُ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ بَلْ هِيَ مِنْ أَصَحِّ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ، وَلَكِنْ الشَّأْنُ فِي إِدْخَالِ هَذِهِ الصُّورَةِ فِيهَا. بَلْ نَحَاكِمُكُمْ إِلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ نَفْسَهَا فَإِنْ احْتِمَالُ مَفْسَدَةِ أَلَمِ الْحَبِّ مَعَ غَضِّ الْبَصَرِ وَعَدَمِ تَقْبِيلِ الْمَحْبُوبِ وَضَمُّهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ أَقْلٌ مِنْ مَفْسَدَةِ النَّظَرِ وَالتَّقْبِيلِ، فَإِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةُ تَجَرُّ إِلَى هَلَالِ الْقَلْبِ وَفَسَادِ الدِّينِ، وَغَايَةُ مَا يَقْدَرُ مِنْ مَفْسَدَةِ الْإِمْسَاكِ عَنْ ذَلِكَ سَقْمُ الْجَسَدِ أَوْ الْمَوْتُ تَفَادِيًا عَنِ التَّعَرُّضِ لِلْحَرَامِ، فَأَيْنَ إِحْدَى الْمَفْسَدَتَيْنِ مِنَ الْأُخْرَى؟ عَلَى أَنَّ النَّظَرَ وَالْقُبْلَةَ وَالضَّمَّ لَا يَمْنَعُ السَّقْمَ وَالْمَوْتَ الْحَاصِلَ بِسَبَبِ الْحَبِّ، فَإِنْ الْعَشْقُ يَزِيدُ بِذَلِكَ وَلَا يَزُولُ.

(١) الْحَدِيثُ الَّذِي يَشِيرُ إِلَيْهِ هُوَ قَوْلُهُ ﷺ: «لِيَكُونَ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحْلُونَ الْحَرَ (أَيَ الْفَرْجِ) وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ وَلِيَنْزِلْنَ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عِلْمِ يَرْجُو عَلَيْهِمْ بَسَاحَةٌ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ لِحَاجَةٌ فَيَقُولُوا ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا فَيَبِيتُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَيُضَعُّ الْعِلْمَ وَيَمْسَخُ آخِرِينَ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَشْرِبَةِ بَابَ ٦، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْبِلَاسِ بَابَ ٦، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْفَتَنِ بَابَ ٣٨، وَالدَّارِمِيُّ فِي الْأَشْرِبَةِ بَابَ ٨.

فما صَبَابَةٌ مشتاقٍ عَلَى أَمَلٍ من الوصال كمشاقٍ بلا أَمَلٍ
ولا ريب في أن محبة من له طمعٌ أقوى من محبة من يئس من محبوبة، ولهذا قال
الشاعر:

وأبرحُ ما يكون ألحَبُّ يوماً إذا دَنَتِ الدِّيارُ من الدِّيارِ
فإن قيل: فقد أباح الله سبحانه للمضطر الميتة والدم ولحم الخنزير، وتناولها في
هذه الحال واجبٌ عليه. قال مسروق والإمام أحمد - رحمهما الله تعالى -: من اضْطُرَّ إلى
أكل الميتة فلم يأكل فمات دخل النار، فغاية النظرة والقُبلة والضَّمة أن تكون محرَّمة، فإذا
اضْطُرَّ العاشق إليها فإن لم تكن واجبةً فلا أقل من أن تكون مباحة، فهذا قياسٌ واعتبار
صحيح، وأين مفسدة موتِ العاشق إلى مفسدة ضمِّه ولثمه؟

فالجواب أن هذا يتبين بذكر قاعدة، وهي أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل في العبد
اضطراراً إلى الجماع بحيث إن لم يفعله مات، بخلاف اضطراره إلى الأكل والشرب
واللباس، فإنه من قوام البدن الذي إن لم يباشره هلك، ولهذا لم يُبيح من الوطء الحرام ما
أباح من تناول الغذاء والشراب المحرَّم، فإن هذا من قبيل الشهوة واللذة التي هي تمتة
وفضلة، ولهذا يمكن الإنسان أن يعيش طول عمره بغير تزوج وغير تَسَرُّ، ولا يمكنه أن
يعيش بغير طعام ولا شراب، ولهذا أمر النبي ﷺ الشباب أن يداووا هذه الشهوة بالصوم،
وقال تعالى عن عَشَّاقِ الْمُزْدَانِ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١، والنمل: ٥٥] فأخبر أن الحامل على ذلك مجرَّد الشهوة لا الحاجة فضلاً عن
الضرورة، والشهوة المجردة لا تلتحق بالضروريات ولا بالحاجات، والحِمية عنها خشية
إفضاؤها إلى مرضٍ أصعب منها جارٍ مجرى الحِمية عن تناول ما يضر من الأطعمة
والأشربة، وذلك لا تدعو الضرورة إلى تناوله وإن كانت النفس قد تشتهيه، فالقُبلة والنظر
والضمُّ ونحوها جارٍ مجرى تناول الفاكهة المضرة والزفرة المضرة للمحموم ومن به مرض
يضره معه تناول ذلك، فإذا قال المريض: أنا إن لم أتناول ذلك وإلا خشيْتُ الموت لم
يكن صادقاً في قوله، وإنما الحامل له على ذلك مجرَّد الشهوة، وربما زاد تناول ذلك في
مرضه، فالطبيب الناصح لا يفسح له فيه، فكيف يفسح الشارع الحكيم الذي شريعته غاية
طِبِّ القلوب والأديان وبها تحفظ صحتِّها وتدفع موادَّها الفاسدة في تناول ما يزيد الداء
ويقويه ويمده؟ هذا من المحال، بل الشريعة تأمر بالحِمية عن أسباب هذا الداء خوفاً من
استحكامه وتولد داءٍ آخر أصعب منه.

وأما مسألة مَنْ خاف تشقُّقَ أَثْنَيْهِ وأنه يباح له الوطء في رمضان، فهذا ليس على
إطلاقه، بل إن أمكنه إخراج مائه بغير الوطء لم يُجْزَ له الوطء بلا نزاع، وإن لم يمكنه

ذلك إلا بالوَطءِ المباح فإنه يجري مجرى الإفطار لعذر المرض ثم يقضي ذلك اليوم، والإفطار بالمرض لا يتوقَّف على خوف الهلاك، فكيف إذا خاف تَلَفَ عَضْوٍ من أعضائه القاتلة، بل هذا نظيرُ من اشتدَّ عطشه وخاف إن لم يشرب أن يحدث له داءٌ من الأدوية، أو يتلفَ عَضْوٌ من أعضائه، فإنه يجوز له الشربُ ثم يقضي يوماً مكانه. فإن قيل: فلو اتفق له ذلك ولم يكن عنده إلا أجنبية هل يباح له وَطْؤها لئلا تتلف أنثياه؟ قيل: لا يباح له ذلك، ولكن له أن يخرج ماءه باستمنائه، فإن تعذَّر عليه فهل يجوز له أن يمكنها من استخراج مائه بيدها؟ هذا فيه نظر، فإن أُبِحَ جرى مجرى تطيب المرأة الأجنبية للرجل ومُسَّها منه ما تدعو الحاجة إلى مسِّه، وكذلك تطيبُ الرجل للمرأة الأجنبية ومُسَّه ما تدعو الحاجة إليه والله أعلم.

وقد سئل أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلؤذاني في رقعة:

وَقُدُورَةُ الْعَالَمِ فِي عَصْرِهِ
مَنْ خُدَعَ الشَّيْطَانُ أَوْ مَكَّرَهُ
حَازَ اللَّامِي وَالذُّرَّ فِي ثَغْرِهِ ^(١)
حَتَّى حَكَى الزُّبُورَ ^(٢) فِي حُضْرِهِ
لِمُسْتَهَامٍ خَافَ مِنْ وَزْرِهِ
مَنْ غَيْرِ إِدْنَاءٍ إِلَى صَدْرِهِ
غَيْرَ الَّذِي قَدَّمَ مِنْ ذِكْرِهِ

قُلْ لِأَبِي الْخَطَابِ نَجْمُ الْهُدَى
لَا زَلَّتْ فِي فِتْوَاكَ مُسْتَأْمَنًا
مَاذَا تَرَى فِي رَشَا أَعْيَدِ
لَمْ يَحْكِ بِدْرِ التَّمِّ فِي حُسْنِهِ
فَهَلْ يُجِيزُ الشَّرْعُ تَقْيِيلَهُ
أَمْ هَلْ عَلَى الْمُشْتَاكِ فِي ضَمِّهِ
إِثْمٌ إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ مُضْمِرًا
فَأَجَاب:

قَدْ فَاقَ أَهْلَ الْعَصْرِ فِي شَعْرِهِ
وَعَطْفِ زَنْدِيكَ عَلَى نَحْرِهِ
لِمُسْتَهَامٍ خَافَ مِنْ وَزْرِهِ
عَصْمَةً قَدْ نَافَقَ فِي أَمْرِهِ
قَبِيلَ لِلْحَبِّ عَلَى ثَغْرِهِ
إِلَّا عَنَاقُ الْبَدْرِ فِي خِذْرِهِ
يَزْرِي عَلَى هَارُوتَ فِي سِحْرِهِ

يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْأَدِيبُ الَّذِي
تَسْأَلُ عَنْ تَقْيِيلِ بَدْرِ الدُّجَى
هَلْ وَرَدَ الشَّرْعُ بِتَحْلِيلِهِ
مَنْ قَارَفَ الْفِتْنَةَ ثُمَّ ادَّعَى الـ
هَلْ فِتْنَةُ الْمَرْءِ سِوَى الضَّمِّ وَالتَّ
وَهَلْ دَوَاعِي ذَلِكَ الْمُشْتَهَى
وَبِذَلِكَ ذَاكَ لِمُشْتَاكِهِ

(١) الرشا: ولد الظبية إذا قوي ومشى. والأغيد: المثني في لين ونعومة، واللمى: سمره في الشفة تستحسن. وشفة لمياء: لطيفة رقيقة اللحم.

(٢) الزنبور والزنبار: حشرة أليمة اللسع، وهو أيضاً: الخفيف الظريف. والحضر: عدو في وثب، وارتفاع الفرس في وثبه.

يُورِطُ الْمُسْلِمَ فِي حَظْرِهِ
عَسَاكَ أَنْ تَسْلِمَ مِنْ شَرِّهِ
جَاءَكَ يَرْجُو اللَّهَ فِي أَجْرِهِ

وَلَا يُجِيزُ الشَّرْعُ أَسْبَابَ مَا
فَانْجُ وَدَعْ عَنْكَ صُدَاعَ الْهَوَى
هَذَا جَوَابُ الْكَلُودَانِي قَدْ

فهذا جواب أهل العلم، وهو مطابق لما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

وسئل الإمام أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله - بأبيات:

فِي عَاشِقٍ ذَابَ مِنْ أُلُوجِدِ
سَهْلِ الْمُحَيَّا حَسَنِ الْقَدِ
فِي الْفَمِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْخَدِ
بَلْ بَعْنَاقٍ جَائِزِ الْحَدِ
أَصِيحَ مِنْ وَجْدِي وَأَسْتَعْدِي

يَا أَيُّهَا الْعَالَمُ مَاذَا تَرَى
مِنْ حَبِّ ظَبْيٍ أَغْيَدٍ أَهْيَفِ
فَهَلْ تَرَى تَقْبِيلَهُ جَائِزاً
مِنْ غَيْرِ مَا فُحْشٍ وَلَا رِيبةِ
إِنْ كُنْتَ مَا تَفْتِي فَلِإِنِّي إِذَا

فكتب - رحمه الله تعالى - الجواب:

وِظَلٍ فِي ضُرٍّ وَفِي جَهْدِ
بِنَصَحِهِ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ
تَسْأَلُنِي عَنْهُ وَتَسْتَعْدِي
مَا بَالَهُ يَسْأَلُ مَا عِنْدِي
يُعِيدُ فِي الْعَشَقِ وَلَا يُبْدِي
حَرَمَهُ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ
فِي الشَّرْعِ بِالْإِبْرَامِ وَالْعَقْدِ
وَقَفَ بِيَابِ الْوَاحِدِ الْفَرْدِ
قَلْبَكَ بِالتَّعْذِيبِ وَالصَّدِّ
وَأَضْبِرْ وَكَاتَمْ غَايَةَ الْجُهْدِ
تَفْزُ غَدَاً فِي جَنَةِ الْخُلْدِ

يَا ذَا الَّذِي ذَابَ مِنَ الْوَجْدِ
إِسْمِعْ فَدَتِكَ النَّفْسَ مِنْ نَاصِحِ
لَوْ صَحَّ مِنْكَ الْعَشَقُ مَا جِئْتَنِي
فَالْعَاشِقُ الصَّادِقُ فِي حَبِّهِ
غَيْبُهُ الْعَشَقُ فَمَا إِنْ يُرَى
وَكُلُّ مَا تَذَكَّرَ مُسْتَفْتِيّاً
إِلَّا لِمَا حَلَّلَهُ رَبُّنَا
فَعَدَّ مِنْ طُرُقِ الْهَوَى مُعْرِضاً
وَسَلُّهُ يَشْفِيكَ وَلَا يَبْتَلِي
وَعَفَّ فِي الْعَشَقِ وَلَا تُبْدِيهِ
فَلِإِنْ تَمُتَ مُحْتَسِباً صَابِراً

في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه

فالذي عليه الأطباء قاطبة أنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا، يَجْلِبُهُ المرءُ إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصُّور والشمائل، وسببه النفسانيُّ الاستحسان والفكر، وسببه البدنيُّ ارتفاع بخارٍ رديءٍ إلى الدماغ عن مَنِيٍّ محتقن، ولذلك أكثر ما يعتري العُزَّاب، وكثرة الجماع تزيله بسرعة.

وقال بعض الفلاسفة: العشق طمعٌ يتولَّد في القلب ويتحرَّك وينمي، ثم يتربى ويجتمع إليه مواد من الحرص، وكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج واللَّجاج والتمادي في الطمع والحرص على الطلب، حتى يؤديه ذلك إلى الغَمِّ والقلق، ويكون احتراقُ الدم عند ذلك باستحالته إلى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها إليها. ومن غلبة السوداء يحصلُ له فسادُ الفكر، ومع فساد الفكر يكون زوالُ العقل ورجاءُ ما لا يكون وتمنيُّ ما لا يتم حتى يؤدي إلى الجنون، فحينئذٍ ربَّما قتل العاشقُ نفسه، وربَّما مات غمًّا، وربما نظر إلى معشوقه فمات فرحاً، وربما شَهَقَ شَهَقَةً فتختنق رُوحُه فيبقى أربعةً وعشرين ساعةً فيُظَنُّ أنه قد مات، فيدفن وهو حيٌّ، وربما تنفَّس الصُّعداء فتختنق نفسه في تامور^(١) قلبه، وينضمَّ عليها القلبُ ولا ينفرج حتى يموت، وتراه إذا ذُكر له من يهواه هرب دمه واستحال لونه. وقال أفلاطون: العشق حركة النفس الفارغة. وقال أرسطاطاليس: العشق عمى الحسِّ عن إدراك عيوب المحبوب. ومن هذا أخذ جرير قوله:

فلمست براء عيبَ ذي الودِّ كلَّه ولا بعضَ ما فيه إذا كنت راضياً
فعينُ الرضى عن كلِّ عيبٍ كليلَةٌ ولكنَّ عينَ السُّخطِ تُبْدي المساوياً

وقال أرسطو: العشق جهلٌ عارضٌ صادف قلباً فارغاً لا شغل له من تجارةٍ ولا صناعةٍ. وقال غيره: هو سوء اختيارٍ صادف نفساً فارغة.

(١) التامور: دم القلب، وقيل كل دم.

قال قيس بن الملوّح:

أتاني هواها قبل أن أعْرِفَ الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا
وقال بعضهم: لم أرَ حقّاً أشبهَ بباطلٍ، ولا باطلاً أشبهَ بحقٍّ من العشق، هزلُهُ جدّ،
وجدّه هزل، وأوّلُهُ لعب، وآخرُهُ عَطَب. وقال الجاحظ: العشق اسمٌ لما فَضّلَ عن
المحبة، كما أن السَّرَفَ اسمٌ لما جاوز الجود، والبخلُ اسمٌ لما جاوز الاقتصاد، فكلّ
عشقٍ يسمّى حبّاً، وليس كل حبٍّ يسمّى عشقاً، والمحبةُ جنسٌ والعشقُ نوعٌ منها. ألا
ترى أن كل محبةٍ شوقٌ، وليس كل شوقٍ محبة؟ وقالت فرقةٌ أخرى: العشق هو
الاستهيام^(١) والتضرّع واللّوذانُ بالمعشوق، واللّوذُ هو الحبّ الساكن، والهوى أن يهوى
الشيء فيتبعه غيّاً كان أو رشداً، والحبّ حرفٌ ينتظم هذه الثلاثة. وقال المأمون
ليحيى بن أكثم: ما العشق؟ فقال: سوانحٌ تسنح للمرء فيهمم بها قلبه وتؤثرها نفسه.
فقال له ثُمَامَةُ بن أشرس: اسكت يا يحيى، إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق، أو
مُحَرَّمٍ صاد ظلياً، فأما هذه فمن مسائلنا نحن، فقال له المأمون: قل يا ثُمَامَةُ! قال:
العشق جليسٌ مُمتنع، وأليفٌ مُؤنّس، وصاحبٌ مَلِكٌ مسالكُه لطيفة، ومذاهبُه غامضة،
وأحكامُه جارية، مَلَكُ الأبدان وأرواحها، والقلوبُ وخواطرها، والعقولُ وآراءها، قد
أعطي عِنان طاعتها، وقوّة تصرّفها؛ توارى عن الأبصار مدخله، وعَمِيَ في القلوب
مسلكه. فقال له المأمون: أحسنت يا ثُمَامَةُ. وأمر له بألف دينار.

وقال بعضهم: قلت لمجنون قد أذهب عقله العشق: أجزّ هذا البيت:

ومَا الحبُّ إلا شعلَةٌ قد دَحَتْ بها عيونُ المَهَا باللحظ بين الجوانح
فقال بديهاً:

ونارُ الهوى تخفى وفي القلب فعلها كفعل الذي جاءت به كفٌّ قادح
وقال الأصمعي: سألت أعرابياً عن العشق فقال: جلّ واللّه عن أن يرى، وخَفِيَ عن
أبصار الورى، فهو في الصدور ككُمون النار في الحجر، إن فُدَح أورى، وإن تُرك
توارى. وقال بعضهم: العشق نوعٌ من الجنون، والجنون فنون، فالعشق فنٌّ من فنونه.
 واحتج بقول قيس^(٢):

قالوا جنتت بمن تهوى فقلتُ لهم ألعشقتُ أعظمُ مما بالمجانين

(١) الاستهيام: هو الهيام، وهو جنون العشق.

(٢) هو قيس بن الملوّح المعروف بمجنون ليلي.

العشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبه وإنما يُضرعُ المجنونُ في الحين
وقال آخر: إذا امتزجت جواهرُ النفوس بوصف المشاكلة أنتجت لمحَ نور ساطع
تستضيء به النفسُ في معرفة محاسن المعشوق فتسلك طريقَ الوصول إليه. وقال
أعرابي: العشقُ أعظمُ مسلكاً في القلب من الرُّوح في الجسم، وأملكُ بالنفس من ذاتها،
بطن وظهر فامتنع وصفه عن اللسان، وخفي نعتُه عن البيان فهو بين السحر والجنون،
لطيفُ المسلك والكُمون. وقيل: العشق مَلِكٌ غَشُومٌ^(١)، مُسلِّطٌ ظَلُومٌ، دانت له القلوب،
وانقادت له الأبواب، وخضعت له النفوس. العقلُ أسيرُهُ، والنظرُ رسولُهُ، واللحظُ لفظُهُ،
دقيقُ المسلك، عسيرُ المخرج. وقيل لآخر: ما تقول في العشق؟ فقال: إن لم يكن طرَفاً
من الجنون، فهو نوعٌ من السحر.

وأما الفلاسفة المشاؤون^(٢) فقالوا: هو اتفاق أخلاق، وتشاكل مَحَبَّاتٍ وتجانُّسها،
وشوقُ كُلِّ نفس إلى مُشاكلِها ومُجانسِها في الخلقة القديمة قبل إهاباطها إلى الأجساد.
قلت: هذا مبنيٌّ على قولهم الفاسد بتقدُّم النفوس على الأبدان، وعليه بنى ابنُ سينا
قصيدته المشهورة:

* هَبَطْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ *

وسمعت شيخنا يحكي عن بعض فضلاء المغاربة وهو جمال الدين بن الشريشي
شارح المقامات أنه كان ينكر أن تكون هذه له قال: وهي مخالفة لما قرره في كتبه من أن
حدوث النفس الناطقة مع البدن.

وقال آخرون في وصفه: دَقَّ عن الأفهام مَسْلَكُهُ، وَخَفِيَ عن الأبصار موضعه،
وحارت العقول في كيفية تَمَكُّنِهِ، غير أن ابتداء حركته وعظم سلطانه من القلب ثم يتغشى
سائر الأعضاء فيبدي الرعدة في الأطراف، والصفرة في الألوان، والضعف في الرأي،
واللَّجَلَجَة في الكلام، والزَّلَل والعثار، حتى يُنسب صاحبه إلى الجنون. وقيل لأبي زهير
المديني: ما العشق؟ قال: الجنون والذل وهو داء أهل الظرف. ونظر عاشق إلى معشوقه
فارتعدت فرائضه وغشي عليه، ف قيل لحكيم: ما الذي أصابه؟ فقال: نظر إلى من يحبه
فانفرج له قلبه فتحرك الجسم بانفراج القلب. ف قيل له: نحن نحب أولادنا وأهلنا ولا
يصيبنا ذلك، فقال: تلك محبة العقل وهذه محبة الروح، قال:

(١) الغشوم: الذي يخطط الناس ويأخذ كل ما قدر عليه.

(٢) المشاؤون: أتباع أرسطو. وقيل: لقبوا به لأنه كان يعلمهم وهم مشاة، أو لأن محل التعليم كان
يسمى بالمشى. وفي تاج العروس للزبيدي: المشائيون: فرقة من الحكماء كانوا يمشون في ركاب
أفلاطون.

وما هو إلا أن يراها فجاءةً فتصطك رجلاه ويسقط للجنب

وقال: العشق ملكٌ مسلطٌ على قهر النفوس وأسر القلوب، قال الشاعر:

ملك القلوب فأصبحت في أسره وبودها أن لا يَفْكَ إسارها

وقال أعرابي في وصفه: بالقلب وثبته، وبالفؤاد وجبته^(١)، وبالأحشاء ناره، وسائر الأعضاء خدامه، فالقلب من العاشق ذاهلٌ، والدمع منه هامل^(٢)، والجسم منه ناحل. مرور الليالي تجذده، وإساءة المحبوب لا تفسده.

وقيل: ليس هو موقوفاً على الحسن والجمال، وإنما هو تشاكلُ النفوس وتمازجها في الطباع المخلوقة فيها كما قيل:

وما الحبُّ من حُسنٍ ولا من مَلاحيةٍ ولكنَّه شيءٌ به الروحُ تكَلَّف

وقيل: أولُ العشق عناء، وأوسطه سُقم، وآخره قتل. كما قال ابن الفارض رحمه

الله:

هو الحبُّ فاسلَمَ بالحشا ما الهوى سَهْلُ وعش خالياً فالحبُّ أوله عنى^(٣)
فما اختاره مُضْنَى به وله عَقْلُ وأوسطه سُقْمٌ وآخره قتلُ

(١) وجبته: خففته واضطرابه.

(٢) هملت العين: فاضت وسالت.

(٣) في الديوان: فالحب راحته عنا... وأوله سقم... الخ.

في العشق هل هو اضطراري خارج عن الاختيار أو أمر اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه

فنقول: اختلف الناس في العشق هل هو اختياري أو اضطراري خارج عن مقدور البشر؟ فقالت فرقة: هو اضطراري وليس باختياري، قالوا: وهو بمنزلة محبة الظمان للماء البارد، والجائع للطعام، وهذا مما لا يُملك.

قال بعضهم: والله لو كان لي من الأمر شيء ما عذبتُ عاشقاً، لأن ذنوب العُشَّاق اضطرارية، فإذا كان هذا قوله فيما تولد عن العشق من فعل اختياري فما الظن بالعشق نفسه؟ وقال أبو محمد بن حَزْم: قال رجلٌ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، إني رأيت امرأةً فعشقتها، فقال عمر: ذاك مما لا يُملك.

وقال كامل في سلمى:

يلومونني في حُبِّ سلمى كأنما يَرَوْنَ الهوى شيئاً تيمَّمْتُهُ^(١) عَمداً
ألا إنما الحبُّ الذي صَدَعَ الحشا قضاءً من الرحمن يَلُوبُهُ الْعَبْدَا

وقال التميمي في كتاب امتزاج الأرواح: سئل بعض الأطباء عن العشق فقال: إن وقوعه بأهله ليس باختيار منهم، ولا بحرصهم عليه، ولا لذة لأكثرهم فيه، ولكن وقوعه بهم كوقوع العلل المُدْنِفَةِ، والأمراض المُتَلَفَةِ، لا فرق بينه وبين ذلك. وقال المدائني: لام رجلٌ رجلاً من أهل الهوى فقال: لو صحَّ لذي هوى اختياراً لاختار أن لا يهوى. ويدلُّ على ذلك من السنة ما رواه البخاري في صحيحه من قصة بَريرة أن زوجها كان يمشي خلفها بعد فراقها له وقد صارت أجنبيةً منه، ودموعه تسيل على خديهِ، فقال النبي ﷺ: «يَا عَبَّاسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثِ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟» ثم قال لها: «لَوْ رَاجَعْتِيهِ»، فقالت: أأأمرني؟ فقال: «إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ»، قالت: لا حاجة لي فيه^(٢) ولم ينهه

(١) تيمم الشيء: تعمدته وارتجاه.

(٢) أخرجه النسائي في الفضاة باب ٢٨. وابن ماجه في الطلاق باب ٢٩. والدارمي في الطلاق باب ١٥.

عن عشيقها في هذه الحال، إذ ذلك شيء لا يملك ولا يدخل تحت الاختيار. وقال جامع:

سألت سعيد بن المسيب مفتي الد مدينة هل في حب دهماء من وزر
فقال سعيد بن المسيب إنما يلام على ما يستطيع من الأمر^(١)
قالوا: والعشق نوع من العذاب، والعاقِل لا يختار عذاب نفسه، وفي هذا قال المؤمل:

شَفَّ المؤمِّل يوم الحيرة النظر ليت المؤمِّل لم يخلق له بصر
يكفي المحبين في الدنيا عذابهم واللَّه لا عذبتهُم بعدها سقر
فيقال: إنه عمي بعد هذا. وقال آخر: ليس الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيذرَّكه، ثم أنشد:

ليس خطبُ الهوى بخطب سير لا يُبَيِّك عنه مثلُ خير^(٢)
ليس أمرُ الهوى يُدبَّر بالرأ ي ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمرُ في الهوى خطرات مُخْدِثَاتُ الأمور بعد الأمور

وقال القاضي أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن سلمان التُّوفاتِي^(٣) في كتابه «محنة الظرف»: العشاق معذرون على الأحوال إذ العشق إنما دهاهم عن غير اختيار، بل اعتراهم عن جبر واضطرار، والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور، لا على المَقْضِي عليه والمقدور. فقد قيل: إن الحامل كانت ترى يوسف عليه الصلاة والسلام فتضع حملها، فكيف ترى هذه وضعت؟ بأختيار كان ذلك أم باضطرار؟ قال غيره: وهؤلاء النسوة قطعن أيديهن لما بدا لهن حسن يوسف عليه السلام وما تمكَّن حبه من قلوبهن، فكيف لو شغفن حبا؟ وكان مُضْعَبُ بنُ الزُّبَيْر إذا رأت المرأة حاضت لحسنه وجماله. قال فيه الشاعر:

إنما مُضْعَبُ شهابٌ من اللد ه تجلَّت عن وجهه الظلماء
ومن هاهنا أخذ أحمد بن الحسين الكندي المتنبي قوله:

تَقِ اللّٰهَ واسْتُرْ ذا الجمال بِرُقْعِ فَإِنْ لُحِتَ حاضت في الخدور العواتق^(٤)

(١) تقدم هذان البيتان وفيهما: تلام.

(٢) قيل إنها لعلية بنت المهدي؛ حكاه الصولي كما في تزيين الأسواق.

(٣) نوقات: محلة بسجستان يقال لها: دنوها فغربت.

(٤) في ديوان المتنبي: خف الله. والعواتق: الشابات من النساء.

فإذا كان هذا من مجرد الرؤية فكيف بالمحبة التي لا تُملَك؟ وقال هشام بن عروة عن أبيه: مات بالمدينة عاشقٌ فصلى عليه زيد بن ثابت، ف قيل له في ذلك فقال: إني رَحِمْتُهُ. ورؤي أبو السائب المخزومي - وكان من العلم والدين بمكان - متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول: أَللَّهُمَّ أَرْحَمْ الْعَاشِقِينَ وَقَوِّ قُلُوبَهُمْ وَاغْطِ عَلَيْهِمْ قُلُوبَ الْمَعْشُوقِينَ، ف قيل له في ذلك فقال: وَاللَّهِ لَلدُّعَاءِ لَهُمْ أَفْضَلُ مِنْ عُمْرَةِ مِنَ الْجَعْرَانَةِ^(١) ثم أنشد:

يَا هَجْرُ كَفَّ عَنِ الْهَوَى وَدَعَ الْهَوَى لِلْعَاشِقِينَ يَطِيبُ يَا هَجْرُ
مَاذَا تَرِيدُ مِنَ الَّذِينَ جَفَوْنَهُمْ قَرَحِي وَحَشَو قُلُوبَهُمْ جَمْرُ
مُتَبَلِّدِينَ^(٢) مِنَ الْهَوَى أَلْوَانَهُمْ مِمَّا تُجِنُّ قُلُوبَهُمْ صُفْرُ
وَسَوَابِقُ الْعَبْرَاتِ فَوْقَ خُدُودِهِمْ دَرَرٌ تَفِيضُ كَأَنَّهَا قَطْرُ
وَيَذْكُرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِجَارِيَةٍ تَتَغَنَّى:

هَلْ عَلَيَّ وَيَحْكُمَا إِنْ هَوَيْتُ مِنْ حَرَجٍ
فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: «لَا حَرَجَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٣)، قالوا: وفد فسر كثيرٌ من السلف قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] بالعشق. وهذا لم يريدوا به التخصيص، وإنما أرادوا به التمثيل وأن العشق من تحميل ما لا يُطاق. والمراد بالتحميل هاهنا التحميل القدري لا الشرعي الأمري. قالوا: وقد رأينا جماعة من العشاق يطوفون على مَنْ يدعو لهم أن يعافيههم الله من العشق، ولو كان اختياراً لأزالوه عن نفوسهم. ومن هاهنا يتبين خطأ كثيرٍ من العاذلين، وعذْلُهم في هذه الحال بمنزلة عذْلِ المريض في مرضه، قال:

يَا عَاذِلِي وَالْأَمْرُ فِي يَدِهِ هَلَا عَاذَلْتَ وَفِي يَدِي الْأَمْرُ
وَأِنَّمَا يَنْبَغِي الْعَذْلُ قَبْلَ تَعَلُّقِ هَذَا الدَّاءِ بِالْقَلْبِ كَمَا قِيلَ فِيهِ:
يُذَكِّرُنِي حُمِّ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَا تَلَا حُمَّ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

(١) الجعرانة: موضع بين مكة والطائف على سبعة أميال من مكة.

(٢) المتبذل: المتردد المتحير الساقط إلى الأرض من الضعف.

(٣) في الرسالة القشيرية جاء: وقد روي أن رجلاً أنشد بين يدي رسول الله ﷺ:

أَقْبَلْتُ فَلَاحَ لَهَا عَارِضَانِ كَالسَّبَجِ
أَدْبَرْتُ فَقَلَّتْ لَهَا وَالْفَوَادُ فِي وَهَجِ
هَلْ عَلَيَّ وَيَحْكُمَا إِنْ عَشَقْتَ مِنْ حَرَجِ

فقال رسول الله ﷺ: لا. قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرح الرسالة: هذا حديث موضوع. ويدل قول المؤلف: ويذكر، على أنه غير متأكد من صحة الحديث.

وقالت فرقةٌ أُخرى: بل اختياريٌّ تابعٌ لهوى النفس وإرادتها، بل هو استحكامُ الهوى الذي مدحَ الله مَنْ نهى عنه نفسه فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] فمحالٌ أَنْ ينهى الإنسانُ نفسه عما لا يدخل تحت قدرته.

قالوا: والعشقُ حركةٌ اختياريَّةٌ للنفس إلى نحو محبوبها، وليس بمنزلة الحركات الاضطرارية التي لا تدخل تحت قدرة العبد. قالوا: وقد ذمَّ الله سبحانه وتعالى أصحابَ المحبة الفاسدة الذين يحبون من دونه أنداداً، ولو كانت المحبةُ اضطراريةً لما ذُثموا على ذلك. قالوا: ولأنَّ المحبةَ إرادةٌ قويَّةٌ، والعبدُ يُحمدُ ويُدُّمُ على إرادته، ولهذا يُحمدُ مريدُ الخير وإن لم يفعله، ويُدُّمُ مريدُ الشرِّ وإن لم يفعله. وقد ذمَّ الله الذين يحبون أن تَشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا، وأخبر أن لهم عذاباً أليماً. ولو كانت المحبةُ لا تُملكُ لم يتوعَّدُهم بالعذاب على ما لا يدخل تحت قدرتهم. قالوا: والعقلاءُ قاطبةٌ مُطِيقُونَ على لوم من يحبُّ ما يتضرَّرُ بمحبته. وهذا فطرةٌ فطرَ اللهُ عليها الخلقُ، فلو اعتذرَ بأنِّي لا أملك قلبي لم يقبلوا له عذراً.

فصل: وفصل النزاع بين الفريقين أنَّ مبادئَ العشقِ وأسبابه اختياريَّةٌ داخلَةٌ تحت التكليف، فإنَّ النظرَ والتفكيرَ والتعرُّضَ للمحبة أمرٌ اختياريٌّ، فإذا أتى بالأسباب كان ترُتبُ المسبَّبِ عليها بغير اختياره كما قيل:

تَوَلَّعَ بِالْعَشْقِ حَتَّى عَشِقَ فَلَمَّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يُطِيقْ
رَأَى لُجَّةَ ظَنِّهَا مَوْجَةً فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا غَرِقَ
تَمَتَّى الْإِقَالَةَ مِنْ ذَنْبِهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْهَا وَلَمْ يَسْتَطِيقْ

وهذا بمنزلة السكر من شُرْبِ الخمر، فإن تناوَلَ المسكر اختياري وما يتولد عنه السكر اضطراريٌّ، فمتى كان السببُ واقعاً باختياره لم يكن معذوراً. ولا ريب أن متابعة النظر واستدامة التفكير بمنزلة شرب المسكر فهو يلام على السبب، ولهذا إذا حصل العشق بسببٍ غير محذور لم يُلَمَّ عليه صاحبه، كمن كان يعشق امرأته أو جاريته ثم فارقها وبقي عشقها غير مفارقٍ له، فهذا لا يلام على ذلك كما تقدَّم في قصة بَريرةَ ومُغيث. وكذلك إذا نظر نظرة فجأة ثم صرف بصره وقد تمكَّن العشقُ من قلبه بغير اختياره، على أن عليه مُدافعتَه وصرفَه عن قلبه بضده، فإذا جاء أمرٌ يَغْلِبُه فهناك لا يلام بعد بذل الجهد في دفعه. ومما يبين ما قلناه أن سكر العشق أعظمُ من سكر الخمر كما قال الله تعالى عن عُشَّاقِ الصُّورِ من قول لوطٍ: ﴿لَعَزَمْتُ أَنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] وإذا كان أدنى السكَّرين لا يُعَذَّرُ صاحبه إذا تعاطى أسبابه، فكيف يُعَذَّرُ صاحبُ السكر الأقوى مع تعاطي أسبابه؟ وإذا قد وصلنا إلى هذا الموضوع فلنذكر باباً في سكرة الحب وسببها.

في سكرة العشاق

ولا بدّ قبل الخوض في ذلك من بيان حقيقة السكر وسببه وتولّده فنقول: السكر لذةٌ يغيب معها العقلُ الذي يُعلّم به القولُ ويحصلُ معه التمييز. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فجعل الغاية التي يزول بها حكمُ السكران أن يعلم ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقول فهو في السكر، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، وهذا هو حدُّ السكران عند جمهور أهل العلم.

قيل للإمام أحمد بن حنبلٍ رحمه الله تعالى: بماذا يُعلّم أنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره. ويُذكر عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال: إذا اختلط كلامه المنظوم، وأفشى سرّه المكتوم. وقال محمد بن داود الأصفهاني: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسرّه المكتوم. فالسكر يجمع معنيين: وجود لذة، وعدم تمييز، والذي يقصد السكر قد يقصد أحدهما وقد يقصد كليهما، فإن النفس لها هوى وشهوات تلتذّ بإدراكها، والعلم بما في تلك اللذات من المفسدات العاجلة والآجلة يمنعها من تناولها، والعقل يأمرها بأن لا تفعل، فإذا زال العقل الأمر والعلم الكاشف انبسطت النفس في هواها، وصادفت مجالاً واسعاً.

وحرم الله سبحانه وتعالى السكر لشيئين ذكرهما في كتابه من قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٤] فأخبر الله سبحانه أنه يوجب المفسدة الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل، ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل.

وقد يكون سببُ السكر ألماً كما يكون لذة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]. وقد يكون سببه قوة الفرح بإدراك المحبوب بحيث يختلط كلامه،

وتتغير أفعاله بحيث يزول عقله، وربما قتله الفرح بسبب طبعي وهو انبساط دم القلب انبساطاً خارجاً عن العادة، والدم حامل الحارّ الغريزي فيبرد القلب بسبب انبساط دمه فيحدث الموت.

وقد جرى هذا لأحمد بن طولون أمير مصر فإنه مرّ بصياد في يوم بارد وعنده بُنيّ له، فرق عليهما، وأمر غلامه أن يدفع إليه ما معه من الذهب، فصبه في حجره ومضى، فاشتدّ فرحه به فلم يحمل ما ورد عليه من الفرح فقضى مكانه، فعاد الأمير من شأنه فوجد الرجل ميتاً والصبي يبكي عند رأسه فقال: من قتله؟ فقال: مرّ بنا رجل - لا جزاء الله خيراً - فصب في حجر أبي شيثاً فقتله مكانه، فقال الأمير: صدق نحن قتلناه. أتاه الغنى وهلة واحدة^(١) فعجز عن احتمالها فقتله، ولو أعطيناه ذلك بالتدريج لم يقتله فحرّض الصبي على أن يأخذ الذهب فأبى وقال: والله لا أمسك شيئاً قتل أبي.

والمقصود أن السكر يوجب اللذة ويمنع العلم، فمنه السكر بالأطعمة والأشربة، فإن صاحبها يحصل له لذة وسرور بها يحمله على تناولها لأنها تغيب عنه عقله فتغيب عنه الهموم والغموم والأحزان تلك الساعة، ولكن يغلط في ذلك فإنها لا تزول ولكن تتوارى، فإذا صحا عادت أعظم ما كانت وأوفره، فيدعوه عودها إلى العود كما قال الشاعر:

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تساويت منها بها
ومن الناس من يقصدُ بها منفعةَ البدن وهو غالط، فإنه يترتب عليها من المضرة المتولدة عن السكر ما هو أعظم من تلك المنفعة بكثير، واللذة الحاصلة بذكر الله والصلاة عاجلاً وآجلاً أعظم وأبقى وأدفع للهموم والغموم والأحزان.

وتلك اللذة أجلبُ شيءٍ للهموم والغموم عاجلاً وآجلاً، ففي لذة ذكر الله والإقبال عليه والصلاة بالقلب والبدن من المنفعة الشريفة العظيمة السالمة عن المفسدات الدافعة للمضار غنى وعوض للإنسان الذي هو إنسانٌ عن تلك اللذة الناقصة القاصرة المانعة لما هو أكمل منها، الجالبة لألمٍ أعظم منها.

فصل: ومن أسباب السكر حبُّ الصُّور، فإنه إذا استحکم وقوي أسكر المحب، وأشعارهم بذلك مشهورة كثيرة ولا سيما إذا اتصل الجماع بذلك الحب، فإن صاحبه ينقص تمييزه أو يعدم في تلك الحالة بحيث لا يميّز، فإن انضاف إلى ذلك السكر سكرُ الشراب بحيث يجتمع عليه سكرُ الهوى وسكرُ الخمر وسكرُ لذة الجماع فذلك غاية

(١) وهلة واحدة: أي دفعة واحدة.

السكر. ومنه ما يكون سببه حب المال والرئاسة وقوة الغضب، فإن الغضب إذ قوي أوجب سكرًا يقرب من سكر الخمر.

ويدخل ذلك في الإغلاق الذي أبطل النبي ﷺ وقوع الطلاق فيه بقوله: «لا طلاق في إغلاق»^(١) رواه أبو داود وقال: أظنه الغضب. وفسره الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أيضاً بالغضب.

ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١] قال السلف في تفسيرها: هو الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له على ذلك سكر الغضب لا يجيب دعاءه.

ومن هذا قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك: اللهم أنت عبيدي وأنا ربك، قال رسول الله ﷺ: «أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرْحِ»^(٢) ولم يكن بذلك كافراً لعدم قصده. وذكر النبي ﷺ ذلك تحقيقاً لشدة الفرح الذي أفضى به إلى ذلك. وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكر لأن السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل، وسبب اللذة أدراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحبوب قويًا والعقل ضعيفاً حدث السكر، لكن ضعف العقل يكون تارةً من ضعف المحبة وتارةً من قوة السبب الوارد، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه.

فصل: ومن أقوى أسباب السكر الموجبة له سماع الأصوات المطربة من جهتين: من جهة أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل، ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كائنًا ما كان، فيحصل بتلك الحركة الشوق والطلب مع التخيل للمحبوب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تفهر العقل، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان، ولهذا يقرن المعنيون بهذه اللذات سماع الألحان بالشراب كثيراً ليكمل لهم السكر بالشراب والعشق والصوت المطرب، فيجدون من لذة الوصال وسكره في هذه الحال ما لا يجدونه بدونها.

(١) لفظ الحديث: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق» وروي: «... في غلاق». أخرجه أبو داود في الطلاق باب ٨، وابن ماجه في الطلاق باب ١٦، وأحمد في المسند (٢٧٦/٦).

(٢) من حديث رواه مسلم في التوبة حديث رقم ٧.

فالخمرُ شرابُ النفوس، والألحانُ شرابُ الأرواح، ولا سيَّما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب ووصفُ حال المحب على مقتضى الحال التي هو فيها، فيجتمع سماعُ الأصوات الطيِّبة وإدراكُ المعاني المناسبة، وذلك أقوى بكثيرٍ من اللذة الحاصلةِ بكل واحدٍ منها على انفراده، فتستولي اللذة على النفس والروح والبدن أتمَّ استيلاء فيحدث غايةُ السكر. فكيف يدَّعي العذرُ من تعاطى هذه الأسباب ويقول: إن ما تولَّد عنها اضطراريٌّ غيرُ اختياري وبالله التوفيق.

في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان

فكلما قَوِيَتِ المحبَّةُ قَوِيَتِ اللَّذَةُ بإدراك المحبوب، وهذا الباب من أجل أبواب الكتاب وأنفعها. ونذكر فيه بيان معرفة اللذة وأقسامها ومراتبها فنقول: أما اللذة ففسَّرت بأنها إدراك الملائم كما أنَّ الألم إدراك المنافي. قال شيخنا: والصواب أن يقال إدراك الملائم سبب اللذة، وإدراك المنافي سبب الألم، فاللذة والألم يَنشَأَن عن إدراك الملائم والمنافي، والإدراك سبب لهما، واللذة أظهر من كل ما تُعرَّف به فإنها أمرٌ وجدانيٌّ، وإنما تُعرَّف بأسبابها وأحكامها. واللذة والبهجة والسرور وقوَّة العين وطيب النفس والنعيم ألفاظٌ مُتقاربةٌ المعنى، وهي أمرٌ مطلوبٌ في الجملة، بل ذلك مقصود كلِّ حيٍّ، وذلك أمرٌ ضروريٌّ من وجوده، وذلك في المقاصد والغايات بمنزلة الحسِّ والعلوم البديهية في المبادئ والمقدمات، فإن كلَّ حيٍّ له علمٌ وإحساسٌ، وله عملٌ وإرادةٌ، وعلمُ الإنسان لا يجوز أن يكون كلَّه نظريًّا استدلالِيًّا لاستحالة الدَّور والتسلسل، بل لا بدَّ له من علمٍ أوَّلُه بديهيٌّ يبدؤه النفسَ ويتبدى فيها، فلذلك يُسمَّى بديهيًّا وأوَّلِيًّا، وهو من نوع ما تُضطرُّ إليه النفس ويُسمَّى ضروريًّا. فإن النفس تُضطرُّ إلى العلم تارةً وإلى العمل أُخرى، وكذلك العملُ الاختياريُّ المراديُّ له مُرادٌ، فذلك المرادُ إما أن يُراد لنفسه أو لشيءٍ آخر، ولا يجوز أن يكون كلُّ مرادٍ مراداً لغيره حذراً من الدَّور والتسلسل، فلا بدَّ من مرادٍ مطلوبٍ محبوبٍ لنفسه، فإذا حصل المطلوبُ المرادُ المحبوب فاقترانُ اللذة والنعمة والفرح والسرور وقوَّة العين به على قدر قوَّة محبته وإرادته والرغبة فيه، وذلك أمرٌ ذوقِيٌّ وجدِّيٌّ، ولهذا يغلب على أهل الإرادة والعمل من السالكين اسمُ الذوق والوجد لما في وجود المراد المطلوب من الذوق والوجد الموجب للفرح والسرور والنعيم. فهاهنا ثلاثة أنواع من الأسماء متقاربة المعاني، أحدها: الشهوةُ والإرادةُ والميل والطلب والمحبة والرغبة ونحوها، الثاني: الذَّوقُ والوجد والوصولُ والظفر والإدراك والحصولُ والتَّيْلُ ونحوها، الثالث: اللَّذَةُ والفرح والنعيم والسرور وطيب النفس وقوَّة العين ونحوها، وهذه الأمور الثلاثة متلازمة.

فصل: وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تُدَمُّ إذا أعقبت ألماً أعظم منها أو منعت لذة خيراً منها، وتُحَمَّدُ إذا أعانت على اللذة الدائمة المستقرة وهي لذة الدار الآخرة ونعيمها الذي هو أفضل نعيم وأجله كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢، ٧٣]، والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لدار القرار وجعل اللذة كلها بأسرها فيها كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ بَلْهُ مَا أَطْلَعْتُمْ»^(١) أي غير ما اطلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيق عليهم حيث قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاعٌ يمتنع بها إلى غيرها، والآخرة هي المستقر والغاية.

فصل: وإذا عُرِفَ أن لذات الدنيا ونعيمها متاعٌ ووسيلةٌ إلى لذات الدار الآخرة ولذلك خُلِقَتْ كما قال النبي ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(٢) فكلُّ لذة أعانت على لذات الدار الآخرة فهي محبوبةٌ مرضيةٌ للرب تعالى، فصاحبها يلتذ بها من وجهين: من جهة تنعمه وقُرَّةِ عينه بها، ومن جهة إيصالها له إلى مرضاة ربه وإفصائها إلى لذة أكمل منها، فهذه هي اللذة التي ينبغي للعاقل أن يسعى في تحصيلها، لا اللذة التي تُغفِي غاية الألم وتفوت عليه أعظم اللذات، ولهذا يثاب المؤمن على كلِّ ما يلتذ به من المباحات إذا قصَدَ به الإعانة والتوصل إلى لذة الآخرة ونعيمها، فلا نسبة بين لذة صاحب الزوجة أو الأمّة الجميلة التي يحبها وعينه قد قرّت بها، فإنه إذا باشرها والتذُّ قلبه

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨، وتفسير سورة ٣٢ باب ١، والتوحيد باب ٣٥. ومسلم في الإيمان حديث ٣١٢، وصفة الجنة حديث ٢ - ٥. والترمذي في تفسير سورة ٣٢ باب ٢، وسورة

٥٦ باب ١. وابن ماجه في الزهد باب ٣٩. وأحمد في المسند (٣٣٤/٥).

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع باب ٥٩، والنسائي في النكاح باب ١٥، وأحمد في المسند (١٦٨/٢).

وبدنه ونفسه بوصالها أُثيب على تلك اللذة في مقابلة عقوبة صاحب اللذة المحرمة على لذته، كما قال النبي ﷺ «وَفِي بَضْعِ أَحَدِكُمْ أَجْرٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَاتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟» قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: «فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ»^(١).

واعلم أن هذه اللذة تتضاعف وتتزايد بحسب ما عند العبد من الإقبال على الله وإخلاص العمل له والرغبة في الدار الآخرة، فإن الشهوة والإرادة المنقسمة في الصُّور اجتمعت له في صورة واحدة، والخوف والهَمِّ والغَمِّ الذي في اللذة المحرمة معدوم في لذته، فإذا اتفق له مع هذا صورة جميلة ورزق حُبِّها ورزقت حُبِّه وانصرفت دواعي شهوته إليها، وَصَصَرَتْ بَصَرَهُ عن النظر إلى سواها ونفسه عن التطلع إلى غيرها فلا مناسبة بين لذته ولذة صاحب الصورة المحرمة. وهذا أطيب نعيم يُنال من الدنيا، وجعله النبي ﷺ ثالثَ ثلاثة بها يُنال خيرُ الدنيا والآخرة وهي: قلبٌ شاكِر، ولسانٌ ذاكِر، وزوجةٌ حسناء إن نظر إليها سرتَه، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله، فالله المستعان.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأ القرآن فإذا فرغ قال: أَيْنَ الْعُزَابُ؟ فيقول: ادنوا مني ثم قولوا: اللهم ارزقني امرأة إذا نظرتُ إليها سرتني، وإذا أمرتها أطاعتني، وإذا غبت عنها حفظت غيبتني في نفسها ومالي.

والألم والحُزْمُ والغَمُّ ينشأ من عَدَمِ العلم بالمحسوب النافع، أو من عدم إرادته وإيثاره مع العلم به، أو من عدم إدراكه والظفر به مع محبته وإرادته، وهذا من أعظم الألم. ولهذا يكون ألم الإنسان في البرزخ^(٢) وفي دار الحيوان^(٣) بفوات محبوبه أعظم من ألمه بفواته في الدنيا من ثلاثة أوجه، أحدها: معرفته هناك بكمال ما فاته ومقداره، الثاني: شدة حاجته إليه وشوق نفسه إليه مع أنه قد حيل بينه وبينه كما قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤]، الثالث: حصول ضده المؤلم له. فليتأمل العاقل هذا الموضع وليُنزِل نفسه منزلة من قد فاته أعظم محبوب وأنفعه وهو أفقر شيء وأحوجُه إليه فواتاً لا يَرْجَى تداركُه وحصل على ضده، فيا لها من مصيبة ما أوجعها،

(١) أخرجه مسلم في الزكاة باب ٥٢. وأبو داود في التطوع باب ١٢، والأدب باب ١٦٠. وأحمد في المسند (١٦٧/٥، ١٦٨).

(٢) البرزخ: الحاجز بين شيئين، وما بين الموت والبعث، فمن مات فقد دخل البرزخ. قال تعالى: ﴿وَمَنْ وَرِثَهُمْ يَرْجُو إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ﴾.

(٣) دار الحيوان: هي الدار الآخرة.

وحالة ما أقطعها، فأين هذه الحال من حالة مَنْ يلتذُّ في الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى من الأكل والشرب واللباس والنكاح وشفاء الغيظ بقره العدو وجهاد في سبيله، فضلاً عما يلتذُّ به من معرفة ربه ووجه له وتوحيده والإثابة إليه والتوكل عليه والإقبال عليه وإخلاص العمل له والرضا به وعنه، والتفويض إليه وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به والشوق إلى لقائه كما في الحديث الذي صححه ابن حبان والحاكم: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ» وهذه اللذة لا تزال في الدنيا في زيادة مع تنقيصها بالعدو الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدو الظاهر، فكيف إذا تجرّدت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات واتصلت بالرفيق الأعلى ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيماً﴾ [النساء: ٦٨، ٦٩]. فإذا أفضى إلى دار النعيم فهناك من أنواع اللذة والبهجة والسرور ما لا عين رأت ولا أُذُن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فبؤساً وتَعَساً للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يَهْزُها الشوقُ إلى ذلك طرباً، ولا تَتَقَدُّ نارُ إرادتها لذلك رَغْباً، ولا تبعد عما يَصُدُّ عن ذلك رَهْباً، فبصائرهما كما قيل:

خَفَافِشُ أَعْشَاهَا النَّهَارُ بِضَوِّهِ وَلَاءَمَهَا قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمِ
تجول حول الحُش، إذا جالت النفوسُ العلويَّةُ حول العرش، وتندس في الأحجار، إذا طارت النفوس الزكية إلى أعلى الأوكار.

فلم تَرَأْمِشال الرجال تفاوتوا إلى الفضل حتى عُد ألف بواحد
فصل: وكلّ لَذَّةٍ أَعْقَبَتْ أَلَمًا أو منعتْ لَذَّةً أَكْمَلَ منها فليست بلَذَّةً في الحقيقة وإن غالطت النفس في الالتئاذ بها، فأَيُّ لَذَّةٍ لَآكل طعامٍ شهِيٍّ مَسْمُومٍ يُقَطِّعُ أَمْعَاءَهُ عن قريب؟ وهذه هي لَذَاتُ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ بَعْلُوهُمْ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادُهُمْ وَفَرَحُهُمْ فِيهَا بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَرَحُهُمْ. وذلك مثل لَذَّةِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ يَحْبُونَهُمْ كَحَبِّ اللَّهِ، فنالوا بهم مَوَدَّةَ بَيْنِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثم استحالت تلك اللذة أعظم أَلَمٍ وَأَمْرَةٍ. ومن ذلك لَذَّةُ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ وَالْفَرْحِ بِهَا، وَلَذَّةُ غَلْبَةِ أَهْلِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ وَالزُّنَى وَالسَّرِقَةِ وَشَرِبِ الْمُسْكِرَاتِ. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يُمَكِّنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ لِخَيْرٍ يَرِيدُهُمْ، إنما هو استدراجٌ منه لينبأهم به أعظم الأَلَمِ قال الله تعالى: ﴿يُحَسِّبُونَ أَنَّمَا يُنِذُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

فصل: وأما اللذة التي لا تُعْقِبُ أَلَمًا فِي دَارِ الْقَرَارِ وَلَا تُوَصِّلُ إِلَى لَذَّةٍ هُنَاكَ فَهِيَ لَذَّةُ

باطلة، إذ لا منفعة فيها ولا مضرة، وزمنها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر وهي لا بد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها في العاجلة والآجلة وإن لم تشغل عن أصل اللذة في الآخرة وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «كُلْ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيبِهِ فَرَسُهُ وَمَلَاعِبَتُهُ أَهْلُهُ فَإِنَّهُمْ مِنَ الْحَقِّ» (رواه مسلم^(١)) ولهذا كانت لذة اللعب بالدف في العرس جائزة فإنها تعين على النكاح، كما تعين لذة الرمي بالقوس وتأديب الفرس على الجهاد، وكلاهما محبوب لله. فما أعان على حصول محبوبه فهو من الحق، ولهذا عَدَّ ملاعبة الرجل امرأته من الحق لإعانتها على مقاصد النكاح الذي يحبه الله سبحانه وتعالى، وما لم يُعِنْ على محبوب الرب تعالى فهو باطل لا فائدة فيه، ولكن إذا لم يكن فيه مضرة راجحة لم يُحَرِّمْ ولم يُنَهْ عنه، ولكن إذا صدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة صار مكروهاً بغيضاً للرب عز وجل مقيتاً عنده إما بأصله وإما بالتجاوز فيه. وكل ما صدَّ عن اللذة المطلوبة فهو وبالٌ على صاحبه، فإنه لو اشتغل حين مباشرته له بما ينفعه ويَجْلِبُ له اللذة المطلوبة الباقية لكان خيراً له وأنفع.

ولما كانت النفوس الضعيفة كنفوس النساء والصبيان لا تنقاد إلى أسباب اللذة العظمى إلا بإعطائها شيئاً من لذة اللهو واللعب بحيث لو فطمت عنه كل القطام طلبت ما هو شرُّ لها منه رخص لها من ذلك فيما لم يرخص فيه لغيرها. وهذا كما دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي ﷺ وعنده جوار يضر بن بالدف فأسكتته لدخوله وقال: «هذا رجُلٌ لَا يُحِبُّ الْبَاطِلَ»^(٢) فأخبر أن ذلك باطلٌ ولم يمنعه من لذة الدف لما يترتب لهن عليه من المصلحة الراجحة، ويتركز به مفسدة أرجح من مفسدته، وأيضاً فيحصل لهم من التألم بتركه مفسدة هي أعظم من مفسدته، فتمكينهم من ذلك من باب الرحمة والشفقة والإحسان، كما مكن النبي ﷺ أبا عمير من اللعب بالعصفور بحضرتة^(٣)، ومكن الجاريتين من الغناء بحضرتة^(٤) ومكن عائشة رضي الله عنها من النظر إلى الحبشة وهم

(١) غير موجود في صحيح مسلم، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه أصحاب السنن الأربعة.

(٢) رواه الإمام أحمد في قصة أخرى ليس فيها ذكر الدف والجواري بل قاله ﷺ للأسود بن سريع وكان ينشده شعراً.

(٣) هو حديث: «يا أبا عمير ما فعل الثَّغِيرُ» رواه البخاري في الأدب باب ٨١، ١١٢. ومسلم في الأدب حديث ٣٠. وأبو داود في الأدب باب ٦٩. والترمذي في الصلاة باب ١٣١، والبر باب ٥٧. وابن ماجه في الأدب باب ٢٤. وأحمد في المسند (٣/١١٥، ١١٩، ١٧١، ١٨٨، ١٩٠، ٢٠١، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٧٨، ٢٨٨).

(٤) أخرجه البخاري في العيدين باب ٣. ومسلم في العيدين حديث ١٦. وابن ماجه في النكاح باب ٢١.

يلعبون في المسجد^(١)، ومكّن تلك المرأة أن تضرب على رأسه بالدف^(٢) ونظائر ذلك. فأين هذا من اتخاذ الشيوخ المشار إليهم المقتدى بهم ذلك ديناً وطريقاً مع التوسّع فيه غاية التوسّع بما لا ريب في تحريمه؟ ونظيرُ هذا إعطاء النبي ﷺ المؤلّفة قلوبهم من الزكاة والغنيمة لضعف قلوبهم عن قلوب الراسخين في الإيمان من أصحابه، ولهذا أعطى هؤلاء ومنع هؤلاء وقال: أَكْلُهُمْ إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغَنَاءِ وَالْخَيْرِ، ونظير هذا مزاحه ﷺ مع مَنْ كان يمزح معه من الأعراب والصبيان والنساء تطييباً لقلوبهم، واستجلاباً لإيمانهم، وتفريحاً لهم. وفي مراسيل الشعبيّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مرَّ عَلَى أَصْحَابِ الدَّرَكِلَةِ فَقَالَ: «خَذُوا يَا بَنِي أَرْفَدَةَ^(٣) حَتَّى تَعْلَمَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ فِي دِينِنَا فَسْحَةً» (ذكره أبو عبيد وقال: الدَّرَكِلَةُ: لعبة العجم) فالنبي ﷺ يبذل للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألّفها به على الحقّ المأمور به ويكون المبدول مما يلتذّ به الآخذ ويحبّه، لأن ذلك وسيلةٌ إلى غيره، ولا يفعل ذلك مع من لا يحتاج إليه كالمهاجرين والأنصار، بل يبذل لهم أنواعاً أُخَرَ من الإحسان إليهم، والمنافع في دينهم ودنياهم. ولما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ممن لا يحب هذا الباطل ولا سماعه، ولا يحتاج أن يُتألّف بما يُتألّف به غيره، وليس مأموراً بما أمر به النبي ﷺ من التألّف على الإيمان به، وطاعته بكل طريق - كان إعراضه عنه كمالاً بالنسبة إليه، وحال النبي ﷺ أكمل.

فصل: إذا عُرِفَ هذا فأقسامُ اللذاتِ ثلاثة: لذّة جُثمانية، ولذّة خيالية وَهْمِيّة، ولذّة عقلية رُوحانية.

فاللذة الجُثمانية لذّة الأكل والشرب والجماع، وهذه اللذّة يَشْتَرِكُ فيها مع الإنسان الحيوانُ البهيّم، فليس كمالُ الإنسان بهذه اللذّة لمشاركة أنقص الحيوانات له فيها، ولأنّها لو كانت كمالاً لكان أفضلُ الإنسان وأشرفهم وأكملهم أكثرهم أكلاً وشرباً وجماعاً، وأيضاً لو كانت كمالاً لكان نصيبُ رسل الله وأنبيائه وأوليائه منها في هذه الدار أكمل من نصيب أعدائه. فلما كان الأمرُ بالصدّد تبين أنها ليست في نفسها كمالاً، وإنما تكون كمالاً إذا تضمّنت إعانةً على اللذّة الدائمة العظمى كما تقدّم.

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٢٦٩، والعديد باب ٢٥، والجهاد باب ٧٩، والمناقب باب ١٥، والنكاح باب ١١٤. ومسلم في العديدين حديث ١٧، ٢١، ٢٢، والمساجد حديث ١٨. والنسائي في العديدين باب ٣٤، ٣٥. وأحمد في المسند (٣٦٨/٢)، ٥٦، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ١٦٦، ١٨٦، ٢٤٢، (٢٤٧، ٢٧٠).

(٢) ربما يشير بذلك إلى إنشاد النساء عند قدوم رسول الله ﷺ قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في دلائل النبوة وليس فيه ذكر للدف والألحان.

(٣) أرفدة: أبو الحبش. والحديث رواه الخرائطي في اعتلال القلوب وفي الصحاح بلفظ: جدوا.

فصل: وأما اللذة الوهميَّة الخيالية فلذة الرِّئاسة والتعاظُم على الخلق والفخر والاستطالة عليهم.

وهذه اللذة وإن كان طُلَّابُهَا أشرفَ نفوساً من طلاب اللذة الأولى فإن آلامها وما توجبه من المفساد والمضار أعظم من التذاذ النفس بها، فإن صاحبها منتصبٌ لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه. ولهذا شروطٌ وحقوقٌ تفوّت على صاحبها كثيراً من لذاته الحسيَّة، ولا يتمُّ إلا بتحسُّل مشاقٍّ وآلامٍ أعظم منها. فليست هذه في الحقيقة بلذة وإن فرحت بها النفس وسُرَّت بحصولها. وقد قيل: إنه لا حقيقة للذة في الدُّنيا وإنما غايتها دفعُ آلام كما يُدفع أَلَمُ الجوع والعطش وأَلَمُ الشهوة بالأكل والشرب والجماع. ولذلك يُدفع أَلَمُ الخمول وسقوطُ القدر عند الناس بالرِّئاسة والجاه. والتحقيقُ أن اللذة أمرٌ وجوديٌّ يستلزم دفع الأَلَم بما بينهما من التضاد.

فصل: وأما اللذة العقليَّة الرُّوحانية فهي كلذة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والمروءة وغيرها، فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذات، وهو لذَّة النفس الفاضلة العُلوية الشريفة، فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذَّة معرفة الله تعالى ومحبه وعبادته وحده لا شريك له والرضا به عوضاً عن كل شيءٍ ولا يتعوَّض بغيره عنه، فصاحب هذه اللذة في جنةٍ عاجلةٍ نُسبتُها إلى لذات الدنيا، كنسبة لذَّة الجنة إلى لذَّة الدنيا، فإنه ليس للقلب والروح أَلَدٌّ ولا أَطيبٌ ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرَّة العين به والأنس بقربه والشوق إلى لقائه ورؤيته، وإن مثقال ذرَّة من هذه اللذة لا يُعَدَّلُ بأمثال الجبال من لذات الدنيا ولذلك كان مثقالُ ذرَّة من إيمانٍ بالله ورسوله يُخَلِّص من الخلود في دار الآلام فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولها؟ قال بعض العارفين: مَنْ قرَّت عينُه بالله قرَّت به كلُّ عين، ومَنْ لم تَقَرَّ عينُه بالله تقطَّعت نفسه على الدنيا حَسَرَات، ويكفي في فضل هذه اللذة وشرفها أنها تُخْرِج من القلب أَلَمَ الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا، حتى إنه ليتألَّم بأعظم ما يلتذُّ به أهلُها، ويَقَرُّ منه فرارهم من المؤلم. وهذا موضعُ الحاكم في الذوق لا مجردُ لسان العلم. وكان بعضُ العرافين يقول: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيبَ نعيمها، فيقال له: وما هو؟ فيقول: محبةُ الله والأنسُ به والشوقُ إلى لقائه ومعرفةُ أسمائه وصفاته.

وقال آخر: أَطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألَدُّ ما في الآخرة رؤيته وسماعُ كلامه بلا واسطة.

وقال آخر: والله إنه لَيَمُرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحال إنهم لفي عيش طيب. وأنت ترى محبة مَنْ في محبته عذاب القلب والروح كيف توجب لصاحبها لذةَ يتمنى أنه لا يفارقه حُبُّه كما قال شاعرُ الحماسة:

تَشَكَّى المحبون الصبابةَ ليتني تحملتُ ما يَلْقَوْنَ من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذةُ الحبِّ كُلِّها فلم يَلْقَها قلبي محبٌّ ولا بعدي

قالت رابعة: سَعَلُوا قلوبهم بحب الدنيا عن الله، ولو تركوها لجالت في الملكوت ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد. وقال سلم الخواص: تركتموه وأقبل بعضكم على بعض، ولو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب. وقالت امرأةٌ من العابدات: لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما دُخر لها في حُجُب الغيوب من خير الآخرة لم يَصِفْ لها في الدنيا عيش، ولم تَقَرَّ لها في الدنيا عين. وقال بعض المحبين: إِنَّ حُبَّه عز وجل شغل قلوب مُحِبِّيه عن التلذُّذ بمحبة غيره، فليس لهم في الدنيا مع حبه عز وجل لذةٌ تُداني محبته، ولا يؤمِّلون في الآخرة من كرامة الثواب أكبرَ عندهم من النظر إلى وَجْه محبوبهم. وقال بعض السَّلَف: ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً ففتح عينيه اللَّتَيْنِ في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وَعَدَ به مَنْ لا أصدق منه حديثاً، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله المعْرِضِ عن ذكره العقوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خُلِقَ له لكفى بذلك عقوبة.

وقد روى عبد العزيز بن أبي رَوَاد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ» قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا جَلَاؤُهُ؟ قال: «تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ»^(١) وقال بعض العارفين إن الحديد إذا لم يُسْتَعْمَلْ غَشِيَهُ الصَّدَأُ حتى يفسده، كذلك القلب إذا عَطِلَ من حب الله والشوق إليه وذكره غلبه الجهل حتى يميته ويُهْلِكه. وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أَذْبَه بالذكر. وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، ولا يُذهب قساوته إلا حُبٌّ مقلقٌ، أو خوفٌ مزعج، فإن قيل: ما السبب الذي لأجله يلتذ المحبُّ بحبه وإن لم يظفر بحبيبه؟ قيل: الحبُّ يوجب حركة النفس وشدة طلبها، والنفس خُلِقَتْ متحركةً بالطبع كحركة

(١) في شرح الإحياء للمحافظ العراقي قال: رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

النار، فالحب حركتها الطبيعية، فكلّ من أحبّ شيئاً من الأشياء وجد في حبه لذةً وروحاً، فإذا خلا عن الحب مطلقاً تعطلت النفس عن حركتها وثقلت وكسلت وفارقها خفة النشاط. ولهذا تجد الكسالى أكثر الناس همّاً وحزناً، ليس لهم فرح ولا سرور، بخلاف أرباب النشاط والجِدِّ في العمل أيّ عمل كان، فإن كان النشاط في عملٍ همّ عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته، كان التذاذهم بحبه ونشاطهم فيه أقوى. وبالله التوفيق.

فيمن مدح العشق وتمناه، وغبط صاحبه على ما أوتيته من مناه

هذا موضعُ انقسم الناس فيه قسمين، وربما كان الشخص الواحد فيه مجموعُ الحالتين. فقسمٌ مدحوا العشقَ وتمنَّوه ورغبوا فيه، وزعموا أن مَنْ لم يَذُقْ طعمه لم يذُقْ طعم العيش. قالوا: وقد تبَيَّن أن كمال اللذة تابع لكمال الحبِّ فأعظم الناس لذَّةً بالشيء أكثرهم محبةً له، وقد تقدَّم تقريره. قالوا: وقد حَبَّبَ اللهُ سبحانه وتعالى إلى رُسُلِهِ وأنبيائه نساءهم وسرارِيهم، فكان آدم أبو البشر شديدَ المحبة لحواء، وقد أخبر اللهُ سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها. قالوا: وحُبُّها هو الذي حمَله على موافقتها في الأكل من الشجرة. قالوا: وأوَّلُ حُبِّ كان في هذا العالم حُبُّ آدمَ لحواءَ وصار ذلك سنَّةً في ولده في المحبة بين الزوجين. قالوا: وهذا داود من محبته للنساء جمع بين مائة امرأة. وكذلك ابنُه سليمان. قالوا: وقد عاب اليهودُ - عليهم لعائن الله - رسولَ الله ﷺ محبة النساء وكثرة تزوُّجه، فأنزل الله سبحانه وتعالى ذبًّا عن رسول الله ﷺ وإخباراً بأن ذلك من فضله وإنعامه عليه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٣]. قالوا: وقد كان عند إبراهيم خليل الرحمن أجمل النساء سارة، ثم تسرى بهاجر وكانت المحبة لها. قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كان إبراهيم الخليل يحب سُرَّيَّتَه هاجر محبةً شديدة، وكان يزورها في كل يومٍ على البُراق من الشام من شغفه بها.

قال الخرائطي: حدَّثنا نصر بن داود، حدَّثنا الواقدي، عن محمد بن صالح، عن سعد بن إبراهيم، عن عامر بن سعد، عن أبيه فذكره، وقد ثبت في الصحيح من حديث الشَّعْبِيِّ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ على جيش وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما رجعت قلت: يا رسول الله، من أحبُّ الناس إليك؟ قال: «وما تريد؟» قلت: «أحب أن أعلم». قال: «عائشة»، قلت: إنما أعني من الرجال، قال: «أبوها»^(١) وذكر مبارك بن فضالة عن علي بن زيد عن عمته عن عائشة، أن فاطمة

(١) تقدم بنحوه.

رضي الله عنها ذكرتها عند النبي ﷺ فقال لها: يا بُنَيَّةُ إنها حبيبة أهلك. وأصل الحديث في الصحيح من حديث الليث عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت: أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت النبي ﷺ إليه، فدخلت وهو مضطجع معي في مِرْطِي^(١)، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قُحافة، وأنا ساكتة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أَلَسْتَ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟» قالت: بلى، قال: «فَأَحِبِّي هَذِهِ»^(٢) وثبت في الصحيح من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يَفْسِمُ بين نسائه فيعدل ويقول: «اللَّهُمَّ هَذَا فَعَلِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ»^(٣) يريد ﷺ أنه يطبق العدل بينهما في النفقة عليهن والقسم بينهما، وأما التسوية بينهما في المحبة فليست إليه ولا يملكها.

وقال ابن سيرين: سألت عبيدة^(٤) عن قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] فقال: يعني الحب والجماع.

وقال ابن عباس: لا يستطيع أن يعدل بينهما في الشهوة ولو حرص.

وقال أبو قيس مولى عمرو بن العاص: بعثني عمرو إلى أم سلمة فقال: سلها أكان رسول الله ﷺ يُقْبَلُ أهلَه وهو صائم؟ فإن قالت لا فقل لها إن عائشة رضي الله عنها حدثتنا أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم، فسألها فقالت: لا، فأخبرها بما قال عبد الله^(٥)، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ كان إذا رأى عائشة رضي الله عنها لم يتمالك عنها، أما أنا فلا. وقال بيان الشعبي: أتاني رجل فقال: كُلْ أُمّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَحَبَّ إِلَّا عَائِشَةَ، فقلت: أما أنت فقد خالفت رسول الله ﷺ، كانت عائشة رضي الله عنها أحبهن إلى قلبه.

وقال مصعب بن سعد: فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأُمّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنهنَّ عشرة آلاف عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين وقال: إنها حبيبة رسول الله

(١) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتز به وتلفح به المرأة وجمعه مروط.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٨٣، والنسائي في عشرة النساء باب ٣.

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٣٨. والترمذي في النكاح باب ٤١. والنسائي في عشرة النساء باب ٢.

وابن ماجه في النكاح باب ٤٧. والدارمي في النكاح باب ٢٥. وأحمد في المسند (١٤٤/٦).

(٤) هو عبيدة السلماني كما جاء في تفسير القرطبي.

(٥) كذا. . ولعل الصواب أبو عبد الله أو عمرو، والثابت في صحيح مسلم أنه ﷺ كان يقبل أم سلمة وهو صائم.

ﷺ. وكان مسروق إذا حَدَّثَ عن عائشة رضي الله عنها يقول: حَدَّثَتْنِي الصَّدِيقَةُ بنت الصَّدِيقِ حَبِيبَةُ رسول رب العالمين المبرِّاةُ من فوق سبع سموات. قال أبو محمد بن حزم: وقد أَحَبَّ من الخلفاء الراشدين والأئمة المَهْدِيِّينَ كثيرٌ.

قال الخرائطي: واشترى عبد الله بن عمرَ جاريةَ روميةَ فكان يحبها حبًّا شديدًا، فوَقَعَتْ ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويُقَدِّمُها. وكانت تقول له: أنت قالون، تعني جيد، ثم إنها هربت منه فوجد عليها وَجَدًا شديدًا وقال:

قد كنتُ أَحْسِبُنِي قالونَ فانصرفت فالיום أعلمُ أَنِّي غيرُ قالون
وقصةٌ مُعْجِبَةٌ وعشقه بَرِيرَةٌ حتى إنه كان طوف وراءها ودموعه تسيل على خديهِ في الصحيح. وكان عُرْوَةُ بن أَدِيْنَةَ شيخُ مالك من العلماء الثقات الصُّلَحَاءِ وقفت عليه امرأةٌ فقالت: أنت الذي يقال له الرجلُ الصالح وأنت تقول:

إذا خَدِرْتُ رَجُلِي تَذَكَّرْتُ من لها فناديت لُبْنَى باسمها ودَعَوْتُ
دَعَوْتُ التي لو أن نفسي تُطِيعُنِي لَأَلْقَيْتُ نفسي نحوها وقَضَيْتُ^(١)

وقال صالح عن ابن شهاب: حَدَّثَنِي عبيد الله بن عبد الله بن عُبَيْدَةَ أَنَّ ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ في قَرِيبٍ من ثمانين رجلاً ليس فيهم إلا قرشي، والله ما رأيت صفحةً وجوه قط أَحْسَنَ من وجوههم يومئذ، قال: فذكروا النساء فتحدَّثُوا فيهنَّ وتحدَّثت معهنَّ حتى أَحْبَبْتُ أَنْ نسكت، قالوا: ولولا لطافة الحبِّ ولذَّته ما تمناه المتمنون. وقال شاعر الحماسة:

تَشَكَّى المَحَبُّونَ الصَّبَابَةَ لِيَتْنِي تَحَمَّلْتُ ما يَلْقَوْنَ من بينهم وَحَدِي
فكانت لقلبي لَذَّةُ الحُبِّ كُلِّهَا فلم يَلْقَهَا قبلي محبٌّ ولا بعدي

قالوا: والعشوقُ المباحُ مما يؤجر عليه العاشقُ كما قال شريك بن عبد الله - وقد سئل عن العُشَاق - فقال: أَشَدُّهم حُبًّا أعظمُّهم أَجْرًا. وصدق والله إذا كان المعشوق ممن يحبُّ الله للعاشق قربه ووصله، وقالت امرأة:

لن يقبلَ اللهُ من معشوقَةٍ عملاً يوماً وعاشقُها لَهْفَانُ مهجور
ليست بمأجورةٍ في قتل عاشقها لكنَّ عاشقها في ذاك مأجور

ونحن نقول: متى باتت مهاجرةً لفراش عاشقها الذي هو بعلمها لعنتها الملائكةُ حتى تصبح. قالوا: والعشوقُ يصفِي العقل ويذهب الهم ويبعث على حسن اللباس وطيب

(١) البيتان لقيس بن ذريح.

المطعم ومكارم الأخلاق ويعلي الهمة ويحمل على طيب الرائحة وكرم العشرة وحفظ الأدب والمروءة، وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين، وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان، وهو خلق الكرام كما قيل:

وما أَحَبُّهُمَا فُحْشاً وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْحَبَّ أَخْلَاقَ الْكَرَامِ
قالوا: وأرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم رقيقة ضعيفة، وأزواجهم بطيئة الانقياد لمن قادها، حاشا سكنها الذي سكنت إليه، وعقدت حبها عليه. وكلامهم ومنادتهم تزيد في العقول، وتحرك النفوس، وتطرب الأرواح، وتلهو بأخبارهم أولو الألباب.

فأحاديث العشاق زينة مجالسهم، ورؤح محادثتهم، ويكفي أن يكون الأعرابي الذي لا يذكر مع الملوك ولا مع الشجعان الأبطال يعشق ويشتهر بالعشق فيذكر في مجالس الملوك والخلفاء ومن دونهم، وتدون أخباره وتروى أشعاره، ويُبقي له العشق ذكراً مخلداً. ولولا العشق لم يذكر له اسم ولم يُرفع له رأس.

وقال بعض العقلاء: العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركته ضرك، وإن أكثرته منه قتلك.

وقال ابن عبد البر في كتابه «بهجة المجالس»: وجد في صحيفة لبعض أهل الهند: العشق ارتياحٌ جعل في الروح، وهو معنى تُنتجُه النجوم في مطّارح شعاعها، ويتولد في الطّباع بوصلة أشكالها، وتقبّله الروح بلطف جوهرها، وهو يعدّ جلاء القلوب، وصيقل الأذهان ما لم يُفِرط، فإذا أفرط صار سقماً قاتلاً، ومرّضاً مُنْهَكاً^(١) لا تنفد فيه الآراء، ولا تنجع فيه الحيل، والعلاج منه زيادة فيه.

وقال أعرابي: هو أنيس النفس، ومحادث العقل، تُجنّهُ الضمائر، وتخدمه الجوارح. وقال عبد الله بن طاهر أمير خراسان لولده: اعشقوا تظرفوا، وعفوا تشرّفوا. وقال قدامة: وصفه بعض البلغاء فقال: يشجع الجبان، ويسخي البخيل، ويصفي ذهن البليد، ويفصح لسان العبي، ويبعث حزم العاجز، ويدلّ له عزّ الملوك، وتصدع له صولة^(٢) الشجاع، وهو داعية الأدب، وأوّل باب تُفتق به الأذهان والفطن، وتستخرج به دقائق المكاييد والحيل، وإليه تستروح الهمم، وتسكن نوافر الأخلاق والشيم، يُمنع جليسه، ويؤنس أليفه، وله سرورٌ يجول في النفوس، وفرحٌ يسكن في القلوب. وقيل لبعض

(١) كذا... والصواب ناهكاً لأن فعله ثلاثي: أي مضنياً.

(٢) الصولة: السطوة في الحرب ونحوها ويقال: هو ذو صولة: مقدم.

الرؤساء: ابنك قد عشق، فقال: الحمد لله، الآن رقت حواشيه، ولطفت معانيه، وملحت إشاراته، وظرفت حركاته، وحسنت عباراته، وجادت رسائله، وحلت شمائله، فواظب على المליح، واجتنب القبيح.

وقيل لآخر ذلك فقال: إذا عشق لطف وظرف ودق ورّق. وقيل لبعضهم: متى يكون الفتى بليغاً؟ قال: إذا صنّف كتاباً، أو وصف هوًى أو حبباً. وقيل لسعيد بن أسلم: إن ابنك شرع في الرقيق من الشعر، فقال: دعوه يظرف وينظف ويلطف. وقال العباس بن الأحنف:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى
وقال الحسين بن مطير:

إن الغواني جنّة ریحانها
لولا ملاحظتهن ما كانت لنا
وقال غيره:

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها
وقال آخر:

هل العيش إلا أن تروح وتغتدي
وقال العطوي:

ما دنت بالحب إلا
وقال آخر:

نظرت إليها نظرة فهويتها
وقال آخر:

وما سرّني أني خلّي من الهوى
وقال آخر:

وما تلفت إلا من العشق مهنّتي
وقال آخر:

ولا خير في الدنيا بغير صبا

ولا في نعيم ليس فيه حبيب

(١) عزفت نفسه عن الشيء: انصرفت عنه وزهدت فيه.

وقال الكُمَيْت :

ما ذاق بُؤْسَ معيشَةٍ ونعيمِها
أَلْعَشَقُ فِيهِ حِلَاوَةٌ وَمَرَارَةٌ
وقال آخر :

وما طابت الدنيا بغير محبةٍ
وقال آخر :

أُسْكُنْ إِلَى سَكَنِ تَلَدُّ بِحَبِّهِ
وقال آخر :

إذا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَذَرِ مَا الْهَوَى
وقال آخر :

إذا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَذَرِ مَا الْهَوَى
وقال آخر :

إذا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَذَرِ مَا الْهَوَى
وقال آخر :

إذا لَمْ تَذُقْ فِي هَذِهِ الدَّارِ صَبُوءَ^(١)
وقال الأقرعُ بنُ مُعَاذٍ :

ولا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزُرْ
وقال آخر :

وما ذاق طَعْمَ العِيشِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ

وقال علي بن أبي كثير لابن أبي الزرقاء : هل عشقت قط حتى تكاتب وتراسل وتواعد؟ قال : لا ، فقال : لا يجيء منك شيء . وكان لبعض الملوك ولدٌ واحدٌ ساقطُ الهِمَّةِ دنيء النفس فاتر ، فأراد أن يُرْسِخَهُ لِلْمُلْكِ فَسَلَّطَ عَلَيْهِ الْجَوَارِي وَالْقِيَان^(٢) فَعَشَقَ مِنْهُنَّ واحدة ، فَأُعْلِمَ بِذَلِكَ الْمَلِكُ فَسَرَّ وَأَرْسَلَ إِلَى الْمَعْشُوقَةِ أَنْ تَجِيَّ عَلَيْهِ وَقُولِي : إِنِّي لَا

(١) الصبوة : الشوق والحنين والميل إلى الحبيب .

(٢) جمع قينة : الأمة المغنية ، وقيل الأمة مغنية كانت أو غير مغنية .

أَصْلَحَ إِلَّا لِمَلِكٍ أَوْ عَالِمٍ، فَلَمَّا قَالَتْ لَهُ ذَلِكَ أَخَذَ فِي التَّعَلُّمِ وَمَا عَلَيْهِ الْمُلُوكُ مِنْ أَدَوَاتِ الْمَلِكِ حَتَّى بَرَعَ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ الْمَرْزُبَانِي: سَأَلْتُ أَبَا نُوفَلٍ هَلْ يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الْعَشَقِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ الْجِلْفُ^(١) الْجَافِي الَّذِي لَيْسَ لَهُ فَضْلٌ وَلَا عِنْدَهُ فَهْمٌ، فَأَمَّا مَنْ فِي طَبْعِهِ أَدْنَى ظَرْفٍ أَوْ مَعَهُ دِمَانَةٌ أَهْلُ الْحِجَازِ وَظَرْفُ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَهِيَهَاتَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ: لَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْ صَبُورَةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ جَافِي الْخُلُقَةِ نَاقِصاً أَوْ مَنْقُوصَ الْهِمَّةِ أَوْ عَلَى خِلَافِ تَرْكِيبِ الْإِعْتِدَالِ. قَالُوا: وَلَا يَكْمُلُ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا مِنْ عَشَقِهِ لِأَهْلِ الْكَمَالِ وَتَشَبَّهَ بِهِمْ. فَالْعَالَمُ يَبْلُغُ فِي الْعِلْمِ بِحَسَبِ عَشَقِهِ لَهُ، وَكَذَلِكَ صَاحِبُ كُلِّ صِنَاعَةٍ وَحِرْفَةٍ. وَيَكْفِي أَنْ الْعَاشِقُ يَرْتَاحَ لِكَرِيمِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَفْعَالِ وَالشَّيْمِ لِيُحَمِّدَ شِمَائِلَهُ عِنْدَ مَعْشُوقِهِ كَمَا قَالَ:

وَيَرْتَاحُ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعُلَى لِيُحَمِّدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى شِمَائِلَهُ^(٢)

وَقَالَ أَبُو الْمِنْجَابِ: رَأَيْتُ فِي الطَّوَافِ فَتًى نَحِيفَ الْجِسْمِ بَيْنَ الضَّعْفِ يَلُودُ وَيَتَعَوِّذُ وَيَقُولُ:

وَدِدْتُ بَأَنَ الْحَبِّ يُجْمَعُ كُلُّهُ فَيُقَذَّفُ فِي قَلْبِي وَيَنْغَلِقَ الصَّدْرُ
فَلَا يَنْقُضِي مَا فِي فُؤَادِي مِنَ الْهَوَى وَمِنْ فَرْحِي بِالْحَبِّ أَوْ يَنْقُضِي الْعَمْرُ

فَقُلْتُ: يَا فَتَى، أَمَا لِهَذِهِ الْبَنِيَّةِ^(٣) حُرْمَةٌ تَمْنَعُكَ عَنْ هَذَا الْكَلَامِ؟ فَقَالَ: بَلَى وَاللَّهِ وَلَكِنْ الْحَبُّ مَلَأَ قَلْبِي بِفَرْحِ التَّذَكُّرِ، فَفَاضَتْ الْفِكْرَةُ فِي سُرْعَةِ الْأَوْبَةِ^(٤) إِلَى مَنْ لَا يَشُدُّ عَنْهُ مَعْرِفَةُ مَا بِي، فَتَمَنِّيْتُ الْمُنَى. وَاللَّهُ مَا يَسُرُّنِي مَا بَقَلْبِي مِنْهُ مَا فِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَلِكِ، وَإِنِّي أَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُثَبِّتَهُ فِي قَلْبِي عَمْرِي، وَيَجْعَلَهُ ضَجِيعِي فِي قَبْرِي، دَرَيْتُ بِهِ أَوْ لَمْ أَذَر. هَذَا دَعَائِي أَوْ أَنْصَرَفَ مِنْ حَاجَّتِي، ثُمَّ بَكَى، فَقُلْتُ: مَا يَبْكِيكَ؟ قَالَ: خَوْفُ أَنْ لَا يَسْتَجَابَ دَعَائِي، وَلَهُ قَصْدٌ وَفِيهِ رَغْبَةٌ مِمَّا يُعْطِي اللَّهُ سَائِرَ خَلْقِهِ. ثُمَّ مَضَى. قَالَتْ هَذِهِ الْفَرْقَةُ: وَغَايَةُ مَا يَقْدَرُ فِي أَمْرِ الْعَشَقِ أَنَّهُ يَقْتُلُ صَاحِبَهُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُشَّاقِ. وَقَدْ قَالَ سُؤَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ الْحَدَّثَانِي: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، عَنْ أَبِي يَحْيَى الْقَتَّاتِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَشِقَ فَكُتِمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٥) رَوَاهُ عَنْ سُؤَيْدٍ جَمَاعَةٌ. وَقَالَ الْخَطِيبُ: حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَيُّوبَ أَمْلَاءُ مِنْهُمْ حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَرْزُبَانِيُّ وَابْنُ حَيَّوَيْهِ وَابْنُ شَاذَانَ قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَرَفَةَ نَفْطَوَيْهِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الْأَصْبَهَانِيِّ

(١) الجلف: الغليظ الجافي والأحمق.

(٢) الشمائل جمع شمال: الأخلاق والطباع.

(٤) الأوبة: الرجعة.

(٣) البنية: الكعبة المشرفة.

(٥) تقدم تخريجه.

في مرضه الذي مات فيه فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: حبٌّ من تعلم أورثني ما ترى. فقلت: ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال: الاستمتاع على وجهين: أحدهما النظر المباح، والثاني اللذة المحظورة. فأما النظر المباح فأورثني ما ترى، وأما اللذة المحظورة فإنه منعني منها ما حدّثني أبي، حدّثنا سويد بن سعيد، حدّثنا علي بن مُسهر، عن أبي يحيى القَتّات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ». قال الحاكم أبو عبد الله: إنما أتعجب من هذا الحديث، فإنه لم يحدث به غير سويد، وهو وداود بن علي وابنه أبو بكر ثقات. ثم رواه الخطيب: حدّثنا الأزهري، حدّثنا المعافى بن زكريا، حدّثنا قُطبة بن الفضل بن إبراهيم الأنصاري، حدّثنا أحمد بن محمد بن مسروق، حدّثنا سويد، حدّثنا ابن مُسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً. ورواه الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْمَاجِشُونِ، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ به. ولفظه: «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ» رواه أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب. حدّثنا أبو يوسف يعقوب بن عيسى من ولد عبد الرحمن بن عوف، عن الزبير فذكره، فخرج سويد عن عُهْدَةِ التَّفَرُّدِ بِهِ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ تَفَرَّدَ بِهِ فَهُوَ ثَقَّةٌ، احتجّ به مسلم في صحيحه. وقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبي: اكتب عنه حديث ضِمَامٍ. وقال البغوي: كان حافظاً وكان أحمد ينتقي لولديه عليه صالح وعبد الله، فكانا يختلفان إليه. وقال مسلم: ثقة ثقة. وقال أبو حاتم الرازي ويعقوب بن شيبه: هو صدوق. وأكثر ما عيب به التّدليس^(١) وقد صرح هاهنا بالتحديث، وعيب بأنه ذهب بصره في آخر عمره، فربما أدخل عليه هذا الحديث في كتبه، ولكن رواية الأكابر عنه هذا الحديث كان قبل ذهاب بصره، لأنه إنما عمي في آخر عمره، وليس هذا بقادح في حديثه.

قلت: وهذا حديث باطلٌ على رسول الله ﷺ قطعاً لا يُشبهُ كلامه، وقد صحَّ عنه أنه عدّ الشهداء ستة^(٢) فلم يذكر فيهم قتيل العشق شهيداً ولا يمكن أن يكون كلُّ قتيلٍ بالعشق شهيداً فإنه قد يعشق عشقاً يستحقّ عليه العقوبة. وقد أنكر حُفَاطُ الْإِسْلَامِ هذا الحديث

(١) التّدليس في البيع: كتمان عيب السلعة عن المشتري. وجاء في القاموس المحيط أن التّدليس في الإنسان هو أن يحدث عن الشيخ الأكبر ولعله ما رآه وإنما سمعه ممن هو دونه أو ممن سمعه منه ونحو ذلك.

(٢) في الأصل: «سِتّاً».

على سُويد وقد تكلم الناس فيه، فقال ابن المديني: ليس بشيء والضرير إذا كان عنده كتب فهو عيب شديد. وقال يعقوب بن شيبه: صدوق مضطرب الحفظ ولا سيما بعدما عمي. وقال البخاري: كان قد عمي فيلقن ما ليس من حديثه. وقال أبو أحمد الجرجاني: هذا الحديث أحد ما أنكر على سُويد، وأنكره البيهقي وأبو الفضل بن طاهر وأبو الفرج بن الجوزي وأدخله في كتابه الموضوعات.

ولما رواه أبو بكر الأزرق عن سُويد عاتبه عليه ابن المَرْزُبَان فأسقط ذكر النبي ﷺ منه. وكان سُويد إذا سئل عنه لا يرفعه، وهذا أحسن أحواله أن يكون موقوفاً. ولذلك رواه أبو محمد الحسين القاري من حديث أبي سعد البقال، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله. وأما سياق الخطيب له من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها فلا يسلُّك من شَمِّ رائحة الحديث أن هذا باطل على هشام عن أبيه عن عائشة، ولا يحتمل هذا المتن هذا الإسناد بوجه، والتحاكم في ذلك إلى أهل الحديث لا إلى العارين الغرباء منه. والظاهر أن ابن مسروق سرقه وغير إسناده. وأما حديث الزبير بن بكار فمن رواية يعقوب بن عيسى وهو ضعيف لا تقوم به حجة قد ضعفه أهل الحديث ونسبوه إلى الكذب.

فيمن ذم العشق وتبرم به وما احتج به كل فريق على صحة مذهبه

قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذي سألوه فيه أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، وقد فُسِّر ذلك بالعشق، وليس المراد اختصاصه به بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به. وقال مكحول: هو شدة الغلظة^(١). وقال النبي ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»^(٢). قال الإمام أحمد: تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق، وهذا مطابق لحال العاشق، فإنه أذلُّ الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاه، والحبُّ مبناه على الذل والخضوع للمحبيب كما قيل:

إِخْضَعْ وَذَلِّ لِمَنْ تَحِبُّ فَلَيْسَ فِي شَرِّ الْهَوَى أَنْفٌ يُشَالُ وَيُعْقَدُ^(٣)
وقال آخر:

مَسَاكِينُ أَهْلِ الْعَشْقِ حَتَّى قُبُورِهِمْ عَلَيْهَا تَرَابُ الذَّلِّ بَيْنَ الْمَقَابِرِ
وقال آخر:

قَالُوا عَهْدُنَاكَ ذَا عِزٍّ فَقُلْتَ لَهُمْ لَا يُعْجِبُ النَّاسُ مَنْ ذَلَّ الْمُحِبِّينَا
لَا تَنْكُرُوا ذِلَّةَ الْعُشَّاقِ إِنَّهُمْ مُسْتَعْبِدُونَ بِرِقِّ الْحُبِّ رَاضُونَ

قالوا: وإذا اقتحم العبد بحرَ العشق ولعبت به أمواجه فهو إلى الهلاك أدنى منه إلى السلامة، كما ذكر الخرائطي أنه كان بالمدينة جاريةً ظريفةً فهَوِيَتْ رجلاً من قریش، وكان لا يفارقها ولا تفارقه فملأها، وزاد حبُّها له فسَقِمَتْ، وجعل مولاهما لا يَغْبَأُ بشكواها ولا يَرِقُّ لها، حتى هامت على وجهها ومزقت ثيابها وأَفْضَتْ^(٤) إلى أمرٍ عظيم. فلما رأى ما

(١) الغلظة: غلبة الشهوة وشدتها. (٢) أخرجه أحمد في المسند (٤٠٥/٥).

(٣) شال: ارتفع. وشال ميزان فلان: غلب في المفاخرة ونحوها.

(٤) أفضى به إلى كذا: بلغ واتهى به إليه.

صارت إليه عالجها فلم ينفع فيها العلاج، وكانت تدور في السَّكَكِ بالليل وتقول:

أَلْحَبُّ أَوَّلَ مَا يَكُونُ لِحَاجَةٍ^(١) تَأْتِي بِهِ وَتَسْوِقُهُ الْأَقْدَارُ
حَتَّى إِذَا اقْتَحَمَ الْفَتَى لُجْجَ^(٢) الْهَوَى جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ
مَنْ ذَا يُطِيقُ كَمَا نَطِيقُ مِنَ الْهَوَى غَلَبَ الْعَزَاءُ وَبَاحَتْ الْأَسْرَارُ

قال الخرائطي: وأنشدني بعض أصحابنا:

الْحَبُّ أَوَّلُهُ شَيْءٌ يَهِيمُ بِهِ قَلْبُ الْمَحَبِّ فَيَلْقَى الْمَوْتَ كَاللَّعِبِ
يَكُونُ مَبْدُؤُهُ مِنْ نَظَرَةٍ عَرَضَتْ وَمَزْحَجَةٌ أَشْعَلَتْ فِي الْقَلْبِ كَاللَّهَبِ
كَالنَّارِ مَبْدُؤُهَا مِنْ قَذْحَةٍ^(٣) فَإِذَا تَضَرَّمَتْ أَحْرَقَتْ مُسْتَجَمَعَ الْحَطَبِ

قالوا: وكيف يُمدَح أمرٌ يمنع القرار، ويسلب المنام، ويؤلِّه العقل، ويُخذل الجنون، بل هو نفسه جنون، كما قال بعض الحكماء: الجنون فنون، والعشق فنٌّ من فنونه، كما قال بعض العشاق:

قَالُوا جُنِنْتُ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمُ الْعَشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ
الْعَشْقُ لَا يَسْتَفِيْقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ وَإِنَّمَا يُضْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحَيْنِ

قالوا: وكم من عاشق أتلَفَ في معشوقه ماله وعِرْضَه ونفسه، وضَيَّعَ أهله ومصالح دينه ودنياه. قال الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَارٍ: جَاءَتْ بِدَوِيَّةٍ إِلَى أُخْتٍ لَهَا فَقَالَتْ: كَيْفَ بَكَ مِنْ حَبِّ فُلَانٍ؟ قَالَتْ: حَرَّكَ وَاللَّهِ حُبُّهُ السَّاكِنَ، وَسَكَّنَ الْمُتَحَرِّكَ، ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ:

فَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْخَصْصَى فَلَقَ الْخَصْصَى وَبِالرَّيْحِ لَمْ يُسْمَعْ لَهُنَّ هُبُوبُ
وَلَوْ أَنَّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كَلَّمَا ذَكَرْتُكَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّ ذُنُوبُ

فقلت: والله لأسأَلَنَّهُ كَيْفَ هُوَ مِنْ حَبِّكَ، فَجَاءَتْهُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: إِنَّمَا الْهَوَى هَوَانٌ وَلَكِنَّهُ خُولِفَ بِاسْمِهِ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ اسْتَبَكَّنَتْهُ الْمَعَالِمُ وَالطُّلُوسُ.

وأنشد أبو الفضل الربيعي:

قَدْ أَمْطَرْتَ عَيْنِي دَمًا فَدَمَاؤُهَا بَعْدَ الدُّمُوعِ مِنَ الْجَفُونِ هَوَائِلُ
كَيْفَ الْعَزَاءُ وَلَا يَزَالُ مِنَ الضَّنَى فِي الْجِسْمِ مَنِي وَالْجَوَانِحِ نَازِلُ
لَهْفِي عَلَى زَمَنِ مَضَى تَجْتَازَنِي فِيهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ وَهِيَ عَوَاقِلُ

(١) اللجاجة: التماادي في العناد.

(٢) اللجج جمع لجة: معظم الماء ويقال: لجة الماء ولجة الظلام.

(٣) القذحة بالكسر: اسم لاقتراح النار. وضرَم النار وأضرَمها: أشعلها وأوقدها وألهبها.

قالوا: والعشق هو الداء الدوي^(١) الذي تذوب معه الأرواح، ولا يقع معه الارتياح، بل هو بحرٌ مَنْ ركبهُ غَرِقَ، فإنه لا ساحل له ولا نجاة منه، وهو الذي قال فيه القائل:

وما أَحَدٌ في الناس يُخَمِّدُ أَمْرَهُ
وما أَحَدٌ ما ذاق بُؤْسَ معيشَةٍ
وقال العباس بن الأحنف:

ويَحَ المحبين ما أَشقى نفوسَهُم
يَشْقَوْنَ في هذه الدنيا بعشقِهِم
وقال آخر:

أَلْعَشْقُ مَشْغَلَةٌ عن كلِّ صالحةٍ
وقال محمد بن أبي محمد اليزيدي:

كيف يطيق الناس وصف الهوى
بل كيف يصفو لِحَليف الهوى
وقال محمد بن أمية:

قَريْنُ الحب يَأْنَسُ بالهموم
وأعظمُ ما يكون به اغتباطاً
وقال أبو تمام:

أما الهوى فهو العذابُ فإن جرت
وقال ابن أبي حُصَيْنَةَ:

والعشقُ يجتذب النفوس إلى الردى
وقال ابن المعتز:

الحب داءٌ عُضالٌ لا دواءَ لَهُ
قد كنت أَحسب أَنَّ العاشقين غَلَوْا

(١) الدوي: الشديد المهلك.

(٢) الوسن: النعاس.

(٣) عضال: شديد أعيا الأطباء. والنحارير جمع نحير: العالم المتقن.

وقال أعرابي:

ألا ما الهوى والحبُّ بالشيء هكذا
ولكنَّه شيءٌ قضى الله أنه
فأؤله سقمٌ وآخره ضنًى
ورَوْغٌ وتسهيّدٌ وهمٌ وحسرةٌ

وقال عبد المحسن الصوري:

ما الحبُّ إلا مسلكٌ خطِرُ

وقال آخر:

وكان ابتداءُ الذي بي مُجُونَا
وكنْتُ أَظُنُّ الهوى هَيْئَا
وقالت امرأة:

رَأَيْتُ الهوى حُلُوا إِذَا اجْتَمَعَ الشَّمْلُ
فَمَنْ لَمْ يَذُقْ لِلهَجَرِ طَعْمَا فَإِنَّهُ
وَقَدْ ذُقْتُ طَعْمَيْهِ عَلَى الْقَرَبِ وَالنَّوَى

قالوا: والعشق يترك الملكَ مملوكاً، والسُّلطانَ عبداً، كما قال الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وكان ملكَ الأندلس:

ظَلُّ مَنْ فَرَطَ حُبُّهُ مَمْلُوكَا
تَرْكَتْهُ جَاذِرٌ^(٣) الْقَصْرِ صَبَّأَا
يَجْعَلُ الْخَدَّ وَاضِعَا فَوْقَ تُرْبِ
هَكَذَا يَحْسُنُ التَّذَلُّلُ بِالْحُرِّ

وقال الرشيد، وقد عشقَ ثلاثَ جوارٍ من جواريه - ويقال: إنه المأمون -:

مَلَكَ الثَّلَاثُ الْآنِسَاتُ عِنَانِي
مَا لِي تَطَاوَعَنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الهَوَى

يَذَلُّ بِهِ طَوْعَ اللِّسَانِ فَيُوصَفُ
هُوَ الْمَوْتُ أَوْ شَيْءٌ مِنَ الْمَوْتِ أَغْنَفُ
وَأَوْسَطُهُ شَوْقٌ يَشْفُ^(١) وَيَتَلَفُ
وَوَجْدٌ عَلَى وَجْدٍ يَزِيدُ وَيُضْعِفُ

عَسِرُ النِّجَاةِ وَمَوْطِيءُ زَلَقُ

فَلَمَّا تَمَكَّنَ أَمْسَى جُنُونَا
فَلَا قِيَتْ مِنْهُ عَذَاباً مُهِينَا

وَمُرّاً عَلَى الْهَجْرَانِ لَا بَلْ هُوَ الْقَتْلُ
إِذَا ذَاقَ طَعْمَ الْحَبِّ لَمْ يَذُرْ مَا الْوَضْلُ
فَأَبْعَدُهُ قَتْلٌ وَأَقْرَبُهُ خَبْلُ^(٢)

ولقد كان قبل ذاك مليكاً

مستهاماً على الصعيد تريكاً
للذي يجعل الحريراً أريكاً
ر إذا كان في الهوى مملوكاً

وَحَلَلَنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
وَأُطِيعُهُنَّ وَهَنَ فِي عَصِيَانِي
وَبِهِ قَوِيْنٌ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

(١) يشف: يسقم ويضني.

(٢) الخبل: فساد العقل.

(٣) جمع جؤذر: البقرة الوحشية.

وقال بعض الملوك ^(١) في جارية له عشقها وكانت كثيرة التَّجِّي عليه :

أما يكفيك أنك تملكيني
وأنك لو جهدت على تلافِي
وقال ابن طاهر ملك خراسان :

فإنني وإن حثت إليك ضمائري
فما قدزُ حُبِّي أن يذلَّ له قدري
وقال ابن الأحمر ملك الأندلس :

أيا ربَّة الخذر التي أذهبت نُسْكَي ^(٢)
فإما بذلُّ وهو أليقُّ بالهوى
على كل حالٍ أنت لا بُدَّ لي منك
وإما بعزُّ وهو أليقُّ بالملك

قالوا : وكم ممن هرب من الحبِّ إلى مظانِّ التلِّف ليتخلص من التلِّف بالتلف . قال
دعبل الشاعر : كنت بالشعر فنودي بالنفير ، فخرجت مع الناس فإذا بفتى يجرُّ رمحه بين
يديَّ فالتفت فنظر إليَّ فقال : أنت دِعْبِل ؟ قلت : نعم ، قال : اسمع مني ، ثم أنشدني
فقال :

أنا في أمرِّي رشادٍ
بدنِّي يغزو عدوي
بين غزو وجهادٍ
والهوى يغزو فؤادي

ثم قال : كيف ترى ؟ قلت : جيد والله ، قال : فوالله ما خرجت إلا هارباً من الحبِّ ،
ثم قاتل حتى قتل . وقال أصرم بن حميد :

نحن قومٌ تليئنا الحدقُ التُّججُ
طوع أيدي الطباءِ تقتادنا العِيْدُ
تتقي سخطننا الليوثُ ونخشى
وترانا عند الكريهة أحرأُ
لُ على أننا نليين الحديدأ
نُ ونقتادُ بالطعان الأسودأ
صَوْلَة الخِشْف حين يبدي الصدودأ ^(٣)
رأ وفي السلم للغواني عبيدأ

قالوا : ورأينا الداخل فيه يتمنى منه الخلاص ، ولات حين مناص ، قال الخرائطي :
أنشدني أبو جعفر العبدِي :

إن الله نجاني من الحبِّ لم أعد
ومن لي بمنجاة من الحبِّ بعدما
إليه ولم أقبل مقالة عاذلي
رمتني دواعي الحبِّ بين الجبائل

(١) هو هارون الرشيد كما سيأتي في الباب الثامن والعشرين .

(٢) النسك : العبادة .

(٣) الصولة : السطوة والقدرة والقهر . الخشف : ولد الظبية أول ما يولد يستوي فيه الذكر والأنثى .

وقال أبو عبيدة: الحبال الموت، قال: وأنشدني أبو عبيد الله بن الدولابي:

دعوتُ ربي دعاءً فاستجاب له كما دعا ربّه نوحٌ وأيوبُ
أن يَنْزِعَ الداءَ من صدري ويجعلهُ في صدر سَلْمَى وحملُ الداءِ تعطيُّ
أو يَشْفِ^(١) قلبي سريعاً من صبابته فلا أَحِنُّ إذا حَنَّ المَطَارِيُّبُ

قالوا: وكم أكبّت فتنة العشق رؤوساً على مناخرها في الجحيم، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم، وجرّعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم، وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين، كخروج الشعرة من العجين، وكم أزال من نعمة، وأحلت من نِقمة، وكم أنزلت من مَعْقِلِ عِزّه عزيزاً فإذا هو من الأذليّن، ووضعت من شريف رفيع القدر والمنصب فإذا هو في أسفل السافلين، وكم كشفت من عورة، وأحدثت من رَوْعة، وأعقبت من ألم، وأحلت من نَدَم، وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد، وأذهبت قدراً كان للعبد عند الله وفي قلوب العباد، وكم جلبت من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، فقلّ أن يفارقها زوال نعمة، أو فجاءة نقمة، أو تحويل عافية، أو طروق بليّة، أو حدوث رَزِيّة، فلو سألت النّعم ما الذي أزالك؟ والنّقم ما الذي أدالك^(٢)؟ والهموم والأحزان ما الذي جلبك؟ والعافية ما الذي أبعدك وجنبك؟ والسّر ما الذي كشفك؟ والوجه ما الذي أذهب نورك وكسّفك؟ والحياة ما الذي كدرك؟ وشمس الإيمان ما الذي كورك^(٣)؟ وعزّة النفس ما الذي أذلّك وبالهوان بعد الإكرام بذلك؟ لأجابتك بلسان الحال اعتباراً، إن لم تُجب بالمقال حواراً:

هذه والله بعضُ جُنَاياتِ العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢] ويكفي اللبيب موعظة واستبصاراً، ما قصّه الله سبحانه وتعالى عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المذموم تحذيراً واعتباراً، فبدأ سبحانه وتعالى بهوى إبليس الحامل له على التكبر عن طاعة الله عزّ وجلّ في أمره بالسجود لآدم، فحمله هوى النفس وإعجابه بها على أن عصى أمره، وتكبر على طاعته، فكان من أمره ما كان، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في الخلود في الجنة وحمله هواه على أن أكل من الشجرة التي نُهي عنها، وكان الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود، فكان عاقبة ذلك الهوى والشهوة إخراجَه منها إلى دار التعب والنّصب. وقيل: إنه إنما أكل منها طاعةً لحواء، فحمله حبُّه لها أن أطاعها

(١) كذا. . ولا وجه لحذف الياء إلا للضرورة.

(٢) أدالك: جعل لك القلب.

(٣) الشمس كورت: أفلت واضمحلت. قال تعالى في سورة التكوين: ﴿إذا الشمس كورت﴾.

ودخل في هواها، وإنما توصَّل إليه عدوُّه من طريقها ودخل عليه من بابها. فأول فتنة كانت في هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر سبحانه فتنة الكفار الذين أشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً، وابتدعوا في دينه ما لم يشرَّعه، وحرَّموا زينتَه التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتعبدوا له بالفواحش وزعموا أنه أمرهم بها، واتَّخذوا الشياطين أولياء من دونه، والحاملُ لهم على ذلك كلُّه الهوى والحبُّ الفاسد، وعليه حاربوا رسله، وكذبوا كتبه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم وأهلهم دونه حتى خسروا الدنيا والآخرة. ثم ذكر سبحانه وتعالى قصَّة قوم نوح وما أصرَّهم إليه الهوى من الغرق في الدنيا ودخول النار في الآخرة. ثم ذكر قصَّة عاد وما أفضى إليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة. ثم ذكر قصَّة قوم صالح كذلك، ثم قصَّة العُشَّاق، أئمة الفسَّاق، وناكحي الذكران وتاركي السَّوان، وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون^(١) وقطع دابرهم وهم في سكر عشقهم يغمهون، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم أجمعين، وجعلهم سلفاً لإخوانهم اللوطية من المتقدِّمين والمتأخِّرين، ولما تجرَّأوا على هذه المعصية ومردوا^(٢)، ونهجوا لإخوانهم طريقاً وقاموا بأمرها وقعدوا، ضجَّت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجاً، وعجَّت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجاً، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات، وشكتهن إلى الله جميعُ المخلوقات، وهو سبحانه وتعالى قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدُّم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم يحذرهم من سوء صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأذن رسول الله ﷺ بالدعوة على رؤوس الملا منهم والأشهاد، وصاح بها بين أظهرهم في كل حاضرٍ وباد. وقال فكان في قوله لهم من أعظم الناصحين: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨] ثم أعاد لهم القول نصحاً وتحذيراً، وهم في سكرة عشقهم لا يعقلون: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١] فأجاب العُشَّاق جواباً من أركس في هواه وغيه فقلبه بعشقه مفتون. و﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فلما أن حان الوقت

(١) خاضوا في الحديث: تفاوضوا فيه، ومن المجاز فلان يخوض في الكلام إذا تكلم فيه على غير هدى. وفي سورة الأنعام ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي في باطلهم يتشاغلون.

(٢) مرد على الشيء يمرد: مرن عليه وتدرّب ومهر فيه، وأكثر ما يستعمل في الشر. ومرد الإنسان والشيطان فهو مارد: عتا وازداد في الشر وتجراً في الآثام. وفي سورة التوبة ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾.

المعلوم وجاء ميقات نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرَّحْمَنُ تبارك وتعالى لتمام الإنعام والامتحان إلى بيت لوط ملائكة في صورة البشر، وأجمل ما يكون من الصُّور، وجاءوه في صورة الأضياف النزول بذي الصدر الرحيب، ﴿سَيِّءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] وجاء الصريح إلى اللوطية أن لوطاً قد نزل به شباب لم ينظر إلى مثل حُسنهم وجمالهم الناظرون، ولا رأى مثلهم الراؤون، فنادى اللوطية بعضهم بعضاً أن هلمُّوا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات، ونيل أكبر اللذات ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨]. فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كظيم من الهمِّ والغمِّ وقلبه بالحزن عميد: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]. فلما سمع اللوطية مقاله أجابوه جواب الفاجر المجاهر العنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]. فقال لهم لوط مقالة المضطهد الوحيد: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨]. فلما رأت رسلُ الله ما يقاسي نبيُّه من اللوطية كشفوا له عن حقيقة الحال وقالوا: هوّن عليك، ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]. فسّر نبيُّ الله سرور المحبِّ وافاه الفرج بغتة على يد الحبيب، وقيل له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. ولما أبوا إلا مُراودته عن أضيافه ولم يرعوا حقَّ الجار ضرب جبريل بجناحه على وجوههم فطمس منهم الأعين وأعمى الأبصار، فخرجوا من عنده عُثمَانًا يتحسسون ويقولون: ستعلم غداً ما يحلُّ بك أيها المجنون. فلما انشقَّ عمودُ الصبح جاء النداء من عند ربِّ الأرباب، أن اخسف بالامة اللوطية وأدفعهم أليم العذاب، فافتلع القوي الأمين جبريل مداتهم على ريشة من جناحه ورفعها في الجوّ حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم وصياح ديكيتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وأتبعوا الحجارة من سجّيل وهو الطين المستحجر الشديد، وخوف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِنْ سِجِّيلٍ مُنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣] فهذه عاقبة اللوطية عُشاقِ الصُّور وهم السلف وإخوانهم بعدهم على الأثر.

فما قوم لوط منهم ببعيد
على موردٍ من مهلةٍ ورصيدٍ
ألم يتقدّم ربُّكم بوعيدٍ

وإن لم يكونوا قوم لوط بعينهم
وإنهم في الخسف ينتظرونهم
يقولون لا أهلاً ولا مرحباً بكم

فقالوا بلَى لَكُنْكُمْ قَدْ سَنَنْتُمْ
أَتَيْنَا بِهِ الذُّكْرَانَ مِنْ عَشَقْنَا لَهُمْ
فَأَنْتُمْ بِتَضْعِيفِ الْعَذَابِ أَحَقُّ مِنْ
فَقَالُوا وَأَنْتُمْ رُسُلُكُمْ أَنْذَرْتَكُمْ
فَمَا لَكُمْ فَضْلٌ عَلَيْنَا فَكَلْنَا
كَمَا كَلْنَا قَدْ ذَاقَ لَذَّةَ وَصْلِهِمْ
وكذلك قومٌ شعيبٍ إنما حملهم على بَخْسِ الْمِكْيَالِ والمِيزَانِ فرطَ محبتهم للمال،
وَعَلِبَهُمُ الْهَوَى عَلَى طَاعَةِ نَبِيِّهِمْ حَتَّى أَصَابَهُمُ الْعَذَابُ.

وكذلك قوم فرعون حملهم الهوى والشهوة وعشق الرئاسة على تكذيب موسى حتى
آل بهم الأمر إلى ما آل. وكذلك أهل السَّبْتِ الذين مُسَخَّوْا قَرَدَةً إِنَّمَا أَتَوْا مِنْ جِهَةِ مَحَبَّةِ
الْحَيَاتَانِ وَشَهْوَةِ أَكْلِهَا وَالْحَرَصِ عَلَيْهَا. وكذلك الذي آتَاهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى آيَاتِهِ
﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٤] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ
شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ
يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. وتأمل قوله تعالى: ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ ولم يقل
فسلخناه بل أضاف الانسلاخ إليه وعبر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة على تخليه
عنها بالكلية، وهذا شأن الكافر. وأما المؤمن ولو عصى الله تبارك وتعالى ما عصاه فإنه لا
ينسلخ من الإيمان بالكلية، ثم قال: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل فتابعه. فإن في أتبعه
إِعْلَامًا بِأَنَّهُ أَدْرَكَهُ وَلَحِقَهُ، كما قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي
لحقوهم ووصلوا إليهم ثم قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ ففي ذلك دليل على أن مجرد
العلم لا يرفع صاحبه، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها، فالرفعة
بالعلم قدرٌ زائدٌ على مجرد تعلمه، ثم أخبر الله عز وجل عن السبب الذي منعه أن يُرْفَعَ
بها، فقال: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾. وقوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي
سكن إليها ونزل بطبعه إليها، فكانت نفسه أرضيةً سفلية لا سماويةً علويةً، وبحسب ما
يُخْلَدُ الْعَبْدُ إِلَى الْأَرْضِ يَهْبِطُ مِنَ السَّمَاءِ، قال سهل: قسم الله الأعضاء من الهوى، لكل
عضوٍ منه حظًا. فإذا مال عضوٌ منها إلى الهوى رجع ضرره إلى القلب. وللنفس سبعُ
حُجُبٍ سماويةً وسبعٌ^(١) حجب أرضيةً، فكلما دفن العبدُ نفسه أرضاً أرضاً سما قلبه سماء
سما، فإذا دفن النفس تحت الثرى، وصل القلبُ إلى العرش. ثم ذكر سبحانه مَثَلَ

(١) كذا.. بتذكير العدد والأشهر تأنيته.

المتَّبع لهواه كمثل الكلب الذي لا يفارقه اللَّهْث الذي لا يفارقه اللَّهْث على الدُّنيا راغباً وراهباً.

والمقصودُ أن هذه السورة من أولها إلى آخرها في ذكر حال أهل الهوى والشهوات وما آل إليه أمرهم، فالعشقُ والهوى أصلُ كل بلية. قال عَدِيُّ بن ثابت: كان في زمن بني إسرائيل راهبٌ يعبد الله حتى كان يؤتى بالمجانين يُعوّذهم^(١) فيبرأون على يديه، وإنه أتى بامرأة ذات شرفٍ من قومها قد جُنَّت، وكان لها إخوةٌ فأتوه بها فلم يزل الشيطانُ يزين له حتى وقع عليها فحملت، فلما استبان حملُها لم يزل يخوفه ويزين له قتلها حتى قتلها ودفنها، فذهب الشيطانُ في صورة رجل حتى أتى بعض إخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب، ثم أتى بقية إخوتها رجلاً رجلاً، فجعل الرجلُ يلقي أخاه فيقول: والله لقد أتاني آتٍ فذكر لي شيئاً كبيراً عليّ ذكره فذكر ذلك بعضهم لبعض حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم، فسار الناس إليه حتى استنزلوه من صومعته فأقر لهم بالذي فعل، فأمر به فصلب، فلما رُفِع على الخشبة تمثل له الشيطان فقال: أنا الذي زينْتُ لك هذا وألقيتُك فيه، فهل أنت مُطيعي فيما أقول لك وأخلصك؟ قال: نعم، قال: تسجد لي سجدةً واحدةً، فسجد له وقُتِل الرجل، فهو قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلَ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وقال واصل مولى أبي عُبَيْنَةَ: دخلت على محمد بن سِيرِينَ فقال لي: هل تزوجت؟ فقلت: لا، قال: وما يمنعك؟ قلت: قلة الشيء، قال: تزوج عبد الله بن محمد بن سِيرِينَ ولا شيء له فرزقه الله.

ثم حدَّث أن امرأةً من بني إسرائيل يقال لها مَيْسُونَةُ خاضعت إلى حَبْرَيْنِ من بني إسرائيل فعلقاها قال: وكان كل واحدٍ منهما يكتُمُ صاحبه ما يجد منها، فأخبرا أنها في حائط^(٢) تغتسل، قال: فجاءا فتسوّرا عليها الحائط. فلما رأتهما دخلت غَمراً^(٣) من الماء فوارت نفسها، فقالا لها: إنك إن لم تفعلي غدونا فشهدنا عليك بالزُّور، فأبت فشهدا عليها. فلما قرّبت ليقام عليها الحدُّ نزل الوحي على دانيال بتكذيبهما، فهذا بعض فتنة العشق.

(١) يعوذهم: يرقمهم، وعوذه تعويذاً وأعاذه إعادة: دعا له بالحفظ ورقاه. والعوذة: الرقية يرقى بها الإنسان من فرع أو جنون لأنه يعاذ بها، وهي التي تكتب وتعلق على الإنسان من العين والفرع والجنون.

(٢) الحائط: البستان.

(٣) الغمر: الماء الكثير.

وقد روى شعبة عن عبد الملك بن عُمَيْر قال: سمعت مُصْعَبَ بْنَ سَعْدٍ يقول: كان سعدٌ يعلمنا هذا الدُّعاء ويذكره عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّسَاءِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(١).

وقال الحسن بن عَرَفَةَ: حدَّثنا أبو معاوية الضَّرِير عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنه لم يكن كفرٌ مِّن مَّضى إلا من قِبَلِ النساء وهو كفر من بقي أيضاً.

وقد روى سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن سليمان التَّيْمِي، عن أَبِي عثمان النَّهْدِي، عن أُسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَرَكْتُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(٢).

وروى أبو إسحاق، عن هبيرة بن يَرِيم، عن علي بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه ورضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْخَمْرُ وَالنِّسَاءُ»^(٣). وقال علي بن حرب: حدَّثنا سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيَّب قال: «ما أيس الشيطان من أَحَدٍ قَطُّ إِلَّا أَنَا مِنْ قِبَلِ النساء».

وروى سفيان بن حسين، عن يَعْلَى بن مسلم، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قِيلَ لآدم ما حملك على أكل الشجرة؟ قال: يا رب زَيْتَ لي حَوَاء، قال: فَإِنِّي قد عاقبتها لا تحمل إِلَّا كرهاً، ولا تضع إِلَّا كرهاً، وأدميتها في الشهر مرَّتَيْن».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما - أو غيره -: «أَوَّلُ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنْ قِبَلِ النساء».

قالوا: ويكفي من مضرَّة العشق ما اشتهر من مصارع العشاق، وذلك موجودٌ في كل زمان.

فهذا بعض ما احتجَّت به هذه الفرقة لقولها. ونحن نعقد للحكم بين الطائفتين باباً مستقلاً بعون الله تعالى.

(١) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب، كما قال السيوطي.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

في الحكم بين الفريقين، وفصل النزاع بين الطائفتين

فنقول: العشق لا يُحَمَّد مطلقاً ولا يُذَمَّ مطلقاً، وإنما يُحَمَّد ويُذَمَّ باعتبار متعلّقه، فإن الإرادة تابعة لمرادها، والحبّ تابعٌ للمحبوب، فمتى كان المحبوب مما يُحِبُّ لذاته أو وسيلةً توصله إلى ما يُحِبُّ لذاته، لم تُذَمَّ المبالغة في محبته بل تحمد. وصلاحيّ حال المحبّ كذلك بحسب قوّة محبته.

ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوى حبه كلّها لله تعالى وحده بحيث يحبّ الله بكلّ قلبه وروحه وجوارحه، فيُوَحِّد محبوبه ويوحّد حبه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب توحيد المحبوب أن المحبة لا تصحّ إلا بذلك، فتوحيد المحبوب أن لا يتعدّد محبوبه^(١)، وتوحيد الحب أن لا يبقى في قلبه بقية حبّ حتى يبذلها له، فهذا الحبّ وإن سمي عشقاً فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرّة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواه، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله، فلا يحبّ إلا الله، كما في الحديث الصحيح: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سَوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»^(٢) فأخبر أن العبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بأن يكون الله أحبّ إليه مما سواه، ومحبّة رسوله هي من محبته، ومحبّة المرء إن كانت لله فهي من محبة الله، وإن كانت لغير الله فهي مُنْقَصَةٌ لمحبة الله مُضَعِفَةٌ لها، وتَصَدِّقُ هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشدّ. ولا ريب أنّ هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يقدّم على محبة نفسه وحياته شيئاً فإذا قدّم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث

(١) الضمير هنا عائد على محذوف وهو المحب.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٩ و ١٤، والإكراه باب ١، والأدب باب ٤٢. ومسلم في الإيمان

حديث ٦٦. والنسائي في الإيمان باب ٢ - ٤. وابن ماجه في الفتن باب ٢٣. وأحمد في المسند

(٣/١٠٣، ١١٤، ١٧٢، ١٧٤، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٧٥، ٢٨٨).

لو خُيِّرَ بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يُلقَى في النار ولا يكفر كان الله أَحَبَّ إليه من نفسه، وهذه المحبة هي فوق ما يجده سائر العُشَّاق والمحبين من محبة محبوبهم، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مِثْلَ لمن تعلَّقت به وهي محبةٌ تقتضي تقدِيمَ المحبوب فيها على النفس والمال والولد، وتقتضي كمالَ الذلِّ والخضوعِ والتعظيم والإجلال والطاعة والانتقياد ظاهراً وباطناً، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق مَنْ كان.

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يَغْفِرُهُ الله كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. والصحيح أن معنى الآية والذين آمنوا أَشَدُّ حُبًّا لله من أهل الأنداد لأناداهم كما تقدَّم بيانه أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً، كما لا يماثل محبوبهم غيره. وكلّ أذى في محبة غيره فهو نعيمٌ في محبته، وكلّ مكروه في محبة غيره فهو قُرّة عينٍ في محبته.

ومن ضرب لمحبته الأمثال التي هي في محبة المخلوق للمخلوق كالوصل والهجر والتَّجَنِّي بلا سبب من المحبِّ وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً فهو مخطئٌ أقبح الخطأ وأفحشه، وهو حقيقٌ بالإبعاد والمقت. والآفة إنما هي من نفسه وقلة أدبه مع محبوبه، والله تعالى نهى أن يَضْرَبَ عباده له الأمثال فهو لا يقاس بخلقه. وما ابتدع من ابتدع إلا من ضَرَبَ الأمثال له سبحانه. فأصحابُ الكلام المُحَدِّثِ المبتدع ضربوا له الأمثال الباطلة في الخير عنه وما يوصف به، وأصحابُ الإرادة المنحرفة ضربوا له الأمثال في الإرادة والطلب. وكلاهما على بدعةٍ وخطأ.

والعشق إذا تعلَّق بما يحبه الله ورسوله كان عشقاً ممدوحاً مثاباً عليه. وذلك أنواع: أحدها محبةُ القرآن بحيث يَغْنَى بسماعه عن سماع غيره، ويَهَيِّم قلبه في معانيه ومراد المتكلِّم سبحانه منه، وعلى قدر محبة الله تكون محبة كلامه، فمن أحب محبوباً أحب حديثه والحديث عنه كما قيل:

إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ حُبِّي فَلِمَ هَجَرْتَ كِتَابِي
أَمْ تَأْمَلْتَ مَا فِيهِ مِنْ لَذِيذِ خُطَابِي

وكذلك محبة ذكره سبحانه وتعالى من علامة محبته، فإن المحب لا يشبع من ذكر محبوبه، بل لا ينساه فيحتاج إلى من يذكره به. وكذلك يحب سماع أوصافه وأفعاله وأحكامه، فعشق هذا كله من أنفع العشق، وهو غاية سعادة العاشق، وكذلك عشق العلم النافع، وعشق أوصاف الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر ومكارم

الأخلاق، فإن هذه الصفات لو صُوِّرتْ صُوراً لكانت من أجمل الصُّور وأبهاها، ولو صُور العلمُ صُورةً لكانت أجملَ من صُورة الشمس والقمر، ولكن عشق هذه الصفات إنما يناسب الأنفس الشريفة الزكية، كما أن محبة الله ورسوله وكلامه ودينه إنما تناسب الأرواح العلوية، السماوية الزكية، لا الأرواح الأرضية الدنيئة، فإذا أردت أن تعرفَ قيمةَ العبد وقدره فانظر إلى محبوبه ومُرادِه. واعلم أن العشق المحمود لا يَعرِضُ فيه شيءٌ من الآفات المذكورة.

بقي هاهنا قسمٌ آخرٌ، وهو عشقٌ محمودٌ يترتب عليه مفارقة المعشوق، كمن يعشق امرأته أو أُمَّته فيفارقه بموتٍ أو غيره فيذهب المعشوق ويبقى العشق كما هو، فهذا نوعٌ من الابتلاء إن صبر صاحبه واحتسب نال ثواب الصابرين، وإن سَخِطَ وجزع فاته معشوقه وثوابه، وإن قابل هذه البلوى بالرضا والتسليم فدرجته فوق درجة الصبر. وأعلى من ذلك أن يقابلها بالشكر نظراً إلى حسن اختيار الله له؛ فإنه ما يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، وإن لم يعلم كونه خيراً له فليسلم للصادق المصدق في خبره المؤكّد باليمين حيث يقول: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن من قضاءٍ إلا كان خيراً له إن أصابتهُ سرّاً شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابتهُ ضرّاً صبرَ فكان خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمن»^(١). وإيمان العبد يأمره بأن يعتقد بأن ذلك القضاء خيرٌ له؛ وذلك يقتضي شكر من قضاها وقدره وبالله التوفيق.

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٦٤، وأحمد في المسند (٤/٣٣٢، ٣٣٣، و١٥/٦).

في استحباب تخير الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله

قال الله تعالى عقيب ذكره ما أحلَّ لعباده من الزوجات والإماء وما حرَّم عليهم: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا. يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٥ - ٢٧]. أي لا يصبر عن النساء، كما ذكر الثوري عن ابن طاووس عن أبيه ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ قال: إذا نظر إلى النساء لم يصبر، وكذلك قال غير واحد من السلف. ولما كانت الشهوة في هذا الباب غالباً لا بدَّ أن توجب ما يوجب التوبة، كرَّر سبحانه وتعالى ذكر التوبة مرَّتين، فأخبر أنَّ مُتَّبِعِي الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا ميلاً عظيماً، وأخبر سبحانه وتعالى أنه يريد التخفيف عنا لضعفنا، فأباح لنا أن ننكح ما طاب لنا من أطايب النساء أربعاً، وأن نتسرَّى من الإماء بما شئنا.

ولما كان العبد له في هذا الباب ثلاثة أحوال: حالة جهل بما يحلُّ له ويحرَّم عليه، وحالة تقصير وتفريط، وحالة ضعف وقلة صبر، قابل سبحانه جهل عبده بالبيان والهدى، وتقصيره وتفريطه بالتوبة، وضعفه وقلة صبره بالتخفيف.

وقال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: حدَّثنا أبو معمر، حدَّثنا يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ وَحُبِّ إِلَيَّ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ. الْجَانِعُ يَشْبَعُ وَالظَّمَانُ يَزُولُ وَأَنَا لَا أَشْبَعُ مِنْ حُبِّ الصَّلَاةِ وَالنِّسَاءِ»^(١). وأصله في صحيح مسلم بدون هذه الزيادة.

وفي صحيح مسلم^(٢) من حديث عُرْوَةَ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أصاب

(١) الحديث بدون زيادة: «... الجائع يشبع... الخ» في سنن النسائي (كتاب عشرة النساء، باب ١)
ومسند الإمام أحمد (٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥).

(٢) الحديث بهذا السياق غير موجود في صحيح مسلم ولكنه جاء في كتاب مناقب أمهات المؤمنين =

رسول الله ﷺ سبايا بني الْمُصْطَلِقِ وقعت جُوَيْرِيَةُ بنت الحارث بن أَبِي ضِرَارٍ في السهم لثابت بن قيس بن الشَّامِ أَوْ لابن عَمٍّ لَهُ، فَكَاتَبَتْ عَلَى نَفْسِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَمِيلَةً حُلُوءَةً لَا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسْتَعِينَهُ عَلَى كِتَابَتِهَا. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا عَلَى بَابِ الْحِجْرَةِ فَكَرِهْتُهَا، وَعَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَرَى مِنْهَا مَا رَأَيْتُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخَفْ عَلَيْكَ، فَوَقَعْتَ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّامِ أَوْ لَابْنِ عَمٍّ لَهُ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْتَعِينَهُ. قَالَ: «فَهَلْ لَكَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ؟» قَالَتْ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «أَقْضِي كِتَابَتَكَ وَأَتَزَوَّجُكَ» قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ فَعَلْتُ. وَخَرَجَ الْخَبِيرُ إِلَى النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ، فَقَالَ النَّاسُ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ. قَالَتْ: فَلَقَدْ أُعْتِقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا».

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: خرج سهمي يوم جُلُولَاءَ جَارِيَةٍ كَأَنَّ عُنُقَهَا يُبْرِيقُ فُضَّةً، فَمَا مَلَكَتْ نَفْسِي أَنْ قُمْتُ إِلَيْهَا فَقَبَّلْتُهَا.

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال: «قدم رسول الله ﷺ خَبِيرٌ فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحِصْنَ، ذُكِرَ لَهُ جَمَالُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ وَقَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عُرُوسًا، فَاصْطَفَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فَخَرَجَ بِهَا حَتَّى بَلَغَا سَدَ الرُّوحَاءِ^(١) فَبَنَى بِهَا^(٢) ثُمَّ صَنَعَ حَيْسًا^(٣) فِي نَطْعٍ^(٤) صَغِيرٍ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذِنْ مَنْ حَوْلَكَ» فَكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمَةً رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى صَفِيَّةَ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَوِّي^(٥) لَهَا وَرَاءَهُ بَعَاءَةً، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رِكْبَتَهُ فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رِكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ^(٦). وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ قَالَ: وَقَعَ فِي سَهْمٍ دَحِيَّةٌ جَارِيَةٌ جَمِيلَةٌ، فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ

= للمحب الطبري. وفي المواهب اللدنية أن الذي خرجه هو أبو داود وزاد شارح المواهب أحمد. «وكلاهما من حديث لابن إسحاق».

(١) في صحيح البخاري وغيره: سد الصهباء وهو الأصوب. والروحاء بالمهملة: مكان قريب من المدينة وليست قرب خيبر، فالصواب أنها الصهباء، وهي على بريد من خيبر، قاله ابن سعد وغيره.

(٢) بنى بها وعليها: دخل بها.

(٣) الحيس: تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثرید وقد يجعل عوض الأقط الدقيق والفتيت.

(٤) النطع وفيه أربع لغات: بساط من آدم.

(٥) يحوي لها: أي يجعل لها حوية وهي كساء محشو يدار حوال سنام البعير تركبه المرأة.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٧٤، والبيوع باب ١١١، والمغازي باب ٣٨، والأطعمة باب ٢٨.

وأحمد في المسند (١٥٩/٣).

بِسَبْعَةِ أَرْوُسَ، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تُصَنِّعُهَا وَتَهَيِّئُهَا وَتَعْتَدُ فِي بَيْتِهَا، وَهِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حَيٍّ.

وقال أبو عبيدة: حجَّ عبدُ الملك بنُ مروان ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خالد هذا من رجالات قریش المعدودين، وكان عظيم القدر عند عبد الملك فبينما هو يطوف بالبيت إذ بَصُرَ بِرَمْلَةٍ بِنْتِ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ فعشَقَهَا عشْقاً شديداً، ووقعت بقلبه وقوعاً متمكناً، فلما أراد عبد الملك القُفُولَ هَمَّ خَالِدٌ بالتخلف عنه، فوقع بقلب عبد الملك تهمةٌ، فبعث إليه فسأله عن أمره، فقال: يا أمير المؤمنين، رَمْلَةٌ بِنْتُ الزُّبَيْرِ، رأيَتها تطوف بالبيت فأذهلت عقلي، واللَّهِ ما أبديتُ إليك ما بي حتى عِيلَ صبري. ولقد عرضت النوم على عيني فلم تقبله، والسَّلُو عَلَى قَلْبِي فامتنع منه. فأطال عبد الملك التَّعَجُّبَ من ذلك وقال: ما كنت أقول إن الهوى يستأسر مثلك، قال: فإنني لأشدُّ تعجباً من تعجبك مني، ولقد كنت أقول: إن الهوى لا يتمكَّن إلاَّ من صنفين من الناس: الشعراء والأعراب. أما الشعراء فإنهم ألزمو قلوبهم الفكرَ في النساءِ ووصفهنَّ والتغزُّلَ فمال طبعهم إلى النساءِ فضعفت قلوبهم عن دفع الهوى فاستسلموا إليه منقادين. وأما الأعراب، فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا يكون الغالب عليه غير حبه لها، ولا يَشْغَلُهُ عنه شيء، فضغفوا عن دفع الهوى فتمكن منهم. فما رأيَْتَ نظرةَ حالت بيني وبين الحزم، وحسنت عندي ركوب الإثم، مثل نظرتي هذه. فتبسَّم عبد الملك فقال: أفكل هذا قد بلغ بك؟ فقال: والله ما عرتني هذه البلية^(١) قبل وقتي هذا. فوجَّه عبدُ الملك إلى الزُّبَيْرِ يخطُبُ رَمْلَةَ على خالد، فذكروا لها ذلك فقالت: لا والله أو يطلِّقَ نساءه، فطلق امرأتين كانتا عنده، وظعن^(٢) بها إلى الشام وكان يقول:

أليس يزيد الشوق في كل ليلةٍ	وفي كل يوم من حبيبتنا قرباً
خليلي ما من ساعة تذكُرَانِهَا	من الدهر إلاَّ فرجت عني الكربا
أحب بني العَوَّام طُرّاً لحبها	ومن أجلها أحببت أحوالها كلباً
تجول خلاخيل النساء ولا أرى	لرَمْلَةَ خلخالاً يجول ولا قلباً ^(٣)

وذكر الخرائطي: أن بشر بن مروان كان إذا ضرب البعث^(٤) على أحد من جنده ثم

(١) عرتني البلية: غشيتني.

(٢) ظعن: سار وارتحل. والظعينة اليهودج كانت فيه امرأة أو لم تكن والظعينة أيضاً المرأة ما دامت في اليهودج.

(٣) يجول: يتحرك ويضطرب لسعته. والقلب بالضم: سوار المرأة، يكون نظماً واحداً.

(٤) ضرب عليه البعث: أوفده وأمره بالسفر إلى أحد الثغور أو مركز من المراكز.

وجده قد أخلّ بمركزه أقامه على كرسي ثم سَمَر يديه في الحائط، ثم انتزع الكرسي من تحت رجله، فلا يزال يَتَشَحَّط حتى يموت. وأنه ضرب البعث على رجل عاشق حديث عهدٍ بعرس ابنة عمه، فلما صار في مركزه كتب إلى ابنة عمه كتاباً، ثم كتب في أسفله:

لولا مخافةُ بشرٍ أو عقوبته وأن يُرى بعد ذا في الكف مسمار
إذا لعطلت ثغري ثم زُرْتُكم إن المحب إذا ما اشتاق زوّار

فلما ورد عليها الكتاب أجابته عنه، ثم كتبت في أسفله:

ليس المحبُّ الذي يخشى العقاب ولو كانت عقوبته في فجوة النار
بل المحبُّ الذي لا شيء يُفزعُه أو يَسْتَقِرُّ ومن يهواه في الدار

فلما قرأ الكتاب قال: لا خير في الحياة بعد هذا. وأقبل حتى دخل المدينة فأتى بشرَ بنَ مروان في وقت غدائه، فلما فرغ من غدائه أدخل عليه فقال: اسمع عذري فأما عفوت وإما عاقبت. فقال: ويلك وهل لك من عذر؟ فقَصَّ عليه قصته وقصة ابنة عمه فقال: أُولَى لكما! يا غلام، خط على اسمه من البعث وأعطه عشرة آلاف درهم والحق بابتنة عمك.

سهرتُ ومن أهدى لي الشوق نائم
فوا حسرتنا حتى متى أنا قائلٌ
وحتى متى أخفي الهوى وأسرُّه
أريد الذي قد سرَّكم بمساءتي

وقال آخر:

بي لا بها ما أُنَاسِي من تَجَنُّبِها
واللهُ يعلم أنني لا أُسَرُّ بأن
خوفَ البكاء كما أبكي فتتركني
ومن جوى^(١) الحب في الأحشاء أفديها
تلقى من الوجد ما لاقيته فيها
أبكي على كبدي طوراً وأبكيها

وقال العباس بن هشام الكلبي: ضرب عبد الملك بن مروان بَعَثاً إلى اليمن فأقاموا سنين، حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق قال: والله لأُعَسِّن الليلة مدينة دمشق ولأسمعن الناس ماذا يقولون في البعث الذي أعزيت فيه رجالهم، وأغرمتهم أموالهم، فبينما هو في بعض أزقتها إذ هو بصوت امرأة قائمة تصلي فتسمع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم مسيرَ التَّجَبُّ^(٢)، ومُنزَلَ الكُتُبِ، ومُعْطِي الرَّغَبِ^(٣)، أسألك أن تردَّ لي غائبِي

(١) الجوى: الحرقه وشدة الوجد.

(٢) النجب جمع نجية: خيار الإبل.

(٣) الرغب: المطلوب والمرغوب فيه.

فتكشف به همي، وتقرّ به عيني، وأسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان الذي فعل بنا هذا، ثم أنشأت تقول:

تطاولَ هذا الليلُ فالعين تَدْمَعُ	وأَرْقِنِي حَزْنَ لِقَابِي مُوجِعُ
فَبِتُّ أَقَاسِي اللَّيْلَ أَرعى نُجُومَه	وبات فؤادي بالجوى يَتَقَطَّعُ
إذا غاب منها كوكبٌ في مَغِيه	لَمَحْتُ بعيني كوكباً حينَ يَطْلُعُ
إذا ما تَذَكَّرْتُ الذي كان بيننا	وجدتُ فؤادي حسرة يتصدّع
وكلُّ حبيب ذاكِرٌ لِحبيبه	يُرجِّي لقاه كل يوم ويطمع
فذا العرشُ فرَجٌ ما ترى من صبابتي	فأنت الذي يدعو العبادُ فيسمع
دعوتك في السراء والضّرّ دعوة	على حاجةٍ بين الشراسيف ^(١) تَلْدَعُ

فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف هذا المنزل؟ قال: نعم هذا منزل يزيد بن سنان.
قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته، فلما أصبح سأل كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالوا:
سنة أشهر.

وقال جرير بن حازم عن يعلی بن حكيم، عن سعيد بن جبیر قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أمسى أخذ دِرْتَه ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئاً ينكره أنكره، فبينما هو ذات ليلة يَعْشُ إذ مرّ بامرأة على سطح وهي تقول:

تطاولَ هذا الليلُ وأخْضَلَ ^(٢) جانبه	وأَرْقِنِي أن لا خلیل الأعبُنة
فوالله لولا الله لا ربّ غيره	لُحِرْكَ من هذا السرير جوائِبُنة
مخافةُ ربي والحياء يَصُدَّنِي	وأكرم بعلي أن تُنال مراكِبُنة

ثم تنفّست الصُّعْدَاءُ وقالت: لَهَانَ عَلَى عمر بن الخطاب ما لقيتُ الليلة، فضرب باب الدار فقالت: من هذا الذي يأتي إلى امرأةٍ مُغِيبةٍ^(٣) هذه الساعة؟ فقال: افتحي، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أمّا والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها قال: افتحي فأنا أمير المؤمنين، قالت: كذبت ما أنت أمير المؤمنين، فرفع بها صوته وجهر لها فعرفت أنه هو، ففتحت له فقال: هيه كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت، فقال: أين زوجك؟ قالت: في بَعْثٍ كذا وكذا، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرّح فلان ابن فلان، فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك. ثم دخل على حَفْصَة ابنته فقال: أي بُنيّة كم تصبرُ

(١) الشراسيف: جمع شرسوف: وهو الطرف اللين من الضلع مما يلي البطن.

(٢) اخضل الليل: أظلم.

(٣) امرأة مغيبة: التي غاب زوجها.

المرأة عن زوجها؟ قالت: شهراً واثنتين وثلاثة، وفي الرابع يَنفَدُ الصبرُ، فجعل ذلك أجلاً للبعث. وهذا مطابقٌ لجعل الله سبحانه وتعالى مُدَّةَ الإيلاء أربعة أشهر، فإنه سبحانه وتعالى علم أن صبر المرأة يضعف بعد الأربعة، ولا تحتمل قوَّةَ صبرها أكثرَ من هذه المدَّة، فجعلها أجلاً للمؤلي، وخيرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه، وإن شاءت فسخت نكاحه. فإذا مضت الأربعة أشهر عيَلَ صبرُها. قال الشاعر:

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يُجبِ الصبرُ

في أن دواء المحبين، في كمال الوصال الذي أباحه رب العالمين

قد جعل الله سبحانه وتعالى لكل داء دواء، ويسر الوصال إلى ذلك الدواء شرعاً وقدراً، فمن أراد التدواي بما شرعه الله له، واستعان عليه بالقدر وأتى الأمر من بابهِ صادف الشفاء، ومن طلب الدواء بما منعه منه شرعاً وإن امتحنه به قدراً فقد أخطأ طريق المداواة، وكان كالمتمداوي من داءٍ بداءٍ أعظم منه، وقد تقدم حديث طاوُس عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمْ يَرِ لِلْمُتَحَابِّينِ مِثْلُ النِّكَاحِ»^(١). وقد اتفق رأي العقلاء من الأطباء وغيرهم في مواضع الأدوية أن شفاء هذا الداء في التقاء الرُّوحَيْنِ والتصاقِ البدَنَيْنِ. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي الزُّبَيْر عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأةً فأتى زينبَ فقضى حاجته منها وقال: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُذْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»^(٢). وذكر إسماعيل بن عَيَّاش، عن سُرخِيل بن مسلم عن أبي مسلم الخولاني رحمه الله أنه كان يقول: يا معشر خُولَانِ زَوِّجُوا شَبَابَكُمْ وإِماءَكُمْ فَإِنَّ الْغُلَمَةَ أَمْرٌ عَارِمٌ^(٣) فَأَعِدُّوْهُ عُدَّتَهَا، واعلموا أنه ليس لِمُنْعِظٍ إِذْنٌ. يريد أنه إذا استأذن عليه فلا إذن له. وذكر العتبي أن رجلاً من ولد عثمان ورجلاً من ولد الحسين خرجا يريدان موضعاً لهما، فنزلا تحت سَرَحَةٍ^(٤) فأخذ أحدهما فكتب عليها:

خَبَرِنَا خُصِصْتَ بِالغَيْثِ يَا سَرَّ
حُ بِصَدَقٍ وَالصَّدَقُ فِيهِ شِفَاءُ
وكتب الآخر:

هَلْ يَمُوتُ الْمُحِبُّ مِنْ أَلَمِ الْحُبِّ بِ يَشْفِي مِنَ الْحَبِيبِ اللَّقَاءُ

(١) تقدم بلفظ: «لَمْ يَرِ لِلْمُتَحَابِّينِ مِثْلُ التَّزْوِيجِ».

(٢) أخرجه مسلم في النكاح حديث ٩، وأحمد في المسند (٣/٣٣٠).

(٣) عارم: شديد، قاس، لا يطاق.

(٤) السرحة: شجرة عظيمة طويلة، وجمعها سرح.

ثم مضيا، فلما رجعا وجدا مكتوباً تحت ذلك :

إن جهلاً سألَكَ السَّرْحَ عَمَّا ليس يوماً عليك فيه خَفَاءُ
ليس للعاشق المحب من الحب سِوى لَذَّةِ اللقاءِ شفاءُ
وقال أبو جعفر العذري :

لَسَكُرُ الهوى أَرْوَى لعظمي ومَفْصِلِي إذا سكر التَّدْمَانُ من لَذَّةِ الخمر
وأحسنُ من قَرْعِ المثنائي^(١) وَتَقْرِهَا تراجع صوت الثغر يُقْرِعُ بالثغر
ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يُجب الصبر

وقال عبد الله بن صالح : كان الليث بن سعد إذا أراد الجماع خلا في منزل في داره ودعا بثوبٍ يقال له : الهركان، وكان يلبسه إذ ذاك، وكان إذا خلا في ذلك المنزل عُلِمَ أنه يريد أمراً، وكان إذا عَشِيَ أهله قال : اللهم شُدْ لي أصله، وارفع لي صدره، وسهّل عليّ مدخله ومخرجه، وارزقني لذّته، وهب لي ذرّيّةً صالحةً تقاتل في سبيلك . قال : وكان جَهْوَرِيّاً فكان يُسمع ذلك منه (رضي الله عنه).

وقال الخرائطي : حدّثنا عمارة بن وثيمة قال : حدّثني أبي قال : كان عبد الله بن ربيعة من خيار قريش صلاحاً وعفة، وكان ذكره لا يَرَقُد فلم يكن يشهد لقريش خيراً ولا شراً، وكان يتزوَّج المرأة فلا تمكث معه إلا أياماً حتى تهرب إلى أهلها، فقالت زينب بنت عمر بن أبي سلمة : ما لهنَّ يهربن من ابن عمهن؟ قيل لها : إنهنَّ لا يُطِقْنَهُ، قالت : فما يمنعني؟ فأنا والله العظيمةُ الخلق، الكبيرة العجز، الفخمةُ الفرج، قال : فتزوَّجها، فصبرت عليه، وولدت له ستة من الولد.

وقال رشيد بن سعد، عن زهرة بن معبد، عن محمد بن المنكدر أنه كان يدعو في صلاته : اللهم قُوِّ لي ذَكَرِي فإن فيه صلاحاً لأهلي . وقال حماد بن زيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال : كان لأنس بن مالك غلامٌ وكان شيخاً كبيراً، فرافعته امرأته إلى أنس وقالت : لا أُطِيقه، ففرض له عليها ستّة في اليوم واللييلة .

وقال عليّ بن عاصم : حدّثنا خالدُ الحذاء قال : لما خلق الله آدم وخلق حواء قال له : يا آدم اسكن إلى زوجك، فقالت له حواء : يا آدم ما أطيب هذا! زدنا منه . وفي الصحيح أن سليمان بن داود عليهما السلام طاف في ليلةٍ واحدة على تسعين امرأة . وفي

(١) المثنائي من الأوتار: الذي بعد الأول. الترجيع: تردد الصوت في قراءة أو أذان أو غناء أو رمز أو غير ذلك مما يترنم به.

الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وهنّ تسع نسوة، وربما كان يطوف عليهنّ بغسل واحد، وربما كان يغتسل عند كل واحدةٍ منهنّ.

وقال المروزيّ: قال أبو عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء، النبي ﷺ تزوّج أربع عشرة ومات عن تسع، ولو تزوّج بشر بن الحارث لتّم أمره، ولو ترك الناس النكاح لم يكن غزو ولا حجّ ولا كذا ولا كذا، وقد كان النبي ﷺ يصبح وما عندهم شيء، ومات عن تسع، وكان يختار النكاح ويحثّ عليه، ونهى عن التّبّتل^(١)، فمن رغب عن سنة النبي ﷺ فهو على غير الحق، ويعقوب في حزنه قد تزوّج وولد له، والنبي ﷺ قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ». قلت له: فإن إبراهيم بن أدهم يحكى عنه أنه قال: لروعة صاحب العيال فما قدرت أن أتم الحديث^(٢) حتى صاح بي وقال: وقعت في بُنيّات^(٣) الطريق، انظر ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ثم قال: بكاء الصبي بين يدي أبيه يطلب منه الخبز أفضل من كذا وكذا. أين يلحق المتعبّد العزّب؟ انتهى كلامه.

وقد اختلف الفقهاء هل يجب على الزوج مجامعة امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك، فإنه حقّ له فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه؛ بمنزلة من استأجر داراً إن شاء سكنها، وإن شاء تركها.

وهذا من أضعف الأقوال، والقرآن والسنة والعرف والقياس يرُدُّه. أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقاً للزوج عليها، فهو حقّ على الزوج بنصّ القرآن، وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف، ومن ضدّ المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تغدّل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة ولا يذيقها لذّة الوطء مرّة واحدة. ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه ردّاً عليه. والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره، فقال تعالى: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقالت طائفة: يجب عليه وطؤها في العمر مرّة واحدة ليستقرّ لها بذلك الصّدق. وهذا من جنس القول الأوّل، وهذا باطلٌ من وجه آخر، فإن المقصود إنما هو المعاشرة

(١) التبتل: الانقطاع عن الدنيا إلى الله، والتفرغ للعبادة، وترك النكاح. ومنه قوله تعالى: ﴿وتبتل إليه تبتلاً﴾.

(٢) تتمته كما في الإحياء: أفضل من جميع ما أنا فيه.

(٣) بنية الطريق: طريق صغير يتشعب من الجادة.

بالمعروف، والصدّاقُ دخل في العَقْد تعظيماً لحُرْمته وفرقاً بينه وبين السفاح^(١). فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصدّاق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرّة، واحتجّوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أباح للمؤلفي ترُبُّص أربعة أشهر وخيّر المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه. فلو كان لها حق في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدّة، وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله فليس أيضاً بصحيح فإنه غير المعروف الذي لها وعليها. وأما جعلُ مدّة الإيلاء أربعة أشهر فنظراً منه سبحانه للأزواج فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدّة لعارض من سفر أو تأديب أو راحة نفس أو اشتغال بهمهم، فجعل الله سبحانه وتعالى له أجلاً أربعة أشهر. ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء مؤقتاً في كل أربعة أشهر مرّة.

وقالت طائفة أخرى: بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودها، وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يعاشرها بالمعروف. فالوطء داخل في هذه المعاشرة ولا بدّ، قالوا: وعليه أن يشبعها وطئاً إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتاً. وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجّح هذا القول ويختاره.

وقد حَضَّ النبي ﷺ على استعمال هذا الدواء ورغّب فيه وعلّق عليه الأجر وجعله صدقة لفاعله فقال: «وفي بُضْعٍ أَحَدُكُمْ صَدَقَةٌ»^(٢) ومن تراجم النسائي على هذا: الترغيب في المباشعة، ثم ذكر هذا الحديث، ففي هذا كمال اللذة، وكمال الإحسان إلى الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهاب أفكارها الرديئة عنها، وخفة الرُّوح، وذهاب كثافتها وغلظتها، وخفة الجسم، واعتدال المزاج، وجلبُ الصّحة ودفع المواد الرديئة، فإن صادف ذلك وجهاً حسناً، وخُلُقاً دمثاً^(٣)، وعشقاً وافراً، ورغبة تامة، واحتساباً للثواب، فذلك اللذة التي لا يعادلها شيءٌ، ولا سيما إذا وافقت كمالها فإنها لا تكمل حتى يأخذ كل جزء من البدن بقسطه من اللذة، فتلتذّ العين بالنظر إلى المحبوب، والأذن بسماع كلامه، والأنف بشم رائحته، والفم بتقبيله، واليد بلمسه. وتعتكف كل جارحة على ما تطلبه من لذتها، وتقابله من المحبوب؛ فإن فقد من ذلك شيء لم تزل

(١) السفاح: الفجور. وقيل (تزوج المرأة سفاحاً) أي بغير سنة ولا كتاب.

(٢) تقدم مطولاً. وجاء في القاموس المحيط أن البضع بالضم الجماع أو الفرج نفسه، والمهر، والطلاق، وعقد النكاح ضد، والمباشعة: المجامعة.

(٣) دمث دمثاً: لان وسهل، ودمثت المرأة دماثة: سهل خلقها.

النفس متطلعةً إليه، متقاضيةً له، فلا تسكن كل السكون، ولذلك تسمى المرأة سَكَنًا لسكون النفس إليها، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. ولذلك فضل جماع النّهار على جماع الليل، ولسبب آخر طبيعي، وهو أن الليل وقت تبرّد فيه الحواس وتطلب حفظها من السكون، والنهار محل انتشار الحركات كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]. وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]. وتأمّ النعمة في ذلك فرحة المحب برضاء ربه تعالى بذلك، واحتساب هذه اللذة عنده، ورجاء تثقيل ميزانه، ولذلك كان أحب شيء إلى الشيطان أن يفرّق بين الرجل وبين حبيبته، ليتوصل إلى تعويض كلّ منهما عن صاحبه بالحرام، كما في السنن عنه ﷺ: «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ»^(١). وفي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إِنْ إِبْلِيسُ يَنْصِبُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَثُتُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ فَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَقُولُ أَحَدُهُمْ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى زَنَى فَيَقُولُ يَتُوبُ فَيَقُولُ الْآخَرُ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ فَيُذْنِبُهُ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نِعَمَ أَنْتَ. نِعَمَ أَنْتَ»^(٢) فهذا الوصال لما كان أحب شيء إلى الله ورسوله كان أبغض شيء إلى عدو الله، فهو يسعى في التفريق بين المتحابين في الله المحبة التي يحبها الله، ويؤلف بين الاثنين في المحبة التي يبغضها الله ويسخطها. وأكثر العشاق من جنده وعسكره، ويرتقي بهم الحال حتى يصير هو من جندهم وعسكرهم، يقود لهم، ويزين لهم الفواحش، ويؤلف بينهم عليها كما قيل:

عجبت من إبليس في نخوته وقبح ما أظهر من سيرته
تاه على آدم في سجدة وصار قواداً لذريته^(٣)

وقد أرشد النبي ﷺ الشباب الذين هم مظنة العشق إلى أنفع أدويتهم. ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ».

وفي لفظ آخر ذكره أبو عبيد: حدّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ». وذكر الحديث،

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق باب ٣، وابن ماجه في الطلاق باب ١.

(٢) أخرجه مسلم في المناقيق حديث ٦٦ و ٦٧ و ٦٨. وأحمد في المسند (٣/ ٣١٤، ٣٣٢، ٣٥٤، ٣٦٦، ٣٨٤).

(٣) البيتان لأبي نواس.

وبين اللفظين فرقٌ فإن الأول يقتضي أمر العزْب بالتزويج، والثاني يقتضي أمر المتزوّج بالباء، والباء: اسمٌ من أسماء الوطء. وقوله: «من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج» فسُرت الباءة بالوطء وفُسرت بمؤنّ النكاح، ولا ينافي التفسير الأوّل إذ المعنى على هذا مؤنّ الباءة ثم قال: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» فأرشدهم إلى الدواء الشافي الذي وضع لهذا الأمر، ثم نقله عنه عند العجز إلى البدل وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس ويضيق عليها مجاري الشهوة، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته، فكميّة الغذاء وكيفيته يزيدان في توليدها، والصوم يضيق عليها ذلك فيصير بمنزلة وجاء الفحل^(١)، وقلّ من أذَمَّ الصوم إلا وماتت شهوته أو ضَعُفَتْ جَدًّا، والصوم المشروع يُعَدِّلُهَا. واعتدالها حسنةٌ بين سيئتين، وَسَطٌ بين طَرَفَيْنِ مذمومين، وهما العُتَّةُ^(٢) والغُلْمَةُ الشديدة المُفْرِطَةُ، وكلاهما خارجٌ عن الاعتدال وكلا طَرَفَيْنِ قصد الأمور ذميم، وخير الأمور أوسطها، والأخلاقُ الفاضلة كلها وسط بين طَرَفَيْنِ إفراطٍ وتفريطٍ، وكذلك الدين المستقيم وَسَطٌ بين انحرافين، وكذلك السَّنة وَسَطٌ بين بدعتين، وكذلك الصواب في مسائل النزاع إذا شئت أن تحظى به فهو القول الوسط بين الطرفين المتباعدَيْنِ، وليس هذا موضع تفصيل هذه الجملة، فإننا لم نقصد له وبالله التوفيق.

(١) وجاء الفحل: دق عروق خصيته بين حجرين ولم يخرجهما، أو رضهما حتى تنفضخا فيكون شبيهاً بالخصاء.

(٢) العنة: عدم القدرة على إتيان النساء. والغلمة: غلبة الشهوة.

في ذكر فضيلة الجمال، وميل النفوس إليه على كل حال

اعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر وباطن، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمال الباطن هو محلّ نظر الله من عبده وموضع محبته، كما في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١). وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمالٍ، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتسب رُوحه من تلك الصفات، فإن المؤمنَ يُعطى مهابةً وحلاوةً بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه. وهذا أمر مشهود بالعيان، فإنك ترى الرجلَ الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورةً وإن كان أسوداً أو غيرَ جميل، ولا سيما إذا رَزَقَ حظاً من صلاة الليل فإنها تنور الوجه وتحسّنه.

وقد كان بعضُ النساء تكثر صلاة الليل، ف قيل لها في ذلك، فقالت: إنها تحسّن الوجه وأنا أحب أن يحسّن وجهي. ومما يدلُّ على أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه.

فصل: وأما الجمال الظاهر فزينةٌ خَصَّ الله بها بعضَ الصُّور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١] قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مفطورة على استحسانه.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قالوا: يا رسول الله، الرجلُ يحب أن تكون نعله حسنةً وثوبه حسناً أفذلك من الكِبَر؟ فقال: «لا. إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٢) فبطر

(١) أخرجه مسلم في البرّ حديث ٣٣. وابن ماجه في الزهد باب ٩. وأحمد في المسند (٢/٢٨٥)، (٥٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٤٧. وأبو داود في اللباس باب ٢٦. وأحمد في المسند (٤٢٧، ٣٨٥/١).

الْحَقُّ جَحْدُهُ وَدَفَعُهُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ، وَغَمَطُ النَّاسِ النَّظْرُ إِلَيْهِمْ بَعَيْنِ الْاِزْدِرَاءِ وَالْاِحْتِقَارِ وَالْاِسْتِغْثَارِ وَالْاِسْتِغْثَارُ مِنْهُمْ لَهُمْ. فَأَمَّا إِنْ اِحْتَقَرَهُمْ لِعَظَمَةِ نَفْسِهِ عِنْدَهُ فَهُوَ الَّذِي لَا يَدْخُلُ صَاحِبُهُ الْجَنَّةَ.

فصل: وكما أن الجمال الباطن من أعظم نِعَمِ الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمةٌ منه أيضاً على عبده يوجب شكراً، فَإِنْ شَكَرَهُ بِتَقْوَاهُ وَصِيَانَتِهِ اِزْدَادَ جَمَالاً عَلَى جَمَالِهِ، وَإِنْ اِسْتَعْمَلَ جَمَالَهُ فِي مَعَاصِيهِ سَبَحَانَهُ قَلْبُهُ لَهُ شَيْئاً ظَاهِراً فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، فَتَعُودُ تِلْكَ الْمَحَاسِنُ وَحِشَةً وَقَبْحاً وَشَيْناً، وَيَنْفَرُ عَنْهُ مَنْ رَأَاهُ، فَكُلٌّ مِنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَسَنِهِ وَجَمَالِهِ اِنْقَلَبَ قَبْحاً وَشَيْناً يَشِينُهُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، فَحَسَنُ الْبَاطِنِ يَعْلُو قَبْحُ الظَّاهِرِ وَيَسْتَرُهُ، وَقَبْحُ الْبَاطِنِ يَعْلُو جَمَالَ الظَّاهِرِ وَيَسْتَرُهُ.

يَا حَسَنَ الْوَجْهِ تَوَقَّ الْخَنَاءَ^(١) لَا تُبَدِّلَنَّ الزَّيْنَ بِالشَّيْنِ
وَيَا قَبِيحَ الْوَجْهِ كُنْ مُحْسِناً لَا تَجْمَعَنَّ بَيْنَ قَبِيحَيْنِ

وكان النبي ﷺ يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبد الله - وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُسمِّيهِ يوسف هذه الأمة - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أَنْتَ اْمُرُوْهُ قَدْ حَسَّنَ اللهُ خُلُقَكَ فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ»^(٢). وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرأة، فإن رأى صورتها حسنة لم يشنها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل.

ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس، معظماً في القلوب، لم يبعث الله نبياً إلا جميل الصورة، حسن الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت، كذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وكان النبي ﷺ أجمل خلق الله، وأحسنهم وجهاً كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه وقد سئل: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر^(٣).

وفي صفته ﷺ: كأنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، يَقُولُ وَاصِفُهُ: لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ.

وقال ربيعة الجُرَشِي: قُسِّمَ الْحُسْنُ نَصْفَيْنِ: فَبَيْنَ سَارَةَ وَيُوسُفَ نَصْفُ الْحُسْنِ، وَنَصْفُ الْحُسْنِ بَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ رَأَى يُوسُفَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَقَدْ

(١) الخنا: الفحش.

(٢) رواه الديلمي كما جاء في منتخب كنز العمال.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٣، والترمذي في المناقب باب ٨.

أعطي شَطْرَ الحسن^(١) وكان رسول الله ﷺ يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه حسن الاسم، وكان يقول: «إِذَا أَبْرَدْتُمْ إِلَيَّ بَرِيداً فَلْيَكُنْ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الْأَسْمِ»^(٢).

وقد روى الخرائطي من حديث ابن جُرَيْج عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ وَجْهاً حَسَناً وَاسْماً حَسَناً وَخُلُقاً حَسَناً وَجَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ شَائِنٍ لَهُ فَهُوَ مِنْ صَفْوَةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ»، وقال وهب: قال داود: يا ربَّ أيَّ عبادك أحب إليك؟ قال: مؤمنٌ حسن الصورة، قال: فأَيَّ عبادك أبغض إليك؟ قال كافرٌ قبيح الصورة.

ويُذكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان ينتظره نفرٌ من أصحابه على الباب، فجعل ينظر في الماء ويُسَوِّي شعره ولحيته، ثم خرج إليهم، فقلت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: «نَعَمْ إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى إِخْوَانِهِ فَلْيَهَيِّءْ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٣) وقال يحيى بن أبي كثير: دخل رجلٌ على معاوية غمصاً، يعني رمص^(٤) العينين، فحطَّ من عطائه فقال: ما يمنع أحدكم إذا خرج من منزله أن يتعاهد أديم وجهه؟ وكانت عائشة بنتُ طلحة من أجمل أهل زمانها، أو أجملهم، فقال أنس بن مالك: والله ما رأيت أحسن منك إلا معاوية على منبر رسول الله ﷺ، فقالت: والله لأننا أحسنُ من النار في عين المقرور في الليلة القارة.

ودخل عليها أنس يوماً في حاجة فقال: إن القوم يريدون أن يدخلوا عليك فينظروا إلى جمالك، قالت: أفلا قلت لي فألبس ثيابي؟.

وكان مُضْعَبُ بن الزُّبَيْر من أجمل الناس وكان يحسُدُ الناسَ على الجمال، فبينما هو يخطب يوماً إذ دخل ابن جودان من ناحية الأزْد، وكان جميلاً، فأعرض بوجهه عن تلك الناحية إلى ناحية أخرى، فدخل ابن حُمران من تلك الناحية، وكان جميلاً، فرمى بصره إلى مُؤَخَّرِ المسجد، فدخل الحسن البصري، وكان من أجمل الناس، فنزل مُضْعَبُ عن المنبر.

وخرج نسوةٌ يوم العيد ينظرون إلى الناس فقيل لهنَّ: من أحسن من مرٍّ بكنَّ؟ قلن: شيخ عليه عمامةٌ سوداء، يَغْنَيْنُ الحسن البصري. وأخذ مصعبُ بن الزُّبَيْر رجلاً من

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٥٩، وأحمد في المسند (٣/١٤٨، ٢٨٦).

(٢) رواه البزار، كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي.

(٣) تقدمت الفقرة الأخيرة من هذا الحديث قريباً في هذه الصفحة، أما القصة فإن قول المؤلف في أولها «ويذكر» يدل على الضعف.

(٤) الغمص: ما يسيل من العين من الرمض، والرمض: وسخ أبيض جامد يجتمع في موق العين.

أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه، فقال الرجل: أيها الأمير، ما أقبح من أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يُستضاء به فأتعلق بأطرافك وأقول: يا ربِّ سل مُصْعَباً فيمَ قتلني؟ فقال مُصْعَب: أطلقوه. فقال الرَّجُل: أيها الأمير، اجعل ما وهبت لي من حياتي في خَفْضٍ^(١) فقال مُصْعَب: أعطوه مائة ألف درهم، فقال: إني أشهد الله أن لعبد الرحمن^(٢) بن قيس الرقيّات نصفها، قال مُصْعَب: ولم ذلك؟ قال لقوله:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّـهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

وقال الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ: حَدَّثَنَا مُصْعَبُ الزُّبَيْرِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ قَالَ: خَرَجَ أَبُو حَازِمٍ يَرْمِي الْجِمَارَ وَمَعَهُ قَوْمٌ مُتَعَبِدُونَ وَهُوَ يَكْلِمُهُمْ وَيَحْدِثُهُمْ وَيَقْصُّ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَمْشِي وَهُمْ مَعَهُ إِذْ نَظَرَ إِلَى فَتَاةٍ مُسْتَرَةٍ بِخِمَارِهَا، تَرْمِي النَّاسَ بِطَرَفِهَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَقَدْ شَغَلَتِ النَّاسَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا مَبْهُوتِينَ، وَقَدْ خَبَطَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فِي الطَّرِيقِ، فَرَأَاهَا أَبُو حَازِمٍ فَقَالَ: يَا هَذِهِ أَتَقِي اللَّهَ فَإِنَّكَ فِي مَشْعَرٍ^(٣) مِنْ مَشَاعِرِ اللَّهِ عَظِيمٍ، وَقَدْ فَتَنَتِ النَّاسَ، فَاضْرِبِي بِخِمَارِكَ عَلَى جَبِّكَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَلْيُضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] فَأَقْبَلْتُ تَضْحِكُ مِنْ كَلَامِهِ وَقَالَتْ: إني والله:

مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَخْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلَنَّ الْبَرِيءَ الْمُغْفَلَ^(٤)

فَأَقْبَلَ أَبُو حَازِمٍ عَلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ: تَعَالَوْا نَدْعُو اللَّهَ أَنْ لَا يَعَذِّبَ هَذِهِ الصُّورَةَ الْحَسَنَاءَ بِالنَّارِ، فَجَعَلَ يَدْعُو وَأَصْحَابُهُ يُؤْمِنُونَ^(٥).

وقال ضَمْرَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّابٍ: دَخَلْتُ امْرَأَةً جَمِيلَةً عَلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، يَنْبَغِي لِلرِّجَالِ أَنْ يَتَزَوَّجُوا عَلَى النِّسَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: وَعَلَى مِثْلِي؟ ثُمَّ أَسْفَرَتْ عَنْ وَجْهِ لَمْ يُرْ مِثْلُهُ حَسَنًا وَقَالَتْ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، لَا تُفْتُوا الرِّجَالَ بِهَذَا. ثُمَّ وَلَّتْ، فَقَالَ الْحَسَنُ: مَا عَلَى رَجُلٍ كَانَتْ هَذِهِ فِي زَاوِيَةِ بَيْتِهِ مَا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا!

(١) الخفض: الدعة وسعة العيش.

(٢) كذا. . والذي جاء في الأغاني وغيره أن اسمه عبيد الله.

(٣) المشعر: موضع مناسك الحج؛ والمشعر الحرام: جبل بآخر المزدلفة واسمه قرح.

(٤) البيت للعرجي.

(٥) في الأغاني للأصفهاني قال: بلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: أما والله لو كان من بعض بغضاء أهل العراق (يريد بهم المتزمتين المتغالين في الورع) لقال لها: اغربي قبحك الله! ولكنه ظرف عباد الحجاز.

وقال عبد الملك بن قُرَيْب^(١): كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون:
قد جاءت قد جاءت. فتحول الناس فقمتم معهم، فإذا جارية قد وردت الماء، ما رأيت
مثلاً قط في حسن وجهها وتمام خلقها، فلما رأت تشوّف^(٢) الناس إليها أرسلت برقعها
فكانه غمامة غطت شمساً، فقلت: لم تمنعينا النظر إلى وجهك هذا الحسن؟ فأنشأت
تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كله أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ
ونظر إليها أعرابيٌّ فقال: أنا والله ممن قلّ صبره، ثم قال:

أَوْحِشِيَّةَ الْعَيْنَيْنِ أَيْنَ لَكَ الْأَهْلُ أَبِالْحَزَنِ حَلَّوْا أَمْ مَحَلُّهُمْ السَّهْلُ
وَأَيَّةَ أَرْضٍ أَخْرَجْتِكِ فَإِنِّي أَرَاكَ مِنَ الْفَرْدُوسِ إِنْ فُتِّشَ الْأَصْلُ
قَفِي خَبْرِنَا مَا طِعِمْتَ وَمَا الَّذِي شَرِبْتَ وَمِنْ أَيْنَ اسْتَقَلَّ بِكَ الرَّحْلُ^(٣)
لأن علامات الجنان مبيّنة عليك وإن الشّكل يشبهه الشّكلُ
تَناهَيْتِ حَسَنًا فِي النِّسَاءِ فَإِنْ يَكُنْ لِبَدْرِ الدُّجَى نَسْلٌ فَأَنْتِ لَهُ نَسْلُ
وقال آخر^(٤):

يَا مُنْسِي الْمَحْزُونِ أَحْزَانَهُ لِمَا أَتَتْهُ فِي الْمَعْزِينَا
إِسْتَقْبَلْتَهُنَّ بِمِثَالِهَا فَقُمْنَ يَضْحَكْنَ وَيَكِينَا
حَقٌّ لِهَذَا الْوَجْهِ أَنْ يَزْدَهِي^(٥) عَنْ حُزْنِهِ مَنْ كَانَ مَحْزُونَا
وقال آخر:

أَتِيرِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَفَلَّ^(٦) الْبَدْرُ وَقَوْمِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخَرَ الْفَجْرُ
فَفِيكَ مِنَ الشَّمْسِ الْمَنِيرَةِ ضَوْؤُهَا وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّبَسُّمُ وَالثَّغَرُ
وقال آخر:

رِقَادِي يَا طَرْفِي عَلَيْكَ حَرَامٌ فَخَلَّ دُمُوعاً فَيَضُفُّهُنَّ سِجَامٌ^(٧)

(١) هو الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب).

(٢) تشوف: نظر وتطلع.

(٣) استقل بك الرحل: جاء وقدم.

(٤) هو أبو نواس الحسن بن هانئ، ورواية الأغاني:

يَا مُنْسِي الْمَاتَمِ أَحْزَانَهُ لِمَا أَتَاهُمْ فِي الْمَعْزِينَا

(٥) يزدهي: يتيه بحسنه، ويحمل من رآه وكان محزوناً على نسيان حزنه.

(٦) أفل: غاب.

(٧) سجام: سائل بكثرة.

ففي الدَّمْعِ إطفاءٌ لنارِ صِبابَةٍ لها بين أَخْناءِ الضُّلُوعِ ضِرَامٌ^(١)
ويا كبدي الحَرَى^(٢) التي قد تَصَدَّعَتْ من الوجد ذوبي ما عليك ملام
ويا وجهَ من ذَلَّتْ وجوهُ أعزَّةٍ له وَزَهَى عَزًّا فليس يُرام
أَجِرْ مستجيراً في الهوى باسطاً إليك يديه والعيونُ نِيَام

وذكر الخرائطي عن بعض العلويين قال: بينا أنا عند الحسن بن هانئ وهو ينشد:

ويلي عَلى سود العيون التَّهْدِ الضُّمُرِ البطون
الناطِقَاتِ عن الضمير رلنا بألْسِنَةِ الجُفُون

فوقف عليه أعرابيٌّ ومعه بُيْتُهُ فقال: أَعِذْ عَلَيَّ، فأعاد عليه فقال: يا ابن أخي،
ويلك أنت وحدك من هذا؟ ويلي أنا وأنت، وويلُ ابني هذا، وويل هذه الجماعة، وويل
جيراننا كلَّهم.

وقال الخرائطي: حَدَّثَنَا يَمُوتُ بن المُرَزَّع، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن حميد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد
ابن سلمة قال: حَدَّثَنِي أَبِي قال: أَتَيْتُ عَبْدَ العَزِيز بن المطلب أَسْأَلُهُ عن بيعة الجَنِّ للنبي
ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدوُّها، فوجدته مستلقياً يَتَغَنَّى:

فما روضةٌ بِالْحَزَنِ طيبةُ الثرى يَمُجُّ الندى جَنَجَانُها وَعَرارُها^(٣)
بأطيبِ مَنْ أَرْدانِ عَزَّةٍ موهنأً وقد أوقدت بِالْمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها^(٤)
من الخَفِرَاتِ البيضِ لم تَلَقْ شِفْوَةً وبالحَسَبِ المكنونِ صافٍ نجارُها^(٥)
فإن برزت كانت لعينيك قُرَّةً وإن غبتَ عنها لم يَمُكَّ عارُها

فقلت له: أَتَغْنِي أَصلحك الله وأنت في جلالك وشرفك؟ فقال: أَمَا والله لأَحْمِلُها
رِكبَانِ نَجْد، قال: فوالله ما اِكْتَرَتْ بي وعاد يَتَغَنَّى:

فما طيبةُ أَدْمَاءِ حَفَّاقَةِ الْحَشَا تجوب بظُلْفَيْها متونَ الخُمائِلِ^(٦)
بأحسنَ منها إذ تقول تَدَلَّالاً وأدْمُعُها تُذَرِّين حَشَوَ المِكاَحِلِ

(١) الضرام: لهب النار.

(٢) الحرى: التي ييسب من مرض أو حزن.

(٣) الحزن من الأرض: ما غلظ. ويمج الندى يلقيه عنه. والجشجاث: نبات سهلي له زهرة صفراء طيبة
الريح. والعرار جمع عرارة: بهار طيب الرائحة.

(٤) المندل: العود الطيب الرائحة.

(٥) الخفرات: جمع خفرة، وهي الشديدة الحياء. والنجار: الأصل والحسب.

(٦) أدماء: شديدة السمرة. والظلف: الظفر المشقوق للظبية والبقرة ونحوهما. والمتون جمع متن:
الظهر.

تَمَّتْ بِذَا الْيَوْمِ الْقَصِيرِ فَإِنَّهُ رَهِيْنٌ بِأَيَّامِ الصَّدُودِ الْأَطَاوِلِ
 قَالَ: فَنَدِمْتُ عَلَى قَوْلِي وَقُلْتُ لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَتَحَدِّثُنِي فِي هَذَا بَشْيَءٍ؟ قَالَ: نَعَمْ
 حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَشْعَبُ يَغْنِيهِ:
 مَغِيرِيَّةٌ كَالْبَدْرِ سُنَّةٌ وَجْهَهَا مُطَهَّرَةٌ الْأَثْوَابُ وَالْعِرْضُ وَافِرٌ
 لَهَا حَسْبُ زَاكِ وَعِرْضٌ مَهْدَبٌ وَعَنْ كُلِّ مَكْرُوهِ مِنَ الْأَمْرِ زَاجِرٌ
 مِنَ الْخَفَرَاتِ الْبَيْضِ لَمْ تَلَقَ رِيَّةً وَلَمْ يَسْتَمِلْهَا عَنْ تَقَى اللَّهِ شَاعِرٌ
 فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ: زِدْنِي، فَغْنَاهُ:

الْمَتْنَا بِنَا وَاللَّيْلُ دَاجٍ كَأَنَّهُ جَنَاحُ غُرَابٍ عَنْهُ قَدْ نَفَضَ الْقَطْرَا
 فَقُلْتُ أَعْطَارٌ ثَوَى فِي رِحَالِنَا وَمَا احْتَمَلْتُ لَيْلَى سِوَى طَيْبِهَا عِطْرَا
 فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ تَتَدَاوَلُهُ الرُّوَاةُ لَأَجْزَلْتُ جَائِزَتَكَ فَإِنَّكَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ
 بِمَكَانٍ.

قَالَ الْخِرَائِطِيُّ: حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَضْلِ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ قَالَ: حَجَجْتُ سَنَةَ
 مِنَ السَّنِينَ فَإِنِّي لِبِالرَّبَّةِ^(١) إِذْ وَقَفْتُ عَلَيْنَا جَارِيَةً عَلَى وَجْهَهَا بُرْقُعٌ فَقَالَتْ:
 يَا مَعْشَرَ الْحَجِيجِ، نَفَرٌ مِنْ هَذِيلٍ، ذَهَبَ بِنَعْمِهِم السَّيْلُ، وَقَعَدَتْ بِهِمِ الْأَيَّامُ، مَا
 بِهِمْ نُجْعَةٌ^(٢)، فَمَنْ يَرَاقُبُ فِيهِمِ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَيَعْرِفُ لَهُمْ حَقَّ الْأَخْوَةِ جَزَاءَهُ اللَّهُ خَيْرًا.
 قَالَ: فَرَضْنَا لَهَا، فَقُلْتُ لَهَا: هَلْ قُلْتَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:
 كَفُّ الزَّمَانِ تَوَسَّدْنَا عَنُوءَةً شَلَّتْ أُنَامُلَهَا عَنِ الْأَعْرَابِ
 قَوْمٌ إِذَا حَلَّ الْعُقَاةُ^(٣) بِيَابَهُمْ أَلْفَوْا نَوَافِلَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابِ
 فَقُلْنَا لَهَا: لَوْ أَمْتَعْتِنَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، فَكَشَفْتَ الْبُرْقُعَ عَنْ وَجْهِهِ لَا وَاللَّهِ لَا تَهْتَدِي
 الْعُقُولُ لَوْصَفِهِ، فَلَمَّا رَأَيْنَا قَدْ بُهِنْنَا لِحَسَنِهَا أَنْشَأَتْ تَقُولُ:

الدَّهْرُ أَبْدَى صَفْحَةً قَدْ صَانَهَا أَبُوَيَ قَبْلَ تَمَرَسِ الْأَيَّامِ^(٤)
 فَتَمَتَّعُوا بِعَيُونِكُمْ فِي حَسَنِهَا وَأَنْهَوْا جَوَارِحَكُمْ عَنِ الْآثَامِ
 ثُمَّ انصرفت. وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ حَمِيدٍ الطُّوسِيُّ يَهُوَى جَارِيَةً فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا مَرَّةً أَتْرَجَةً^(٥)

(١) فِي مَعْجَمِ يَاقُوتَ: الرِّبْدَةُ: قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الْمَدِينَةِ.

(٢) النَّجْعَةُ: طَلَبُ الْكَلَاءِ، وَمَسَاقِطُ الْغَيْثِ، وَقَصْدُ ذِي الْمَعْرُوفِ لِمَعْرُوفِهِ.

(٣) الْعُقَاةُ: الَّذِينَ افْتَقَرُوا لَا يَسْأَلُونَ.

(٤) تَمَرَسَ الْأَيَّامُ: مِمَارَسَةُ نَوَائِبِهَا وَفَوَاجِعِهَا.

(٥) الْأَتْرَجَةُ: نَوْعٌ مِنَ اللَّيْمُونِ يَجْلُو اللَّوْنُ وَيَزِيلُ الْكَلْفُ.

فبكت بكاءً شديداً، فقليل لها: يوجه إليك من تحببته بهدية فتبكين هذا البكاء؟ فغنت:
أهدى له أحبابه أترجئة فبكى وأشفق من عيافة زاجر^(١)
خاف التلؤن والفراق لأنها لوان باطنها خلاف الظاهر
فلما جاءه الرسول أخبره عنها بما أفاظه، فكتب إليها^(٢):

ضيعت عهد فتى لغيبك حافظ في حفظه عجب وفي تضييعك
وصددت عنه وماله من حيلة إلا الوقوف إلى أوان رجوعك
إن تقتليه وتذهبي بحياته فبحسن وجهك لا بحسن صنيعك

فلما وافتها الرقة بكت حتى رحمها من حولها ثم اندفعت تقول:

هل لعيني إلى الرقاد شفيع إن قلبي من السقام مروع
لا تراني بخلت عنك بدمع لا وحق الحبيب مالي دموع
إن قلبي إليك صب حزين فاستراحت إلى الأئين الضلوع
ليس في العطف يا حبيبي بدع إنما هجر من يحب بديع

ثم كتبت إليه: أنا مملوكة لا أملك من أمري شيئاً، فإذا كان لك في حاجة فاشترني
لأكون طوع يدك، فاشتراها فمكثت عنده وكانت من أحظى إماءه، حتى قتل في وقعة
بابك الخرمي، فكانت تتمثل في رثائه بقول أبي تمام:

محمد بن حميد أخلقت رممه أريق ماء المعالي مذ أريق دمه
رأيتُه بِنِجاد السيف مُحْتَيَاً^(٣) في النوم بداراً جلت عن وجهه ظلمة
فقلت والدمع من حزن ومن كمد يجري انسكاباً على الخدين مُنْسَجِماً
ألم تمت يا شقيق النفس مذ زمن فقال لي لم يمّت من لم يمّت كرمه

فصل: وهذا فصل في ذكر حقيقة الحسن والجمال ما هي؟ وهذا أمر لا يُدرَك إلا
بالوصف، وقد قيل: إنه تناسُبُ الخلقة واعتدالها واستواؤها. ورب صورة متناسبة
الخلقة، وليست في الحسن هناك. وقد قيل: الحسن في الوجه والملاحة في العينين.
وقيل: الحسن أمر مركّب من أشياء: وضاعة وصباحة وحسن تشكيل وتخطيط ودموية في
البشرة. وقيل: الحسن معنى لا تناله العبارة، ولا يحيط به الوصف، وإنما للناس منه

(١) عيافة الطير: زجرها. وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها فتتفاءل أو تتشاءم.

(٢) الشعر لابن أبي عيينة.

(٣) نجاد السيف: حمائله. واحتى: جلس على أليته وضم فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.
ويقال احتى الثوب: اشتمل به وأداره على ظهره وساقيه.

أوصافاً أمكن التعبير عنها. وقد كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، ونظرت إليه عائشة رضي الله عنها يوماً ثم تبسّمت، فسألها ممّ ذاك؟ فقالت: كأن أبا كَبِيرِ الهذلي إنما عَنَّا بقوله:

وَمُبَرِّراً مِنْ كُلِّ غُبَرٍ حَيْضَةٍ وفسادٍ مُرْضِعَةٍ وداءٍ مُغِيلٍ^(١)
وإذا نظرت إلى أَسْرَةٍ وجهه برقت كبرق العارض المتهلل^(٢)

ولقي بعض الصحابة راهباً فقال: صف لي محمداً كأنني أنظر إليه فإني رأيت صفته في التوراة والإنجيل، فقال: لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير، فوق الرقبة، أبيض اللون مُشْرِباً بالحمرة جَعْداً ليس بالقَطَطِ، جُمْتُه إلى شحمة أذنه، صَلَّتِ الجبين، واضح الخَدَّ، أدعج العينين، أفنى الأنف، مفلج الشنأيا، كأن عنقه إبريق فضة، ووجهه كدارة القمر فأسلم الراهب^(٣). وفي صفة هند بن أبي هالة له ﷺ: لم يكن بالطويل الممَّغَطِ، ولا بالقصير المتردد. كان رُبْعَةً من الرجال، ولم يكن بالجعد القَطَطِ ولا بالسَّطِ، ولم يكن بالمُطَهَّمِ ولا بالمُكَلَّمِ، وكان في الوجه تدوير، أبيض مُشْرَبٌ أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المُشَاشِ والكتد، شَنُّ الكفين والقدمين، دقيق المُسْرَبَةِ، إذا مشى تَقَلَّع كأنما ينحط من صَبَبٍ، وإذا التفت التفت جميعاً. كأن الشمس تجري في وجهه. وكان ﷺ مع هذا الحسن قد أُلْقِيَتْ عليه المحبة والمهابة، فمن وقعت عليه عيناه أحبه وهابه^(٤) وكمل الله سبحانه مراتب الجمال ظاهراً وباطناً. وكان أحسن خلق الله خُلُقاً وخُلُقاً، وأجملهم

(١) غُبَرُ الحَيْضِ: بقايا دمه، وأضاف الفساد إلى المرضعة لأنه أراد الفساد الذي يكون من قبلها. والمغِيل من الغيل: وهو اللبن الذي ترضعه المرأة ولدها وهي حامل. ويروى: وداء معضل، قاله التبريزي في شرح الحماسة. والحديث في الحلية لأبي نعيم.
(٢) الأسرة جمع سرار: وهي خطوط الجبهة، والعارض: السحاب يعترض في الأفق، والمتهلل: المتلألئ.

(٣) البائن: المفرط في الطول. والقَطَط: القصير الجعد وكان شعره عليه الصلاة والسلام بين الجعودة والسيوطة كما سيأتي بعد هذا. والجمعة: الشعر المجموع على الرأس، وقيل الشعر مطلقاً. والصلت: الواسع. والأدعج: الشديد سواد العين في شدة بياضها. والقنا: طول الأنف ودقة أرنبته وحذب في وسطه. والفالج: تباعد ما بين الشنأيا والرباعيات خلقة. ودارة القمر: حالته. والحديث مذكور بنحوه في منتخب كنز العمال وقال: رواه ابن عساكر.

(٤) الحديث رواه الترمذي في الشمائل على غير هذا الوجه. الممَّغَط: المفرط الطول. والمتردد: الداخل بعضه في بعض، وأما المطهَّم (أي الضخم): الكثير اللحم، والمكَلَّم: المدور الوجه، والمشرَّب: الذي في بياضه حمرة، والأهدب: الطويل الأشفار، المشاش: يريد رؤوس المناكب، والكتد: مجتمع الكتفين وهو الكامل. والشَنُّ: الغليظ الأصابع. والمسربة: هو الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة، والتقلع: أن يمشي بقوة، والصبب: الحذور.

صورة ومعنى. وهكذا كان يوسف الصديق ﷺ. ولهذا قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهنَّ إياه ليعذُرْنَهَا في محبته: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] أي هذا هو الذي فتنن به وشغفت بحبه، فمن يلومني على محبته وهذا حسن منظره؟ ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَوَدَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أي فمنع هذا الجمال، فباطنه أحسن من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحبت وإن غيَّب محبوبه فلا يجري لسانه إلا بمحاسنه ومدحه. ويتعلق بهذا قوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الدهر: ١١] فجمل ظواهرهم بالنضرة وبواطنهم بالسرور، ومثله قوله: ﴿وَجُودَةٌ يُؤْتِيهِ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فإنه لا شيء أشبه إلههم وأقر لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه، فنضّر وجوههم بالحسن، ونعمّ قلوبهم بالنظر إليه. وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الدهر: ٢١] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الدهر: ٢١] أي مطهراً لبواطنهم من كل أذى. فهذا زينة الباطن. ويشبهه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَلِبَاسٌ آتَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا زينة الباطن. وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالى: ﴿وَزَيْنًا أَلَسَّمَاءَ أَلَدُنِيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢] فزين ظاهرها بالمصابيح، وباطناتها بحفظها من الشياطين. وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن. وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة. ومنه قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعُرْي دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والصحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عُرْي الباطن ودُّهُ، والعُرْي جوع الظاهر ودُّهُ. فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حرُّ الباطن، والصحى حرُّ الظاهر. فقابل بينهما. وسئل المتنبّي عن قول امرئ القيس:

كَأَنِّي لَمْ أَزْكَبْ جَوَادًا لِلذِّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ
لَمْ أَسْبِ الزَّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقْلُ لَخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ^(١)

ف قيل له: إنه عيب مقابلة سبّي الزَّقَّ الرُّوِّي بالكرّ، وكان الأحسن مقابله بتبطّن الكاعب بين اللذتين، وكذلك مقابلة ركوب الجواد للكرّ أحسن من مقابله لتبطّن الكاعب فقال: بل الذي أتى به أحسن فإنه قابل مركوب الشجاعة بمركوب اللذة واللهو،

(١) سبأ الخمر واستبهاها: شراها ليشربها والسبأ: الخمر، والسبأ بتشديد الباء: بيعاها. والروي: الكثير المروي، والزق: وعاء من جلد يجر شعره ولا يتنف بالشراب وغيره.

فهذا مركب الطرب وهذا مركب الحرب والطلب، وكذلك قابل بين السَّباءين، سِباء الزُّق وسِباء الرق.

قلت: وأيضاً فإنَّ الشارب يفتخر بالشجاعة كما قال حسان:

ونشربها فتركنا ملوكاً وأُسدّاً ما يُنهنُّها اللقاء^(١)
وهذه جملة اعتراضية من ألطف الاعتراض^(٢).

وقيل: الحسنُ ما استنطق أفواه الناظرين بالتسييح والتهيل كما قيل:

ذي طلعةٍ سبحان فالقِ صبحه ومعاطفٍ جَلَّتْ يمينُ الغارس
وقال علي بن الجهم:

طلعتُ فقال الناظرون إلى تصويرها ما أعظم الله
ودنت فلمّا سلّمتُ خجلت والتفّ بالتفاح خذاها
وكان غصنَ البان أعلاها وكان غصنَ البان أعلاها
حتى إذا ثملت بنشوتها قرأت كتاب الباه عيناها
وقال آخر:

ذو صورةٍ بشريّة قمريّة تستنطق الأفواه بالتسييح
وقال آخر:

وإذا بدت في بعض حاجتها تستنطق الأفواه بالتسييح
وقال بشار:

تُلقي بتسييحة من حسن ما خلقت وتستفزّ حشا الرائي بإرعاد
ولي من أبيات:

يا صورةَ البدر ولا الذي صوّر ليس البدرُ يحكيك
مُنّي على العين ولا تبخلي بنظرةٍ فالعين تُقديك
وإن تحرّجت لهذا فكم قد سبّح الرحمن رائيك

(١) نهنه فلاناً عن الشيء: كفه عنه وزجره. وهذا البيت قاله حسان قبل أن يسلم، ولم يشرب الخمر بعد إسلامه.

(٢) لعله يشير إلى أن ما ذكره من أن أمثلة التقابل ليست من مقصود الكتاب لكنها لا تخلو من فائدة يحلو بها الخطاب.

(٣) الدعص: قطعة من الرمل مستديرة.

هذا بهذا فارتجي أجزر من إن غبت عنه ظل يكيك
قال ابن شبرمة: كفاك من الحسن أنه مشتق من الحسنة. وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه: إذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تم حسنهما. وقالت عائشة رضي
الله عنها: البياض شطر الحسن. وقال بعض السلف: جعل الله البهاء والهوج مع الطول،
والدهاء والذمامة مع القصر، والخير فيما بين ذلك.

ومما يذم في النساء المرأة القصيرة الغليظة وهي التي عنها الشاعر بقوله:
وَأَنْتِ الَّتِي حَبِيتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ إِلَيَّ وَلَمْ تَشْعُرْ بِذَلِكَ الْقِصَائِرِ
عَنِيتُ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ^(١) وَلَمْ أَرُدْ قِصَارَ النِّسَاءِ شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَاتِرِ
والبحاتر: هن النساء القصار الغلاظ. وبعضهم يبالغ في هذا حتى يفضل المهازيل
على السمان.

أنشد الزمخشري:

لَا أَعَشِقُ الْأَبْيَضَ الْمَنْفُوحَ مِنْ سِمَنِ لَكُنْتِي أَعَشَقْتُ الشُّمْرَ الْمَهَازِيلاً
إِنِّي امْرُؤٌ أَرْكَبُ الْمُهْرَ الْمَضْمَرُ فِي يَوْمِ الرَّهَانِ فَدَعْنِي وَارْكَبِ الْفِيْلَا
وطائفة تفضل السمان وتقول: السمن نصف الحسن، وهو يستر كل عيب في
المرأة ويبيد محاسنها. وخيار الأمور أوساطها.

ومما يستحسن في المرأة طول أربعة وهن: أطرافها^(٢)، وقامتها، وشعرها،
وعنقها. وقصر أربعة: يدها، ورجلها، ولسانها، وعينها^(٣)، فلا تبدل ما في بيت
زوجها، ولا تخرج من بيتها، ولا تستطيل بلسانها، ولا تطمح بعينها. وبياض أربعة:
لونها، وفرقها، وثغرها، وبياض عينها. وسواد أربعة: أهدابها، وحاجبها، وعينها،
وشعرها. وحمرة أربعة: لسانها، وخدّها، وشفثها مع لعس^(٤)، وإشراب بياضها بحمرة.
ودقة أربعة: أنفها، وبنانها، وخصرها، وحاجبها. وغلظ أربعة: ساقها، ومغصمها،
وعجزتها، وذاك منها. وسعة أربعة: جبينها، ووجهها، وعينها، وصدرها. وضيق
أربعة: فمها، ومنخرها، وخرق أذنها، وذاك منها. فهذه أحق النساء بقول كثير:

لَوْ أَنَّ عَزَّةَ خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحَسَنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا

(١) الحجال جمع حجل: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس.

(٢) الأطراف هنا: البدن والرجلان.

(٣) لعله أراد بها المعاني لا الأعيان فهذا أعقبا بتفسيره وبيان.

(٤) اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة.

وقال آخر:

لو أبصرَ الوجهَ وهو منهزمٌ ليلاً وأعداؤه من خلفه وقفا
وقال خر:

يا طيبَ مرعَى مُقلَةٍ لم تخفِ بوجتَيْها زَجَرَ حُرَّاسِ
حلَّت بوجهٍ لم يَغْضُ ماؤه ولم تُخْضِه أعينُ الناسِ^(١)
وقال آخر:

فلم يزل خدُّها رُكناً ألود به والخالُ في خدِّها يغني عن الحجر
وقول الآخر وأنشده المبرِّد:

وأحسنُ من ربعٍ ومن وصفِ دُمَّةٍ ومن جَبَلِي طِيٍّ ومن وصفكم سَلْعاً^(٢)
تَلَاخُظُ عَيْنِي عاشقينَ كلاهما له مُقلَةٌ في خدِّ معشوقه ترعَى
وأُشدُّ ثعلب:

خُزاعية الأطراف مُرِيَّة الحشا فَزَارِيَّة العَيْنين طَائِيَّة الفمِ
ومَكِّيَّة في الطيب والعَطْرِ دائِماً تَبَدَّتْ لَنَا بَيْنَ الحَطِيمِ وَرَمَزِمِ
ثم قال: وصفها بما يستحسن من كل قبيلة.

وقال صالح بن حسان يوماً لأصحابه: هل تعرفون بيتاً من الغزل في امرأة خِفْرة؟
قلنا: نعم بيتٌ لحاتم في زوجته ماويَّة:

يضيء لها البيتُ الظليلُ خصاصه^(٣) إذا هي يوماً حاولت أن تبسِّمًا
قال: ما صنعتُم شيئاً، قلنا: فبيتُ الأعشى:

كَأَن مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلِ
قال: جعلها تدخل وتخرج، قلنا: يا أبا محمد، فأبي بيت هو؟ قال: قول أبي قيس
ابن الأسَلْت:

ويكرمها جارأتها فيرزُزْنَهَا وتَعْتَل عن إتيانهم فتُعْذِرُ
قلت: وأحسن من هذا كله ما قاله إبراهيم بن محمد الملقَّب بِنِفْطَوْنِه رحمه الله:

وخبَرها الواشون أن خيالها إذا نمتُ يَغْشَى مضجعي ووسادي

(١) لم يغض ماؤه: لم ينضب. وغاض الماء: غار وقل ونقص. ولم تخضه العين: لم تقتحمه.

(٢) الدمنة: آثار الدار أو الناس. وسلع: جبل في المدينة.

(٣) الخصاص جمع خصاصة: وهي الخرق أو الفرجة والخلل في الباب وغيره.

فخفـرها فرط الحياء فأرسلت تعيرني غَضْبَى بطول رقادي
ومما يستحسن في المرأة رقةً أديمها^(١) ، ونعومة ملَمَّسه كما قال قيس بن ذريح :

تعلق رُوحِي رُوحَهَا قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً^(٢) وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً فليس وإن متنا بمُنْقَصَم العهد
ولكنه باقٍ على كل حادثٍ ومؤنسنا في ظلمة القبر والحد
يكاد مسيلُ الماء يَخْدِش جلدَها إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد
قلت : ومن المبالغة في معنى البيت الأخير قولُ أبي نُوَاس :

تَوَهَّمَهُ قَلْبِي فَأَصْبَحَ خَدُّهُ وفيه مكانُ الوَهْم من نظري أثرُ
وَمَرَّ بِقَلْبِي خَاطِرٌ فَجَرَحَتْهُ ولم أرَ جِسْماً قَطْ يَجْرَحُه الفكرُ
وصافحه كَفِّي فَالَمَ كَفُّهُ فمن غمز كَفِّي في أنامله عقر^(٣)
ولي من أبيات :

يُدمي الحريـرُ أديمَهَا مِنْ مَسِّهِ فأديمُهَا مِنْهُ أرقٌ وأنعم

فصل : فيا أيها العاشق سمعهُ قبل طَرْفه فإن الأذن تعشق قبل العين أحياناً، وجيش
المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر . والمؤمنون يشتاقون
إلى الجنة وما رأوها، ولو رأوها لكانوا أشدَّ لها شوقاً، والصَّرُورَةُ^(٤) يكاد قلبه يذوب
شوقاً إلى رؤية البيت الحرام . فإن شأقتك هذه الصفات وأخذت بقلبك هذه المحاسن :

فاسمُ بعينيك إلى نِسْوَةٍ مُهُورُهُنَّ العمل الصالح
وَحَدَّثَ النَّفْسَ بِعَشْقِ الْأَلَى في عشقهنَّ المَتَجَرُّ الرابع
واعمل على الوصل فقد أمكنت أسبابُهُ ووقتها رائع

فصل : وقد وصف الله سبحانه حُورَ الجنة بأحسن الصفات، وحلائن بأحسن
الحلَى، وشوق الخطَّاب إليهنَّ حتى كأنهم يرونهنَّ رؤية العين . قال الطبراني : حدَّثنا بكر
ابن سهل الدميّطي، حدَّثنا عمرو بن هشام البيروتي، حدَّثنا سليمان بن أبي كريمة، عن
هشام بن حسان، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول
الله أخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [الواقعة : ٢٢] قال : « حُورٌ بَيضٌ، عِينٌ

(١) أديمها : جلدها .

(٢) جمع نطفة : ماء الرجل والمرأة . وهي أيضاً الماء الصافي قل أو كثر .

(٣) عقر : جرح .

(٤) الصرورة : الذي لم يحج .

ضِحَامُ الْعُيُونِ. شعر الْحَوْرَاءِ بِمَنْزِلَةِ جَنَاحِ النَّسْرِ» قلت: أخبرني عن قوله عز وجل ﴿كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]. قال: «صفاؤهنَّ صفاء الدُّرِّ الذي في الأصداق الذي لم تَمَسَّهُ الأيدي» قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]. قال: «خَيْرَاتُ الْأَخْلَاقِ حِسَانُ الْوُجُوهِ» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيَاضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]. قال: «رِقَّتُهُنَّ كَرَقَّةِ الْجِلْدِ الذي رَأَيْتَ في داخلِ الْبَيْضَةِ مِمَّا يَلِي الْقِشْرَ وهو الْغِرْقِيُّءُ». قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله عز وجل: ﴿عُرْبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٢٧]. قال: «هُنَّ اللَّوَاتِي قُبِضْنَ في دارِ الدُّنْيَا عَجَائِزٌ رُفْصًا شُمَطًا خَلَقَهُنَّ اللهُ بَعْدَ الْكِبَرِ فَجَعَلَهُنَّ عَذَارَى عُرْبًا مَتَعَشِّقَاتٍ مَتَحَبِّبَاتٍ أَتْرَابًا عَلَى مِيلَادٍ وَاحِدٍ». قلت: يا رسول الله نساء الدُّنْيَا أَفْضَلُ أَمْ الْحُورُ الْعَيْنِ؟ قال: «بَلِ نِسَاءُ الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ كَفَضْلِ الظَّهَارَةِ عَلَى الْبَطَانَةِ». قلت: يا رسول الله وبِمَ ذاك؟ قال: «بِصَلَاتِهِنَّ وَصِيَامِهِنَّ وَعِبَادَتِهِنَّ اللهُ أَلْبَسَ اللهُ وَجُوهُهُنَّ النُّورَ، وَأَجْسَادَهُنَّ الْحَرِيرَ، بَيَضُ الْأَلْوَانِ، خَضِرَ الثِّيَابِ، صُفْرَ الْحَلِيِّ، مَجَامِرُهُنَّ الدُّرَّ، وَأَمْشَاطَهُنَّ الذَّهَبَ يَقْلُنَ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُوتُ، نَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأُسُ أَبَدًا، نَحْنُ الْمَقِيمَاتُ فَلَا نَنْظُنُّ أَبَدًا، أَلَا وَنَحْنُ الرَّاغِبَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا، طُوبَى لِمَنْ كُنَّا لَهُ وَكَانَ لَنَا». قلت: يا رسول الله المرأةُ مَتَى تَتَزَوَّجُ الزَّوْجَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ وَالْأَرْبَعَةَ ثُمَّ تَمُوتُ فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَيَدْخُلُونَ مَعَهَا، مَنْ يَكُونُ زَوْجَهَا؟ قال: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهَا تُخَيَّرُ فَتَخْتَارُ أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا فَتَقُولُ: أَيُّ رَبِّ إِنْ هَذَا كَانَ أَحْسَنَهُمْ مَعِيَ خُلُقًا فِي دارِ الدُّنْيَا فَزَوْجِيهِ، يَا أُمَّ سَلَمَةَ ذَهَبَ حَسَنُ الْخُلُقِ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١).

فصل: وقد وصفهنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنهنَّ كَواعِبَ، وهو جمع كاعِبٍ، وهي المرأة التي قد تَكْعَبُ ثديها واستدار ولم يَتَدَلَّ إِلَى أَسْفَلٍ، وهذا من أحسن خَلْقِ النِّسَاءِ، وهو ملازِمٌ لِسَنِ الشَّبابِ. ووصفهنَّ بِالْحُورِ وهو حسن ألوانهنَّ وبياضه، قالت عائشة رضي الله عنها: الْبَيَاضُ نِصْفُ الْحَسَنِ. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إِذَا تَمَّ بَيَاضُ الْمَرْأَةِ فِي حَسَنِ شَعْرِهَا فَقَدْ تَمَّ حَسَنُهَا، والعرب تمدح المرأةَ بِالْبَيَاضِ. قال الشاعر:

بَيَاضٌ أَوَانِسٌ مَا هَمَّ مِنْ بَرِيَّةٍ كُظْبَاءٌ مَكَّةٌ صَيْدُهُنَّ حَرَامٌ
يُحْسَبْنَ مِنْ لَيْنِ الْحَدِيثِ زَوَانِيَا وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الْخَنَاءِ الْإِسْلَامُ

وَالْعَيْنُ جَمْعُ عَيْنَاءٍ وهي المرأةُ الْوَاسِعَةُ الْعَيْنِ مع شِدَّةِ سَوَادِهَا وَصَفَاءِ بَيَاضِهَا وَطَوِيلِ

(١) ذكره المؤلف في كتابه حادي الأرواح وعقب عليه بقوله: تفرد به سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً، ثم ساق هذا الحديث من طريقه وقال: لا يعرف إلا بهذا السند.

أهدابها وسوادها. ووصفهنَّ بأنهنَّ خَيْرَاتُ حسان وهو جمع خَيْرَة، وأصلها خَيْرَة بالتشديد كطَيِّبَة ثم خُفِّف الحرف، وهي التي قد جَمَعَت المحاسن ظاهراً وباطناً فَكَمَّلَ خَلْقَهَا فهنَّ خيرات الأخلاق حسان الوجوه. ووصفهنَّ بالطَّهارة، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] طَهُرْنَ من الحيض والبول والنَّجْوِ^(١) وكلُّ أذى يكون في نساء الدُّنْيَا، طَهُرَتْ بواطنهنَّ من الغيرة وأذى الأزواج وتجنَّهْنَّ عليهم وإرادة غيرهم، ووصفهنَّ بأنهنَّ مَقْصُورَاتُ في الخيام، أي ممنوعاتٌ من التبرُّج والتبذُّل لغير أزواجهنَّ، بل قد قُصِرْنَ على أزواجهنَّ لا يخرجن من منازلهم وقُصِرْنَ عليهم فلا يردن سواهم، ووصفهنَّ سبحانه بأنهنَّ قاصِرَاتُ الطَّرْفِ، وهذه الصفة أكمل من الأولى، ولهذا كنَّ لأهل الجنتين الأوليين، فالمرأةُ منهنَّ قد قَصَرَتْ طَرَفَهَا عَلَى زوجها من محبتها له ورضاها به، فلا يتجاوز طرفها عنه إلى غيره كما قيل:

أَذُودَ سَوَامِ الطَّرْفِ^(٢) عَنْكَ وَمَا لِي عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ طَرِيقٌ
وكذلك حال المقصورات أيضاً لكن أولئك مقصورات، وهؤلاء قاصرات.
ووصفهنَّ سبحانه بقوله: ﴿أَبْكَارًا. عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٧، ٣٨] وذلك لفضل وطءِ البكر وحلاوته ولذاذته عَلَى وَطءِ الثَّيْبِ^(٣). قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله لو مَرَرْتُ بِشَجَرَةٍ قَدْ رُعِيَ مِنْهَا وَشَجَرَةٍ لَمْ يُرْعَ مِنْهَا فِي أَيُّهُمَا كُنْتُ تُزْنَعُ بِعَيْرِكَ؟ فقال: «فِي الثَّيِّ لَمْ يُرْعَ مِنْهَا»^(٤) تعني أنه لم يَتَزَوَّجْ بِكَراً غَيْرَهَا. وصحَّ عنه أنه قال لجابر لما تَزَوَّجَ امرأةً ثَيِّباً: «هَلَّا بِكَراً تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ»^(٥)؟ فإن قيل: فهذه الصفة تزول بأول وطء فتعود ثَيِّباً، قيل الجواب من وجهين: أحدهما أن المقصود من وطءِ البكر أنها لم تَذُقْ أَحَداً قَبْلَ وَطئها فَتَزْنَعُ محبته في قلبها، وذلك أكمل لدوام العشرة فهذه بالنسبة إليها، وأما بالنسبة إلى الواطئ فإنه يَزْعَى روضةً أنفأً لم يَزْعَها أَحَداً قَبْلَهُ، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى

(١) النجو: ما يخرج من البطن من ريع وغازط.

(٢) سوام الطرف: النظر يحوم حولها.

(٣) الثيب: تذكر وتؤنث. والرجل الثيب هو الذي دخل بامرأة، والمرأة الثيب هي التي دخل بها.

(٤) خرجه مسلم وأبو حاتم كما جاء في مناقب أمهات المؤمنين للمحبِّ الطبري. ورتعت البعير: أكلت ما شاءت.

(٥) أخرجه البخاري في البيوع باب ٣٤، والوكالة باب ٨، والجهاد باب ١١٣، والمغازي باب ١٨، والنكاح باب ١٠، و١٢١ و١٢٢، والنفقات باب ١٢، والدعوات باب ٥٣. ومسلم في الرضاع حديث ٥٤ - ٥٦ و ٥٨. وأبو داود في النكاح باب ٣. والنسائي في النكاح باب ١. وابن ماجه في النكاح باب ٧. والدارمي في النكاح باب ٣٢. وأحمد في المسند (٣/٢٩٤، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣١٤، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٦).

بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦ و ٧٤] ثم بعد هذا تستمر له لَذَّةُ الْوُطءِ حَالِ زَوَالِ الْبَكَارَةِ. والثاني أَنَّهُ قَدْ رُوي «أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا وَطِئَ أَحَدُهُمْ امْرَأَةً عَادَتْ بِكَرًّا كَمَا كَانَتْ، فَكُلَّمَا أَتَاهَا وَجَدَهَا بِكَرًّا»^(١). وَأَمَّا الْعُرْبُ فَجَمَعَ عَرُوبٌ، وَهِيَ الَّتِي جَمَعَتْ إِلَى حِلَاوَةِ الصُّورَةِ حَسَنَ التَّائِي وَالتَّبَعْلُ وَالتَّحْبِبُ إِلَى الزَّوْجِ بِدَلَّهَا وَحَدِيثُهَا وَحِلَاوَةُ مَنْطِقِهَا وَحَسَنَ حَرَكَاتِهَا، قَالَ الْبَخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: وَأَمَّا الْأَتْرَابُ فَجَمَعَ تَرْبٌ يُقَالُ: فَلَانٌ تَرْبِي، إِذَا كُنْتُمْ فِي سَنٍ وَاحِدٍ، فَهِنَّ مُسْتَوِيَّاتٌ فِي سَنِّ الشَّبَابِ لَمْ يَقْصُرْ بِهِنَّ الصَّغَرُ، وَلَمْ يُزِرْ بِهِنَّ الْكِبَرُ، بَلْ سَتِهْنَ سَنُّ الشَّبَابِ. وَشَبِهْنَ تَعَالَى بِاللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، وَبِالْبَيْضِ الْمَكْنُونِ وَبِالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ. فَخَذَ مِنَ اللَّؤْلُؤِ صِفَاءَ لَوْنِهِ وَحَسَنَ بَيَاضِهِ وَنَعُومَةَ مَلَمَسِهِ، وَخَذَ مِنَ الْبَيْضِ الْمَكُونُونَ وَهُوَ الْمَصُونُ الَّذِي لَمْ تَنْلُهُ الْأَيْدِي اعْتِدَالَ بَيَاضِهِ وَشَوْبَهُ بِمَا يُحَسِّنُهُ مِنْ قَلِيلِ صُفْرَةٍ، بِخِلَافِ الْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ^(٢) الْمَتَجَاوِزِ فِي الْبَيَاضِ، وَخَذَ مِنَ الْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ حَسَنَ لَوْنِهِ فِي صِفَائِهِ وَإِشْرَابِهِ بِبَسِيرٍ مِنَ الْحُمْرَةِ.

فصل: فَاسْمِعِ الْآنَ وَصِفْهُنَّ عَنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ، فَإِنْ مَالَتْ النَفْسُ وَحَدَّثَتْكَ بِالْخِطْبَةِ وَإِلَّا فَالْإِيمَانُ مَدْخُولٌ^(٣). فَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: إِمَّا تَفَاخَرُوا وَإِمَّا تَذَاكُرُوا، الرِّجَالُ فِي الْجَنَّةِ أَكْثَرُ أَمْ النِّسَاءُ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَوْ لَمْ يَقُلْ أَبُو الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالتِّي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَاءِ كَوْكَبِ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرَى مِثْلُ سَوْفِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعَزَبُ».

وَقَالَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الْحُلَوَانِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْقَسَوِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ: حَدَّثَنَا فَضْلُ بْنُ مَرْزُوقٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ صُورَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالزُّمَرَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى أَحْسَنِ كَوْكَبِ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حَلَّةً يُرَى مِثْلُ سَوْفِهِمَا مِنْ وَرَاءِ لُحُومِهِمَا وَحُلَلِهِمَا كَمَا يُرَى الشَّرَابُ الْأَحْمَرُ فِي الرَّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ». قَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَدِّسِيُّ: هَذَا عِنْدِي عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلْجُ الْجَنَّةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا

(١) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ مَعْجَمُهُ وَسَيَأْتِي قَرِيبًا.

(٢) الْأَمْهَقُ: الْأَبْيَضُ النَّاصِعُ الْبَيَاضَ بَغِيرَ حُمْرَةٍ، وَهُوَ مُعِيبٌ فِي لَوْنِ الْإِنْسَانِ.

(٣) مَدْخُولٌ: دَاخِلُهُ الْفَسَادُ.

وَلَا يَمْتَخِطُونَ فِيهَا وَلَا يَتَغَوِّطُونَ فِيهَا، آيِبُهُمْ وَأَمْسَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَمَجَامِرُهُمُ
الْأَلْوَةُ^(١) وَرَشَحُهُمُ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَوْحَتَانِ يَرَى مِخْ سَاقِيَهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ
الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ؛ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِكُرَّةٍ
وَعَشِيَّةٍ.

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا الْخَزْرَجِيُّ بْنُ
عُثْمَانَ السَّعْدِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَيُّوبَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَبْدُ سَوَاطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا
مَعَهَا، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا. وَلَنْصِيفُ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ
خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا» قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَمَا النَّصِيفُ؟ قَالَ: الْخِمَارُ فَإِذَا كَانَ
هَذَا قَدْرُ الْخِمَارِ فَمَا قَدْرُ لَابِسِهِ؟

وقال ابن وهب: أَخْبَرَنَا عُمَرُو بْنُ دَرَّاجٍ أَنَّ السَّمْعَ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ عَنْ أَبِي
سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ فِي الْجَنَّةِ لَتَأْتِيهِ امْرَأَةٌ
تَضْرِبُ عَلَى مَنْكِبِهِ فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي خَدِّهَا أَصْفَى مِنَ الْمَرْأَةِ وَإِنَّ أَذْنِي لَوْلُؤَةٍ [عَلَيْهَا] لَتَضِيءُ
مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ فَيَرُدُّ [عَلَيْهَا] السَّلَامَ وَتَسْأَلُهَا مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ أَنَا
الْمَزِيدُ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا أَذْنَاهَا مِثْلُ النُّعْمَانِ فَيَنْقُذُهَا بِصَرِّهِ حَتَّى يَرَى مِخْ
سَاقِيَهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ وَإِنَّ عَلَيْهِمُ التَّيَجَانَ وَإِنَّ أَذْنِي لَوْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتَضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ». وبعض هذا الحديث في جامع الترمذي وهو على شرطه.

وفي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لِلْعُدْوَةِ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَابٌ^(٢) قَوْسٍ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعٌ قِيدِهِ - يَعْنِي
سَوَاطِ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَطْلَعَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْ مَا
بَيْنَهُمَا رِيحًا وَأَضَاءً مَا بَيْنَهُمَا وَلَنْصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٣).

وفي المسند من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي

(١) الألوة: العود الهندي الذي يتبخر به. قال الأصمعي: أراها فارسية عربية.

(٢) قاب القوس: ما بين مقبضه وطرفه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٥ و ٦ و ٧٣، والرقاق باب ٢ و ٥١. ومسلم في الإمامة حديث

١١٢ - ١١٥. والترمذي في فضائل الجهاد باب ١٧ و ٢٦. والنسائي في الجهاد باب ١١ و ١٢.

والدارمي في الجهاد باب ٩. وأحمد في المسند (١/٢٥٦)، و ٢/٥٣٢، و ٥٣٣، و ١٣٢/١، و ١٤١،

١٥٣، ٢٠٧، ٢٦٣، ٢٦٤، ٤٢٣، و ١٦٨/٤، و ٢٦٦/٥، و ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٩، ٤٢٢

و ٤٠١/٦).

ﷺ: «لِلرَّجُلِ مِنْ [أَهْلِ] الْجَنَّةِ زَوْجَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مَحْ سَاقِيهَا مِنْ وَرَاءِ الثَّيَابِ»^(١).

وقال ابن وهب: حَدَّثَنَا عَمْرُو أَنَّ دَرَّاجاً أَبَا السَّمْحِ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنْ أَذْنِي أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنَزَلَةٌ لِّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ وَاثْنَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لَوْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَأْقُوتٍ كَمَا بَيْنَ الْجَبَابِيَةِ وَصَنْعَاءَ» (رواه الترمذي)^(٢).

وفي معجم الطبراني من حديث أبي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خُلِقَ الْحُورُ الْعِينُ مِنَ الزَّعْفَرَانِ»^(٣).

فصل: فَإِنْ أُرِدْتَ سَمَاعَ غَنَائِهِمْ فَاسْمَعْ خَبْرَهُ الْآنَ. ففي معجم الطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغْنَيْنَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ مَا سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ. إِنَّ مِمَّا يُغْنَيْنَ بِهِ: نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحِسَانُ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كِرَامٍ، يَنْظُرُونَ بِقُرَّةِ أَعْيَانٍ. وَإِنَّ مِمَّا يُغْنَيْنَ بِهِ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُتُّنَّ، نَحْنُ الْأَمَنَاتُ فَلَا نَخَفُنَّ، نَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلَا نَنْظَعُنَّ». وقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] إنه السماع ولا ريب أنه من الْحَبْرَةِ.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، أَنبَأَنَا زَهِيرٌ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا وَجَدُوا عَنْده شَجَرَةً يُخْرِجُ مِنْ تَحْتِ سَاقِهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ، فَعَمَدُوا إِلَى إِحْدَاهُمَا فَكَانَمَا أُمْرُوا بِهِ فَشَرَبُوا مِنْهَا فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ قَذَى أَوْ أَدَى أَوْ بَأْسٍ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى الْأُخْرَى فَتَطَهَّرُوا مِنْهَا فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النِّعَمِ، وَلَمْ تَتَغَيَّرْ أَشْعَارُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا وَلَمْ تَشَعَثْ^(٤) رُؤُوسُهُمْ كَانَمَا ادَّهَنُوا بِالْدهَانِ، ثُمَّ انْتَهَوْا إِلَى [خَزَنَةٍ]^(٥) الْجَنَّةِ فَقَالُوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ثُمَّ تَلَقَّاهُمْ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٣٠، ٢٤٧، ٣١٦، ٣٤٥، ٣٨٥، ٤٢٠، ٤٢٢، ٥٠٧). والترمذي

في القيامة باب ٦٠، وصفة الجنة باب ٥ و ٧. والدارمي في الرقاق باب ١٠٨.

(٢) في صفة الجنة باب ٢٣. ورواه أيضاً الإمام أحمد في المسند (٣/ ٧٦).

(٣) ذكره المؤلف في كتابه حادي الأرواح بسند الطبراني وقال: قال الطبراني: لا يروى إلا بهذا الإسناد، تفرد به علي بن الحسن بن هارون ثم ذكره من طرق أخرى موقوفة وقال: ولا يصح رفع الحديث وحسبه أن يصل إلى ابن عباس.

(٤) تشعث: تغبر أو تتشعر.

(٥) زيادة من الزواجر لابن حجر.

الولدان يُطِفون بهم كما يُطيف ولدان أهل الدُّنْيَا بالحميم يَفْدَم عليهم من غيبته فيقولون له: أبشر بما أَعَدَّ اللهُ تعالى لك من الكرامة، ثم ينطلق غلامٌ من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحُور العِين فيقول: جاء فلان باسمه الذي كان يُدعى به في الدُّنْيَا قالت: أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته وهو بأثري فيستخف إحداهنَّ الفرح حتى تقوم على أُسْكُفَّة^(١) بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جُنْدَلٌ^(٢) اللؤلؤ فوقه صرَّح أخضر وأحمر وأصفر من كل لون، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله عز وجل قَدَره لَأَلَمَ^(٣) أن يذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة، ونمارقُ^(٤) مصفوفة، وزرابيُ^(٥) مبلوثة، ثم اتكأوا فقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ثم ينادي منادٍ: تحيَّوْنَ فلا تموتون أبداً، وتقيمون فلا تظعنون أبداً، وتصحَّون فلا تمرضون أبداً^(٦).

وفي سنن ابن ماجة عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا هَلْ مُشْمَرٌ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُوْرٌ يَتَلَأَلُ وَرِيحَانَةٌ تَهْتَرُ وَقَصْرٌ مُشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَرَّدٌ وَنَمْرَةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءُ جَمِيلَةٌ وَحُلُلٌ كَثِيرَةٌ وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ وَفَاكِهَةٌ وَخَضِرَةٌ وَحَبْرَةٌ وَنِعْمَةٌ فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بِهَيْئَةٍ». قالوا: نعم يا رسول الله، نحنُ المُشْمَرُونَ لَهَا، قال: «قولوا إن شاء الله». فقال القوم: إن شاء الله تعالى^(٧).

فصل: فهذا وصفهنَّ وحسنهنَّ فاسمع الآن لذة وصالهنَّ وشأنه، ففي مسند أبي يعلى الموصلي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فذكر حديثاً طويلاً وفيه: «فأقولُ يا ربَّ وعدتني الشَّفَاعَةَ فَشَفَّعْتَنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فيقول الله تعالى قد شَفَّعْتُكَ وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ». وكان رسول الله ﷺ يقول: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَزْوَاجِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ فَيَدْخُلُ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِمَّا يُنْشِئُ اللهُ وَثِنْتَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ لَهُمَا فَضْلٌ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ اللهُ بَعَادَتَهُمَا اللهُ فِي الدُّنْيَا يَدْخُلُ عَلَى الْأُولَى مِنْهُمَا فِي غُرْفَةٍ مِنْ يَأْقُوْتَةٍ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِاللُّؤْلُؤِ عَلَيْهِ سَبْعُونَ زَوْجاً مِنْ سُتْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَإِنَّهُ لَيَضَعُ

(١) الأسكفة: عتبة الباب.

(٢) الجندل: الصخر العظيم.

(٣) ألم: أوشك أن يذهب بصره.

(٤) النمارق: تجمع نمركة: الوسائد الصغيرة.

(٥) الزرابي: جمع زريبة: الطنافس المخملية والبسط.

(٦) أورده ابن حجر في الزواجر، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

(٧) أخرجه ابن ماجة في الزهد باب ٣٩.

يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى يَدِهِ مِنْ صَدْرِهَا وَمِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهَا وَجِلْدِهَا وَلَحْمِهَا وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ أَحَدُكُمْ إِلَى السَّلَكِ فِي قَصَبَةِ الْيَاقُوتِ كِبِدُهُ لَهَا مِرَّةً - يَعْنِي وَكِبْدُهَا لَهُ مِرَّةً - فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهَا لَا يَمْلُهَا وَلَا تَمْلُهُ وَلَا يَأْتِيهَا مِنْ مِرَّةٍ إِلَّا وَجَدَهَا عَذْرَاءً. مَا يَقْتَرُ ذَكَرُهُ وَلَا يَسْتَكِي قُبْلَهَا. فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ نُودِيَ إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّكَ لَا تَمَلُّ وَلَا تُمَلُّ إِلَّا أَنَّهُ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكَ أَزْوَاجٌ غَيْرُهَا فَيَخْرُجُ فَيَأْتِيَهُنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا جَاءَ وَاحِدَةً قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ أَحْسَنُ مِنْكَ وَمَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ». وهذا قطعة من حديث الصور الطويل الذي رواه إسماعيل بن رافع^(١).

وفي صحيح مسلم^(٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُوْنَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا». رواه البخاري^(٣) وقال: ثلاثون ميلاً.

وفي جامع الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةٌ كَذَا وَكَذَا مِنَ النَّسَاءِ» قلت: يا رسول الله وَيُطِيقُ ذَلِكَ؟ قال: «يُعْطَى قُوَّةٌ مِائَةٌ» قال: هذا حديث صحيح غريب^(٤).

وفي معجم الطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله هل نَصِلُ إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ فقال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءٍ» وفي لَفْظٍ: قلنا يا رسول الله نُفْضِي إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ فقال «إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْضِي فِي الْغَدَاةِ الْوَاحِدَةِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءٍ». قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: ورجالٌ هذا الحديث عندي على شرط الصحيح.

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث في كتابه حادي الأرواح وقال: تفرد به إسماعيل بن رافع وقد روى له الترمذي وابن ماجه وضعفه أحمد ويحيى وجماعة. وقال الدارقطني وغيره: متروك الحديث، وقال ابن عدي: عامة أحاديثه فيها نظر وقال الترمذي: ضعفه بعض أهل العلم وسمعت محمداً - يعني البخاري - يقول: هو ثقة مقارب الحديث. وقال لي شيخنا أبو الحجاج الحافظ: هذا الحديث مجموع من عدة أحاديث ساقه إسماعيل أو غيره هذه السياقة وما تضمنه معروف في الأحاديث والله أعلم. وذكر قطعة منه في موضع آخر من الكتاب وعقب عليها بهذا وزاد قوله: قلت: ولكن إذا روى مثل هذا ما يخالف الأحاديث الصحيحة لم يلتفت إلى روايته. وأيضاً فالرجل الذي روى عنه القرظي لا يدرى من هو.

(٢) كتاب صفة الجنة، حديث ٢٣ - ٢٥.

(٣) في تفسير سورة ٥٥ باب ٢، وبدء الخلق باب ٨. ورواه أيضاً الترمذي في صفة الجنة باب ٣، والدارمي في الرقاق باب ١٠٩.

(٤) أخرجه الترمذي في صفة الجنة باب ٦.

وفي حديث لقيط العقيلي الطويل الذي رواه الطبراني وعبد الله بن أحمد في السنة وغيرهما أنه قال: قلت يا رسول الله: أَوْ لَنَا فِيهَا أَزْوَاجٌ مُصْلِحَاتٌ؟ قال: «الصَّالِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ تَلْدُونَهُنَّ مِثْلَ لَدَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَلْدُونَكُمْ غَيْرَ أَنْ لَا تَوَالِدَ».

وذكر ابن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن عبد الرحمن بن حُجْبِرَة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أَنْطَأُ فِي الْجَنَّةِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ دَحْمًا دَحْمًا^(١)، فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بِكْرًا». قال الحافظ أبو عبد الله: دَرَّاجُ اسْمُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمْعَانَ الْمَصْرِي، وَثَقَّةٌ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ؛ وَأَخْرَجَ عَنْهُ أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ وَكَانَ بَعْضُ الْأَثَمَةِ يَنْكُرُ بَعْضَ حَدِيثِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي معجم الطبراني من حديث أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عُدْنَ أَبْكَارًا».

وفيه أيضاً من حديث أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ سُئِلَ: هَلْ يَتَنَاحَى أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ فقال: «بِذِكْرِ لَا يَمَلُّ وَشَهْوَةٍ لَا تَنْقُطُ دَحْمًا دَحْمًا».

وفيه أيضاً عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ: أَيَجَامِعُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ قال: «دَحْمًا دَحْمًا وَلَكِنْ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةً».

من قصيدة للمؤلف في وصف الحور^(٢)

يا خاطِبَ الحور الحسنان وطالباً	لوصالهنَّ بجنة الحَيَوَانِ
لو كنت تدري من خطبت ومن طلب	ت بذلت ما تحوي من الأثمان
أو كنتَ تعرف أين مسكنها جعل	ت السعي منك لها على الأجفان
أسرع وحُثَّ السيرُ جُهدك إنما	مسراك هذا ساعةً لزمان
فاعشق وحدث بالوصال النفسَ واب	لذلَّ مهرها ما دمت ذا إمكان
واجعل صيامك دون لقيائها ويو	م الوصل يومَ الفطر من رمضان
واجعل نعتَ جمالها الحادي وسر	نحو الحبيب ولستَ بالمتواني
واسمع إذن أوصافها ووصالها	واجعل حديثك ربَّةَ الإحسان
يا من يطوف بكعبة الحسن التي	حُفَّتْ بِذَاكَ الحجر والأركان
ويَظَلُّ يسعى دائماً حول الصفا	ومُحَسَّر مسعاه كلَّ أوان
ويرومُ قُربان الوصال على منى	والخيفُ يحجبه عن القُربان

(١) جاء في القاموس المحيط: دحمة دحماً: دفعه دفعاً شديداً. والمرأة: نكحها؛ والدحم: الأصل.

(٢) هي قطعة من قصيدة المؤلف في السنة سماها: «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية».

فلذا تراه مُخْرِماً أَبَداً ومو
يبغي التَّمَتُّعَ مفرداً عن حبه
وسيطَّلَ بِالْجَمَرَاتِ يرمي قلبه
والناس قد قَضَوْا مناسكهم وقد
وَحَدَّتْ بهم همُّهم وعزائمُ
رفعت لهم في السير أعلامُ الوصا
ورَأَوْا عَلَى بُعْدِ خِيَاماً مُشْرِفاً
فَتَيَمَّمُوا تلكَ الخيامَ فآنسوا
من قاصراتِ الطرفِ لا تبغي سوى
قَصَرَتْ عليه طَرْفُهَا من حسنه
ويحار منه الطرف في الحسن الذي
ويقول لما أن يشاهدَ حُسْنَهَا
والطرف يشرب من كؤوس جمالها
كُمِلَتْ خلائقُهَا وأُكْمِلَ حُسْنُهَا

ضَحُّ حَلَّةٍ مِنْهُ فليس بـدان
متجرّداً يبغي شفيعَ قِران
هذي مناسكه بكل زمان
حشوا ركائبهم إلى الأوطان
نحو المنازل رِيَّةَ الإحسان
ل فشمَّروا يا خِيَّةَ الكسلان
تِ مشرقَاتِ النور والبرهان
فيهِنَّ أَقْمَاراً بلا نقصان
محبوبها من سائر الشبان
وَالطَّرْفُ مِنْهُ مُطْلَقٌ بِأَمَان
قد أُعْطِيتِ فالطرفُ كالحيران
سبحان معطي الحسن والإحسان
فتراه مثل الشارب النشوان
كالبدر ليلَ الست بعد ثمان

والشمسُ تجري في محاسن وجهها
فَيَطْلُ يعجب وهو موضعُ ذاك من
ويقول سبحانه الذي ذا صنْعُهُ
لا الليل يُدرك شمسها فتغيب عند
والشمسُ لا تأتي بطرد الليل بل
وكلاهما مرآةٌ صاحبه إذا
فيرى محاسنَ وجهه في وجهها
حُمِرَ الخدودُ ثغورُهنَ لآلِيءُ
والبرقُ يبدو حين يَسِسُ ثغرها
ريانة الأعطاف من ماء الشبا
لما جرى ماء النعيم بغصنها
فالورد والثَّقاح والرُّمَّان في
والقد منها كالقضيبي اللذن في
في مَغْرَسٍ كالعاج تحسب أنه

والليلُ تحت ذوائب الأغصان
ليل وشمس كيف يجتمعان
سبحان متقن صنعة الإنسان
مد مجيئه حتى الصباح الثاني
يتصاحبان كلاهما أخوان
ما شاء يُبصر وجهه يَرَيَان
وترى محاسنَهَا به بعيان
سود العيون فواتر الأجفان
فيضيءُ سقف القصر بالجدران
ب فغصنُها بالماء ذو جَرَيَان
حمل الثمارَ كثيرة الألوان
غصنٍ تعالي غارسُ البستان
حسن القوام كأوسط القضبان
عالي النقا^(١) أو واحدُ الكُثبان

(١) النقا: الكتيب من الرمل.

لا الظهر يلحقه وليس ثديها
لكنهنَّ كواعبٌ ونواهدٌ
والجيد ذو طولٍ وحسنٍ في بيا
يشكو الخُلْيُ بعاده فله مدى الـ
والمِعْصَمَانِ فَإِنْ تَشَأْ شَبَّهَمَا
كالزبد ليناً في نعومة مَلَمَسٍ
والصدر متسعٌ على بطنٍ لها
وعليه أحسن سُرةٍ هي زينةٌ
حُقُّ من العاج استدار وحشوه
وإذا نزلت رأيت أماً هائلاً
لا الحيض يغشاه ولا بولٌ ولا
فخذان قد حُفَا به حرساً له
قاما بخدمته هو السلطان يـ
وهو المطاع إذا هو استدعى الحية
وجماؤها فهو الشفاء لصبها
وإذا أتاه عادت الحسناء بك
وهو الشهي ألد شيء هكذا
يا رب غفراً قد طغت أقلامنا
أقدامها من فضةٍ قد رُكِبَتْ
والساق مثلُ العاج ملمومٌ به
والريحُ منك والجسومُ نواعمُ
وكلامها يسبي العقول بنغمةٍ
وهي العُروبُ بشكلها وبدلها
أثرابٌ سنٌّ واحدٍ متمائلٍ
بكرٍ فلم يأخذ بكارتها سوى الـ
مُعْطِي المُجَامِعُ قُوَّةَ المائة التي اجـ
ولقد أتانا أنه يغشى يـ
ورجاله شرط الصحيح رَوْزاً لهم

بلواحقٍ للبطن أو بدوان
فُثِدِيهِنَّ كَأَحْسَنِ الرُّمَانِ
ضٍ واعتدال ليس ذا نكران
أيامٍ وسواسٍ من الهجران
بسيكتين عليهما كَفَّان
أَصْدَافٌ دُرٌّ دُورَتِ بِوِزَانٍ
والخصرُ منها مغرمٌ بثمان
للبطن قد غارت من الأعكان^(١)
حَبَّاتٌ مسكٍ جِلٌّ ذو الإِتْقَانِ
ما للصفات عليه من سلطان
شيءٌ من الآفات في النسوان
فجنابُه في عِزَّةٍ وصِيَانٍ
نهما وحقُّ طاعةُ السلطان
بِأَتَاهُ طَوْعاً وهو غيرُ جبان
فالصَّبُّ منه ليس بالضَّجْرَانِ
رأى مثلَ ما كانت مدى الأزمان
قال الرسولُ لمن له أذنان
يا ربَّ معذرةٍ من الطغيان
من فوقها ساقان ملتفان
مُخَّ العظام تناله العينان
واللونُ كالياقوت والمَرْجَانِ
زادت على الأوتار والعِيدَانِ
وتجُوبُ للزوج كل أوان
سَنُّ الشَّبابِ لأجمل الشَّبَّانِ
محبوب من إنسٍ ولا من جان
تمعت لأقوى وأحد الإنسان
م واحدٍ مائةً من النسوان
فيه وذا في معجم الطبراني

(١) جمع عكنة: الطي الذي في البطن من السمن.

وبذلك فُسر شغلهم في سورة

من بعد فاطر^(١) يا أخا العرفان

هذا دليل أن قدر نسايتهم
وبه يزول توهم الإشكال عن
في بعضها مائة أتى وأتى بها
فتفاوتت الزوجات مثل تفاوت الـ
وبقوة المائة التي حصلت له
وأعفهم في هذه الدنيا هو الـ
فاجمع قواك لما هنا وغض منـ
ما هنا والله ما يسوى فلا
ونصيفها خير من الدنيا وما
لا تؤثر الأدنى على الأعلى فإن
وإذا بدت في حلة من لبسها
تهتز كالغصن الرطيب وحمله
وتبخترت في مشيها ويحق ذا
ووصائف من حلفها وأمامها
كالبدل ليلة تمه قد حفت في
فلسائنه وفؤاده والطرف في
تستنطق الأفواه بالتسبيح إذ
والقلب قبل زفافها في عرسه
حتى إذا واجهته تقابلا
فسل المتيّم هل يحلّ الصبر عن
وسل المتيّم أين خلف صبره
وسل المتيّم كيف حالته وقد
من منطق رقت حواشيه ووجـ

متفاوتت بتفاوت الإيمان
تلك النصوص بمنة الرحمن
سبعون أيضاً ثم جائتتان
سدرجات فالأمران مختلفان
أفضى إلى مائة بلا خوران
أقوى هناك لزهد في الفاني
ك الطرف واصبر ساعة لزمان
مة ظفر^(٢) واحدة من الشوان
فيها إذا كانت من الأثمان
تفعل رجعت بذلة وهوان
وتمايلت كتمايل الشوان
ورد وتفايح على رمان
ك لمثلها في جنة الرضوان
وعلى شمائلها وعن أيمن
غسق الدجى بكواكب الميزان^(٣)
دهش وإعجاب وفي سبحان
تبدو فسبحان العظيم الشان
والعرس إثر العرس متصلان
أرايت إذ يتقابل القمران
ضم وتقييل وعن فلتان
في أي وإد أم بأي مكان
ملئت له الأذنان والعينان
ه كم به للشمس من جريان

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة يس: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ فقد فسر كثير من

السلف الشغل في هذه الآية باقتضاض الأبقار.

(٢) قلامة الظفر: ما سقط منه.

(٣) الغسق: أول ظلمة الليل. والدجى: الظلمة.

وسل المتيم كيف عيشته إذا
يتساقطان لآلئاً مثورة
وسل المتيم كيف مجلسه مع آل
وتدور كاسات الرحيق عليهما
يتنازعان الكأس هذا مرة
فيضمهما وتضمه أرايت مع
غاب الرقيب وغاب كل منكد
أتراهما ضجرين من ذا العيش لا

يا عاشقاً هانت عليه نفسه
أترى يليق بعافل بيع الذي

وهما على فرشيتهما خلوان
من بين منظوم كنظم جمان^(١)
محبوب في روح وفي ريحان^(٢)
بأكف أقمار من الولدان
والخود أخرى ثم يتكئان
شوقين بعد البعد يلتقيان
وهما بثوب الوصل مشتملان
وحياة ربك ما هما ضجران

إذ باعها غناً بكل هوان
يبقى - وهذا وصفه - بالفاني

(١) جمع جمانة: حبة تعمل من القصة كالدرة.
(٢) روح وريحان: في راحة وترحم (رحمة).

في علامات المحبة وشواهدا

وقبل الخوض في ذلك لا بدّ من ذكر أقسام النفوس ومحابها فنقول: النفوس ثلاثة: نفس سماوية علوية، فمحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان وأجتنب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى، وذلك قوتها وغذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو دواؤها.

ونفس سبعية غضبية، فمحبتها منصرفة إلى القهر والبغي والعلو في الأرض والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك وشغفها به.

ونفس حيوانية شهوانية، فمحبتها منصرفة إلى المأكّل والمشرب والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أْبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وقال في آخر السورة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، والحب في هذا العالم دائر بين هذه النفوس الثلاثة، فأبى نفس منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته ومالت إليه ولم تصغ فيه لعادل ولم تأخذها فيه لومة لائم. وكل قسم من هذه الأقسام يرون أن ما هم فيه أولى بالإيثار، وأن الاشتغال بغيره والإقبال على سواه غبن وفوات حظ. فالنفس السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلى مناسبة طبعية بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم.

فالملائكة أولياء هذا النوع في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ. نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زَلَّ، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله. فهو أنيسه في الوحدة، ووليئه ومعلمه ومثبته ومسكن جأشه، ومرغبه في الخير، ومحذره من الشر، يستغفر له إن أَسَاء، ويدعو له بالثبات إن أَحْسَن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره^(١)، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه.

فصل: والشياطين أولياء النوع الثاني يخرجونهم من النور إلى الظلمات. قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ [النحل: ٦٣] وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا. يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا. أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٨ - ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فهذا النوع بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبة طبيعية، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم، فالشياطين تتولاهاهم بضد ما تتولى الملائكة لمن ناسبهم، فتؤزهم إلى المعاصي أزا وترعجهم إليها ازعاجاً لا يستقرون معه ويزينون لهم القبايح ويخففونها على قلوبهم ويحلونها في نفوسهم، ويثقلون عليها الطاعات ويثبطونهم^(٢) عنها ويقبضونها في أعينهم، ويلقون على ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام وما لا يفيد، ويزينونه في أسماع من يسمعه منهم، يبيتون معهم حيث باتوا، ويقولون^(٣) معهم حيث قالوا، ويشاركونهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم، يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويجامعون معهم، وينامون معهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٧] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ

(١) الشعار: ما تحت الدثار من اللباس وهو ما يلي الجسد. وشعائر الحج مناسكه وعلاماته.

(٢) ثبطه عن الأمر ثبطاً وتثيلاً: عوقه وبطأ به عنه؛ وفسره الجوهري بشغله عنه. ومنه قوله تعالى: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾.

(٣) قال يقلل قليلاً وقيلولة: نام واستراح وقت القيلولة وهي نصف النهار.

لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿[الزخرف: ٣٦ - ٣٨].

فصل: وأما النوع الثالث فهم أشباه الحيوان، ونفوسهم أرضية سفلية لا تبالي بغير شهواتها ولا تريد سواها.

إذا عرفت هذه المقدمة فعلايات المحبة قائمة في كل نوع بحسب محبوبة ومراده، فمن تلك العلامات تعرف من أي هذه الأقسام هو، فنذكر فصولاً من علامات المحبة التي يُسْتَدَلُّ بها عليها:

فمنها: إدمان النظر إلى الشيء وإقبال العين عليه، فإن العين باب القلب وهي المعبرة عن ضمائره والكاشفة لأسراره. وهي أبلغ في ذلك من اللسان، لأن دلالتها حالية بغير اختيار صاحبها، ودلالة اللسان لفظية تابعة لقصد، فترى ناظر المحب يدور مع محبوبة كيف ما دار، ويجول معه في النواحي والأقطار كما قال:

أَذُودُ سَوَامِ الطَّرْفِ عَنْكَ وَمَا لِي عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ طَرِيقُ

بل المحب في عين المحبوب تمثاله، كما في قلبه شخصه كما قيل:

وَمَنْ عَجِبَ أَنِّي أَحْبَبْتُ إِلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مِنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي
فالمحب نظره وقف على محبوبة كما قال:

إِنْ يَحْبِبُوهَا عَنِ الْعَيُونِ فَقَدْ حَبَبَتْ عَيْنِي لَهَا عَنِ الْبَشَرِ

فصل: ومنها: إغضاؤه عند نظر محبوبة إليه ورميه بطرفه نحو الأرض، وذلك من

مهابته له، وحيائه منه وعظمته في صدره، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يُحَدِّثُ^(١) النظر إليهم، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض. قال الله تعالى مخبراً عن كمال أدب رسول الله في ليلة الإسراء: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزعج يميناً ولا شمالاً، ولا طَمَحَ متجاوزاً إلى ما هو رائيته ومقبل عليه كالمُتَشَارَفِ^(٢) إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتدَّ نهْيُ النَّبِيِّ ﷺ للمصلي أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعدهم على ذلك بخطف أبصارهم، إذ هذا من كمال الأدب مع مَنْ المصلي واقف بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرأس مطرقاً إلى الأرض، ولولا أن

(١) أحد النظر إليه: نظر متأملاً.

(٢) المتشارف: المتطلع.

عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه ، لم يكن فرق بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل .

فصل : ومنها : كثرة ذكر المحبوب واللَّهَجُ ^(١) بذكره وحديثه ، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه . ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال ، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبا بهم وقت المخاوف ومُلاقاة الأعداء كما قال قائلهم :

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيئُ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَلْتُ مَنَا الْمُثَقَّفَةُ السُّمُرُ ^(٢)
وقال آخر :

ولقد ذكرتكَ والرِّمَاحُ كأنها أشطان بثرٍ في لَبَانِ الأدهم ^(٣)
فَوَدِدْتُ تَقْيِيلَ السِّيفِ لَأَنْهَا بَرَقَتْ كِبَارِقُ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ
وفي بعض الآثار الإلهية : إن عبيد الذي يذكرني وهو مُلاقٍ قِرْنَه . فعلامة المحبة الصادقة ذكْرُ المحبوب عند الرَّغْبِ والرَّهَبِ . وقال بعض المحبين في محبوه :

يَذْكُرُنِيكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالَّذِي أَخَافُ وَأَرْجُو وَالَّذِي أَتَوَقَّعُ
ومن الذكر الدالّ على صدق المحبة سبق ذكر المحبوب إلى قلب المحبّ ولسانه عند أول يقظة من منامه ، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه كما قال قائلهم :

آخر شيء أنْتَ في كُلِّ هَجَعَةٍ وأوّل شيء أنْتَ وقتَ هُبُوبِي ^(٤)
وذكر المحبوب لا يكون عن نسيان مستحكم فإن ذكره بالقوّة في نفس المحبّ ، ولكن لضيق المحل به يرد عليه ما يُغيب ذكره ، فإذا زال الوارد عاد الذكر كما كان ، وأعلى أنواع ذكر الحبيب أن يحبس المحبّ لسانه على ذكره ، ثم يحبس قلبه على لسانه ، ثم يحبس قلبه ولسانه على شهود مذكوره . وكما أن الذكر من نتائج الحبّ فالحبّ أيضاً

(١) اللهج بالشياء : الولوع به . ولهج به : أغري به فثابر عليه .

(٢) الخطي : الرماح ، والثقاف : ما تسوى به الرماح .

(٣) في رواية أخرى :

... والرمح نواهل مني ويبض الهند تقطر من دمي

والشطن : الجبل الطويل يستقى به من البشر أو تشد به الدابة . واللبان : ما جرى عليه اللبب من الصدر ، وموضع القلادة .

(٤) الهجعة : نومه خفيفة من أول الليل . وهجع : نام ليلاً . والهبوب : الاستيقاظ والانتباه . وهب الرجل من نومه : انتبه واستيقظ .

من نتائج الذكر، فكلُّ منهما يثمر الآخر، وزرعُ المحبة إنما يُسقى بماء الذكر، وأفضل الذكر ما صدر عن المحبة.

فصل: ومن علاماتها الانقيادُ لأمر المحبوب وإيثاره على مراد المحب، بل يتحد مرادُ المحب والمحبوب. وهذا هو الاتحاد الصحيح لا الاتحاد الذي يقوله إخوان النصارى من الملاحدة، فلا اتحاد إلا في المراد، وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة بحيث يكون مراد الحبيب والمحب واحداً، فليس بمحبٍّ صادقٍ من له إرادةٌ تخالف مراد محبوبه منه، بل هذا مريدٌ من محبوبه لا مريدٌ له، وإن كان مريداً له فليس مريداً لمراده. فالمحبُّون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب. وهذا أعلى أقسام المحبِّين. وزهدُ هذا أعلى أنواع الزهد، فإنه قد زهد في كل إرادة تخالف مراد محبوبه، وبين هذا وبين الزهد في الدنيا أعظم مما بين السماء والأرض. فالزهد خمسة أقسام: زهدٌ في الدنيا، وزهدٌ في النفس، وزهدٌ في الجاه والرئاسة، وزهدٌ فيما سوى المحبوب، وزهدٌ في كلِّ إرادةٍ تخالف مراد المحبوب. وهذا إنما يحصلُ بكمال المتابعة للرسول الحبيب.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له، وكونُ العبد محبوباً لله أعلى من كونه محباً لله، فليس الشأن أن تحبَّ الله ولكن الشأن أن يحبَّك الله. فالطاعةُ للمحبوب عنوانُ محبته كما قيل:

تَعْصِي الإِلهِ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ إِنْ الْمَحَبَّةَ لَمَنْ يَحِبُّ مَطِيعُ

فصل: ومن علاماتها قلة صبر المحب عن المحبوب، بل ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر على أحكامه، فهذا صبر المحب، وأما الصبرُ عنه فصبر الفارغ عن محبته المشغول بغيره، قال:

وَالصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا وَعَنِ الْحَبِيبِ فَإِنَّهُ لَا يُحْمَدُ

فمن صبر عن محبوبه أدَّى به صبره إلى فوات مطلوبه. وقال بعض المحبِّين:

مَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ وَأَمَّا عَلَى أَنْ لَا أَرَى وَجْهَكَ يَوْمَاً فَلَا
لَوْ أَنَّ يَوْمَاً مِنْكَ أَوْ سَاعَةً تَبَاعَ بِالدُّنْيَا إِذَا مَا غَلَا

فصل: ومنها: الإقبال على حديثه وإلقاء سمعه كله إليه، بحيث يفرغ لحديثه سمعه

وقلبه، وإن ظهر منه إقبالٌ على غيره فهو إقبالٌ مستعارٌ يستبين فيه التكلف لمن يَرُمُّه كما قال:

وأديم لَحْظَ محدَّقِي ليري أن قد فهمت وعندكم عقلي
فإن أعوزه حديثه بنفسه فأحبُّ شيء إليه الحديثُ عنه، ولا سيما إذا حدث عنه
بكلامه فإنه يقيمه مقامَ خطابه كما قال القائل: المحبُّون لا شيء أَلَدَّ لهم ولقلوبهم من
سماع كلام محبوبهم وفيه غاية مطلوبهم، ولهذا لم يكن شيء أَلَدَّ لأهل المحبة من سماع
القرآن، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:
«اقْرَأْ عَلَيَّ»، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»،
فقرأت عليه من أوَّل سورة النساء حتى إذا بلغت قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤٠] قال: «حَسْبُكَ الْآنَ»، فرفعت رأسي
فإذا عيناه تَذَرِفَان^(١). وكان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا قارئاً أن يقرأ وهم
يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا دخل عليه أبو موسى يقول: يا أبا
موسى ذكّرنا ربّنا، فيقرأ أبو موسى وربما بكى عمر.

ومر رسول الله ﷺ بأبي موسى رضي الله عنه وهو يصلي من الليل فأعجبه قراءته
فوقف واستمع لها، فلما غدا على رسول الله ﷺ قال: «لَقَدْ مَرَزْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ
فَوَقَفْتُ وَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِكَ»، فقال: لو أعلم أنك كنت تسمع لحبّرت لك تحبيراً^(٢). والله
سبحانه وهو الذي تكلم بالقرآن يأذن ويستمع للقارئ الحسن الصوت من محبته لسماع
كلامه منه كما قال ﷺ: «لِلَّهِ أَشَدُّ أَدْنًا إِلَى الْقَارِئِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى
قَيْنَتِهِ»^(٣) - والأذن بفتح الهمزة والدال مصدر أذن يأذن: إذا استمع. قال الشاعر:

أيها القلبُ تعلَّلْ بدَدَنْ^(٤) إن قلبي في سماعٍ وأذنٍ
وقال ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٥) وغلط من قال: إن هذا من المقلوب وإن

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٨٠، ٤٣٣) والبخاري في فضائل الصحابة باب ٢٥، والجنائز باب ٤
و ٤٣، والجهاد باب ٧، والمناقب باب ٢٥، والمغازي باب ٤٤، وتفسير سورة ٤ باب ٩، وفضائل
القرآن باب ٣٣ و ٣٥، والترمذي في الجنائز باب ١٤. والنسائي في الجنائز باب ٢٧.

(٢) حبره: زينه ونمقه. والحديث أخرجه مسلم. وأخرجه أيضاً أبو يعلى بزيادة كما قال ابن حجر
العسقلاني.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/١٩، ٢٠) وابن ماجه في الإقامة باب ١٧٦.

(٤) الددن: اللهو واللعب.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤/٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤) والبخاري في التوحيد باب ٥٢. وأبو داود =

المراد زَيَّنُوا أصواتكم بالقرآن. فهذا وإن كان حقاً فالمراد تحسين الصوت بالقرآن. وصح عنه ﷺ أنه قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(١) ووهم من فسره بالغنى الذي هو ضد الفقر من وجوه: أحدها: أن ذلك المعنى إنما يقال فيه استغنى لا تغنى. الثاني: أن تفسيره قد جاء في نفس الحديث: يجهر به هذا لفظه قال أحمد: نحن أعلم بهذا من سفيان وإنما هو تحسين الصوت به يحسنه ما استطاع. الثالث: أن هذا المعنى لا يتبادر إلى الفهم من إطلاق هذا اللفظ ولو احتمله، فكيف وبنية اللفظ لا تحتمله كما تقدّم. وبعد هذا فإذا كان من التغني بالصوت ففيه معنيان: أحدهما: يجعله له مكان الغناء لأصحابه من محبته له وَلَهْجِهِ به كما يُحِبُّ صاحب الغناء لغنائه، والثاني: أنه يزينه بصوته ويحسنه ما استطاع كما يزين المتغني غنائه بصوته، وكثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجي، فهو لا قتلى القرآن، لا قتلى عُشاق المُرْدان^(٢) والنَّسوان.

فصل: ومنها: محبة دار المحبوب وبيته حتى محبة الموضع الذي حلّ به، وهذا هو السرّ الذي لأجله علقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام، حتى استطاب المحبون في الوصول إليها هَجَرَ الأوطان والأحباب، ولَدَّ لهم فيها السفر الذي هو قطعة من العذاب، فركبوا الأخطار، وجابوا المَقَاوِرَ والقفار، واحتملوا في الوصول غاية المشاق، ولو أمكنهم لسَعَوْا إليها على الجفون والأحداق.

نعم أسعى إليك على جفوني وإن بَعُدَتْ لمسراك الطريق
وسرّ هذه المحبة هي إضافة الرب سبحانه له إلى نفسه بقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦].

قال الشاعر:

لما انتسبت إليك صرْتُ معظماً
وعلوْتُ قدراً دون من لم يُنسب
وكلّ ما نُسب إلى المحبوب فهو محبوب ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ [الإسراء: ١] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٢] ومن فهم هذا فهم معنى قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقول عبده ورسوله ﷺ: «لَبَيْكَ

= في الوتر باب ٢٠. والنسائي في الافتتاح باب ٨٣. وابن ماجة في الإقامة باب ١٧٦. والدارمي في فضائل القرآن باب ٣٤.

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/١٧٢، ١٧٥، ١٧٩). والبخاري في التوحيد باب ٤٤. وأبو داود في الوتر باب ٢٠. والدارمي في الصلاة باب ١٧١، وفضائل القرآن باب ٣٤.

(٢) جمع أمرد: الغلام الذي طر شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبد.

وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ^(١) وإذا كان من يحب مخلوقاً مثله يحب داره كما قال :

أُمِرُّ عَلَى الدَّيَّارِ دِيَارِ لَيْلَى أَقْبَلْ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارِ
وَمَا حُبُّ الدَّيَّارِ شَغَفَنَ قَلْبِي وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارِ

فكيف بمن ليس كمثله شيء ومن ليس كمثله محبته محبة؟

فصل : ومنها : الإسراع إليه في السير ، وحثُّ الركاب نحوه ، وطئُ المنازل في الوصول إليه ، والاجتهاد في القرب والدُّنُو منه ، وقطع كلِّ قاطعٍ يقطع عنه ، وأطراحُ الأشغال الشاغلة عنه ، والرُّهْدُ فيها ، والرغبة عنها ، والاستهانة بكلِّ ما يكون سبباً لغضبه ومقته وإن جُلَّ ، والرغبة في كلِّ ما يدني إليه وإن شقَّ ، قال الشاعر :

وَلَوْ قَلَبْتُ طَأً فِي النَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ رِضاً لَكَ أَوْ مُذْنِ لَنَا مِنْ وَصَالِكِ
لَقَدَّمْتُ رِجْلِي نَحْوَهَا فَوَطِئْتُهَا هَدَى مِنْكَ لِي أَوْ ضَلَّاهُ مِنْ ضَلَالِكِ

فصل : ومنها : محبة أحباب المحبوب وجيرانه وخَدَمه وما يتعلَّق به ، حتى حرفته وصناعته وأنيته وطعامه ولباسه قال :

أَحَبُّ بَنِي الْعَوَّامِ طَرّاً لِحَبَّهَا وَمَنْ أَجْلَهَا أَحَبَّتْ أَخْوَالَهَا كَلْبَا
وقال آخر :

يَشْتَاقُ وَادِيَهَا وَلَوْلَا حُبُّكُمْ مَا شَاقَهُ وَإِذْ زَهَتْ أَزْهَارُهُ
وقال الآخر :

فِيَا سَاكِنِي أَكْنَافٍ^(٢) طَيِّبَةً كُلُّكُمْ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ حَبِيبُ
وفي أخبار العشاق أن عاشقاً عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقه فوجد في

(١) أخرجه بأسانيد وطرق متعددة أحمد في المسند (٣/٢) ، ٢٧ ، ١٣١ ، ٣٧٨ ، ٣٢٠/٣ ، ٦٦/٤ ، ١٩١/٥ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٢٨٦ ، ٣٧٨) والبخاري في العلم باب ٤٩ ، والرقاق باب ٣٧ ، والتوحيد باب ٣٢ و ٣٧ و ٣٨ ، والأطعمة باب ١ ، واللباس باب ١٠١ ، والاستئذان باب ٣٠ ، وتفسير سورة ٢ باب ١٣ ، وسورة ٢٢ باب ١ ، وأحاديث الأنبياء باب ٧ . ومسلم في الطهارة حديث ٣٧٩ ، وصلاة المسافرين وقصرها حديث ٢٠١ ، والحج حديث ١٩ و ٢٠ و ٢١ . وأبو داود في المناسك باب ٢٦ ، والفتن باب ٢ ، والحدود باب ٢٠ ، والأدب باب ١٥٠ و ١٥١ . والترمذي في الحج باب ١٣ ، والدعوات باب ٣٢ ، والجنة باب ١٨ . والترمذي في الحج باب ١٣ ، والدعوات باب ٣٢ ، والجنة باب ١٨ . والنسائي في المناسك باب ٥٤ ، والافتتاح باب ١٧ . وابن ماجه في المناسك باب ١٥ . والدارمي في الصلاة باب ٣٣ . ومالك في الحج حديث ٢٨ .

(٢) جمع كنف : الناحية ، الجانب ، والظل .

تركته اثنا عشر حملاً وفردةً من السراويلات (ذكره البصري)، وعشق آخرُ الهاوونات من أجل صوت هاوُن محبوبته، فوجد في تركته عدةً آلاف منها، وعند الناس من هذا عجائب كثيرة. وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يحب الدُّبَاءَ^(١) كثيراً لما رأى النبي ﷺ يتبعها من جوانب القصعة.

فصل: ومنها: قَصْرُ الطريق حين يزوره، ويوافي إليه كأنها تُطَوِّى له، وطولها إذا انصرف عنه وإن كانت قصيرة قال:

وكنْتُ إذا ما جئت ليلى أزورها
أرى الأرض تُطَوِّى لي ويدنو بعيدُها
من الخَفَرَات البيض ودّ جليسُها
إذا ما انقضت أحدى لو تعيدها
وقال آخر:

والله ما جتُّكُمْ زائراً
ولا انثنى عزمي عن بابكم
إلا وجدت الأرض تُطَوِّى لي
إلا تعثرت بأذيالي
وقال آخر:

وإذا قمت عنك لم أمش إلا
وإذا جئت كنت أسرع في السب
مشي عانٍ^(٢) يقاد نحو الفناء
ر من الطير نازلاً في الهواء
وقال الآخر:

وتدنو الطريق إذا زرتكم
وتبعد إذ أنثني راجعاً

فصل: ومنها: انجلاء همومه وغمومه إذا زار محبوبه أو زاره، وعَوْدُها إذا فارقه كما قال:

يزور فتنجلي عني همومي
ويمضي بالمسرة حين يمضي
لأن جلاء حزني في يديه
لأن حوالتني فيها عليه

ومن المعلوم أنه ليس للمحب فرحة ولا سرور ولا نعيم إلا بمحبوبه، وبمفارقة محبوبه عذابه الآجل والعاجل.

فصل: ومنها: البَهْتُ^(٣) والرَّوْعَةُ التي تحصل عند مواجهة الحبيب أو عند سماع ذكره، ولا سيما إذا رآه فجأةً أو طلع بغتة كما قال الشاعر:

(١) الدباء: القرع.

(٢) عان: أسير أو ذليل أو خاضع. وعنا له يعنو عنوا: خضع وذل.

(٣) البهت: الدهشة والحيرة.

فما هو إلا أن أراها فجاءةً فأُبْهَتَ حتى ما أكاد أُجيب
فأرجع عن رأيي الذي كان أولاً وأذكر ما أعددت حين تغيب
وقال آخر:

فما هو إلا أن يراها فجاءةً فتصطلك رجلاه ويسقط للجنب
وربما اضطرب عند سماع اسمه فجأةً كما قال:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أشجان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري

وقد اختُلف في سبب هذه الروعة والفرع والاضطراب فقل: سببه أن للمحبيب سلطاناً على قلب محبه أعظم من سلطان الرعية، فإذا رآه فجأةً راعه ذلك ما يرتاع من يرى من يعظمه فجأةً، فإن القلب معظم لمحبيه خاضع له، والشخص إذا فجئه المعظم عنده راعه ذلك، وقيل: سببه انفراج القلب له، ومبادرته إلى تلقّيه فيهرب الدّم منه فيبرد ويُرعد ويحدث الاصفرار والرعدة، وربما مات. وبالجملّة فهذا أمرٌ ذوقتي وجداني، وإن لم يُعرف سببه.

فصل: ومنها: غيرته لمحبيه وعلى محبيه، فالغيرة له أن يكره ما يكره، ويغار إذا عصى محبوه وانتَهك حقه وضيع أمره. فهذه غيرة المحب حقاً، والدين كله تحت هذه الغيرة.

فأقوى الناس الناس ديناً أعظمهم غيرةً، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «اتَّعَجِبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَعْيُرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَعْيُرُ مِنِّي»^(١) فمحب الله ورسوله يغار الله ورسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبة أخلى وإن زعم أنه من المحبين، فكذب من ادعى محبة محبوب من الناس وهو يرى غيره ينتهك حرمة محبوه ويسعى في أذاه ومساخطه ويستهن بحقه ويستخف بأمره وهو لا يغار لذلك بل قلبه بارد، فكيف يصح لعبد أن يدعي محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت، ولا لحقوقه إذا ضيعت. وأقل الأقسام أن يغار له من نفسه وهواه وشيطانه، فيغار لمحبيه من تفريطه في حقه وارتكابه لمعصيته.

وإذا ترحلت هذه الغيرة من القلب ترحلت منه المحبة، بل ترحل منه الدين وإن

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٤٨/٤) والبخاري في النكاح باب ١٠٧، والحدود باب ٤٠، والتوحيد باب ٢٠. ومسلم في اللعان حديث ١٦ و ١٧. والدارمي في النكاح باب ٣٧.

بقيت فيه آثاره وهذه الغيرة هي أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الحاملة على ذلك، فإن خلت من القلب لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فإنه إنما يأتي بذلك غيرةً منه لربه، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبته الجهاد فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فصل: وأما الغيرة على المحبوب فإنما تُحَمَّدُ حيث يُحَمَّدُ الاختصاص بالمحسوب ويُذَمُّ الاشتراك فيه شرعاً كغيرة الإنسان على زوجته وأُمِّهِ والشيء الذي يختصُّ هو به، فيغار من تعرُّض غيره لذكرك ومشاركته له فيه، وهذه الغيرة تختصُّ بالمخلوق ولا تُتَصَوَّر في حق الخالق، بل المحبُّ لربه يحبُّ أن الناس كلُّهم يحبُّونه ويذكرونه ويعبدونه ويحَمَّدُونَهُ، ولا شيء أقرَّ لعينه من ذلك، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله.

ولما لم يميِّز كثيرٌ من الصوفية بين هاتين الغيرتين وقع في كلامهم تخييط قبيح. وأحسن أمره أن يكون من السعي المغفور لا المشكور. وكان بعض جهَّلتهم إذا رأى مَنْ يذكر الله أو يحبه يغار منه وربما سكَّته إن أمكنه ويقول: غيرة الحبِّ تحملني على هذا، وإنما ذلك حَسَدٌ وبَغْيٌ وعُدْوَانٌ ونَوْعٌ معاداةٍ لله ومُراغمةٍ لطريق رسله أخرجوها في قالب الغيرة، وشبَّهوا محبة الله بمحبة الصُّور من المخلوقين.

ولا ريب أن هذه الغيرة محمودة في محبة من لا تحسُن مشاركة المحبِّ فيه، وسيأتي ذلك في باب الغيرة على المحبوب.

فصل: ومنها: بذلُّ المحبِّ في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمنَّع به بدون المحبة، وللمحبِّ في هذا ثلاثة أحوال: أحدها بذله ذلك تكلفاً ومشقَّةً وهذا في أوَّل الأمر، فإذا قويت المحبة بذله رِضاً وطوعاً، فإذا تمكَّنت من القلب غاية التمكن بذله سِوَالاً وتضرُّعاً كأنه يأخذه من المحبوب، حتى إنه لَيَبْدُل نفسه دون محبوبه كما كان الصحابة رضي الله عنهم يَقُون رسول الله ﷺ في الحرب بنفوسهم حتى يصرَّعوا حوله:

ولي فؤادٌ إذا لَجَّ^(١) الغرامُ به هام اشتياقاً إلى لُقْيَا مُعَذِّبِهِ
يَقْدِيكَ بالنفس صَبَّ^(٢) لو يكون له أعزُّ من نفسه شيءٌ فذاك به

(١) لج: تمادى.

(٢) الصب: العاشق المشتاق. والصبابة: الشوق، وقيل رفته، وقيل حرارته وقيل رقة الهوى والولع الشديد بالشيء.

وَمَنْ آثَرَ مَحَبَّتَهُ بِنَفْسِهِ فَهُوَ لَهُ بِمَالِهِ أَشَدُّ إِثَاراً قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وَلَا يَتَمِّ لَهِمْ مَقَامُ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّسُولُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ فَضْلاً عَنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَبَائِهِمْ كَمَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» وَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي فَقَالَ: «لَا يَا عُمَرُ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» قَالَ: فَوَاللَّهِ لَأَنْتَ الْآنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ: «الآنَ يَا عُمَرُ»^(١).

فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُ مَحَبَّةِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ فَكَيْفَ بِمَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ؟ وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْحَبِّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ شَرْعاً لَا قَدَرًا، وَإِنْ وُجِدَ فِي النَّاسِ مَنْ يُؤَثِّرُ مَحَبَّتَهُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ لِمَحَبَّةِ غَرَضِهِ مِنْهُ، فَحَمَلَهُ مَحَبَّةُ غَرَضِهِ عَلَىٰ أَنْ يَبْذُلَ فِيهِ نَفْسَهُ وَمَالَهُ، وَلَيْسَتْ مَحَبَّتُهُ لِذَلِكَ الْمَحْبُوبِ لِذَاتِهِ بَلْ لَغَرَضِهِ مِنْهُ، وَهَذَا الْمَحْبُوبُ لَهُ مِثْلٌ وَلِمَحَبَّتِهِ مِثْلٌ، وَأَمَّا مَحَبَّةُ اللَّهِ لَيْسَ لَهَا مِثْلٌ وَلَا لِلْمَحْبُوبِ مِثْلٌ، وَلِهَذَا حَكَّمَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَنفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَقَالُوا^(٢): هَذِهِ أَمْوَالُنَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَاحْكَمْ فِيهَا بِمَا شِئْتَ، وَهَذِهِ نَفُوسُنَا بَيْنَ يَدَيْكَ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بَنَاءَ الْبَحْرِ لَخُضَّضْنَاهَا، نَقَاتِلُ بَيْنَ يَدَيْكَ وَمَنْ خَلْفَكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ. قَالَ قَيْسُ بْنُ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيُّ:

ثَوَىٰ فِي قَرِيْشٍ بَضْعَ عَشْرَةِ حِجَّةٍ	يَذْكُرُ لَوْ يَلْقَىٰ حَبِيْبًا مَوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ	فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهِ النَّوَىٰ	وَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَيِّبَةِ رَاضِيَا ^(٣)
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ حِلٍّ مَالِنَا	وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَعَىٰ وَالنَّاسِيَا ^(٤)
نَعَادِي الذِّي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ	جَمِيعاً وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ الْمَصَافِيَا
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرَهُ	وَأَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَصْبَحَ هَادِيَا

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (١٧٧/٣)، ٢٠٧، ٢٧٥، ٢٧٨، ٣٣٦/٤ وَالْبُخَارِيُّ فِي الْإِيمَانِ بَابُ ٨، وَالْإِيمَانِ بَابُ ٣. وَمُسْلِمٌ فِي الْإِيمَانِ حَدِيثُ ٦٩ وَ ٧٠. وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْإِيمَانِ بَابُ ١٩. وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْمَقْدِمَةِ بَابُ ٩.

(٢) الْقَاتِلُ هُوَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ. رَوَاهُ أَصْحَابُ السِّيَرِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ مَطْوُلاً وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مُخْتَصِراً.

(٣) هَذَا الْبَيْتُ مَلْفَقٌ هُنَا مِنْ بَيْتَيْنِ هُمَا:

فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ	فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَيِّبَةِ رَاضِيَا
وَأَلْفَىٰ صَدِيقاً وَاطْمَأْنَنْتَ بِهِ النَّوَىٰ	وَكَانَ لَهُ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ بَادِيَا

وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ بِزِيَادَةٍ وَاخْتِلَافٍ.

(٤) الْوَعَى: الْحَرْبُ وَالْجَلْبَةُ. وَأَسَيْتُهُ بِنَفْسِي: سَوِيَّتُهُ بِهَا.

فالمحب وصفه الإيثار، والمدعي طبعه الاستثثار.

فصل: ومنها: سروره بما يُسرُّ به محبوبه كائناً ما كان، وإن كرهته نفسه فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه، يكرهه طبعاً ويحبه لما فيه من الشفاء. وهكذا المحب مع محبوبه، يُسرُّه ما يرضى به محبوبه وإن كان كريهاً لنفسه. وأما من كان واقفاً مع ما تشتهيه نفسه من مراضي محبوبه فليست محبته صادقة، بل هي محبة معلولة، حتى يُسرَّ بما ساءه وسرّه من مراضي محبوبه، وإذا كان هذا موجوداً في محبة الخلق بعضهم لبعض فالحبيب لذاته أولى بذلك. قال أبو الشيص:

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي
وأهنتني فأهنتُ نفسيَ جاهداً
أشبهت أعدائي فصرتُ أحبهم
أجد الملامة في هواك لذيدة
ومتأخراً عنه ولا مُتقدماً
ما من يهون عليك ممن يُكرم
إذ كان حظي منك حظي منهم
حباً لذكرِك فلْيُلْمَنِي اللُّؤْمُ
وقريبٌ من هذا البيت الأخير قول الآخر:

لئن ساءني إن نلتني بمساءةٍ
وقال الآخر:

صدودك عني إن صددتِ يسرني
سُررتُ به أني تيقنت أنما
ولو كنت فيه تزهدين لساءه^(٢)
فيا فرحة لي إذ رأيتكِ تعبني^(٣)
ولم أر قبلي عاشقاً سُرَّ بالصد
دعاك إليه رغبةً منك في ودي
ولكنما عثبُ المحب من الوجد
عليّ لذنبي كان مني على عمد
وقال الآخر:

أهوى هواها وطولُ البُعد يعجبها
فمن رأى والهأ قبلي أخا كلّف
وقريبٌ من هذا قول أحمد بن الحسين^(٤):

يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم
إن كان سرّكم ما قال حاسدنا
وجداننا كلّ شيء بعدكم عَدَم
فما لجرح إذا أرضاكم ألم

(١) تقدم هذا البيت مع غيره.

(٢) كذا... ولعل الصواب: لساءني.

(٣) كذا... ولا وجه لحذف النون.

(٤) هو أبو الطيب المتنبّي.

واهتمد^(١) بعضهم هذا فقال:

يا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُلِمَ بِهِمْ
إِنْ كَانَ يَرْضِيكُمْ هَذَا الْبَعَادُ فَمَا
إِذْ بُعِدْنَا عَنْهُمْ قَدْ صَارَ قَصْدُهُمْ
فِيهِ لَصِبُكُمْ جَزْحٌ وَلَا أَلَمٌ

وَلَعَمْرُ اللَّهِ أَكْثَرُ هَذِهِ دَعَاوِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَالصَّادِقُ مِنْهُمْ يَخْبِرُ عَنْ عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ،
لَا عَنْ حَالِهِ وَصِفَتِهِ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ^(٢):

رَضُوا بِالْأَمَانِيِّ وَابْتَلَوْا بِحُظُوظِهِمْ
فَهُمْ فِي الشَّرَى لَمْ يَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِهِمْ
وَخَاضُوا بِحَارِ الْحُبِّ دَعَاوِي وَمَا ابْتَلَوْا
وَمَا ظَنَعُوا^(٣) فِي السَّيْرِ عَنْهُ وَقَدْ كُلُّوا

وَإِنْ كَانَ هَذَا هُوَ وَصْفُ قَائِلِهَا بَعِينَهُ وَحَالُهُ فَإِنَّهُ خَاضَ بِحَارِ الْحُبِّ وَمَا ابْتَلَى فِيهِ لَهُ
قَدَمٌ، وَأَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ عِنْدَ انْكَشَافِ غِطَائِهِ وَطَلَبِ الرِّسْلِ لَهُ لِقَدُومِهِ عَلَى رَبِّهِ فَقَالَ
وَصَدَقَ^(٤):

إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمْ
أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ نَفْسِي بِهَا زَمْنًا
مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَدْ ضَيَعْتُ أَيَّامِي
فَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ^(٥)

وهذه حال كل من أحبَّ مع الله شيئاً سواه فإنه إلى هذه الغاية يصير ولا بدَّ،
وسيدو له إذا انكشف الغطاء أنه إنما كان مغروراً مخدوعاً بأُمْنِيَّةٍ ظَفِرَتْ نَفْسُهُ بِهَا مَدَّةَ
حَيَاتِهِ ثُمَّ انْقَطَعَتْ وَأَعْقَبَتْ الْحَسْرَةَ وَالنَّدَامَةَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَتَبَرَّأَ
مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾
[البقرة: ١٦٦، ١٦٧] فالأسباب التي تقطعت بهم هي الوصل والعلائق والمواد التي
كانت لغير الله وفي غير ذات الله، وهي التي يَقْدَمُ إِلَيْهَا سُبْحَانَهُ فَيَجْعَلُهَا هَبَاءً مَثُورًا، فكل
محبَّةٍ لغيره فهي عذابٌ على صاحبها وحسرةٌ عليه إلا محبته ومحبَّة ما يدعو إلى محبته،
ويعين على طاعته ومرضاته، فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تُبْلَى السرائر كما قال:

سَيَقَى لَكُمْ فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا
سَرِيرَةٌ حُبٌّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ
وقال آخر:

إِذَا تَصَدَّعَ شَمْلُ الْوَصْلِ بَيْنَهُمْ
فَلِلْمُحِجِّينِ شَمْلٌ غَيْرُ مَنْصَدَعٍ

(١) الاهتمام: نوع من السرقات الشعرية.

(٢) هو ابن الفارض.

(٣) ظعنوا: ساروا وارتحلوا.

(٤) هو ابن الفارض.

(٥) أضغاث الأحلام: ما يدخل بعضها في بعض وليست كالصحيحة ولا تأويل لها لعدم تبيينها. وفي

سورة يوسف ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾.

وإن تقطع جبل الوصل يومئذٍ فللمحيين جبلٌ غيرُ منقطع
فصل: ومنها: حبّ الوحدة والأنس بالخلوة والتفرّد عن الناس وكأنّ المحبة قد
 ثبتت على ذلك، فلا شيء أحلى للمحب الصادق من خلوته وتفرّده، فإنه إن ظفر
 بمحبوبه أحبّ خلوته به، وكره من يدخل بينهما غاية الكراهة، ولهذا السرّ - والله أعلم -
 أمر النبي ﷺ برّد المارّ بين يدي المصلي حتى أمر بقتاله، وأخبر أنه لو يدري ما عليه من
 الإثم لكان وقوفه أربعين خيراً له من مروره بين يديه^(١) ولا يجد ألم المرور وشدّته إلا
 قلب حاضرٌ بين يدي محبوبه مقبلاً، وقد ارتفعت الأغيار بينه وبينه، فمرور المارّ بينه
 وبين ربه بمنزلة دخول البغيض بين المحبّ ومحبوبه. وهذا أمرٌ الحاكم فيه الذوق فلا
 ينكره إلا من لم يدق.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: مرور المارّ بين يدي المصلي يذهب نصف أجره.
 (ذكره الإمام أحمد) وأيضاً فإن المحبّ يستأنس بذكر محبوبه وكونه في قلبه لا يفارقه،
 فهو أنيسه وجليسه لا يستأنس بسواه، فهو مستوحشٌ ممن يشغله عنه. وحدثني تقي الدّين
 ابن شقير، قال: خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يوماً فخرجت خلفه، فلما انتهى إلى
 الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد سمعته يتمثّل بقول الشاعر^(٢):

وأخرجُ من بين البيوت لعلني
 أحدث عنك القلب بالسر خالياً
 فخلوة المحبّ بمحبوبه هي غاية أمنيته، فإن ظفر بها وإلاّ خلا به في سرّه وأوحشه
 ذلك من الأغيار. وكان قيس بن الملوّح إذا رأى إنساناً هرب منه، فإذا أراد أن يدنو منه
 ويحدثه ذكر له ليلي وحديثها فيأنس به ويسكن إليه. وينبغي للمحب أن يكون كما قال
 يوسف لإخوته وقد طلب منهم أخاهم: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا
 تَقْرُبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠].

إذا لم تكن فيكُنْ سُعْدَى فلا أرى لكنّ وجوهاً أو أغيب في لحدي
فصل: ومنها: استكانة المحبّ لمحبوبه وخضوعه وذله له، والحبّ مبنيٌّ على
 الدّلّ، ولا يأنف العزيز الذي لا يدلّ لشيءٍ من ذله لمحبوبه، ولا يعذّه نقصاً ولا عيباً، بل
 كثيرٌ منهم يعدّ ذله عزّاً كما قال:

إذا كنت تهوى من تحبّ ولم تكن ذليلاً له فاقراً السلام على الوصل
 تذلل لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذلّ

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي.

(٢) هو مجنون ليلي كما جاء في تزيين الأسواق للأنطاكي.

وقال الآخر:

إخضع وذَلْ لمن تحب فليس في شرع الهوى أنفٌ يُشال ويُعقد^(١)

وقال الآخر:

ويعجبني ذُلِّي لديك ولم يكن ليُعجبني لولا محبتك الذُلُّ

وقال آخر:

يَلْذُلْ له ذُلُّ الهوى وخضوعه ولولا الهوى ما لَذُلُّ للعاقل الذُلُّ

وقال الآخر:

مساكينُ أهلُ الحبِّ حتى قبورهم عليها ترابُ الذُلِّ دون المقابر^(٢)

ومتى استحكم الذُلُّ والحبُّ صار عبوديةً، فيصير قلب المحبِّ معبداً لمحبوبه، وهذه الرتبة لا يليق أن تتعلّق بمخلوقٍ، ولا تصلح إلا لله وحده.

فصل: ومنها: امتدادُ النَّفْسِ وتردُّدُ الأنفاس وتضاعدها. وهذا نوعان:

أحدهما: ما يقارنه حزنٌ ولَهْفٌ^(٣) كما قال القائل:

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدَّ مِنْ نَفْسِ الْعَا شَقَّ طَوَلاً قَطَعْتُهُ بَانْتِحَابِ

وقال آخر:

تردُّدُ أنفاسِ المحبِّ يَدُلُّنا عَلى كُنْهِ^(٤) ما أخفاه من أَلَمِ الحبِّ إذا خَطَرَاتُ الحبِّ خَامَرْنَ قلبه تنفَّسَ حتى ظَلَّ متصدِّعَ القلب

والثاني: ما يكون سببه طرباً ولذّةً. وسببُ وجود النوعين انحصارُ القلبِ وانفراجُه بسبب الوارد الذي ورد عليه فأحدث للنفس الذي تروحه عليه الرّثة كَيْفِيَّةً مؤذِيَّةً وطلب إخراجها فهو تنفُّسُ الصُّعْدَاءِ، وأما تنفُّسُ الرّاحة فإن القلب ينسبط بعد انقباضه فيدفع الهواء المحيط به فيطلب الخروج.

فصل: ومنها: هجره كلّ سببٍ يُقْصِيه من محبوبه ويغضه المحبوب، وارتياحه

لكل سببٍ يُدْنِيه منه ويستحمد به عنده إذا بلغه عنه. وفي الباب عجائب للمحبين، فكثيرٌ منهم هجر طعاماً أو لباساً أو أرضاً أو صناعةً أو حالةً من الحالات كان محبوبه يَمُقُّهَا فلم يَعُدْ إليها أبداً، ولم تطاوعه نفسه بفعله البتة. وكثيرٌ منهم حملة الحبِّ على اكتساب

(١) تقدم هذا البيت.

(٣) اللفظ: التحسر.

(٢) تقدم هذا البيت.

(٤) الكنه: جوهر الشيء وحقيقته وغايته وقدره.

المعالي والفضائل وغيرها مما يعلم أن المحبوب يُعَظَّمه ويحبُّه . وهذا نوعان أيضاً :

أحدهما : أن يكون المحبوب مؤثراً لذلك محباً له ، فالمحب يبذل جهده فيه لينال منه أعلاه إن أمكنه ، فإن كان المحبوب مشغولاً بجمع المال أثر ذلك في محبة شغف أشد من شغفه ، وإن كان مشغولاً بالعلم اجتهد المحب في طلبه أشد من اجتهاده ، وإن كان مشغولاً بحرفة أو صناعة حرص المحب على تعلمها إن وجد إلى ذلك سبيلاً ، وإن كان مشغولاً بالنوادر والحكايات الحسان والأخبار المستحسنة بالغ المحب في تحفظها ، فالمحبة النافعة أن تقع على عشق كامل يحملك عشقه على طلب الكمال ، والبليّة كل البليّة أن تُبتلى بمحبة فارغ بطل صِفَرٍ من كل خير فيحملك حبّه على التشبّه به .

والثاني : أن يكون المحبوب فارغاً من محبة ذلك وإيثاره ، ولكن المحبة تستخرج من قلب المحب عزمًا وإرادة وحرصاً على ما يُعَظَّم به في عين المحبوب وقلبه ، فتجده من أحرص الناس على ذلك بحسب استعداده كما قيل :

ويرتاح للمعروف في طلب العُلى تُحَمَّد يوماً عند ليلي شمائله^(١)
وهذا قد يكون له سبب آخر وهو معاداة الناس له وتنقُصهم إياه وازدراؤهم به ، فيحمله الانتخاء لنفسه والغيرة لها ومحبتها على المنافسة في المعالي واكتساب الحمد ، وهذا من شرف النفس وعزّها كما قيل :

من كان يشكر للصديق فإنني أحبو بصالح شكري الأعداء
هم صيِّروا طلب المعالي ديدني حتى وطئتُ بنعليّ الجوزاء^(٢)
ولربما انتفع الفتى بعدوه والسُّمُّ أحياناً يكون شفاءً
وقال الآخر :

عداي لهم فضلٌ عليّ ومِنَّةٌ فلا أعدم الرحمن عني الأعداء
همُ بحثوا عن زلّتي فاجتنبها وهم نافسوني فاكتسبتُ المعاليا

فصل : ومنها : الاتفاق الواقع بين المحب والمحبوب ، ولا سيما إذا كانت المحبة محبة مشاكلة ومناسبة ، فكثيراً ما يمرض المحب بمرض محبوبه ويتحرك بحركته ولا يشعر أحدهما بالآخر ، ويتكلم المحبوب بكلام فيتكلم المحب به بعينه اتفاقاً ، فانظر إلى قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الحُدَيْبِيَّة لما قال له : « ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ » قال : بلى ، قال : « فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ في ديننا ؟ » فقال : « إِنِّي رَسُولُ

(١) جمع شمال : أخلاقه وطباعه .

(٢) الدين : العادة والدأب . والجوزاء : برج من أبراج السماء .

الله وَهُوَ نَاصِرِي وَلَسْتُ أَغْصِيهِ» فقال: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت فنطوف به؟ فقال: «قُلْتُ لَكَ إِنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامُ؟» قال: لا، قال: «فإنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ». ثم جاء أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه فقال له: «يا أبا بكر ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟» قال: بلى، قال: (فَعَلَّامٌ نَعْطِي الدِّنِيَّةَ^(١)) في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟) فقال له: إنه رسول الله وهو ناصره وليس يغصيه، قال: ألم يكن يحدثنا أنا نأتي البيت فنطوف به؟ قال: أقال لك إنك تأتية العام؟ قال: لا، قال: فإنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ. فأجاب على جواب رسول الله ﷺ حرفاً بحرف من غير تواطؤ ولا تشاعر، بل موافقة محبٍّ لمحبوب. هكذا وقع في صحيح البخاري، ووقع في بعض المغازي أنه أتى أبا بكرٍ أوَّلاً فقال له ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ بعده فقال له مثلاً ما قال أبو بكر.

قال السَّهَيْلِيُّ: وهذا هو الأولى ويشبه أن يكون المحفوظ، فإنه لا يُظَنُّ بعمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يقول له قولاً فلا يرضى به حتى يأتي أبا بكر رضي الله عنه بعد ذلك والشبهة عنده لم تزل فيعيدها عليه، ولا يُظَنُّ ذلك بعمر رضي الله عنه. ولعمري لقد نزع أبو القاسم بذنوبٍ صحيح، ولكن المحفوظ هو الذي وقع في البخاري، وعليه عامة أهل السَّير والمسائيد والسُّنن. وأما ما نسب إلى عمر رضي الله عنه فقد أُجِيبَ عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه له في ذلك كما تقدم له أمثالها، فإنه كان يقول القول فينزل به الوحي، والثاني أن المقام كان مقامَ محنةٍ وابتلاءٍ عَجَزَ عنه صَبْرُ أكثر الصحابة ولم يتسع له بطنهم، وداخلهم من الهمِّ والقلق والتحرُّق على أعدائهم أمرٌ عظيم. ولهذا لما أمرهم أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا بُدُنَهم لم يقيم منهم رجلٌ واحدٌ حتى دخل ﷺ على أُمِّ سَلَمَةَ مُغَضَّباً فقالت له: من أغضبك أغضبه الله، فقال: «وَمَا لِي لَا أَغْضَبُ وَأَنَا أَمْرُ بِالْأَمْرِ فَلَا أُتْبَعُ؟»^(٢) وهذا يرذُّ تأويلٌ من تأوَّله على أن القوم كانوا محسنين في ذلك التَّشَبُّت، وأنهم كانوا ينتظرون النسخ فلا لوم عليهم. وهذا خطأ قبيحٌ من هذا المعتذر، بل كانت المبادرة إلى امثال أوامره ﷺ أولى بهم، ولو كانوا محسنين في التأخير لما اشتدَّ غضبه عليهم ولكان أولى منهم بانتظار النسخ، بل هذا من سعيهم المغفور الذي غفره الله لهم بكمال إيمانهم ونصحهم لله ورسوله، وعَدَرَهُم الله سبحانه لقوَّة الوارد وضعفهم عن حمله حتى لم يحمله عمر رضي الله عنه في قوَّته وشدته، واحتمله رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وكان جوابُهما من مشكاة^(٣) واحدة.

(١) الدنية والدني: الحقيق، الضعيف، الساقط.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٨٦/٤) وابن ماجة في المناسك باب ٤١.

(٣) المشكاة: الكوة غير النافذة. وقيل الأنبوبة في وسط القنديل. قال تعالى ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾.

ولما احتمل رسول الله ﷺ هذا الحكم الكونيّ الأمريّ الذي حكم الله له به ورضي به وأقرّ به ودخل تحته طوعاً وانقياداً - وهو الفتح الذي فتح الله له - أثابه الله عليه بأربعة أشياء: مغفرة ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عليه، وهدايته صراطاً مستقيماً، ونصر الله له نصراً عزيزاً. وبهذا يقع جواب السؤال الذي أورده بعضهم ها هنا فقال: كيف يكون حكم الله له بذلك علّة لهذه الأمور الأربعة إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢] الآية، وجوابه ما ذكرنا أن تسليمه لهذا الحكم والرضا به والانقياد له والدخول تحته أوجب له أن آتاه الله ذلك، والمقصود إنما هو ذكر الاتفاق بين المحب والمحبوب، وهذا الذي جرى للصديق رضي الله عنه من أحسن الموافقة، ومن هذا موافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لربه تعالى في عدة أمور قالها فنزل بها الوحي كما قال. وتقوى هذه الموافقة حتى يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه، وهذا بحسب تعلّق الهمة به وتوجّه القلب إليه واتحاد مراده بمراده، وربما اقتضى ذلك اتفاقهما في المرض والصحة والفرح والحزن والخلق، فإن كان مع ذلك بينهما تشابه في الخلق الظاهر فهو الغاية في الاتفاق. ولنقتصر من العلامات على هذا القدر وبالله التوفيق.

في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه

هذا من موجبات المحبة الصادقة وأحكامها، فإن قوى الحب متى انصرفت إلى جهة لم يبق فيها مُتَسَعٌ لغيرها. ومن أمثال الناس: «ليس في القلب حُبَّان، ولا في السماء رَبَّان» ومتى تقسّمت قوى الحب بين عدّة محالّ ضُعُفَتْ لا محالة وتأمّل قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١ - ٣] كيف أمره بتقواه المتضمّنة لإفراده بامثال أمره ونهيه محبة له وخشية ورجاء، فإن التقوى لا تتّم إلاّ بذلك، واتباع ما أوحى إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباع المنزل خاصّة، وبالتوكل عليه هو يتضمّن اعتماد القلب عليه وحده وثقته به وسكوته إليه دون غيره. ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤] فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلاّ جهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يَمَلْ إلى غيرها، وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره، بل ليس إلاّ قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه وإلاّ انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمّه، واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيّة ابنه؛ فانظر ما أحسن هذا التأسيس وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب، وله نظائر في القرآن عديدة، فمنها قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨، ١٨٩] فالنفس الواحدة وزوجها آدم وحواء، واللذان جعللا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما، ولا يُلتَفَتُ إلى غير ذلك مما قيل إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولدٌ فأتاهما إبليس فقال: إن أحبيتما أن يعيش لكما ولدٌ فسمياه عبد الحارث ففعلا، فإن الله سبحانه اجتبه وهداه فلم يكن ليشرك به بعد ذلك. ونظيرُ هذا الاستطراد قوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ثم قال: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] فإنهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الإِهْلَةِ استطرد منه إلى ذكر ما يفعلونه فيه، وهو كثيرٌ جدًّا.

والمقصودُ أن المحبَّة تستلزم توحيد المحبوب فيها، وقد بالغ أبو محمد بن حزم في إنكاره على من يزعم أنه يعشق أكثر من واحدٍ وقال في ذلك شعراً، ونحن نذكر كلامه وشعره، قال بعد كلام طويل: ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين، وإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفاً، وهي على المجاز تسمَّى محبة لا على التحقيق: وأما نفس المحبِّ فما في الميل به فضلٌ يصرفه من أسباب دينه ودنياه، فكيف بالاشتغال بحب ثانٍ، وفي ذلك أقول:

كَذَبَ الْمَدْعَى هُوَ اثْنَيْنِ حَتْمًا	مَثَلُ مَا فِي الْأَصُولِ أَكْذِبَ مَانِي ^(١)
لَيْسَ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعٌ لِحَبِيْبِيْ	مِنْ وَلَا أَحَدُثَ الْأُمُورَ اثْنَانِ
فَكَمَا الْعَقْلُ وَاحِدٌ لَيْسَ يَدْرِي	خَالِقًا غَيْرَ وَاحِدٍ رَحْمَانِ
فَكَذَا الْقَلْبُ وَاحِدٌ لَيْسَ يَقْوَى ^(٢)	غَيْرَ فَرْدٍ مُبَاعِدٍ أَوْ مُدَانِ
هُوَ فِي شِرْعَةِ الْمَوْدَةِ ذُو شَكِّ	كَ بَعِيدٍ مِنْ صَحَةِ الْإِيْمَانِ
وَكَذَا الدِّيسُنُ وَاحِدٌ مُسْتَقِيمٌ	وَكَفُورٌ مَنْ عِنْدَهُ دِيْنَانِ

وقد اختلف الناسُ في هذه المسألة فقالت طائفة: ليس للقلب إلا وجهٌ واحدةٌ إذا توجَّه إليها لم يمكنه التوجُّه إلى غيرها، قالوا: وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معاً فلا يكون فيه حُبَّان، وكان الشيخ إبراهيم الرقي رحمه الله يميل إلى هذا. وقالت طائفة: بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين، فيتوجَّه إلى أحدهما^(٣) ولا يَشْغَلُهُ عن توجُّهه إلى الآخر، قالوا: والقلبُ حَمَّالٌ فما حملته تحمَّل، فإذا حَمَلَتْهُ الْأَثْقَالُ حَمَلَهَا، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه، فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجُّه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده، ولا يَشْغَلُهُ واحدٌ من ذلك عن الآخر، فقد كان

(١) ماني: صاحب مذهب المانوية، ولد في بابل عام ٣١٥ وهو من القائلين بالتناسخ وبقدم الظلمة والنور وأزليتهما. ويزعم أن الليل يخلق الشر والنهار يخلق الخير. وفي دينه من الضلالات والخزعبلات ما يفوق الأساطير. ومن أغرب ما يدعو إليه تحريم الزواج وإباحة اللواط كما يحرم ذبح الحيوانات ويحلل أكلها ميتة!!

(٢) كذا. . ولعل الصواب يهوى كما يدل عليه البيت الأول.

(٣) كذا. . بالتذكير بعد قوله وجهتان. ولعل الصواب هو التأنيث.

رسول الله ﷺ قلبه متوجه في الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال مَنْ يصلي خلفه، وكان يسمع بكاء الصبي فيخفف الصلاة خشية أن يشق على أمه^(١) أفلا ترى قلبه الواسع الكريم كيف اتسع للأميرين؟ ولا يُظن أن هذا من خصائص النبوة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيتسع قلبه للصلاة والجهاد في آن واحد، وهذا بحسب سعة القلب وضيقه وقوته وضعفه. قالوا: وكمال العبودية أن يتسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته، فلا يشغله أحد الأمرين عن الآخر، وهذا موجود في الشاهد، فإن الرجل إذا عمل عملاً للسلطان مثلاً بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده، فإن قلبه يتسع لمراعاة عمله وإتقانه، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له، بل هذا شأن كل محب يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته، قالوا: وهذا رسول الله ﷺ بكى يوم موت ابنه إبراهيم فكان بكاءه رحمة له، فأتسع قلبه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله، ولم يشغله أحدهما عن الآخر، لكن الفضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك فجعل يضحك، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال إن الله سبحانه قضى بقضاء فأحببت أن أَرْضَى بقضائه. ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله ﷺ حينئذ تفاوت لا يعلمه إلا الله، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله ﷺ. ونظير هذا اتساع قلب رسول الله ﷺ لغناء الجويريتين اللتين كانتا تغنيان عند عائشة رضي الله عنها فلم يشغله ذلك عن ربه، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه، فإن النفوس متى نالت شيئاً من حظها طوّعت ببذل ما عليها من الحق، ولم يتسع قلب عمر لذلك لمّا دخل فأنكره، وكم بين من تردّ عليه الواردات فكل منها يثير همته ويحرك قلبه إلى الله كما قال القائل:

يذكّرنيك الخيرُ والشرُّ والذي أخافُ وأرجو والذي أتوقّع^(٢)

ومن يردّ عليه من الواردات فيشغله عن الله ويقطعه عن سير قلبه إليه. فالقلب الواسع يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه، فلا يهرّب منهم ولا يلحق بالفقار^(٣) والجبال والخلوات، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله، فإن لم يسر معه سار هو وتركه، ولا يُنكر هذا فالمحبة الصحيحة تقتضيه، وخذ هذا في المغني إذا طرب، فلو نزل به من نزل أطربهم كلّهم، فإن لم يطربوا معه لم يدع طربه لغلظ أكبادهم، وكثافة طبعهم. وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى قوّته وحجّته.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/٢٤٠، ٣٠٥/٥) والبخاري في الأذان باب ٦٥ و ١٦٣. وأبو داود في الصلاة باب ١٢٣. والنسائي في الإمامة باب ٣٥. وابن ماجة في الإقامة باب ٤٩.

(٢) تقدم هذا البيت.

(٣) جمع قفرة: مفازة لا نبات فيها ولا ماء. وأفقرت الدار: خلت.

والتحقيق أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ومستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما كل ذات منهما مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه، وكما يستحيل أن يكون للعالم ربان متكافئان مستقلان، فليس الذي يُحِبُّ لذاته إلا الإله الحق الغني بذاته عن كل ما سواه وكل ما سواه، فقير بذاته إليه. وأما ما يُحِبُّ لأجله سبحانه فيتعدّد. ولا تكون محبة العبد له شاغلة له عن محبة ربه ولا يشركه معه في الحب، فقد كان رسول الله ﷺ يحب زوجاته وأحبهن إليه عائشة رضي الله عنها، وكان يحب أباهما ويحب عمر رضي الله عنهم، وكان يحب أصحابه وهم مراتب في حبه لهم، ومع هذا فحبه كله لله وقوى حبه جميعها منصرفة إليه سبحانه.

فإن المحبة ثلاثة أقسام: محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه. فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها، فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحب ومحبة ما يعين على حبه ويوصل إلى رضاه وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه؟ وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشريكة، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وأصل الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك في هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله فوالوا عليها وعادوا عليها وتألّوها وقالوا: هذه آلهة صغار تقرّبنا إلى الإله الأعظم. ففرق بين محبة الله أصلاً والمحبة له تبعاً والمحبة معه شركاً. وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

ويُحكى أن الفضيل دخل على ابنته في مرضها فقالت له: يا أبت هل تحبني؟ قال: نعم، قالت: لا إله إلا الله، والله ما كنت أظن فيك هذا، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحداً، ولكن أفرد الله بالمحبة واجعل لي منك الرحمة أي يكون حبك لي حب رحيم جعلها الله في قلب الوالد لولده لا محبة مع الله. فلله حق من المحبة لا يشركه فيه غيره، وأظلم الظلم وضع تلك المحبة في غير موضعها، والتشريك بين الله وغيره فيها. فليتدبر اللبيب هذا الباب فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى.

في غيرة المحبين على أحبائهم

لما كان هذا الباب متصلاً بإفراد المحبوب بالمحبة ومن موجباته فإن الغيرة بحسب قوة المحبة، وقوتها بحسب إفراد المحبوب حسن ذكره بعده.

وأصل الغيرة الحمية والأنفة^(١)، والغيرة نوعان: غيرة للمحبوب، وغيرة عليه. فأما الغيرة له فهي الحمية له والغضب له إذا استهين بحقه وانتقصت حرمة وناله مكروه من عدوه، فيغضب له المحب ويحلم وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة من آذاه، فهذه غيرة المحبين حقاً، وهي من غيرة الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به واستحل محارمه وعصى أمره.

وهذه الغيرة هي التي تحمل على بذل نفس المحب وماله وعرضه لمحبيه حتى يزول ما يكرهه، فهو يغار لمحبيه أن تكون فيه صفة يكرهها محبيه ويمقتها عليها أو يفعل ما يبغضه عليه، ثم يغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفة يكرهها ويبغضها، والدين كله في هذه الغيرة بل هي الدين، وما جاهد مؤمن نفسه وعدوه ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا بهذه الغيرة، ومتى خلت من القلب خلا من الدين، فالمؤمن يغار لربه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحب، والغيرة تصفي القلب وتخرج خبئه كما يخرج الكبير^(٢) خبث الحديد.

فصل: وأما الغيرة على المحبوب فهي أنفة المحب وحميته أن يشاركه في محبوه غيره وهذه أيضاً نوعان: غيرة المحب أن يشاركه غيره في محبوه، وغيرة المحبوب على محبه أن يحب معه غيره، والغيرة من صفات الرب جل جلاله، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ومن غيرته تعالى لعبده وعليه يحميه مما يضربه في آخرته كما في الترمذي وغيره

(١) الأنفة: الاستكاف.

(٢) الكبير: منفخ الحداد يكون من جلد غليظ وله حافات. وخبث الحديد نفايته أو ما نفاه الكبير.

مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدَكُمْ مَرِيضَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ»^(١) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الكسوف: «وَاللَّهِ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أُمَّتُهُ»^(٢). وفي ذكر هذا الذنب بخصوصه في خطبة الكسوف سرُّ بديع قد نبهنا عليه في باب غَضُّ البصر وأنه يورث نوراً في القلب. ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمر به وبين ذكر آية النور، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغض البصر وبين نوره الذي مثله بالمشكاة لتعلُّق أحدهما بالآخر. فجمع النبي ﷺ بين ظلمة القلب بالزُّنا وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس، وذكر أحدهما مع الآخر. وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَتْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُدْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ»^(٣).

وروى الثوري عن حماد بن إبراهيم عن عبد الله قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِيَعَارُ لِلْمُسْلِمِ فَلْيَغْرِ»^(٤). وروى أيضاً عن عبد الأعلى، عن ابن عُبَيْنَةَ^(٥)، عن أمِّه، عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعَارُ فَلْيَغْرِ أَحَدُكُمْ»، وفي الصحيح عنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَارُ وَالْمُؤْمِنُ يُعَارُ وَغَيْرُهُ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ»^(٦)، وروى الْقَعْنَبِيُّ عن الدَّرَاوَرْدِيِّ، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يُعَارُ وَاللَّهُ أَشَدُّ غَيْرَةً»^(٧).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٧/٥، ٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في الكسوف باب ٢. ومسلم في الكسوف حديث ١. والنسائي في الكسوف باب ١١. ومالك في الكسوف حديث ١.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب ١٥ و ٢٠، والنكاح باب ١٠٧، وتفسير سورة ٦ باب ٧، وسورة ٧ باب ١. ومسلم في التوبة حديث ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥. والترمذي في الدعوات باب ٩٥. والدارمي في النكاح باب ٣٧.

(٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن ابن مسعود مرفوعاً وقال رواه الطبراني في الأوسط. (٥) هكذا... وفي شرح الجامع الصغير للمناوي: قال الهيثمي: فيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبي وهو ضعيف... قال ابن القطان: والحديث لا يصح فإن فيه أبا عبيدة عن أمه زوج عبد الله بن مسعود ولا يعرف لهما حال. وإذن فإن عبيدة هنا مصحفة عن «أبي عبيدة».

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٣٤٣/٢، ٥٢٠، ٥٣٢، ٥٣٩) والبخاري في النكاح باب ١٠٧. ومسلم في التوبة حديث ٣٦. والترمذي في الرضاع باب ١٤.

(٧) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٥/٢، ٤٣٨) ومسلم في التوبة حديث ٣٨.

فصل: وَغَيْرَةُ الْعَبْدِ عَلَى مَحْبُوبِهِ نَوْعَانِ: غَيْرَةٌ مَمْدُوحَةٌ يُحِبُّهَا اللَّهُ، وَغَيْرَةٌ مَذْمُومَةٌ يَكْرَهُهَا اللَّهُ، فَالَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ أَنْ يَغَارَ عِنْدَ قِيَامِ الرِّبِّيَّةِ، وَالَّتِي يَكْرَهُهَا أَنْ يَغَارَ مِنْ غَيْرِ رِبِّيَّةٍ بَلْ مِنْ مَجَرَّدِ سُوءِ الظَّنِّ. وَهَذِهِ الْغَيْرَةُ تُفْسِدُ الْمَحَبَّةَ وَتَوْقِعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْمَحَبِّ وَمَحْبُوبِهِ. وَفِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ عَنْهُ ﷺ قَالَ: «الْغَيْرَةُ غَيْرَتَانِ: فَغَيْرَةٌ يُحِبُّهَا اللَّهُ وَأُخْرَى يَكْرَهُهَا اللَّهُ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْتَى مَعَاصِيهِ أَوْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُهُ»، قُلْنَا: فَمَا الْغَيْرَةُ الَّتِي يَكْرَهُ اللَّهُ؟ قَالَ: «غَيْرَةُ أَحَدِكُمْ فِي غَيْرِ كُنْهٍ»^(١)، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ: «إِنْ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ وَمِنْهَا مَا يَكْرَهُ اللَّهُ فَالْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ الْغَيْرَةُ فِي الرِّبِّيَّةِ، وَالْغَيْرَةُ الَّتِي يَكْرَهُهَا اللَّهُ الْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِبِّيَّةٍ»^(٢). وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعِدَ لَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي»^(٣). وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ: الْغَيْرَةُ غَيْرَتَانِ: غَيْرَةٌ يَصْلَحُ بِهَا الرَّجُلُ أَهْلَهُ، وَغَيْرَةٌ تَدْخُلُهُ النَّارُ. وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيْعَةَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى مَارِيَةَ الْقُبْطِيَّةِ وَهِيَ حَامِلٌ بِإِبْرَاهِيمَ وَعِنْدَهَا نَسِيبٌ لَهَا قَدِمَ مَعَهَا مِنْ مِصْرَ فَأَسْلَمَ، وَكَانَ كَثِيراً مَا يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَّهُ جَبَّ نَفْسَهُ فَقَطَعَ مَا بَيْنَ رَجُلَيْهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَاً عَلَيْهَا فَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً كَمَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ، فَخَرَجَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ، فَلَقِيَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ، فَأَخْبَرَهُ مَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَرِيبِ مَارِيَةَ، فَمَضَى بِسَيْفِهِ فَأَقْبَلَ يَسْعَى حَتَّى دَخَلَ عَلَى مَارِيَةَ فَوَجَدَ عِنْدَهَا قَرِيبَهَا ذَلِكَ، فَأَهْوَى بِالسَّيْفِ لِيَقْتُلَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُ كَشَفَ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: إِنْ جَبْرِيلُ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَرَّأَهَا وَقَرَّبَهَا مِمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِي، وَبَشَّرَنِي أَنَّ فِي بَطْنِهَا غُلَاماً وَأَنَّهُ أَشْبَهُ الْخَلْقَ بِي وَأَمَرَنِي أَنْ أَسْمِيَهُ إِبْرَاهِيمَ^(٤).

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَتْ سَارَّةٌ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فَمَكَثَتْ مَعَهُ دَهْرًا لَا تَرْزُقُ مِنْهُ وَلَدًا، فَلَمَّا رَأَتْ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٤/١٥٤).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٥/٤٤٥، ٤٤٦) وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْجِهَادِ بَابَ ١٠٤. وَالنَّسَائِيُّ فِي الزَّكَاةِ بَابَ ٦٦. وَابْنُ مَاجَةَ فِي النِّكَاحِ بَابَ ٥٦. وَالدَّارِمِيُّ فِي النِّكَاحِ بَابَ ٣٧.

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٤/٢٤٨) وَالبَخَارِيُّ فِي النِّكَاحِ بَابَ ١٠٧، وَالتَّوْحِيدِ بَابَ ٢٠. وَمُسْلِمٌ فِي اللِّعَانِ حَدِيثَ ١٦ وَ ١٧. وَالدَّارِمِيُّ فِي النِّكَاحِ بَابَ ٣٧.

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ فِي فَتَوْحِ مِصْرَ وَالتَّطَبُّرِ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ وَغَيْرِهِمَا، كَمَا قَالَ ابْنُ خَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ.

ذلك وهبت له هاجرَ أمّتها، فولدت لإبراهيم، فغارت من ذلك سارةَ ووجدت في نفسها وعبت على هاجر، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء، فقال لها إبراهيم: هل لك أن تبرّ يمينك؟ قالت: كيف أصنع؟ قال: انقبي أذنيها واخفضيها، والخنّض هو الختان، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في أذنيها قرطين فازدادت بهما حسناً، فقالت سارة: إنما زدتها جمالاً، فلم تُقارَهِ^(١) على كونها معه، وَوَجَدَ بها إبراهيم وجداً شديداً فنقلها إلى مكة، فكان يزورها كلّ يومٍ من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها.

وفي الصحيح من حديث حُمَيْد، عن أنس رضي الله عنه قال: أهدى بعضُ نساءِ النبي ﷺ له قَصْعَةً فيها ثريدٌ وهو في بيت بعض نسائه، فضربت يد الخادم فانكسرت القصعة، فجعل النبي ﷺ يأخذ الثريدَ ويرُدُّه في القصعة ويقول: كُلُوا غَارَتْ أُمُكُمْ، ثم انتظر حتى جاءت قصعةٌ صحيحة فأعطاهما التي كُسِرَتْ قصعُها^(٢). وقالت عائشة رضي الله عنها: ما غرْتُ على امرأةٍ قط ما غرْتُ على خديجة من كثرة ذكر النبي ﷺ إياها ولقد ذكرها يوماً فقلت: ما تصنع بعجوز حمراء الشُّدِّين قد أبدلك الله خيراً منها؟ فقال: «والله ما أبدلني الله خيراً منها»^(٣). فانظر هذه الغيرة الشديدة على امرأةٍ بعدما ماتت. وذلك لفرط محبتها لرسول الله ﷺ كانت تغار عليه أن يذكر غيرها، وكذلك غيبتها من صفية رضي الله عنهما، فإن رسول الله ﷺ لما قدم بها المدينة وقد اتخذها لنفسه زوجةً وعَرَسَ^(٤) بها في الطريق، قالت عائشة رضي الله عنها: تنكرتُ وخرجت أنظر فعرّفتني فأقبل إليّ فانقلبت فأسرع المشي فأدركني فاحتضنني وقال «كيف رأيتها؟» قلت: يهودية بين يهوديات - تعني السَّيِّئَةِ -^(٥).

وفي المسند من حديث الأشعث بن قيس قال: تضيفت بعضُ أصحاب النبي ﷺ

(١) لم تقارَهِ: لم توافقه على بقائها معه. وقارَه مقارَة أي قرعه وسكن.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٠٥/٣، ٢٦٣) والبخاري في النكاح باب ١٠٧. وأبو داود في البيوع باب ٨٩. والنسائي في عشرة النساء باب ٤. وابن ماجه في الأحكام باب ١٤. والدارمي في البيوع باب ٥٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥٨/٦، ٢٠٢، ٢٧٩) والبخاري في النكاح باب ١٠٨، ومناقب الأنصار باب ٢٠، والأدب باب ٢٣، والتوحيد باب ٣٢. ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧٤ و ٧٥ و ٧٦. والترمذي في البرّ باب ٧٠، والمناقب باب ٦١. وابن ماجه في النكاح باب ٥٦.

(٤) يقال عرس: إذا نزل المسافر ليستريح ثم يرتحل. أما عرس بامرأته على معنى الدخول بها فقالوا هو خطأ، والصحيح: أعرس بامرأته: دخل بها.

(٥) ذكره بنحوه المحب الطبري في مناقب أمهات المؤمنين وقال: أخرجه ابن ماجه والحافظ الدمشقي في الموافقات.

فقام إلى امرأته فضربها، قال: فحجزت بينهما فرجع إلى فراشه فقال: يا أشعث احفظ عني شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ: «لَا تَسْأَلَنَّ رَجُلًا فِيمَ يَضْرِبُ امْرَأَتَهُ»^(١). وذكر حماد بن زيد عن أيوب، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع امرأته تكلم رجلاً من وراء جدار، بينها وبينه قرابة لا يعلمها ابن عمر، فجمع لها جرائد^(٢) ثم ضربها حتى أَضْبَتَ^(٣) حسيماً^(٤). وذكر الخرائطي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يأكل تفاحاً ومعه امرأته فدخل عليه غلامٌ له فناولته تفاحةً قد أكلت منها فأوجعها معاذ ضرباً. ودخل يوماً على امرأته وهي تَطْلُعُ في خباء آدم فضربها. وذكر الثوري عن أشعث عن الحسن أن امرأة جاءت تشكو زوجها إلى النبي ﷺ لطمها، فدعا الرجل ليأخذ حقها فأنزل الله عز وجل: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» [النساء: ٣٤] فقال رسول الله ﷺ: «أَرَدْنَا أُمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ أُمْرًا»^(٥) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد الغيرة وكانت امرأته تخرج فتشهد الصلاة فيكره ذلك فتقول: إن نهيتني انتهيت، فيسكت امتثالاً لقول رسول الله ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»^(٦) وهو الذي أشار على النبي ﷺ أن يَحْجُبَ نساءه، وكان عادة العرب أن المرأة لا تحتجب لنزاهتهم ونزاهة نساءهم، ثم قام الإسلام على ذلك، فقال عمر: يا رسول الله، لو حجبَت نساءك فإنه يدخل عليهن البرُّ والفاجر، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب^(٧). ورُفِعَ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلٌ قد قتل امرأته ومعها رجلٌ آخر، فقال أولياء المرأة: هذا قتل صاحبتنا، وقال أولياء الرجل: إنه قد قتل صاحبنا، فقال عمر رضي الله عنه: ما يقول هؤلاء؟ قال: ضرب الآخر فَخَذِي امرأته بالسيف فإن كان بينهما أحدٌ فقد قتلتها، فقال لهم عمر: ما يقول؟ فقالوا: ضرب بسيفه فقطع فَخَذِي المرأة فأصاب وسط الرجل فقطعه باثنتين، فقال عمر رضي الله عنه: إن عادوا فعُدْ. ذكره سعيد بن منصور في سننه.

(١) أخرجه ابن ماجة في النكاح باب ٥١.

(٢) الجرائد جمع جريدة: قضبان النخل يجرد عنها الخوص.

(٣) أَضْبَتَ الشيء: أخفاه.

(٤) الحسيس: الصوت الخفي.

(٥) في الإصابة لابن حجر: ذكر القصة مقاتل وعبد بن حميد والطبري وغيرهم. وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته علي البيضاوي: رواها أبو داود.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (١٦/٢، ٣٦، ١٥١، و ١٩٢/٥، ١٩٣، و ٢٩/٦) ومالك في القبلية حديث ١٢. والبخاري في الجمعة باب ١٣. ومسلم في الصلاة حديث ١٣٦. وأبو داود في الصلاة باب ٥٢. وابن ماجة في المقدمة باب ٢. والدارمي في الصلاة باب ٥٧.

(٧) أخرجه أحمد في المسند (٢٤/١، ٣٦، و ٢٢٣/٦، ٢٧١) والبخاري في الوضوء باب ١٣، والاستئذان باب ١٠. ومسلم في السلام حديث ١٨.

وأخذ بهذا جماعة من الفقهاء منهم الإمام أحمد وأصحابه رحمهم الله تعالى، قالوا لو وجد رجلاً يزني بامرأته فقتلها فلا قصاص عليه ولا ضمان، إلا أن تكون المرأة مُكْرَهَةً فعليه القصاص بقتلها، ولكن لا يُقبل قولُ الزوج إلا بتصديق الوليِّ أو بَيِّنَةٍ، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في عدد البينة فُرُوِيَّ عنه أنها رجلان، ويروى عنه لا بد من أربعة، ووجه هذه الرواية ظاهر حديث سعد بن عُبَادَةَ رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْتُ رجلاً مع امرأتي أمهله حتى آتي بأربعة شُهَدَاء؟ فقال النبي ﷺ: «نعم» فقال: والذي بعثك بالحق إِنْ كُنْتُ لأضربه بالسيف غَيْرَ مُصَفِّحٍ^(١) فقال النبي ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»^(٢).

وذكر سعيد بن منصور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن رجل دخل بيته فإذا مع امرأته رجلاً فقتلها وقتله، فقال علي رضي الله عنه: إِنْ جَاء بأربعة شُهَدَاء وَإِلَّا دُفِعَ بِرُمَّتِهِ^(٣). ووجهُ رواية الاكتفاء باثنين أن البينة ليست على إقامة الحد، ولكن على وجوب^(٤) السبب المانع من القصاص، فإن الزوج كان له أن يقتل المتعدي على أهله، ولكن لما أنكر أولياء القاتل طَوْلِبَ القاتلُ بالبينة فاكتفي برجلين. ورُفِعَ إلى عمر رضي الله عنه رجلٌ قد قتل يهوديًا فسأله عن قصته فقال: إِنْ فُلَانًا خَرَجَ غَازِيًا وَأَوْصَانِي بِامْرَأَتِهِ، فبلغني أن يهوديًا يختلف إليها فكمنت له حتى جاء، فجعل ينشد ويقول:

وَأَبْيَضَ غَرَّةَ الْإِسْلَامِ مِنِّي	خَلَوْتُ بِعَرْسِهِ لَيْلَ التَّمَامِ ^(٥)
أَبَيْتُ عَلَى تَرَائِبِهَا وَيَمْسِي	عَلَى جَرْدَاءٍ لَاحِقَةِ الْحِزَامِ
كَأَنَّ مَوَاضِعَ الرِّبَلَاتِ مِنْهَا	فَتَامٌ يَنْهَضُونَ إِلَى فِتَامِ ^(٦)

فكمنت إليه فقتلته، فأهدر عُمَرُ دَمَهُ^(٧) وليس في هذين الأمرين مطالبة عُمَرَ رضي الله عنه القاتل بالبينة إذا لَعَلَّهُ تَبَيَّنَ ذلك أو أَقَرَّ به الولي، والصواب أنه متى قام على ذلك دلالة ظاهرة لا تحتمل الكذب أغنت عن البينة. وذكر سفيان بن عُيَيْنَةَ عن الزهري، عن

(١) يقال. صفح فلاناً بالسيف: ضربه بعرضه لا بحده.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في لسان العرب لابن منظور: الرمة: قطعة حبل يشد بها الأسير أو القاتل إذا قيد إلى القتل، وقول علي يدل على هذا.

(٤) كذا.. ولعل الصواب: وجود.

(٥) العرس امرأة الرجل، والجمع أعراس، وربما سمي الرجل والأنثى عرسين. وليل التمام: أطول ليلة في السنة.

(٦) الربلات: جمع ريلة وهي باطن الفخذ. والفتام: وطاء يفرش في الهودج ونحوه.

(٧) أهدر دمه: أباح قتله.

القاسم بن محمد، عن عبيد بن عمير أن رجلاً أضاف إنساناً من هذيل فذهبت جارية لهم تحتطب فأرادها عن نفسها، فرمته بفهر^(١) فقتلته، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ذاك قتيل الله لا يودى^(٢) أبداً. وذكر حماد بن سلمة عن القاسم بن محمد أن أبا السّيارة أولع بامرأة أبي جندب يراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل فإن أبا جندب إن يعلم بهذا يقتلك، فأبى أن ينزع، فكلمت أخا أبا جندب فكلّمه فأبى أن ينزع^(٣)، فأخبرت بذلك أبا جندب، فقال أبو جندب: إني مخبر القوم أنني أذهب إلى الإبل، فإذا أظلمت جئت فدخلت البيت فإن جاءك فأدخله عليّ، فودّع أبو جندب القوم وأخبرهم: إني ذاهب إلى الإبل، فلما أظلم الليل جاء فكمن في البيت. وجاء أبو السّيارة وهي تطحن في ظلها، فراودها عن نفسها فقالت: ويحك! رأيت هذا الأمر تدعوني إليه هل دعوتك إلى شيء منه قط؟ قال: لا ولكن لا أصبر عنك، قالت: أدخل البيت حتى أتنيّ لك، فلما دخل البيت أغلق أبو جندب الباب ثم أخذه فدقّه من عنقه إلى عجب^(٤) ذنبه، فذهبت المرأة إلى أخي أبي جندب فقالت: أدرك الرجل فإن أبا جندب قاتله، فجعل أخوه يناشده فتركه، وحمله أبو جندب إلى مدرّجّة الإبل فألقاه. فكان إذ مرّ به إنسان قال له: ما شأنك؟ فيقول: وقعت من بكر^(٥) فحطمني، وبلغ الخبر عمر رضي الله عنه فأرسل إلى أبي جندب فأخبره بالأمر على وجهه، فأرسل إلى أهل المرأة فصدّقه، فجلد عمر أبا السّيارة مائة جلدة وأبطل ديتّه.

وذكر العباس بن هشام الكلبي عن أبيه أن عمرو بن حُمّة الدّوسيّ أتى مكة حاجاً، وكان من أجمل العرب، فنظرت إليه امرأة فقالت: لا أدري وجهه أحسن أم فرسه، وكان له جُمّة^(٦) تسمّى الزينة، فكان إذا جلس مع أصحابه نشرها، وإذا قام عقصها^(٧)، فقالت له المرأة: أين منزلك؟ قال: نجد، قالت: ما أنت بنجدي ولا تهمامي فاصدقني، فقال: رجل من أهل السّراة فيما بين مكة واليمن، ثم أشار إليها ارتدفي خلفي ففعلت، فمضى بها إلى السّراة وتبعها زوجها فلم يلحقها فرجع، فلما استقرت عنده قطع عروقه وقال:

(١) الفهر: الحجر ملء الكف، وقيل: الحجر عامة.

(٢) لا يودى: أي ليس له دية.

(٣) نزع عن الأمر: ترك وانتهى.

(٤) العجب: مؤخر كل شيء، وأصل الذنب، وعجب الذنب: جزء في أصل الذنب عند رأس العنصر.

(٥) البكر: الفتى من الإبل، والأنثى بكرة، والجمع أبكر وبكران.

(٦) الجمّة: مجتمع شعر الرأس.

(٧) عقص الشعر: ضفره ولبته على الرأس.

والله لا تتبعين بعدي رجلاً أبداً، ثم رَدَّها إلى زوجها على تلك الحال.

فصل: والله سبحانه وتعالى يغار على قلب عبده أن يكون مُعْطَلاً من حبه وخوفه ورجائه وأن يكون فيه غيره. فالله سبحانه وتعالى خلقه لنفسه واختاره من بين خلقه، كما في الأثر الإلهي: ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كلَّ شيء لك، فبحقِّي عليك لا تشتغل بما خلقتك لك عن ما خلقتك له. وفي أثر آخر: خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفَلْتُ لك برزقك فلا تتعب. يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كلَّ شيء، وإن فُتِّك فاتك كلَّ شيء، وأنا خيرُ لك من كل شيء، ويغار على لسانه أن يتعطل من ذكره ويشتغل بذكر غيره، ويغار على جوارحه أن تتعطل من طاعته وتشتغل بمعصيته، فيقْبَحُ بالعبد أن يغار مولاة الحق على قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها.

وإذا أراد الله بعبده خيراً سلَّط على قلبه إذا أَعْرَضَ عنه واشتغل بحبِّ غيره أنوع العذاب حتى يرجع قلبه إليه، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء. وهذا من غيرته سبحانه وتعالى على عبده، وكما أنه سبحانه وتعالى يغار على عبده المؤمن فهو يغار له ولحرمة، فلا يُمكن المفسد أن يتوصَّل إلى حرمة غيره منه لعبده، فإنَّه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم، وجوارحهم، وأهلهم، وحریمهم، وأموالهم، يتولَّى سبحانه الدفع عن ذلك كلِّه غَيْرَةً منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم. والله تعالى يغار على إمامه وعبيده من المفسدين شرعاً وقُدراً، ومن أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش وشرع عليها أعظم العقوبات وأشنَّع القتلَاتِ لشدَّة غيرته على إمامه وعبيده، فإنَّ عُطِّلَت هذه العقوبات شرعاً أجزاها سبحانه قُدراً.

فصل: ومن غيرته سبحانه وتعالى غَيْرَتُهُ على توحيدِهِ ودينه وكلامه أن يحظى به من ليس من أهله، بل حال بينهم وبينه غيره عليه، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥، والإسراء: ٤٦]. ولذلك ثَبَّتَ سبحانه أعداءه عن متابعة رسوله واللَّحاق به غَيْرَةً كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اتَّعِدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ. لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا حِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧] فغار سبحانه على نبيِّهِ بالفتنة فثَبَّطَهُم وأقعدهم عنهم. وسمع الشبلي رحمه الله تعالى قارئاً يقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]. فقال: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغيرة ولا أحدٌ أغير من الله، يعني أنه سبحانه وتعالى لم يجعل الكفار أهلاً لمعرفة. وهاهنا نوع من غيرة الرب سبحانه وتعالى لطيفٌ تهتدي إليه العقول، وهو أن العبد يُفْتَحُ له بابٌ من الصفاء والأنس

والوجود، فيساكنه ويطمئن إليه وتلتذ به نفسه فيشتغل به عن المقصود، فيغار عليه مولاه الحق فيخليه منه ويرُّه حينئذ إليه بالفقر والذلة والمسكنة، ويُشاهده غاية فقره وإعدامه^(١) وأنه ليس معه من نفسه شيء البتة، فتعود عزة ذلك الأنس والصفاء والوجود ذلة ومسكنة وفقرًا وفاقة، وذرة من هذا أحب إليه سبحانه وتعالى وأنفع للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء والأنس المجرد عن شهود الفقر والذلة والمسكنة. وهذا باب لا يتسع له قلب كل أحد.

فصل: ومن الغيرة الغيرة على دقيق العلم وما لا يدركه فهم السامع أن يذكر له. ولهذه الغيرة قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. فالعالم يغار على علمه أن يبدله لغير أهله، أو يضعه في غير محله كما قال عيسى ابن مريم عليه السلام: يا بني إسرائيل لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تبذلوها لغير أهلها فتظلموها.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. فقال للسائل: وما يؤمنك أني إن أخبرتك بتفسيرها كفرت؟ فإنك تكذب به^(٢) وتكذيبك بها كفرٌ بها. فالمسألة الدقيقة اللطيفة التي تُبدل لغير أهلها كالمرأة الحسناء التي تُهدى إلى ضرير مُقعد كما قيل:

* خَوْدٌ^(٣) تُزَفُّ إِلَى ضَرِيرٍ مُقْعَدٍ *

وكان أبو علي إذا وقع شيء في خلال مجلسه من تشويش الوقت يقول: هذا من غيرة الحق، يريد أن لا يجري ما يجري من صفاء الوقت، قال الشاعر:

هَمَّتْ بِإِيتَانِنَا حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَى الْمِرَّةِ نَهَاها وَجْهَهَا الْحَسَنُ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي مِنْ مُحَاسِنِهَا عُدْبَتٌ بِالْهَجَرِ حَتَّى شَفَنِي الْحَزَنُ

قال القُشَيْرِيُّ: وقيل لبعضهم: أَتَحِبُّ أَنْ تَرَاهُمْ؟ قال: لا، قيل: وَلِمَ؟ قال: أَتَزُّهُ ذَلِكَ الْجَمَالَ عَنْ نَظَرِ مِثْلِي، وفي معناه أَنشدوا:

إِنِّي لِأَحْسُدُ نَاطِرِي عَلَيْكَ حَتَّى أَغْضَّ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ
وَأَرَاكَ تَخْطُرُ فِي شِمَائِلِكَ الَّتِي هِيَ فَتَتِي فَأَغَارَ مِنْكَ عَلَيْكَ

(١) الإعدام والعدم: فقدان، وأعدم الرجل: افتقر.

(٢) كذا... ولعل الصواب بها.

(٣) الخود: الشابة الجميلة الناعمة الحسنة الخلق، جمعها خود وخودات.

قلت: وهذه غيرُ فاسدةٍ وغاية صاحبها أن يُفنى عنه وأن يعدَّ ذلك في شطحاته المذمومة، وأما أن تُعدَّ في مناقبه وفضائله أن يقال أحب أن ترى الله فيقول: لا ورؤيته أعلى نعيم أهل الجنة، وهو سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يسأله النظر إليه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشُّوقَ إِلَى لِقَائِكَ»^(١) وقول هذا القائل: أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي من خدع الشيطان والنفس، وهو يشبه ما يُحكى عن بعضهم أنه قيل له: ألا تذكره؟ فقال: أنزهه أن يجري ذكره على لساني، وطردُ هذا التنزيه الفاسد أن يتزهد أن يجري كلامه على لسانه أو يخطر هو أيضاً على قلبه، وقد وقع بعضهم في شيء من هذا فلاموه فأنشد:

يقولون زُزنا واقض واجب حقنا وقد أسقطت حالي حقوقهم عني
إذا هم رأوا حالي ولم يأنفوا لها ولم يأنفوا مني أنفت لهم مني
وطردُ هذه الغيرة أن لا يزور بيته غيرة على بيته أن يزوره مثله. ولقد لُمتُ شخصاً مرةً على ترك الصلاة فقال لي: إني لا أرى نفسي أهلاً أن أدخل بيته، فانظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء. ومن هذا ما ذكره القشيري قال: سئل الشبلي متى تستريح؟ فقال: إذا لم أر له ذاكراً. ومات ابنٌ له فقطعت أُمُّه شعرها فدخل هو الحمام ونور لحيته^(٢) حتى ذهب شعرها. فقيل له: لِمَ فعلت هذا؟ فقال: إنهم يعزوني على الغفلة^(٣) ويقولون: أجرك الله، ففديت ذكرهم الله تعالى على الغفلة بلحيتي وموافقة لأهلي. ونظير هذا ما يُحكى عن الثوري رحمه الله تعالى أنه سمع رجلاً يؤذُن فقال: طعنة وسمّ الموت، وسمع كلباً يَنْبُح فقال: لَبَّيْكَ وسعدَيْكَ، فسئل عن ذلك فقال: أما ذاك فكان يذكره على رأس الغفلة، وأما الكلب فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وسمع الشبلي مرةً رجلاً يقول: جل الله، فقال: أحب أن تجلّه عن هذا، ويا عجبا ممن يعدُّ هذا في مناقب رجلٍ ويجعله قدوةً ويزين به كتابه. وهل شيءٌ أشدُّ على قلب المؤمن وأمرٌ عليه من أن لا يرى لربه ذاكراً؟ وهل شيءٌ أقرّ لعينه من أن يرى ذاكرين الله بكل مكان، وعذرُ هذا القائل أنه لا يرى ذاكراً لله بحق الذكر، بل لا يرى ذاكراً إلا والغفلة والسهوة مستولية على قلبه، فيذكر ربّه بلسان فارغ من القلب وحضوره في الذكر، وذلك ذكرٌ لا يليق به، فيغار محبُّه أن يذكر بهذا الذكر فيحب أن لا يسمع أحداً يذكره هذا الذكر. ولما اشترك الناس في هذا الذكر أخبر أن راحته أن لا يرى له ذاكراً. هذا أحسن ما يُحمَل عليه

(١) تقدم هذا الحديث مطولاً ص ٢٣.

(٢) نور لحيته: دهنها بالنورة. والنورة: أخلاط تستعمل لإزالة الشعر.

(٣) أي على غفلتهم عن تعظيم الله.

كلامه، وإلا فظاهره إلى العداوة أقرب منه إلى المحبة. وليس هذا حال الشبلي رحمه الله تعالى فإن المحبة كانت تغلب عليه، ومع ذلك فهو من شطحاته التي يُرجى أن تُغفر له بصدقه ومحبه وتوحيده، لا أنها مما يُحمد عليه ويُتدنى به فيه.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يذكره على جميع أحوالهم وإن كان ذكرهم إيّاه مراتب، فأعلاها ذكر القلب واللسان مع شهود القلب للمذكور وجمعيته بكلية بأحب الأذكار إليه، ثم دونه ذكر القلب واللسان أيضاً وإن لم يشاهد المذكور، ثم ذكر القلب وحده، ثم ذكر اللسان وحده، فهذه مراتب الذكر وبعضها أحب إلى الله من بعض.

وكان طرّد قول الشبلي أن راحته أن لا يرى الله مصلياً، ولا لكلامه تالياً، ولا يرى أحداً ينطق بالشهادتين، فإن هذا كله من ذكره بل هو أعلى أنواع ذكره، فكيف يستريح قلب المحب إذا لم يرَ من يفعل ذلك؟ والله سبحانه وتعالى يحب أن يُذكر ولو كان من كافر.

وقال بعض السلف: إن الله يحب أن يُذكر على جميع الأحوال إلا في حال الجماع وقضاء الحاجة. وأوحى الله عز وجل إلى موسى ﷺ أن اذكرني على جميع أحوالك، والله تعالى لا يُضيع أجرَ ذكر اللسان المجرد، بل يثيب الذاكر وإن كان قلبه غافلاً، ولكن ثوابٌ دون ثواب.

قال القشيري: وسمعت الأستاذ أبا علي يقول في قول النبي ﷺ في مبايعته فرساً من أعرابي وأنه استقاله^(١) فأقاله، فقال له الأعرابي: عَمَرَكَ اللّهُ فَمَنْ أَنْتَ؟ فقال له النبي ﷺ: «أَمْرُوٌّ مِنْ قُرَيْشٍ» فقال له بعض الحاضرين: كفاك جفاءً أن لا تعرف نبيك. قال أبو علي: فإنما قال امرؤ من قريش غيره، وإلا كان واجباً عليه التعرف إلى كل أحد أنه من هو، ثم إن الله أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي، فيقال: من العجب أن يقال: إن النبي ﷺ غار أن يذكر أنه رسول الله ﷺ للأعرابي الذي لا يعرفه، وهو كان دائماً يذكر ذلك لأعدائه من الكفار سراً وجهاً ليلاً ونهاراً ولا يغار من ذلك، فكيف يُظن به أنه غار أن يعرف ذلك المسكين أنه رسول الله ﷺ؟ هذا من خيالات القوم وتُرّهاتهم^(٢) وإنما ستر عنه ذلك الوقت معرفته له لحكمة لطيفة فهمها الصحابي فصّرّح بها للأعرابي، وهي أن الأعرابي كان جافياً جلفاً^(٣) فأحب النبي ﷺ أن يعرفه جفاءً وجلفاً بطريق لا يبيته بها ويعرف من نفسه أنه أهلٌ لذلك، فكانه يقول بلسان الحال: كفاك جفاءً أن

(١) استقاله البيع: طلب إليه أن يقيه، أي يفسخ البيع.

(٢) جمع تره: الباطل.

(٣) الجلف: الرجل الجافي.

تجهلني فتسألني من أنا، فلما فهم الصحابي ذلك بلطف إدراكه ودقة فهمه فبادأه به وقال: كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك .

ثم ذكر القشيري كلام الشبلي أنه قال: غيرة الإلهية على الأنفاس أن تضيق فيما سوى الله، وهذا كلام حسن .

قال القشيري: والواجب أن يقال: الغيرة غيـرتان: غيرة الحق على العبد، وهو أن لا يجعله للخلق فيضن به عليهم، وغيرة العبد للحق، وهو أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحق سبحانه، فلا يقال: أنا أغار على الله ولكن يقال: أنا أغار الله، قال: فإذا الغيرة على الله جهل، وربما تؤدي إلى ترك الدين .

والغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له، فمن سئته الحق مع أوليائه أنهم إذا ساكنوا غيراً أو لاحظوا شيئاً أو صالحوا بقلوبهم شيئاً يشوش عليهم ذلك، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه فارغة، كآدم عليه السلام لما وطن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه من الجنة، وإبراهيم الخليل عليه السلام لما أعجبه إسماعيل أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه، فلما أسلما وتلّه للجبين وصفى سرّه منه أمره بالفداء عنه . وقال بعضهم: احذروه فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه . وقيل: الحق تعالى غيور ومن غيـرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه .

وقال السريّ لرجل عارف: بي علّة باطنة فما دواؤها؟ قال: يا سريّ الله غيورٌ لا يراك تساكُن غيره فتسقط من عينه . فهذه غيرة صحيحة .

فصل: وهاهنا أقسام آخر من الغيرة مذمومة منها: غيرةٌ يحمل عليها سوء الظن فيؤذي بها المحبّ محبوبه ويغري عليه قلبه بالغضب، وهذه الغيرة يكرها الله إذا كانت في غير ربيّة، ومنها غيرةٌ تحمله على عقوبة المحبوب بأكثر مما يستحقه كما ذكر عن جماعة أنهم قتلوا محبوبهم . وكان ديك الجنّ الشاعر له غلامٌ وجاريةٌ في غاية الجمال وكان يهواهما جميعاً، فدخل المنزل يوماً فوجد الجارية معانقةً للغلام تقبله فشدّ عليهما فقتلها، ثم جلس عند رأس الجارية فبكاه طويلاً ثم قال:

يا طلعةً طلع الحمام ^(١) عليها	وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتي من شفتيها
وأجلت سيفي في مَجَالِ خناقها	ومدامعي تجري على خديها
فَوَحَقَّ نعلها فما وطىء الثرى	شيءٌ أعزُّ عليّ من نعلها

(١) الحمام: قضاء الموت وقدره .

ما كان قَتْلُهَا لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَبْكِي إِذَا سَقَطَ الْغَارُ عَلَيْهَا
لَكِنْ بَخَلْتُ عَلَى سِوَايَ بِحَسْنِهَا وَأَنْفَسْتُ مِنْ نَظَرِ الْغَلَامِ إِلَيْهَا
ثم جلس عند رأس الغلام فبكى وأنشأ يقول:

أَشْفَقْتُ أَنْ يَرِدَ الزَّمَانُ بَعْدَهُ أَوْ أُبْتَلَى بَعْدَ الْوَفَاءِ بِهَجْرِهِ
قَمَرٌ أَنَا اسْتَخْرَجْتَهُ مِنْ دَجْنِهِ^(١) بِمُودَّتِي وَجَنِيَّتِهِ مِنْ خِذْرِهِ
فَقَتَلْتَهُ وَلَهُ عَلَيَّ كَرَامَةٌ مِلءَ الْحِشَاءِ وَلَهُ الْفُؤَادُ بِأَسْرِهِ
عَهْدِي بِهِ مَيْتًا كَأَحْسَنِ نَائِمٍ وَالْدَمْعُ يَنْحَرُ مُقْلَتِي فِي نَحْرِهِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي الْمَيْتُ مَاذَا بَعْدَهُ بِالْحَيِّ مِنْهُ بَكَى لَهُ فِي قَبْرِهِ
غُصَصُ^(٢) تَكَادَ تَفِيضُ مِنْهَا نَفْسُهُ وَيَكَادُ يَخْرُجُ قَلْبُهُ مِنْ صَدْرِهِ

فصل: وقد يغار المحب على محبوبه من نفسه، وهذا من أعجب الغيرة وله أسباب:

منها: خشيته ان يكون مفتاحاً لغيره كما ذكر أن الحسن بن هانئ وعلي بن عبد الله الجعفري اجتمعا فتناشدا فأنشد الحسن^(٣):

وَلَمَّا بَدَأَ لِي أَنْهَا لَا تَوَدُّنِي وَأَنْ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمَنْجَلِي
تَمَنَيْتُ أَنْ تُبْلَى بِغَيْرِي لَعَلَّهَا تَذُوقُ حَرَارَاتِ الْهَوَى فَتَرَقَّ لِي
فأنشده علي:

رَبِّمَا سَرَّ نِي صَدُودُكَ عَنِّي فِي طَلَائِيكَ وَامْتِنَاعِكَ مِنِّي
حَذَرًا أَنْ أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِي فَإِذَا مَا خَلَوْتُ كُنْتَ التَّمَنِّي

وكان بعضهم يمتنع من وصف محبوبه وذكر محاسنه خشية تعريضه لحب غيره له كما قال علي بن عيسى الرافقي:

وَلَسْتُ بِوَاصِفٍ أَبَدًا خَلِيلًا أَعْرَضَهُ لِأَهْوَاءِ الرِّجَالِ
وَمَا بِأَلِي أَشْوَقُ قَلْبَ غَيْرِي وَدُونَ وَصَالِهِ سِتْرُ الْحِجَالِ
وَكَثِيرٌ مِنَ الْجَهَالِ وَصَفَ امْرَأَتَهُ وَمَحَاسِنَهَا لِغَيْرِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ فِرَاقِهَا لَهُ وَاتِّصَالِهَا بِهِ.

(١) الدجنة والدجنة: الغيم المطبق والظلمة.

(٢) جمع غصة: وهي الشجا والهَم والحزن وما غص به الإنسان من طعام أو غيظ.

(٣) هو أبو نواس، وفي كتاب الأغاني للأصبهاني أن هذين البيتين واللذين بعدهما كلها لعلي بن عبد الله الجعفري.

فصل: ومنها: أن يحمله فرط الغيرة على أن ينزل نفسه منزلة الأجنبي فيغار على المحبوب من نفسه، ولا يُنكر هذا فإن في المحبة عجائب، وقد قال أبو تمام الطائي^(١):

وأحسد أهله نظري إليه
عيون الناس من حذري عليه
وأمسك مهجتي رهناً لديه
بلا روح وقلبي في يديه

بنفسي من أغار عليه مني
ولو أني قد رث طمست عنه
حبيب بث في جسمي هواه
فروحي عنده والجسم خال
وقال آخر:

لذ الحديث به وطاب المجلس
بك عن سواي من الأنام لأنفس
خضل المدامع مطرقاً أنفـس
ومن الحياة وروحها مستئـس

يا من إذا ذكر اسمه في مجلس
إنني لمن نظري أغار وإنني
نفسي فداؤك ولو رأيت تلدي^(٢)
لعلمت أني في هواك مُعذَّب
وقال علي بن نصر:

وحسن الوجه يفتك بالقلوب
بليت بها فأضحت من نصيي
تقيقك من الحوادث والخطوب
صياتهن من دنس^(٣) الذنوب

أفاتك أنت فاتكة بقلبي
أصونك عن جميع الناس يا من
وعن نفسي أصونك ليت نفسي
وما حق الحسان علي إلا

فصل: ومنها: شدة الموافقة للحبيب، والحبيب يكره أن ينسب محبته إليه وأن يذكر ذلك، فهو لموافقته لمحجوبه يغار عليه من نفسه كما يسره هجر محجوبه إذا علم أن فيه مراده، قال الشاعر:

ست أن لقلبك فيه سرورا
ولا كنت يوماً عليه صبورا

سُررتُ بهجرك لما علم
ولولا سرورك ما سرتني

فصل: وملاك الغيرة وأعلامها ثلاثة أنواع: غيرة العبد لربه أن تتهك محارمه وتضيع حدوده، وغيرة على قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأنس بسواه، وغيرة على حرمة أن يتطلع إليها غيره. فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة، وما

(١) أبيات ليست في ديوان أبي تمام المطبوع.

(٢) التحير والتردد.

(٣) الدنس: الفجح والوسخ وفعل ما يشين.

عداها فإما من خدع الشيطان، وإما بلوى من الله كغيرة المرأة على زوجها أن يتزوج عليها. فإن قيل: فمن أي الأنواع تعدون غيرة فاطمة رضي الله عنها ابنة رسول الله ﷺ على علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما عزم على نكاح ابنة أبي جهل، وغيرة رسول الله ﷺ لها؟ قيل: من الغيرة التي يحبها الله ورسوله، وقد أشار إليها النبي ﷺ بأنها بضعة^(١) منه وأنه يؤذيه ما آذاها، ويؤريه ما أرابها^(٢)، ولم يكن يحسن ذلك الاجتماع البتة، فإن بنت رسول الله ﷺ لا يحسن أن تجتمع مع بنت عدوه عند رجل، فإن هذا في غاية المنافرة مع أن ذكر النبي ﷺ صهره الذي حدّثه فصدقه ووعدّه فوفى له دليل على أن علياً رضي الله عنه كان مشروطاً عليه في العقد إما لفظاً وإما عرفاً وحالاً أن لا يُريب فاطمة ولا يؤذيها بل يمسكها بالمعروف، وليس من المعروف أن يضم إليها بنت عدو الله ورسوله ويغيطها بها، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِلَّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَتَزَوَّجَ ابْنَةَ أَبِي جَهْلٍ»^(٣) والشرط العرفي الحالي كالشرط اللفظي عند كثير من الفقهاء كفقهاء المدينة وأحمد بن حنبل وأصحابه رحمهم الله تعالى، على أن رسول الله ﷺ خاف عليها الفتنة في دينها باجتماعها وبنت عدو الله عنده، فلم تكن غيرته ﷺ لمجرد كراهية الطبع للمشاركة، بل الحامل عليها حرمة الدين. وقد أشار إلى هذا بقوله: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَنَ فِي دِينِهَا»^(٤) والله أعلم بالصواب.

(١) البضعة منه: جزء منه. والبضعة: القطعة من اللحم.

(٢) أرابها: أغاظها وأقلقها.

(٣) روى هذه القصة البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.

(٤) تكملة الحديث السابق في بعض الروايات.

في عفاف المحبين مع أحبائهم

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٧]. ولما أنزلت هذه الآيات على النبي ﷺ قال: «قَدْ أَنْزِلْتُ عَلَيَّ عَشْرَ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١). ثم قرأ هذه الآيات.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المعارج: ١٩، ٢٩، ٣٠، ٣١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَغَضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]. الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]. فإن قيل فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢]. فأمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالى يغنيهم، فما محمل كل من الآيتين؟ فالجواب أن قوله: ﴿وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] في حق الأحرار، أمرهم الله تعالى أن يستغفروا حتى يغنيهم الله من فضله، فإنهم إن تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدرُوا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم،

(١) رواه الترمذي كما جاء في تفسير الخازن. وقال الخفاجي في حاشيته على البيضاوي: الحديث وارد في السنن لكنهم اختلفوا في صحته وضعفه.

وأما قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. فإنه سبحانه أمرهم فيها أَنْ يَنْكِحُوا الْأَيَامَى وَهِنَّ النِّسَاءُ اللَّوَاتِي لَا أَزْوَاجَ لَهُنَّ، هذا هو المشهور من لفظ الأيتام عند الإطلاق وإن استعمل في حق الرجل بالقياس، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل وإن استعمل في حق المرأة. ثم أمرهم سبحانه أَنْ يَزَوْجُوا عِبِيدَهُمْ وَإِمَاءَهُمْ إِذَا صَلَحُوا لِلنِّكَاحِ، فالآية الأولى في حكم تزويجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم. وقوله في هذا القسم: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ [النور: ٣٢]. يَعُمُّ الْأَنْوَاعَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهِ، فَإِنَّ الْأَيْتِمَ تَسْتَغْنِي بِنَفَقَةِ زَوْجِهَا وَكَذَلِكَ الْأُمَّةُ، وَأما العبد فإنه لما كَانَ لَا مَالَ لَهُ وَإِنْ مَالُهُ لِسَيِّدِهِ فَهُوَ فَقِيرٌ مَا دَامَ رَقِيقًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ لِنِكَاحِهِ غَايَةٌ وَهِيَ غِنَاهُ مَا دَامَ عَبْدًا، بَلْ غِنَاهُ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا عَتَقَ وَاسْتَغْنَى بِهَذَا الْعِتْقِ، وَالْحَاجَةُ تَدْعُوهُ إِلَى النِّكَاحِ فِي الرَّقِّ، فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالنِّكَاحِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْنِيهِ مِنْ فَضْلِهِ، إِمَّا بِكَسْبِهِ وَإِمَّا بِإِنْفَاقِ سَيِّدِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْرَاتِهِ، فَلَمْ يُمْكِنَ أَنْ يَنْتَظِرَ بِنِكَاحِهِ الْغَنَى الَّذِي يَنْتَظِرُ بِنِكَاحِ الْحَرِّ وَاللَّهِ أَعْلَمُ.

وفي المسند وغيره مرفوعاً: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْمَتَزَوِّجُ يُرِيدُ الْعَفَافَ، وَالْمُكَاتَّبُ يُرِيدُ الْأَدَاءَ»، وذكر الثالث^(١).

فصل: وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عَنْ يَوْسُفَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْعَفَافِ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ الَّذِي اجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ لَمْ يَجْتَمِعْ فِي حَقِّ غَيْرِهِ فَإِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ شَابًّا وَالشَّبَابُ مَرْكَبُ الشَّهْوَةِ، وَكَانَ عَزَبًا لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يَعْوِضُهُ، وَكَانَ غَرِيبًا عَنْ أَهْلِهِ وَوُطْنِهِ. وَالْمَقِيمُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ يَسْتَحْيِي مِنْهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا بِهِ فَيَسْقُطَ مِنْ عِيُونِهِمْ، فَإِذَا تَغَرَّبَ زَالَ هَذَا الْمَانِعُ، وَكَانَ فِي صُورَةِ الْمَمْلُوكِ وَالْعَبْدُ لَا يَأْتِفُ مِمَّا يَأْتِفُ مِنْهُ الْحَرُّ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ وَالدَّاعِي مَعَ ذَلِكَ أَقْوَى مِنْ دَاعِي مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَكَانَتِ هِيَ الْمَطَالِبَةُ فَيَزُولُ بِذَلِكَ كُلُّهُ تَعَرُّضَ الرَّجُلِ وَطَلْبِهِ وَخَوْفِهِ مِنْ عَدَمِ الْإِجَابَةِ، وَزَادَتْ مَعَ الطَّلَبِ الرِّغْبَةُ التَّامَّةُ وَالْمَرَاوَدَةُ الَّتِي يَزُولُ مَعَهَا ظَنُّ الْامْتِحَانِ وَالْإِحْتِبَارِ لِتَعَلُّمِ عَفَافِهِ مِنْ فَجْورِهِ، وَكَانَتِ فِي مَحَلِّ سُلْطَانِهَا وَبَيْتِهَا بِحَيْثُ تَعْرِفُ وَقْتَ الْإِمْكَانِ وَمَكَانَهُ الَّذِي لَا تَنَالُهُ الْعِيُونُ، وَزَادَتْ مَعَ ذَلِكَ تَغْلِيْقَ الْأَبْوَابِ لِتَأْمَنِ هَجُومَ الدَّخَالِ عَلَى بَغْتَةٍ، وَأَتَتْهُ بِالرِّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَعَفَّ اللَّهُ وَلَمْ يُطْعَمْ، وَقَدَّمَ حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ سَيِّدِهَا عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَوْ ابْتُلِيَ بِهِ سِوَاهُ لَمْ يُعْلَمْ كَيْفَ كَانَتْ تَكُونُ حَالَهُ. فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ هَمَّ بِهَا، قِيلَ عَنْهُ جَوَابَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَمْ يَهْمُ بِهَا بَلْ لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَهُمَّ، هَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ

(١) أخرجه في المسند (٢/ ٢٥١، ٤٧٧) والترمذي في فضائل الجهاد باب ٢٠. والنسائي في النكاح باب

٥. وابن ماجه في العتق باب ٣.

في تقدير الآية. والثاني وهو الصواب: أن همّة كان همّ خطرات فتركه الله فأثابه الله عليه وهمّها كان همّ إصرارٍ بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستوِ الهَمَّان.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: اللهم همّان: همّ خطرات وهمّ إصرار، فهمّ الخطرات لا يؤاخذ به، وهم الإصرار يؤاخذ به. فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣]. قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين وخالفهم في ذلك آخرون أجلّ منهم وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام، والصوابُ معهم لوجوه، أحدها: أنه متصلٌ بكلام المرأة وهو قولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ. وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥١ - ٥٣]. ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قولٍ لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل هذا لا يحذف لثلاث يوقع في اللبس^(١) فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً. الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]. والسياق صريح في ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]. فأرسل إليهنَّ الملك وأحضرهن وسألهنَّ وفيهنَّ امرأته، فشهدنَ ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يُمكنهنَّ إلا قول الحق فقال النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]. وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] لكن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام، أي إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أنني لم أخنه في امرأته في حال غيبته وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم إنه ﷺ قال: ﴿وما أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مِنْ رَحِمِ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذا من تمام معرفته ﷺ بربه ونفسه، فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قُذِفَ به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزيكها ولا يبرئها، فإنها أماراة بالسوء لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فردَّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته، قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفة فالصواب أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدُلُّ عليه وهو قول النسوة: ﴿وَمَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]. وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ

(١) اللبس: الشبهة تخفى معها حقيقة الأمر. ولبس الشيء: خلطه وعماه، ولبس عليه الأمر: جعله مشكلاً ومدعاة إلى الشك والحيرة.

نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿يوسف: ٥١﴾. فهذه خمسة ضمائر بين بارزٍ ومستتر ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]. فهذا هو المذكور أولاً بعينه فلا شيء يَفْصِلُ الكلام عن نظمه ويَضْمَرُ فيه قولٌ لا دليل عليه. فإن قيل فما معنى قولها: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]. قيل: هذا تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت: ذلك أي قولي هذا وإقرارى ببراءته ليعلم أنني لم أخنهُ بالكذب عليه في غيبته وإن خنته في وجهه في أوّل الأمر، فالآن يعلم أنني لم أخنهُ في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣]. ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسي، وهي أن النفس أمارة بالسوء، فتأمل ما أعجب أمرَ هذه المرأة! أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عُرْضَةٌ للشَّرِّ، فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلامَ يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يُسْتَبَعْدُ أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك فإن القوم كانوا يَمُرُّونَ بِالرَّبِّ سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنسَ قولَ سيدها لها في أوّل الحال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

فصل: وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَمَلِّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ قال: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ يَمْشُونَ إِذْ أَخَذَتْهُمُ السَّمَاءُ فَأَوَّأُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَأُطْبِقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْظَرُوا أَعْمَالًا صَالِحَةً عَمِلْتُمُوهَا فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَةٌ وَصَبِيَانٌ وَكُنْتُ أَرْغَى عَلَيْهِمْ فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَإِنَّهُ نَأَى بِي الشَّجَرُ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٣٩٢) والبخاري في الأذان باب ٢٦، والزكاة باب ١٦، والرقاق باب ٢٤، والحدود باب ١٩. ومسلم في الزكاة حديث ٩١. والترمذي في الزهد باب ٥٣. والنسائي في القضاة حديث ٢. ومالك في الشعر حديث ٤.

فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلِبُ فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَنْ أَبْدَأَ بِالصَّبِيَةِ قَبْلَهُمَا وَالصَّبِيَةُ يَتَضَاغُونَ^(١) عِنْدَ قَدَمِي فَلَمْ أَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً. وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةٌ عَمٌّ فَأَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتَيْتَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَحَبَبْتُهَا بِهَا فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَى اللَّهُ وَلَا تَقْضُ الْحَاقِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارَ فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً. فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا يَفْرُقُ^(٢) مِنْ أُرْدُ فُلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي فَأَعْطَيْتُهُ فَأَبَى أَنْ يَأْخُذَهُ فَرَزَعْتُهُ وَنَمَيْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ لَهُ بَقْرًا وَرَعَاءَهَا^(٣) فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا هَذَا أَتَى اللَّهُ وَلَا تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرَعَائِهَا فَهُوَ لَكَ، فَقَالَ: أَتَى اللَّهُ وَلَا تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: لَا اسْتَهْزِئْ بِكَ فَخُذْ ذَلِكَ، فَأَخَذَهَا وَذَهَبَ فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا بَقِيَ مِنَ الصَّخْرَةِ فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَخَرَجُوا يَمْشُونَ^(٤).

وقال عبيد الله بن موسى: حدثنا شَيْبَانُ بن عبد الرحمن، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله الرازي، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين حتى عدَّ سبع مرَّات ما حدَّثت به، ولكن سمعته أكثر من ذلك قال: «كَانَ ذُو الْكُفْلِ^(٥) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمَلَهُ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِينَ دِينَاراً عَلَى أَنْ يَطَّأَهَا فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنَ الْمَرْأَةِ أُرْعِدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ أَكْرَهْتُكَ؟ قَالَتْ: لَا وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ! قَالَ: فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ؟ قَالَتْ: حَمَلْتَنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ فَتَرَكَهَا ثُمَّ قَالَ: اذْهَبِي وَالذَّنَانِيرُ لَكَ ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَعْصِي اللَّهَ ذُو الْكُفْلِ أَبَدًا فَمَاتَ مَنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِهِ: غَفَرَ اللَّهُ لَذِي الْكُفْلِ^(٦)». وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله

(١) يتضاغون: يتضورون ويصيحون من الجوع.

(٢) الفرق: مكيال معروف بالمدينة يسع ثلاثة أصع أو ستة عشر رطلاً أو أربعة أرباع.

(٣) رعاء: جمع رعية وهي الكلا أو جمع راع.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع باب ٩٨، والإجارة باب ١٢، والحرث باب ١٧. وأحمد في المسند (١١٦/٢، ٢٧٤/٤، ٢٧٥).

(٥) في الجامع الصحيح: الكفل وكذلك هو في تهذيب التهذيب في ترجمة سعد مولى طلحة راوي القصة عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٢٣/٢) والترمذي في القيامة باب ٤٨.

من حديث عُقْبَةَ بن عامر الجُهَنِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبُوءٌ»^(١).

وذكر المبرّد عن أبي كامل، عن إسحاق بن إبراهيم، عن رجاء بن عمرو النخعي، قال: كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبّد والاجتهاد فنزل في جوار قوم من النّخع، فنظر إلى جاريةٍ منهم جميلةً فهويها وهام بها عقله، ونزل بالجارية ما نزل به فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسّاة لابن عمّ لها^(٢)، فلما اشتدّ عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدّة محبتك لي وقد اشتدّ بلائي بك، فإن شئت زرتك، وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي، فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]، ويونس: ١٥، والزمر: ١٣]. أخاف ناراً لا يخب سعيها، ولا يحمد لهيها، فلما أبلغها الرسول قوله قالت: وأراه مع هذا يخاف الله؟ والله ما أحدٌ أحقّ بهذا من أحدٍ، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها^(٣) خلف ظهرها وجعلت تتعبّد، وهي مع ذلك تذوب وتنحلّ حبّاً للفتى وشوقاً إليه حتى ماتت من ذلك، فكان الفتى يأتي قبرها فيكي عنده ويدعو لها، فغلّبه عينه ذات يوم على قبرها فرآها في منامه في أحسن منظر فقال: كيف أنت وما لقيت بعدي؟ قالت:

نعمَ المحبة يا سُؤلي^(٤) محبتكم حبٌّ يقود إلى خير وإحسان
فقال: على ذلك إلى مَ صرت؟ فقالت:

إلى نعيمٍ وعيشٍ لا زوال له في جنّة الخلد ملك ليس بالفاني
فقال لها: اذكريني هناك فإني لست أنساك، فقالت: ولا أنا والله أنساك، ولقد سألت مولاي ومولاك أن يجمع بيننا فأعني على ذلك بالاجتهاد، فقال لها: متى أراك؟ فقالت: ستأتينا عن قريبٍ فترانا، فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليالٍ حتى مات رحمه الله تعالى.

وذكر الزُّبَيْرُ بن بكار أن عبد الرحمن بن أبي عمّار نزل مكة وكان من عبّاد أهلها فسمي القس من عبادته، فمرّ يوماً بجارية تغني فوقف فسمع غناءها فرآها مولاها فأمره أن

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٥١/٤).

(٢) مسماة له وعليه: مخطوبة له.

(٣) جمع علاقة: وهي ما تعلق بها من مال وزوج وولد.

(٤) السؤل: ما سأله. والحاجة.

يدخل عليها فأبى، فقال: فاقعد في مكانٍ تسمع غناءها ولا تراها، ففعل فأعجبته، فقال له مولاه له: لك أن أُحوِّلَهَا إليك؟ فامتنع بعض الامتناع ثم أجابه إلى ذلك، فنظر إليها فأعجبته فشغف بها وشغفت به، وعلم بذلك أهل مكة، فقالت له ذات يوم: أنا والله أحبك، فقال: وأنا والله أحبك، قالت: فإني والله أحب أن أضع فمي على فمك، قال: وأنا والله أحب ذلك، قالت: فما يمنعك فإن الموضع خالٍ؟ قال لها: ويحك إني سمعت الله يقول: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. فأنا والله أكره أن يكون صلة ما بيني وبينك في الدنيا عداوة في القيامة، ثم نهض وعينه تَدْرِفَان بالدموع من حبِّها.

وقال عبد الملك بن قُرَيْبٍ^(١): قلت لأعرابي: حدثني عن ليلتك مع فلانة قال: نعم خلوت بها والقمر يُرينها فلما غاب أَرْتِيهِ، قلت: فما كان بينكما؟ قال: أقرب ما أحلَّ الله مما حرَّم الله: الإشارة بغير ما باس، والدُّنُوْ بغير إمساس، ولعمري لئن كانت الأيام طالت بعدها لقد كانت قصيرة معها وحسبك بالحب:

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ إلا نهاني الحياء والكرم
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي ولا مَشَتْ بي لرييةٍ قدم
وقال آخر:

وَصَفَّوْهَا فَلَمْ أَزَلْ عِلْمَ الدِّ هُ كَثِيئاً مُسْتَوْلِهاً مُسْتَهَاماً^(٢)
هَلْ عَلَيْهَا فِي نَظَرٍ مِنْ جُنَاح مِنْ فَتَى لَا يَزُورُ إِلَّا لِمَاماً^(٣)
حَالٍ فِيهَا الْإِسْلَامُ دُونَ هَوَاهُ فَهُوَ يَهْوِي وَيَحْفَظُ الْإِسْلَامَا
وَيَمِيلُ الْهَوَى بِهِ ثُمَّ يَخْشَى أَنْ يَطِيعَ الْهَوَى فَيَلْقَى أَثَامَا
وقال الحسين بن مُطَيْر:

أَحْبُّكَ يَا سَلَمَى عَلَى غَيْرِ رِيَّةٍ وَلَا بِأَسْ فِي حُبِّ تَعَفُّ سَرَائِرُهُ
أَحْبُّكَ حُبًّا لَا أَعْنَفُ بَعْدَهُ مَجَبًّا وَلَكِنِّي إِذَا لَيْمَ عَاذَرُهُ
وَقَدْ مَاتَ قَلْبِي أَوَّلَ الْحُبِّ مَرَّةً وَلَوْ مِتُّ أَضْحَى الْحُبُّ قَدْ مَاتَ آخَرُهُ
وقال محمد بن أبي زُرْعَةَ الدمشقي:
إِنْ حَظَّنِي مِمَّنْ أَحَبَّ كَفَافٌ^(٤) لَا صَدُودٌ مُقْصِرٌ وَلَا إِنْصَافٌ

(١) هو الأصمعي.

(٢) مستولهاً: مضطرب العقل. ومستهاماً: هائماً.

(٣) لا يزور إلا لماماً: في الأحايين.

(٤) كفاف: قليل والكفاف من الرزق ما كف عن الناس أي أغنى. وفي الحديث «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً».

كلما قلت قد أنابت إلى الوصل
فكأنني بين الصدود وبين الـ
في محلّ بين الجنان وبين النـ
ل ثناها عما أريد العفاف
وصل ممن مقامه الأعراف^(١)
ر أرجو طَوْرًا وطَوْرًا أخاف

وقال عثمان بن الضحاك الحزامي: خرجت أريد الحج فنزلت بالأبواء، فإذا امرأة جالسة على باب خيمة فأعجبني حسنهما فتمثلت بقول نُصَيْب:

بزينب أَلَم^(٢) قبل أن يرحل الركبُ وقل إن تَمَلَّينا فما مَلِكِ القلبُ

فقلت: يا هذا أتعرف قائل هذا الشعر؟ قلت: نعم نُصَيْب، قالت: فتعرف زينبه؟ قلت: لا، قالت: فأنا زينبه، قلت: حياك الله، قالت: أما إن اليوم موعده من عند أمير المؤمنين، خرج إليه عام أوّل فوعدني هذا اليوم، لعلك لا تبرح حتى تراه، قال: فبينما أنا كذلك إذا أنا براكب، قالت: ترى ذلك الراكب؟ إني لأحسبه إياه، قال: فأقبل فإذا هو نُصَيْب، فنزل قريباً من الخيمة ثم أقبل فسلم حتى جلس قريباً منها يسألهما وتساؤلها أن ينشدها ما أحدث فأنشدها، فقلت في نفسي: محبان طال التناهي بينهما لا بدّ أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقممت إلى بعيري لأشدّ عليه، فقال: على رسلك إني معك، فجلست حتى نهض معي فتسايرنا ثم التفت إليّ فقال: أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول التناهي فلا بدّ أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة؟ قلت: نعم قد كان ذلك، قال: وربّ هذه البَيَّة ما جلست منها مجلساً هو أقرب من هذا.

وقال عُمر بن شَبَّه: حدّثنا أبو غَسَّان قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولاً يفرح أن يرى من يراها، فإن ظفّر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار. واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدها وتعهده فإذا التقيا لم يشكّ حبّاً ولم ينشد شعراً، وقام إليها كأنه قد أشهد على نكاحها أبا هريرة رضي الله عنه. وقال محمد بن سيرين: كانوا يعشقون في غير رِيَّة، وكان الرجل يأتي إلى القوم فيتحدّث عندهم لا يستنكر له ذلك. وقال هشام بن حسان: لكن اليوم لا يرُضُون إلاّ بالمواقعة. وقيل لأعرابي: ما تعدّون العشق فيكم؟ قال: القُبلة والضمّة والغمزة، وإذا نكح الحبّ فسد. وقال المبرّد: كان العتبيّ يحبّ جارية تسمّى ملك، فكتب إليها:

يا مَلِك قد صرت إلى خُطّة رضىتُ منها فيك بالضَّيْم^(٣)

(١) الأعراف: قيل هو سور بين الجنة والنار.

(٢) أَلَم: انزل. والإلمام النزول.

(٣) الضيم: الظلم.

ما اشتملت عيني على رَقدة
فبت مفتوقَ مجاري البكا
ووجدي الدهرَ بكم غَلَمَةً
يلومني الناس على حبكم
مذ غبت عن عيني إلى اليوم
معطّل العين عن النوم
فالموت من نفسي على سَوم^(١)
والناس أولى فيك باللوم
قال فكتبت إليه :

إن تكن الغَلَمَةُ هاجت بكم
ليس بك الحبُّ ولكنَّما
يقال : كام الفحل يَكُومُ كَوْمًا إذا نزا على الحِجْرَةِ^(٢) وأرادت هذه المعشوقة قول
النبي ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ
لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ »^(٣).

وقال أبو الحسن المدائني : هَوِيَ بعضُ المسلمين جاريةً بمكة فأرادها فامتنعت
عليه، فقال على لسان عطاء بن أبي رباح :
سألت الفتى^(٤) المكيَّ هل في تعانقي
فقال معاذُ الله أن يذهبَ التقى
فقلت : آله سألت عطاءً عن ذلك فقال لك هذا؟ فقال : اللهم نعم، فزارته
وجعلت تقول : إِيَّاكَ أن تتعدَّى ما أفتاك به عطاء .

وقال الزُّبَيْر بن بَكَار عن عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون قال : أنشدت
محمد بن المُنْكَدِر قولَ وَضَّاحِ اليَمَن :
فما نَوَّلْتُ حتى تضرَّعت حولها وأقراؤها ما رخص الله في اللَّمَمِ^(٥)
فضحك محمد وقال : إن كان وَضَّاحٌ لِمُفْتِيَا في نفسه .

وقال الأصمعيّ : قيل لأعرابيٍّ : ما كنت صانعاً لو ظفرت بمن تهوى؟ قال : كنت

(١) على سوم : أي يطلبها ويحوم حولها .

(٢) هي الأنثى من الخيل ، وأكثر اللغويين يقولون بغيرها .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥٧/١ ، ٣٧٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢) والبخاري في الصوم باب ١٠ ،

والنكاح باب ٢ و ٣ . ومسلم في النكاح حديث ١ . والنسائي في الصيام باب ٤٣ . وابن ماجه في

النكاح باب ١ . والدارمي في النكاح باب ٢ .

(٤) البيتان تقدما في صفحة ٨٢ و ٩١ باختلاف في اللفظ .

(٥) اللمم : الصغير من الذنوب نحو القبلة والنظرة وما أشبهها .

أَمَتَّ عَيْنِي مِنْ وَجْهِهَا، وَقَلْبِي مِنْ حَدِيثِهَا، وَأَسْتَرُ مِنْهَا مَا لَا يَحِبُّهُ اللَّهُ، وَلَا يَرْضَى كَشْفَهُ إِلَّا عِنْدَ حِلِّهِ، قِيلَ: فَإِنْ خِفْتَ أَنْ لَا تَجْتَمِعَا بَعْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَكُلُّ قَلْبِي إِلَى حَبِّهَا، وَلَا أَصِيرُ بِقَبِيحِ ذَلِكَ الْفِعْلِ إِلَى نَقْضِ عَهْدِهَا. قَالَ: وَقِيلَ لآخر وقد زُوِّجْتَ عَشِيقَتَهُ مِنْ ابْنِ عَمِّهَا وَأَهْلُهَا عَلَى إِهْدَائِهَا إِلَيْهِ: أَيْسُرُكَ أَنْ تَنْظُرَ بِهَا اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي أَمْتَعَنِي بِهَا وَأَشْقَانِي بِطَلِبِهَا، قِيلَ: فَمَا كُنْتَ صَانِعاً؟ قَالَ: كُنْتُ أَطِيعُ الْحَبَّ فِي لَثْمِهَا، وَأَعْصِي الشَّيْطَانَ فِي إِثْمِهَا، وَلَا أَفْسِدُ عَشْقَ عَشْرِ سَنِينَ بِمَا يَبْقَى عَارُهُ، وَتُنْشَرُ بِالْقَبِيحِ أَخْبَارُهُ، فِي سَاعَةٍ تَنْقُذُ لَذَّتَهَا وَتَبْقَى تَبِعَتَهَا، إِنْ إِذَا لِلنِّيمِ، لَمْ يَغْذُنِي أَصْلُ كَرِيمٍ.

وقال عباس الدَّورِي: كان بعضُ أصحابنا يقول: كان سفيان الثوريُّ كثيراً ما يتمثَّلُ بهذين البيتين:

تَقْنَى اللَّذَاذَةَ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا مِنْ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْوِزْرُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغَبِّهَا^(١) لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

وقال الحسين بن مُطَيْر:

وَنَفْسُكَ أَكْرَمَ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيرُهَا
وَلَا تَقْرَبِ الْمَرْغَى الْحَرَامَ فَإِنَّمَا حَلَاوَتُهُ تَقْنَى وَيَبْقَى مَرِيرُهَا

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الْفُتُوَّةُ تَرْكُ مَا تَهْوَى لِمَا تَخْشَى.

وقال الخرائطي: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْجُنَيْدِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمَقْدَمِيُّ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ الضُّبَعِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ يَقُولُ: بَيْنَا أَنَا أَطُوفُ إِذْ أَنَا بِجَارِيَةٍ مُتَعَبِدَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَبِّ كَمْ مِنْ شَهْوَةٍ ذَهَبَتْ لَذَّتُهَا، وَبَقِيَتْ تَبِعَتُهَا، أَيَا رَبِّ أَمَا لَكَ أَدَبٌ إِلَّا النَّارُ؟ فَمَا زَالَ مَقَامُهَا حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَلَمَّا رَأَيْتَ ذَلِكَ وَضَعْتَ يَدِي عَلَى رَأْسِي خَارِجاً أَقُولُ: ثَكَلَتْ مَالِكاً أُمُّهُ، جُورِيَّةٌ مِنْذُ اللَّيْلَةِ قَدْ بَطَلَتْهُ^(٢).

وَطَائِفَةٌ بِالْبَيْتِ وَاللَّيْلِ مُظْلِمٌ تَقُولُ وَمِنْهَا دَمْعُهَا يَسْجَمُ^(٣)
أَيَا رَبِّ كَمْ مِنْ شَهْوَةٍ قَدْ رَزَّئْتُهَا وَلَذَّةٌ عَيْشٍ حَبْلُهَا مَتَصَرَّمٌ^(٤)
أَمَا كَانَ يَكْفِي لِلْعِبَادِ عَقُوبَةٌ وَلَا أَدَباً إِلَّا الْجَحِيمُ الْمَضَرَّمُ

(١) المنية: عاقبة الشيء.

(٢) بطلته: عطلته. وأبطل: فسد وذهب ضياعاً وخسراً. وأبطل: جاء بالباطل. وتبطل: تعطل. وفي الأساس: البطل المتعطل (وشر الفتيان المتبطل المتعطل).

(٣) يتسجم: يسيل.

(٤) تصرم: تقطع وتقضى.

فما زال ذاك القول منها تضرُّعاً
فشبكتُ منِّي الكفَّ أَهْتَفَ خارجاً
وقلتَ لنفسِي إذ تطاول ما بها
ألا تُكَلِّتَكَ اليومَ أُمَّكَ مالِكَ
فما زلتَ بَطَّالاً بها طولَ ليلةٍ

وقال مَخْرَمَةُ بن عثمان: نُبِيتُ أن فتى من العُبَّاد هَوِيَ جاريةً من أهل البصرة فبعث إليها يخطبها فامتنعت وقالت: إن أردت غير ذلك فعلت، فأرسل إليها: سبحان الله! أدعوكِ إلى ما لا إثم فيه وتدعيني إلى ما لا يَصْلُحُ؟ فقالت: قد أخبرتك بالذي عندي فإن شئت فتقدَّم، وإن شئت فتأخَّر، فأنشأ يقول:

وَأَسْأَلُهَا الْحِلَالَ وَتَدْعُ^(١) قَلْبِي
كَدَاعِي آلِ فِرْعَوْنَ إِلَيْهِ
وَهَمَّ يَدْعُونَهُ نَحْوَ الْأَنَامِ
وظَلُّوا فِي الْجَحِيمِ وَفِي السَّقَامِ

فلما علمت أنه قد امتنع من الفاحشة أرسلت إليه: أنا بين يديك على الذي تحب، فأرسل إليها: لا حاجة لنا فيمن دعوانه إلى الطاعة ودعانا إلى المعصية، ثم أنشد:

لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَر_اقِبَ رَبَّهُ
عِنْدَ الْهَوَى وَيَخَافُهُ إِيْمَانَا
حَجَبَ الثَّقَى سُبُلَ الْهَوَى فَأَخُو الثَّقَى
يَخْشَى إِذَا وَافَى الْمَعَادَ هَوَانَا

وقال عبد الملك بن مروان لليلي الأَخيلية: بالله هل كان بينك وبين توبة سوء قط؟ قالت: والذي ذهب بنفسه وهو قادرٌ على ذهاب نفسي ما كان بيني وبينه سوء قط، إلا أنه قدم من سفر فصافحته فغمزَ يدي فظننت أنه يَخْنَعُ^(٢) لبعض الأمر فذلك معنى قولِي:

وَذِي حَاجَةٍ قَلْنَالَهُ لَا تَبْخُ بِهَا
فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّتْ سَبِيلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ
وَأَنْتِ لِأُخْرَى صَاحِبٌ وَخَلِيلُ

قالت: لا والذي ذهب بنفسه ما كلمني بسوء قط حتى فرق بيني وبينه الموت.

وقال ابن أحرمر: بينا أنا أطوف بالبيت إذ بَصُرْتُ بامرأة متبرقة تطوف بالبيت وهي تقول:

لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مَعْشُوقَةٍ عَمَلًا
يَوْمًا وَعَاشِقُهَا غَضْبَانٌ مَهْجُورٌ^(٣)

(١) كذا. . بحذف حرف العلة ولا مسوغ له إلا الضرورة.

(٢) يخنع: يدعو إلى الفجور. والخنعة: الزينة والفجور.

(٣) تقدم البيتان في الصفحة ١٢٣.

ليست بمأجورة في قتل عاشقها لكن عاشقها في ذاك مأجور

فقلت لها: في هذا الموضع؟ فقالت: إليك عني لا يعلّقك الحب، قلت: وما الحب؟ قالت: جلّ والله عن أن يخفى، وخفي عن أن يرى، فهو كالنار في أحجارها، إن حرّكته أوزى^(١)، وإن تركته توارى، ثم أنشدت تقول:

غِيْدُ أَوَانِسُ مَا هَمَمَنْ بِرِيَّةٍ كظباء مكة صيدهن حرام
يُحْسِنُ مِنْ لَيْنِ الْحَدِيثِ أَوَانِسُ^(٢) وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الْخَنَا الْإِسْلَامُ

وقد روى محمد بن عبد الله الأنصاري، حدّثنا عبد الوارث، عن محمد بن جُحادة، عن الوليد، عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا دَخَلَتْ الْجَنَّةَ»^(٣). وقال هشام بن عمار: حدّثنا الوليد بن مسلم، حدّثنا أبي، حدّثنا ابن لهيعة، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اتَّقَتْ رَبَّهَا وَأَخْصَنَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ادْخُلِي مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ»^(٤).

وقال الزبير بن بكار: أخبرني سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، حدّثني أبي أن امرأةً لقيت كثير عزة فقالت: تسمع بالمُعَيَّدي خيراً من أن تراه، قال: مه رحمك الله! فأنا الذي أقول:

فَإِنْ أَكُ مَعْرُوقَ الْعِظَامِ فَإِنِّي إِذَا مَا وَزَنْتِ الْقَوْمَ بِالْقَوْمِ أُوزَنُ
قالت: وكيف تُوزَنُ بالقوم وأنت لا تُعرف إلا بعزة؟ قال: والله لئن قلت ذاك لقد رفع الله بها قدري، وزين بها شعري، وإنها لكما قلت:

وَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزْنِ طَاهِرَةٌ الثَّرَى يَمُجُّ النَّدى جُثْجَاثُهَا وَعَرَاؤُهَا^(٥)
بِأَطْيَبِ مَنْ أَرْدَانِ عِزَّةً مَوْهِنَاً وَقَدْ أَوْقَدْتَ بِالْمُنْدَلِ الرُّطْبِ نَارُهَا
مِنَ الْخَفِرَاتِ الْبَيْضِ لَمْ تَلَقْ شِقْوَةً وَبِالْحَسْبِ الْمَكْنُونِ صَافٍ نِجَارُهَا
فَإِنْ بَرَزْتَ كَانَتْ لَعِينُكَ قُرَّةً وَإِنْ غَبَتْ عَنْهَا لَمْ يَعُمَّكَ عَارُهَا

قالت: أ رأيت حين تذكر طيبها فلو أن زنجيةً تخمرت بالمندل الرطب لطاب ريحها، ألا قلت كما قال امرؤ القيس:

(١) أوزى: اشتعل.

(٢) تقدم البيتان الصفحة ١٧٣ وفيهما: «يحسن من لين الحديث زوانياً». والخنا: الفحش.

(٣) رواه أحمد وأحمد والبراز والطبراني، كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي.

(٤) في مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف باختلاف في اللفظ.

(٥) تقدمت هذه الأبيات.

خليلي مُرّاً بي على أم جُنْدُب نقضي لبانات^(١) الفؤاد المعذب
 ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيّب؟
 فقال: والله الحقُّ خيرٌ ما قيل، هو والله أنعتُ لصاحبه مني.

ودخلت عزةٌ على عبد الملك بن مروان وهو لا يعرفها ترفع مَظْلَمَةً لها، فلما سمع
 كلامها تعجّب منه، فقال له بعض جلسائه: هذه عزةٌ كُثِيرٌ، فقال لها عبد الملك: إن
 أردت أن أُرِدَّ عليكِ مَظْلَمَتِكَ فأنشديني ما قال فيك كُثِيرٌ، فاستخيت وقالت والله ما أعرف
 كُثِيراً ولكنّي سمعتهم يحكون عنه أنه قال في:

قضى كلُّ ذي دَينٍ فوقى غريمه وعزةٌ مطوّلٌ معنّى غريمها
 فقال عبد الملك: ليس عن هذا أسألك، ولكن أنشديني من قوله:

وقد زعمت أني تغيّرت بعدها ومن ذا الذي ياعزّ لا يتغيّر
 تغيّر جسمي والخلقة كالذي عهِدْتُ ولم يخبر بسرّك مخبر
 قالت: ما سمعت هذا ولكن سمعت الناس يحكون عنه أن قال في:

كأنني أنادي صخرةً حين أعرضت من الصُّمِّ لو تمشي بها العُصم زَلَّتْ
 صفوح^(٢) فما تلقاك إلا بخيلةً فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت
 فقصي حاجتها وردّ مَظْلَمَتها وقال: أدخلوها على الجوّاري يأخذن من أدبها.
 وذكرت عنه أنه قال فيها أيضاً:

وما نلت منها محرماً غير أنني أُقبِلُ بساماً من الثغر أفلجا
 وألثم فاهاً تارةً ثم تارةً وأترك حاجاتِ النفوس تحرّجا

وقال الزُّبَيْر بن بكار، عن عباس بن سهل الساعدي قال: بينا أنا بالشام إذ لقيني
 رجلٌ من أصحابي فقال: هل لكم في جميل نعوذه؟ فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه وما
 يُخَيِّلُ إليّ إلا أن الموت يكرّثه^(٣)، فنظر إليّ ثم قال: يا ابن سهل، ما تقول في رجل لم
 يشرب الخمر قطّ، ولم يزن، ولم يقتل نفساً، يشهد أن لا إله إلا الله؟ قلت: أظنه قد نجا
 وأرجو له الجنة، فمن هذا الرجل؟ قال: أنا، قلت: والله ما أحسبك سلمت وأنت
 تشبّب^(٤) منذ عشرين سنة في بُيُوتِنا، فقال: لا نالني شفاعَةُ محمد ﷺ يوم القيامة - فإني

(١) جمع لبانة: الحاجة والنهمة.

(٢) المرأة الصفوح: المعرضة الهاجرة.

(٣) يكرّثه: يشتد عليه ويبلغ منه المشقة.

(٤) شبّب بفلانة: تغزل بها ووصف حسنها.

في أول يومٍ من أيام الآخرة وآخر يومٍ من أيام الدنيا - إن كنت وضعت يدي عليها لريبة .
فما برحنا حتى مات .

وقال عوانة بن الحكم: كان عبد المطلب لا يسافر إلا ومعه ابنه الحارث، وكان أكبر ولده، وكان شبيهاً به جمالاً وحُسنًا، فأتى اليمن وكان يجالس عظيمًا من عظمائهم فقال له: لو أمرت ابنك هذا يجالسني وينادمني، ففعل، فعشقت امرأته الحارث، فراسلته فأبى عليها، فألحَّت عليه، فأخبر بذلك أباه، فلما يئست منه سقته سمَّ شهرٍ، فارتحل به عبد المطلب حتى إذا قدم مكة مات الحارث. وذكرها هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وذكر رثاء أبيه له بقصيدته التي فيها:

والحارث الفيّاض أكرم ماجدٍ أيامَ نازعه الهمامُ الكاسا
ولما اختُصرَ أبو سفيان بن الحارث هذا وهو ابن عمِّ النبي ﷺ قال لأهله: لا تبكوا عليَّ فإنني لم أنتطف^(١) بخطيئة منذ أسلمت .

ولما قدم عُرْوَةُ بن الزُّبَيْرِ عَلَى الوليد بن عبد الملك خرجت برجله الآكلة^(٢) فاجتمع رأي الأطباء على نشرها وأنه إن لم يفعل سرت إلى جسمه فهلك، فلما عزم على ذلك قالوا له: نسقيك مُرْقِدًا؟ قال: ولِمَ؟ قالوا: لئلا تُحسُّ بما يُصنع، قال: لا بل شأنكم، فنشروا ساقه بالمنشار، فما أزال عضواً من عضوٍ حتى فرغوا منها ثم حسموها^(٣)، فلما نظر إليها في أيديهم تناولها وقال: الحمد لله، أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أنني ما مشيت بك إلى حرامٍ قطّ .

ولما حضرت عُمَرُ بن أبي ربيعة الوفاة بكى عليه أخوه الحارث، فقال له عمر: يا أخي إن كان أسفك لما سمعت من قلبي: قلت لها وقالت لي، فكل مملوكٍ لي حرٌّ إن كنت كشفت حراماً قطّ . فقال الحارث: الحمد لله تعالى طيبت نفسي .

وقال سفيان بن محمد: دخلت يوماً عَزَّةَ عَلَى أُمِّ البَينِينِ أُخْتِ عمر بن عبد العزيز فقالت يا عَزَّةَ ما قول كُثَيِّرٍ:

قضى كلُّ ذي دينٍ فوقِي غريمه وعَزَّةَ ممطولٌ معنَى غريمها؟^(٤)

(١) تنطف: تلتطخ .

(٢) الآكلة: الحكة والجرب .

(٣) حسموها: كروها لكيلا يسيل الدم .

(٤) تقدم هذا البيت . ومطل فلانا بدينه: سوفه بوعد الوفاء مرة بعد الأخرى، ومعنى: معذب حزين، مكلف بما يشق عليه .

ما كان هذا الدَّيْن؟ فقالت: كنت وعدته بِقُبْلَةٍ فتحرَّجت منها، فقالت أُمُّ البنين: أنجزها وعليَّ إثمها، قالت: فأعتقت أُمُّ البنين بكلمتها هذه أربعين رقبَةً، وكانت إذا ذكرتها بكت وقالت: ليتني خرست ولم أتكلم بها.

ولما احتضر ذو الرُّمَّة قال: لقد هممت بمِئِّ عشرين سنة في غير رِيبةٍ ولا فساد.

وكان الحارث بن خالد بن هشام المخزومي عاشقاً لعائشة بنت طلحة وله فيها أشعارٌ أفرد لها ابن المرزبان كتاباً، فلما قُتل عنها مُصْعَبُ بن الزبير قيل للحارث: ما يمنعك الآن منها؟ قال: والله لا يتحدَّث رجالات قريش أن تشيبي بها كان لريبةٍ ولشيءٍ من الباطل.

وقال ابن عُلَّانَةَ: دخلت على رجلٍ من الأعراب خيمته وهو يثنّ فقلت: ما شأنك؟ قال: عاشق، فقلت له: ممن الرجل؟ قال: من قومٍ إذا عشقوا ماتوا عَفَةً، فجعلت أَعْذله^(١) وأزهدَه فيما هو فيه، فتنفَّس الصُّعداء ثم قال:

ليس لي مسعدٌ فأشكو إليه إنما يسعدُ الحزينَ الحزينُ

وقال سعيد بن عُبَّبة لأعرابيٍّ: ممَّن الرجل؟ قال من قومٍ إذا عشقوا ماتوا قال: عذريَّ وربَّ الكعبة، فقلت له: وممَّ ذاك؟ قال: في نساءنا صَبَاحَة، وفي رجالنا عفة.

وقال سفيان بن زياد: قلت لامرأة من عُدْرَة ورأيت بها هوىً غالباً خفت عليها الموت منه: ما بال العشق يقتلكم معاشرَ عُدْرَة من بين أحياء العرب؟ فقالت: فينا جمالٌ وتعقُّفٌ والجمال يحملنا على العفاف والعفاف يورثنا رقة القلوب، والعشق يفني آجالنا، وإنا نرى عيوناً لا ترونها.

وقال أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المُثَنَّى: قال رجلٌ من بني فزارة لرجلٍ من بني عُدْرَة: ما يُعَدُّ موتكم من الحبِّ مزية، وإنما ذاك من ضعف البنية وهن العقل وضيق الرِّثَة، فقال له العذري: أما لو رأيتم المحاجر البلج، ترشقُّ بالأعين الدُّعج، من فوقها الحواجب الزُّجج، والشفاة السُّمُر، تفتّر عن الثنايا الغُر، كأنها نظم الدُّر، لجعلتموها اللات والعزى ونبذتم الإسلام وراء ظهوركم^(٢).

وقال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول في مرضه الذي مات فيه: اللهم إنك

(١) أعذله: ألومه.

(٢) البلج جمع أبلج: الذي بعد ما بين عينيه فهو أبلج وهي بلجاء. الدعج: جمع دمعاء. والدعج: شدة سواد العين مع سعتها. والزج جمع زجاء والزجج: دقة في الحاجبين وطول. الثنايا جمع ثانية: وهي أربع أسنان في مقدم الفم، ثنتان من فوق وثنان من أسفل. الغر: البيضاء.

تعلم أني لم أظأ فرجاً حراماً قط وأنا أعلم، ولم أكل درهماً حراماً قط وأنا أعلم

وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي: دخلت على المعتضد وعلى رأسه غلمان صبايح الوجوه أحداث، فنظرت إليهم فرآني المعتضد وأنا أتأملهم، فلما أردت القيام أشار إليّ، فمكثت ساعة فلما خلا قال لي: أيها القاضي والله ما حللت سراويلي على حرام قط.

وقال اليزيدي: جلس محمد بن منصور بن بّسام وعلى رأسه عدّة خدّم لم ير قط أحسن منهم، ما منهم من ثمنه ألف دينار بل أكثر، فجعل الناس ينظرون إليهم فقال محمد: هم أحرار لوجه الله إن كان الله كتب عليّ ذنباً مع واحد منهم، فمن عرف خلاف ذلك منهم فليمض فإنه قد عتق وهو في حلّ مما يأخذ من مالي.

وقال إبراهيم بن أبي بكر بن عيّاش: شهدت أبي عند الموت فبكت فقال: ما يبكيك؟ فما أتى أبوك فاحشة قط.

وقال عمر بن حفص بن غياث: لما حضرت أبي الوفاة أغمي عليه فبكت عند رأسه، فقال لي حين أفاق: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر يعني القضاء قال: لا تَبْكِي فإني ما حللت سراويلي على حرام قط، ولا جلس بين يديّ خصمان فباليت على من توجّه الحكم منهما.

وقال سفيان بن أحمد المصيصي: شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سَجِي (١) نحو القبلة، فقامت جاريته تَغْمِز رجله فقال: اغْمِزِيهما فإن الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرام قط.

وقال محمد بن إسحاق: نزل السريّ بن دينار في دَرٍ بمصر وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بجمالها، فعلمت به المرأة فقالت: لأَفْتِنَنَّه، فلما دخلت من باب الدار تَكَشَّفَتْ وأظهرت نفسها، فقال: ما لك؟ فقالت: هل لك في فراشٍ وَطِيٍّ وعيشٍ رخيٍّ؟ فأقبل عليها وهو يقول:

وكم ذي معاصٍ نال منهنّ لذة
تَصَرَّمْ لَذَاتُ المعاصي وتنقضي
فيا سَوْءَنا والله راءٍ وسامعُ
ومات فخلّاها وذاق الدواهيها
وتبقى تباعاتُ المعاصي كما هيها (٢)
لعبدٍ بعين الله يَغْشَى المعاصيا

(١) سجي الميت: مد عليه ثوباً وغطاه.

(٢) تصرم: تنقضي وتذهب. وتباعات جمع تباعة: ظلامة أو ما يترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعماله في الشر.

وقال عمر بن بكر: قال أعرابي: علقتُ امرأةً كنتُ آتيها فأحذثها سنين وما جرت بيننا ريبه قط، إلا أني رأيت بياض كفها في ليلة ظلماء فوضعت يدي على يدها، فقالت: مه^(١) لا تفسد ما بيني وبينك، فإنه ما نُكح حب قط إلا فسد. قال: فقمْتُ وقد تصبَّيْتُ عرقاً حياءَ منها ولم أعُدْ إلى شيء من ذلك.

وذكر أبو الفرج وغيره أن امرأةً جميلةً كانت بمكة، وكان لها زوجٌ، فنظرت يوماً إلى وجهها في المرأة فقالت لزوجها: أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتن به؟ قال: نعم، قالت: مَنْ؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه فلافتنه، قال: قد أذنت لك، قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام فأسفرت عن وجهه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله استتري، فقالت: إني قد فتنت بك قال: إني سائلُك عن شيء فإن أنت صدقتني نظرت في أمرِك قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت قال: فلو دخلت قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا قال: صدقت، قال: فلو أردت الممر على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت قال: أتقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: ما لي ولعبيد بن عمير أفسد علي امرأتي، كانت في كل ليلة عروساً فصيرها راحة.

وقال سعيد بن عبد الله بن راشد: علقت فتاةً من العرب فتى من قومها وكان عاقلاً فجعلت تكثر التردد إليه، فلما طال عليها ذلك مرضت وتغيّرت واحتالت في أن خلا لها وجهه، فتعرضت إليه ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه فتزايد المرض حتى سقطت على الفراش، فقالت له أمه: إن فلانة قد مرضت وها علينا حق، قال: فعوديتها وقولي لها:

(١) مه: اسم فعل مبني على السكون بمعنى انكف، ولا تقل بمعنى اكفف لأن اكفف يتعدى ولا يتعدى. وحكمها في التنكير والوصل حكم صه. وجاء في القاموس المحيط للفيروزابادي: مهمه قال له مه مه أي اكفف.

يقول لك ما خبرك؟ فسارت إليها أمه وسألته ما بك؟ فقالت: وجعٌ في فؤادي هو أصل علي، قالت: فإن ابني يسألك عن علتك، فتنفست الصعداء ثم قالت:

يسألني عن علتي وهو علتي عجبٌ من الأنباء جاء به الخبر
فانصرفت إليه أمه وأخبرته وقالت له: تريد أن تصير إليك؟ فقال: نعم، فذكرت أمه لها ذلك فبكت وقالت:

ويعدني عن قريبه ولقائه فلما أذاب الجسم مني تعطفنا
فلست بأت موضعاً فيه قاتلي كفاني سقاماً أن أموت تلهفا
وتزايدت بها العلة حتى ماتت.

وأحب رجلٌ من أهل الكوفة يسمى أبا الشعثاء امرأة جميلة، فلما علمت به كتبت إليه وقالت:

لأبى الشعثاء حبٌّ دائمٌ ليس فيه تهمةٌ لمتهم
يا فؤادي فازدجر^(١) عنه ويا عبثَ الحبِّ به فاقعد وقم
جاءني منه كلامٌ صائدٌ ورسالاتُ المحيين الكلم
صائدٌ يأمنه غزلانُه مثل ما يأمن غزلانُ الحرَم
صلِّ إن أحببت أن تُعطى المنى يا أبا الشعثاء الله وصم
ثم ميعادُك بعد الموت في جنة الخلد إن الله رَحِمَ
حيث ألقاك غلاماً ناشئاً ناعماً قد كُملت فيه النعم

وقال الأصمعي عن أبي سفيان بن العلاء قال: بصُرت الثريَّا بعمر بن أبي ربيعة وهو يطوف حول البيت، فتنكرت وفي كفها خلوق^(٢) فزحمته فأنشأ يقول: فاجعل الناس يقولون: يا أبا الخطاب ما هذا زِيُّ المحرم فأنشأ يقول:

أدخل الله ربُّ موسى وعيسى جنة الخلد من ملاني خلوقا
مسحت كفها بجيب قميصي حين طُفنا بالبيت مسحاً رقيقا

فقال له عبد الله بن عمر: مثل هذا القول في هذا الموضع؟ فقال له: يا أبا عبد الرحمن قد سمعت مني ما قد سمعت فورب هذه البنية ما حللت إزارِي على حرام قط.

(١) ازدجر وانزجر بمعنى زجر: منعه ونهاه قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ أي منع من ارتكاب المآثم.

(٢) الخلوق: ضرب من الطيب أكثر أجزائه من الزعفران.

وقيل لليلي الأخيلية: هل كان بينك وبين توبة ما يكرهه الله؟ قالت: إذا أكون منسلخةً من ديني إن كنت ارتكبت عظيمًا ثم أتبعه بالكذب.

وقال العتبي: خرجت إلى المِزْبَد فإذا بأعرابي غَزَلَ فَمِلْتُ إليه فذكرت النساء فتَنَفَّسَ ثم قال: يا ابن أخي إن من كلامهن لما يقوم مقام الماء فيشفي من الظمأ. فقلت: صف لي نساءكم، فقال: نساء الحي تريد؟ قلت: نعم فأنشأ يقول:

رُجْعٌ^(١) وَلَسْنُ مِنَ اللواتي بالضحي لذيولهنَّ عَلَى الطريق غبار
يَأْنَسْنَ عِنْدَ بعولهن إذا خَلَوَا وإذا همُ خرجوا فهن خِفَارٌ^(٢)

قال العتبي: فأخبرت به أبي قال: تدري من أين أخذ قوله: وإن من كلامهن ما يقوم مقام الماء فيشفي من الظمأ؟ قلت: لا، قال: من قول القطامي:

يَقْتُلُنَنَا بِحَدِيثٍ لَيْسَ يَعْلَمُهُ مَنْ يَتَّقِينَ وَلَا مَكْنُونُهُ بِأَدْيٍ
فَهِنَّ يُبْدِينَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغَلَّةِ الصَّادِي^(٣)

وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها إجلال الجبار، ثم الرغبة في الحور الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حَرَّمَ الله عليه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، قال ﷺ: «مَنْ يَلْبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»^(٤) و «مَنْ شَرِبَ الْخُمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ»^(٥). فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حَرَّمَ الله عليه من النساء والصبيان ولذة التمتع بذلك في الآخرة، فليتخير العبد لنفسه إحدى اللذتين، وَلْيُطِثْ نَفْسًا عَنْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى؛ فلن يجعل الله من أذهب طَيِّبَاتِهِ في حياته الدُّنْيَا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدُّنْيَا إذا لقي الله. ودون ذلك مرتبةٌ أَنْ يتركها خوف النار فقط، فَإِنْ تَرَكَهَا رَغْبَةً وَمَحَبَّةً أَفْضَلُ مِنْ تَرَكَهَا لِمَجَرَّدِ خَوْفِ الْعُقُوبَةِ.

(١) امرأة رجاح: عجزاء وأيضاً: رزان.

(٢) خفار: شديدات الحياء، ذوات وفاء.

(٣) في الأغاني وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة: فهن يبنذن... الخ وذو الغلة الصادي: الشديد العطش.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة باب ٧، والبيوع باب ٤٠، والأدب باب ٦٦. ومسلم في اللباس حديث ٦، ٧ و ٩ و ١٠. وأبو داود في الصلاة باب ٢١٣، واللباس باب ٧. والنسائي في الجمعة باب ١١، والعديد باب ٥. وابن ماجه في اللباس باب ١٦. ومالك في اللباس حديث ١٨. وأحمد في المسند (٤٦/١)، ٢٠/٢، ٣٩٢٤، ٤٩، ٥١، ٦٨، ٨٢، ١٠٣، ١٢٧، ١٤٦، ٣٢٩، ٣٣٧.

(٥) أخرجه ابن ماجه في الأشربة باب ٢. وأبو داود في الأشربة باب ٥. والنسائي في الأشربة باب ٤٥ و ٤٦. وأحمد في المسند (٢/٢٢، ٩٨، ١٠٦، ١٢٣).

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوفُ العار والشنار^(١)، ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال، ومنهم من يحمله عليها عفة محبوبه ونزاهته، ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشامُ له وعظمته في صدره، ومنهم من يحمله عليها الرغبة في جميل الذكر وحسن الأحداث، ومنهم من يحمله عليها الإبقاء على جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس، ومنهم من يحمله عليها كرمُ طبعه وشرف نفسه وعلو همته، ومنهم من يحمله عليها لذة الظفر بالعفة فإن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألمُ حبس النفس ثم تعقبها اللذة، وأما قضاء الوطر فبالضد من ذلك، ومنهم من يحمله عليها علمه بما تعقبه اللذة المحرمة من المضار والمفاسد، وجمع الفجور خلال الشر كلها، كما ستقف عليه في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى.

فصل: ولم يزل الناس يفتخرون بالعفة قديماً وحديثاً، قال إبراهيم بن هرمة:

ولرب لذة ليلةٍ قد نلتها وحرامها بحلالها مدفوع
وقال غيره:

إذا ما هممنا صدنا وازعُ التقى فولى على أعقابهِ الهُمُ خاسئاً
وقال آخر:

أتأذنون لصبِّ في زيارتكم فعندكم شهواتُ السمع والبصر
لا يُضمِرُ السوءَ إن طالت إقامته عَفُ الضميرِ ولكن فاسقُ النظر
وقال مسلم بن الوليد:

ألا رب يوم صادق العيش نلتَه بها ونداماي العفافةُ والنهي^(٢)
وقال آخر:

إن تَرَيْنِي زانِي العِي نين فالفرجُ عفيفُ
ليس إلا النظرُ الفا تر والشعرُ الظريفُ
وقال الموسوي^(٣):

بتنا ضجيعين في ثوبَي هَوَى وتُقَى يَلْقُنَا الشوقُ من فَرَقٍ إلى قَدَمِ

(١) الشنار: أقبح العيب والعار والأمر المشهور بالشنعة.

(٢) العفافة: العفة وهي الكف عما لا يحل ولا يجمل قولاً أو فعلاً. والنهي جمع نهية: العقل، سمي به لأنه ينهي عن القبيح وعن كل ما ينافيه.

(٣) هو الشريف الرضي.

يُضَيِّنُنَا الْبَرْقُ مُجْتَازاً عَلَى إِضْمٍ^(١)
وفي بواطننا بعدد عن التَّهْمِ

يَشِي بِنَا الطَّيِّبُ أَحْيَاناً وَأَوْنَةً
ثم اثنيْنَا وقد رابت^(٢) ظواهرنا
وقال نَفْطَوْنَهُ:

منه الحياءُ وخوفُ الله والحذرُ
منه الفُكَاهَةُ والتجميش^(٣) والنظر
وليس لي في حرامِ منهم وطَرِ
لا خَيْرَ في لَذَّةٍ من بعدها سَقَرُ

كم قد خلوتُ بمن أهوى فيمنعني
وكم ظفرتُ بمن أهوى فيقنعني
أهوى الحسان وأهوى أن أجالسهم
كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ

وقال الشهاب محمود بن سليمان صاحب ديوان الإنشاء (الحلي):

من بعد طول نَوَى وبُعْدِ مَزار
زادتهما بعداً من الأوزار
فُخْشٍ ولا كَفٍّ لِحُلٍّ إزار
لَمْ يَخْشَ مَطْعَنَ عَائِبٍ أَوْ زَارِ^(٤)

لله وقفة عاشقين تلاقيا
يتعاطيان من الغرام مُدَامَةً
صدقوا الغرام فلم يَمِلْ طَرْفٌ إلى
فتلاقيا وتفرقا وكلاهما

وقيل لبَيْتِيَّة: هذا جميل لما به فهل عندك من حيلة تُنَفِّسِنِ بها وجدَه؟ فقالت: ما
عندي أكثر من البكاء إلى أن ألقاه في الدار الأخرى، أو زيارته وهو ميت تحت الثرى.
وقيل لعُتْبَةَ بعد موت عاشقها: ما كان يضرك لو أمتعتيه بوجهك؟ قالت: منعني من ذلك
خوفُ العار، وشماتةُ الجار، ومخافةُ الجبار. وإن بقلبي أضعاف ما بقلبه غير أنني أجد
سَترَه أبقى للمودة، وأحمدُ للعاقبة، وأطوعُ للربِّ، وأخفُّ للذنب.

وهوي فتى امرأة وهويته وشاع خبرهما فاجتمعا يوماً خاليتين فقال لها: هلمي نحقق
ما يقال فينا فقالت: لا والله لا كان هذا أبداً وأنا أقرأ: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدَاوٌ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقيل لبعضهم وقد هوي جارية فطال عشقه بها: ما
أنت صانع لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله؟ قال: والله لا جعلته أهون الناظرين إليّ، لا
أفعل بها خالياً إلا ما أفعله بحضرة أهلها، حينئذٍ طويل، ولحظ من بعيد، وأترك ما يسخط
الرب، ويفسد الحب.

إذا كان حظُّ المرء ممن يحبه حراماً فحظي ما يحلُّ ويَجْمُلُ

(١) إضم كعنب: جبل، والوادي الذي في المدينة المنورة.

(٢) رابت: دعت إلى الشك.

(٣) التجميش: المغازلة بالقرص والملاعبة.

(٤) زرى عليه فعله: عابه.

حديثٌ كماء المُنْزَن بين فصوله
ولثْمُ فَمِ عَذْبِ اللّثات كأنما
وما العَشْقُ إِلَّا عَفْةٌ ونزاهةٌ
وإنِّي لَأَسْتَحْيِي الحَيِّبَ من التي
وقال آخر:

وإنِّي لمشتاقٌ إلى كل غايَةٍ
بذولٍ لمالي حين يبخل ذو الثُّهَى
وما ألطفَ قوله: حين يبخل ذو الثُّهَى فإن ذا الثُّهَى لا يبخل إلا في موضع البخل،
فأخبر هذا أنه يبذل ماله حين يبخل به ربُّه في موضع البخل.
وقال عامر بن حذافة: رأيت بَصُحَارَ^(٢) جاريةً قد أَصْقَتْ خَدَّها بقبرٍ وهي تبكي
وتقول:

عتابٌ به حسنُ الحديث يُفَصِّلُ
جناهن شهدُ فُتٍّ فيه القَرَنَقُلُ
وأنسُ قلوبٍ أنسُهُنَّ التغزُّلُ
تريب وأدغى للجميل فأجمل

من المجد يكبو دونها المتطاوُلُ
عفيف عن الفحشاء قَرْمٌ حُلَّاحِلُ^(١)

خدي يقيك خشونةَ اللحد
يا ساكن الثُّرْبِ الذي بوفاته
إسمع فديتُك قصَّتي فلعلَّنِي
قال فسألنها عن صاحب القبر فقالت: فتى رافقته في الصبا، ثم أنشأت تقول:
كنا كزوج حمائم في أَيْكَةٍ^(٣)
فغدا الزمانُ مُشْتَبَاً بفراقه
متنعمين بصحَّةٍ وشباب
إن الزمان مفرِّقُ الأحباب
قال: فبكيت لركة شعرها فأنشأت تقول:

تبكي عليه ولستَ تعرف أمرَه
ما كان للعافين^(٤) غيرُ نواله
لا يتَّبِعُ الجيران رفةَ طرفه
عَفُّ السريرةِ والجَهِيرَةِ مثلُها
فلأعلمنك حالَه ببيان
فإذا استُجيرَ ففارسُ الفرسان
ويتابع الإحسان للجيران
فإذا أُستُضِيمَ^(٥) أراك فتلك طعان

(١) القرم: السيد المعظم، والحلاحل: السيد في عشيرته، والشجاع الركين في مجلسه.

(٢) صحار بالضم: قصبة عمان مما يلي الجبل، كما جاء في الصحاح للجوهري.

(٣) الأيكة وجمعها أيك: الشجر الكثيف الملتف وقيل الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.

(٤) العافين: طلاب المعروف. والنوال: العطاء.

(٥) استضيم: انتقص حقه، وضامه حقه واستضامه: ظلّمه.

فقلت: أعلميني من هو؟ قالت: سنان بن وبرة الذي يقول فيه الشاعر:

يا رائداً غيماً لنَجْعَةٍ قومه يكفيك من غيثِ نوالِ سنان

ثم قالت: يا هذا والله لولا أنك غريب ما متعتك من حديثي. قلت: فكيف كان حبه لك؟ قالت: ما كان يوسدني إذا نمت إلا يده، فمكثت معه أربعة أحوال^(١) ما توسدت غيرها إلا في حال يمنعها منع.

وقال سعيد بن يحيى الأموي: حدثني عمي محمد بن سعيد، حدثنا عبد الملك ابن عُمير قال: كان أخوان من ثقيف من بني كُثَّةَ بينهما من التحاب شيء لا يعلمه إلا الله، وكل واحد منهما أخوه عنده عدل^(٢) نفسه، فخرج الأكبر منهما إلى سفر له وله امرأة فأوصى أخاه بحاجة أهله، فبينما المقيم في دار الطاعن إذ مرت امرأة أخيه في درع تجوز من بيت إلى بيت، وكانت من أجمل البشر، فرأى شيئاً حيره، فلما رآته ولّت ووضعت يدها على رأسها ودخلت بيتاً، ووقع حبها في قلبه، فجعل يذوب وينحل جسمه ويتغير لونه. وقدم أخوه فقال: ما لك يا أخي متغيراً، ما وجعك؟ قال: ما بي من وجع، فدعا له الأطباء فلم يقف أحد على دائه غير الحارث بن كَلْدَة وكان طبيباً فقال: أرى عينين صحيحتين وما أدري ما هذا الوجع وما أظنه إلا عاشقاً، فقال له أخوه: سبحان الله، أسألك عن وجع أخي وأنت تستهزئ بي، فقال: ما فعلت، وسأسقيه شراباً عندي فإن كان عاشقاً فسيبين لكم، فأتاه بشراب فجعل يسقيه قليلاً قليلاً، فلما أخذه الشراب هاج وقال:

أَلَمَّا بِي عَلَى الْأَيَّامِ تَمْنَحِي خَيْفٍ نَزْزُهُنَّ
غَزَالٌ مَا رَأَيْتَ الْيَوْمَ مَفِي دُورِ بَنِي كُثَّةِ
أَسِيلُ الْخَدِّ مَرْبُوبٌ^(٣) وَفِي مَنْطِقِهِ غُتَّةُ

فقال: أنت طبيب العرب فبمن؟ قال: سأعيد له الشراب ولعله يسمي، فأعاد له الشراب فسمى المرأة، فطلقها أخوه ليتزوجها فقال المريض: علي كذا وكذا إن تزوجتها، ففضى ولم يتزوجها.

وقال علي بن المبارك السراج: حدثنا أبو مسهر، عن بكر بن عبد الله قال: عرض الحجاج بن يوسف سجنه يوماً فأتي برجل فقال: ما كان جُرمك؟ فقال: أصلح الله الأمير أخذني العَسَسُ^(٤) وأنا مخبرك بخبري، فإن كان الكذب ينجي فالصدق أولى بالنجاة، قال:

(١) جمع حول: السنة.

(٢) العدل: ما عدل الشيء. والمثل والنظير.

(٣) مربوب: جميل الجسم. ورب الولد: تعهده بما يعذبه وينميه. أسيل الخد: لين الخد طويله.

(٤) العسس: حرس الليل. وعس: طاف بالليل.

وما قصتك؟ قال: كنت أخواً لفلان فضرب الأمير عليه البعْثُ إلى خراسان، فكانت امرأته تهواني وأنا لا أشعر، فبعثت إليّ ذات يوم رسولاً أن قد جاء كتابُ صاحبك فهلّم لتقرأه، فمضيت إليها فجعلت تشغلني بالحديث حتى صلينا المغرب، ثم أظهرت لي ما في نفسها مني ودعتني إلى السوء، فأبيت ذلك فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحن ولأقولن إنك لص، فخفتها والله أيها الأمير على نفسي فقلت: أمهليني حتى الليل، فلما صليت العتمة^(١) وثقت بشدة حرس الأمير فخرجت من عندها هارباً، وكان القتلُ أيسرَ عليّ من خيانة أخي، فلقيني عسسُ الأمير فأخذوني، وقد قلت في ذلك شعراً، قال: وما قلت؟ فقال: ربّ بيضاء أنس^(٢) ذات دَلٍّ قد دعتني لوصولها فأبيتُ لم يكن شأنِي العفّاف ولكن كنت خلاً لزوجها فاستحيئتُ فأمر بإطلاقه.

وقال الربيع بن زياد: رأيت جاريةً عند قبرٍ وهي تقول:
بنفسي فتى أوفى البرية كلها وأقواهم في الموت صبراً على الحب
فقلت لها: بم صار أوفاهم وأقواهم؟ قالت: هويتني، فكان أهلي إن جاهر بحبيّ
لاموه، وإن كتّمه عنفوه، فلما أخذه الأمر قال:

يقولون إن جاهرْتُ قد عضك الهوى وإن لم أبخّ بالحبّ قالوا تصبرا
وليس لمن يهوى ويكتّم حبه من الأمر إلا أن يموت فيعذرا
ولم يزال يردد هذين البيتين حتى مات، فوالله يا هذا لا أبرح أو يتصل قبرانا، ثم
شهقت شهقة فصاح النساء وقلن: قضت، والذي اختار لها الوفاة فما رأيت أسرع ولا
أوحى من أمرها. قال ابن الدُمَيْثَةِ:

ويتنا فَوَيْقَ الْحَيِّ لا نحن منهم ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبات بقينا ساقطَ الطل والندي من الليل بُرْداً يُمْنَةً^(٣) عَطِران
نذود بذكر الله عنا غوى الصبا إذا كان قلبنا له يردان
ونصدر^(٤) عن ري العفّاف وربما نقعنا غليل الحبّ بالرشفان

(١) العتمة: وقت صلاة العشاء.

(٢) الآس: الفتاة الطيبة النفس المحبوب قريبا، وحديثها يؤنس به.

(٣) بردا يمّنة: ضرب من برود اليمن.

(٤) صدر عن الماء: رجع عنه وانصرف. قال تعالى: ﴿لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ أي يرجع الرعاء من سقيهم أو يرجعون إبلهم.

قال أبو الفرج: وشت جارية بُيِّنَتْ بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما: إن جميلاً عندها، فأتيا مشتملين على سيفيهما فرأياه خالياً حُجْرَةً منها يحدثها ويشكو إليها بئهُ^(١) ثم قال لها: يا بُيِّنَتْ أَرَأَيْتَ ما بي من الشغف والعشق ألا تَعْجِزِينِيهِ؟ قالت له: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحابين، فقالت له: يا جميل أهذا تبغي؟ والله لقد كنتَ عندي بعيداً منه، فإذا عاودت تعريضاً بريئة لا رأيت وجهي أبداً، فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك، ولو علمت أنك تجيئينني إليه لعلمت أنك تجيئين غيري، ولو رأيت منك مساعدة لضربتكَ بسيفي هذا ما استمسك في يدي إن طاوعتني نفسي، أو هجرتك أبداً، أما سمعت قولي:

وإنِّي لأرضى من بُيِّنَتْ بالذي	لو أبصره الواشي لقرت بـ
بلا وبأن لا أستطيع وبـ	الأملى المرجو قد خاب
وبالنظرة العجلى وبـ	الحول تنقضي وأوائله؟

فقال أبوها لأخيها: قم بنا فما ينبغي لنا بعد هذا اليوم أن نمنع هذا الرجل من إتيانها.

(١) البث: الحال وأشد الحزن الذي لا يصبر عنه صاحبه فيثته. والمرض الشديد.

(٢) بـ: أوهامه ووساوسه.

في ارتكاب سبيلي الحرام وما يفضي إليه من المفساد والآلام

حقيقٌ بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلمَ سلامتها وآفاتُها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامةٍ أو عطب، وهذان السيلان هلاك الأولين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويُقضيان بِصاحبهما إلى أقبح الغايات وشرِّ موارد الهلكات، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنى شرّاً سبيل فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فإذا كانت هذه سبيل الزنى فكيف بسبيل اللواط التي تَعْدِلُ الفَعْلَةُ منه في الإثم والعقوبة أضعافاً وأضعافاً أضعافاً من الزنى كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى؟ فأما سبيل الزنى فأسوأ سبيل، ومَقِيلٌ^(١) أَهْلُهَا في الجحيم شرٌّ مَقِيل، ومستقرُّ أرواحهم في البرزخ في تُور من نارٍ يأتيهم لهما من تحتهم، فإذا أَنَاهُم اللهب ضَجُّوا وارتفعوا، ثم يعودون إلى موضعهم، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي ﷺ في منامه، ورؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها.

فروى البخاري في صحيحه من حديث سَمُرَةَ بن جُنْدَب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ممّا يكثر أن يقول لأصحابه: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟» فَيَقْصُ عليه ما شاء الله أن يَقْصُ. وإنه قال لنا ذات غَدَاة: «إنه أَنَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ وَإِنَهُمَا ابْتَعَثَانِي وَإِنَهُمَا قَالَا لِي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وَإِنَا أَنِينَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَنْلَعُ^(٢) رَأْسُهُ فَيَنْدَهْدُهُ الْحَجَرُ هَاهُنَا، فَيَنْبَعُ الْحَجَرُ فَيَأْخُذُهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصْبَحَ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى» قال: «قلت لهما: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فَأَتِينَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلَقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكَلْبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شَقِيٍّ وَجْهَهُ فَيَشْرِشُرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى

(١) المقيّل: المثوى والنوم في الظهيرة.

(٢) ثلغ رأسه: شدّخه. ويتدهده: يتدحرج. والكلوب: المهماز، وحديدة معطوفة الرأس والجمع كلاليب. وضوضو: صاح وصرخ.

الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعلَ بالجانب الأول، فما يَفْعُرُ من ذلك الجانب حتى يَصِحَّ ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى» قال: «قلت: سُبْحَانَ اللَّهِ ما هذان؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على مثل التثور، فإذا فيه لَغَطٌ وَأَصَوَاتٌ» قال: «فاطلعنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عُرَاةٌ، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضُوءًا». قال: «قلت لهما: ما هؤلاء؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على نهرٍ أحمرٍ مثل الدَّم، وإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يسبح، وإذا على شطِّ النهر رجلٌ قد جمع عنده حجارةٌ كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيَقْعُرُ له فاه فيُلْقِمُهُ حَجَرًا فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فَعَرَّ له فاه فألقمه حَجَرًا»، قال: «قلت لهما: ما هذان؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجلٍ كربه المَرَّةُ^(١) كأكره ما أنت راء رجلًا مَرَّةً، وإذا عنده نارٌ يحشُّها ويسعى حولها»، قال: «قلت لهما: ما هذان؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على روضةٍ مُعْنَمَةٍ^(٢) فيها من كل نَوْرِ الرِّبيع، وإذا بين ظَهري الروضة رجلٌ طويلٌ لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قطّ» قال: «قلت لهما: ما هؤلاء؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا^(٣) على دَوْحَةٍ لم أرَ دَوْحَةً قطّ أعظم منها ولا أحسن»، قال: «قالا لي: ارق فيهما، فارتقينا فيها إلى مدينةٍ مَبْنِيَةٍ بلبين ذهبٍ ولبن فضةٍ»، قال: «قالا لي: فأتينا بابَ المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شَطْرٌ من خَلْقِهِمْ كأحسن ما أنت راء، وشَطْرٌ كأقبح ما أنت راء» قال: «قالا لهم: اذهبوا ففَعُّوا في ذلك النهر» قال: «وإذا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يجري كأنَّ ماءَ المَحْضُ في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك الشؤء عنهم فصاروا في أحسن صورةٍ» قال: «قالا لي: هذه جنة عَدْن، وهذاكَ منزلُكَ» قال: «فسما بصري صُعْدًا فإذا قصرٌ مثل الرِّبَابَةِ البَيْضَاء» قال: «قالا لي: هذاكَ منزلُكَ» قال: «قلت لهما: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا دَرَانِي فَأَدْخَلَهُ قَالَا: أما الآن فلا، وأنت داخلُهُ» قال: «قلت لهما: «إني قد رَأَيْتُ منذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟» قال: «قالا لي: أَمَّا إِنَّا سنخبرك، أَمَّا الرجل الأول الذي أتيت عليه يُثْلَغُ رأسه بالحجر فإنه الرجلُ يأخذ

(١) المرأة: المنظر.

(٢) اعتم النبات: تم طوله وظهر نوره.

(٣) رواية البخاري: فانتبهنا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط الخ. قال القسطلاني: وعند الإمام أحمد والنسائي: إلى دوحه بدل روضة. والدوحه: الشجرة العظيمة من أي شجر كان. ولبن: جمع لبنة: التي يبنى بها. وهو في الأصل المضروب من الطين يبنى به دون أن يطبخ. والمحض: الخالص وكل شيء خالص لا يشوبه شيء يخالطه. والربابة: السحابة البيضاء.

القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشزشر شدقه إلى قفاه ومَنَحِرُهُ إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق، وأما الرجال والنساء المرأة الذين هم في مثل بناء التَّنُور فإنهم الزُّناة والزَّواني، وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النَّهَرِ ويلقَم الحَجَرَ فإنه آكل الرِّبَا، وأما الرجل الكريه المرأة الذي عند النار يحشُّها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم، وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم، وأما الولدان حوله فكل مولود مات على الفِطْرة قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين، وأما القوم الذين كانوا شَطَرٌ منهم حَسَنٌ وشَطَرٌ منهم قبيحٌ فإنهم قومٌ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم»^(١).

وقال أبو مسلم الكجِّي: حدَّثنا صدقة بن جابر، عن سُلَيْم بن عامر، قال: حدَّثني أبو أمامة الباهلي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ فَأَخَذَا بَضْبِيَّ^(٢) فَأَخْرَجَانِي فَأَتَيَا بِي جَبَلًا وَغَرًّا وَقَالَا لِي: اصْعَدْ فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَطِيقُهُ فَقَالَا: سَنَسْهَلُهُ لَكَ» قال: «فَصَعِدْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ^(٣) إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ مَدِيدَةٍ فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ؟ فَقَالَا: هَذَا عَوَاءُ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي فَإِذَا أَنَا بِفَوْجٍ أَشَدَّ شَيْءَ انْتِفَاحًا، وَأَنْتَنَ رِيحًا، وَأَسْوَأَهُ مَنْظَرًا، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَا: هَؤُلَاءِ قَتَلُوا الْكَفَّارَ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي فَإِذَا بِفَوْجٍ أَشَدَّ شَيْءَ انْتِفَاحًا، وَأَنْتَنَ رِيحًا، كَأَن رِيحَهُمُ الْمَرَايِضُ فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي»^(٤).

وقال قُتَيْبَةُ بن سعيد: حدَّثنا نوح بن قيس قال: حدَّثني أبو هارون العبدِي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْلَةُ أُسْرِي بِي انْطَلَقَ بِي إِلَى خَلْقٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَثِيرٍ، نِسَاءٌ مُعَلَّقَاتٌ بِثُدْيَتِهِنَّ وَمَنْهَنَ بِأَرْجُلِهِنَّ مَنْكَسَاتٌ، وَلِهِنَّ صُرَاحٌ وَخَوَارٌ فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ اللَّوَاتِي يَزْنِينَ وَيَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَيَجْعَلْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ وَرَثَةً مِنْ غَيْرِهِمْ».

وقال أبو نُعَيْم الفضل بن دُكَيْن: حدَّثنا عبد السلام بن شَدَاد، عن غَزْوَان بن جَرِير،

(١) أخرجه البخاري في التعبير باب ٤٨، وأحمد في المسند (٨/٥)، (١٤).

(٢) الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد، والجمع أضباع.

(٣) سواء الجبل: وسطه.

(٤) بعض هذه الحديث ورد في الفتح لابن حجر عقب الحديث السابق وذكره المنذري في الترغيب والترهيب بأطول مما هنا ثم قال: رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما واللفظ لابن خزيمة ولا علة له.

عن أبيه أنهم تذكروا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه الفواحش فقال لهم: هل تدرون أي الزنى أعظم؟ قالوا: يا أمير المؤمنين كله عظيم قال: ولكن سأخبركم بأعظم الزنى عند الله، هو أن يزني الرجل بزوجة الرجل المسلم فيصير زانياً وقد أفسد على الرجل زوجته. ثم قال عند ذلك: إن الناس يُرسلُ عليهم يوم القيامة ريحٌ منتنة حتى يتأذى منها كلُّ برٍّ وفاجرٍ، حتى إذا بلغت منهم كلَّ مبلغٍ وألَمَّتْ^(١) أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم منادٍ يُسمعهم الصوتَ ويقول لهم: هل تدرون ما هذه الريح التي قد آذتكم؟ فيقولون: لا ندري والله إلا أنها قد بلغت منا كلَّ مبلغٍ، فيقال: ألا إنها ريح فروج الزناة لَقُوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه، ثم يصرف بهم، فلم يذكر عند الصرف بهم جنةً ولا ناراً.

وقال الخرائطي: حدَّثنا علي بن داود القنطري، حدَّثنا سعيد بن عفير، حدَّثني مسلم بن علي الخشني، عن أبي عبد الرحمن، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إِنَّا كُمْ وَالزَّيْنَى فَإِنَّ فِيهِ سِتٌّ خِصَالٌ: ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثٌ فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الدُّنْيَا فَذَهَابُ الْبَهَاءِ، وَدَوَامُ الْفَقْرِ، وَقَصْرُ الْعُمُرِ. وَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الْآخِرَةِ فَسَخَطُ اللَّهِ، وَسَوْءُ الْحِسَابِ، وَدُخُولُ النَّارِ»^(٢).

ويُذكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: الْمُقِيمُ عَلَى الزَّيْنَى كَعَابِدِ وَثْنٍ، ورفعهُ بعضهم، وهذا أولى أن يُشَبَّهَ بَعَابِدِ الْوَثْنِ مِنْ مُذْمِنِ الْخَمْرِ، وفي المسند وغيره مرفوعاً: مُذْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثْنٍ. فَإِنَّ الزَّيْنَى أَعْظَمُ مِنْ شَرْبِ الْخَمْرِ. قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ليس بعد قتل النفس أعظم من الزَّيْنَى.

وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عند الله؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لَكَ نِيَّةً وَهُوَ خَلْقُكَ»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»، فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٣) [الفرقان: ٦٨].

(١) ألم: قرب، وبالناس: نزل بهم.

(٢) ذكره السيوطي بنحوه في الجامع الكبير وقال: رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق وأبو نعيم في البيهقي في الشعب وضعفه، وأبو الفتح الراشدي في جزئه والرافعي.

(٣) ١ أحمد في المسند (١/٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٦٢، ٤٦٤) والبخاري في تفسير سورة ٢ باب ٣ وسورة ٢٥ باب ٢، والأدب باب ٢٠، والحدود باب ٢٠، والديات باب ١، والتوحيد باب ٤٠ =

وقال قُتَيْبَةُ بن سعيد: حدثنا ابن لَهَيْعَةَ، عن ابن أَنْعَمَ، عن رجل، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُ وَيَقُولُ لَهُ: أَذْخَلَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ»^(١) وذكر سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن جامع بن شَدَاد، عن أَبِي وائِل، عن عبد الله قال: إذا بَخُسَ المَكِّيَالُ حُبْسَ القطر، وإذا ظَهَرَ الزُّنَى وَقَعَ الطَّاعُونَ، وإذا كَثُرَ الكَذِبُ كَثُرَ الْهَرَجُ.

وفي الصحيحين^(٢) من حديث الأعمش، عن أَبِي حازم، عن أَبِي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»^(٣).

وذكر سفيان الثوري، عن منصور، عن رِيعِي بن حِرَاش، عن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُغْضُ ثَلَاثَةً: الشَّيْخَ الزَّانِي، وَالْمُقِلَّ الْمُخْتَالِ، وَالْبَخِيلَ الْمَتَّانَ»^(٤).

وذكر الأعمش، عن خَيْثَمَةَ، عن أَبِي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشٍ الْمُغِيبَةِ مَثَلُ الَّذِي يَنْهَشُهُ الْأَسَاوِدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥). الْمُغِيبَةُ هي التي قد سافر زوجها في جهادٍ أو حجٍّ أو غيرهما، وفي النسائي وغيره من حديث بُرَيْدَةَ عن النبي ﷺ قال: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَأُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَخَانَهُ قِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا خَانَكَ فِي أَهْلِكَ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ فَمَا ظَنُّكُمْ؟»^(٦).

ويكفي في قُبْحِ الزُّنَى أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أَفْحَشَ الْقَتْلَاتِ وَأَصْعَبَهَا وَأَفْضَحَهَا، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيبَ فاعله، ومن قبحه أن

= ٤٦. ومسلم في الإيمان حديث ١٤١ و ١٤٢. وأبو داود في الطلاق باب ٥٠. والترمذي في تفسير

سورة ٢٥ باب ١ و ٢. والنسائي في الإيمان باب ٦، والتحريم باب ٥.

(١) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق والديلمي في مسند الفردوس، كما قال السيوطي.

(٢) هذا الحديث لم يرد في صحيح البخاري وهو في الجامع الصغير والترغيب والترهيب دون أن يشير فيه إلى رواية البخاري بل قال: رواه مسلم والنسائي، وزاد في الزواجر أحمد.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤٥٣/٢)، (٤٨٠) والنسائي في الزكاة باب ٦٩، ٧٧، والبيوع باب ٥.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٤٨/٥)، (١٥١)، (١٥٨)، (١٦٢)، (١٦٨)، (١٧٦)، (١٧٨).

(٥) رواه الطبراني في الكبير والخرائطي في مساوئ الأخلاق، كما قال السيوطي. والأساود جمع أسود: العظيم من الحيات وفيه سواد.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٢٥)، (٣٥٥) ومسلم في الإمارة حديث ١٢٩. وأبو داود في الجهاد باب

١١. والنسائي في الجهاد باب ٤٧ و ٤٨.

الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة فاجتمع عليهما القردود فرجموهما حتى ماتا وكنتُ فيمن رجمهما.

فصل: والزنى يجمع خلال الشرّ كلّها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المرأة وقلة الغيرة، فلا تجد زانياً معه ورعاً، ولا وفاءً بعهده، ولا صدقاً في حديث، ولا محافظةً على صديق، ولا غيرةً تامةً على أهله. فالغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته.

ومن موجباته غضبُ الربِّ بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرّض رجلٌ إلى ملكٍ من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة. ومنها سوادُ الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقبة الذي يبدو عليه للناظرين، ومنها ظلمة القلب وطمسُ نوره^(١) وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له. ومنها الفقرُ اللازم. وفي أثرٍ يقول الله تعالى: «أَنَا اللَّهُ مُهْلِكُ الطُّغَاةِ، وَمُفْقِرُ الرُّثَاةِ» ومنها أنه يذهب حُرمة فاعله، ويُسقطه من عين ربه ومن أعين عباده. ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسمُ العِفَّةِ والبرِّ والعدالة، ويعطيه أصدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن. ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ». فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان. وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخط دائرة في الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرى خارجة عنها وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنى العبد خرج من هذه. ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمى مؤمناً، كما أن الرجل يكون معه جزءٌ من العلم والفقه ولا يسمى به عالماً فقيهاً، ومعه جزءٌ من الشجاعة والجلود ولا يسمى بذلك شجاعاً ولا جواداً، وكذلك يكون معه شيءٌ من التقوى ولا يسمى متّقياً. ونظائره. فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يتأوّل بما يخالف ظاهره والله أعلم. ومنها أن يعرض نفسه لسكنى التثور الذي رأى النبي ﷺ فيه الرثاة والزواني. ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الرثاة كما قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

وقد حرّم الله الجنة على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيّبين، ولا يدخلها إلاّ طيّب. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ

(١) طمس نوره: ذهابه وطمس الشيء طمساً وطموساً: درس وانمحى.

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. فإنما استحقوا سلامَ الملائكة ودخولَ الجنة بطيبتهم، والزَّناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنمَ دار الخبيث وأهلِهِ، فإذا كان يوم القيامة مَيَّرَ الخبيثَ من الطَّيِّبِ وجعل الخبيثَ بعضَهُ على بعضٍ ثم ألقاه وألقى أهلَهُ في جهنم فلا يدخل النارَ طَيِّبٌ، ولا يدخل الجنة خبيثٌ.

ومنها الوحشةُ التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تملو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوةٌ وفي قلبه أُنْسٌ، ومن جالسه استأنس به، والزاني تملو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش به، ومنها قِلَّةُ الهَيِّةِ التي تُنَزَعُ من صدور أهلِهِ وأصحابهِ وغيرهم له، وهو أَحقَرُ شيءٍ في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف فإنه يُرَزَقُ المهابة والحلاوة. ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة ولا يأمنه أحدٌ على حُرْمَتِهِ ولا على ولده. ومنها الرائحة التي تفوح عليه يَشْمُها كل ذي قلبٍ سليمٍ، تفوح من فِيهِ وجسده، ولولا اشتراكُ الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه ولكن كما قيل:

كُلُّ بِهِ مِثْلُ مَا بِي غَيْرَ أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرَةٍ بَعْضُهُمْ لِلْبَعْضِ عُدَا
ومنها ضيقة الصدر وحرَّجُهُ فَإِنَّ الزَّناة يعاملون بضدَّ قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرَّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند الله لا يُنال إِلَّا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خيرٍ قط. ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانسراح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذي فاتهُ من اللذة أضعاف ما حصل له، دَعِ رِبْحَ العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته. ومنها أنه يُعَرِّضُ نفسه لفوات الاستمتاع بالخُورِ العِينِ في المساكن الطيبة في جَنَاتِ عدن، وقد تقدَّم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابسَ الحرير في الدُّنيا بحرمانه نُبْسَهُ يوم القيامة، وشارِبَ الخمر في الدُّنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تَمَتَّعَ بالصُّورِ المحرَّمة في الدنيا، بل كل ما ناله العبد في الدُّنيا فإن توسَّعَ في حلاله ضَيَّقَ من حظه يوم القيامة بقدر ما توسَّعَ فيه، وإن ناله من حرامٍ فاتهُ نظيره يوم القيامة.

ومنها أن الزَّنى يُجرِّثُهُ عَلَى قِطِيعَةِ الرَّحِمِ وعقوقِ الوالدين وكَسْبِ الحرام وظُلْمِ الخلق وإِضَاعَةِ أَهْلِهِ وَعِيَالِهِ، وربما قاده قسراً إلى سفك الدَّمِ الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدري أو لا يدري، فهذه المعصية لا تَتِمُّ إِلَّا بأنواعٍ من المعاصي قبلها ومعها، ويتولَّدُ عنها أنواعٌ أُخَرُ من المعاصي بعدها، فهي محفوفةٌ بجندٍ من المعاصي قبلها وجندٍ بعدها، وهي أجلب شيءٍ لشرِّ الدُّنيا والآخرة، وأمنع شيءٍ لخير روضة المحبين / م ١٧

الدنيا والآخرة، وإذا عَلِقَتْ بالعبد فوق في حبائلها وأشراكها عزَّ على الناصحين استنقاذه، وأعياء الأطباء دواؤه، فأَسِيرُهَا لَا يُقْدَى، وقتيلها لَا يُودَى^(١)، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابْتُلِيَ بها عبدٌ فليودع نِعَمَ الله فإنها ضيفٌ سريعُ الانتقال، وشيكُ الزوال. قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتِرِاً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

فصل: فهذا بعض ما في هذه السبيل من الضرر، وأما سبيلُ الأمة اللوطية فتلك سبيلُ الهالكين الْمُفْضِيَةُ بسالكها إلى منازل المعدِّين الذين جمع الله عليهم من أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أمةٍ من الأمم، لا من تأخر عنهم ولا من تقدَّم، وجعل ديارهم وآثارهم عبرةً للمعتبرين، وموعظةً للمتقين.

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنهما أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً يُنْكَحُ كما تُنْكَحُ المرأة، فجمع أبو بكر رضي الله عنه لذلك ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فاستشارهم، فكان علي رضي الله عنه أشدَّهم قولاً فيه فقال: إن هذا لم يعمل به أمةٌ من الأمم إلا أمةٌ واحدةٌ فصنع الله بهم ما قد علمتم، أرى أن تحرقوه بالنار، فأحرقوه بالنار^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعةٌ من الصحابة والتابعين: يُرْجَمُ بالحجارة حتى يموت أحصن أو لم يُحصن، ووافقه على ذلك الإمام أحمد وإسحاق ومالك، وقال الزُّهري: يُرْجَمُ أحصن أو لم يُحصن، سنةً ماضيةً، وقال جابر بن زيد في رجل غشي رجلاً في دبره قال: الدبرُ أعظمُ حُرمةً من الفرج، يُرْجَمُ أحصن أو لم يُحصن، وقال الشَّعْبِيُّ: يُقْتَلُ أحصن أو لم يُحصن.

وسئل ابن عباس عن اللوطي ما حدُّه؟ قال يُنْظَرُ أعلى بناءٍ في المدينة فيُرْمَى منه مُنْكَساً ثم يُتْبَعُ بالحجارة. ورجم عليٌّ لوطياً وأفتى بتحريقه. وكأنه رأى جواز هذا وهذا.

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: لو كان أحدٌ ينبغي له أن يُرْجَمَ مرتين لكان ينبغي للوطي أن يُرْجَمَ مرتين. وذهبت طائفةٌ إلى أنه يُرْجَمُ إن أحصن ويجلد إن لم يُحصن. وهذا قول الشافعي وأحمد في روايةٍ عنه، وسعيد بن المسيَّب في روايةٍ عنه، وعطاء بن أبي رباح.

قال عطاء: شهدت ابن الزبير أتى بسبعةٍ أخذوا في اللواط: أربعةٌ منهم قد أحصنوا،

(١) لا يودى: ليس له دية. وودى القاتل القاتل ودياً ودية: أعطى وليه دية.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي، كما قال الهيثمي في الزواجر.

وثلاثة لم يُحصَنوا، فأمر بالأربعة فأخرجوا من المسجد الحرام فرُجموا بالحجارة، وأمر بالثلاثة ففُضِّروا الحدَّ وفي المسجد ابن عمر وابن عباس. فالصحابَةُ اتفقوا على قتل اللُّوطيِّ وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فظنَّ بعضُ الناس أنَّهم متنازعون في قتله ولا نزاع بينهم فيه إلَّا في إلحاقه بالزاني أو قتله مطلقاً.

وقد اختلف الناس في عقوبته على ثلاثة أقوال: أحدها أنَّها أعظم من عقوبة الزَّنى كما أنَّ عقوبته في الآخرة أشدَّ، الثاني أنَّها مثلُها، الثالث أنَّها دونها، وذهب بعض الشافعية إلى أنَّ عقوبةَ الفاعل كعقوبة الزاني، وعقوبة المفعول به الجَلْدُ مطلقاً بكَراً كان أو ثبياً قال: لأنه لا يلتذُّ بالفعل به بخلاف الفاعل.

وذهب بعضُ الفقهاء إلى أنه لا حدَّ على واحد منهما قال: لأن الوازع عن ذلك ما في الطباع من النَّفْرة عنه واستقباحه، وما كان ذلك لم يحتجَّ إلى أن يَزْجُرَ الشارِعُ عنه بالحدِّ كأكل العَذْرَةِ^(١) والميتة والدم وشرب البول، ثم قال هؤلاء: إذا أكثر منه اللُّوطيُّ فللإمام قتله تعزيراً^(٢)، صرَّح بذلك أصحاب أبي حنيفة.

والصحيح أنَّ عقوبته أغلظ من عقوبة الزاني لإجماع الصحابة على ذلك ولغلظ حرمة وانتشار فساده، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أُمَّة ما عاقب اللُّوطية.

قال ابن أبي نُجَيْجٍ في تفسيره عن عمرو بن دينار في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]. قال: ما نَزَا^(٣) ذَكَرٌ على ذكرٍ حتى كان قومٌ لوط. وقال محمد بن مَخْلَدٍ: سمعت عباساً الدُّوريَّ يقول بلغني أنَّ الأرض تَعُجُّ^(٤) إذا ركب الذَّكَرُ على الذَّكَر. وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن كعب قال: كان إبراهيم يُشْرِفُ على سدوم^(٥) فيقول: ويل لكِ سدوم يوماً ما لك، فجاءت إبراهيم الرُّسُلُ وكلمهم إبراهيم في أمر قوم لوط قالوا: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [هود: ٧٦]. قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيراً بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ [هود: ٧٧]. فذهب بهم إلى منزله فذهبت امرأته فجاءه قومه يُهْرَعُونَ إليه فقال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. أزوَّجكم بهنَّ ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾؟ [هود: ٧٨]. وجعل لوطُ الأضياف في بيته وقعد على باب البيت وقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. قال: أي عشيرة تمنعني قال: ولم يُبعث نبيُّ بعد لوطٍ إلَّا

(١) العذرة: الغائط.

(٢) تعزيراً: ردعاً والتعزير شرعاً تأديب دون الحد.

(٤) تعج: تصيح وتصرخ.

(٥) سدوم: قرية قوم لوط.

(٣) نزا الفحل: وثب.

فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ الرُّسُلُ مَا قَدْ لَقِيَ لُوطٌ فِي سَبِيلِهِمْ ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربة طَمَسَتْ أَعْيُنَهُمْ قَالَ: وَالطَّمَسُ أَنْ تَذْهَبَ حَتَّى تَسْتَوِيَ، وَاحْتَمَلَ مَدَائِنَهُمْ حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ سَمَاءِ الدُّنْيَا نَبِيْحَ كَلَابِهِمْ وَأَصْوَاتَ دُيُوكِهِمْ، ثُمَّ قَلْبَهَا وَأَمَطَرُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ^(١) قَالَ: عَلَى أَهْلِ بَوَادِيهِمْ وَعَلَى رُعَاتِهِمْ وَعَلَى مَسَافِرِهِمْ، فَلَمْ يَنْفَلِتْ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَدْخَلَ جَنَاحَهُ تَحْتَ مَدَائِنِ قَوْمِ لُوطٍ فَرَفَعَهَا حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نَبِيْحَ الْكَلَابِ وَأَصْوَاتَ الدَّجَاجِ وَالذِّيَكَةِ، ثُمَّ قَلْبَهَا فَجَعَلَ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا ثُمَّ أَتَبَعُوا بِالْحِجَارَةِ.

وَفِي تَفْسِيرِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَغْلَقَ لُوطٌ عَلَى ضَيْفِهِ الْبَابَ فَخَلَعُوا الْبَابَ وَدَخَلُوا، فَطَمَسَ جَبْرِيلُ أَعْيُنَهُمْ فَذَهَبَتْ أَبْصَارُهُمْ فَقَالُوا: يَا لُوطُ جِئْتَنَا بِالسَّحَرَةِ؟ وَتَوَعَّدُوهُ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً قَالَ: يَذْهَبُ هَؤُلَاءُ وَنُوذِي، فَقَالُوا: لَا تَخَفْ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ قَالَ لُوطٌ: السَّاعَةَ، قَالَ جَبْرِيلُ: أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟ قَالَ: فَرُفِعَتِ الْمَدِينَةُ حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نَبِيْحَ الْكَلَابِ ثُمَّ أَقْبَلَتْ وَرُمُوا بِالْحِجَارَةِ. وَقَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ: لَمَّا أُرْسِلْتُ الرُّسُلُ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ لَتَهْلِكُكُمْ قِيلَ لَهُمْ: لَا تَهْلِكُوهُمْ حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ لُوطٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَطَرِيقُهُمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ قَالَ: فَاتَّوَا إِبْرَاهِيمَ فَبَشَّرُوهُ بِمَا بَشَّرُوهُ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]. قَالَ: كَانَ مُجَادِلَتُهُ إِيَّاهُمْ أَنْ قَالَ لَهُمْ: إِنْ كَانَ فِيهِمْ خَمْسُونَ أَتَهْلِكُونَ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهِمْ أَرْبَعُونَ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَثَلَاثُونَ؟ قَالُوا: لَا. حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَشْرَةٍ أَوْ خَمْسَةٍ، فَاتَّوَا لُوطًا وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَعْمَلُ فِيهَا فَحَسِبَهُمْ ضَيْفًا، فَأَقْبَلَ بِهِمْ حِينَ أَمْسَى إِلَى أَهْلِهِ فَاتَّوَا مَعَهُ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَمَا تَرَوْنَ مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءُ؟ قَالُوا: وَمَا يَصْنَعُونَ؟ قَالَ: مَا مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ شَرُّ مِنْهُمْ، قَالَ: فَانْتَهَى بِهِمْ إِلَى أَهْلِهِ فَانْطَلَقَتِ الْعَجُوزُ السُّوءُ امْرَأَتُهُ فَاتَتْ قَوْمَهُ فَقَالَتْ: لَقَدْ تَضَيَّفَ لُوطًا اللَّيْلَةَ قَوْمٌ مَا رَأَيْتَ قَطُّ أَحْسَنَ وَجْهًا وَلَا أَطْيَبَ رِيحًا مِنْهُمْ، فَأَقْبَلُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى دَفَعُوا الْبَابَ ثُمَّ كَادُوا أَنْ يَقْلَبُوهُ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ مَلَكٌ بِجَنَاحِهِ فَصَفَّقَهُ دُونَهُمْ ثُمَّ أَغْلَقَ الْبَابَ ثُمَّ عَلَوْا الْأَجَاجِيرَ^(٢) فَجَعَلَ يَخَاطِبُهُمْ فَقَالَ: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. حَتَّى بَلَغَ ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨٠، ٨١]. فَطَمَسَ جَبْرِيلُ

(١) سَجِيلٌ: طِينٌ مَطْبُوخٌ.

(٢) الْأَجَاجِيرُ: جَمْعُ إِجَارٍ وَهُوَ السُّطْحُ.

أَعْيَنَهُمْ فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى عَمِيَ قَالَ: فَبَاتُوا بَشْرَ لَيْلَةٍ عُمِيًّا يَنْتَظِرُونَ الْعَذَابَ. قَالَ: وَسَارَ بِأَهْلِهِ وَاسْتَأْذَنَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَلَاكِهِمْ فَأَذَّنَ لَهُ، فَارْتَفَعَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فَالْوَى^(١) بِهَا حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ضُغَاءً^(٢) كَلَابِهِمْ، وَأَوْقَدَ تَحْتَهَا نَارًا ثُمَّ قَلَبَهَا بِهِمْ قَالَ: فَسَمِعَتْ امْرَأَتُهُ الْوَجْبَةَ^(٣) وَهِيَ مَعَهُ فَالْتَفَتَتْ فَأَصَابَهَا الْعَذَابُ.

وفي تفسير العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: جادل إبراهيم الملائكة في قوم لوط أَنْ يَتْرَكُوا فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهِمْ عَشْرَةُ آيَاتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَتَتْرَكُونَهُمْ؟ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: لَيْسَ فِيهَا عَشْرَةُ آيَاتٍ وَلَا خَمْسَةٌ وَلَا أَرْبَعَةٌ وَلَا ثَلَاثَةٌ وَلَا اثْنَانِ، فَحَزَنَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى لُوطٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. فذلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤، ٧٥]. فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦]. فَبَعَثَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ جَبْرِيلَ فَانْتَسَفَ الْمَدِينَةَ وَمَنْ فِيهَا بِأَحَدٍ جَنَاحِيهِ فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَتَبِعَتْهُمْ الْحِجَارَةُ بِكُلِّ أَرْضٍ. فَأَهْلَكَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ، وَالسَّائِطَ الرَّاضِيَّ، وَالذَّالَّ الْمُحْصَنَ مِنْهُمْ وَغَيْرَ الْمُحْصَنِ، الْعَاشِقَ وَالْمَعْشُوقَ، وَأَخَذَهُمْ وَهُمْ فِي سَكْرَةٍ عَشَقَهُمْ يَعْمَهُونَ.

وذكر ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ حِينَ دَخَلُوا عَلَى لُوطٍ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَضْيَافٌ ضَافُوهُ فَاحْتَفَلُوا لَهُمْ وَحَرَّصُوا عَلَى كِرَامَتِهِمْ، وَخَالَفَتْهُ امْرَأَتُهُ إِلَى فَسَاقٍ قَوْمِهِ فَأَخْبَرَتْهُمْ أَنَّهُ ضَافٌ لُوطًا أَحْسَنُ النَّاسِ وَجَهًا وَأَنْضَرُهُمْ جَمَالًا وَأَطْيَبُهُمْ رِيحًا، فَكَانَتْ هَذِهِ خِيَانَتُهَا الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ. وَفِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠]. قَالَ: وَاللَّهِ مَا زَنَّا وَلَا بَغَتْ أَمْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ فَقِيلَ لَهُ: فَمَا كَانَتْ خِيَانَةُ امْرَأَةِ نُوحٍ وَامْرَأَةِ لُوطٍ؟ فَقَالَ: أَمَّا امْرَأَةُ نُوحٍ فَكَانَتْ تَخْبِرُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ، وَأَمَّا امْرَأَةُ لُوطٍ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَذُلُّ عَلَى الضَّيْفِ.

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَقِيلٍ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي

(١) ألوى بها: ذهب بها مصعداً.

(٢) الضغاء: الصياح من الألم.

(٣) الوجبة: صوت الساقط.

عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ^(١) وقال هشام بن عمار: حدثنا عبد العزيز الدَّرَاوَزْدِي عن عمرو بن أبي عمرو، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ» (رواه الإمام أحمد^(٢)) وقال القَعْنَبِيُّ: حدثنا عبد العزيز هو الدَّرَاوَزْدِي، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حَنْطَبٍ المخزومي، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الْأَرْضِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّهُ أَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ»^(٣) هذا الإسناد على شرط البخاري.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا بشر بن المفضل، عن خالد الحذاء، عن محمد بن سيرين، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بَاشَرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ» وفي لَفْظٍ: «إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ»^(٤).

وفي المسند والسنن من حديث عِكْرَمَةَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» وفي لفظ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»^(٥). وإسناده على شرط البخاري.

وروى سهيل بن أبي صالح عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَارْجُمُوهُ» أو قال: «فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وحرق اللوطيَّة بالنار أربعة من الخلفاء: أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك.

وقال حماد بن سلمة عن قتادة، عن خِلاس، عن عبيد الله بن معمر، قال: يُقْتَلُ اللُّوطِيُّ. وقال سعيد بن المسيَّب: عندنا على اللوطي الرجم أحسن أو لم يُخَصَّن سنة ماضية، وهذا يدل على أن ذلك سنة مضى عليها العمل.

(١) أخرجه الترمذي في الحدود باب ٢٤، وابن ماجه في الحدود باب ١٢.

(٢) في المسند (١/٢١٧، ٢٦٩، ٣٠٠).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٠٩، ٣١٧). ورواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي كما جاء في الترغيب والترهيب وفي الزواجر.

(٤) رواه البيهقي في السنن، كما قال السيوطي.

(٥) رواه الترمذي في الحدود باب ٢٤، وابن ماجه في الحدود باب ١٢.

وقال الشَّعْبِيُّ: يَفْتُلُ أَحْصِنَ أَوْ لَمْ يُحْصَنَ. وقال الزَّهْرِيُّ وَرَبِيعَةُ وَابْنُ هَرَمَزٍ وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: عَلَيْهِ الرَّجْمُ أَحْصِنَ أَوْ لَمْ يُحْصَنَ.

وقال بعض العلماء: وَإِنَّمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: إِنَّ ذَلِكَ سَنَةٌ مَاضِيَةٌ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»، وَلَمْ يَقُلْ مُحْصَنًا أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ.

وَحَرَقَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ بَعْدَ مُشَاوَرَةِ الصَّحَابَةِ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِذَلِكَ، وَحَرَقَهُمْ عَلِيٌّ وَابْنُ الزَّبِيرِ كَمَا ذَكَرَهُ الْآجِرِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدَرِ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ كَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ وَجَدَ رَجُلًا فِي بَعْضِ ضَوَاحِي الْعَرَبِ يُنْكَحُ كَمَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، فَجَمَعَ أَبُو بَكْرٍ لِذَلِكَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِيهِمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَقَالَ عَلِيٌّ: إِنَّ هَذَا ذَنْبٌ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَفَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ، أَرَى أَنْ تَحْرَقُوهُ بِالنَّارِ، فَاجْتَمَعَ رَأْيُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُحْرَقَ بِالنَّارِ، فَأَمَرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَحْرَقَ.

قال: وَقَدْ حَرَقَهُمُ ابْنُ الزَّبِيرِ وَهَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يُرْجَمُ اللَّوْطِيُّ بِكَرٍّ أَوْ ثِيَابٍ.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ، وَلَمْ يَفَرِّقْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَ الْمُحْصَنِ وَغَيْرِهِ، وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِعُمُومِ الْحُكْمِ لِلْمُحْصَنِ وَغَيْرِ الْمُحْصَنِ، فَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: إِنَّ هَذَا سَنَةٌ مَاضِيَةٌ.

وفي مسائل إسحاق بن منصور الكَوْسَجِ قُلْتُ لِأَحْمَدَ: يُرْجَمُ اللَّوْطِيُّ أَحْصِنَ أَوْ لَمْ يُحْصَنَ؟ فَقَالَ: يُرْجَمُ أَحْصِنَ أَوْ لَمْ يُحْصَنَ. قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهٍ: هُوَ كَمَا قَالَ.

وَالسَّنَةُ فِي الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ أَنْ يُرْجَمَ مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ» رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَذَلِكَ، ثُمَّ أَفْتَى ابْنُ عَبَّاسٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ أَنَّهُ يُرْجَمُ وَإِنْ كَانَ بَكَرًا، فَحُكْمُ فِي ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وكذلك رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِثْلُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ اللَّوْطِيَّ يُرْجَمُ وَلَمْ يَذْكُرْ مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِقَوْمِ لُوطٍ، وَكَذَا يُرَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَرَقَهُمُ بِالنَّارِ. هَذَا كَلَامُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَذَكَرَ الْآجِرِيُّ فِي كِتَابِ تَحْرِيمِ اللَّوَاطِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو مَرْفُوعًا: «سَبْعَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَيَقُولُ: أَذْخُلُوا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ: الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ، وَالنَّاكِحُ يَدُهُ، وَالنَّاكِحُ الْبَهِيمَةُ، وَالنَّاكِحُ الْمَرْأَةُ فِي ذُبْرِهَا، وَالْجَامِعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ

وَابْتَتَهَا، وَالزَّانِي بِحِلِيلَةِ جَارِهِ، وَالْمُؤْذِي لَجَارِهِ حَتَّى يَلْعَنَهُ.

وذكر عن أنس مرفوعاً نحوه وقال: «أَدْخُلُوا النَّارَ أَوَّلَ الدَّاخِلِينَ إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا، إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا، إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا، فَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ: النَّاسُ يَدُهُ، وَالْفَاعِلُ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ، وَمُذْمِنُ الْخَمْرِ، وَالضَّارِبُ أَبُوهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَا، وَالْمُؤْذِي جِيرَانَهُ حَتَّى يَلْعَنُوهُ، وَالزَّانِي بِحِلِيلَةِ جَارِهِ»^(١).

وقال مجاهد: لو أن الذي يعمل ذلك العمل يعني عمل قوم لوطٍ اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً، وقد ذكر الله سبحانه عقوبة اللوطية وما حل بهم من البلاء في عشر سورٍ من القرآن وهي: سورة الأعراف، وهود، والحجر، والأنبياء، والفرقان، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والصفات، واقتربت الساعة، وجمع على القوم بين عمى الأبصار وخسف الديار، والقذف بالأحجار، ودخول النار. وقال محذراً لمن عمل عملهم ما حل بهم من العذاب الشديد: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وقال بعض العلماء: إذا علا الذكر الذكر هربت الملائكة، وعجت^(٢) الأرض إلى ربّها، ونزل سخط الجبار جلّ جلاله عليهم، وغشيتهم اللعنة، وحقت بهم الشياطين، واستأذنت الأرض ربّها أن تخسف بهم، وثقل العرش على حملته، وكبرت الملائكة، واستعرت^(٣) الجحيم، فإذا جاءته رسل الله لقبض رُوحه نقلوها إلى ديار إخوانهم وموضع عذابهم، فكانت رُوحه بين أرواحهم. وذلك أضيق مكاناً وأعظم عذاباً من تتور الرُناة. فلا كانت لذّة توجب هذا العذاب الأليم، وتسوق صاحبها إلى مرافقة أصحاب الجحيم. تذهب اللذات، وتُعقب الحشرات، وتَفْنِي الشهوات، وتَبْقَى الشقوة. وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يُنشد:

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا مِنْ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْخِزْيُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغْبِئَتِهَا^(٤) لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

فصل: وأما إن كانت الفاحشة مع ذي رَحِمٍ مَحْرَمٍ فذلك الهلْكُ كُلُّ الهلْكِ، ويجب قتلُ الفاعل بكل حال عند الإمام أحمد وغيره.

(١) رواه الحسن بن عرفة في جزئه والبيهقي في الشعب، كما قال السيوطي.

(٢) عجت: صاحت ورفعت صوتها.

(٣) استعرت النار: توقدت.

(٤) المغيبة: العاقبة.

واحتج أحمد بحديث عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: لقيت خالي ومعه الراية فقلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه أضرب عنقه، وأخذ ماله (رواه الإمام أحمد) واحتج به.

وقال شعبة: حدثنا الركين بن الربيع عن عدي بن ثابت عن البراء قال: رأيت أناساً ينطلقون فقلت: أين تذهبون؟ قالوا: بعثنا رسول الله ﷺ إلى رجل يأتي امرأة أبيه أن نقتله.

وذكر عبد الله بن صالح: حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جريج، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «افْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ وَالَّذِي يَأْتِي الْبَهِيمَةَ وَالَّذِي يَأْتِي كُلَّ ذَاتٍ مَحْرَمٍ»^(١). وقال هشام بن عمار: حدثنا رفة بن قضاة، حدثنا صالح بن رشدان قال: أتني الحجاجُ برجلٍ قد اغتصب أخته على نفسها فقال: احبسوه وسلوه من هاهنا من أصحاب محمد ﷺ؟ فسألوا عبد الرحمن بن مطرف^(٢) فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَخَطَّى الْحُرْمَتَيْنِ فَخَطَا وَسْطَهُ بِالسَّيْفِ». وأفتى ابن عباس رضي الله عنهما بمثل ذلك. وقال عمر بن شبة: حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي عن قتادة قال: أتني الحجاجُ برجلٍ زنى بأخته، فسأل عنها عبد الله فقال: يضرب بالسيف، فأمر به الحجاجُ فضرب عنقه بالسيف.

وذكر جماعة عن حماد بن سلمة، عن بكر بن عبد الله المزني أن رجلاً تزوج خالته فرُفع إلى عبد الملك بن مروان قال: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّهَا تَحِلُّ لِي فَقَالَ: لا جِهالة في الإسلام وأظنُّ أنه أمر به فقتل. وفي مسائل صالح بن أحمد قال: سألت أبي عن الرجل الذي تزوج ذات مَحْرَمٍ منه فقال: إن كان عمداً يُقتل ويؤخذ ماله، وإن كان لا يعلم يُمَرَّقُ بينهما، وأستحب أن يكون لها ما أخذت منه ولا يرجع عليها شيء. وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جدّه أن النبي ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَتَى ذَاتَ مَحْرَمٍ»^(٣).

(١) ذكره الهيثمي في الزواجر من دون الفقرة الأخيرة وقال: رواه البيهقي وغيره.

(٢) رواه أحمد أحمد وأحمد الحاكم عن عبد الله بن أبي مطرف، كما قال السيوطي. وراجع هذه القصة أيضاً في الإصابة لابن حجر العسقلاني، وما قيل في تخريجها.

(٣) رواه الخرائطي عن ابن عمرو والطبراني في المعجم الكبير وأبو نعيم في الحلية كلاهما عن ابن عباس، كما قال السيوطي.

في رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يبيحه الدين

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. وكلُّ من أعان غيره على أمرٍ بقوله أو فعله فقد صار شافعاً له، والشفاعة للمشفوع له هذا أصلها، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شفعاً في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في حكم هذه الآية كلُّ متعاونين على خيرٍ أو شرٍّ بقولٍ أو عملٍ. ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه إذا كان جاءه طالب حاجة يقول: «اسْتَفْعُوا تَوْجَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا أَحَبَّ»^(١)، وفي صحيح البخاري أن بريرة لما عتقت اختارت نفسها فكان زوجها يمشي خلفها ودموعه تسيل على لحيته، فقال لها النبي ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِيهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكَ» فقالت: أتأمرني؟ قال: «لَا إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ» قالت: فلا حاجة لي فيه^(٢). فهذه شفاعة من سيّد الشفعاء لمحَبٍّ إلى محبوبه، وهي من أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحبه الله ورسوله، ولهذا كان أحب ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين. وتأمّل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ وفي السيئة ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ فإن لفظ الكِفْل يُشْعِرُ بالحمل والثقل، ولفظ النصيب يُشْعِرُ بالخط الذي يَنْصَبُ طالبه في تحصيله، وإن كان كلُّ منهما يُستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما حَسَنٌ اختصاصٌ حظَّ الخير بالنصيب وحظُّ الشرِّ بالكِفْل.

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلاً على عهد رسول الله ﷺ زوّج ابنته له وكان خطبها قبل ذلك عمّ بنتها، فبلغ النبي ﷺ أنها كارهة هذا الذي زوّجها

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/٤٠٠، ٤٠٣، ٤٠٩) والبخاري في الزكاة باب ٢١، والأدب باب ٢٦ و٢٧، والتوحيد باب ٣١. ومسلم في البر حديث ١٤٥. وأبو داود في الأدب ١١٧. والترمذي في العلم باب ١٤. والنسائي في الزكاة باب ٦٥.

(٢) أخرجه النسائي في القضاة باب ٢٨. وابن ماجه في الطلاق باب ٩. والدارمي في الطلاق باب ١٥.

أبوها، وأنه كان يعجبها أن يتزوّجها عمّ بنتها، فأهدر النبي ﷺ نكاح أبيها وزوّجها عمّ بنتها^(١). وقد تقدّم حديث عمرو بن دينار، عن طاوُس، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله، في حِجْرِي يَتِيْمَةٌ قد خطبها رجلٌ مُوسِرٌ ورجُلٌ مُعْدِمٌ، فنحن نحبّ الموسِرَ وهي تحبّ المُعْدِمَ. فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ لِلْمُتَحَابِّينِ مِثْلُ النِّكَاحِ»^(٢) رواه سليمان بن موسى عنه.

وقال مَخْلَدُ بن الحسين: حدّثنا هشام بن حَسَن، عن محمد بن سِيرِينَ قال: كان عمر بن الخطاب يَعْصُ بالليل فسمع صوت امرأةٍ تَغْنِي وتقول:

هل من سبيلٍ إلى خمر فأشربها أم هل سبيلٌ إلى نصر بن حجاج
فقال: أمّا وعمر حيّ فلا. فلما أصبح بعث إلى نصر بن حجاج فإذا رجلٌ جميلٌ
فقال: اخرج فلا تساكني بالمدينة، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مُجَاشِع بن مسعود، وكانت له امرأةٌ جميلةٌ فأعجبها نصر، فأحبها وأحبته فكان يقعد هو ومُجَاشِعُ يتحدثان والمرأةُ معهما، فكتب لها نصر في الأرض كتاباً فقالت: وأنا، فعلم مُجَاشِعُ أنها جواب كلام، وكان مجاشعٌ لا يكتب والمرأة تكتب، فدعا بإناءٍ فأكفأه على المكتوب ودعا كاتباً فقرأه فإذا هو: إني لأُحِبُّكِ حبّاً لو كان فوقكِ لأَظْلُكِ ولو كان تحتكِ لأَقْلُكِ^(٣)، وبلغ نصراً ما صنع مُجَاشِعُ فاستحيا ولَزِمَ بيته وضمي جسمه حتى كان كالفرخ^(٤)، فقال مجاشع لأمراته: اذهبي إليه فأسندته إلى صدرها، وأطعمته الطعام بيدها، فلما تحامل خرج من البصرة.

إنّ الذين بخيرٍ كنتَ تذكرهم هم أهلُكوك وعنهم كنتَ أنهاكا
لا تطلبنَّ شفاءً عند غيرهم فليس يُخَيِّيك إلا من توفّاكا

فإن قيل: فهل تبيح الشريعة مثل ذلك؟ قيل: إذا تعيّن طريقاً للدواء ونجاة العبد من الهلكة لم يكن بأعظم من مداواة المرأة للرجل الأجنبي، ومداواته لها، ونظر الطبيب إلى بدن المريض ومسّه بيده للحاجة. وأما التداوي بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجه ما، وأما التداوي بالضمّ والقبلة فإن تحقق الشفاء به كان نظير التداوي بالخمر عند من يبيحه، بل هذا أسهل من التداوي بالخمر فإن شربه من الكبائر، وهذا الفعل من الصغائر. والمقصود

(١) رويت هذه القصة في صحيح البخاري وسنن النسائي وابن ماجه بالفاظ أخرى عن خنساء بنت خدام الأنصارية. ورويت من طرق أخرى في كتابي الإصابة وأسد الغابة.

(٢) تقدم بلفظ: «لم يُر للمتحابين مثل النكاح» ولفظ: «لم يُر للمتحابين مثل التزويج».

(٣) أقل الشيء: حمله ورفع.

(٤) الفرخ: ولد الطائر، وكل صغير من الحيوان والنبات. والفرخ أيضاً الرجل الضعيف الذليل المطرود.

أن الشفاعة للعشاق، فيما يجوز من الوصال والتلاق، سنّة ماضية وسعيّ مشكور.

وقد جاء عن غير واحدٍ من الخلفاء الراشدين ومن بعدهم أنهم شفّعوا هذه الشفاعة.

فقال الخرائطي: حدّثنا عليّ بن الأعرابي، حدّثنا أبو غسان التّهديّ قال: مرّ أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه في خِلافَتِهِ بطريقٍ من طُرُقِ المدينة فإذا جاريةٌ تطحنُ برحها وهي تقول:

وهويّته من قبل قطع تمائمي متمائساً^(١) مثل القضيب الناعم
وكان نُورَ البدرِ سنّةً وجهه ينمي ويصعد في ذؤابة هاشم^(٢)

فدقّ عليها الباب فخرجت إليه فقال: ويلك أحرّة أنت أم مملوكة؟ فقالت: بل مملوكة يا خليفة رسول الله ﷺ، قال: فمن هويت؟ فبكت ثم قالت: بحق الله إلا انصرفت عني، قال: لا أريّم أو تعلميني فقالت:

وأنا التي لعب الغرام بقلبها فبكت لحبّ محمد بن القاسم
فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال: هؤلاء فتّن الرجال، وكم قد مات بهنّ من كريم، وعطبّ عليهنّ من سليم.

ويذكر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه جاءته جاريةٌ تستعدي على رجلٍ من الأنصار فقال لها عثمان: ما قصّتك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين كلّفتُ بآبن أخيه، فما أنفكُ أراعيه، فقال له عثمان: إما أن تهبّها لابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالي، فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

وأثنى عليّ بن أبي طالب بغيّام من العرب ووجد في دار قومٍ بالليل فقال له: ما قصّتك؟ فقال: لست بسارقٍ ولكنّي أضدّقتُ:

تعلّقتُ في دار الرباحي خوّدة يذلّ لها من حسنّها الشمس والبدر
لها في بنات الرّوم حُسنٌ ومنصبٌ إذا افتخرت بالحسن صدّقها الفخر
فلما طرقت الدار من حرّ مُهجة أتيت وفيها من توقّدها جمر
تبادر أهل الدار لي ثم صيخوا هو اللصّ محتوماً له القتل والأسر

(١) متمائساً: متبختراً.

(٢) ينمي: يزيد ويكثر. والذؤابة: الناصية، وقيل منبتها من الرأس. وذؤابة القوم: أشرفهم والمقدم فيهم.

فلما سمع عليٌّ شعرَه رَقَّ له وقال للمهلب بن رباح: اسمح له بها ونعوّضك منها، فقال: يا أمير المؤمنين سلّه مَنْ هو لنعرف نسبه؟ فقال: النَّهَّاسُ بن عُبَيْنَةَ الْعِجْلِيّ، فقال: خذها فهي لك.

وذكر التميمي في كتابه المسمى «بامتراج النفوس» أن معاوية بن أبي سفيان اشترى جارية من البحرين فأعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها:
وفارقتُ كالغصن يهترئ في الثرى طَرِيراً وَسِيماً بعدما طَرَ شارِبُهُ^(١)
فسألها فقالت: هو ابن عمِّي، فردّها إليه وفي قلبه منها.

وقال سالم بن عبد الله: كانت عاتكة ابنة زيد تحت عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت قد غلبته على رأيه وشغلته عن سوقه، فأمره أبو بكر بطلاقها واحدة ففعل، فوجد عليها فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة، فلما بَصَرَ بأبي بكر بكى وأنشأ يقول:

ولم أَرْ مثلي طَلَّقَ اليَوْمَ مثلها ولا مثلهَا في غير جُرْمٍ يطلُّق
لَهَا خُلُقٌ جَزْلٌ وَحِلْمٌ وَمَنْصِبٌ وَخُلُقٌ سَوِيٌّ فِي الْحَيَاةِ^(٢) وَمَصْدُقٌ

فَرَّقَ له أبو بكر رضي الله عنه وأمره بمراجعتها، فلما مات قالت ترثيه:
أَلَيْتُ^(٣) لَا تَنْفَكُ عَيْنِي سَخِينَةً عَلَيْكَ وَلَا يَنْفَكُ جُلْدِي أَغْبَرَا
فَلَلَّه عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَهُ فَتَى أَعَفَّ وَأَمْضَى فِي الْهَيَاجِ وَأَصْبَرَا
إِذَا شَرَعْتُ^(٤) فِيهِ الْأَسْتَةَ خَاضَهَا إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى يَتْرَكَ الرَّمْحَ أَحْمَرَا

فلما حَلَّتْ تزوّجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأولم عليها، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أدخل رأسي إلى عاتكة أكلّمها؟ قال: نعم، فأدخل عليٌّ رأسه إليها وقال: يا عُدَيَّةَ نفسها.

أَلَيْتَ لَا تَنْفَكُ عَيْنِي قَرِيرَةً عَلَيْكَ وَلَا يَنْفَكُ جُلْدِي أَصْفَرَا
فبكث، فقال له عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن؟ كلُّ النساء يفعلن هذا. فلما قُتِلَ عمر قالت ترثيه:

عَيْنَ جُودِي بَعْبَرَةٍ وَنَحِيبٍ لَا تَمَلُّ عِلَى الْجَوَادِ النَجِيبِ

(١) الطرير: ذو المنظر والهيئة الحسنة. وطر شاربه: نبت.

(٢) رواية الأغاني والإصابة: «في الحياة». وجزل: كريم. ومصديق: صادق الخلال.

(٣) رواية الأغاني: «فأقسمت».

(٤) شرعت: تسددت.

فَجَعَتْنِي الْمُنُونُ بِالْفَارِسِ الْمُعَدِّ لَمْ يَوْمَ الْهَيْجِ وَالتَّشْوِيبِ^(١)
قُلْ لِأَهْلِ الضَّرَاءِ وَالْبُؤْسِ مَوْتُوا قَدْ سَقَتَهُ الْمُنُونُ كَأْسَ شُعُوبِ^(٢)

فلما حَلَّتْ تَزَوُّجَهَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، فَاسْتَأْذَنْتْ لَيْلَةً أَنْ تَخْرُجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَكَرِهَ أَنْ يَمْنَعَهَا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»^(٣) فَأَذِنَ لَهَا ثُمَّ انْكَمَى^(٤) فِي مَوْضِعٍ مَظْلَمٍ مِنَ الطَّرِيقِ، فَلَمَّا مَرَّتْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، فَكَرَّتْ رَاجِعَةً تَسْبِخُ، فَسَبَقَهَا الزُّبَيْرُ إِلَى الْمَنْزِلِ، فَلَمَّا رَجَعَتْ قَالَ لَهَا: مَا رَدَّكَ عَنْ وَجْهِكَ؟ قَالَتْ: كُنَّا نَخْرُجُ وَالنَّاسُ نَاسٌ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَلَا. وَتَرَكْتُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا قُتِلَ الزُّبَيْرُ قَالَتْ تَرْتِيهِ:

غَدَرَ ابْنُ جُرْمُوزٍ بِفَارِسٍ بُهْمَةً يَوْمَ الْلِقَاءِ وَكَانَ غَيْرَ مُعَرِّدٍ^(٥)
يَا عَمْرُو لَوْ نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ لَا طَائِشًا رَعِشَ السَّنَانِ وَلَا الْيَدِ
ثَكَلْتُكَ أَثْلُكَ إِنْ ظَفَرْتَ بِمِثْلِهِ فِيمَا مَضَى حَتَّى تَرْوَحَ وَتَغْتَدِي
كَمْ غَمْرَةٍ قَدْ خَاضَهَا لَمْ يَنْبِهِ عَنْهَا طَرَادُكَ يَا ابْنَ أُمِّ الْفَرَقْدِ^(٦)
إِنَّ الزُّبَيْرَ لَذُو بَلَاءٍ صَادِقٍ سَمِخٌ سَجِيئُهُ كَرِيمٌ الْمَشْهَدِ
فلما حَلَّتْ خُطْبَهَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: إِنِّي لِأُضِنَّ بِكَ عَلَى الْقَتْلِ.

وَذَكَرَ الْخُرَائِطِيُّ أَنَّ الْمَهْدِيَّ خَرَجَ إِلَى الْحَجِّ حَتَّى إِذَا كَانَ بِزُبَالَةَ^(٧) جَلَسَ يَتَغَدَّى فَأَتَى بِدَوِيٍّ فَنَادَاهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي عَاشِقٌ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ، فَقَالَ لِلْحَاجِبِ: وَيْحَكَ مَا هَذَا؟ قَالَ: ابْنَةُ عَمِّي، قَالَ: أَوَلَهَا أَبٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا لَهُ لَا يَزَوِّجُكَ إِيَّاهَا؟ قَالَ: هَاهُنَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِنِّي هَجِيئٌ - وَالْهَجِيئُ: الَّذِي أُمُّهُ أَمَةٌ لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً - قَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ: فَمَا يَكُونُ؟ قَالَ: إِنَّهُ عِنْدَنَا عَيْبٌ، فَأَرْسَلْتُ فِي طَلَبِ أَبِيهَا فَأَتَانِي بِهِ، فَقَالَ: هَذَا ابْنُ أَخِيكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَلِمَ لَا تَزَوِّجُهُ كَرِيمَتِكَ؟ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَقَالَةِ ابْنِ

(١) رواية الأغاني: «والتلييب». المعلم: الفارس جعل لنفسه علامة الشجعان في الحرب. والتشويب في أذان الفجر أن يقول المؤذن: الصلاة خير من النوم.

(٢) المنون: الدهر. والمنون أيضاً: المنية. وشعوب: المنية والفراق.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٦/٢، ٣٦، ١٥١، ١٩٢/٥، ١٩٣، ٢٩/٦) ومالك في القبلة حديث ١١. والبخاري في الجمعة باب ١٣. ومسلم في الصلاة حديث ١٣٦. وأبو داود في الصلاة باب ٥٢.

وإبن ماجه في المقدمة باب ٢. والدارمي في الصلاة باب ٥٧.

(٤) انكمى: اختفى واستتر.

(٥) البهمة: الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته. ومعرود: هارب. وعرد عن قرنه: أحجم ونكل.

(٦) الغمرة: الشدة. والفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي، وولد البقرة.

(٧) زباله (بضم أوله): منزل بطريق مكة من الكوفة، كما في ياقوت.

أخيه، وكان من ولد العباس عنده جماعة، فقال: هؤلاء كلهم بنو العباس وهم هُجْن ما الذي يضرهم من ذلك؟ قال: هو عندنا عيبٌ، فقال له المهدي: زوجه إياها على عشرين ألف درهم، عشرة آلاف للعب، وعشرة آلاف مَهْرُها، قال: نعم، فحمد الله وأثنى عليه وزوجه إياها، فَأَتَى بِبَذْرَتَيْنِ فدفعهما إليه فَأَنْشَأَ الشَّابَّ يقول:

إِنْتَعْتُ ظَبِيَّةً بِالْغَلَاءِ وَإِنَّمَا يُعْطِي الْغَلَاءَ بِمَثَلِهَا أَمْثَالِي
وَتَرَكْتَ أَسْوَاقَ الْقَبَاحِ لِأَهْلِهَا إِنْ الْقَبَاحُ وَإِنْ رَخُضْنَ غَوَالِي

وذكر الخرائطي من حديث الهيثم بن عدي عن عَوَاثَةَ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ كَانَ قَدْ تَرَكَ الشَّعْرَ وَرَغِبَ عَنْهُ وَنَذَرَ عَلَى نَفْسِهِ بِكُلِّ بَيْتٍ يَقُولُهُ هَذِي بَذْنَةٌ^(١)، فمكث كذلك حيناً ثم خرج ليلة يريد الطواف بالبيت إذ نظر إلى امرأة ذات جمالٍ تطوف، وإذا رجلٌ يتلوها، كلما رفعت رِجْلَهَا وضع رِجْلَهُ موضعَ رِجْلِهَا، فجعل ينظر إلى ذلك من أمرها، فلما فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هُتَيْةً ثم رجع، فلما رآه عمر وثب إليه وقال: لَتُخْبِرَنِي عَنْ أَمْرِكَ، قال: نعم، هذه المرأة التي رأيت ابنة عمِّي وأنا لها عاشقٌ وليس لي مال، فخطبتها إلى عمِّي فرغب عني^(٢) وسألني المَهْرَ ما لا أقدر عليه، والذي رأيت هو حظي منها، وما لي من الدُّنْيَا أَمْنِيَّةٌ غَيْرُهَا، وإنما ألْقَاهَا عِنْدَ الطَّوَّافِ وَحَظِّي مَا رَأَيْتَ مِنْ فَعْلِي. فقال له عمر: وَمَنْ عَمُّكَ؟ قال: فلان ابن فلان، قال: انطلق معي إليه، فانطلقا، فاستخرجه عمر فخرج مبادراً فقال: مَا حَاجَتُكَ يَا أَبَا الْخَطَّابِ؟ قال: تَزَوُّجُ ابْنَتِكَ فَلَانَةَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَلَانَ، وَهَذَا الْمَهْرُ الَّذِي تَسْأَلُهُ يُسَاقُ إِلَيْكَ مِنْ مَالِي، قال: فَإِنِّي قَدْ فَعَلْتُ. قال عمر: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ لَا أَبْرَحَ حَتَّى يَجْتَمِعَا، قال: وَذَلِكَ أَيْضاً، قال: فَلَمْ يَبْرَحْ حَتَّى جَمَعَهُمَا جَمِيعاً، وَأَتَى مَنَزْلَهُ فَاسْتَلْقَى عَلَى فِرَاشِهِ فَجَعَلَ النَّوْمَ لَا يَأْخُذُهُ، وَجَعَلَ جَوْفُهُ يَجِيشُ^(٣) بِالشَّعْرِ، فَأَنْكَرَتْ جَارِيَتُهُ ذَلِكَ، فَجَعَلَتْ تَسْأَلُهُ عَنْ أَمْرِهِ وَتَقُولُ: وَيَحْكُ مَا الَّذِي قَدْ دَهَكَ؟ فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ جُلُوسَ وَأَنْشَدَ:

تَقُولُ وَلَيْدَتِي لَمَّا رَأَتْنِي طَرِبْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينَا
أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقاً وَهَاجَ لَكَ الْبُكَاءُ دَاءً دَفِينَا
بِرَبِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ فَشَاقَ أُمَّ رَأَيْتَ لَهَا خَدِينَا^(٤)

(١) الهدي: ما يهدى إلى الحرم من النعم. والبدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها، والجمع بدن بالضم.

(٢) رغب عني: لم يردني.

(٣) يجيش: يزخر، يفيض.

(٤) الخدن والخدين: الصاحب، الحبيب، الصديق، والجمع أخذان.

فقلت شكاً إليّ أخ محبٌ
فعدّ عليّ ما يلقى بهند
وذو القلب المصاب وإن تعزّي
وكم من خلة أعرضت عنها
رأيت صدودها فصدت عنها
لو هام الفؤادُ بها جنونا
كبعض زماننا إذ تعلمينا
فوافق بعض ما كنّا لقينا
يُهيّجُ حين يلقى العاشقينا
لغير قلّي وكنّتُ بها ضنينا^(١)

وعرض خالد بن عبد الله القسريّ سجنه يوماً وكان فيه يزيد ابن فلان البجلي^(٢)، فقال له خالد: في أيّ شيء حبست يا يزيد؟ قال: في تهمة - أصلح الله الأمير - قال: أفتعود إن أطلقتك؟ قال: نعم، وكره أن يعرض بقصّته لئلا يفضح معشوقته، فقال خالد: أحضروا رجال الحيّ حتى نقطع يده بحضرتهم، وكان ليزيد أخٌ فكتب شعراً ووجه به إلى خالد:

أخالدُ قد أعطيتَ في الخلق رتبةً
أقرّ بما لم يأت به المرءُ إنه
ولولا الذي قد خفتُ من قطع كفه
إذا بدت الرايات للسبق في العلى
وما العاشقُ المسكينُ فينا بسارق
رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق
لألقيتُ في شأن الهوى غيرَ ناطق
فأنت ابنَ عبد الله أوّلُ سابق

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله، فأحضر أولياء الجارية فقال: زوّجوا يزيد فتاكم، فقالوا: أمّا وقد ظهر عليه ما ظهر فلا، فقال: لئن لم تزوّجه طائعين لتزوّجنّه كارهين، فزوّجه ونقد خالد المهرَ عنده.

وذكر أبو العباس المبرّد قال: كان رجلٌ بالكوفة يدعى ليث بن زياد قد ربّى جاريةً وأدّبها فخرجت بارعةً في كل فنٍّ مع جمالٍ وافرٍ، فلم يزل معها مدّةً حتى تبيّنت منه الحاجة فقلت: يا مولاي لو بعثني كان أصلح لك مما أراك به وإن كنت لأظن أني لا أصبر عنك، فقصد رجلاً من الأغنياء يعرفها ويعرف فضلها فباعها بمائة ألف درهم، فلما قبض المال وجه بها إلى مولاها وجزع عليها جزعاً شديداً، فلما صارت الجارية إلى سيدها نزل بها من الوحشة للأول ما لم تستطع دفعه ولا كتمه، فباحته به وقالت:

أتاني البلاء حقّاً فما أنا صانعُ
كفى جزعاً أني على مثل جمرةٍ
أمصطبرٌ للبين أم أنا جازعُ
أقاسي نجوم الليل والقلب نازعُ^(٣)

(١) الخلة: الخليل يستوي فيه المذكر والمؤنث. والقلّي: الهجر والبغض.

(٢) في ديوان الصبابة: «العجلي».

(٣) نازع: اشتد به الحنين والشوق.

فَإِنْ يَمْنَعُونِي أَنْ أَبُوحَ بِحَبِّهِ فَإِنِّي قَتِيلٌ وَالْعِيُونَ دَوَامِعُ

فبلغ سيدها شعرها فدعا بها وأرادها فامتنعت عليه وقالت له: يا سيدي إنك لا تنتفع بي، قال: ولم ذاك؟ قالت: إني لما بي، قال: وما بك؟ صفيه لي! قالت: أجد في أحشائي نيراناً تتوقد، لا يقدر على إطفائها أحد، ولا تسأل عما وراء ذلك، فَرَحِمَهَا ورق لها وبعث إلى مولاها فسأل عن خبره، فوجد عنده مثل الذي عندها، فأحضره فرد الجارية عليه، ووهب له من ثمنها خمسين ألفاً، فلم تزل عنده مدةً طويلةً. وبلغ عبد الله ابن طاهر خبرهما وهو بخراسان، فكتب إلى خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعر الذي ذكر له من قبل الجارية أن يشتريها له بما ملكت يمينه، فركب إلى مولى الجارية فخبّره بما كتب إليه عبد الله بن طاهر، فلم يجد سيدها بداً من عرضها عليه وهو كاره فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول:

بَدِيعُ حَسَنِ رَشِيقٌ قَدْ جَعَلْتَ مَنِّي لَهُ مَلَاذًا
فَأَجَابَتْهُ الْجَارِيَةُ:

فَعَاتَبُوهُ فَزَادَ عَشْقًا فَمَاتَ شَوْقًا فَكَانَ مَاذَا
فَعَلِمَ أَنَّهَا تَصْلُحُ لَهُ، فاشتراها بمائتي ألف درهم، فجهّزها وحملها إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان، فلما صارت إليه اختبرها فوجدها على ما أراد، فغلبته على عقله، ويقال: إنها أم محمد بن عبد الله بن طاهر، ولم تزل ألطافها^(١) وجوائزها تأتي مولاها الأول حتى ماتت.

وقال عمر بن شبّه: حدّثنا أيوب بن عمر الغفاري قال: طلق عبد الله بن عامر امرأته ابنة سهل بن عمرو، فقَدِمَت المدينة ومعها ابنة لها، ومعها وديعةٌ جوهر استودعها إياه، فتزوَّجها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ثم أراد ابن عامر الحجّ فأتى المدينة فلقي الحسن فقال: يا أبا محمد إن لي إلى ابنة سهل حاجةً فأحبّ أن تأذن لي عليها، فقال الحسن: البسي ثيابك فهذا ابن عامر يستأذن عليك، فدخل عليها فسألها وديعته فجاءته بها عليها خاتمه. فقال لها: خذي ثلثها فقالت: ما كنتُ لأخذ على أمانةٍ اتُّمِنْتُ عليها شيئاً أبداً، ثم أقبل عليها ابن عامر فقال: إن ابنتي قد بلغت فأحبّ أن تُخَلِّي بيني وبينها، فبكت وبكت ابنتها، فرق ابن عامر فقال الحسن: فهل لكما؟ فوالله ما من محلّلٍ خيرٌ مني قال: فوالله لا أخرجها من عندك أبداً، فكفلها حتى مات.

(١) ألطاف جمع لطف: الهدايا.

وذكر الزمخشري في «ربيع الأبرار» أن زبيدة بنت أبي جعفر^(١) قرأت في طريق مكة على حائط:

أما في عباد الله أو في إمائه كريمٌ يُجَلِّي^(٢) الهمَّ عن ذاهب العقل
له مقلَّةٌ أما المآقي فقرحةٌ وأما الحشا فالنارُ منه على رجل^(٣)

فندرت أن تحتال لقائلهما حتى تجمعَ بينه وبين من يحبه، قالت: فلاني لِمَزْدَلِفَةٍ إذ سمعت من ينشدهما، فاستدعيت به فزعم أنه قالهما في بنت عمٍّ له وقد حلف أهلها أن لا يزوجهما منه، فوجهت إلى الحي وما زالت تبذلُ لهم المالَ حتى زوجه. وإذا المرأة أعشقتُ من الرجل، فكانت زبيدة تعدُّه في أعظم حسناتها وتقول: ما أنا بشيء أسرَّ مني بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة.

قال الزمخشري: وهوي أحمد بن أبي عثمان الكاتب جارية لزبيدة اسمها «نعم» حتى مرض وقال فيها أبياتاً منها:

وإني ليَرْضيني المَمَرُّ ببابها وأقنع منها بالشئمة والزَّجَرِ
فوهبتها له.

وذكر الخرائطي أنه كان لبعض الخلفاء غلامٌ وجاريةٌ من غلمانهِ وجواريهِ متحابَّين، فكتب الغلامُ إليها يوماً يقول:

ولقد رأيتك في المنام كأنما وكأن كفك في يدي وكأننا
فطفقتُ يومي كلَّه متراقداً لَأراك في نومي ولستُ براقداً
ثم انتبهت ومِعصمك كلاًهما بيدي اليمين وفي يمينك ساعدي
فأجابته الجارية:

خيراً رأيتَ وكلُّ ما أبصرته ستأله منِّي برغم الحاسد
إنني لأرجو أن تكون معانقي فبيتَ منِّي فوق ثذي ناهد
وأراك بين خلاخلي ودمالجي وأراك بين ترائبي ومجاسدي^(٤)

(١) كذا.. وهي بنت جعفر بن أبي جعفر.

(٢) يجلي: يكشف.

(٣) المآقي جمع مآقة: طرف العين مما يلي الأنف وهي مجرى الدمع. وعلى رجل: يعني على أشدها.

(٤) خلاخلي جمع خلخال: وثوب خلخال: رقيق. ودمالجي جمع دملج ودملوج: حلية

وَنَيْتَ الْطَفَّ عَاشِقَيْنِ تَعَاظِيَا طَرَفَ الْحَدِيثِ بِلَا مَخَافَةٍ رَاصِدِ
فَبَلَغَ الْخَلِيفَةَ خَبْرَهُمَا فَأَنْكَحَهُمَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا عَلَى شِدَّةِ غَيْرَتِهِ .

وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى: سمع المَهْلَبَ فتى يتغنَّى بشعرٍ في
جاريةٍ له فقال المَهْلَبُ:

لَعَنَمَرِي إِنْ نِيَّ لِلْمَحِيَّينِ رَاحِمٌ وَإِنِّي بَسْتَرُ الْعَاشِقِينَ حَقِيقُ
سَاجِمٍ مَنكُم شَمْلٌ وَدٌّ مَبْدَدٌ وَإِنِّي بِمَا قَدْ تَرَجُّوَانِ خَلِيقُ
ثم وهبها له ومعها خمسة آلاف دينار.

وقال الخرائطي: كان رجلٌ نَخَّاسٌ عنده جاريةٌ لم يكن له مالٌ غيرها، وكان
يَعْرِضُهَا فِي الْمَوَاسِمِ فَتَغَالَى النَّاسُ فِيهَا حَتَّى بَلَغَتْ مَبْلَغًا كَثِيرًا مِنَ الْمَالِ وَهُوَ يَطْلُبُ
الزِّيَادَةَ، فَعَلَّقَهَا^(١) رَجُلٌ فَقِيرٌ فَكَادَ عَقْلُهُ أَنْ يَذْهَبَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ وَهَبَهَا لَهُ، فَعَوَّبَتْ فِي
ذَلِكَ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْيَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾
[المائدة: ٣٢]. أَفَلَا أُحْيِي النَّاسَ جَمِيعًا؟

وقال علي بن قريش الجرجاني:

شَكُوتُ بِلَاءٍ لَا أُطِيقُ احْتِمَالَهُ وَقَلْبِي مَطِيعٌ لِلْهَوَى غَيْرُ دَافِعِ
فَأَقْسَمُ مَا تَرَكِي عِتَابَكَ عَنْ قَلْبِي وَلَكِنْ لَعَلِمِي أَنَّهُ غَيْرُ نَافِعِ
وَإِنِّي مَتَى لَمْ أَلْزِمِ الصَّبْرَ طَائِعًا فَلَا بَدَّ مِنْهُ مَكْرَهًا غَيْرَ طَائِعِ
إِذَا أَنْتَ لَمْ يَعْطِفْكَ إِلَّا شَفَاعَةٌ فَلَا خَيْرَ فِي وَدٍّ يَكُونُ بِشَافِعِ

وكان أبو السائب المخزومي أحد القراء والفقهاء، فرؤي متعلقاً بأستار الكعبة وهو
يقول: اللهم ارحم العاشقين، واعطف عليهم قلوب المعشوقين. ف قيل له في ذلك فقال:
الدعاء لهم أفضل من عُمرة من الجعرانة.

وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلاماً^(٢) وجاريةً كانا في كُتَابٍ فَهَوِيَهَا الْغَلَامُ،
فلما كان في بعض أيامه في غفلةٍ من الغلمان كتب في لوح الجارية:

مَاذَا تَقُولِينَ فِيمَنْ شَفَّهَ سَقَمٌ مِنْ طَوْلِ حَبِّكَ حَتَّى صَارَ حِيرَانَا

= تحيط بالعضد. والتراتب جمع تربية: عظام الصدر مما يلي الترقوتين وموضع القلادة. ومجاسد جمع
مجسد: الثوب الملامس للجسد. وجسد به: لصق.

(١) علقها: أحبها.

(٢) هو علي بن الجهم.

فلما قرأته الجارية أغرورقت عيناها بالدموع رحمةً له وكتبت تحته :

إذا رأينا محباً قد أضرب به طول الصبابة أوليناه إحصانا
وذكر الهيثم بن عدي، عن محمد بن زياد أن الحارث بن السليل الأزدي خرج زائراً
لعلقة بن حزم^(١) الطائي وكان حليفاً له، فنظر إلى ابنة له تدعى الرباب وكانت من أجمل
النساء، فأعجب بها وعشقها عشقاً حال بينه وبين الانصراف إلى أهله، فقال لعلقة: إني
أتيتك خاطباً وقد يُنكحُ الخاطب، ويدرك الطالب، ويُمْنَحُ الراغب. قال: كفو كريم فأقم
نظري في أمرك، ثم انكفاً^(٢) إلى أم الجارية فقال لها: إن الحارث سيّد قومه حسباً ومُصِيباً
وبيتاً فلا ينصرفن من عندنا إلا بحاجته، فشاورني ابنتك وأديرها عما في نفسها، فقالت
لها: أي بُنيّة، أي الرجال أعجب إليك؟ الكهلُ الجحجاج^(٣)، المفضل الميّا^(٤)، أم
الفتى الوضاح، الملولو الطّمّاح؟ قالت: الفتى الوضاح^(٥)، فقالت: إن الفتى يُغيرك^(٦)،
وإن الشيخ يُميرك^(٧)، وليس الكهلُ الفاضل، الكثير النائل^(٨)، كالحديث السنّ، الكثير
المنّ. فقالت: يا أمّاه أحبُّ الفتى، كحبّ الرّعاء أُنّيق الكَلّا. قالت: يا بُنيّة، إن الفتى
شديد الحجاب، كثير العتاب. قالت: يا أمّاه أخشى من الشيخ أن يندسّ ثيابي، ويُبلي
شبابي، ويشمت بي أترابي. فلم تزل بها الأمُّ حتى غلبتها على رأيها فتزوّجها الحارث
على خمسين ومائة من الإبل وخادم وألف درهم، فبنى بها وكانت عنده أحبَّ شيءٍ إليه،
فارتحل بها إلى أهله، فإنه لجالسٌ يوماً بفناء مِظَلَّتْه وهي إلى جانبه إذا أقبل فتيةٌ
يَعْتَلِجون^(٩) الصراع فتفتّست الصُّعداء، ثم أرسلت عينيها بالكباء فقال ما يبكيك؟ فقالت:
ما لي وللشيوخ، الناهضين كالفرّوخ^(١٠)، فقال: ثكلتك أمك قد تجوع الحرّة ولا تأكل
بشديها، فسارت مثلاً، أي لا تكون ظئراً^(١١)، وكان أوّل من نطق بها، ثم قال: أما وأبيك

(١) اسمه لعلقة بن خصفة واسم ابنته الزباء، كما ذكره الميداني في أمثاله.

(٢) انكفاً: رجع.

(٣) الجحجاج: السيد السمح الكريم.

(٤) ماح في مشيته: مال وتبختر، وماح فلاناً: أعطاه.

(٥) الوضاح صيغة مبالغة: الحسن الوجه البسام. ورجل وضاح الحسب: ظاهره ونقيه ومبيضه.

(٦) يغيرها: يجعلها تغار بالزواج وغيره.

(٧) يميرك: يهَيئ لك طيب العيش. والميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٨) النائل: الكثير العطاء.

(٩) اعتلج القوم: اقتتلوا واصطرموا.

(١٠) الفرخ: ولد الطائر وكل صغير من الحيوان والنبات والشجر، ومن الرجال: الذليل الضعيف.

(١١) الظئر: المرضعة لغير ولدها.

لرب غارة شهدتها، وسببة أردفتها، وخمرة شربتها، الحقي بأهلك فلا حاجة لي فيك،
ثم أنشأ يقول:

وعيّرت أن رأيتني لابساً كبراً
فإن بقيت رأيت الشيب راغمة
وإن يكن قد علا رأسي وغيّره
فقد أروح للذات الفتى جذلاً
وغاية النفس بين الموت والكبر
وفي التفرق ما يقضي من العبر
صرف الزمان^(١) وتقتير من الشعر
وهمتي لم تشب فاستخبري أثري^(٢)

(١) صرف الزمان: حدثانه ونوائبه.

(٢) جذلاً: فرحاً ونشيطاً. لم تشب: لم يصبها الوهن.

في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أعلاهما

هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية التي لا تقنع بالدُّون، ولا تبغ الأعلیٰ بالأدنى بيع العاجز المغبون، ولا يملكها لَطْخُ جمال مُغَشٍّ^(١) عَلَى أنواع من القبايح، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلى امرأة مبرقة:

إذا بَارَكَ اللهُ فِيَّ مَلَبَسٌ فلا بَارَكَ اللهُ فِي البُرْقُعِ
يُريكَ عِيونَ المَهَامُ مُسَبَّلًا ويكشِفُ عن منظرٍ في أشنع
وقال الآخر:

لا يغرَّنكَ ما ترى من نقابٍ إن تحت النقاب داءً دويًّا
فالنفس الأبية لا ترضى بالدُّون. وقد عاب الله سبحانه أقواماً استبدلوا طعاماً بطعام أدنى منه، فعنى ذلك عليهم وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وذلك دليلٌ على وضاعة النفس وقلة قيمتها.

وقال الأصمعي: خلا رجلٌ من الأعراب بامرأة فهم بالريية، فلما تمكَّن منها تنحى سليماً وجعل يقول: إن امرءاً باع جنة عرضها السموات والأرض بفتر^(٢) ما بين رجلِك لقليل البصر بالمساحة.

وقال أبو أسماء: دخل رجلٌ غَيْضَةً^(٣) فقال: لو خلوتُ هاهنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع صوتاً ملاً ما بين لابتِي^(٤) الغيضة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

(١) مغش: يخفى ما فيه من عيوب.

(٢) الفتر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحهما.

(٣) الغيضة: الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٤) اللابة: الحرة والموضع، ولابتا المدينة: حرتان تكتنفانها. وفي الحديث أنه ﷺ حرم ما بين لابتَي المدينة.

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا هَيْثَمٌ - هو ابن خارجة - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الْبَهْرَانِيِّ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ مَيْسَرَةَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَيُّهَا الشَّابُّ التَّارِكُ شَهْوَتِهِ لِي، الْمَتَبَذِلُ^(١) شَبَابُهُ مِنْ أَجْلِي، أَنْتَ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلَأَتِكُنِي.

وذكر إبراهيم بن الجُنَيْد أن رجلاً راود امرأة عن نفسها فقالت له: أَنْتَ قَدْ سَمِعْتَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ فَأَنْتَ أَعْلَمُ قَالَ: فَأَغْلِقِي الْأَبْوَابَ فَأَغْلِقْتَهَا، فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا قَالَتْ: بَقِيَ بَابٌ لَمْ أَغْلِقْهُ قَالَ: أَيُّ بَابٍ؟ قَالَتْ: الْبَابُ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ، فَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا.

وذكر أيضاً عن أعرابي قال: خَرَجْتُ فِي بَعْضِ لَيَالِي الظَّلَمِ فَإِذَا أَنَا بِجَارِيَةٍ كَأَنَّهَا عَلمٌ^(٢) فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَقَالَتْ: وَيْلَكَ أَمَا كَانَ لَكَ زَاجِرٌ مِنْ عَقْلِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ نَاهٍ مِنْ دِينٍ؟ فَقُلْتُ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا يَرَانَا إِلَّا الْكِرَاكِبَ، قَالَتْ: فَأَيْنَ مُكْوَبُهَا؟

وجلس زياد مولى ابن عيَّاش رضي الله عنهما إلى بعض إخوانه فقال له: يَا عَبْدَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: قُلْ مَا تَشَاءُ، قَالَ: مَا هِيَ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: وَمَا بَيْنَهُمَا مَنَزَلٌ يَنْزِلُهُ الْعِبَادُ؟ قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنْ نَفْسِي لَنَفْسٍ أَضْنُ بِهَا عَلَى النَّارِ، وَالصَّبْرُ الْيَوْمَ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْأَغْلَالِ.

وقال وهب بن مُنَبِّه: قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ادْخُلْ مَعِيَ الْقَيْطُونَ - تَعْنِي السُّتْرَ - قَالَ: إِنْ الْقَيْطُونَ لَا يَسْتَرْنِي مِنْ رَبِّي.

وقال اليزيدي: دَخَلْتُ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ فَوَجَدْتَهُ مُكَبَّاً عَلَى وَرَقَةٍ يَنْظُرُ فِيهَا مَكْتُوبَةٌ بِالذَّهَبِ، فَلَمَّا رَأَيْتِي تَبَسُّمٌ فَقُلْتُ: فَائِدَةُ أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَجَدْتُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ فِي بَعْضِ خَزَائِنِ بَنِي أُمَيَّةٍ فَاسْتَحْسَنْتُهُمَا، فَأَضَفْتُ إِلَيْهِمَا ثَالِثاً، فَقَالَ: ثُمَّ أَنَشِدْنِي:

فَدَعُهُ لِأُخْرَى يَنْفَتَحُ لَكَ بِأُيُهَا	إِذَا سُدَّ بَابٌ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ
وَيَكْفِيكَ سَوْءَاتِ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا	فَإِنْ قُرَابَ الْبَطْنِ يَكْفِيكَ مَلَأَهُ
رُكُوبَ الْمَعَاصِي يَجْتَنِبُكَ عِقَابُهَا	فَلَا تَكُ مِنْذَالاً لِدِينِكَ وَاجْتَنِبْ
	وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ النَّاشِئُ:

لصَّحَّةِ أَيَّامٍ تَبِيدُ وَتَنْفَدُ	إِذَا الْمَرْءُ يَحْمِي نَفْسَهُ حِلَّ شَهْوَةٍ
لصَّحَّةِ مَا يَبْقَى لَهُ وَيُحْلَلُ	فَمَا بَالُهُ لَا يَحْتَمِي مِنْ حَرَامِهَا

(١) المتبذل شبابُه: الذي حرم نفسه من ملذاته.

(٢) العلم: الجبل؛ وشيء منصوب يهتدى به في الطريق.

وقيل : إن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان ينشد هذين البيتين :

إقْدَعُ^(١) النَّفْسَ بِالْكَفَافِ وَإِلَّا طَلَبْتُ مِنْكَ فَوْقَ مَا يَكْفِيهَا
إِنَّمَا أَنْتَ طَوَّلَ عَمْرَكَ مَا عُدَّ مِرَّتْ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا
ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص يتمثل بهما :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَتْرَكَ طَعَاماً أَحَبَّهُ وَلَمْ يَنْتَ قَلْباً غَاوِياً حَيْثُ يَمَّمَا^(٢)
قَضَى وَطَرّاً مِنْهُ وَغَادِرَ سُبَّةً إِذَا ذُكِرَتْ أَمْثَالُهَا تَمَلُّ الْقَمَا
وقال شُعْبَةُ ، عن منصور ، عن إبراهيم : كَلَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْعِبَادِ امْرَأَةً فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى
وَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَخِذِهَا فَانْطَلَقَ فَوْضِعَ يَدِهِ عَلَى النَّارِ حَتَّى نَشَتْ^(٣) .

وقال زيد بن أسلم عن أبيه : كَانَ عَابِداً فِي صَوْمَعَةٍ يَتَعَبَّدُ فَأَشْرَفَ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَأَى
امْرَأَةً فَفَتَنَ بِهَا ، فَأَخْرَجَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ مِنَ الصَّوْمَعَةِ يَرِيدُ النُّزُولَ إِلَيْهَا ، ثُمَّ فَكَّرَ وَادَّكَّرَ
فَأَنَابَ ، فَأَرَادَ أَنْ يَعِيدَ رِجْلَهُ إِلَى الصَّوْمَعَةِ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أُدْخِلُ رِجْلاً خَرَجَتْ تَرِيدُ أَنْ
تَعْصِيَ اللَّهَ فِي صَوْمَعَتِي أَبَداً ، فَتَرَكَهَا خَارِجَةً مِنَ الصَّوْمَعَةِ فَأَصَابَهَا الثَّلُجُ وَالْبَرَدُ وَالرِّيحُ
حَتَّى تَقَطَّعَتْ .

وقال بعض السلف : مَنْ كَانَ لَهُ وَاعَظُّ مِنْ قَلْبِهِ زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ عِزًّا ، وَالذُّلُّ فِي
طَاعَةِ اللَّهِ أَقْرَبُ مِنَ الْعِزِّ فِي مَعْصِيَتِهِ .

وقال أبو العَتَاهِيَةِ : لَقِيتُ أَبَا نُوَّاسٍ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ فَعَذَلْتَهُ^(٤) وَقُلْتُ لَهُ : أَمَا أَنْ
لَكَ أَنْ تَرَعُوِي^(٥) وَتَنْزَجِرَ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ :

أَتَرَانِي يَا عَتَاهِي^(٦) تَارِكاً تِلْكَ الْمَلَاهِي
أَتَرَانِي مَفْسُداً بِاللُّسْدِ كِ عِنْدَ الْقَوْمِ جَاهِي

فلما ألححت عليه في العذل أنشأ يقول :

لَا تَرْجِعِ الْإِنْفُسَ عَنْ غَيْهَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لَهَا زَاجِرُ
فَوَدِدْتُ أَنِّي قُلْتُ هَذَا الْبَيْتَ بِكُلِّ شَيْءٍ قُلْتُهُ .

وقال ابن السماك عن امرأة كانت تسكن البادية : لَوْ طَالَعْتُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِفِكْرِهَا

(١) اقدع النفس : امنعها وكفها . وقعد فلاناً عن الشيء : كفه ومنعه .

(٢) يمم : قصد . (٤) عذله : لامه .

(٣) نشت : جفت واحترقت . (٥) ترعوي : تكف وترتدع .

(٦) العتاهي : ناقص العقل والأحمق . والعتاهية : ضلال الناس .

ما دُخِرَ لها في حُجُبِ الغيوب من خير الآخرة، لم يَصِفْ لهم في الدنيا عيشٌ، ولم تَقَرَّ لهم عين. وقال ضَيْغَمٌ لرجلٍ: إِنْ حَبَّه عَزَّ وَجَلَّ شَغَلَ قُلُوبَ مُحِبِّيه عَنِ التَّلَذُّذِ بِمَحَبَّةِ غَيْرِهِ، فَلَيْسَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَعَ مُحَبَّتِهِ عَزَّ وَجَلَّ لَذَّةٌ تَدَانِي مُحَبَّتَهُ، وَلَا يَأْمُلُونَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ كَرَامَةِ الثَّوَابِ أَكْبَرَ عِنْدَهُمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ مُحَبُّوهُمْ، فَسَقَطَ الرَّجُلُ مَغْشِيًا عَلَيْهِ.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ سُورَانِ وَفِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ وَلَا تُعْرَجُوا، وَدَاعٌ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ أَحَدٌ فَتَحَ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلَجَّهُ، فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورُ الْمُرْخَاةُ حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَالِدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»^(١).

وقال خالد بن معدان: ما من عبدٍ إلَّا وله عَيْنَانِ فِي وَجْهِهِ يَبْصُرُ بِهِمَا أَمْرَ الدُّنْيَا، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ يَبْصُرُ بِهِمَا أَمْرَ الْآخِرَةِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ اللَّتَيْنِ فِي قَلْبِهِ فَأَبْصَرَ بِهِمَا مَا وَعَدَهُ اللَّهُ بِالْغَيْبِ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ تَرَكَهُ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وفي الترمذي عنه ﷺ «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي»^(٢).

وفي المسند من حديث فضالة بن عُبيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ»^(٣).

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ أَصْبَحَ وَأَكْثَرَ هَمَّهُ غَيْرَ اللَّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ،

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٨٢/٤، ١٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٥. وابن ماجه في الزهد باب ٢١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٢٤/٤).

(٤) أورده السيوطي في الجامع الصغير مرفوعاً عن ابن مسعود وقال: رواه الحاكم.

عن أبيه، عن عطاء بن يسار قال: «قال موسى ﷺ: يا رب مَنْ أَهْلَكَ الَّذِينَ تَظْلَهُمْ فِي ظِلِّ عَرْشِكَ؟ قال: هم البريئة أيديهم، الطاهرة قلوبهم الذين يتحاثون بجلالي، الذين إذا ذُكِرَتْ ذُكِرُوا بي، وإذا ذُكِرُوا بي ذُكِرَتْ بذكرهم، الذي يُسْبِغُونَ الوضوء في المكاره، ويُنيون إلى ذكرِي كما تُنِيبُ النُور إلى وُكُورِها، وَيَكْلَفُونَ بحَبِّي كما يَكْلِفُ الصَّبِي بحَبِّ الناس، ويغضبون لمحارمي إذا اسْتَحِلَّتْ كما يغضب الثَمَرُ إذا حَرِبَ»^(١).

وقال أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثني عبد الله بن يحيى قال: سمعت وهب بن مُنْبِهٍ يقول: قال موسى عليه السلام: «أَيُّ رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قال: من أَذْكَرُ بَرُؤِيَّتِهِ».

وقال أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا هشام الدَّسْتَوَائِي قال: بلغني أن في حكمة عيسى ابن مريم ﷺ: «تعملون للدُّنْيَا وأنتم تُرْزَقُونَ فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا تُرْزَقُونَ فيها إلا بالعمل، وَيَحْكُمُ علماءُ السوء، الأَجَرَ تأخذون والعمل تُضيعون، توشكون أن تخرجوا من الدُّنْيَا إلى ظلمة القبر وضيقه، واللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نهاكم عن المعاصي كما أمركم بالصوم والصلاة، كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثرَ عنده من آخرته وهو في الدنيا أعظمُ رغبة؟ كيف يكون من أهل العلم مَنْ مَسِيرُهُ إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه، وما يضره أشهى إليه مما لا يضره؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله عَزَّ وَجَلَّ في قضائه فليس يرضى بشيء أصابه؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب العلم ليتحدث به ولم يطلبه ليعملَ به؟».

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَرٍ، قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، قال: أَوْ لِلْعَبِّ خُلِقْنَا؟

وقال أحمد: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، حدثني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أمه فاطمة حَدَّثَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُدُّوا بِالنَّعِيمِ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ، وَيَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلامِ».

وقال أحمد: حدثنا أبو قَطَنِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي مَسْلَمَةَ^(٢)، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قال:

(١) حرب: هيج أو طعن أو سلب. والحرب بالفتح: الويل والهلاك. وفي القاموس المحيط للفيروزابادي: حرب كفرح: كلب واشتد غضبه فهو حرب.

(٢) الذي يروي عن أبي نضرة ويروي عنه شعبة، هو أبو مسلمة سعيد بن يزيد، كما جاء في تهذيب التهذيب.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى: يا أبا موسى شوّفتنا إلى ربنا، قال: فقرأوا: الصلاة! فقال عمر: أولسنا في الصلاة؟.

فصل: وملاك الأمر كله الرغبة في الله وإرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل، والشوق إلى الوصول إليه وإلى لقائه، فإن لم يكن للعبد همّة إلى ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعدّ الله فيها لأوليائه، فإن لم تكن له همّة عالية تطالبه بذلك فخشية النار وما أعدّ الله فيها لمن عصاه، فإن لم تطاوعه نفسي بشيء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم، ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه، فهذه فصول أربعة هن: ربيع المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه، وهن منازل في سيره إلى الله عز وجل، وليس له منزلة غيرها، فأما مخالفة الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقاً غير مخالفتها، ولم يجعل للنار طريقاً غير متابعتها، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [النازعات: ٤١]. قيل هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربّه عليه في الدنيا، ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله.

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيله، فقال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله ومصيرهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. وأخبر سبحانه أن اتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]. وقد أخبر النبي ﷺ أن العاجز هو الذي اتبع هواه وتمنى على الله. وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ إِلَهَ يَعْبُدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوَى مُتَّبِعٍ».

وذكر من حديث جعفر بن حيّان، عن أبي الحكم، عن أبي بزرّة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتُ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَضَلَاتُ الْهَوَى». وفي نسخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جدّه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي حُكْمُ جَائِرٍ، وَزَلَّةُ عَالِمٍ، وَهَوَى مُتَّبِعٍ»^(١).

(١) ورد في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري بلفظ: «إني أخاف على أمتي من ثلاث: من زلة عالم، =

وقيل لبعض الحكماء: أيّ الأصحاب أبرّ؟ قال: العمل الصالح، قيل: فأيّ شيء أضرّ؟ قال: النفس والهوى. وقال بعض الحكماء: إذا اشتبه عليك أمران فانظر أقربهما من هواك فاجتنبه. وأتت بعض الملوك بأسير عظيم الجرم فقال: لو كان هواي في العفو عنك لخالفت الهوى إلى قتلك، ولكن لما كان هواي في قتلك خالفته إلى العفو عنك. وقال الهيثم بن مالك الطائي: سمعت الثعمان بن بشير يقول على المنبر: إن للشيطان فخوخاً ومصالي^(١) وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاه الله، والكبرياء على عباد الله، وأتباع الهوى في غير ذات الله.

وفي المسند وغيره من حديث قتادة، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ، فَالْمُهْلِكَاتُ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَالْمُنْجِيَاتُ: تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَى، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى».

وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بِسَّ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى. بِسَّ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالَى. بِسَّ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا وَلَهَا، وَنَسِيَ الْمُقَابِرَ وَالْبَلَى. بِسَّ الْعَبْدُ عَبْدٌ بَغَى وَعَتَا، وَنَسِيَ الْمَبْدَأَ وَالْمُنْتَهَى. [بِسَّ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتَلُ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ]. بِسَّ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتَلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ، بِسَّ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعَ يَقْوَدُهُ. بِسَّ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوًى يُضِلُّهُ. [بِسَّ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبَ يُذِلُّهُ]»^(٢).

وقد أقسم النبي ﷺ أنه لا يؤمنُ العبدُ حتى يكونَ هواه تبعاً لما جاء به، فيكون هواه تابِعاً لا متبوعاً، فمن اتَّبَعَ هواه فهو هواه متبوعٌ له، ومن خالف هواه لما جاء به الرسول ﷺ فهو هواه تابعٌ له، فالمؤمن هواه تابعٌ له، والمنافق الفاجر هواه متبوعٌ له.

وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هُدى من الله أنه أظلم الظالمين، فقال الله عزَّ وجلَّ: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [القصص: ٥٠]. وأنت تجد تحت هذا

= ومن هوى متبع، ومن حكم جائر وقال: رواه البزار والطبراني من طريق كثير بن عبد الله وهو واه، وقد حسنها الترمذي في موضع وصححها في موضع فأنكر عليه، واحتج بها ابن خزيمة في صحيحه.

(١) جمع مصلاة: وهي الشرك.

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة باب ١٧، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوي» وما بين حاصرتين زيادة منه.

الخطاب أن الله لا يهدي من اتَّبَعَ هواه، وجعل سبحانه وتعالى المُتَعَّ قسَمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول ﷺ. وإما الهوى. فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر، والشیطان يُطِيف بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلاً ولا إليه طريقاً إلا من هواه. فلذلك كان الذي يخالف هواه يَفْرُقُ^(١) الشيطان من ظله، وإنما تطاق مخالفة الهوى بالرغبة في الله وثوابه، والخشية من حجابهِ وعذابه. ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى، فإن متابعتَه الداء الأكبر، ومخالفتَه الشفاء الأعظم. وقيل لأبي القاسم الجُنَيْد: متى تنال النفوس مُناها؟ فقال: إذا صار داؤها دواها، فقليل له: ومتى يصير داؤها دواها؟ فقال: إذا خالفت هواها، ومعنى قوله: يصير داؤها دواها أن داءها هو الهوى، فإذا خالفتَه تداوت منه بمخالفتَه. وقيل: إنما سُمِّيَ هَوًى لأنه يهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين. والهوى ثلاثة أرباع الهوان، وهو شارع النار الأكبر كما أن مخالفتَه شارعُ الجنة الأعظم. وقال أبو دُفَ العجلي:

واسوأتا لفتى له أدبٌ يضحى هواه قاهراً أدباً
يأتي الدنية وهو يعرفها فيشِين عِرضاً صائناً أرباً
فلإذا أزعوى عادت بصيرته فبكى على الحين^(٢) الذي سلبه

وقال ابن المرتفق الهذلي:

أين لي ما ترى والمرء يأتي عزيمته ويغلبه هواه
فيعمى ما يرى فيه عليه ويحسب من يراه لا يراه

فصل: وأما الرغبة في الله وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه فهي رأس مال العبد وملاك أمره وقوام حياته الطيبة، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرة عينه، ولذلك خلق، وبه أمر، وبذلك أرسلت الرُّسل، وأنزلت الكتب، ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى الله عز وجل وحده، فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

والراغبون ثلاثة أقسام: راغب في الله، وراغب فيما عند الله، وراغب عن الله. فالمحب راغب فيه، والعامل راغب فيما عنده، والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه.

(١) يفرق: يفرع ويخاف.

(٢) الحين: الوقت طال أو قصر.

وَمَنْ كَانَتْ رَغْبَتُهُ فِي اللَّهِ كِفَاهَ اللَّهِ كُلِّ مَهْمٍّ، وَتَوَلَّاهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَدَفَعَ عَنْهُ مَا لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَوَقَاهُ وَقَايَةَ الْوَلِيدِ، وَصَانَهُ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ. وَمَنْ أَثَرُ اللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ أَثَرُهُ اللَّهُ عَلَى غَيْرِهِ. وَمَنْ كَانَ لِلَّهِ كَانَ اللَّهُ لَهُ حَيْثُ لَا يَكُونُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُ، وَلَمْ تَبَقْ لَهُ رَغْبَةٌ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا فِيمَا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ وَيَعِينُهُ عَلَى سَفَرِهِ إِلَيْهِ.

وَمِنْ عِلَامَاتِ الْمَعْرِفَةِ الْهَيْبَةِ، فَكَلَّمَا زَادَتْ مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ بَرَبَهُ زَادَتْ هَيْبَتُهُ لَهُ وَخَشْيَتُهُ إِيَّاهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. أَيِ الْعُلَمَاءِ بِهِ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا أَعْرِفُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً»^(١) وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ صَفَا لَهُ الْعِيشَ، وَطَابَتْ لَهُ الْحَيَاةُ، وَهَابَ كُلُّ شَيْءٍ، وَذَهَبَ عَنْهُ خَوْفُ الْمَخْلُوقِينَ، وَأَنْسَ بِاللَّهِ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ النَّاسِ، وَأَوْرَثَتْهُ الْمَعْرِفَةُ الْحَيَاءَ مِنَ اللَّهِ، وَالتَّعْظِيمَ لَهُ، وَالْإِجْلَالَ وَالْمُرَاقَبَةَ وَالْمَحَبَّةَ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ وَالرِّضَا بِهِ وَالتَّسْلِيمَ لِأَمْرِهِ. وَقِيلَ لِلْجُنَيْدِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنْ هَاهُنَا أَقْوَامٌ يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ يَصِلُونَ إِلَى الْبِرِّ بِتَرْكِ الْحَرَكَاتِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ تَكَلَّمُوا بِإِسْقَاطِ الْأَعْمَالِ وَهُوَ عِنْدِي عَظِيمٌ، وَالَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الَّذِي يَقُولُ هَذَا، فَإِنَّ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ أَخَذُوا الْأَعْمَالَ عَنِ اللَّهِ، وَإِلَى اللَّهِ رَجَعُوا فِيهَا، وَلَوْ بَقِيَتْ أَلْفَ عَامٍ لَمْ أَنْقُصْ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ شَيْئًا.

وَقَالَ: لَا يَكُونُ الْعَارِفُ عَارِفًا حَتَّى يَكُونَ كَالْأَرْضِ يَطْوُهُ الْبِرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمَطَرُ يَسْقِي مَا يُحِبُّ وَمَا لَا يُحِبُّ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: يَخْرُجُ الْعَارِفُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا يَقْضِي وَطْرَهُ مِنْ شَيْئَيْنِ: بِكَأُوهٍ عَلَى نَفْسِهِ، وَشَوْقِهِ إِلَى رَبِّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَكُونُ الْعَارِفُ عَارِفًا حَتَّى لَوْ أُعْطِيَ مَلِكٌ سَلِيمَانٌ لَمْ يَشْغَلْهُ عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ. وَقِيلَ: الْعَارِفُ أَنْسَ بِاللَّهِ فَاسْتَوْحَشَ مِنْ غَيْرِهِ، وَافْتَقَرَ إِلَى اللَّهِ فَأَغْنَاهُ عَنْ خَلْقِهِ، وَذَلَّ اللَّهُ فَأَعَزَّهُ فِي خَلْقِهِ.

وَقَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّارَانِي: يُفْتَحُ لِلْعَارِفِ عَلَى فِرَاشِهِ مَا لَا يُفْتَحُ لَهُ وَهُوَ قَائِمٌ يَصْلِي.

وَقَالَ ذُو النُّونِ: لِكُلِّ شَيْءٍ عَقُوبَةٌ، وَعَقُوبَةُ الْعَارِفِ انْقِطَاعُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَحَيَاةُ الْقَلْبِ مَعَ اللَّهِ لَا حَيَاةَ لَهُ بَدُونِ ذَلِكَ أَبَدًا، وَمَتَى وَاطَأَ^(٢) اللِّسَانُ الْقَلْبَ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٤٥/٦، ١٨١) وَابْنُ خَالٍ فِي الْأَدَبِ بَابَ ٨٢، وَالْإِعْتَصَامُ بَابَ ٥. وَمُسْلِمٌ فِي الْفَضَائِلِ حَدِيثَ ١٧ وَ ١٢٨. وَالدَّارِمِيُّ فِي الْمَقْدِمَةِ بَابَ ٣.

(٢) وَاطَأَ: وَافَقَ وَطَابَقَ.

في ذكره، وواطأ القلب مراد حبيبته منه، واستقل له الكثير من قوله وعمله، واستكثر له القليل من برّه ولطفه، وعانق الطاعة وفارق المخالفة، وخرج عن كلّ لمحبوبه فلم يبقَ منه شيء، وامتلاً قلبه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه، وعزّ عليه الصبرُ عنه، وعُدِمَ القرارُ دون ذكره والرغبة إليه والاشتياق إلى لقائه، ولم يجد الأنس إلا بذكره، وحفظ حدوده، وآثره على غيره فهو المحب حقاً.

وقال الجُنَيْد: سمعت الحارث المُحَاسِبِي يقول: المحبةُ مِيْلُكُ إلى الشيء بكلّيتك، ثم إيثاركُ له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتكُ له سرّاً وجهراً، ثم علمكُ بتقصيرك في حبه. وقيل: المحبةُ نارٌ في القلب تحرق ما سوى مراد الحبيب من محبه. وفي بعض الآثار الإلهية: عبيدِي أَنَا وَحَقُّكَ لَكَ مُحِبٌّ فَبِحَقِّي عَلَيْكَ كُنْ لِي مُحِبّاً. وقال عبد الله بن المبارك: من أُعْطِيَ شيئاً من المحبة ولم يُعْطَ مثله من الخشية فهو مخدوع.

وقال يحيى بن مُعَاذٍ: مثقال خردلةٍ من الحب أحبُّ إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ.

وقال أبو بكر الكَتَّانِي: جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلّم الشيوخُ فيها، وكان الجُنَيْدُ أصغرهم سنّاً فقالوا: هاتِ ما عندك يا عراقِي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متصلٌ بذكر ربه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربهُ من كأس ودّه، فإن تكلمَ فبالله، وإن نطقَ فمِنَ الله، وإن تحرّكَ فبأمر الله، وإن سكّت فمع الله، فهو بالله والله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين. وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود إنني حرّمتُ على القلوب أن يدخلها حبي وحبٌ غيري، فأجمع العارفون كلّهم أنّ المحبة لا تصحّ إلاّ بالموافقة حتى قال بعضهم: حقيقة الحب موافقة المحبوب في مراضيه ومساخطه واتفق القوم أنّ المحبة لا تصحّ إلاّ بتوحيد المحبوب. ويُحكى أن رجلاً ادّعى الاستهلاك^(١) في محبة شخص فقال له: كيف وهذا أخي أحسن مني وجهاً وأتمّ جمالاً؟ فالتفت الرجلُ إليه فدفعه الشابُّ وقال: من يدّعي هواناً ينظر إلى سوانا؟ وذكرت المحبة عند ذي النون فقال: كُفُّوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدّعيها، ثم أنشأ يقول:

الخوف أولى بالمسي إذا تألّه والحزن
والحبُّ يجمُلُ بالتق وبالنقي من الدرن

(١) استهلك في كذا: جهد نفسه فيه.

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة، إن النبي ﷺ قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(١). فهم مع الله في الدنيا والآخرة. وقال يحيى بن مُعَاذٍ: ليس بصادقٍ من ادَّعى محبته ثم لم يحفظ حدوده.

فصل: فالمحبة شجرة في القلب عروقها الذلُّ للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادتها التي تسقيها ذكره، فمتى خلا الحبُّ عن شيء من ذلك كان ناقصاً.

وقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه يحب عباده المؤمنين، ويحبونه، فأخبر أنهم أشدَّ حباً لله، ووصف نفسه بأنه الودود وهو الحبيب قاله البخاري. والود خالص الحب، فهو يودُّ عباده المؤمنين ويودونه.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِبِياً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ آدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتُهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ بِكَرِهِ الْمَوْتِ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»^(٢). وفي لفظٍ في غير البخاري: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصِراً وَيَدًا وَمُؤَيِّدًا» فتأمل كمال الموافقة في الكراهة كيف اقتضى كراهة الرب تعالى لمساءة عبده بالموت لما كره العبد مسأخط ربه، وكمال الموافقة في الإرادة كيف اقتضى موافقته في قضاء حوائجه وإجابة طلباته وإعادته مما استعاذ به، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا يسارع في هوالك^(٣)، وقال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي ما أرى ربك إلا يطيعك، فقال له: «وَأَنْتَ

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٦. ومسلم في البر حديث ١٦٥. والترمذي في الزهد باب ٥٠، والدعوات باب ٩٨. والدارمي في الرقاق باب ٧١. وأحمد في المسند (١/٣٩٢)، و٣/١٠٤، ١١٠، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٩٤، و٤/١٠٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/١٣٤)، و١٥٨، (٢٦١) والبخاري في تفسير سورة ٣٣ باب ٧، والنكاح باب ٢٩. ومسلم في الرضاع حديث ٤٩ و٥٠. والنسائي في النكاح باب ١. وابن ماجه في النكاح باب ٥٧.

يَا عَمَّ لَوْ أَطَعْتَهُ أَطَاعَكَ»^(١). وفي تفسير ابن أبي نُجَيْج عن مجاهد في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. قال: حبیباً قریباً إذا سأله أعطاه، وإذا دعاه أجابه. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى كن لي كما أريد أكن لك كما تريد. وتأمل هذه الباء في قوله: فبي يسمع وبي يُبصر وبي يَئِطُّش وبي يمشي كيف تجدها مبيّنة لمعنى قوله: كنت سمعته الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به إلى آخره، فإن سمع سمع بالله، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به. وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿إِنَّ آلَةَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. وقوله: ﴿وَأَنَّ آلَةَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقوله: ﴿وَأَنَّ آلَةَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]. وقوله فيما رواه عنه رسوله من قوله: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه». وهذا ضدّ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنا يُضْحِكُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]. فالصحبة التي نفاها هاهنا هي التي أثبتتها لأحبابه وأوليائه، فتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقة بأداء فرائضه، وبالتقرب إليه بالنوافل بعدها لا غير، وفي هذا تعزية لمدّعي محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها، وإنما معه الأماني الباطلة والدعاوى الكاذبة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبُوهُ فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يَوْضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(٢) وفي لفظٍ لمسلم^(٣): «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحْبَهُ قَالَ فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبُوهُ فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يَوْضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضْتُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ قَالَ فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ أَنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ يَوْضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ» وفي لفظٍ آخر لمسلم^(٤) عن سهيل بن أبي صالح قال: كنّا بعرفة فمرّ عمر بن عبد العزيز وهو على الموسم فقام الناس ينظرون إليه فقلت لأبي: يا أَبَتِ أَنِي أَرَى اللَّهَ يُحِبُّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، قَالَ: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب في قلوب الناس، فقال: إِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ

(١) ذكره ابن حجر في الإصابة في ترجمة أبي طالب.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/٢٦٧، ٣٤١، ٤١٣، ٤٨٠، ٥٠٩، ٥١٤) والبخاري في بدء الخلق

باب ٦، والأدب باب ٤١، والتوحيد باب ٣٣. ومسلم في البر حديث ١٥٧. والترمذي في تفسير

سورة ١٩ باب ٧. ومالك في الشعر حديث ١٥.

(٣) في البر والصلة والآداب حديث رقم ١٥٧.

(٤) في البر والصلة والآداب حديث رقم ١٥٨.

ذكر الحديث. وأخرجه الترمذي ثم زاد في آخره فذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] انتهى. وقال بعض السلف في تفسيرها: يحبهم ويحبهم إلى عباده.

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: «وما أعددت لها؟» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورَسُولُهُ؟ فقال: «أنت مع مَنْ أَحَبَّتَ»^(١) قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع مَنْ أَحَبَّتَ». قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إليهم وإن لم أعمل أعمالهم.

وفي الترمذي عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المرء مع مَنْ أَحَبَّ وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ»^(٢). وفي سنن أبي داود عنه قال: رأيت أصحاب النبي ﷺ فرحوا بشيء لم أراهم فرحوا بشيء أشد منه، قال رجل: يا رسول الله الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل بمثله. فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع مَنْ أَحَبَّ»^(٣). وهذه المحبة لله توجب المحبة في الله قطعاً، فإن من محبة الحبيب المحبة فيه والبغض فيه.

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي»^(٤) يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي». وفي جامع أبي عيسى الترمذي^(٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغِطُّهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ» وفي لفظ لغيره «الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِ اللَّهِ يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يَغِطُّهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ»^(٦). وفي الموطأ من حديث أبي إدريس الخولاني قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الشنايا والناس حوله فإذا اختلفوا في شيء

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٦، والأدب باب ٩٥ و٩٦، والأحكام باب ١٠. ومسلم في البر حديث ١٦١ - ١٦٤. والترمذي في الزهد باب ٥٠. وأحمد في المسند (٣/١٠٤)، ١١٠، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٥، ٢٧٦، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ١١٣.

(٤) أخرجه مسلم في البر حديث ٢٨. والترمذي في الزهد باب ٥٣. والدارمي في الرقاق باب ٤٤. ومالك في الشعر حديث ١٣. وأحمد في المسند (٢/٢٣٧، ٣٢٨، ٢٧٠، ٥٣٣، ٥٣٥).

(٥) في الزهد باب ٥٣.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩).

أَسَدُوهُ إِلَيْهِ وَصَدَرُوا^(١) عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلَتْ عَنْهُ فَقَالُوا: هَذَا مُعَاذُ بَنِ جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَرْتُ^(٢) إِلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالْتَّهْجِيرِ^(٣)، وَوَجَدْتَهُ يَصْلِي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّكَ فِي اللَّهِ، فَقَالَ: اللَّهُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَقَالَ: اللَّهُ؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ، فَأَخَذَ بِحَبْوَةٍ^(٤) رَدَائِي فَجَبَذَنِي^(٥) إِلَيْهِ وَقَالَ: أَبْشِرْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبْتُ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَادِلِينَ فِيَّ»^(٦).

وَفِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ^(٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالتُّغْضُّ فِي اللَّهِ». وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأَنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْطِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ» قَالُوا: يَارَسُولَ اللَّهِ، تَخْبِرُنَا مِنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَزْوَاجٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ وَلَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَخْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ» وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وَفِي لَفْظٍ لغيره: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْطِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، حَلَّهِمْ لَنَا لَعَلَّنَا نَحِبَهُمْ قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَمْوَالٍ تَبَاذَلُوهَا وَلَا أَزْوَاجٍ تَوَاصَلُوهَا هُمْ نُورٌ وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ وَعَلَى كُرَاسِيٍّ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَخْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ» ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا زَارَ أَخَاهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ عَلَى مَذْرَجَتِهِ^(٨) مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَتَيْتَ تَرِيدُ؟ قَالَ: أَرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَالَ: لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرْتُبُهَا^(٩) قَالَ: لَا غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّبْتَهُ فِيهِ»^(١٠).

(١) صدورا برأيه: أخذوا برأيه وعملوا به.

(٢) التهجر: التبكير إلى كل شيء والمبادرة إليه. والتهجر: السير في الهاجرة.

(٣) حبوة الرداء: ما اشتمل عليه. (٦) كتاب السنة باب ٢.

(٤) جبذه: جذبته. (٧) المدرجة الطريق.

(٥) أخرجه مالك في الشعر حديث ١٦. (٨) تربها: تتعهدا أو تنعم بها. ورب على فلان: أنعم عليه.

(٩) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب حديث ٢٩. وأحمد في المسند (٢٩٢٢، ٤٠٨، ٤٦٢،

٤٨٢، ٥٠٨).

وقال رجلٌ لمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، قَالَ: أُحِبُّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ.

وَفِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ^(١) أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْلَمْتُهُ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «أَعْلِمْنَاهُ» فَلَحِقَهُ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، قَالَ: أُحِبُّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ.

وَفِيهَا أَيْضًا^(٢) عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ».

وَفِي التِّرْمِذِيِّ^(٣) مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ نَعَامَةَ الضَّبِّيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَخَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَلْيَسْأَلْهُ عَنِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَمِمَّنْ هُوَ فَإِنَّهُ أَوْصَلَ لِلْمَوَدَّةِ».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوْ لَا أَذُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْتُسُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٤).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ التِّرْمِذِيُّ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ أَبِي سَنَانٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْهَذِيلِ، عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ أَنَّ أَصْحَابَهُ كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالُوا: مَا أَبْطَأَكَ عَنَّا أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟ قَالَ: أَمَّا إِنِّي سَوْفَ أَحَدِّثُكُمْ أَنَّ أَخَا لَكُمْ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَهُوَ مُوسَى ﷺ قَالَ: يَا رَبِّ حَدِّثْنِي بِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِأَحَبِّهِ بِحَبْلِكَ إِيَّاهُ، قَالَ: عَبْدٌ فِي أَقْصَى الْأَرْضِ أَوْ طَرَفِ الْأَرْضِ سَمِعَ بِهِ عَبْدٌ آخَرُ فِي أَقْصَى أَوْ طَرَفِ الْأَرْضِ لَا يَعْرِفُهُ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ فَكَأَنَّمَا أَصَابَتْهُ، وَإِنْ شَاكَتَهُ شَوْكَةٌ فَكَأَنَّمَا شَاكَتَهُ، لَا يَحِبُّهُ إِلَّا لِي، فَذَلِكَ أَحَبُّ خَلْقِي إِلَيَّ. قَالَ: يَا رَبِّ خَلَقْتَ خَلْقًا تَدْخُلُهُمُ النَّارُ أَوْ تَعَذِّبُهُمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ كُلَّهُمْ خَلْقِي، ثُمَّ قَالَ: ازْرَعْ زَرْعًا فزرعه، فَقَالَ: اسْقِهِ فسقاها، ثُمَّ قَالَ: قُمْ عَلَيْهِ، فَقَامَ عَلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَحَصَدَهُ وَرَفَعَهُ فَقَالَ: مَا فَعَلَ زَرْعُكَ يَا مُوسَى؟ قَالَ: فَرَعْتُ مِنْهُ وَرَفَعْتُهُ قَالَ: مَا تَرَكْتَ مِنْهُ شَيْئًا؟ قَالَ: مَا لَا خَيْرَ فِيهِ أَوْ مَا لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، قَالَ: فَكَذَلِكَ أَنَا لَا أُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ.

فصل: ولو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي محبه من عذابه لكان ينبغي للعبد أن

(١) كتاب الوتر باب ٢٦.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ١١٣.

(٣) كتاب الزهد، باب ٥٤.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٩٣. وأبو داود في الأدب باب ١٣١. والتِّرْمِذِيُّ فِي صِفَةِ الْقِيَامَةِ بَاب ٥٤، وَالْإِسْتِزْدَانُ بَاب ١. وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْمَقْدَمَةِ بَاب ٩، وَالْأَدَبُ بَاب ١١. وَأَحْمَدُ فِي الْمَسْنَدِ (٢/٣٩١، ٤٤٢، ٤٧٧، ٤٩٥، ٥١٢).

لا يتعوّض عنها بشيء أبداً. وسئل بعض العلماء أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨] الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يعذب الله حبيبه ولكن قد يتكليه في الدنيا».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيّار، حدثنا أبو غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى ابن مريم ﷺ: «يا معشر الحواريين تحبّوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالممّقت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم» قالوا: يا نبي الله فمن نجالس؟ قال: «جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهدكم في دنياكم علمه».

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثواباً عاجلاً أن الله سبحانه وتعالى يقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه، كما أنه يعرض بقلوبهم عن عرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة قال: ذكر لنا أن هـرم ابن حيان كان يقول: ما أقبل عبدٌ على الله بقلبه إلا أقبل الله عزّ وجلّ بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهم.

وقد روي مرفوعاً ولفظه: «وما أقبلَ عبدٌ على الله بقلبه إلا أقبلَ الله عزّ وجلّ عليه بقلوب عباده وجعل قلوبهم تقدُّ إليه بالودّ والرحمة وكان الله بكلّ خيرٍ إليه أسرع» وإذا كانت القلوب مجبولة على حبّ من أحسن إليها وكلّ إحسان وصل إلى العبد فمن الله عزّ وجلّ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فلا ألأم ممن شغل قلبه بحبّ غيره دونه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية قال حدثني الأعمش، عن المُنْهَال، عن عبد الله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود أحبيني وحبّ عبادي إليّ وحبيني إلى عبادي، قال: يا ربّ هذا أنا أحبك وأحبّ عبادك إليك فكيف أحبّك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن.

ومن أفضل ما سئل الله عزّ وجلّ حبه وحبّ عملٍ يقرب إلى حبه، ومن أجمع ذلك أن يقول: «اللهمّ إنني أسألك حبك وحبّ من يحبّك وحبّ عملٍ يقربني إلى حبك، اللهمّ

ما رزقني مما أحب فاجعله قوّة لي فيما تحب، وما زوّيت^(١) عني مما أحب فاجعله فراغاً فيما تحب، اللهم اجعل حبك أحبّ إليّ من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ، اللهم حبّني إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، واجعلني ممن يحبك ويحبّ ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، اللهم أحي قلبي بحبك واجعلني لك كما تحب، اللهم اجعلني أحبّ بقلبي كلّهُ، وأرضيك بجُهدي كلّهُ، اللهم اجعل حبي كلّهُ لك، وسعي كلّهُ في مرضاتك^(٢) وهذا الدّعاء هو فُسطاط خيمة الإسلام الذي قيامُها به، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون. والله سبحانه تعرّف إلى عباده من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له، فإن القلوب مفطورة على محبة الكمال ومن قام به، والله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق من كل وجه الذي لا نقص فيه بوجه ما، وهو سبحانه الجميل الذي لا أجمل منه بل لو كان جمالُ الخلق كلّهم على رجل واحد منهم وكانوا جميعهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قطّ نسبة إلى جمال الله، بل كانت النسبة أقلّ من نسبة سراج ضعيف إلى حذاء جرم الشمس ﴿وَاللهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠].

وقد روى عن النبي ﷺ قوله: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٣) عبدُ الله بن عمرو بن العاص، وأبو سعيد الخُدري، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وثابت ابن قيس، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وأبو ريحانة رضي الله عنهم.

ومن أسمائه الحسنَى: الجميلُ، ومن أحقّ بالجمال ممن كلّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنّعه، فله جمالُ الذات، وجمال الأوصاف، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماءه كلّها كمال، وأفعاله كلّها جميلة، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار، فإذا رآه سبحانه في جنات عدنٍ أنستهم رؤيته ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيء غيره، ولولا حجابُ النور على وجهه لأحرقَتْ سُبُحاتُ^(٤) وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه، كما في صحيح البخاري من حديث أبي

(١) زواه عن الشيء: صرفه ونحاه.

(٢) في الجامع الصحيح للترمذي قال: عن رسول الله ﷺ: «كان من دعاء داود: اللهم...» وذكر نحوه من هذا الدعاء.

(٣) رواه مسلم في الإيمان حديث ١٤٧، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال؛ الكبر بطر الحق وغمط الناس.

(٤) سُبُحات الله: أنواره وجلالته وعظمته.

موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار نورُ السموات من نور وجهه، وإن مقدار كلِّ يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم الأُمس [تعرض عليه] أولُ النهار أو اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات، فيطلع منها على بعض ما يكره فيغضبه ذلك، فأولُ من يعلم بغضه الذين يحملون العرش يجذونه يثقل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش وسُرداقات العرش والملائكةُ المقربون وسائر الملائكة، وينفخ جبريل في القرنِ فلا يبقى شيءٌ إلاَّ الثقلين الجنَّ والإنس، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن رحمةً، فتلك ستُّ ساعاتٍ، ثم يُؤتى بما في الأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات فيصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلَّهم ثلاث ساعات، فيسقط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم، ثم قرأ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ثم قال عبدالله: هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى (رواه عثمان بن سعيد الدارمي). حدَّثنا موسى بن إسماعيل، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب ابن عبدالله الفهري^(٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه. رواه الحسن بن إدريس، عن خالد ابن الهياج، عن أبيه، عن عباد بن كثير، عن جعفر بن الحارث، عن مَعْدَان، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليلٌ، وإن السموات مملوءات نوراً من نور الكرسي، وإن يوماً عند ربك اثنتا عشرة ساعةً، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات، فيرى فيها ما يكره فيغضبه ذلك، وإن أولَ من يعلم بغضه حَمَلَةُ العرش يرونها يثقل عليهم فيسبحون له ويسبح له سرداقات العرش في ثلاث ساعات من النهار، حتى يمتلىء ربنا رضاء فتلك ستُّ ساعاتٍ من النهار، ثم يأمر بأرزاق الخلائق فيعطي من يشاء في ثلاث ساعاتٍ من النهار، فتلك تسع ساعات. ثم يرفع إليه أرحام كل دابة فيخلق فيها ما يشاء، ويجعل المدة لمن يشاء في ثلاث ساعات من النهار، فتلك اثنتا عشرة ساعةً، ثم تلا ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]

(١) لم أجده في صحيح البخاري. ورواه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٣. وابن ماجه في المقدمة باب ١٣. وأحمد في المسند (٤٠١، ٤٠٥).

(٢) في تهذيب التهذيب (ج ١ ص ٤٠٧) أن حماد بن سلمة يروي عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز القرشي عن ابن مسعود.

هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى . وفي دعاء النبي ﷺ الذي دعا به يوم الطائف : «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(١) وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلها كما قال الله تعالى : «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ» [الزمر: ٦٩] وقولُ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : نورُ السموات والأرض من نور وجهه ، تفسيرٌ لقوله تعالى : «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» [النور: ٣٥] .

وفي الصحيحين من حديث أبي بكر رضي الله عنه في استفتاح النبي ﷺ قيام الليل : «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ» وفي سنن ابن ماجه وحرب الكرمانى من حديث الفضل بن عيسى الرقاشى ، عن محمد بن المُنَكِّدِر ، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «يَبْنَأُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَيَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ : «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ» [يس: ٥٨] فيرفعون رؤوسهم فينظرون إليه وينظرُ إليهم ولا يَلْتَفِتُونَ إلى شيءٍ مِنَ النَّعِيمِ حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ فَيَتَقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى دِيَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ» لفظ حديث حرب : «فَمَا ظَنُّ الْمُحِبِّينَ بِلَذَّةِ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ؟» وقد كان من دعاء النبي ﷺ : «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»^(٢) . (ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه) فاسمع الآن شأن أوليائه وأحبابه عند لقائه ثم اختر لنفسك :

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحَبَّيْتَهُ فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوَى مِنْ تَصْطَفِي

قال هشام بن حسان عن الحسن : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى نسوا نعيم الجنة . وقال هشام بن عمار : حدَّثنا محمد بن سعيد بن سابور^(٣) ، حدَّثنا عبد الرحمن بن سليمان ، حدَّثنا سعيد بن عبدالله الجرشي القاضي أنه سمع أبا إسحاق الهمداني يحدث عن الحارث الأعور ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه رفعه قال : «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَسْكَنَ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ بَعَثَ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الرُّوحَ الْأَمِينَ فَيَقُولُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ رَبَّكُمْ يُقْرِئُكُمْ

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة والطبراني في الدعاء والمعجم الكبير .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٩١/٥) والنسائي في السهو باب ٦٢ .

(٣) في تهذيب التهذيب (ج ٩ ص ٢٢٢) أن الذي يروي عنه هشام بن عمار هو محمد بن شعيب بن سابور وهو يروي عن عبد الرحمن بن حسان الكناني .

السَّلَامَ وَيَأْمُرُكُمْ أَنْ تَزُورُوهُ إِلَى فَنَاءِ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَبْطَحُ^(١) الْجَنَّةِ، تُزْبِتُهُ الْمِسْكُ وَحَضْبَاؤُهُ^(٢) الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ وَشَجَرُهُ الذَّهَبُ الرَّطْبُ وَوَرَقُهُ الرُّمْدُ، فَيُخْرِجُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مُسْتَبَشِرِينَ مَسْرُورِينَ، فَتَمَّ يَجْمَعُهُمْ وَتَمَّ كَرَامَةُ اللَّهِ وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ، وَهُوَ مَوْعِدُ اللَّهِ أَنْجَزُهُ لَهُمْ، فَيَأْذَنُ اللَّهُ فِي السَّمَاعِ وَالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ، وَيُكْسِنُونَ حُلُلَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يَنَادِي مُنَادٍ: يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِمَّا وَعَدَكُمْ اللَّهُ [رَبُّكُمْ] شَيْءٌ؟ فَيَقُولُونَ لَا وَقَدْ أَنْجَزْنَا مَا وَعَدَنَا فَمَا بَقِيَ شَيْءٌ إِلَّا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ، فَيَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) فِي حُجُبٍ فَيَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ ازْفَعْ حِجَابِي لِعِبَادِي كَيْ يَنْظُرُوا إِلَى وَجْهِهِ، قَالَ فَيَزْفَعُ الْحِجَابَ الْأَوَّلَ فَيَنْظُرُونَ إِلَى نُورٍ مِنَ الرَّبِّ فَيَخِرُّونَ لَهُ سُجَّدًا فَيَنَادِيهِمُ الرَّبُّ يَا عِبَادِي ازْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارٍ عَمَلٍ إِنَّمَا هِيَ دَارُ ثَوَابٍ، فَيَزْفَعُ الْحِجَابَ الثَّانِي فَيَنْظُرُونَ أَمْرًا هُوَ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ فَيَخِرُّونَ لِلَّهِ حَامِدِينَ سَاجِدِينَ، فَيَنَادِيهِمُ الرَّبُّ أَنْ ازْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارٍ عَمَلٍ إِنَّمَا هِيَ دَارُ ثَوَابٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ. فَيَزْفَعُ الْحِجَابَ الثَّلَاثَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُونَ حِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِهِ: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، فَيَقُولُ كَرَامَتِي أَمَكَّتْكُمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ وَأَحَلَّتْكُمْ دَارِي. فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ أَنْ تَكَلِّمِي فَقُولُ: طُوبَى لِمَنْ سَكَنِي وَطُوبَى لِمَنْ يَخْلُدُ فِيَّ وَطُوبَى لِمَنْ أَعْدَدْتُ لَهُ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بَ﴾ [الرعد: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ آيِنُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ آيِنُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَذْنٍ»^(٣).

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا أبو الربيع، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن كعب قال: ما نظر الله إلى الجنة إلا قال: طيبي لأهلك فزادت طيباً على ما كانت، وما من يوم كان عيداً في الدنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة، وَيَبْرُرُّ لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَتَسْفِي^(٤) عَلَيْهِم

(١) الأبطح: المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار ومنه أبطح مكة وبطحاء مكة.
(٢) جمع حصبة: الحصى.
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤، وتفسير سورة ٥٥ باب ١ و ٢. ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٦. والترمذي في صفة الجنة باب ٣، ٧. وابن ماجه في المقدمة باب ١٣. والدارمي في الرقاق باب ١٠١. وأحمد في المسند (٤/٤١١، ٤١٦).
(٤) سفت الريح التراب ونحوه: ذرته أو حملته.

الريح بالطيب والمِسْك فلا يسألون رَبَّهُمْ تبارك وتعالى شيئاً إلا أعطاهم، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفاً.

وقال عَبْدُ بن حُمَيْدٍ أخبرني شُبابَةُ عن إسرائيل، حَدَّثَنَا ثُوَيْرُ بن أَبِي فاختة سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى خَدَمِهِ وَنَعِيمِهِ وَسُرْرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غَدَوَةً وَعَشِيَةً» ثم تلا هذه الآية ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] رواه الترمذي في جامعه^(١) عنه.

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارمي^(٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما رفعه إلى النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا بَلَغَ مِنْهُمْ النَّعِيمُ كُلَّ مَبْلَغٍ وَظَنُّوا أَنْ لَا نَعِيمَ أَفْضَلَ مِنْهُ تَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَنَظَرُوا إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ فَنَسُوا كُلَّ نَعِيمٍ عَائَتْهُ حِينَ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ».

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] قال: حَسَنَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْصَرَّ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ. قال أبو سليمان الدَّاراني: لو لم يكن لأهل المحبة - أو قال المعرفة - إلا هذه الآية: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] لَأَكْتَفَوْا بِهَا.

وذكر النسائي من حديث الزُّهري، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ لَا غَيْمَ فِيهِ وَفِي الْقَمَرِ لَيْلَةٌ الْبَدْرُ لَا غَيْمَ فِيهَا؟» قلنا: لا، قال «فَأَنْتُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ حَتَّى إِنْ أَحَدَكُمْ لِيُحَاضِرُهُ^(٣) مُحَاضِرَةٌ يَقُولُ: عَبْدِي هَلْ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فيقول: يا رَبِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فيقول: بِمَغْفِرَتِي صِرْتَ إِلَى هَذَا».

وفي الصحيحين من حديث مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فيقولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فيقول: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فيقول: أَلَا أُعْطِيَكُمْ

(١) في كتاب التفسير سورة ٧٥ باب ٢، وفي كتاب صفة الجنة باب ١٧. ورواه أيضاً الإمام أحمد في المسند (١٣/٢ - ٦٤).

(٢) في المسند كتاب الرقاق، باب في أهل الجنة ونعيمها (١٠٤).

(٣) حاضر القوم: جالسهم وحادثهم بما يحضره.

أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فيقولون: يا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فيقول: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا^(١).

وفي الصحيح والسنن والمسند من حديث ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَى مُنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فيقولون: ما هو أَلَمْ يُبَيِّضْ وَجُوهَنَا وَيُنْقِلْ مَوَازِينَنَا وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ وَيُجْزِنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لَأَعْيُنِهِمْ»^(٢).

وفي صحيح البخاري من حديث جرير بن عبد الله قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَاهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(٣).

وفي الصحيحين^(٤) من حديث الزُّهري، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَضَارُونَ»^(٥) فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فَهَلْ تَضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرُونَهُ كَذَلِكَ». وفي لَفْظٍ: «فَإِنَّكُمْ لَا تَضَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تَضَارُونَ فِي رُؤْيَاهُمَا».

وقال الترمذي: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٧، والرقاق باب ٥١. ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢، وصفة الجنة حديث ٩. والترمذي في القيامة باب ١٨. وأحمد في المسند (٨٨/٣)، (٩٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٣٣/٤) والترمذي في تفسير سورة ١٠ باب ١. وابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت باب ١٦، وتفسير سورة ٥٠ باب ٢، والتوحيد باب ٢٤. وأبو داود في السنة باب ١٩. والترمذي في صفه الجنة باب ١٦. وابن ماجه في المقدمة باب ١٣. وأحمد في المسند (٣٦٠/٤)، (٣٦٢)، (٣٦٥).

(٤) صحيح البخاري (كتاب التوحيد باب ٢٤، والرقاق باب ٥٢، وتفسير سورة ٤ باب ٨) وصحيح مسلم (كتاب الإيمان حديث ٢٩٩ و٣٠٢). وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (٢٧٥/٢)، (٢٩٣)، (٣٦٨، ٥٣٤) وأبو داود في السنة باب ١٩. والترمذي في صفه الجنة باب ١٥ و٢٠.

(٥) جاء في القاموس المحيط: لا تضارون في رؤيته: أي لا تضامون تضاماً يدنو لبعضكم من بعض فيضايقه. وجاء في لسان العرب: لا يضر بعضكم بعضاً وينفرد برؤيته. وقال في تفسيرها أيضاً: لا يقع بكم في رؤيته ضر ولا يلحقكم ضيم.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَطْلُعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ
 إِنْسَانٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ، فَيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلِيْبُهُ وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ وَلِصَاحِبِ
 النَّارِ نَارُهُ فَيَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَيَتَّبِعُ الْمُسْلِمُونَ فَيَطْلُعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى فَيَقُولُ: أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، اللَّهُ رَبُّنَا هَذَا
 مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُنَبِّئُهُمْ ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطْلُعُ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ: أَلَا تَتَّبِعُونَ
 النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، اللَّهُ رَبُّنَا، وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا،
 وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُنَبِّئُهُمْ. قالوا: وهل نراه يا رسول الله؟ قال: «وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ
 لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قالوا: لا يا رسول الله قال: «فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَيْهِ تِلْكَ السَّاعَةَ. قال: ثُمَّ
 يَتَوَارَى ثُمَّ يَطْلُعُ فَيَعْرِفُهُمْ نَفْسُهُ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي، فَيَقُومُ الْمُسْلِمُونَ وَيُوضَعُ
 الصِّرَاطُ فَيَمْرُؤُنَ عَلَيْهِ مِثْلَ جِيَادِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ، وَقَوْلُهُمْ عَلَيْهِ: سَلَّمَ سَلَّمَ، وَيَبْقَى أَهْلُ
 النَّارِ فَيُطْرَحُ مِنْهُمْ فِيهَا فَوْجٌ فَيُقَالُ هَلِ امْتَلَأَتْ؟ فَتَقُولُ: هَلِ مِنْ مَزِيدٍ؟ ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا فَوْجٌ
 فَيُقَالُ: هَلِ امْتَلَأَتْ؟ فَتَقُولُ هَلِ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى إِذَا أَوْعَبُوا^(١) فِيهَا وَضَعَ الرَّحْمَنُ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى فِيهَا قَدَمَهُ فَأَزْوَى^(٢) بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ وَقَالَتْ: قَطُّ قَطُّ، فَإِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ
 الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ أَتَى بِالْمَوْتِ مُلَيًّا فَيُوقَفُ عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ
 النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَطْلَعُونَ خَائِفِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَطْلَعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ
 يَرْجُونَ الشَّفَاعَةَ فَيُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ: هَلِ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ: قَدْ
 عَرَفْنَاهُ، هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي وَكَلَّ بَنَا، فَيُضْجَعُ فَيُذَبِّحُ ذَبْحًا عَلَى السُّورِ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ
 الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ^(٣)».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وأصله في الصحيحين لكن هذا السياق
 أجمع وأخصر. وفي لفظ الترمذي: «فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ فَرَحًا لَمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَلَوْ أَنَّ
 أَحَدًا مَاتَ حُزَنًا لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ».

وفي مسند الحارث بن أبي أسامة من حديث قرة، عن مالك عن زياد بن سعد،
 حَدَّثَنَا أَبُو الزُّبَيْرِ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
 ﷺ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جُمِعَتِ الْأُمَمُ وَدُعِيَ كُلُّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَجِئْنَا آخِرَ النَّاسِ
 فَيَقُولُ قَائِلٌ مِنَ النَّاسِ: مَنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ؟ قَالَ: فَيُشْرِفُ إِلَيْنَا النَّاسُ فَيُقَالُ: هَذِهِ الْأُمَّةُ الْأَمِينَةُ،
 هَذِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ فِي أُمَّتِهِ، فَيَنَادِي مُنَادٍ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ، قَالَ: فَتَأْتِي

(١) أَوْعَبُوا فِيهَا: أَدْخَلُوا فِيهَا وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَارِجَهَا.

(٢) أَزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ: ضَمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ.

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ بَابَ ٢٠.

فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ حَتَّى نَكُونَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَنَزَلَةً، ثُمَّ يُدْعَى النَّاسُ كُلُّ
أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْيَهُودُ، فيقول: مَنْ نَبِيُّكُمْ؟
فَيَقُولُونَ: نَبِيُّنَا مُوسَى، فيقول: مَا كِتَابُكُمْ؟ فيقولون: كِتَابُنَا التَّوْرَةُ، فيقول: مَا تَعْبُدُونَ؟
فيقولون: نَعْبُدُ عُزَيْرًا وَنَعْبُدُ اللَّهَ، فيقول لِلْمَلَاحِلَةِ حوله: اسْلُكُوا بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ. ثُمَّ يُدْعَى
النَّصَارَى فيقول: مَنْ أَنْتُمْ؟ فيقولون: نَحْنُ النَّصَارَى، فيقول: مَنْ نَبِيُّكُمْ؟ فيقولون: نَبِيُّنَا
عِيسَى، فيقول: مَا كِتَابُكُمْ؟ فيقولون: كِتَابُنَا الْإِنْجِيلُ، فيقول: مَا تَعْبُدُونَ؟ فيقولون: نَعْبُدُ
عِيسَى وَأُمَّهُ وَاللَّهِ. فيقول لِلْمَلَاحِلَةِ حوله: اسْلُكُوا بِهِلَاءٍ فِي جَهَنَّمَ، فَيُدْعَى عِيسَى فيقول
لِعِيسَى: يَا عِيسَى ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]
فيقول: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٧] إِلَى قَوْلِهِ:
﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ثُمَّ يُدْعَى كُلُّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ثُمَّ
يَصْرُخُ الصَّارِخُ: أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ إِلَهًا فَلْيَتَّبِعْنِي، تَقْدَمُهُمُ إِلَهُتُهُمْ مِنْهَا الْخَشَبُ
وَالْحِجَارَةُ، وَمِنْهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْهَا الدَّجَالُ، حَتَّى يَبْقَى الْمُسْلِمُونَ فَيَقِفُ عَلَيْهِمْ
فيقول: مَنْ أَنْتُمْ؟ فيقولون: نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ، قال: خَيْرُ اسْمٍ وَخَيْرُ دَاعِيَةٍ، فيقول: مَنْ
نَبِيُّكُمْ؟ فيقولون: مُحَمَّدٌ، فيقول: مَا كِتَابُكُمْ؟ فيقولون: الْقُرْآنُ، فيقول: مَا تَعْبُدُونَ؟
فيقولون: نَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قال: سَيَنْفَعُكُمْ ذَلِكَ إِنْ صَدَقْتُمْ، قالوا: هَذَا يَوْمُنَا
الَّذِي وَعَدْنَا فيقول: أَتَعْرِفُونَ اللَّهَ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ؟ فيقولون: نَعَمْ، فيقول: وَكَيْفَ تَعْرِفُونَهُ وَلَمْ
تَرَوْهُ؟ فيقولون: نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عَدْلَ لَهُ، قال: فَيَتَجَلَّى لَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيقولون: أَنْتَ رَبُّنَا
تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُكَ، وَيَخِرُّونَ لَهُ سُجَّدًا، ثُمَّ يَمْضِي النُّورُ بِأَهْلِهِ.

وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه من حديث أبي الزبير قال: سألت جابراً عن
الورود فأخبرني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نَحْيُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ» (١) فَوْقَ النَّاسِ،
فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فيقول: مَا
تَنْتَظِرُونَ؟ فيقولون: نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، فيقول: أَنَا رَبُّكُمْ، فيقولون: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ، فَيَتَجَلَّى
لَهُمْ يَضْحَكُ فَيَتَّبِعُونَهُ» (٢).

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي أن أبا بريدة بن أبي موسى الأشعري أتى عمر بن عبد
العزیز فقال: حدثنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَجْمَعُ اللَّهُ
الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَإِذَا بَدَأَ لَهُ أَنْ يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ مَثَلٌ لِكُلِّ قَوْمٍ مَا كَانُوا
يَعْبُدُونَ فَيَتَّبِعُونَهُمْ حَتَّى يَقْحَمُوهُمْ» (٣) النَّارَ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا وَنَحْنُ فِي مَكَانٍ فيقول: مَنْ أَنْتُمْ؟

(١) الكوم: مكان مرتفع.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/٢٤٥).

(٣) يقحموهم: يرموهم فيها على وجوههم.

فَنَقُولُ: نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ، فيقول: مَا تَنْتَظِرُونَ؟ فنقول: نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، فيقول: مِنْ أَيْنَ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَبُّكُمْ؟ فنقول: حَدَّثَنَا الرَّسُولُ أَوْ جَاءَنَا الْكُتُبُ، فيقول: هَلْ تَعْرِفُونَهُ؟ فيقولون: نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عَدْلَ لَهُ، فَيَجْعَلِي ضَاحِكًا، ثم يقول: أَبْشِرُوا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُ مَكَانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا^(١) فقال عمر لأبي بردة: اللَّهُ، لقد سمعت أبا موسى يحدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ؟ قال: إي والله الذي لا إله إلا هو لقد سمعت أبي يذكره عن رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً، فقال عمر بن عبد العزيز: ما سمعت في الإسلام حديثاً هو أحبُّ إليَّ منه.

وفي الترمذي من حديث الأوزاعي: حَدَّثَنِي حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمَسِيبِ أَنَّهُ لَقِيَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سَوْقِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَوْ فِيهَا سَوْقٌ؟ قَالَ: نَعَمْ أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مَقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيُزَوَّرُونَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَبْرُزُ لَهُمْ عَرْشُهُ وَتَبْدَأُ لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَتُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ عَلَى كِثَابٍ^(٢) الْمَسْكِ وَالْكَافُورِ مَا يَبْرُونَ أَنَّ أَهْلَ الْكَرَاسِيِّ أَفْضَلُ مِنْهُمْ مَجْلِسًا».

قال أبو هريرة: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ وهل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «نَعَمْ هَلْ تُمَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قلنا: لَا، قال: «كَذَلِكَ لَا تُمَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ وَلَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضِرُهُ اللَّهُ تَعَالَى مُحَاضِرَةً حَتَّى يَقُولَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ: يَا فَلَانُ ابْنِ فَلَانٍ أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَذْكُرُهُ بِبَعْضِ غَدْرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَيَسَعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغَتْ مَنَزَلَتَكَ هَذِهِ، فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ فَأَنْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طَيْبًا لَمْ يَحْدُوا مِنْ رِيحِهِ شَيْئًا قَطُّ، ثُمَّ يَقُولُ: قَوْمُوا إِلَيَّ مَا أَعَدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فَخَذُّوا مَا اشْتَهَيْتُمْ، فَتَأْتِي سَوْقًا قَدْ حَفَّتْ بِهَا الْمَلَائِكَةُ، فِيهِ مَا لَمْ تَنْتَظِرْ الْعَيُونُ إِلَى مِثْلِهِ وَلَمْ تَسْمَعْ الْأَذَانُ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْقُلُوبِ فَيُحْمَلُ الْبِنَا مَا اشْتَهَيْنَا لَيْسَ بِيَاغٍ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يُشْتَرَى، وَفِي ذَلِكَ السَّوْقِ يَلْقَى أَهْلَ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَيَقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ فَيَرْوِعُهُ مَا يَرَى عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَاسِ فَمَا يَنْقُضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتِمَّتَلَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/٤٠٧).

(٢) جمع كتيب: تل من الرمل سمي به لأنه انكتب أي انصب في مكان فاجتمع فيه.

يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَخْزَنَ فِيهَا، ثُمَّ نَصَرَفُ إِلَى مَنَازِلِنَا فَتَقْلَقَانَا أَزْوَاجُنَا فَيَقْلَنَ مَرْحَبًا وَأَهْلًا لَقَدْ جِئْتُ وَإِنَّ بِكَ مِنَ الْجَمَالِ وَالطَّيِّبِ أَكْثَرَ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: إِنَّا جَالَسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا وَيَحْقِنَا أَنْ تَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا أَنْقَلَبْنَا^(١).

وقال يعقوب بن سفيان في مسنده: حَدَّثَنَا ابْنُ الْمَصْفَى، حَدَّثَنَا سُؤيد بن عبد العزيز، حَدَّثَنَا عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَزُورُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ وَذَكَرَ مَا يُعْطُونَ قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اكْشِفُوا الْحُجُبَ، فَيَكْشِفُوا حِجَابًا ثُمَّ حِجَابًا حَتَّى يَتَجَلَّى لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَانَهُمْ لَمْ يَرَوْا نِعْمَةً قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارمي من حديث الحسن رضي الله عنه عن النبي ﷺ مرسلاً أَنَّهُ قَالَ: «يَأْتِينَا رَبُّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَحْنُ عَلَى مَكَانٍ رَفِيعٍ فَيَتَجَلَّى لَنَا ضَاحِكًا» (مرسلٌ صحيح).

وقال عثمان الدَّارمي: حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، حَدَّثَنَا الْأَجْلَحُ حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ قَالَ: إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ السَّمَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَنْشَقُ بِمَنْ فِيهَا فَيَحِيطُونَ بِالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ حَتَّى ذَكَرَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فَيَكُونُونَ سَبْعَةَ صَفُوفٍ قَدْ أَحَاطُوا بِالنَّاسِ، ثُمَّ يَنْزِلُ الْمَلِكُ الْأَعْلَى جَلَّ جَلَالُهُ فِي بَهَائِهِ وَجَمَالِهِ مَعَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وقال عثمان بن سعيد: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ خَالِدٍ الدَّمَشَقِيُّ، وَكَانَ ثِقَةً، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ ابْنِ شُعَيْبٍ بْنُ شَاوِرٍ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى غَفَرَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جَاءَنِي جِبْرِيلُ وَفِي كَفِّهِ مَرَأَةٌ فِيهَا نُكْتَةٌ^(٢) سَوْدَاءٌ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ أُرْسِلَ بِهَا إِلَيْكَ رَبُّكَ فَتَكُونُ هُدًى لَكَ وَلَا تُنْكَ مِنْ بَعْدِكَ، فَقُلْتُ: وَمَا لَنَا فِيهَا؟ قَالَ: لَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ أَنْتُمْ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّيُ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا هُوَ لَهُ قِسْمٌ إِلَّا أَنَّهُ وَلَا خَيْرًا لَيْسَ لَهُ بِقِسْمٍ إِلَّا دُخِرَ لَهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَلَا يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِلَّا دَفَعَ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْهُ، قُلْتُ: مَا هَذِهِ النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ؟ قَالَ: هَذِهِ السَّاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْأَيَّامِ وَنَحْنُ نُسَمِّيهِ عِنْدَنَا يَوْمَ الْمَزِيدِ، قُلْتُ: وَلِمَ تُسَمُّونَهُ يَوْمَ الْمَزِيدِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: لِأَنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَادِيًا أَفْيَحَ^(٣) مِنْ مَسْكٍ أبيضٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ هَبَطَ الْجَبَّارُ عَنْ عَرْشِهِ إِلَى

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة باب ١٥.

(٢) النكتة في الشيء كالنقطة وهي النقطة السوداء في الأبيض وقيل البيضاء في الأسود.

(٣) أفيح: واسع مخصب.

كُرْسِيَّهِ إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي وَقَدْ حُفَّ الْكُرْسِيُّ بِمَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَجْلِسُ عَلَيْهَا الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُ الْغُرَفِ حَتَّى يَحْفُوا بِالْكَثِيبِ، ثُمَّ يَبْدُو لَهُمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعَدِي وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَأَخْلَلْتُكُمْ دَارَ كَرَامَتِي فَسَلُونِي، فَيَقُولُونَ بِأَجْمَعِهِمْ: نَسْأَلُكَ الرِّضَا عَنَّا، فَتَشْهَدُ لَهُمْ عَلَى الرِّضَا ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ: سَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ نَهْمُهُ^(١) كُلُّ عَبْدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ يَقُولُ: سَلُونِي، فَيَقُولُونَ: حَسْبُنَا رَبُّنَا رَضِينَا، فَيَرْجِعُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَى عَرْشِهِ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِقَدْرِ إِشْرَاقِهِمْ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ وَهِيَ غُرْفَةٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ بَيَضَاءٍ وَيَأْفُوتُهُ حُمْرَاءُ وَزُمُرَدَةٌ خَضْرَاءُ لَيْسَ فِيهَا قَصَصٌ وَلَا وَضَمٌ^(٢) مُطَرَّدَةٌ أَنَهَارُهَا مُتَدَلِّيةٌ فِيهَا ثِمَارُهَا، فِيهَا أَرْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا وَمَسَاكِينُهَا فَلْيَسُوا إِلَى يَوْمِ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِيَزْدَادُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا.

رواه عن أنس منهم عثمان بن عُمَيْرٍ بن اليقظان^(٣) ومن طريقه رواه الشافعي في مسنده، وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة^(٤)، ومنهم أبو صالح، والزبير بن عدي وعلي بن الحكم البتاني، وعبد الملك بن عُمَيْرٍ، ويزيد الرقاشي وعبد الله بن بُرَيْدَةَ، كُلُّهُمْ عَنْ أَنَسٍ وَصَحَّحَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْحَفَظَاتِ، وَزَادَ الشَّافِعِيُّ فِي مَسْنَدِهِ فِي آخِرِهِ: «وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي اسْتَوَى فِيهِ رَبُّكُمْ عَلَى الْعَرْشِ» وَسَاقَهُ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ طَرُقٍ، وَقَالَ فِي بَعْضِهَا «ثُمَّ يَجْعَلِي رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعَدِي وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَهَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي» إِلَى أَنْ قَالَ: «ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَيَرْتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ وَالصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ».

وروى محمد بن الزُّبَيْرَانَ، عَنْ مِقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَحْتَاجُونَ إِلَى الْعُلَمَاءِ فِي الْجَنَّةِ كَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَزُورُونَ رَبَّهُمْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ فَيَقُولُ لَهُمْ: تَمَتُّوا، فَيَقُولُونَ: وَمَا نَتَمَتَّى وَقَدْ أَدْخَلْتَنَا الْجَنَّةَ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا أُعْطِينَا، فَيَقَالَ لَهُمْ: تَمَتُّوا، فَيَلْتَمَتُونَ إِلَى الْعُلَمَاءِ» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي قِصَّةِ الْجُمُعَةِ.

وروى ابن مَنْدَهٌ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ

(١) النهمة: الحاجة، وبلغ الشهوة في كل شيء.

(٢) قصمه قصماً: كسره وأبانه، وقيل كسره وإن لم يكن. ووصم الشيء وصماً: صدعه وعابه. والمعنى: ليس فيها كسر ولا عيب.

(٣) كذا.. والصواب: أبو اليقظان كما جاء في تهذيب التهذيب.

(٤) كذا.. ولعل الصواب في المسند.

النبي ﷺ قصّة الجمعة بطولها وفيها يقول: «سَلُونِي فيقولون: أَرْنَا وَجْهَكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَنْظُرُ إِلَيْكَ، فَيَكْشِفُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تِلْكَ الْحُجُبَ وَيَتَجَلَّى لَهُمْ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ».

وذكر عثمان الدارمي، عن محمد بن كعب القُرظي، أنه حدث عمر بن عبد العزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار أقبل في ظُلُل من الغمام والملائكة فيسلم على أهل الجنة في أول درجة فيردّون عليه السلام، قال القُرظي: وهذا في القرآن ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فيقول: سلوني، يفعل بهم ذلك في درجهم حتى يستوي على عرشه، ثم تأتيهم الثُخَف من الله تحمله^(١) الملائكة إليهم.

وقال عبد الواحد بن زيد، عن الحسن: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا. وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك وتعالى يتجلى لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة.

أعجبُ الصبر صبرُ المحبين. قال الشاعر:

والصبرُ يُخَمِّدُ في المواطنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَسِانُهُ لَا يُخَمِّدُ^(٢)

وقف رجلٌ على الشبلي فقال: أي الصبر أشدُّ على الصابرين؟ قال: الصبر في الله، فقال السائل: لا، فقال: الصبر لله قال: لا، قال: فالصبر مع الله، قال: لا، قال: فما هو؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلي صرخةً كادت روحه تزْهَق. قال الشاعر:

والصبرُ عنكَ فمذمومٌ عواقبه والصبرُ في سائر الأشياء محمود

الخوف يبعدك عن معصيته، والرجاء يخرجك إلى طاعته، والحب يسوقك إليه سَوْقًا. لما علم الله سبحانه أن قلوبَ المشتاقين إليه لا تهدأ إلا بلاقائه ضرب لهم أَجَلًا للاقائه تسكينًا لقلوبهم، فقال الله تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

يا من شكى شوقه من طول فُرْقته اصبر لعلك تلقى من تحبُّ غدا
وسِرْ إليه بنار الشوق مجتهداً عساك تلقى على نار الغرام هدى

المحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد شوقاً إليه:

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دَنَّتِ الْخِيَامُ مِنَ الْخِيَامِ^(٣)

(١) كذا... ولعل الصواب: تحملها.

(٢) تقدم في صفحة ١٨٩ باختلاف في اللفظ.

(٣) وروي: إذا دنت الديار من الديار.

كلما وقع بصرُ المحبِّ على محبوبه أحدثت له رؤيته شوقاً على شوقه :

ما يَرْجِعُ الطَّرْفُ عنه حين يبصره حتى يعودَ إليه الطرفُ مشتاقا
المحب الصادق إذا سافر طرفه في الكون لم يجد له طريقاً على محبوبه، فإذا
انصرف بصره عنه رجع إليه خاسئاً وهو حسير^(١) :

وَيَسْرَحُ طرفي في الأنام ويثنِّي وإنسانُ عيني بالدموع غريق
فَيَرْجِعُ مردوداً إليك ومالَه على أحدٍ إلا عليك طريق
أقرُّ شيءٍ لعيون المحبِّ خلوته بسرّه مع محبوبه . حدّثني من رأى شيخنا في عُنفوان
أمره، خرج إلى البريّة بكرةً فلما أضحى^(٢) تنفّس الصّعْداءُ ثم تمثل بقول الشاعر :

وأخْرُجُ من بين البيوت لعلّني أحدث عنك القلب بالسرّ خاليا
الشوقُ يحمل المحبَّ على العَجَلَة في رضا المحبوب والمبادرة إليها على الفور
ولو كان فيها تَلَفُهُ : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ
إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ [طه : ٨٣ ، ٨٤] قال بعضهم : أراد شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا .

ولسو قَلِتَ طأً في النارِ أعلم أنه رضاً لك أو مُذِنٍ لنا من وصالك
لقد مُتَ رجلي نحوها فوطئتها هدى منك لي أو ضلّةً من ضلالك
لِيَهْنِكَ إمساكي بكفي على الحشا ورقراق عيني خشيةً من زِيَالِكَ^(٣)
وإن ساءَني أن نلتني بمساءةٍ لقد سرّني أني خطرْتُ بِيَالِكَ

من علامات المحبة الصادقة أن المحب لا يَتِمُّ له سرورٌ إلا بمحبوبه، وما دام غائباً
عنه فعيشه كله مُنْغَصَصٌ :

نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلا بكم يَئِسُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غِيَبٌ ونحن حضور
وقال آخر :

من سرّه العيدُ الجديد قد فقدَ عَدمتُ به السرورا

(١) خاسئاً: ذليلاً، وحسير: كليل، ضعيف، أعياه النظر والبحث. قال تعالى: ﴿ارجع البصر كرتين
ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ .

(٢) أضحى الرجل: خرج إلى الصحراء .

(٣) رقق الماء وغيره: صبه برقة، وعينه: أجرى دمعها، والرقراق من الأشياء ما تلاًأ ومن الدمع ما
ترقق منه. زياالك: فراقك، وزايله مزايلة وزيالاً: فارقه .

كان السرور يَتِمُّ لي لو كان أحبابي حضورا
لو قيل للمحب على الدوام: ما تمنى؟ لقال: لقاء المحبوب.

ولما نزلنا منزلاً طَلَّه الندى أنيقاً وبستاناً من النور حالياً^(١)
أجداً^(٢) لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانيا

وقال الجنيد: سمعت السريّ يقول: الشوق أجلُّ مقام العارف إذا تحقق فيه، وإذا تحقق بالشوق لها عن كل ما يشغله عمن يشاق إليه. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لشبان بني إسرائيل لِمَ تَشْغَلُونَ نفوسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم؟ ما هذا الجفاء؟ ولو يعلم المذبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم ومحبي لترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ وانقطعت أوصالهم من محبي. هذه إرادتي للمذبرين عني فكيف إرادتي للمقبلين عليّ؟ وسئل الجنيد من أي شيء بكاء المحب إذا لقي المحبوب؟ فقال: إنما يكون ذلك سروراً به ووجداً من شدة الشوق إليه، قال: ولقد بلغني أن أخوين تعانقا فقال أحدهما: واشوقاه وقال الآخر: واوجداه. وكانت عجوزٌ لها غائب فقدم من السفر فأظهر أهلها الفرح والسرور به. فجعلت تبكي فقبل لها: ما هذا البكاء؟ فقالت: ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله.

وقال بعضُ المحبين: قلوب المشتاقين منورة بنور الله؛ فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والأرض، فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إليّ أشهدكم أنني إليهم أشوق.

فصل: قال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى: سئل أبو سليمان الداراني رحمه الله وأنا حاضرٌ ما أقرب ما يُتَقَرَّب به إلى الله عز وجل؟ فبكى ثم قال: مثلي يُسأل عن هذا؟ أقرب ما يُتَقَرَّب به إليه أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو^(٣). وقال يحيى بن مُعَاذ: النسكُ هو العناية بالسرائر وإخراج ما سوى الله من القلب. وقال سهل بن عبد الله: ما من ساعةٍ إلَّا واللَّهُ سبحانه يطلع فيها على قلوب العباد، فأَيُّ قلب رأى فيه غيره سَلَطَ عليه إبليس. وقال سهل بن عبد الله: من نظر إلى الله عز وجل قريباً منه بَعُدَ عن قلبه كلُّ شيءٍ سوى الله، ومن طلب مرضاته أرضاه الله سبحانه وتعالى، ومن أسلم قلبه إلى الله تَوَلَّى جوارحه. وقال سهل أيضاً: حرام على قلب أن يَشَم رائحة اليقين

(١) حالياً: مزداناً.

(٢) أجداً: أحدث.

(٣) كذا... وفي حلية الأولياء: والآخرة غيره.

وفيه سكونٌ إلى غير الله، وحرامٌ على قلبٍ أن يدخله النورُ وفيه شيءٌ مما يكره الله .
وسئل بعضهم عن أفضل الأعمال فقال: رعاية السرّ عن الالتفات إلى شيء سوى الله عزّ وجلّ . وقال مسلم^(١): تركتموه وأقبل بعضكم على بعض، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب .

فصل: فإن تقاصرت^(٢) همّتكَ الدّنيّة عن ترك الفواحش محبةً لهذا المحبوب الأعلى ولست هناك فاتركها محبةً للنساء اللاتي وصفهن الله في كتابه، وبعث رسوله داعياً إلى وصالهنّ في جنة المأوى . وقد تقدّم ذكرُ بعض صفاتهنّ ولذّة وصالهنّ، فإن تقاصرت همّتكَ عنهنّ ولم تكن كفواً لخطبتهنّ ودعتك نفسك إلى إيثار ما هاهنا عليهنّ فكن من عقوبته العاجلة والآجلة على حذر . واعلم أن العقوبات تختلف، فتارة تُعجّل وتارة يجمع الله على العاصي بينهما . وأشدُّ العقوبات العقوبة بسلب الإيمان، ودونها العقوبة بموت القلب ومحو لذة الذكر والقراءة والدُّعاء والمناجاة منه، وربما دبت عقوبة القلب فيه ديبب الظلمة إلى أن يمتلىء القلب بهما فتعمى البصيرة، وأهونُ العقوبة ما كان واقعاً بالبدن في الدُّنيا، وأهونُ منها ما وقع بالمال، وربما كانت عقوبة النظر في البصيرة أو في البصر أو فيهما .

قال الفضيل: يقول الله تعالى: ابن آدم إذا كنتُ أَقْلَبَكَ في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذر لثلا أصرعك بين معاصيك، ابن آدم اتَّقِنِي ونم حيث شئت، إنك إن ذكرتني ذكرتُك، وإن نسيته نسيْتُك، والساعة التي لا تذكرني فيها عليك لا لك .

وقال الفضيل أيضاً: ما يؤمنك أن تكون بارزت الله تعالى بعملٍ مقتك عليه فأغلق أبواب المغفرة وأنت تضحك؟ وقال علقمة بن مرثد: بينا رجلٌ يطوف بالبيت إذ برّق له ساعدُ امرأة فوضع ساعده على ساعدها فالتدّ به فلصقت ساعدهما، فأتى بعض أولئك الشيوخ فقال: ارجع إلى المكان الذي فعلت هذا فيه فعاهد رب البيت أن لا تعود، ففعل فخلّي عنه .

وقال ابن عباس وأنس رضي الله عنهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وزيناً في الوجه، وقوّة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة ظلمة في القلب، وشيناً في الوجه، وهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق .

وقال الحسن: ما عصى الله عبداً إلا أذله الله . وقال المعتمر بن سليمان: إن الرجل

(١) كذا . . وفي لسان الميزان: سلم، وفي حلية الأولياء: سالم وهو ابن ميمون الخواص الزاهد .

(٢) تقاصرت: تضاءلت وعجزت .

لِيُصِيبَ الذَّنْبَ فِي السَّرِّ فَيُصْبِحَ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ. وقال الحسن: هانوا عليه فَعَصَوْهُ ولو عَزُّوا عليه لعصمهم. وكان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول: من سرّه أن تدوم له العافية فليتّق الله.

وقال أبو سليمان الداراني: من صفا صفا له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن في ليله كُفِيَ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كُفِيَ في ليله، ومن ترك لله شهوةً من قلبه فالله أكرم أن يعذب بها قلبه. وكتبت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى معاوية: أما بعد فإن العامل إذا عمل بمعصية الله عاد حامدُه من الناس دأماً.

وقال مُحَارِبُ بن دِثَار: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَجِدُ لَهُ فِي قَلْبِهِ وَهْنًا.

وقال الحسين بن مُطِير:

وَنَفْسُكَ أَكْرَمُ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيرُهَا
وَلَا تَقْرُبُ الْأَمْرَ ^(١) الْحَرَامَ فَإِنَّمَا حَلَاوُتُهُ تَفْنَى وَيَبْقَى مَرِيرُهَا
وَكَانَ سَفِيَانُ الثَّوْرَى يَتَمَثَّلُ بِهِذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

تَفْنَى اللَّذَازَةُ مِمَّنْ ذَاقَ ^(٢) صَفَوْتَهَا مِنَ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْإِثْمُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغَبَّتِهَا لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ
فَصَل: واعلم أن الجزاء من جنس العمل، والقلب معلق بالحرام كلما هم أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا.

وفي بعض طُرُق حديث سَمُرَةَ بن جُنْدَب الذي في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي فَأَخْرَجَانِي فَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فَإِذَا بَيْتٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مِثْلِ بِنَاءِ الثُّورِ أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَوْقَدُ تَحْتَهُ نَارٌ فِيهِ رَجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءٌ فَإِذَا أُوقِدَتِ النَّارُ ارْتَفَعُوا حَتَّى يَكَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا فَإِذَا أُخْمِدَتْ رَجَعُوا فِيهَا فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هُمُ الرُّنَاءُ» ^(٣). فتأمل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا فإنهم كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من ثُور الشهوة إلى فضاء التوبة أُرْكِسُوا ^(٤) فيه وعادوا بعد أن يخرجون.

ولما كان الكفَّار في سجن الكفر والشُّرك وضيقه وكانوا كلما هموا بالخروج منه

(١) تقدم البيتان في صفحة ٢٣٤ وفيها: ولا تقرب المرعى الحرام الخ.

(٢) تقدم البيتان في صفحتي ٢٣٤ و ٢٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في الجنازات باب ٩٣، وأحمد في المسند (١٤/٥).

(٤) أركسوا فيه: ردوا إليه وأعيدوا إليه، قال تعالى ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي عادوا إليها وقلبوها فيها أقبح قلب.

إلى فضاء الإيمان وسعته ورّوحه رجعوا على حوافرهم كان عقوبتهم في الآخرة كذلك، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. وقال في موضع آخر: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا يبقى في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه ها هنا خرج منه هناك، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت، وكان معذباً به هناك كما كان قلبه معذباً به في الدنيا، فليس العشق^(١) والفجرة والظلمة في الدرة في هذه الدار، وإنما هم يعذبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أخضرت نفوسهم الألم الشديد، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم. فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى، والدود يأكل كل جسمهم.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال: حدثني عبد الصمد بن معقل، حدثني وهب بن منبه قال: كان حزقيل قائماً فاتاه ملك فذكر حديثاً طويلاً وفيه أنه مرّ بقوم أموات فقبل له: ادعهم فدعاهم فأحياهم الله له فقال: سلهم فيم كنتم؟ فقالوا: لما فارقت الحياة لقينا ملكاً يقال له ميكائيل فقال: هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم فذلك سئتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم، فنظروا في أعمالنا فوجدونا نعبد الأوثان، فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألم، وسلط الغم على أرواحنا وجعلت الأجساد تألم، فلم نزل كذلك نعدب حتى دعوتنا.

(١) كذا... ولعلها الفساق، وهي بالصواب أشبه.

فيمن ترك محبوبه حراماً فبذل له حلالاً أو أعاضه الله خيراً منه

عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك الله شيئاً فعوّضه الله خيراً منه، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجن على الفاحشة فعوّضه الله أن مكّنه في الأرض يتبوا^(١) منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرة سائلة رغبة في الوصل الحلال فتزوجها، فلما دخل بها قال: هذا خير مما كنت تريدن. فتأمل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن أن مكّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذلّ له العزيز وامرأته، وأقرّت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنّة تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة. ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الريح يسير على مثنى^(٢) حيث أراد. ولما ترك المهاجرون ديارهم وأوطانهم التي هي أحبّ شيء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها. ولو اتقى الله السارق وترك سرقة المال المعصوم لله لآتاه الله مثله حلالاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يحلّ له رزقه الله من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حراماً لله لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالاً.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا هشيم، حدّثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ، عن صِلَةَ، عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «النَّظَرَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْنُومٌ مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ اللَّهِ أَثَابَهُ اللَّهُ إِيْمَاناً يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ».

وقال عمرُ بنُ شَبَّةَ: حدّثنا أحمد بن يونس، حدّثنا عَنَسَةُ بن عبد الرحمن، حدّثنا

(١) تبوا منزلاً: نزله واتخذته سكناً. وبواه منزلاً: هياه ومكن له فيه.

(٢) المثنى: الظهر.

أبو الحسن المدني، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ السَّهْمِ أَغْقَبَهُ اللَّهُ عِبَادَةً تَسْرَهُ».

وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى: يلغني عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرة فإذا حسناء عليها ثياب سود، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها:

قد كنتُ أحسبُ أن الشمس واحدةٌ والبدْرُ في منظرٍ بالحسن موصوفُ
حتى رأيتُك في أثواب ثاكلةٍ سُودٍ وصدغُك فوق الخدِّ معطوفُ
فرُحْتُ والقلبُ مني هائمٌ ذنفُ والكبدُ حرى ودمعُ العين مَذروفُ
رُدِّي الجوابَ فيه الشكرُ واغتنمي وصلَ المحبِّ الذي بالحبِّ مشغوفُ

ورمى بالرقعة إليها، فلما قرأتها كتبت:

إن كنتَ ذا حسبٍ زاكٍ وذا نسبٍ إن الشريفَ بغضُ الطرفِ معروفُ
إن الزُّناةُ أناسٌ لا خلاقَ لهم فاعلم بأنك يومَ الدِّينِ موقوفُ
واقطع رَجَاكَ لحاك الله^(١) من رجلٍ فإن قلبي عن الفحشاء مصروفُ

فلما قرأ الرُّقعة زجر نفسه وقال: أليس امرأةٌ تكون أشجعَ منك؟ ثم تاب ولبس مِدرعةً^(٢) من الصوف والتجأ إلى الحرم، فبينما هو في الطواف يوماً وإذا بتلك الجارية عليها دِرْعٌ من صوف فقالت له: ما أليق هذا بالشريف، هل لك في المباح؟ فقال: قد كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله وأحبه، والآن قد شغلني حُبُّه عن حبِّ غيره، فقالت له: أحسنت، ثم طافت وهي تنشد:

فطفنا فلاحت في الطواف لوائحُ غَينًا بها عن كل مَرَأَى ومَسَمَعِ

وقال الحسن البصري: كانت امرأةٌ بَغِيٌّ قد فاقت أهل عصرها في الحسن لا تمكُن من نفسها إلا بمائة دينار، وإن رجلاً أبصرها فأعجبته. فذهب فعمل بيديه وعالج^(٣) فجمع مائة دينار، فجاء فقال: إنك قد أعجبتني فانطلقت فعملت بيدي وعالجت حتى جمعت مائة دينار فقالت: ادفعها إلى القهرمان^(٤) حتى ينفذها ويزنها، فلما فعل قالت: ادخل، وكان لها بيتٌ مُنَجَّدٌ وسريرٌ من ذهب فقالت: هَلُمَّ لك، فلما جلس منها مجلس

(١) لحاك الله: أي قبحك ولعنك.

(٢) المدرعة: ثوب من الصوف وجة مشقوقة المقدم.

(٣) عالج الشيء معالجةً وعلاجاً: مارسه وزاوله.

(٤) القهرمان: الوكيل الخاص بتدبير خرجها ودخلها.

الخائن تذكر مقامه بين يدي الله فأخذته رعدةً وطفئت شهوته فقال: اتركيني لأخرج ولك المائة دينار، فقالت: ما بدا لك وقد رأيتني كما زعمت فأعجبتك فذهبت فعالجت وكذحت حتى جمعت مائة دينار فلما قدرت عليّ فعلت الذي فعلت؟ فقال: ما حملني على ذلك إلا الفرق من الله، وذكرْتُ مقامي بين يديه، قالت: إن كنت صادقاً فمالي زوج غيرك قال: ذريني لأخرج قالت: لا إلا أن تجعل لي عهداً أن تتزوجني فقال: حتى أخرج، قالت: عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تتزوجني، قال: لعل، فتقنع بثوبه ثم خرج إلى بلده، وارتحلت المرأة بديهاها نادمةً على ما كان منها حتى قدمت بلده، فسألت عن اسمه ومنزله فدلّت عليه، فقيل له: الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك، فلما رآها شهق شهقةً فمات، فأسقط^(١) في يدها فقالت: أما هذا فقد فاتني، أما له من قريب؟ قيل: بلى أخوه رجلٌ فقير، فقالت: إني أتزوجك حباً لأخيك، قال: فتزوجته فولدت له سبعة أبناء.

وقال يحيى بن عامر التيمي: خرج رجلٌ من الحيّ حاجاً فورد بعض المياه ليلاً، فإذا بامرأة ناشرة شعرها، فأعرض عنها فقالت له: هلّم إليّ فلم تعرض عني؟ فقال: إني أخاف الله ربّ العالمين، فتجلببت^(٢) ثم قالت: هبّ والله مُهاباً، إن أولى من شركك في الهيبة لمن أراد أن يشركك في المعصية، ثم ولّت فتبعها، فدخلت بعض خيام الأعراب، قال: فلما أصبحت أتيت رجلاً من القوم فسألته عنها وقلت: فتاةً صفتها كذا وكذا فقال: هي والله ابنتي، فقلت: هل أنت مُزوجي بها؟ فقال: على الأكفاء فمن أنت؟ فقلت: رجلٌ من تميم الله، قال: كفّو كريم، فما رمّت حتى تزوجتها ودخلت بها، ثم قلت: جهّزوها إلى قدومي من الحج، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة، وها هي ذي ولي منها بنون وبنات، قال: فقلت لها: ويحك ما كان تعرّضك لي حينئذ؟ فقالت: يا هذا ليس للنساء خيرٌ من الأزواج، فلا تعجبن من امرأة تقول هويت، فوالله لو كان عند بعض السودان ما تريده من هواها لكان هو هواها.

وقال الحسن بن زيد: ولّينا بديار مصر رجلٌ فوجد^(٣) على بعض عمّاله فحبسه وقيّده، فأشرفت عليه ابنة الوالي فهويته فكتبت إليه:

أيها الـرامـي بعيني — وفي الطرف الحثوف

(١) أسقط في يدها، بصيغة المجهول: تحيرت وتحسرت على ما فاتها وندمت على ما ضاع منها.

(٢) تجلببت: لبست الجلباب، والجلباب القميص والخمار وما يلبس فوق الثياب كالملحفة والملاء تشتمل بها المرأة.

(٣) وجد عليه: غضب.

إِنْ تُرِدْ وَصلاً فَقَدْ أَمْ كَنَّكَ الظُّبْيُ الْأَلْوَفُ

فأجابها الفتى :

إِنْ تَرَيْنِي زَانِيَا عَيْنِي لَيْسَ إِلَّا النَّظَرُ الْفَا
بِنِ الْفَرْجِ عَفِيفُ تَرُ وَالشَّعْرُ الظَّرِيفُ

فأجابته :

قَدْ أَرَدْنَاكَ فَالْفَيْنِ
فَتَأَيَّيْتُ فَلا زِلْ
أَكْ إِنْسَانَا عَفِيفَا
سَتْ لَقِيدَنِيكَ حَلِيفَا

فأجابها :

مَا تَأَيَّيْتُ لَأَنِّي كُنْتُ لِلظُّبْيِ عَيُوفَا^(١)
غَيْرَ أَنِّي خِفْتُ رِيَا
كَانَ بِي بَرًّا لَطِيفَا

فذاع الشعر وبلغت القصّة الوالي فدعا به فزوجه إياها ودفعها إليه .

وذكر أن رجلاً أحب امرأةً وأحبته ، فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال : إن أجلي ليس بيدي ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجل قد دنا فلتقى الله عاصيين ، فقالت : صدقت ، فتابا وحسنت حالهما وتزوجت به .

وذكر بكر بن عبد الله المزني أن قصاباً ولعَ بجارية لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلها إلى حاجة في قرية أخرى ، فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل ، لأنا أشدُّ حبّاً لك مني ، ولكنّي أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ؟ فرجع تائباً ، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه ، فإذا هو برسولٍ لبني إسرائيل ، فسأله فقال : ما لك ؟ قال : العطش ، فقال : تعالَ حتى ندعو الله حتى تظلّنا سحابة حتى ندخل القرية ، قال : ما لي من عمل فأدعوه ، قال : فأنا أدعوه وأمّن أنت ، فدعا وأمّن الرجل ، فأظلتها سحابة حتى انتهيا إلى القرية ، فذهب القصاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه ، فرجع إليه الرسولُ فقال : زعمت أن ليس لك عملٌ وأنا الذي دعوت وأنت أمنت ، فأظلتنا سحابة ثم تبعتك ، ولتُخبرنّي ما أمرك ، فأخبره ، فقال الرسول : إن التائب إلى الله بمكانٍ ليس أحدٌ من الناس بمكانه .

وقال يحيى بن أيوب : كان بالمدينة فتى يُعجب عمر بن الخطاب رضي الله عنه شأنه ، فانصرف ليلةً من صلاة العشاء فتمثلت^(٢) له امرأةٌ بين يديه . فعرضت^(٣) له بنفسها

(١) عيوفاً : كارهأ ، وعاف الشيء : تركه وزهد فيه .

(٢) تمثلت له : عرضت له بنفسها وظهرت له .

(٣) عرضت له بنفسها : تصدّت له وأغرته بها .

فَقَتِنَ بِهَا وَمَضَتْ، فَاتَّبَعَهَا حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَابِهَا فَأَبْصَرَ وَجْهَ لَهَا عَنْ قَلْبِهِ وَحَضَرَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فخرَّ مغشياً عليه، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميت، فلم تنزل هي وجارية لها يتعاونان عليه حتى ألقياه على باب داره، فخرج أبوه فرآه مُلقًى على باب الدار لما به فحمله وأدخله فأفاق، فسأله ما أصابك يا بني؟ فلم يزل به حتى أخبره، فلما تلا الآية شهق شهقة فخرجت نفسه، فبلغ عمر رضي الله عنه قصته فقال: ألا أذنتموني بموته؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى: يا فلان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦] فسمع صوتاً من داخل القبر: قد أعطاني ربي يا عمر.

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر رضي الله عنه على وجه آخر قال: كان شاباً على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ملازماً للمسجد والعبادة، فهوَّيته جارية فحدثت نفسه بها، ثم إنه تذكر وأبصر فشوق شهقة فغشي عليه منها، فجاء عمُّ له فحمله إلى بيته، فلما أفاق قال: يا عم انطلق إلى عمر فأقرئه مني السلام وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ فأخبر عمر فأثابه وقد مات فقال: لك جنتان.

وفي جامع الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ ذُو الْكِفْلِ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتْرَيْنِ دِينَاراً عَلَى أَنْ يَطَّأَهَا، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أَزْعَدَتْ وَبَكَتْ، فَقَالَ مَا يُبْكِيكَ؟ أَكْرَهْتُكَ؟ قَالَتْ: لَا وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ وَإِنَّمَا حَمَلْتَنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ، قَالَ: فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَأَنْتِ لَمْ تَفْعَلِيهِ [قَطُّ]؟ ثُمَّ قَالَ: اذْهَبِي وَالذَّانِبُ لَكَ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَعْصِي اللَّهُ ذُو الْكِفْلِ أَبَداً، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأُصْبِحَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِهِ: قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِدِي الْكِفْلِ»^(١). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهما: خطب رسول الله ﷺ قبل وفاته فقال في خطبته: «وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى امْرَأَةٍ أَوْ جَارِيَةٍ حَرَاماً فَتَرَكَهَا مَخَافَةَ اللَّهِ أَمَّنَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ وَحَرَّمَهُ عَلَى النَّارِ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»^(٢).

وقال مالك بن دينار: جنات النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن فيها جوارٍ خلِقْنَ من ورد الجنة، يسكنها الذين هموا بالمعاصي فلما ذكروا الله عز وجل راقبوه، فانشئت رقابهم من خشية الله عز وجل.

(١) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٤٨، وأحمد في المسند (٢٣/٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤٠٤/٢).

قال ميمون بن مهران: الذِّكْرُ ذَكَرَان: فذكر الله عزَّ وجلَّ باللسان حسن، وأفضل منه أن تذكر الله عزَّ وجلَّ عندما تُشرف على معاصيه.

وقال قتادة رضي الله عنه: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُول: «لَا يَقْدِرُ رَجُلٌ عَلَى حَرَامٍ ثُمَّ يَدْعُهُ لَيْسَ بِهِ إِلَّا مَخَافَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَبْدَلَهُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ».

وقال عبيد بن عُمَيْر: صدقُ الإيمانِ وبرُّهُ أن يخلو الرجلُ بالمرأةَ الحسناءَ فيدعها لا يدعها إلا لله عزَّ وجلَّ.

وقال أبو عمران الجَوْنِي: كان رجلٌ من بني إسرائيل لا يمتنع من شيء، فجهَدَ^(١) أهل بيتٍ من بني إسرائيل فأرسلوا إليه جارية منهم تسأله شيئاً فقال: لا أو تمكيني من نفسك، فخرجت فجهدوا جهداً شديداً فرجعت إليه فقالت: أعطنا فقال: لا أو تمكيني من نفسك، فرجعت، فجهدوا جهداً كثيراً فأرسلوها إليه فقال لها ذلك، فقالت: دونك، فلما خلا بها جعلت تنتفض كما تنتفض السَّعْفَةُ، قال لها: ما لك؟ قالت: إني أخاف الله ربَّ العالمين، هذا شيءٌ لم أصنعه قط، قال: أنتِ تخافين الله ولم تصنعيه وأفعله؟ أعاهد الله أني لا أرجع إلى شيء مما كنت فيه، فأوحى الله إلى نبيٍّ من أنبيائهم أن فلاناً أصبح في كتب أهل الجنة.

وذكر أن شاباً في بني إسرائيل لم يكن فيهم شابٌ أحسن منه كان يبيع المَكَاتِلَ فبينما هو ذاتَ يوم يطوف بمَكَاتِلِهِ إذ خرجت امرأةٌ من دار ملكٍ من ملوك بني إسرائيل، فلما رأيته رجعت مبادرةً فقالت لابنة الملك: إني رأيت شاباً بالباب يبيع المَكَاتِلَ لم أر شاباً قط أحسن منه، قالت: أدخله، فخرجت فقالت: ادخل فدخل، فأغلقت الباب دونه، ثم قالت: ادخل فدخل، فأغلقت باباً آخر دونه، ثم استقبلته بنتُ الملك كاشفةً عن وجهها ونحرها، فقال لها: استتري عافاك الله، فقالت: إنا لم ندعك لهذا، إنما دعوناك لكذا وراودته عن نفسه، فقال لها: اتقي الله، قالت: إنك إن لم تطاوعني على ما أريد أخبرتك الملك أنك إنما دخلت تكابريني^(٢) على نفسي، قال لها: فضعي لي وضوءاً، فقالت: أعلِّي تتعلل؟ يا جارية ضعي له وضوءاً فوق الجَوْسَقِ^(٣) مكاناً لا يستطيع أن يفر منه، فلما صار في الجَوْسَقِ قال: اللهم إني دُعيتُ إلى معصيتك وإني أختار أن ألقى نفسي من هذا الجَوْسَقِ ولا أركب معصيتك، ثم قال: بسم الله وألقى نفسه من أعلاه، فأهبط الله ملكاً

(١) جهد أهل البيت: أجذبوا، وجهد العيش: ضاق واشتد.

(٢) تكابريني على نفسي: تراودني عن نفسي.

(٣) الجوسق: القصر أو الحصن.

أَخَذَ بِضَبْعَيْهِ^(١) فَوَقَعَ قَائِمًا عَلَى رِجْلَيْهِ، فَلَمَّا صَارَ فِي الْأَرْضِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ رَزَقْتَنِي رِزْقًا يَغْنِينِي عَنْ بَيْعِ هَذِهِ أَنْمَكَاتِلَ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَجُلًا^(٢) مِنْ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فَأَخَذَ مِنْهُ حَتَّى مَلَأَ ثَوْبَهُ، فَلَمَّا صَارَ فِي ثَوْبِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا رِزْقًا رَزَقْتَنِيهِ مِنَ الدُّنْيَا فَبَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كَانَ يَنْقُصُنِي مِمَّا لِي عِنْدَكَ فِي الْآخِرَةِ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، فَنُودِيَ إِنْ هَذَا الَّذِي أَعْطَيْنَاكَ جِزْءًا مِنْ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ جِزْءًا لَصَبْرِكَ عَلَى الْفَائِثِ نَفْسَكَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيْمَا يَنْقُصُنِي مِمَّا لِي عِنْدَكَ فِي الْآخِرَةِ، فَرُجِعَ الْجَرَادُ.

وَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَعْضِ الْمِيَاسِيرِ^(٣) قَالَ: بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَنْزِلِي إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ خَادِمٌ لِي فَقَالَ لِي: رَجُلٌ بِالْبَابِ مَعَهُ كِتَابٌ، فَقُلْتُ: أَدْخِلْهُ أَوْ خُذْ كِتَابَهُ، فَأَخَذَ الْكِتَابَ مِنْهُ فَإِذَا فِيهِ:

تَجَنَّبَكَ الرَّدَى وَلَقِيتَ خَيْرًا	وَسَلَّمَكَ الْمَلِيكَ مِنَ الْغَمُومِ
شَكُونَ بَنَاتِ أَحْشَائِي إِلَيْكُمْ	وَمَا إِنْ تَشْتَكِينَ إِلَى ظُلُومِ
وَسَأَلْتَنِي الْكِتَابَ إِلَيْكَ فِيمَا	يَخَامُرُهَا - فَدْتُكَ - مِنَ الْهَمُومِ
وَهَنَ يَقْلُنَ يَا ابْنَ الْجُودِ إِنَّا	بَرَمْنَا مِنْ مَرَاعَاةِ النُّجُومِ
وَعِنْدَكَ لَوْ مَنَنْتَ شِفَاءً سَقِيمٍ	لَأَعْضَاءٍ دَمِينٍ مِنَ الْكُلُومِ

قَالَ: فَلَمَّا قَرَأْتُ الْأَبْيَاتَ قُلْتُ: عَاشِقٌ، فَقُلْتُ لِلْخَادِمِ: أَدْخِلْهُ، فَخَرَجَ فَلَمْ يَرَهُ فَارْتَبْتُ فِي أَمْرِهِ، فَجَعَلْتُ الْفِكْرَ يَتَرَدَّدُ فِي قَلْبِي، فَدَعَوْتُ جَوَارِيَّ كُلَّهُنَّ فَجَمَعْتَهُنَّ فَقُلْتُ لَهُنَّ: مَا قِصَّةُ هَذَا الْكِتَابِ؟ فَحَلَفْنَ لِي وَقُلْنَ: يَا سَيِّدَنَا مَا نَعْرِفُ لِهَذَا الْكِتَابِ سَبِيًّا، فَمَنْ جَاءَكَ بِهِ؟ فَقُلْتُ: قَدْ فَاتَنِي وَمَا أَرَدْتُ سَوْالِكُنَّ إِلَّا إِنِّي ظَنَنْتُ لَهُ هَوًى فِي بَعْضِكُنَّ، فَمَنْ عَرَفَتْ مِنْكُنَّ أَنَّهَا صَاحِبَتُهُ فَهِيَ لَهُ، فَلْتَذْهَبْ إِلَيْهِ وَلْتَأْخُذْ كِتَابِي إِلَيْهِ، وَكُتِبَتْ كِتَابًا أَشْكُرُهُ عَلَى فِعْلِهِ وَأَسْأَلُهُ عَنْ حَالِهِ، وَوَضَعْتُ الْكِتَابَ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الدَّارِ، فَمَكَثَ الْكِتَابُ فِي مَوْضِعِهِ حِينًا لَا يَأْخُذُهُ أَحَدٌ وَلَا أَرَى الرَّجُلَ، فَاعْتَمَمْتُ غَمًّا شَدِيدًا. ثُمَّ قُلْتُ: لَعَلَّهُ بَعْضُ فَتَيَانِنَا، ثُمَّ قُلْتُ: إِنْ هَذَا الْفَتَى قَدْ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِالْوَرَعِ، وَقَدْ قَنَعَ مِمَّنْ يَحِبُّهُ بِالنَّظَرِ، فَدَبَّرْتُ عَلَيْهِ فَحَجَبْتُ جَوَارِيَّ عَنِ الْخُرُوجِ، فَمَا كَانَ يَوْمٌ وَبَعْضُ الْآخِرِ إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ الْخَادِمُ وَمَعَهُ كِتَابٌ قَالَ: أَرْسَلَ بِهِ إِلَيْكَ فُلَانٌ، وَذَكَرَ بَعْضُ أَصْدِقَائِي فَفَضَضْتُهُ فَإِذَا فِيهِ مَكْتُوبٌ:

مَآذَا أَرَدْتَ إِلَيَّ رُوحَ مَعْلُوقَةٍ عِنْدَ التَّرَاقِي^(٤) وَحَادِي الْمَوْتِ يَحْذُوهَا

(١) الضبع: ما بين الإبط إلى الكتف.

(٢) جمع ميسور: ذو اليسار والغنى.

(٣) جمع ترقوة: عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق. وعند التراقي كناية عن مشاركة الموت.

حَثَّتُ حَادِيَهَا ظَلَمًا فَجَدَّ بِهَا
 حَجَبَتْ مَنْ كَانَ تَحِيَا عِنْدَ رُؤَيْتِهَا
 فَالْنَفْسُ تَجَنَّحُ نَحْوَ الظُّلَمِ جَاهِلَةً
 وَاللَّهُ لَوْ قِيلَ لِي تَأْتِي بِفَاحِشَةٍ
 لَقُلْتُ لَا وَالَّذِي أَخْشَى عَقُوبَتَهُ
 لَوْلَا الْحَيَاءُ لَبُخْنَا بِالَّذِي كَتَمْتُ
 فِي السَّيْرِ حَتَّى تَوَلَّتْ عَنْ تَرَاقِيهَا
 رُوحِي وَمَنْ كَانَ يَشْفِينِي تَرَائِيهَا
 وَالْقَلْبُ مِنِّي سَلِيمٌ مَا يُوَاثِيهَا
 وَإِنْ عَقَبَاكَ دُنْيَانَا وَمَا فِيهَا
 وَلَا بِأَضْعَافِهَا مَا كُنْتُ آتِيهَا
 بِنْتُ الْفَوَّادِ وَأَبْدِينَا تَمَنِّيَهَا

قال: فهتّ وقلت: لا أدري ما أحتال في أمر هذا الرجل، وقلت للخادم: لا يأتيك أحدٌ بكتابٍ إلا قبضت عليه حتى تدخله عليّ، ثم لم أعرف له خبراً بعد ذلك، فبينما أنا أطوف بالكعبة إذا فتى قد أقبل نحوي وجعل يطوف إلى جنبي ويلاحظني، وقد صار مثل العود، فلما قضيت طوافي خرجت وأتبعني فقال: يا هذا أتعرفني؟ قلت: لا أنكرك لسوء، قال: أنا صاحب الكتابين، فما تمالك أن قبلت رأسه وبين عينيه وقلت: بأبي أنت وأمي، والله لقد شغلت قلبي وأطلت غمّي بشدة كتمانك لأمرك، فهل لك فيما سألت وطلبت؟ قال: بارك الله لك وأقرّ عينيك، إنما أتيتك أستحلك^(١) من نظرة كنت نظرتها على غير حكم الكتاب والسنة، والهوى داع إلى كل بلاء، وأستغفر الله العظيم، فقلت: يا حبيبي أحب أن تصير معي إلى منزلي فأنس بك وتجرّي الحُرمة بيني وبينك، قال: ليس إلى ذلك سبيل، فقلت: غفر الله لك ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار، ولك في كل سنة كذا وكذا، قال: بارك الله فيها، فلولا عهدود عاهدت الله عليها وأشياء أكدتها عليّ لم يكن في الدنيا شيء أحب إليّ من هذا الذي تعرّضه عليّ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل والدنيا منقطعة، فقلت له: فإذا أبيت أن تقبل مني ذلك فأخبرني من هي حتى أكرمها لأجلك ما بقيت، فقال: ما كنت لأذكرها لأحدٍ، ثم قام وتركني.

وذكر عبد الملك بن قُريب قال: هَوِيَ رجلٌ من النساءِ جاريةً فاشتدَّ حُبُّه لها، فبعث إليها يخطبها. فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك، فأبى وقال: لا إلّا ما أحلّ الله، ثم إن محبته أُلقيت في قلبها فبذلت له ما سأل، فقال: لا والله لا حاجة لي بمن دعوتها إلى الله ودعنتي إلى معصيته.

وحكى المبرّد عن شيخه أبي عثمان المازني أنه قصده بعضُ أهل الذمة ليقراً عليه «كتاب سيبويه» وبذل له مائة دينار، فامتنع وردّه، فقلت له: أترُدُّ هذا القدر مع شدة فافتك؟ فقال إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله، ولست

(١) استحلّه: سأله أن يحله له.

أرى تمكين هذا الذمي منها غيرة على القرآن. فاتفق أن غتت جارية بحضرة الواصل بقول العرجي:

أظلموم إن مصابكم رجلاً أهدي السلام تحية ظلم؟
فاختلف أهل مجلسه في إعراب رجل، فمنهم من قال: هو نصب وجعله اسم إن، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية أصرت على النصب وقالت: لقنني إياه كذلك شيخ أبي عثمان المازني، فأمر الواصل بإحضاره إلى بين يديه، قال: فلماً مثلت بين يديه قال: ممن الرجل؟ قلت: من بني مازن، قال: أي الموازن؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة؟ قلت: من مازن ربيعة، فكلمني بكلام قومي فقال لي: يا اسمك؟ وقومي يقلبون الميم باء والباء ميمًا، فكرهت أن أواجهه بلفظة مكر فقلت: بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما قصدته وأعجب به فقال: ما تقول في قول الشاعر:

أظلموم إن مصابكم رجلاً أهدي السلام تحية ظلم؟
أترفع رجلاً أم تنصبه؟ فقلت: الوجه النصب يا أمير المؤمنين، فقال: ولم ذلك؟ فقلت: لأن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم، فأخذ اليزيدي في معارضي، فقلت: هو بمنزلة قولك: إن ضربك زيداً ظلم، فرجلاً مفعول مصابكم ومنصوب به، والدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن تقول ظلم فيتم، فاستحسنه الواصل وقال: هل لك من ولد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين بنية، قال: فما قالت لك عند مسيرك إلينا؟ قلت: أنشدت قول الأعشى:

أيا أبتلا لا ترم^(١) عندنا فإنا بخير إذا لم ترم
ترانا إذا أضمرت^(٢)ك البلا د نجف وتقطع منا الرحم
قال: فما قلت لها؟ قال: قلت قول جرير:

ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح
فقال: علي النجاح إن شاء الله، ثم أمر لي بألف دينار، وردني إلى البصرة مكرماً، فقال أبو العباس المبرد: فلما عاد إلى البصرة قال لي: كيف رأيت يا أبا العباس؟ ردنا الله مائة دينار فعوضنا الله ألفاً.

(١) رام مكانه: برحه وفارقه.

(٢) أضمرت البلاد: غيبته إما بسفر أو بموت.

فيمن أثر عاجل العقوبة والآلام، على لذة الوصال الحرام

هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلان: أحدهما مَنْ تمكّن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه، فأثر أدنى القوّتين، واختار أسهلّ العقوبتين. والثاني رجلٌ غلب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفساد، وما في العُدول عنها من المصالح، فأثر الأعلى على الأدنى، وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسفَ الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة: ﴿وَلَيْسَ لَكَ بِهَذَا حَقٌّ وَلَا تُؤَمِّرُهُنَّ لِأَسْجِنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. قال ربّ السّجن أحبُّ إليّ ممّا يذعوني إليه وإلاّ تصرّف عني كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكنّ من الجاهليّن﴾ [يوسف: ٣٢، ٣٣] فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوّته، وأخبر أن ذلك ليس إلاّ بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال: ﴿وإلاّ تصرّف عني كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكنّ من الجاهليّن﴾ فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلّت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان. وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] ولهذا كان من دعائه: «يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١)، وكانت أكثر يمينه «لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ»^(٢) كيف وهو الذي أنزل عليه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقد جرت سنّة الله تعالى في خلقه أن من أثر الألم العاجل عل الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدنيا المسرّة التامّة، وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالى لا يضيع ما تحمّل عبده لأجله.

(١) أخرجه الترمذي في القدر باب ٧. وابن ماجه في المقدمة باب ١٣. وأحمد في المسند (٢/٤، ٨، ٣/١١٢، ٢٥٧، ٤/١٨٢، ٦/٤٥١، ٢٩٤، ٣٠٢، ٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣، والقدر باب ١٤، والتوحيد باب ١١. والترمذي في النذور باب ١٣. والنسائي في الإيمان باب ٢٠١. وابن ماجه في الكفارات باب ١. والدارمي في النذور باب ١. ومالك في النذور حديث ١٥.

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله سبحانه وتعالى: بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي. وكل من خرج عن شيء منه الله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجل منه، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم الله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوضهم عن أبدانهم التي بذلوها له أبدان طير خضر جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت. وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش^(١)، ولما تركوا مساكنهم له عوضهم مساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم.

وقال وهب بن منبه: كان عابد من عبّاد بني إسرائيل يتعبّد في صومعة، فجاء رجل من بني إسرائيل إلى امرأة بغية فبذل لها مالاً وقال: لعلك أن تقنتيه، فجاءته في ليلة مطيرة فنادته فأشرف عليها، فقالت: آوني إليك، فتركها وأقبل على صلاته، فقالت: يا عبد الله آوني إليك، أما ترى الظلمة والمطر؟ فلم تنزل به حتى آواها، فاضطجعت قريباً منه فجعلت تريه محاسنها حتى دعت نفسه إليها، فقال: لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار، فتقدّم إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه حتى احترقت، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه إليها، فعاود المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعاً وهي تنظر، فصعقت وماتت.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا إبراهيم بن خالد، حدّثنا أمية بن شبل، عن عبد الله بن وهب قال: لا أعلمه إلا ذكره عن أبيه أن عابداً من بني إسرائيل كان في صومعته يتعبّد، فإذا نفر من الغواة قالوا: لو استنزلناه بشيء فذهبوا إلى امرأة بغية فقالوا لها: تعرّضي له، فجاءته في ليلة مظلمة مطيرة فقالت: يا عبد الله آوني إليك، وهو قائم يصلي ومصباحه ثاقب^(٢)، فلم يلتفت إليها، فقالت: يا عبد الله الظلمة والغيث^(٣)، آوني إليك، فلم تنزل به حتى أدخلها إليه فاضطجعت وهو قائم يصلي، فجعلت تتقلب وتريه محاسن خلقها حتى دعت نفسه إليها. فقال: لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار، فدنا إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه فيه حتى احترقت، قال: ثم رجع إلى مصلّاه، قال: فدعته نفسه أيضاً، فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه أيضاً حتى احترقت أصابعه وهي تنظر إليه فصعقت فماتت. فلما أصبحوا غدّوا لينظروا ما صنعت، فإذا بها ميتة، فقالوا: يا عدوّ الله

(١) أخرجه مسلم في الإمامة حديث ١٢١. وأبو داود في الجهاد باب ٢٥. والترمذي في تفسير سورة ٣ باب ١٩. وابن ماجه في الجهاد باب ١٦. وأحمد في المسند (٢٦٦/١).

(٢) ثاقب: مضىء.

(٣) الغيث: المطر.

يا مُراثي! وقعت عليها^(١) ثم قتلتها، قال: فذهبوا به إلى ملكهم فشهدوا عليه، فأمر بقتله، فقال: دعوني حتى أصلي ركعتين، قال: فصلى ثم دعا فقال: أي رب إني أعلم أنك لم تكن لتؤاخذني بما لم أفعل، ولكن أسألك أن لا أكون عاراً على القرى بعدي، قال: فردَّ الله نفسه فقالت: انظروا إلى يده، ثم عادت ميتة.

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن منصور عن إبراهيم قال: بينما رجلٌ عابِدٌ عند امرأةٍ إذ عمَد فضرب بيده على فخِذها، فأخذ يده فوضعها في النار حتى نَشَتْ^(٢).

وقال حُصَيْن بن عبد الرحمن: بلغني أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلها مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر يتفقده إذا غاب، فعشقه امرأةٌ من أهل المدينة، فذكرت ذلك لبعض نساءها، فقالت: أنا أحتال لك في إدخاله عليك، فقعدت له في الطريق، فلما مرَّ بها قالت له: إني امرأةٌ كبيرة السن ولي شاةٌ لا أستطيع أن أحلبها، فلو دخلت فحلبتها لي، وكانوا أرغب شيء في الخير، فدخل فلم يرَ شاةً، فقالت: اجلس حتى آتيك بها، فإذا المرأة قد طلعت عليه، فلما رأى ذلك عمَد إلى محراب في البيت فقعد فيه فأرادته^(٣) عن نفسه فأبى وقال: اتقي الله أيتها المرأة، فجعلت لا تكف عنه ولا تلتفت إلى قوله، فلما أبى عليها صاحت عليه فجاءوا فقالت: إن هذا دخل عليّ يريدني عن نفسي، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه، فلما صلى عمرُ الغداة فقده، فبينما هو كذلك إذ جاءوا به في وثاق، فلما رآه عمر قال: اللهم لا تُخلف ظني به، قال: ما لكم؟ قالوا: استغاثت امرأةٌ بالليل فجننا فوجدنا هذا الغلام عندها فضرَبناه وأوثقناه، فقال عمر رضي الله عنه: اصدُقني، فأخبره بالقصة على وجهها، فقال له عمر رضي الله عنه: أتعرف العجوز؟ فقال: نعم إن رأيتها عرفتها، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهنَّ فجاء بهنَّ فعرضهنَّ، فلم يعرفها فيهنَّ، حتى مرت به العجوز فقال: هذه يا أمير المؤمنين، فرفع عمر عليها الدرة وقال: اصدُقيني، فقصت عليه القصة كما قصها الفتى. فقال عمر: الحمد لله الذي جعل فينا شبيهة يوسف.

وقال أبو الزناد: كان راهبٌ يتعبَّد في صومعته فأشرف^(٤) منها فرأى امرأةً ففتن بها، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها، فنزلت عليه العصمة فقال: رجلٌ خرجت من

(١) وقعت عليها: جامعتها.

(٢) نشت: احترقت. ونش اللحم: سمع له صوت على المقلَى أو في القدر.

(٣) أرادته عن نفسه: راودته عن نفسه.

(٤) أشرف: اطلع.

الصومعة لتعصي الله والله لا تعود معي في صومعتي فتركها معلقة خارج الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت، فشكر الله ذلك من صنعه، ومدحه في بعض كتبه بذی الرجل.

وقال مُضْعَب بن عثمان: كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة بيتّه، فسألته نفسه فامتنع عليها، فقالت: إذن أفضحك، فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه.

وقال جابر بن نوح: كنت بالمدينة جالساً عند رجل في حاجة، فمر بنا شيخٌ حسن الوجه حسن الثياب، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وقال: يا أبا محمد أسأل الله أن يعظم أجرك، وأن يربط على قلبك بالصبر، فقال الشيخ:

وكان يميني في الوغى^(١) ومساعدتي فأصبحْتُ قد خانت يميني ذراعها وقد صرْتُ حيراناً من الثُّكلِ باهتاً أخا كَلَفٍ ضاقت عليّ رباعها^(٢)

فقال له الرجل: أبشر فإن الصبر مُعَوِّلُ المؤمن، وإنني لأرجو أن لا يَحْرِمَكَ الله الأجرَ على مصيبتك، فقلت له: من هذا الشيخ؟ فقال: رجلٌ منا من الأنصار، فقلت: وما قصته؟ قال: أصيب بابنه وكان به باراً قد كفاه جميع ما يعنيه، ومِيتُهُ عَجَبٌ، قلت: وما كانت؟ قال: أحبته امرأةٌ فأرسلت إليه تشكو حبه وتساله الزيارة، وكان لها زوج فألحيت عليه، فأفشى ذلك إلى صديق له، فقال له: لو بعثت إليها بعضَ أهلِكَ فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكفَّ عنك، فأمسك، وأرسلت إليه إما أن تزورني وإما أن أزورك فأبى، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأةٍ كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب^(٣) في تهيينه، فعملت لها في ذلك، فبينما هو ذات ليلةٍ مع أبيه إذ خطر ذكرُها بقلبه وهاج منه أمرٌ لم يكن يعرفه واختلط^(٤)، فقام مسرعاً فصلى واستعاذ والأمر يشتد، فقال: يا أبه أدركني بقيد، فقال: يا بني ما قصتك؟ فحدثه بالقصة، فقام وقيده وأدخله بيتاً، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ فإذا هو ميتٌ والدم يسيل من منخره.

فصل: وهذا ليس بعجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب. قال أبو إدريس الأودي: كان رجلاً في بني إسرائيل عابداً، وكانت جاريةً جميلةً فأحبها وكنتم كلُّ

(١) الوغى: الجلبة والحرب لما فيها من الصوت والجلبة.

(٢) الكلف: حمرة كدرة تعلو الوجه، والبهق، والأمر يحتمل على مشقة وعسر. والرباع: المنازل والديار والأحياء.

(٣) الرغائب جمع رغبة: العطاء الكثير.

(٤) اختلط عقله: فسد.

منهما صاحبه، واختبأ كلُّ منهما خلف شجرة ينظر إليها، وقد أطلع^(١) كلُّ منهما سرّه إلى صاحبه، فاتفقا على أن يراودها، فلما قرُبَت منهما قالا لها: قد عرفت منزلتنا في بني إسرائيل، وإنك إن لم تؤاتينا وإلاّ قلنا إذا أصبحنا: إنا أصبنا معك رجلاً، وإنه أفلتنا، وإنا أخذناك، فقالت: ما كنت لأطيعكما في معصية الله، فأخذها وقالوا: إنا أصبنا معها رجلاً فأفلتنا، وأقبل نبيٌّ من أنبيائهم فوضعوا لها كرسيّاً فجلس عليه وقال: أفضي بينكم؟ فقالوا: نعم اقض بيننا، ففرّق بين الرجلين وقال لأحدهما: خلف أي شجرة رأيتها؟ قال: شجرة كذا وكذا، وقال للآخر، فقال: شجرة كذا وكذا غير التي ذكر صاحبه، فنزلت نارٌ من السماء فأحرقتهما وأفلت المرأة.

وقال عبد الله بن المبارك: عشق هارون الرشيد جاريةً من جواريه فأرادها فقالت: إن أباك مسني، فشغف بها وقال فيها:

أرى ماءً وبى عطشٌ شديدٌ ولكن لا سبيلَ إلى الورود^(٢)
أما يكفيك أنك تملكيني وأن الناس عندي كالعبيد^(٣)
وأنت لو قطعت يدي ورجلي لقلت من الرضا أحسنت زيدي

فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال: أو كلما قالت جاريةً شيئاً تصدّق؟ قال ابن المبارك: فلا أدري ممن أعجب، من هارون الرشيد حيث رغب فيها، أو منها حيث رغب عنه، أو من أبي يوسف حيث سوّغ^(٤) له إتيانها.

وقال أبو عثمان التيمي: مرّ رجلٌ براهبةٍ من أجمل النساء فافتتن بها، فتلطّف في الصعود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت: لا تغتر بما ترى وليس وراءه شيءٌ، فأبى حتى غلبها على نفسها وكان إلى جانبها مَجْمرةٌ فوضعت يدها فيها حتى احترقت، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قالت: إنك لما قهرتني على نفسي خِفْتُ أن أشاركك في اللذة فأشاركك في المعصية ففعلت ما رأيت، فقال الرجل: والله لا أعصي الله أبداً وتاب مما كان عليه.

وذكر الحسين بن محمد الدامغاني أن بعض الملوك خرج يتصيد وانفرد عن أصحابه، فمر بقريّة فرأى امرأة جميلة فراودها عن نفسها، فقالت: إني غير طاهر فأتطهر

(١) أطلعه عليه: أظهره عليه.

(٢) إلى الورود: إلى بلوغه والدنو منه.

(٣) انظر صفحة ١٣٥ وفيها نسب هذا البيت إلى ملك مجهول.

(٤) سوّغ له: جوزه.

وَأَتَيْكَ، فدخلت بيتها وخرجت إليه بكتابٍ فقالت: انظر في هذا حتى آتيك، فنظر فيه فإذا ما أعدَّ الله للزاني من العقوبة فتركها وذهب، فلما جاء زوجها أخبرته الخبر، فكره أن يقربها مخافة أن يكون للملك فيها حاجةٌ فاعتزلها، فاستعدى^(١) عليه أهلُ الزوجة إلى الملك وقالوا إن لنا أرضاً في يد الرجل فلا هو يعمُرُها ولا هو يردها علينا وقد عطَّلها، فقال الملك: ما تقول؟ فقال إنني رأيتُ في هذه الأرض أسداً وأنا أتخوِّف دخولها منه، ففهم الملك القصة فقال: اعْمُرْ أرضك فإن الأسد لا يدخلها، ونعم الأرض أرضك.

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت في نفس رجلٍ مُوسِرٍ وكانت جميلة وكانت تُحْطَبُ فتأبى، فبلغ الرَّجُلُ أنها تريد الحجَّ، فاشتري ثلاثمائة بعيرٍ ونادى: من أراد الحج فليَكْتَرِ من فلانٍ، فاكترت منه المرأة، فما كان في بعض الطريق جاءها فقال: إمّا أن تزوجيني نفسك، وإمّا غير ذلك، فقالت: ويحك اتّي الله! فقال: ما هو إلّا ما تسمعين، والله ما أنا بجَمّالٍ ولا خرجت إلّا من أجلك، فلما خافت على نفسها قالت: ويحك انظر أبقي في الرجال عينٌ لم تتم؟ فقال: لا. ناموا كلّهم، قالت: أفنامت عين ربّ العالمين؟ ثم شهقت شهقةً خرّت ميتة، وخرَّ الرجلُ مَغْشِيّاً عليه، فلما أفاق قال: ويحي قتلت نفساً ولم أبلغ شهوتي.

وقال وهب بن مُنبّه: كان في بني إسرائيل رجلٌ متعبّدٌ شديدُ الاجتهاد فرأى يوماً امرأةً فوقعت في نفسه بأوّل نظرة، فقام مسرعاً حتى لحقها فقال: رويدك يا هذه، فوفقت وعرفته فقالت: ما حاجتك؟ قال: أذاثُ زوج أنت؟ قالت: نعم فما تريد؟ قال: لو كان غير هذا لكان لنا رأي، قالت: على ذلك وما هو؟ قال: عرض بقلبي من أمرك عارض^(٢)، قالت: وما يمنعك من إنفاذه؟ قال: وتتابعيني على ذلك؟ قالت: نعم، فخلت به في موضعٍ فلما رآته مُجِداً في الذي سأل قالت: رويدك يا مسكين لا يسقط جاهك عنده، فانتبه لها وذهب عنه ما كان يجد فقال: لا حَرَمَ الله ثوابَ فعلك. ثم تنحّى ناحية فقال لنفسه: اختاري إمّا عمى العين، وإمّا الجُبَّ^(٣)، وإمّا السياحة مع الوحش، فاختارت السياحة مع الوحش، فكان كذلك إلى أن مات.

وأحبَّ رجل جاريةً من العرب وكانت ذاتَ عقلٍ وأدبٍ، فما زال يحتال في أمرها حتى اجتمع معها في ليلةٍ مظلمةٍ شديدة السواد، فحادثها ساعةً ثم دعتة نفسه إليها فقال يا هذه قد طال شوقي إليك، قالت: وأنا كذلك، فقال: هذا الليل قد ذهب والصبح قد

(١) استعداه: استعاناه واستنصره.

(٢) عرض بقلبي عارض: أي خطر لي خاطر.

(٣) الجب: القطع، والمجبوب الذي استوصلت مذاكيره.

اقترب، قالت: هكذا تَفْنَى الشهوات وتنقطع اللَّذَّات فقال لها: لو دنوت مني. فقالت: هيهات أخاف البعد من الله، قال: فما الذي دعاك إلى الحضور معي؟ قالت: شقوتي وبلائي، قال لها: فمتى أراك؟ قالت: ما أنساك وأما الاجتماع معك فما أراه يكون، ثم تولت. قال: فاستَحْيَيْتُ مما سمعت منها، وأنشد:

تَوَقَّتْ عَذَاباً لَا يَطَاقُ انتِقَامُهُ وَلَمْ تَأْتِ مَا تَخْشَى بِهِ أَنْ تُعَذِّبَا
وَقَالَتْ مَقَالاً كَدْتُ مِنْ شِدَّةِ الْحَيَا أَهْيَمَ عَلَى وَجْهِ حَيّاً وَتَعْجُبَا
أَلَا أَفَّ لِلْحَبِّ الَّذِي يَوْرُثُ الْعَمَى وَيُورِدُنَا نَاراً لَا تَمَلُّ التَّلْهُبَا
فَأَقْبَلَ عَوْدِي فَوْقَ بَدْئِي مَفْكَراً وَقَدْ زَالَ عَنِ قَلْبِي الْعَمَى فَتَسْرَبَا

وقال ابن خلف: أخبرني أبو بكر العامري قال: عشقت عاتكة المُرِّيَّة ابن عمِّ لها، فأرادها عن نفسها فامتنعت عليه وقالت:

فَمَا طَعُمُ مَاءٍ مِنْ سَحَابٍ مُرَوِّقٍ تَحَدَّرَ مِنْ غُرٍّ طَوَالِ الذَّوَائِبِ^(١)
بِمُنْعَرَجٍ^(٢) أَوْ بَطْنٍ وَاِدٍ تَطْلَعَتْ عَلَيْهِ رِيَاخُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
تَرَقَّرِقُ مَاءُ الْمُزْنِ^(٣) فِيهِنَّ وَالتَّقَتْ عَلَيْهِنَّ أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ الْغَرَائِبِ
نَفَثَ جَرِيَّةِ الْمَاءِ الْقَذَى عَنْ مَتُونِهِ^(٤) فَلَيْسَ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ لَشَارِبٍ
بِأَطْيَبَ مِمَّا يَقْصُرُ الطَّرْفُ دُونَهُ تُقَى اللَّهُ وَاسْتَحْيَاءُ تِلْكَ الْعَوَاقِبِ

(١) تحدر: تنزل. والذوائب جمع ذؤابة والذؤابة من كل شيء أعلاه، وشعر مقدم الرأس.

(٢) منعرج الوادي: منعطفه يمنة ويسرة.

(٣) جمع مزنة: السحاب يحمل الماء.

(٤) القذى: ما يقع بالعين والشراب من تبنه وغيرها. والتمن الظهر، ومن الأرض: ما ارتفع وصلب منها.

في ذم الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى

وقد تقدّم ذكر الآيات في ذلك وبعض ما ورد في السنة.

الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحث لها لما يريده، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً، ولا مدحه مطلقاً، كما أن الغضب لا يُذم مطلقاً ولا يُحمد مطلقاً، وإنما يُذم المفرط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار. ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حدّ المتنفع به أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر، لأنه يتندر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، كما أنه يتندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه، بل لا بدّ من غلبة أحد الأخلاط^(١) والكيفيات عليه، فحُرّض الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه، وهذا أمرٌ يتعذر وجوده إلا في حق أفرادٍ من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمّه، وكذلك في السنة لم يجيء إلا مذموماً إلا ما جاء مُقيداً كقوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»^(٢). وقد قيل: الهوى كمينٌ لا يؤمن. قال الشَّعْبِي: وسمي هوى لأنه يهوي بصاحبه، ومُطلَّقه يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكرٍ في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وأجلاً، فللدنيا عاقبةٌ قبل عاقبة الآخرة، والهوى يُعمي صاحبه من ملاحظتها، والمرؤءة والذَّيْن والعقل ينهى عن لذة تعقب ألماً، وشهوة تورث ندماً، فكلُّ منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعل، والطاعة لمن غلب، ألا ترى أن الطفل يُؤثر ما يهوى وإن أذاه إلى التلف لضعف ناهي

(١) أخلاط الإنسان: أمزجته الأربعة.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (٢١٣/١) والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٦٧) وابن أبي عاصم في السنة (١٢/١) والمتقي الهندي في كتر العمال (١٠٨٤) وابن حجر في فتح الباري (٢٨٩/١٣) والخطيب في تاريخ بغداد (٣٦٩/٤).

العقل عنده، ومن لا دين له يؤثر ما يهواه وإن أدّاه إلى هلاكه في الآخرة لضعف ناهي الدّين، ومن لا مُروءة له يؤثر ما يهواه وإن ثلّم^(١) مُروءته أو عدمها لضعف ناهي المُروءة، فأين هذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى: لو علمت أن الماء البارد يثلّم مُروءتي لما شربته.

ولمّا امتحن المكلّف بالهوى من بين سائر البهائم وكان كلّ وقتٍ تحدّث عليه حوادثٌ جعل فيه حاكمان: حاكم العقل وحاكم الدّين؛ وأمر أن يرفع حوادث الهوى دائماً إلى هذين الحاكمين وأن يتقاد لحكمهما، وينبغي أن يتمرّن على دفع الهوى المأمون العواقب لיתمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه. وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذّون بها. وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بُدّ لهم منه، ولهذا ترى مذمن الخمر والجماع لا يلتذّ به عُشرَ معاشر التذاذ من يفعله نادراً في الأحيان، غير أن العادة مقتضية ذلك فيُلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة، ولو زال عنه رزين^(٢) الهوى لعلم أنه قد شقيّ من حيث قدّر السعادة، واغتمّ من حيث ظن الفرح، وألم من حيث أراد اللذة. فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح، لا هو نال الحَبّة ولا هو تخلص مما وقع فيه، فإن قيل: فكيف يتخلص من هذا من وقع فيه؟ قيل: يمكنه التخلّص بعون الله وتوفيقه له بأمور:

(أحدها): عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها.

(الثاني): جرعة صبرٍ يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

(الثالث): قوّة نفس تشجّعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعة كأنها صبر ساعة،

وخير عيشٍ أدركه العبد بصبره.

(الرابع): ملاحظته حسنَ موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة.

(الخامس): ملاحظته الألم الزائد على لذّة طاعة هواه.

(السادس): إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده، وهو خيرٌ وأنفع له

من لذّة موافقة الهوى.

(السابع): إيثاره لذّة العفة وعزّتها وحلاوتها على لذّة المعصية.

(الثامن): فرحه بغلبة عدوّه وقهره له وردّه خاسئاً بغيظه وغمّه وهمّه حيث لم ينل

(١) ثلّم الجدار وغيره: أحدث فيه شقاً.

(٢) الرين: الغطاء والحجاب الكثيف، والصدأ يعلو الشيء الجلي، والدنس وما غطى على القلب من القسوة للذنب بعد الذنب.

منه أمنيته، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم^(١) عدوه ويغظه كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَطُورُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠] وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] أي مكاناً يراغم فيه أعداء الله. وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومُراغمتهم.

(التاسع): التفكر في أنه لم يُخلَق للهوى وإنما هُييءَ لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى كما قيل:

قَدْ هَيَّأُوكَ لَوْ فَطَنْتَ لَهُ فَارِباً بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَعَى مَعَ الْهَمَلِ^(٢)

(العاشر): أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار، والإنسان أُعطي العقل لهذا المعنى، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه أو عرف ذلك وأثر ما يضره كان حال الحيوان البهيم أحسن منه، ويدلُّ على ذلك أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمَشْرَب والمنكح ما لا يناله الإنسان مع عيش هنيء خالٍ عن الفكر والهم، ولهذا تُساقُ إلى مَنْحَرِها^(٣) وهي منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب، والآدمي لا يناله ما يناله الحيوان لقوة الفكر الشاغل، وضعف الآلة المستعملة وغير ذلك، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما يُخس منه حق الآدمي الذي هو خلاصة العالم، ووفر منه حظُّ البهائم، وفي توفير حظ الآدمي من العقل والعلم والمعرفة عَوْضٌ عن ذلك.

(الحادي عشر): أن يسير بقلبه في عواقب الهوى فيتأمل كم أفاتت معصيته^(٤) من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم من أكلةٍ منعت أكلات، وكم من لذةٍ فوتت لذات، وكم من شهوة كسرت جاهاً، ونكست رأساً، وقبّحت ذكراً، وأورثت ذمّاً، وأعقبت ذلاً، وألزمت عاراً لا يغسله الماء، غير أن عين صاحب الهوى عمياء.

(الثاني عشر): أن يتصور العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر^(٥) وما فاته وما حصل له.

(١) راغم فلاناً: هجره وعاداه.

(٢) في لامية العجم للطبراني: قد رشحوك.

(٣) المنحر: موضع النحر في الحلق، والمكان تذبح فيه الذبائح، والجمع منحر. الهمل: المتروك بلا عناية ولا رعاية.

(٤) لعل الصواب: كم أفاتت طاعته من فضيلة لأن الظاهر أن الضمير عائد على الهوى النخ.

(٥) الوطر: الحاجة. أو حاجة لك فيها هم وعناية. والجمع أوطار.

فأفضل الناس من لم يرتكب سيئاً حتى يميز لما تجني عواقبه
(الثالث عشر): أن يتصوّر ذلك في حق غيره حق التصوّر، ثم ينزل نفسه تلك
المنزلة، فحكم الشيء حكم نظيره.

(الرابع عشر): أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينه
يُخبرانه بأنه ليس بشيء. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا أعجب أحدكم امرأة
فليذكر مَنَاتِنَهَا، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين:

لو فكّر العاشقُ في منتهى حسنِ الذي يسييه^(١) لم يَسبه
لأن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر الحال الحاضرة الملازمة، والشاعر حال على
أمر متأخر.

(الخامس عشر): أن يأنفَ لنفسه من ذلّ طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحدٌ هواه قط
إلاً وجد في نفسه ذلّاً، ولا يغتر بصولة^(٢) أتباع الهوى وكبرهم فهم أذلّ الناس بواطن، قد
جمعوا بي فصيلتي الكبر والذلّ.

(السادس عشر): أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل اللذة
المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتّة، فليعلم أنه من أسفه الناس بيعه هذا بهذا.

(السابع عشر): أن يأنفَ لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من
العبد ضعف عزيمة وهمة وميلاً إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه
حيث أراد، ومتى أحسن منه بقوة عزمٍ وشرفٍ نفسٍ وعلوّ همةٍ لم يطمع فيه إلا اختلاساً
وسرقة.

(الثامن عشر): أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده، فإن وقع في العلم
أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد
أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم
وصدّه عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن
وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يؤولي بهواه ويعزل
بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة، فما قارن شيئاً إلا أفسده.

(التاسع عشر): أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخلٌ على ابن آدم إلا من باب هواه،

(١) يسييه: يأسره.

(٢) الصولة: السطوة أو القدرة.

فإنه يُطِيفُ به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلاً إلا من باب الهوى، فيسري معه سرّيان السم في الأعضاء.

(العشرون): أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضاداً لما أنزله على رسله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله، وقسم الناس إلى قسمين: أتباع الوحي، وأتباع الهوى، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠] ونظائره.

(الحادي والعشرون): أن الله سبحانه وتعالى شبّه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورةً ومعنى، فشبههم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وبالْحُمُر تارة كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١].

(الثاني والعشرون): أن متّبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون إماماً ولا متبوعاً، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته، أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي لا ينال عهدي بالإمامة ظالماً. وكل من اتبع هواه فهو ظالم كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩] وأما النهي عن طاعته فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

(الثالث والعشرون): أن الله سبحانه وتعالى جعل متّبع الهوى بمنزلة عابد الوثن فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، والجائية: [٢٣] في موضعين من كتابه، قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه، وقال أيضاً: المنافق عبد هواه لا يهوى شيئاً إلا فعله.

(الرابع والعشرون): أن الهوى هو حظار^(١) جهنم المحيط بها حولها، فمن وقع فيه وقع فيها كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

(١) الحظار: كل شيء حجز بين شيئين كحائط البستان. وحظار الأرض المحاط بها.

وفي الترمذي ^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّتْ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَبَاءَ فَتَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِكَ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ وَقَالَ: ازْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّتْ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَبَاءَ فَتَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ازْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(الخامس والعشرون): أنه يُخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» ^(٢). وصح عنه أنه قال: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتُ الْغِي فِي بَطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَضَلَاتُ الْهَوَى» ^(٣).

(السادس والعشرون): أن اتباع الهوى من المهلكات قال ﷺ: «ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ فَتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْقَوْلُ بِالْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالسَّخَطِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ. وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَهَوَى مُتَّبِعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ» ^(٤).

(السابع والعشرون): أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه، قال بعض السلف: الغالب لهواه أشدُّ من الذي يفتح المدينة وحده. وفي الحديث الصحيح المرفوع: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» ^(٥) وكلما تمرن على مخالفة هواه اكتسب قوة إلى قوته.

(الثامن والعشرون): أن أغزر الناس مروءةً أشدهم مخالفة لهواه. قال معاوية: المروءة ترك الشهوات وعصيان الهوى، فاتباع الهوى يُزمن ^(٦) المروءة، ومخالفته تنعشها.

(٣) تقدم هذا الحديث بسنده في صفحة ٢٨٤.

(١) في صفة الجنة باب ٢١.

(٤) تقدم في صفحة ٢٨٥ معزواً إلى المسند وغيره.

(٢) تقدم تخريجه قبل صفحات.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب ١٠٢. ومسلم في البر حديث ١٠٧ و١٠٨. ومالك في حسن الخلق

حديث ١٢. وأحمد في المسند (١/٣٨٢، ٢/٢٣٦، ٢٦٨، ٥١٧).

(٦) يزمن: يذهب ويضعف.

(التاسع والعشرون): أنه ما من يومٍ إلا والهوى والعقل يعتلجان^(١) في صاحبه، فأيهما قويَّ على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له. قال أبو الدرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله^(٢)، فإن كان عمله^(٢) تبعاً لهواه فيومُه يوم سوء، وإن كان هواه تبعاً لعمله^(٢) فيومُه يوم صالح.

(الثلاثون): أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين، كما قال بعض السلف: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيها أرشد فخالف أقربهما من هواك، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعه الهوى.

(الحادي والثلاثون): أن الهوى داء ودواؤه مخالفته، قال بعض العارفين: إن شئت أخبرتك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك، دأوك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته. وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى: البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه.

(الثاني والثلاثون): أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظمَ من جهاد الكفار فليس بدونه، قال رجلٌ للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد، أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: جهادُك هواك. وسمعت شيخنا يقول: جهادُ النفس والهوى أصلُ جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى^(٣) يخرج إليهم.

(الثالث والثلاثون): أن الهوى تخليط^(٤) ومخالفته حِمِيَّةٌ^(٥)، ويخاف على من أفرط في التخليط وجانب الحِمِيَّة أن يصرعه دأؤه. قال عبد الملك بن قُرَيْب: مررت بأعرابي به رمدٌ شديد ودموعه تسيل على خديه فقلت: ألا تمسح عينيك؟ قال: نهاني الطبيب عن ذلك، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر، وإذا أمر لا يأتمر، فقلت ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: بلى ولكني أحتمي، إن أهل النار غلبت شهوتهم حِمِيَّتَهُمْ فهلكوا.

(الرابع والثلاثون): أن اتباع الهوى يغلِق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يلهج^(٦) بأن الله لو وفَّق لكان كذا وكذا، وقد سدَّ على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه. قال الفضيل بن عياض: من استحوذ عليه الهوى واتباعُ الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق.

(١) يعتلجان: يصطرعان. (٤) التخليط: التخليط والاضطراب.

(٢) كذا.. ولعل الصواب: عقله. (٥) الحمية: الامتناع مما يضر والوقاية منه.

(٣) كذا.. ولعل الصواب: ثم. (٦) اللهج بالشيء: اللوع به، وقد لهج به إذا أغري به فتأثر عليه.

وقال بعض العلماء: الكفر في أربعة أشياء: في الغضب، والشهوة، والرغبة، والرغبة، ثم قال: رأيت منهن اثنتين: رجلاً غضب فقتل أمه، ورجلاً عشق فتنصر. وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدّين واللذات تُعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين
فقلت: دع أحدهما تنل الآخر.

(الخامس والثلاثون): أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه، وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانته في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه.

وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه: يا فلان إذا نصر الهوى ذهب الرأي. وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد. أو قال نسيه. فقال الشيخ: هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم.

(السادس والثلاثون): أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضيق عليها في قبره ويوم معاده، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوى وسع عليها في قبره ومعاده، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الدهر: ١٢]. فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق، جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى في هذه الآية: جازاهم بما صبروا عن الشهوات.

(السابع والثلاثون): أن اتّباع الهوى يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين، كما صرع قلبه في الدنيا عن مرافقتهم. قال محمد بن أبي الورد: إن الله عز وجل يوماً لا ينجو من شره منقاد لهواه، وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوته، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرها حظاً من يطالبها بقدر ما صعبه من الصبر. والعقل معدن، والفكر معول.

(الثامن والثلاثون): أن اتّباع الهوى يحلّ العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدّها وتقويها. والعزائم هي مركب العبد الذي يسيره إلى الله والدّار الآخرة، فمتى تعطل المركوب أوشك أن ينقطع المسافر. قيل لحيى بن معاذ: من أصح الناس عزماً؟ قال: الغالب لهواه. ودخل خلف بن خليفة على سليمان بن حبيب بن المهلب وعنده جارية يقال لها البدر من أحسن الناس وجهاً، فقال له سليمان: كيف ترى هذه الجارية؟ فقال: أصلح الله الأمير ما رأت عيناى أحسن منها قط، فقال له: خذ بيدها، فقال: ما كنت

لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدة عجبه بها، فقال: ويحك خذها على شدة عجيبي بها
ليعلم هواي أنني له غالب، وأخذ بيدها وخرج وهو يقول:

لقد حباني وأعطاني وفضلني عن غير مسألة منه سليمان
أعطاني البدر خوداً^(١) في محاسنها والبدر لم يُعطه إنس ولا جان
ولست يوماً بناسٍ فضله أبداً حتى يغيبني لحدٍّ وأكفان

(التاسع والثلاثون): أن مثل راكب الهوى كمثل راكب فرس حديدٍ صعب جموح لا
لجام له فيوشك أن يصرعه فرسه في خلال جزيه به أو يسير به إلى مهلك. قال بعض
العارفين: أسرع المطايا إلى الجنة الزهد في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حب
الشهوات، ومن استوى على متن هواه أسرع به إلى وادي الهلكات. وقال آخر: أشرف
العلماء من هرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده على الهوى. وقال عطاء: من غلب
هواه عقله وجزعه صبره افتضح.

(الأربعون): أن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم ولكل عبد صنم
في قلبه بحسب هواه. وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له،
وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد
كسرها من القلب أولاً. قال الحسن بن علي المطوحي: صنم كل إنسان هواه، فمن كسره
بالمخالفة استحق اسم الفتوة. وتأمل قول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ
لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] كيف تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها
ويبعدها من دون الله، قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
وَكِيلاً. أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾
[الفرقان: ٤٣، ٤٤].

(الحادي والأربعون): أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن، ومتابعته
مجلبة لداء القلب والبدن، فأمراض القلب كلها من متابعة الهوى، ولو فتشت على
أمراض البدن لرأيت غالبها من إثارة الهوى على ما ينبغي تركه.

(الثاني والأربعون): أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع
الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه ويدنه وجوارحه فاستراح وأراح. قال أبو بكر الوراق:
إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق،
وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وأبغضهم، فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة
وترك الحقوق وغيرها.

(١) الخود: الشابة الناعمة.

(الثالث والأربعون): أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوىً وعقلًا فأيهما ظهر توارى الآخر، كما قال أبو علي الثقفى: من غلبه هواه توارى عنه عقله، فانظر عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه. وقال علي بن سهل رحمه الله: العقل والهوى يتنازعان، فالتوفيق قرينُ العقل، والخذلان قرينُ الهوى، والنفس واقفةٌ بينهما، فأيهما غلب كانت النفس معه.

(الرابع والأربعون): أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب مَلَكَ الجوارح، ومعدن معرفته وسجته وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعُدَّتَيْن؛ فالحقُّ والزهدُ والهدى سلطانٌ، وأعداؤه الملائكة وجيشُ الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى، والباطل سلطانٌ، وأعداؤه وجنده وعُدَّتُه اتباعُ الهوى، والنفس واقفةٌ بين الجيشين. ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوه عليه فتكون الدائرة عليه، فهي التي تعطي عدوها عُدَّةً من قبلها، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب.

(الخامس والأربعون) أن أعدى عدوَّ للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتَّبَعَ هواه أعطى بيده لعدوه واستأسر له وأشتمته به وساء صديقه ووليّه، وهذا هو بعينه هو جَهْدُ البلاء، ودَرْكُ الشقاء، وسوءُ القضاء، وشماتة الأعداء.

(السادس والأربعون) أن لكل عبدٍ بدايةً ونهايةً، فمن كانت بدايته اتباعَ الهوى، كانت نهايته الذلَّ والصغارَ والحرمانَ والبلاءَ المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يُعَذَّبُ به في قلبه كما قال القائل:

مَارَبُ كَانَتْ فِي الشَّبَابِ لِأَهْلِهَا عَذَاباً فَصَارَتْ فِي الْمَشِيبِ عَذَاباً
فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة زُرِّيَّةٍ لرأيت بدايته الذهابَ مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العزَّ والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو علي الدِّقَاق: من ملك شهوته في حال شبابه أعزه الله تعالى في حال كهولته. وقيل للمهلب بن أبي صفرة: بِمَ نَلْتِ مَا نَلْتِ؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوى، فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه، والنارَ نهاية من اتبع هواه.

(السابع والأربعون): أن الهوى رِقٌّ في القلب، وعُلٌّ في العنق، وقيد في الرِّجْلِ، ومُتَابِعُهُ أُسِيرٌ لكل سَيِّئِ الملكة، فمن خالفه عَتَقَ من رِقِّهِ وصار حُرّاً، وخلع العُلَّ من

عنقه والقيّد من رجله وصار بمنزلة رجلٍ سالمٍ لرجلٍ، بعد أن كان رجلاً فيه شركاء متشاكسون^(١).

رب مستور سبّته شهوة فتعري ستره فانهتك
صاحب الشهوة عبداً فإذا غلب الشهوة أضحي ملكاً
وقال ابن المبارك:

ومن البلاء وللبلَاء علامة أن لا يُرى لك عن هواك نزوع
العبدُ عبداً النفس في شهواتها والحرُّ يشبع تارةً ويجوع

(الثامن والأربعون): أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعافاً مضاعفة ما فاته من هواه، فهو كمن رغب عن بعة فأعطى عوضها درة. ومتبع الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيء ما لا نسبة لما ظفر له من هواه البتّة، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام. وقال عبد الرحمن بن مهدي: رأيت سفيان الثوري رحمه الله تعالى في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلا أن وضعت في لحدي حتى وقفت بين يدي الله تبارك وتعالى، فحاسبني حساباً يسيراً ثم أمر بي إلى الجنة، فبينما أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حساً ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول: سفيان بن سعيد. فقلت: سفيان بن سعيد، فقال: تحفظ أنك آثرت الله عز وجل على هواك يوماً؟ قلت: إي والله، فأخذني النّار^(٢) من كل جانب.

وقال عبد الرزاق: بعث أبو جعفر الخشّابين حين خرج إلى مكة وقال: إن رأيتم سفيان فاصلّبوه، فجاءوا ونصبوا الخشب، وطلب رأسه في حجر الفضيل فقال له أصحابه: اتق الله عز وجل ولا تشمت بنا الأعداء، فتقدّم إلى الأستار ثم أخذها بيده وقال: برئت منه إن دخلها أبو جعفر، فمات قبل أن يدخل مكة، فتأمل عاقبة مخالفة الهوى كيف أقامه في هذا المقام.

(التاسع والأربعون): أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة وعزّ الظاهر وعزّ الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في الظاهر وفي الباطن،

(١) تشاكس القوم: تعاسروا وتخالفوا. والشكس: العسر السيء الخلق قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾.

(٢) النار: ما نثر في حفلات السرور من حلوى ونقود، وبالضم ما تناثر من الشيء.

وإذا جمع الله الناس في صعيدٍ واحدٍ نادى منادٍ: ليعلمن أهلُ الجمع من أهل الكرم اليوم، لِيَقُمَ المتقون، فيقومون إلى محل الكرامة، وأتباع الهوى ناكسو رؤوسهم في الموقف في حرّ الهوى وعَرَقه وألمه، وأولئك في ظل العرش.

(الخمسون): أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عز وجل في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى، فإن الإمام المسلّط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشابّ المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك، والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات، والمتصدّق المُخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك، والذي دعت المرأة الجميلة الشريفة فخاف الله عز وجل وخالف هواه، والذي ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشيته، إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه، فلم يكن لحرّ الموقف وعَرَقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة، وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحرّ والعَرَقُ كُلُّ مَبْلَغٍ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى، فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيدنا من أهواء نفوسنا الأمّارة بالسوء وأن يجعل هوانا تَبَعاً لما يحبّه ويرضاه، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

الفهرست

٣	مقدمة المؤلف
١٣	الباب الأول: في أسماء المحبة
١٥	الباب الثاني: في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها
٣٩	الباب الثالث: في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض
٤١	الباب الرابع: في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجدا بالمحبة ولأجلها
٤٩	الباب الخامس: في دواعي المحبة ومتعلقاتها
٦٧	الباب السادس: في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه
٧٧	الباب السابع: في ذكر مناظرة بين القلب والعين
	الباب الثامن: في ذكر الشُّبهِ التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه
٨١	الباب التاسع: في الجواب عما احتجَّت به هذه الطائفة وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج
٨٩	الباب العاشر: في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه
٩٩	الباب الحادي عشر: في العشق وهل هوا اضطراريٌّ خارجٌ عن الاختيار، أو أمرٌ اختياريٌّ، واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه
١٠٣	الباب الثاني عشر: في سكرة العشاق
١٠٧	الباب الثالث عشر: في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان
١١١	الباب الرابع عشر: فيمن مدح العشق وتمناه، وغَبَطَ صاحبه على ما أوتيته من مناه
١٢١	الباب الخامس عشر: فيمن ذمَّ العشق وتبرَّم به، وما احتجَّ به كل فريق على صحة مذهبه
١٣١	الباب السادس عشر: في الحكم بين الفريقين، وفصل النزاع بين الطائفتين
١٤٣	

١٤٧		ورسوله
١٥٣		الباب الثامن عشر: في أن دواء المحبين، في كمال الوصال الذي أباحه رب العالمين
١٥٩		الباب التاسع عشر: في ذكر فضيلة الجمال، وميل النفوس إليه على كل حال
١٨٥		الباب العشرون: في علامات المحبة وشواهدا
٢٠٥		الباب الحادي والعشرون: في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالمحب، وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه
٢٠٩		الباب الثاني والعشرون: في غيرة المحبين على أحبابهم
٢٢٥		الباب الثالث والعشرون: في عفاف المحبين مع أحبابهم
٢٥١		الباب الرابع والعشرون: في ارتكاب سبل الحرام، وما يفضي إليه من المفاسد، والآلام
٢٦٧		الباب الخامس والعشرون: في رحمة المحبين، والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يبيحه الدين
٢٧٩		الباب السادس والعشرون: في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أعلاهما
٣١٣		الباب السابع والعشرون: فيمن ترك محبوبه حراماً فبذل له حلالاً، أو أعاضه الله خيراً منه
٣٢٣		الباب الثامن والعشرون: فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام، على لذة الوصال الحرام
٣٣١		الباب التاسع والعشرون: في ذم الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى

وقال سفيان بن أحمد المصيصي : شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سُجِّي^(١) نحو القبلة ، فقامت جاريته تَغْمِزُ رجله فقال : اغْمِزِيهَما فإن الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرامٍ قط .

وقال محمد بن إسحاق : نزل السريُّ بن دينار في دَرَبٍ بمصر وكانت فيه امرأةٌ جميلةٌ فتنت الناس بجمالها ، فعلمت به المرأةُ فقالت : لأفنته ، فلما دخلت من باب الدار تكشَّفت وأظهرت نفسها ، فقال : مالك ؟ فقالت : هل لك في فراشٍ وطيٍّ وعيشٍ رخيٍّ ؟ فأقبل عليها وهو يقول :

وكم ذي معاصٍ نال منهم لذةً ومات فخلأها وذاق الدواهيها
تَصَرَّمُ^(٢) لذات المعاصي وتنقضي وتبقى تَبَاعَاتُ^(٣) المعاصي كما هي
فيا سؤءَنا واللَّهُ راءٍ وسامعٌ لعبدٍ بعين الله يَغْشَى المعاصيا

وقال عمر بن بكير : قال أعرابي : علقتُ امرأةً كنت آتيها فأحدثها سنين وما جرت بيننا ريبَةٌ قط ، إلا أني رأيت بياضَ كفها في ليلةٍ ظلماءٍ فوضعت يدي على يدها ، فقالت : مَهْ^(٤) لا تفسد ما بيني وبينك ، فإنه ما نُكحَ حبٌّ قط إلا فسد .
قال : ففقت وقد تصبَّبتُ عرقاً حياةً منها ولم أعُدْ إلى شيء من ذلك .

وذكر أبو الفرج وغيره أن امرأةً جميلةً كانت بمكة ، وكان لها زوجٌ ، فنظرت يوماً إلى وجهها في المرأة فقالت لزوجها : أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتن به ؟ قال : نعم ، قالت : مَنْ ؟ قال : عبيد بن عمير ، قالت : فائذن لي فيه فَلأفنته ، قال : قد أذنت لك ، قال : فأنته كالمستفتية ، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام فأسفرت عن وجهٍ مثلِ فلقة القمر ، فقال لها : يا أمة الله

(١) سجي الموت : مدُّ عليه ثوباً وغطاه به .

(٢) تصرم : تنقضي وتذهب .

(٣) تباعات : كل ما ينبع العمل وينجم عنه من خير أو شر .

(٤) مه : اسم فعل مبني على السكون .

استري ، فقالت : إني قد فتنك بك قال : إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك قالت : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك قال : أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت قال : فلو دخلت قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت قال : فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : فلو أردت الممر على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : فلو جيء بالمبزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : إتقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك ، قال : فرجعت إلى زوجها فقال : ما صنعت ؟ قالت : أنت بطل ونحن بطلون ، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجها يقول : مالي ولعبيد بن عمير أفسد علي امرأتي ، كانت في كل ليلة عروساً فصيرها راهبة .

وقال سعيد بن عبد الله بن راشد : علقت فتاة من العرب فتى من قومها وكان عاقلاً فجعلت تكثر التردد إليه ، فلما طال عليها ذلك مرضت وتغيرت واحتالت في أن خلا لها وجهه ، فعرضت إليه ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه فتزايد المرض حتى سقطت على الفراش ، فقالت له أمه : إن فلانة قد مرضت ولها علينا حق ، قال : فعوديها وقولي لها : يقول لك ما خبرك ؟ فسارت إليها أمه وسألها ما بك ؟ فقالت : وجع في فؤادي هو أصل عتي ، قالت : فإن ابني يسألك عن علتك ، فتنفست الصعداء ثم قالت :

يسألنني عن عتي وهو عتي عجيب من الأنباء جاء به الخبر

فانصرفت إليه أمه وأخبرته وقالت له : تريد أن تصير إليك ؟ فقال : نعم ،
فذكرت أمه لها ذلك فبكت وقالت :

وَيُعِدُّنِي عَنْ قَرْبِهِ وَلِقَائِهِ فَلَمَّا أَذَابَ الْجِسْمَ مِنِّي تَعَطَّفَا
فَلَسْتُ بِأَتِ مَوْضِعاً فِيهِ قَاتِلِي كَفَانِي سَقَاماً أَنْ أَمُوتَ تَلْهِفَا
وَتَزَايِدْتِ بِهَا الْعَلَّةُ حَتَّى مَاتَتْ .

وَأَحَبُّ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ يُسَمَّى أَبَا الشَّعْثَاءِ امْرَأَةً جَمِيلَةً ، فَلَمَّا عَلِمَتْ بِهِ
كَتَبَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ :

لأبي الشعثاء حبٌ دائمٌ ليس فيه تهمَةٌ لِمُتْنِهِمْ
يا فؤادي فازدجر^(١) عنه ويا عَبَثَ الْحَبِّ بِهِ فاقعد وقُمْ
جاءني منه كلامٌ صائِدٌ ورسالاتُ المحبين الكلمُ
صائِدٌ يَأْمَنُهُ غَزْلَانُهُ مثل ما يَأْمَنُ غَزْلَانُ الْحَرَمِ
صلِّ إن . أحببت أن تُعْطِيَ المنى يا أبا الشعثاء لله وصمُ
ثم ميعادُك بعد الموت في جنة الخلد إن اللّه رَجِمُ
حيث ألقاك غلاماً ناشئاً ناعماً قد كَمَلَتْ فِيهِ النعم

وقال الأصمعي عن أبي سفيان بن العلاء قال : بَصُرْتُ الثَّريَّا بعمر بن أبي
ربيعة وهو يطوف حول البيت ، فتكرت وفي كفها خَلُوقٌ^(٢) فزَحَمَتْه فَاثَرُ الْخَلُوقِ
في نوبه : فجعل الناس يقولون : يا أبا الخطاب ما هذا زِيُّ الحَرَمِ فأنشأ يقول :

أدخل الله ربُّ موسى وعيسى جنة الخلد من ملاني خَلُوقَا
مسحت كفها بجيب قميصي حين طُفْنَا بِالْبَيْتِ مَسْحاً رَقيقَا
فقال له عبد الله بن عمر : مثل هذا القول في هذا الموضع ؟ فقال له : يا أبا

(١) ازدجر وانزجر : بمعنى زجره أي نهاه وعنفه .

(٢) الخلق : ضربٌ من الطيب وأكثر أجزائه من الزعفران .

عبدالرحمن قد سمعت مني ما قد سمعت فَوَرَبَّ هذه البَيِّنَةِ ما حِلَّتْ إزارِي عَلَى حرامٍ قَطَّ .

وقيل لليلي الأخيلية : هل كان بينك وبين توبة ما يكرهه الله ؟ قالت : إذا أكون منسلخةً من ديني إن كنت ارتكبت عظيمًا ثم أتبعه بالكذب .

وقال العُتْبِي : خرجت إلى المِرْبَدِ فإذا بأعرابي غَزَلَ فَمِلْتُ إليه ذكرت النساءَ فتنَّسَ ثم قال : يا ابن أخي إن من كلامهن لما يقوم مقام الماء فيشفي من الظما . فقلت : صف لي نساءكم ، فقال : نساء الحي تريد ؟ قلت : نعم فأنشأ يقول :

رُجِحُ^(١) وَلَسَنَ من اللواتي بالضحي لذيولهنَّ عَلَى الطريق غبار
يَأْسَنُ عند بعولهن إذا خَلَوْا وإذا هُم خرجوا فهن خِفَارُ^(٢)

قال العتبي : فأخبرت به أبي قال : تدري من أين أخذ قوله : وإن من كلامهن ما يقوم مقام الماء فيشفي من الظما ؟ قلت : لا ، قال : من قول القطامي :

يَقْتُلُنَا بحديثٍ ليس يعلمه من يَتَّقِينَ ولا مكنونُهُ بادي
فهنَّ يُبْدِينَ من قول يُصَبِّنُ به مواقع الماء من ذي الغُلَّةِ الصادي^(٣)

وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها إجلال الجبار ، ثم الرغبة في الحور الحسنان في دار القرار ، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حرم الله عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسنان هناك ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَلْبَسِ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ^(٤) ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا

(١) يقال امرأة رجاح ورجاز أي عجزة .

(٢) خفار : أي شديديات الحياء .

(٣) ذو الغلة الصادي : الشديد العطش .

(٤) الحديث رواه الشيخان والنسائي وابن ماجة

فِي الْآخِرَةِ^(١) . فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حَرَّمَ الله عليه من النساء والصبيان ولذة التمتع بذلك في الآخرة ، فليتخير العبد لنفسه إحدى اللذتين ، وَلْيُطَبِّ نَفْساً عَنْ إِحْدَاهُمَا بِالْآخَرَى ؛ فلن يجعل الله من أَذْهَب طَبِيبَاتِهِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدُّنْيَا إِذَا لَقِيَ الله . ودون ذلك مرتبةٌ أَنْ يتركها خوف النار فقط ، فَإِنْ تَرَكَهَا رَغْبَةً وَمَحَبَّةً أَفْضَلَ مِنْ تَرَكَهَا لِمَجْرَدِ خَوْفِ الْعُقُوبَةِ .

ثم أدنى من ذلك أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَيْهَا خَوْفُ الْعَارِ وَالشَّارِ^(٢) ، ومنهم من يَحْمِلُهُ عَلَى الْعِفَّةِ الْإِبْقَاءِ عَلَى مَحَبَّتِهِ خَشْيَةً ذَهَابَهَا بِالْوَصَالِ ، ومنهم من يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا عِفَّةٌ مَحْبُوبَةٌ وَنَزَاهَةٌ ، ومنهم من يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا الْحَيَاءُ مِنْهُ وَالْإِحْتِشَامُ لَهُ وَعَظَمَتُهُ فِي صَدْرِهِ ومنهم من يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا الرَّغْبَةُ فِي جَمِيلِ الذِّكْرِ وَحَسَنِ الْأَحْدُوثَةِ ، ومنهم من يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا الْإِبْقَاءُ عَلَى جَاهِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَقَدْرِهِ عِنْدَ مَحْبُوبِهِ وَعِنْدَ النَّاسِ ، ومنهم من يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا كَرَمُ طَبِيعَةٍ شَرَفُ نَفْسِهِ وَعُلُوُّ هِمَّتِهِ ، ومنهم من يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا لَذَّةُ الظَّفَرِ بِالْعِفَّةِ فَإِنَّ لِلْعِفَّةِ لَذَّةً أَعْظَمَ مِنْ لَذَّةِ قِضَاءِ الْوَطَرِ ، لكنها لَذَّةٌ يَتَقَدَّمُهَا أَلَمُ حَسِّ النَّفْسِ ثُمَّ تَعْقِبُهَا اللَّذَّةُ ، وَأَمَّا قِضَاءُ الْوَطَرِ^(٣) فَبِالضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ ، ومنهم من يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا عِلْمُهُ بِمَا تَعْقِبُهُ اللَّذَّةُ الْمَحْرُومَةُ مِنَ الْمَضَارِّ وَالْمَفَاسِدِ ، وَجَمْعُ الْفُجُورِ خِلَالَ الشَّرِّ كُلِّهَا ، كَمَا سَتَقَفَ عَلَيْهِ فِي الْبَابِ الَّذِي يَلِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فصل

وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَفْتَخِرُونَ بِالْعِفَّةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَرْمَةَ^(٤) :

وَلَرَبَّ لَذَّةٍ لَيْلَةٍ قَدْ نَلْتَهَا وَحَرَامُهَا بِحِلَالِهَا مَدْفُوعٌ

(١) الحديث رواه الشيخان بنحوه وكذلك ابن ماجة .

(٢) الشار : أقيع العيب .

(٣) قِضَاءُ الْوَطَرِ : بلوغُ المني ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا 》 .

(٤) إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَرْمَةَ : وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ عَامِرٍ بْنِ هَرْمَةَ الْكَتَانِي الْقُرَشِيُّ ، أَبُو إِسْحَاقٍ مِنْ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ مِنْ مَخْضَرَمِي الدَّوْلَتَيْنِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ وَتُوفِيَ سَنَةَ ١٧٦ هـ . الْأَغَانِي (٤ / ١٠١)
ثُمَّ (٥ / ٤٦) ط . السَّاسِي ، وَالنَّجْمُ الزَّاهِرَةُ (٢ / ٨٤) ، وَالْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ (١٠ / ١٦٩) .

وقال غيره :

إذا ما هممنا صدنا وازعُ التقى فولى على أعقابه الهمُ خاسنا
وقال آخر :

أتأذنون لصبٍ في زيارتكم فعندكم شهواتُ السمع والبصر
لا يُضمرُ سوءٌ إن طالت إقامته عفتُ الضميرَ ولكن فاسقُ النظر

وقال مسلم بن الوليد :

ألا ربّ يوم صادق العيش نلته بها ونداماي العفافة^(١) والنهي^(٢)
وقال آخر :

إن تَرَيْني زانِي العِي نين فالفرجُ عفيفُ
ليس إلا النظرُ الفا تر والشعرُ الطريفُ

وقال الموسوي^(٣) :

بتناضجيعين في ثوبِي هَوًى وَتَقَى يُلْفنا الشوقُ من فَرَقٍ إلى قَدَم
يَشِي بنا الطيبُ أحياناً وآونةً يُضِيئنا البرقُ مجتازاً على إضْم^(٤)
ثم انثنينا وقد رابت^(٥) ظواهرنا وفي بواطننا بعدُ عن التَّهَم

(١) العفافة : وهي العفة ، وهي الزهد والانصراف عما لا يحل .

(٢) النهي : جمع نهيّة وهي العقل ، وسمي بذلك لأنه ينهي عن العيب وما ينافيه .

(٣) وهو الشريف الرضى ، محمد بن الحسين بن موسى أبو الحسن الرضى العلوي الحسيني الموسوي أشعر الطالبين ولد وتوفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ وله ديوان شعر في مجلدين . وفیات الأعيان (٢ / ٢) ، وتاريخ بغداد (٢ / ٢٤٦) ، والمنتظم (٧ / ٢٧٩) ، ونزهة الجليس (١ / ٣٥٩) ، والذريعة (٧ / ١٦) .

(٤) الإضم : جبل ، وهو الوادي الذي في المدينة المنورة .

(٥) رابت : من الريب والارتياب وهو الشك .

وقال يَفْطَوْنِهِ :

كم قد خلوتُ بمن أهوي فيمنعني منه الحياءُ وخوفُ الله والحدْرُ
وكم ظفرتُ بمن أهوي فيقنعني منه الفُكاهة والتجميش^(١) والنظر
أهوى الحسان وأهوى أن أجالسهم وليس لي في حرامٍ منهم وطْر^(٢)
كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ لا خيرَ في لذَّةٍ من بعدها سَقَر^(٣)

وقال الشهاب محمود بن سليمان^(٤) صاحب ديوان الإنشاء (الحلبي) :

له وقفة عاشقين تلاقيا من بعد طول نوى وبُعْدِ مَزار
يتعاطيان من الغرام مُدَامَةً زادتُهما بعداً من الأوزار
صدقا الغرام فلم يَمِلْ طَرْفٌ إلى فُحْشٍ ولا كَفٍّ لحُلٍّ إزار
فتلاقيا وتفرقا وكلاهما لم يَخْشَ مَقْطَعَنَ عائبٍ أو زار^(٥)

وقيل لِبَيْتِيَّة : هذا جميل لما به فهل عندك من حيلة تُنَفِّسُ بها وجده ؟
فقلت ما عندي أكثر من البكاء إلى أن ألقاه في الدار الأخرى ، أو زيارته وهو ميت
تحت الثرى . وقيل لَعُتْبَةٍ بعد موت عاشقها : ما كان يضرك لو أمتعتيه بوجهك ؟
قالت : منعني من ذلك خوفُ العار ، وشماتةُ الجار ، ومخافةُ الجبار . وإن بقلبي
أضعافُ ما بقلبه غير أنني أجد سَتْرَهُ أبقي للمودة ، وأحمدُ للعاقبة ، وأطوعُ للرب ،
وأخفُ للذنب .

(١) التجميش : التغزل بالملاعبة والقرص .

(٢) الوطر : الأرب والغاية والمطلب .

(٣) سقر : جهنم .

(٤) الشهاب محمود بن سليمان : والأصح (بن سلمان) وهو حنبلي حلبي دمشقي أبو الثناء شهاب الدين : أديب كبير ، استمر في دواوين الإنشاء في دمشق وانتقل إلى مصر فكتب بها في الديوان ثم عاد إلى دمشق ثم توفي بها سنة ٧٢٥ هـ . الدرر الكامنة (٤ / ٣٢٤) ، وفوات الوفيات (٢ / ٢٨٦) ، والبداية والنهاية (١٤ / ١٢٠) .

(٥) زري به ، وأزرى به : عابه .

وهوي فتى امرأة وهويته وشاع خبرهما فاجتمعا يوماً خاليتين فقال لها : هلمّي
 نحقق ما يقال فينا فقالت : لا والله لا كان هذا أبداً وأنا أقرأ : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ
 بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) . وقيل لبعضهم وقد هوي جارية فطال عشقه
 بها : ما أنت صانع لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله ؟ قال : والله لاجعلته أهون
 الناظرين إليّ ، لا أفعل بها خالياً إلا ما أفعله بحضرة أهلها ، حينئذٍ طويل ، ولحظ
 من بعيد ، وأترك ما يسخط الرب ، ويفسد الحب .

إذا كان حظ المرء ممن يحبه	حراماً فحظي ما يحل ويحرم
حديث كماء المزن ^(٢) بين فصوله	عتاب به حسن الحديث يفضل
ولثم قم عذب اللثات كأنما	جناهن شهد فت فيه القرنفل
وما العشق إلا عفة ونزاهة	وأنس قلوب أنسهن التغزل
واني لأستحي الحبيب من التي	تريب وأدعى للجميل فأجمل

وقال آخر :

واني لمشتاق إلى كل غاية	من المجد يكبو دونها المتطاوّل
بذول لمالي حين يبخل ذو النهى	عفيف عن الفحشاء قرم حلال ^(٣)

وما ألطف قوله : حين يبخل ذو النهى فإن ذا النهى لا يبخل إلا في موضع
 البخل ، فأخبر هذا أنه يبذل ماله حين يبخل به ربّه ^(٤) في موضع البخل .

(١) الزخرف (٤٣ / ٦٧) .

(٢) المزن : السحاب .

(٣) القرم : هو السيد الغطريف المعظم في قومه .

والحلال : هو السيد في عشيرته والأمير في مجلسه .

(٤) ربّه : صاحبه ، ومنه رب الدار .

وقال عامر بن حذافة^(١) : رأيت بضخار^(٢) جارية قد ألصقت خدّها بقبرٍ وهي

تبكي وتقول :

خدي يَفِيكِ خَشُونَةَ اللحدِ وأقلُّ مالِكِ سيدي خدي
يا ساكن التُّرْبِ الذي بوفاته عَمِيتَ عليَّ مسالكُ الرشد
إسمع فديتُكَ قصتي فلعلني أشفي بذلك غُلَّةَ الوجد

قال : فسألتها عن صاحب القبر فقالت : فتى رافقته في الصبا ، ثم أنشأت

تقول :

كنا كزوج حمائمٍ في أَيْكَةٍ^(٣) متنعمين بصحّةٍ وشباب
فغدا الزمان مشتاً بفراقه إن الزمان مفرّقُ الأحباب

قال : فبكيت لركة شعرها فأنشأت تقول :

تبكي عليه ولستَ تعرفُ أمرَه فلاعلمنك حاله ببيان
ما كان للعافين^(٤) غيرُ نواله^(٥) فإذا استجير ففارس الفرسان
لا يُنْبِغُ الجيرانَ رفّةً طرفه ويتابع الإحسان للجيران
عفُ السريرة والجَهِيرَةُ مثلها فإذا استَضِيمُ^(٦) أراك فتقّ طعان

فقلت : أعلميني من هو؟ قالت : سنان بن وَبَرَة الذي يقول فيه الشاعر :

يسا رائداً غيماً لنَجْعَةٍ قومه يكفيك من غيثِ نوالِ سنان

(١) عامر بن حذافة : وهو عامر بن عبدالله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي ، أبو حذافة ، أسلم قديماً لم يعرف مولده وتوفي سنة ٣٣ هـ تقريباً حسب أحد الأقوال . تهذيب التهذيب (٥ / ١٨٥) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢ / ٨٧) .

(٢) ضخار : بالضم هو قصبه مما يلي الجبل بعمان .

(٣) أَيْكَة : مفرد جمعه أَيْك وهو الشجر الكثير الملفف .

(٤) العافون : ويقال أيضاً العفاة طلاب المعروف .

(٥) النوال : العطاء .

(٦) استَضِيم : انتقص حقه ، واستضامه : ظلمه .

ثم قالت : يا هذا والله لولا أنك غريب ما متعتك من حديثي . قلت : فكيف كان حبه لك ؟ قالت : ما كان يوسدني إذا نمت إلا يده ، فمكثت معه أربعة أحوال^(١) ما توسدت غيرها إلا في حالٍ يمنعه مانع .

وقال سعيد بن يحيى الأموي : حدثني عمي محمد بن سعيد ، حدثنا عبد الملك بن عُمير قال : كان أخوان من ثقيف من بني كُتَّة بينهما من التحاب شيء لا يعلمه إلا الله ، وكل واحد منهما أخوه عنده عَذْل^(٢) نفسه ، فخرج الأكبر منهما إلى سفر له وله امرأة فأوصى أخاه بحاجة أهله ، فبينا المقيم في دار الظاعن إذ مرت امرأة أخيه في درع تجوز من بيت إلى بيت ، وكانت من أجمل البشر ، فرأى شيئاً حيره ، فلما رآته ولَّت ووضعت يدها على رأسها ودخلت بيتاً ، ووقع حبها في قلبه ، فجعل يذوب ويتحل جسمه ويتغير لونه . وقدم أخوه فقال : مالك يا أخي متغيراً ، ما وجعك ؟ قال : ما بي من وجع ، فدعا له الأطباء فلم يقف أحد على دائه غير الحارث بن كَلْدَة وكان طبيباً فقال : أرى عينين صحيحتين وما أدري ما هذا الوجع وما أظنه إلا عاشقاً ، فقال له أخوه : سبحان الله ، أسألك عن وجع أخي وأنت تستهزئ بي ، فقال : ما فعلت ، وسأسقيه شراباً عندي فإن كان عاشقاً فسيبتين لكم ، فاتاه بشراب فجعل يسقيه قليلاً قليلاً ، فلما أخذه الشراب هاج وقال :

أَلِمَّا بِي عَلَى الْأَيَّامِ تَ مِنْ خَيْفٍ نَزْرُهُنَّ
غَزَالَ مَا رَأَيْتَ الْيَوْمَ مَ فِي دُورِ بَنِي كُتَّةِ
أَسِيلُ الْخَدِّ مَرْبُوبٌ^(٣) وَفِي مَنْطِقِهِ غُنَّةُ

فقال : أنت طبيب العرب فبمن ؟ قال : سأعيد له الشراب ولعله يسمي ،

(١) أحوال : جمع مفردة حول ، وهو السنة .

(٢) العذل : المثل والنظير .

(٣) مربوب : جميل القسمات .

فأعاد له الشراب فسمى المرأة ، فطلقها أخوه ليتزوجها فقال المريض : عليّ كذا وكذا إن تزوّجتها ، ففضى ولم يتزوجها .

وقال علي بن المبارك السراج^(١) : حدّثنا أبو مسهر ، عن بكر بن عبد الله قال : عرض الحجاج بن يوسف سجنه يوماً فأُتي برجل فقال : ما كان جُرمك ؟ فقال : أصلح الله الأمير أخذني العَسَسُ^(٢) وأنا مخبرك بخبري ، فإن كان الكذب ينجي فالصدق أولى بالنجاة ، قال : وما قصتك ؟ قال : كنت أخاً لفلان فضرب الأمير عليه البَعَثُ إلى خراسان ، فكانت امرأته تهواني وأنا لا أشعر ، فبعثت إليّ ذات يوم رسولاً أن قد جاء كتابُ صاحبك فهلّم لتقرأه ، فمضيت إليها فجعلت تَشَغُلُنِي بالحديث حتى صلينا المغرب ، ثم أظهرت لي ما في نفسها مني ودعتني إلى السوء ، فأبيت ذلك فقالت : والله لئن لم تفعل لأصيحنّ ولأقولنّ إنك لص ، فحفتها والله أيها الأمير على نفسي فقلت : أمهليني حتى الليل ، فلما صليت العَتَمَةَ^(٣) وثقت بشدة حرس الأمير فخرجت من عندها هارباً ، وكان القتلُ أيسرَ عليّ من خيانة أخي ، فلقيني عَسَسُ الأمير فأخذوني ، وقد قلت في ذلك شعراً ، قال : وما قلت ؟ فقال :

رَبِّ بِيضَاءِ آنَسٍ^(٤) ذَاتِ ذَلٍّ قَدْ دَعَتْنِي لَوْصِلَهَا فَأَبَيْتُ
لَمْ يَكُنْ شَأْنِي الْعَفَافَ وَلَكِنْ كُنْتُ خِلاً لَزَوْجِهَا فَاسْتَحَيْتُ
فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ .

وقال الربيع بن زياد : رأيت جاريةً عند قبرٍ وهي تقول :

بنفسي فتى أوفى البرية كلها وأقواهم في الموت صبراً على الحب

(١) علي بن المبارك السراج : لم أجد له ترجمة عندي .

(٢) العسس : حرس الليل ، وعَسَّ : إذا طاف ليلاً .

(٣) العتمة : هي وقت صلاة العشاء .

(٤) الأنس : الفتاة الكريمة النقية محمودة النفس ، وهي من يؤنس بها .

فقلت لها : بم صار أوقاهم وأقواهم ؟ قالت : هَوَيْني ، فكان أهلي إن جاهر
بحبِّي لاموه ، وإن كتمه عنفوه ، فلما أخذه الأمر قال :

يَقُولون إن جاهرْتُ قد عضك الهوى وإن لم أُبْحِ بالحبِّ قالوا تصبرا
وليس لمن يهوي ويكْتُم حُبّه من الأمر إلّا أن يموتَ فيُعْذرا
ولم يزل يردد هذين البيتين حتى مات ، فوالله يا هذا لا أبرح أو يتصل
قبرانا ، ثم شهقت شهقة فصاح النساء وقلن : قضت ، والذي اختار لها الوفاة فما
رأيت أسرع ولا أَوْحى من أمرها . قال ابن الدُمَيْنة :

وبتنا فَوَيْقَ الحَيِّ لا نحن منهم ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبات يقينا ساقطَ الطل والندى من الليل بُرداً يُمْنَةً^(١) عَطْران
نذود بذكر الله عنا غوي الصبا إذا كان قلبانا له يَرِدان
ونصدر^(٢) عن ري العفاف وربما نقعنا غليل الحبِّ بالرُشْفان

قال أبو الفرج : وشت جارية بُئِنَتْ بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما : إن
جميلاً عندها ، فأتيا مشتملين على سيفيهما فرأياه خالياً حُجْرَةً منها يحدثها ويشكو
إليها بَثَّهُ^(٣) ثم قال لها : يا بُئِنْتُ أَرَأيت ما بي من الشغف والعشق ألا تَجْزِينيه ؟
قالت له : بماذا ؟ قال : بما يكون من المتحابين ، فقالت له : يا جميل أهدا
تبغي ؟ والله لقد كنتَ عندي بعيداً منه ، فإذا عاودت تعريضاً بريية لا رأيت وجهي
أبدأ ، فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلّا لأعلم ما عندك ، ولو علمت أنك
تجيبيني إليه لعلمت أنك تجيبين غيري ، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفي
هذا ما استمسك في يدي إن طاوعتني نفسي ، أو هجرتك أبداً ، أما سمعت
قولِي :

(١) يراد يمنة : من يروء الشهيرة .

(٢) صدر عن الماء : رجع عنه وزوى وانصرف عنه .

(٣) البث : أشد الحزن الذي لا يصبر عليه :

ولأني لأرضى من بُيْتَنَةٍ بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلبلة^(١)
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب أمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنفضي وأخبره لا نلتقي وأوائله؟
فقال أبوها لأخيها : قم بنا فما ينبغي لنا بعد هذا اليوم أن نمنع هذا الرجل
من إتيانها .

(١) البلبلة : الوسواس والأوهام .

الباب الرابع والعشرون

في ارتكاب سبيلي الحرام وما يقضي إليه من المفاسد والآلام

حقيقٌ بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلم سلامتها وآفاتها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامة أو عطب ، وهذان السيلان هلاك الأولين والآخرين بهما ، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما ، ويُفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشرّ موارد الهلكات ، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنى شرّاً سبيلاً فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾^(١) فإذا كانت هذه سبيل الزنى فكيف بسبيل اللواط التي تعدّل الفعل من حيث الإثم والعقوبة أضعافاً وأضعافاً أضعافاً من الزنى ؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ، فأما سبيل الزنى فأصوأ سبيلاً ، ومَقِيلٌ^(٢) أهلها في الجحيم شرٌّ مَقِيل ، ومستقرُّ أرواحهم في البرزخ في تُنُورٍ من نارٍ يأتيهم لهابها من تحتهم ، فإذا أتاهاهم اللهب ضجّوا وارتفعوا ، ثم يعودون إلى موضعهم ، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في منامه ، ورؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها .

فروى البخاري في صحيحه من حديث سَمُرَةَ بن جُنْدَبٍ^(٣) رضي الله عنه

(١) الإسراء (١٧ / ٣٢) .

(٢) المقيّل : المئوى والنوم عند الظهيرة .

(٣) هو سمرة بن جندب .

قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممّا يُكثِرُ أن يقول لأصحابه : « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا ؟ فَيَقْصُصُ عَلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُقْصَّ » ، وإنه قال لنا ذات غَدَاة : إنه أَنَا فِي اللَّيْلَةِ آتِيَانِ وَإِنَهُمَا ابْتِغَايَانِي وَإِنَهُمَا قَالَا لِي : انْطَلِقْ ، وَإِنِي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا ، وَإِنَا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَنْتَلِعُ^(١) رَأْسَهُ فَيَنْتَدِ هَذِهِ الْحَجَرُ هَاهُنَا ، فَيَتْبَعُ الْحَجَرُ فَيَأْخُذُهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْصُحَ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى : قَالَ : قُلْتُ لَهُمَا : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا ؟ قَالَ : قَالَا لِي : انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا فَاتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَيَّ وَجْهِهِ فَيُشْرِشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ ، وَمَنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ ، فَمَا يَقْرُعُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَبْصُحَ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى قَالَ : قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا ؟ قَالَ : قَالَا لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا فَاتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُورِ ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ ، قَالَ : فَاطْلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا قَالَ : قُلْتُ لَهُمَا : مَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : قَالَا لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ . فَانْطَلَقْنَا فَاتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَغْفِرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَفَرَّ لَهُ فَاهُ فَالْقَمَهُ حَجَرًا ، قَالَ : قُلْتُ لَهُمَا : مَا هَذَا ؟ قَالَ : قَالَا لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا فَاتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرْأَةَ^(٢) كَأَكْرَهَ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ رَجُلًا مَرَأَةً ، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا ، قَالَ : قُلْتُ لَهُمَا : مَا هَذَا ؟ قَالَ : قَالَا لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا فَاتَيْنَا

(١) يثلع رأسه : يخذشه .

(٢) المرأة : المنظر .

عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَةٍ^(١) فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طَوْلًا فِي السَّمَاءِ ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وَلَدَانِ رَأَيْتَهُمْ قَطَّ قَالَ : قُلْتَ لَهُمَا : مَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : قَالَا لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَاَنْطَلِقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى دَوْحَةٍ^(٢) لَمْ أَرِ دَوْحَةً قَطَّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلَا أَحْسَنَ ، قَالَ : قَالَا لِي : ارْقُ فِيهَا ، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بَلْبِينَ^(٣) ذَهَبٍ وَلَبِنَ فِضَّةٍ ، قَالَ : فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِّحَ لَنَا فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رَجَالٌ شَطْرَ مَنْ خَلَقَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ ، وَشَطْرَ كَأَفْجَحٍ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ قَالَ : قَالَا لَهُمْ : اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ قَالَ : وَإِذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَخْضُ^(٤) فِي الْبَيَاضِ ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ قَالَ : قَالَا لِي : هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ ، وَهَذَاكَ مِثْلُكَ قَالَ : فَسَمَا بَصْرِي صُعْدًا فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ^(٥) الْبَيْضَاءِ قَالَ : قَالَا لِي : هَذَاكَ مِثْلُكَ قَالَ : قُلْتَ لَهُمَا : بَارَكَ اللَّهُ فَيَكُمَا دَرَانِي فَأَدْخَلَهُ قَالَا : أَمَا الْآنَ فَلَآ ، وَأَنْتَ دَاخِلُهُ . قَالَ : قُلْتَ لَهُمَا : فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ ؟ قَالَ : قَالَا لِي : أَمَا إِنَّا سَنَخْبِرُكَ ، أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ يُتْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ يُشْرَشِرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْجَرُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْأَفَاقَ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ وَالنِّسَاءُ الْعَرَاةُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُورِ فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزُّوَانِي ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ وَيُلْقِمُ الْحَجَرَ فَإِنَّهُ آكَلُ الرَّبَا ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرْبِيُّ الْمَرْأَةُ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحْشُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا فَإِنَّهُ مَالِكُ خَازَنِ جَهَنَّمَ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ، وَأَمَّا الْوَلَدَانِ حَوْلَهُ فَكُلُّهُمَا مَوْلِدُ مَاتِ

(١) يُقَالُ اعْتَمَ النَّبَاتُ أَيِ طَالَ وَاكْتَمَلَ نَمُوهُ .

(٢) الدَّوْحَةُ : الشَّجَرَةُ الْعَظِيمَةُ .

(٣) اللَّبِنُ : جَمْعُ لَبْنَةٍ وَهِيَ الَّتِي يَبْنِي بِهَا مِنَ الطِّينِ الْمَضْرُوبِ .

(٤) الْمَخْضُ : الْخَالِصُ .

(٥) الرَّبَابَةُ : السَّحَابَةُ الْبَيْضَاءُ .

على الفِطْرَةِ ؛ قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : وأولاد المشركين ، وأُمَّا القَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطَرُ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطَرُ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا نَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

وقال أبو مسلم الكجِّي^(١) : حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ جَابِرٍ ، عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو أَمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ فَأَخَذَا بِضَبْعَيْ^(٢) فَأَخْرَجَانِي فَأَتَيَا بِي جِبْلًا وَعَرًّا وَقَالَا لِي : اصْعَدْ فَقُلْتُ : إِنِّي لَا أُطِيقُهُ فَقَالَا : سَنَسْهَلُهُ لَكَ قَالَ : فَصَعِدْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ^(٣) إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ مَدِيدَةٍ فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ ؟ فَقَالَا : هَذَا عَوَاءُ أَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي فَإِذَا أَنَا بِفَوْجٍ أَشَدُّ شَيْءَ انْتِفَاحًا ، وَأَنْتَنهُ رِيحًا ، وَأَسْوَاهُ مَنْظَرًا ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ فَقَالَا : هَؤُلَاءِ قَتَلُوا الْكَفَّارَ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي فَإِذَا بِفَوْجٍ أَشَدُّ شَيْءَ انْتِفَاحًا ، وَأَنْتَنهُ رِيحًا ، كَأَنَّ رِيحَهُمُ الْمَرَحِيضُ فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَاتِي^(٤) .

وقال قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ : حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ قَيْسٍ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَيْلَةُ أُسْرِي بِي انْطَلَقَ بِي إِلَى خَلْقٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَثِيرٍ ، نِسَاءٌ مُعَلِّقَاتُ بُتْدِيَهِنَّ وَمِنْهُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ مَنَكِسَاتٌ ، وَلِهِنَّ صَرَخٌ وَخَوَارٌ فَقُلْتُ : يَا جَبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ اللَّوَاتِي يَزْنِينَ وَيَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَيَجْعَلْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ وَرَثَةً مِنْ غَيْرِهِمْ . »

وقال أَبُو نُعَيْمٍ الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ^(٥) : حَدَّثَنَا عَبْدِ السَّلَامُ بْنُ شَدَّادٍ ، عَنْ

(١) أبو مسلم الكجِّي ، وهو إبراهيم بن عبد الله البصري من حفاظ الحديث نسبة إلى كج بخوزستان فارس توفي سنة ٢٩٢ هـ . راجع تَذَكُّرُةُ الْحِفَافِ (٢ / ١٧٦) ، وتاريخ بغداد (٦ / ١٢٠) .

(٢) الضبع : مفرد جمعه أضياع ، وهو ما بين الإبط إلى نصف العضد .

(٣) سواء الجبل : وسطه .

(٤) الحديث ذكره المنذري في الترغيب والترهيب بتمامه .

(٥) الفضل بن دكين ، وهو محدث حافظ من أهل الكوفة من شيوخ البخاري ومسلم ، توفي سنة =

عَزَّوَانِ بْنِ جَرِيرٍ ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُمْ تَذَاكُرُوا عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْفَوَاحِشَ فَقَالَ لَهُمْ : هَلْ تَدْرُونَ أَيُّ الزَّنَى أَعْظَمُ ؟ قَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كُلُّهُ عَظِيمٌ قَالَ : وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكُمْ بِأَعْظَمِ الزَّنَى عِنْدَ اللَّهِ ، هُوَ أَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِزَوْجَةِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ فَيَصِيرَ زَانِيًا وَقَدْ أَفْسَدَ عَلَى الرَّجُلِ زَوْجَتَهُ . ثُمَّ قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ : إِنْ النَّاسُ يُرْسَلُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِيحٌ مُنْتَنَةٌ حَتَّى يَتَأَذَى مِنْهَا كُلُّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مِنْهُمْ كُلُّ مَبْلَغٍ وَأَلَمَتْ^(١) أَنْ تَمْسَكَ بِأَنْفَاسِ الْأُمَمِ كُلِّهِمْ نَادَاهُمْ مَنَادٌ يُسْمِعُهُم الصَّوْتُ وَيَقُولُ لَهُمْ : هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي قَدْ آذَتْكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : لَا نَدْرِي وَاللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ بَلَغَتْ مِنَّا كُلَّ مَبْلَغٍ ، فَيَقَالَ : أَلَا إِنَّهَا رِيحُ فُرُوجِ الزَّانَةِ الَّذِينَ لَقُوا اللَّهَ بِزَنَاهُمْ وَلَمْ يَتُوبُوا مِنْهُ ، ثُمَّ يَصْرَفُ بِهِمْ ، فَلَمْ يَذْكُرْ عِنْدَ الصَّرْفِ بِهِمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا .

وَقَالَ الْخَرَّاطِيُّ^(٢) : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ دَاوُدَ الْقَنْطَرِيُّ ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَفِيرٍ ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَشَنِيُّ ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ الْأَعْمَشِ ، عَنْ شَقِيقٍ ، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاكُمْ وَالزَّوْنَى فَإِنَّ فِيهِ سِتٌّ خِصَالٌ : ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثٌ فِي الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الدُّنْيَا فَذَهَابُ الْبَهَاءِ ، وَدَوَامُ الْفَقْرِ ، وَقَصْرُ الْعُمُرِ . وَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الْآخِرَةِ فَسَخَطُ اللَّهِ ، وَسُوءُ الْحِسَابِ ، وَدُخُولُ النَّارِ »^(٣) .

وَيُذَكَّرُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : الْمُتَّقِمُ عَلَى الزَّوْنَى كَعَابِدِ

= ٢١٩ هـ . الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٢١٩) ، وتاريخ بغداد (١٢ / ٣٤٦) ، ومناقب الإمام أحمد (٣٩٥) .

(١) أَلَمْتُ : يُقَالُ أَلَمَ بِهِ وَالْمُ بِالْقَوْمِ إِذَا نَزَلَ بِهِ أَوْ نَزَلَ بِهِمْ .

(٢) الْخَرَّاطِيُّ : وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَهْلِ أَبِي بَكْرٍ الْخَرَّاطِيُّ السَّامَرِيُّ ، مِنْ حِفَافِ الْحَدِيثِ مِنَ السَّامِرَةِ بِفِلَسْطِينَ تُوْفِيَ بِبَافَا سَنَةَ ٢٧٠ هـ . تَقْرِيبًا . رَاجِعْ شَذَرَاتِ الذَّهَبِ (٢ / ٣٠٩) ، وَدَارُ الْكُتُبِ (٧ / ٩١) ، وَإِرْشَادُ الْأَرِيبِ (٦ / ٤٦٤) .

(٣) الْحَدِيثُ ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ بِنَحْوِهِ فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ ، وَقَالَ رَوَاهُ الْخَرَّاطِيُّ فِي مَسَاوِيهِ الْأَخْلَاقِ ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ وَضَعْفَهُ ، وَأَبُو الْفَتْحِ الرَّاشِدِيُّ فِي جَزْئِهِ وَالرَّافِعِيُّ . رَاجِعْ هَامِشَ الْمَطْبُوعَةِ ص ٣٥٧ .

وثني ، ورفعهم بعضهم ، وهذا أولى أن يُشبهه بعابد الوثن من مُدْمِن الخمر ، وفي المسند وغيره مرفوعاً : مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثْنٍ . فَإِنَّ الزُّنَى أَعْظَمُ مِنْ شَرْبِ الْخَمْرِ . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : ليس بعد قتل النفس أعظم من الزُّنَى .

وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أيُّ الذنوبِ أعظمُ عند الله ؟ قال : أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقُكَ ، قال : قلت : ثم أي ؟ قال : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ ، قال : قلت : ثم أي ؟ قال : أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةٍ^(١) جَارِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ﴾^(٢) .

وقال قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ : حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ ، عَنْ ابْنِ أَنْعَمٍ ، عَنْ رَجُلٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِ وَيَقُولُ لَهُ : أَدْخُلِ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ » وذكر سفيان بن عُيَيْنَةَ ، عن جامع بن شَدَّاد ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : إِذَا بُخَسَ الْمَكِّيَالُ حُبْسُ الْقَطْرِ ، وَإِذَا ظَهَرَ الزُّنَى وَقَعَ الطَّاعُونَ ، وَإِذَا كَثُرَ الْكَذِبُ كَثُرَ الْهَرَجُ .

وفي الصحيحين من حديث الأعمش ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخُ زَانٍ . وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ »^(٣) .

(١) الحليلة : الزوج .

(٢) الفرقان (٢٥ / ٦٨) .

(٣) الحديث : لم يرد في صحيح البخاري كما ذكر المؤلف لكنه في الجامع الصغير للسيوطي والترغيب والترهيب دون أن يشير فيه إلى رواية البخاري إنما قال : رواه مسلم والنسائي وزاد في الزواجر =

وذكر سفيان الثوري ، عن منصور ، عن رُبَيعِ بنِ جِرَاش ، عن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ ثَلَاثَةً : الشَّيْخُ الزَّانِي ، وَالْمُقِلُّ ^(١) الْمُخْتَال ، وَالْبَخِيلُ الْمَنَان » ^(٢) .

وذكر الأعمش ، عن خَيْثَمَةَ ، عن أَبِي عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشٍ الْمُغْيِبَةِ مَثَلُ الَّذِي يَنْهَشُهُ الْأَسَاوِدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٣) . الْمُغْيِبَةُ هي التي قد سافر زوجها في جهادٍ أو حجٍّ أو غيرهما ، وفي النسائي وغيره من حديث بُريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ إِلَّا نُصِبَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَيْقَالٌ : يَا فَلَانُ هَذَا فَلَانٌ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ ، ثُمَّ أَلْتَمَتِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : « مَا تَرَوْنَ يَدْعُ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئًا ؟ » وَفِي لَفْظٍ : « وَإِذَا خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ فَخَانَهُ قِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا خَانَكَ فِي أَهْلِكَ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ فَمَا ظَنُّكُمْ ؟ »

ويكفي في قُبْحِ الزَّانِي أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أَفْحَشَ الْقَتْلَاتِ وَأَصْعَبَهَا وَأَفْضَحَهَا ، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيبَ فاعِلِهِ ، ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقلَ له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال : رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردةٍ فاجتمع عليهما القروذ فرجموهما حتى ماتا وكنتُ فيمن رجمهما .

= أحمد . وذكر السيوطي أنه رواية مسلم والنسائي وصححه في الجامع الصغير (١ / ١٤١) .

(١) المقل : الفقير .

(٢) الحديث رواه أحمد وابن حبان والضياء المقدسي .

(٣) الحديث ، رواه الخرائطي والطبراني في الكبير في مساويء الأخلاق .

فصل

والزنى يجمع خلال الشرّ كلّها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة ، فلا تجد زانياً معه ورع ، ولا وفاءً بعهده ، ولا صدقاً في حديث ، ولا محافظةً على صديق ، ولا غيرةً تامةً على أهله . فالغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته .

ومن موجباته غضبُ الربِّ بإفساد حرمه وعياله ، ولو تعرّض رجلٌ إلى ملكٍ من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة . ومنها سوادُ الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقّت الذي يبدو عليه للنّاظرين ، ومنها ظلمةُ القلب وطُمسُ نوره وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له . ومنها الفقرُ اللازم . وفي أثرٍ يقول الله تعالى : ﴿ اَنَا اللَّهُ مُهْلِكُ الطُّغَاةِ ، وَمُفْقِرُ الزُّنَاةِ ﴾ . ومنها أنه يذهب حُرمةُ فاعله ، ويُسقطه من عين ربه ومن أعين عباده . ومنها أنه يسلبه أحسنَ الأسماء وهو اسمُ العِفَّةِ والبرِّ والعدالة ، ويعطيه أصدأها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن . ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ »^(١) . فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان . وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخطّ دائرةً في الأرض وقال : هذه دائرة الإيمان ، ثم خطّ دائرةً أخرى خارجةً عنها وقال : هذه دائرة الإسلام ، فإذا زنى العبد خرج من هذه ، ولم يخرج من هذه . ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمى مؤمناً ، كما أن الرجل يكون معه جزءٌ من العلم والفقه ولا يسمى به عالماً فقيهاً ، ومعه جزءٌ من الشجاعة والجدود ولا يسمى بذلك شجاعاً ولا جواداً ، وكذلك يكون معه شيءٌ من التقوى ولا يسمى

(١) الحديث صحيح ولكن ليس معنى هذا أنه يخرج كلية من نطاق الإيمان المطلق فالنبي صلى الله عليه وسلم رجم الغامدية وما عزم صلى عليهما ، ولو خرج الزاني من الملة ما صلى عليه .

مُتَقِيًّا . ونظائره . فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يُتَأَوَّل بما يخالف ظاهره والله أعلم . ومنها أن يعرّض نفسه لُسُكْنَى التُّور الذي رأى النبي صلى الله عليه وسلم فيه الزُّنَاةَ والزواني . ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزُّنَاة كما قال الله تعالى : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ (١) .

وقد حرّم الله الجَنَّةَ على كل خبيث ، بل جعلها مأوى الطَّيِّبِينَ ، ولا يدخلها إلا طيب . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٣) . فإنما استحقوا سلامَ الملائكة ودخولَ الجنة بطيبهم ، والزُّنَاة من أخبث الخلق ، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله ، فإذا كان يوم القيامة ميّز الخبيث من الطيب وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم فلا يدخل النار طيب ، ولا يدخل الجنة خبيث .

ومنها الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني ، وهي نظير الوحشة التي تملو وجهه ، فالعفيف على وجهه حلاوة وفي قلبه أنس ، ومن جالسه استأنس به ، والزاني تملو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش به ، ومنها قِلَّةُ الهَيِّبَةِ التي تَنَزَعُ من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له ، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم ، بخلاف العفيف فإنه يُرْزَقُ المهابة والحلاوة . ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة ولا يأمّنه أحدٌ على حُرْمَتِهِ ولا على ولده . ومنها الرائحة التي تفوح

(١) النور (٢٤ / ٢٦) .

(٢) النحل (١٦ / ٣٢) ، يقول ابن عباس رضي الله عنهما : « الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله ،

ويخبرونهم أنهم من أصحاب النعيم ومن أصحاب اليمين » . راجع الطبري (١٤ / ١٠١) .

(٣) الزمر (٣٩ / ٧٣) ، قال البيضاوي : « وجواب » إذا ، محذوف ، للدلالة على أن لهم من الكرامة

والتعظيم ما لا يحيط به الوصف أو البيان ، (٢ / ١٤٧) .

عليه يَشْمُها كل ذي قلبٍ سليمٍ ، تفوح من فيه وجسده ، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه ولكن كما قيل :

كلُّ به مثلٌ ما بي غير أنهم من غيرِ بعضهم للبعض عُذال

ومنها ضيقة الصدر وحرَّجه فإن الزناة يعاملون بضدِّ قصودهم^(١) ، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرَّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده ، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته ، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خيرٍ قط . ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانشرح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذي فاتته من اللذة أضعافُ أضعافٍ ما حصل له ، دغ ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته . ومنها أنه يُعرَّض نفسه لفوات الاستمتاع بالْحُورِ الْعِينِ في المساكن الطيبة في جنات عدن ، وقد تقدَّم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لائس الحرير في الدنيا بجِزْمانه نُبَسَه يوم القيامة ، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة ، فكذلك من تمتع بالصُّورِ المحرَّمة في الدنيا ، بل كل ما ناله العبد في الدنيا فإن توسَّع في حلاله ضقَّ من حظه يوم القيامة بقدر ما توسَّع فيه ، وإن ناله من حرامٍ فاتته نظيره يوم القيامة .

ومنها أن الزنى يُجرِّئه على قطيعة الرَّحِمِ وعقوقِ الوالدين وكسبِ الحرام وظُلْمِ الخلق وإضاعة أهله وعياله ، وربما قاده قسراً إلى سفك الدَّمِ الحرام ، وربما استعان عليه بالسحر والشرك وهو يدري أو لا يدري ، فهذه المعصية لا تَتِمُّ إلا بأنواعٍ من المعاصي قبلها ومعها ، ويتولَّد عنها أنواعٌ أُخرُ من المعاصي بعدها ، فهي محفوفةٌ بجندٍ من المعاصي قبلها وجندٍ بعدها ، وهي أجلب شيءٍ لشرِّ الدنيا والآخرة ، وأمنع شيءٍ لخير الدنيا والآخرة ، وإذا عَلِقَتْ بالعبد فوق في حبالها وأشراكها عزٌّ على الناصحين استنقاؤه ، وأعي الأطباء دواؤه ، فأسيْرُها لا يُفدي ،

(١) كذا وردت ولعل الأصوب (مقصوداتهم) .

وقتيها لا يُودى^(١) ، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم ، فإذا ابتلي بها عبد فليودع
نعم الله فإنها ضيقت سريع الانتقال ، وشيك الزوال . قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكِ بِأَنَّ
اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ
مِنْ وَالٍ ﴾^(٣) .

فصل

فهذا بعض ما في هذه السبيل من الضرر ، وأما سبيل الأمة اللوطية فذلك
سبيل الهالكين الْمُفْضِيَّةُ بسالكها إلى منازل المعذبين الذين جمع الله عليهم من
أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم ، لا من تأخر عنهم ولا من تقدّم ،
وجعل ديارهم وآثارهم عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتقين .

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنه وجد في
بعض ضواحي العرب رجلاً يُنْكَحُ كما تنكح المرأة ، فجمع أبو بكر رضي الله عنه
لذلك ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم علي بن أبي طالب
رضي الله عنه فاستشارهم ، فكان علي رضي الله عنه أشدهم قولاً فيه فقال : إن
هذا لم يعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة فصنع الله بهم ما قد علمتم ، أرى أن
تُحرقوه بالنار ، فأحرقوه بالنار^(٤) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من الصحابة والتابعين : يُرْجَمُ
بالحجارة حتى يموت أحصن أو لم يُحصن ، ووافقه على ذلك الإمام أحمد

(١) لا يودى : ليس له دية .

(٢) الأنفال (٨ / ٥٢) .

(٣) الرعد (١٣ / ١١) .

(٤) قال الهيثمي في الزواجر : « رواه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي » أ هـ .

واسحاق ومالك ، وقال الزُّهري : يُرْجَمُ أَحْصَنُ أَوْلَمَ يُحْصَنُ ، سَنَةٌ مَاضِيَةٌ ، وقال جابر بن زيد في رجل غَشِيَ رجلاً في دُبْرِهِ قال : الدُّبْرُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الْفَرْجِ ، يُرْجَمُ أَحْصَنُ أَوْلَمَ يُحْصَنُ ، وقال الشَّعْبِيُّ : يُقْتَلُ أَحْصَنُ أَوْلَمَ يُحْصَنُ .

وسئل ابن عباس عن اللوطي ما حُدِّه ؟ قال : يُنْظَرُ أَعْلَى بِنَاءٍ فِي الْمَدِينَةِ فَيُرْمَى مِنْهُ مُنْكَسَأً ثُمَّ يَتَّبَعُ بِالْحِجَارَةِ . وَرَجَمَ عَلِيٌّ لُوطِيًّا وَأَفْتَى بِتَحْرِيقِهِ . وَكَانَهُ وَأَيُّ جَوَازِ هَذَا وَهَذَا .

وقال إبراهيم النُّخعي : لو كان أحدٌ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُرْجَمَ مَرَّتَيْنِ لَكَانَ يَنْبَغِي لِلُّوطِيِّ أَنْ يُرْجَمَ مَرَّتَيْنِ . وَذَهَبَ طَائِفَةٌ إِلَى أَنَّهُ يُرْجَمُ إِنْ أَحْصَنَ وَيُجْلَدُ إِنْ لَمْ يُحْصَنَ . وَهَذَا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ ، وَعِطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَّاحٍ .

قال عطاء : شهدت ابن الزبير أَيْ بِسَبْعَةٍ أُخْذُوا فِي اللَّوْطِ : أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ قَدْ أَحْصَنُوا ، وَثَلَاثَةٌ لَمْ يُحْصَنُوا ، فَأَمَرَ بِالْأَرْبَعَةِ فَأَخْرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَرَجَمُوا بِالْحِجَارَةِ ، وَأَمَرَ بِالثَّلَاثَةِ فَضَرَبُوا الْحَدَّ وَفِي الْمَسْجِدِ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ . فَالصَّحَابَةُ اتَّفَقُوا عَلَى قَتْلِ اللَّوطِيِّ وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ قَتْلِهِ ، فَظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُمْ مِتَنَازَعُونَ فِي قَتْلِهِ وَلَا نِزَاعَ بَيْنَهُمْ فِيهِ إِلَّا فِي إِحْقَاقِهِ بِالزَّانِي أَوْ قَتْلِهِ مُطْلَقًا .

وقد اختلف الناس في عقوبته على ثلاثة أقوال : أَحَدُهَا أَنَّهَا أَعْظَمُ مِنْ عَقُوبَةِ الزَّانِي كَمَا أَنَّ عَقُوبَتَهُ فِي الْآخِرَةِ أَشَدُّ ، الثَّانِي أَنَّهَا مِثْلُهَا ، الثَّالِثُ أَنَّهَا دُونَهَا ، وَذَهَبَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ إِلَى أَنَّ عَقُوبَةَ الْفَاعِلِ كَعَقُوبَةِ الزَّانِي ، وَعَقُوبَةُ الْمَفْعُولِ بِهِ الْجَلْدُ مُطْلَقًا بِكَرٍّ كَانَ أَوْ نِيًّا قَالَ : لِأَنَّهُ لَا يَلْتَذُّ بِالْفِعْلِ بِهِ بِخِلَافِ الْفَاعِلِ .

وذهب بعضُ الفقهاء إلى أَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَالَ : لِأَنَّ الْوَازِعَ عَنْ ذَلِكَ مَا فِي الطَّبَاعِ مِنَ النَّفْثَةِ عَنْهُ وَاسْتِقْبَاحِهِ ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَنْ يُزْجَرَ

الشارع عنه بالحدّ كأكل العذرة^(١) والميئة والدم وشرب البول ، ثم قال هؤلاء : إذا أكثر منه اللوطي فلإمام قتله تعزيراً^(٢) ، صرح بذلك أصحاب أبي حنيفة .

والصحيح أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزاني لإجماع الصحابة على ذلك ولغلظ حرمة وانتشار فساد ، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أمة ما عاقب اللوطية .

قال ابن أبي نجيج^(٣) في تفسيره عن عمرو بن دينار في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : ما نَزَا^(٤) ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . وقال محمد بن مخلد : سمعت عباساً الدورّي يقول : بلغني أن الأرض تعج^(٥) إذا ركب الذكّر على الذكر . وذكر ابن الدنيا بإسناده عن كعب قال : كان إبراهيم يُشرف على سدوم^(٦) فيقول : ويل لك سدوم يوماً مالك ، فجاءت إبراهيم الرسل وكلّمهم إبراهيم في أمر قولم لوط قالوا : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ قال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾^(٧) فذهب بهم إلى منزله فذهبت امرأته فجاءه قومه يُهرعون إليه فقال : ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾^(٨) أزواجكم بهن . ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾^(٩) ؟ وجعل لوط الأضياف في بيته وقعد على باب البيت وقال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾^(١٠) قال : أي عشيرة تمنعني قال : ولم يُبعث نبي بعد لوط إلا في عز من قومه ، فلما رأت الرسل ما قد لقي لوط في سبهم ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا

(١) العذرة : الغائط .

(٢) التعزير : الزجر والتأديب لما هو دون الحد .

(٣) ابن أبي نجيج : لم أفد على ترجمته .

(٤) يقال نزا الفحل ينزو أي وثب بشب .

(٥) تعج : تصرخ وتصرح .

(٦) سدوم : قرية قوم لوط .

(٧) ، (٨) ، (٩) ، (١٠) هود (١١ / ٧٧ - ٧٨ - ٨٠ - ٨١) .

يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمَرْتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿١﴾ فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربةً طَمَسَتْ أَعْيُنَهُمْ قَالَ : وَالطَّمَسُ أَنْ تَذْهَبَ حَتَّى تَسْتَوِيَ ، وَاحْتَمَلَ مَدَائِنَهُمْ حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ سَمَاءِ الدُّنْيَا نَبِيْحَ كَلَابِهِمْ وَأَصْوَاتَ دُيُوكِهِمْ ، ثُمَّ قَلْبَهَا وَأَمَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ ^(٢) قَالَ : عَلَى أَهْلِ بَوَادِيهِمْ وَعَلَى رُعَاتِهِمْ وَعَلَى مَسَافِرِهِمْ ، فَلَمْ يَنْفَلِتْ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : نَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَادْخَلَ جَنَاحَهُ تَحْتَ مَدَائِنِ قَوْمِ لُوطٍ فَرَفَعَهَا حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نَبِيْحَ الْكَلَابِ وَأَصْوَاتَ الدَّجَاجِ وَالذِّبْيَكَةِ ، ثُمَّ قَلْبَهَا فَجَعَلَ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا ثُمَّ اتَّبَعُوا بِالْحِجَارَةِ .

وفي تفسير أبي صالحٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أَغْلَقَ لُوطٌ عَلَى ضَيْفِهِ الْبَابَ فَخَلَعُوا الْبَابَ وَدَخَلُوا ، فَطَمَسَ جَبْرِيلُ أَعْيُنَهُمْ فَذَهَبَتْ أَبْصَارُهُمْ فَقَالُوا : يَا لُوطُ جِئْنَا بِالسَّحَرَةِ ذِ وَتَوَعَّدُوهُ ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً قَالَ : يَذْهَبُ هَؤُلَاءُ وَتُوذَى ، فَقَالُوا : لَا تَخَفْ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ قَالَ لُوطٌ : السَّاعَةَ ، قَالَ جَبْرِيلُ : أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟ قَالَ : فَرُفِعَتِ الْمَدِينَةُ حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نَبِيْحَ الْكَلَابِ ثُمَّ أَقْلَبَتْ وَرَمُوا بِالْحِجَارَةِ . وَقَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ : لَمَّا أَرْسَلْتَ الرُّسُلَ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ لَتَهْلِكُكُمْ قِيلَ لَهُمْ : لَا تَهْلِكُوهُمْ حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ لُوطٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَطَرِيقَهُمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ قَالَ : فَاتُوا إِبْرَاهِيمَ فَبَشَّرُوهُ بِمَا بَشَّرُوهُ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ^(٣) قَالَ : كَانَ مُجَادِلَتُهُ إِيَّاهُمْ أَنْ قَالَ لَهُمْ : إِنْ كَانَ فِيهِمْ خَمْسُونَ أَتَهْلِكُونَهُمْ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهِمْ أَرْبَعُونَ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَثَلَاثُونَ ؟ قَالُوا : لَا ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَشْرَةٍ أَوْ خَمْسَةٍ ، فَاتُوا لُوطًا وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَعْمَلُ فِيهَا فَحَسِبَهُمْ ضَيْفًا ، فَاقْبَلَ بِهِمْ حِينَ أَمْسَى إِلَى أَهْلِهِ فَاتُوا مَعَهُ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : أَمَا تَرَوْنَ مَا يَصْنَعُ

(١) هود (١١/ ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١) .

(٢) سجيل : طين مطبوخ .

(٣) هود (١١ / ٧٤) والروع : الفزع .

هؤلاء؟ قالوا : وما يصنعون ؟ قال : ما من الناس أحدٌ شرُّ منهم ، قال : فانتهى بهم إلى أهله فانطلقت العجوز السوء امرأته فأتت قومه فقالت : لقد تضيف لوطاً الليلة قومٌ ما رأيت قطُّ أحسنَ وجوهاً ولا أطيبَ ريحاً منهم ، فأقبلوا يُهرعون إليه حتى دفعوا الباب ثم كادوا أن يقلبوه عليهم ، فقام ملكٌ بجناحه فصَفَّقَهُ دونهم ثم أغلق الباب ثم عَلَّوْا الأجاجير^(١) فجعل يخاطبهم فقال : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾^(٢) حتى بلغ ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾^(٣) فطمس جبريل أعينهم فما بقي أحدٌ منهم تلك الليلة حتى عَمِيَ قال : فباتوا بشرِّ ليلةٍ عُمِيًّا ينتظرون العذاب . قال : وسار بأهله واستأذن جبريل عليه السلام في هلاكهم فأذن له ، فارتفع بالأرض التي كانوا عليها فالوي^(٤) بها حتى سمع أهل السماء الدنيا ضَغَاءً^(٥) كلابهم ، وأوقد تحتها ناراً ثم قلبها بهم قال : فسمعت امرأته الوجبة^(٦) وهي معه فالتفت فأصابها العذاب .

وفي تفسير العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما : جادل إبراهيم الملائكة في قوم لوط أن يُتركوا فقال : أرايتم إن كان فيهم عشرة أبياتٍ من المسلمين أتركونهم ؟ فقالت الملائكة : ليس فيها عشرة أبيات ولا خمسة ولا أربعة ولا ثلاثة ولا اثنان ، فحزن إبراهيم على لوط وأهل بيته و ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾^(٧) فذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

(١) الأجاجير : جمع مفردة إجار وهو السطح .

(٢) هود (١١ / ٧٨) .

(٣) هود (١١ / ٨٠ - ٨١) .

(٤) ألوى بها : ذهب مصعداً بها .

(٥) الضغاء : الصياح من شدة الألم .

(٦) الوجبة : الصوت الساقط .

(٧) العنكبوت (٢٩ / ٣٢) . راجع حاشية الصاوي على الجلالين (٣ / ٢٣٦) . والغابرون :

الماضون الهالكون .

أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿١﴾ اِفْقَالَتْ الْمَلَائِكَةُ : ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ اُعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٢) فبعث الله إليهم جبريل فانتسف المدينة ومن فيها بأحد جناحيه فجعل عاليها سافلها وتبعتهم الحجارة بكل أرض . فأهلك الله سبحانه الفاعل والمفعول به ، والساكن الراضي ، والدال المحصن منهم وغير المحصن ، العاشق والمعشوق ، وأخذهم وهم في سكرة عشقهم يعمهون .

وذكر ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال : إن الملائكة حين دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم وحرص على كرامتهم ، وخالفته امرأته إلى فساق قومه فأخبرتهم أنه ضاف لوطاً أحسن الناس وجهاً وأنصرهم جمالاً وأطيبهم ريحاً ، فكانت هذه خيانتها التي ذكر الله عز وجل في كتابه . وفيه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ (٣) قال : واللّه ما زنتا ولا بغت امرأة نبي قط ف قيل له : فما كانت خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ؟ فقال ، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل على الضيف .

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده ، حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عبدالوارث حدثنا القاسم بن عبدالرحمن ، حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل قال : سمعت جابر بن عبدالله رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ » (٤) وقال هشام بن عمار : حدثنا عبدالعزيز الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ » (رواه الإمام

(١) و(٢) هود (١١ / ٧٤ - ٧٦) .

(٣) التحريم (٦٦ / ١٠) .

(٤) الحديث رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن ماجه .

(أحمد) وقال أَلْفَعْنِي : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ هُوَ الدَّرَاوَزِيُّ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو مَوْلَى الْمَطْلَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَنْطَبِ الْمَخْزُومِي ، عَنْ عِكْرَمَةَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيْرَ تَخُومِ الْأَرْضِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّه أَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ دَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ» (١) . هذا الإسناد على شرط البخاري .

وقال أبو داود الطيالسي : حَدَّثَنَا بَشْرُ بْنُ الْمَفْضَلِ ، عَنْ خَالِدِ الْحَذَّاءِ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِذَا بَاشَرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ» وَفِي لَفْظٍ : «إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ» (٢) .

وفي المسند والسنن من حديث عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» وَفِي لَفْظٍ : «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» (٣) وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرَطِ الْبُخَارِيِّ .

وروى سَهِيلُ بْنُ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَارْجُمُوهُ أَوْ قَالَ : فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» .

(١) الحديث رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي كما في التهذيب والترغيب . والتخوم : جمع تخم وهو الحد الفاصل بين أرضين ، وكمه الأعمى : أضله .

(٢) رواه البيهقي في السنن .

(٣) رواه أبو داود والترمذي كما قال ذلك الهيثمي في الزواجر .

وحرق اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء : أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، وهشام بن عبد الملك .

وقال حماد بن سلمة^(١) عن قتادة ، عن خلاص ، عن عبيد الله بن معمر قال : يُقْتَلُ اللُّوطِيُّ . وقال سعيد بن المسيب : عندنا على اللوطي الرجم أحسن أولم يُحْصَن سَنَةٌ ماضية ، وهذا يدل على أن ذلك سَنَةٌ مضى عليها العمل .

وقال الشعبي : يُقْتَلُ أُحْصِنُ أولم يُحْصَن . وقال الزهري وربيعة وابن هرمز ومالك بن أنس : عليه الرجم أُحْصِنُ أولم يُحْصَن .

وقال بعض العلماء : وإنما قال سعيد بن المسيب : إن ذلك سَنَةٌ ماضية لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » ، ولم يقل محصناً أو غير مُحْصَن .

وحرقهم أبو بكر رضي الله عنه بالنار بعد مشاورة الصحابة ، وأشار عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بذلك ، وحرقهم علي وابن الزبير كما ذكره الأجري وغيره عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر أنه وجد رجلاً في بعض ضواحي العرب يُنْكَحُ كما تُنْكَحُ المرأة ، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فقال علي : إن هذا ذنب لم يعمل به إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم ، أرى أن تحرقوه بالنار ، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحْرَقَ بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق .

(١) حماد بن سلمة : وهو حماد بن سلمة بن دينار البصري الربيعي بالولاء ، أبو سلمة مفتي البصرة وأحد رجال الحديث ورجال النحو كان حافظاً ثقة مأموناً ، ولكنه لما كبر ساء حفظه فتركه البخاري ، وأما مسلم فاجتهد وأخذ من حديثه بعض ما سمع قبل تغييره . تهذيب التهذيب (٣ / ١١) ، وميزان الاعتدال (١ / ٢٧٧) ، وحلية الأولياء (٦ / ٢٤٩) .

قال : وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبد الملك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يُرْجَم اللوطي بكرةً كان أو ثيئاً .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فاقْتُلُوهُ ، ولم يفرق أحدٌ منهم بين المحصن وغيره ، وصرح بعضهم بعموم الحكم للمحصن وغير المحصن ، فلذلك قال ابن المسيب : إن هذا سنة ماضية .

وفي مسائل إسحاق بن منصور الكوسج قلت لأحمد : يُرْجَم اللُّوطِيُّ أَحْصَنَ أَوْ لَمْ يُحْصَنَ ؟ فقال : يُرْجَمُ أَحْصَنٌ أَوْ لَمْ يُحْصَنَ . قال إسحاق بن راهويه : هو كما قال .

والسنة في الذي يعمل عمل قوم لوط أن يُرْجَمَ محصناً كان أو غير محصن لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فاقْتُلُوهُ » رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ، ثم أفتى ابن عباس بعد النبي صلى الله عليه وسلم فيمن يعمل عمل قوم لوط أنه يُرْجَمُ وإن كان بكرةً ، فحكم في ذلك بما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك روي عن علي بن أبي طالب مثل هذا القول إن اللوطي يُرْجَمُ ولم يذكر محصناً كان أو غير محصن ، وكذلك فعل الله سبحانه بقوم لوط ، وكذا يُروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه حرقهم بالنار . هذا كلام إسحاق رحمه الله .

وذكر الأجري^(١) في كتاب تحريم اللواط من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً : « سَبْعَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَيَقُولُ : ادْخُلُوا النَّارَ مَعَ

(١) الأجري : هو محمد بن الحسين بن عبدالله ، أبو بكر الأجري : فقيه شافعي محدث نسبة إلى آجر من قرى بغداد ، وتوفي سنة ٣٦٠ هـ . وفيات الأعيان (١ / ٤٨٨) ، وصفة الصفه (٢ / ٢٦٥) ، وكشف الظنون (١ / ٣٧) ، والنجوم الزاهرة (٤ / ٦٠) .

الدَّاحِلِينَ : الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَالنَّائِحُ يَدُهُ ، وَالنَّائِحُ الْبَهِيمَةُ ، وَالنَّائِحُ الْمَرْأَةُ فِي دُبُرِهَا ، وَالْجَامِعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَابْنَتِهَا ، وَالزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ ، وَالْمُؤْذِي لَجَارِهِ حَتَّى يَلْعَنَهُ .

وذكر عن أنس مرفوعاً نحوه وقال : « ادْخُلُوا النَّارَ أَوَّلَ الدَّاحِلِينَ إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا ، إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا ، إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا ، فَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ : » النَّائِحُ يَدُهُ ، وَالْفَاعِلُ ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَمُذْمِنُ الْخَمْرِ ، وَالضَّارِبُ أَبَوَيْهِ حَتَّى يَسْتَفِيثًا ، وَالْمُؤْذِي جِيرَانَهُ حَتَّى يَلْعَنُوهُ ، وَالزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ (١) .

وقال مجاهد : لو أن الذي يعمل ذلك العمل يعني عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً ، وقد ذكر الله سبحانه عقوبة اللوطية وما حل بهم من البلاء في عشر سور من القرآن وهي : سورة الأعراف ، وهود ، والجن ، والأنبياء ، والفرقان ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ، والصفات ، واقتربت الساعة ، وجمع على القوم بين عمي الأبصار وخسف الديار ، والقذف بالأحجار ، ودخول النار . وقال محذراً لمن عمل عملهم ما حل بهم من العذاب الشديد : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (٢) .

وقال بعض العلماء : إذا علا الذكر الذكر هربت الملائكة ، وعجت (٣) الأرض إلى ربها ، ونزل سخط الجبار جل جلاله عليهم ، وغشيتهم اللعنة ، وحفت بهم الشياطين ، واستأذنت الأرض ربها أن تخسف بهم ، وثقل العرش على حمَلَتِهِ ، وكبرت الملائكة ، واستعرت (٤) الجحيم ، فإذا جاءته رُسُلُ اللَّهِ لِقَبْضِ رُوحِهِ نقلوها إلى ديار إخوانهم ، وموضع عذابهم ، فكانت روحه بين أرواحهم . وذلك أضيّق مكاناً وأعظم عذاباً من تنور الزناة . فلا كانت لذة توجب هذا العذاب

(١) الحديث رواه الحسن بن عرفة في جزئه والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) هود (١١ / ٨٩) .

(٣) عجت : صاحت .

(٤) استعرت النار : توقدت والتهبت .

الآليم ، وتسوق صاحبها إلى مرافقة أصحاب الجحيم . تذهب اللذات ، وتُعقب الحشرات ، وتَفْنِي الشهوة ، وتَبْقَى الشقوة . وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يُنشد :

تَفْنِي اللَّذَاةَ مِمَّنْ نَالَ صِفْوَتَهَا مِنْ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْخِزْيُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغْبِيَّتِهَا^(١) لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

فصل

وأما إن كانت الفاحشة مع ذي رَجْمٍ مَحْرَمٍ ، فذلك الْهَلْكَ كُلُّ الْهَلْكَ ، ويجب قتل الفاعل بكل حال عند الإمام أحمد وغيره .

واحتج أحمد بحديث عَدِيٍّ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : لَقِيتُ خَالِي وَمَعَهُ الرَّايَةُ فَقُلْتُ : أَيْنَ تَرِيدُ ؟ قَالَ : بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً أَبِيهِ أَضْرَبَ عُنُقَهُ ، وَأَخَذَ مَالَهُ (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ) وَاحْتَجَّ بِهِ .

وقال شعبة : حَدَّثَنَا الرَّكِيُّ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ عَدِيٍّ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ : رَأَيْتُ أَنَسًا يَنْطَلِقُونَ فَقُلْتُ : أَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ قَالُوا : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَجُلٍ يَأْتِي امْرَأَةً أَبِيهِ أَنْ نَقْتُلَهُ .

وذكر عبد الله بن صالح : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ ، عَنْ عِكْرَمَةَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « اَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ وَالَّذِي يَأْتِي الْبَهِيمَةَ وَالَّذِي يَأْتِي كُلَّ ذَاتٍ مَحْرَمٍ » ، وقال هشام بن عمار : حَدَّثَنَا رِفْدَةُ بْنُ قُضَاعَةَ ، حَدَّثَنَا صَالِحُ بْنُ رَاشِدٍ قَالَ : أَتَى الْحَجَّاجُ بِرَجُلٍ قَدْ اغْتَضَبَ أُخْتَهُ عَلَى نَفْسِهَا فَقَالَ : احْبِسُوهُ وَسَلُّوهُ مَنْ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَسَالُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ مَطْرٍ^(٢) فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

(١) مغبة الأمر : عاقبه .

(٢) عبد الرحمن بن مطرف : هو عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الأنصاري أبو المطرف القنازعي ، =

صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ تَخَطَّى الْحُرْمَتَيْنِ فَخُطُوا وَسَطُهُ بِالسَّيْفِ » .
وأفتى ابنُ عباس رضي الله عنهما بمثل ذلك . وقال عمر بنُ شُبَّة : حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ
هشام ، حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : أَتَيْتُ الْحَجَّاجُ بِرَجُلٍ زَنِىَ بِأَخْتِهِ ، فَسَأَلَ عَنْهَا
عبدالله فقال : يُضْرَبُ بِالسَّيْفِ ، فَأَمَرَ بِهِ الْحَجَّاجُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ بِالسَّيْفِ .

وذكر جماعة عن حماد بن سَلَمَةَ ، عن بكر بن عبد الله المُرَئِيَّ أَنَّ رَجُلًا تَزَوَّجَ
خَالَتَهُ فَرَفَعَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَقَالَ : إِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّهَا تَحِلُّ لِي فَقَالَ : لَا
جَهَالَةَ فِي الْإِسْلَامِ وَأُظِنُّ أَنَّهُ أَمْرٌ بِهِ فَقُتِلَ . وفي مسائل صالح بن أحمد قال : سَأَلَتْ
أَبِي عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي تَزَوَّجَ ذَاتَ مَحْرَمٍ مِنْهُ فَقَالَ : إِنْ كَانَ عَمْدًا يُقْتَلُ وَيُؤْخَذُ مَالُهُ ،
وَإِنْ كَانَ لَا يَعْلَمُ يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا ، وَاسْتَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَا أَخَذَتْ مِنْهُ وَلَا يَرْجِعَ
عَلَيْهَا شَيْءٌ . وفي صحيفة عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَتَى ذَاتَ مَحْرَمٍ » .

= فقيه مالكي من رجال الحديث والتفسير من أهل قرطبة توفي سنة ٤١٣ هـ . الصلاة (٣١٦) والمغرب
في حلي المغرب (١ / ١٦٦) ، والديباج المذهب (١٥٢) ، والإعلام للزركلي (٤ / ١١٢) .

الباب الخامس والعشرون

في رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أعبائهم
في الرصال الذي يسميه الدرس

قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ ^(١) وكل من أعان غيره على أمرٍ بقوله أو فعله فقد صار شافعاً له ، والشفاعة للمشفوع له هذا أصلها ، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شفعاً في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها ، فدخل في حكم هذه الآية كل متعاونين على خيرٍ أو شرٍ بقولٍ أو عمل . ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ^(٢) . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا جاء طالب حاجة يقول : « اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رُسوله ما أحب » ^(٣) ، وفي صحيح البخاري أن بريرة لما عتقت اختارت نفسها فكان زوجها يمشي خلفها ودموعه تسيل على لحيته ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ رَاجَعْتِي فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكَ » فقالت : أتاُمُرُنِي ؟ قال : « لَا إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ » قالت : فلا حاجة لي فيه . فهذه شفاعة من سيد الشفعاء لمحِبٍّ إلى محبوبه ، وهي من أفضل الشفاعات وأعظمها

(١) النساء (٤ / ٨٥) .

(٢) المائدة (٥ / ٢) .

(٣) الحديث رواه الشيخان وذلك برواية « اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب » ويلفظ (ما شاء) عن أبي موسى وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١ / ٤٣) .

أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِنَّهَا تَتَضَمَّنُ اجْتِمَاعَ مُحِبِّينَ عَلَى مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلِهَذَا كَانَ أَحَبَّ مَا لِإِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ التَّفْرِيقُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمُحِبِّينَ . وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي الشَّفَاعَةِ الْحَسَنَةِ ﴿ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ﴾ وَفِي السَّيِّئَةِ ﴿ يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ . فَإِنَّ لَفْظَ الْكِفْلِ يُشْعِرُ بِالْحَمْلِ وَالثَّقَلِ ، وَلَفْظُ النَّصِيبِ يُشْعِرُ بِالْحِظِّ الَّذِي يَنْصَبُ طَالِبُهُ فِي تَحْصِيلِهِ ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْأَمْرَيْنِ عِنْدَ الْإِنْفِرَادِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا حَسَنُ اخْتِصَاصٍ حِظُّ الْخَيْرِ بِالنَّصِيبِ وَحِظُّ الشَّرِّ بِالْكِفْلِ .

وَفِي صَحِيفَةِ عَمْرِو بْنِ شَعِيبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوَّجَ ابْنَتَهُ لَهُ وَكَانَ خُطْبَاهَا قَبْلَ ذَلِكَ عَمَّ بَنَّتَهَا ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا كَارِهَةٌ هَذَا الَّذِي زَوَّجَهَا أَبُوهَا ، وَأَنَّهُ كَانَ يَعْبِجُهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا عَمُّ بَنَّتَهَا ، فَأَهْدَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِكَاحَ أَبِيهَا وَزَوَّجَهَا عَمَّ بَنَّتَهَا^(١) . وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ ، عَنْ طَاوُسٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فِي حِجْرِي يَتِيمَةٌ قَدْ خُطِبَهَا رَجُلٌ مُوسِرٌ وَرَجُلٌ مُعْدِمٌ ، فَنَحْنُ نَحِبُّ الْمُوسِرَ وَهِيَ تَحِبُّ الْمُعْدِمَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَيْسَ لِلْمُتَحَايَيْنِ مِثْلُ النِّكَاحِ » رَوَاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى عَنْهُ .

وَقَالَ مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ : حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ^(٢) قَالَ : كَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَعْشُ بِاللَّيْلِ فَسَمِعَ صَوْتَ امْرَأَةٍ تَغْنِي وَتَقُولُ :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَصْرٍ بِنِ حِجَّاجٍ فَقَالَ : أُمَّا وَعَمْرُ حَيٌّ فَلَا . فَلَمَّا أَصْبَحَ بَعَثَ إِلَى نَصْرٍ بِنِ حِجَّاجٍ فَإِذَا رَجُلٌ

(١) وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا الْبَخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ ، وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِ بِأَلْفَاظٍ أُخْرَى عَنْ خُنْسَاءَ بِنْتِ خُذَامِ الْأَنْصَارِيَّةِ .

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : الْبَصْرِيُّ الْأَنْصَارِيُّ بِالْوَلَاءِ ، أَبُو بَكْرٍ ، إِمَامُ عَصَرِهِ فِي عُلُومِ الدِّينِ بِالْبَصْرَةِ ، تَابِعِيٌّ مِنْ أَشْرَافِ الْكُتَّابِ ، مَوْلَدُهُ ، وَوَفَاتَهُ بِالْبَصْرَةِ نَشْأَ بَزَازًا فِي أَثْنِ عَشَرَ سَنَةً ، وَتَفَقَّهَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ ، وَاشْتَهَرَ بِالْوَرَعِ وَتَعَبِيرِ الرُّؤْيَا ، رَاجِعَ تَرْجُمَتُهُ فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ (٩ / ٢١٤) ، وَوَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ (١ / ٤٥٣) ، وَحُلِيِّ الْأَوَّلِيَاءِ (٢ / ٢٦٣) ، وَتَارِيخِ بَغْدَادَ (٥ / ٣٣١) .

جميلٌ فقال : اخرج فلا تساكني بالمدينة ، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مُجاشع بن مسعود ، وكانت له امرأةٌ جميلةٌ فأعجبها نصر ، فكتب لها نصر في الأرض كتاباً فقالت : وأنا ، فعلم مُجاشع أنها جواب كلام ، وكان مجاشع لا يكتب والمرأة تكتب ، فدعا بإناءٍ فأكفاه على المكتوب ودعا كاتباً فقرأه فإذا هو : إني لأُجَبُّكِ حباً لو كان فوقكِ لأَظَلُّكِ وَلَوْ كان تحتكِ لأَقْلُكِ^(١) ، وبلغ نصراً ما صنع مُجاشع فاستحيا ولَزِمَ بيته وَضَنِيَ جسمهُ حتى كان كالفرخ^(٢) ، فقال مجاشع لامرأته : اذهبي إليه فأَسْنِدِيهِ إلى صدرك ، وأطعميه الطعام بيدك ، فأبت ، فعزم عليها فَأَتَتْهُ فَأَسْنَدَتْهُ إلى صدرها وأطعمته الطعام بيدها ، فلما تحامل خرج من البصرة .

إِنَّ الَّذِينَ بِخَيْرٍ كُنْتَ تَذَكُرُهُمْ هُمْ أَهْلُكَوْكَ وَعَنْهُمْ كُنْتَ أَنْهَكَكَ لَا تَطْلُبُنْ شِفَاءَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ فَلَيْسَ يُخَيِّبُكَ إِلَّا مَنْ تَوَقَّأَكَ

فإن قيل : فهل تبيح الشريعة مثل ذلك ؟ قيل : إذا تعيَّن طريقاً للدواء ونجاة العبد من الهَلَكَةِ لم يكن بأعظم من مداواة المرأة للرجل الأجنبي ، ومداواته لها ، ونظير الطبيب إلى بدن المريض وَمَسَّهُ بيده لِلْحَاجَةِ . وأما التداوي بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجه ما ، وأما التداوي بالضمِّ والقُبلة فإن تحقق الشفاء به كان نظير التداوي بالخمير عند من يبيحه ، بل هذا أسهل من التداوي بالخمير فإن شُرْبَهُ من الكبائر . وهذا الفعل من الصغائر^(٣) . والمقصود أن الشفاعة للعشاق ، فيما يجوز من الوصال والتلاق ، سُنَّةٌ ماضية وسعيٌ مشكور .

وقد جاء عن غير واحدٍ من الخلفاء الراشدين وَمَنْ بعدهم أنهم شفَعُوا هذه الشفاعة .

(١) أَقْلُ الشيء : حملهُ .

(٢) الفرخ : ولد الطائر ، وكل صغير من الحيوان والنبات يقال له فرخ ، وهو أيضاً الدليل الطريد من الرجال .

(٣) وهذا الرأي نقض المؤلف رأياً آخرأ له فيه سبق ص ١٣٢ وما تلاها .

فقال الخرائطي : حدثنا علي بن الأعرابي ، حدثنا أبو غسان النهدي قال :
مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته بطريق من طرق المدينة فإذا جارية
تطحن برحاهها وهي تقول :

وهويته من قبل قطع تمائي متمايساً^(١) مثل القضيب الناعم
وكان نُورَ البدر سنةً وجهه ينمي^(٢) ويصعد في ذؤابة^(٣) هاشم

فدق عليها الباب فخرجت إليه فقال : وملك أحرّة أنت أم مملوكة ؟ فقالت :
بل مملوكة يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن هويت ؟ فبكت
ثم قالت : بحق الله إلا انصرفت عني ، قال : لا أريم^(٤) أو تعلميني فقالت :

وأنا التي لعب الغرام بقلبها فبكت لحب محمد بن القاسم
فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاه فاشترأها منه ، وبعث بها إلى
محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال : هؤلاء فتن الرجال ، وكم قد مات
بهن من كريم ، وعطب عليهن من سليم .

ويذكر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه جاءته جارية تستعدي على
رجل من الأنصار فقال لها عثمان : ما قصتك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين كلفتُ
بابن أخيه ، فما أنفك أراعيه ، فقال له عثمان : إما أن تهبها لابن أخيك أو أعطيك
ثمنها من مالي ، فقال : أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

وأتى علي بن أبي طالب بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل فقال له :
ما قصتك ؟ فقال : لست بسارق ولكني أصدقت .

تعلقت في دار الرياحي خودة يذل لها من حسننها الشمس والبدر

(١) متمايساً : من ماس أي اختال وتبخر في مشيته .

(٢) ينمي : يزيد .

(٣) الذؤابة : منبة الناصية من الرأس ، وذؤابة القوم : سيدهم والمقدم عليهم .

(٤) لا أريم : لا أبرح .

لها في بنات الروم حُسْنٌ وَمَنْصِبٌ إذا افتخرت بالحسن صدّقها الفخرُ
فلما طرقت الدارَ من حَرِّ مُهْجَةٍ أتيت وفيها من توقّدها جمرُ
تبادر أهل الدار لي ثم صيخوا هو اللصّ محتوماً له القتلُ والأسرُ

فلما سمع عليّ شعره رقّ له وقال للمهلب بن رباح : اسمع له بها ونعوضك
منها ، فقال : يا أمير المؤمنين سلّه مَنْ هو لنعرف نسبه ؟ فقال : النّهاسُ بن عُيَيْنَةَ
العُجْلِيّ ، فقال : خذها فهي لك .

وذكر التميمي في كتابه المسمى « بامتزاج النفوس » أن معاوية بن أبي سفيان
اشترى جارية من البحرين فأعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها :
وفارقت كالأغصن يهتزُّ في الثرى طَريراً وَسيماً بعدما طرَّ^(١) شاربه
فسألها فقالت : هو ابن عمي ، فردّها إليه وفي قلبه منها .

وقال سالم بن عبد الله : كانت عاتكة بنت زيد تحت عبد الله بن أبي بكر
لصديق رضي الله عنه ، وكانت قد غلبته على رأيه وشغلته عن سُوقه ، فأمره أبو
بكر بطلاقها واحدة ففعل ، فَوَجَدَ عليها فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة ،
لما بَصُرَ بأبي بكر بكى وأنشأ يقول :

لم أر مثلي طَلَّقَ اليومَ مثلها ولا مثلها غي غير جُرْمٍ يَطْلُقُ
بها خُلُقٌ جَزَلٌ^(٢) وَحَلَمٌ وَمَنْصِبٌ وَخُلُقٌ سَوِيٌّ فِي الْحَيَاةِ وَمُضْطَقٌ

فرّق له أبو بكر رضي الله عنه وأمره بمراجعتها ، فلما مات قالت تراثيه :

أَلَيْتُ^(٣) لا تنفك عيني سخينة^(٤) عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

(١) طر شاربه : نبت وظهر .

(٢) الخلق الجزل : الكريم الخلال ، المحمود النقيبة

(٣) كذا وردت وفي الأغاني (فأنسمت) .

(٤) عين سخينة : حزينة من الأسى .

فَلَلَّهُ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَهُ فَتَى أَعْفُ وَأَمْضَى فِي الْهِجَابِ وَأَصْبَرَا
إِذَا شَرَعَتْ^(١) فِيهِ الْأَسِنَّةُ خَاضَهَا إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى يَتْرِكَ الرَّمَحَ أَحْمَرَا

فَلَمَّا حَلَّتْ تَزَوُّجَهَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَوَّلَمَ عَلَيْهَا ، فَقَالَ لَهُ
عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَتَأْذِنُ لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْخُلَ رَأْسِي إِلَى
عَاتِكِ أَكْلُمَهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَادْخُلِ عَلَيَّ رَأْسَهُ إِلَيْهَا وَقَالَ : يَا عُدِّيَّةُ نَفْسُهَا .

أَلَيْتَ لَا تَنْفُسُكَ عَيْنِي قَرِيرَةً عَلَيْكَ وَلَا يَنْفُكُ جُلْدِي أَصْفَرَا

فَبَكَتْ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ : مَا دَعَاكَ إِلَى هَذَا يَا أَبَا الْحَسَنِ ؟ كُلُّ النِّسَاءِ يَفْعَلْنَ
هَذَا . فَلَمَّا قُتِلَ عَمْرٌ قَالَتْ تَرْتِيهِ :

عَيْنَ جُودِي بِعَبْرَةٍ وَنَحِيبٍ لَا تَمْلِي عَلَى الْجَوَادِ النُّجِيبِ
فَجَعَلْتَنِي الْمُنُونِ بِالْفَارِسِ الْمُعْلَمِ يَوْمَ الْهِجَابِ وَالتَّشْوِيبِ^(٢)
قُلْ لِأَهْلِ الضَّرَاءِ وَالْبُؤْسِ مَوْتُوا قَدْ سَقَتَهُ الْمُنُونُ كَأْسَ شَعُوبِ^(٣)

فَلَمَّا حَلَّتْ تَزَوُّجَهَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ، فَاسْتَأْذَنْتْ لَيْلَةً أَنْ تَخْرُجَ إِلَى الْمَسْجِدِ
فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَكَرِهَ أَنْ يَمْنَعَهَا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَمْنَعُوا
إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ »^(٤) فَأْذِنَ لَهَا ثُمَّ انْكَمَى^(٥) فِي مَوْضِعٍ مَظْلَمٍ مِنَ الطَّرِيقِ ،
فَلَمَّا مَرَّتْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا ، فَكَرَّتْ رَاجِعَةً تَسْبِيحُ ، فَسَبَقَهَا الزُّبَيْرُ إِلَى الْمَنْزِلِ ، فَلَمَّا
رَجَعَتْ قَالَ لَهَا : مَا رَدُّكَ عَنْ وَجْهِكَ ؟ قَالَتْ : كُنَّا نَخْرُجُ وَالنَّاسُ نَاسٌ ، وَأَمَّا الْيَوْمَ
فَلَا . وَتَرَكْتُ الْمَسْجِدَ ، فَلَمَّا قُتِلَ الزُّبَيْرُ قَالَتْ تَرْتِيهِ :

(١) شرعت فيه الأسنة : تسللت .

(٢) التشويب : هي قول المؤذن في أذان الفجر « الصلاة خير من النوم » .

(٣) شعوب : اسم من أسماء المنية لأنها تشعب أي تفرق .

(٤) تقدم تخريج هذا الحديث .

(٥) انكمى : استتر واختفى .

غدر ابن جُرْمُوز بفارس بُهْمَةً^(١) يوم اللقاء وكان غير مُعَرَّدٍ^(٢)
يا عمرو لو نُبِّهْتَهُ لوجدتَهُ لا طائشاً رَعِشَ السَّنانِ ولا اليد
ثكلتك أُمُّكَ إن ظفرت بمثله فيما مضى حتى تروخ وتغتدي
كم غمرة^(٣) قد خاضها لم يثْنِه عنها طرادك يا ابن أُمِّ الفرقد^(٤)
إن الزبير لذو بلاء صادق سمح سجيته كريم المشهد
فلما حلت خطبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالت : إني لأضن بك
على القتل .

وذكر الخرائطي أن المهدي خرج إلى الحج حتى إذا كان بزباله^(٥) جلس
يتغذى فأتى بدوي فناداه : يا أمير المؤمنين إني عاشق ، ورفع صوته ، فقال
للحاجب : ويحك ما هذا ؟ قال : إنسان يصيح إني عاشق ، قال : أدخلوه ،
فأدخلوه عليه فقال : مَنْ عَشِيقَتُكَ ؟ قال : ابنة عمي ، قال : أُولَها أَب ؟ قال :
نعم ، قال : فما له لا يزوجه إياها ؟ قال : ها هنا شيء يا أمير المؤمنين ، قال :
ما هو ؟ قال : إني هَجِينٌ - والهجين : الذي أُمُّهُ أُمَةٌ ليست عربية - قال له
المهدي : فما يكون ؟ قال : إنه عندنا عيبٌ ، فأرسل في طلب أبيها فأتى به ،
فقال : هذا ابن أخيك ؟ قال : نعم ، قال : فلم لا تزوجه كريمتك ؟ فقال له مثل
مقالة ابن أخيه ، وكان من ولد العباس عنده جماعة ، فقال : هؤلاء كلهم بنو
العباس وهم هُجْنٌ ما الذي يضرهم من ذلك ؟ قال : هو عندنا عيبٌ ، فقال له
المهدي : زوجه إياها على عشرين ألف درهم ، عشرة آلاف للعب ، وعشرة
آلاف مهرها ، قال : نعم ، فحمد الله وأثنى عليه وزوجه إياها ، فأتى بِبَذْرَتَيْنِ
فدفعهما إليه فأنشأ الشاب يقول :

(١) البهمة : الشجاع يستهم على أعدائه وجه سحفه لهم .

(٢) معرَّد : هارب وناكل محجم .

(٣) الغمرة : الشدة .

(٤) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالي .

(٥) زباله : بضم الزاي المعجمة : منزل بطريق مكة من الكوفة .

إِبْتَعْتُ ظَبِيَّةً بِالْفَلَاءِ وَإِنَّمَا يُعْطِي الْفَلَاءَ بِمِثْلِهَا أَمْثَالِي
وَتَرَكْتُ أَسْوَاقَ الْقَبَاحِ لِأَهْلِهَا إِنْ الْفَيْحَاحِ وَإِنْ رَخُصْنَ غَوَالِي

وذكر الخرائطي من حديث الهيثم بن عدي عن عَوَاثَةَ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّ عَمْرَ بْنَ
أَبِي رَبِيعَةَ كَانَ قَدْ تَرَكَ الشَّعْرَ وَرَغِبَ عَنْهُ وَنَذَرَ عَلَى نَفْسِهِ بِكُلِّ بَيْتٍ يَقُولُهُ هَذِي^(١)
بَذَنَةً^(٢) ، فَمَكَتَ كَذَلِكَ حِينًا ثُمَّ خَرَجَ لَيْلَةً يَرِيدُ الطَّوْافَ بِالْبَيْتِ إِذْ نَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ
ذَاتِ جَمَالٍ تَطْوِفُ ، وَإِذَا رَجُلٌ يَتْلُوهَا ، كُلَّمَا رَفَعَتْ رِجْلَهَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ
رِجْلِهَا ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمَا ، فَلَمَّا فَرَّغَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ طَوَافِهَا تَبِعَهَا
الرَّجُلُ هُنَيْئَةً ثُمَّ رَجَعَ ، فَلَمَّا رَأَى عَمْرٌ وَثَبَ إِلَيْهِ وَقَالَ : لَتُخْبِرَنِي عَنْ أَمْرِكَ ، قَالَ :
نَعَمْ ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي رَأَيْتَ ابْنَتُ عَمِّي وَأَنَا لَهَا عَاشِقٌ وَلَيْسَ لِي مَالٌ ، فَخَطَبْتُهَا إِلَى
عَمِّي فَرَغِبَ عَنِّي^(٣) وَمَا لَنِي الْمَهْرُ مَا لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَالَّذِي رَأَيْتَ هُوَ حَظِّي مِنْهَا ،
وَمَالِي مِنَ الدُّنْيَا أَمْنِيَّةٌ غَيْرُهَا ، وَإِنَّمَا أَلْقَاهَا عِنْدَ الطَّوْافِ وَحَظِّي مَا رَأَيْتَ مِنْ فَعْلِي .
فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ : وَمَنْ عَمُّكَ ؟ قَالَ : فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ ، قَالَ : انْطَلِقْ مَعِيَ إِلَيْهِ ،
فَانْطَلِقَا ، فَاسْتَخْرَجَهُ عَمْرٌ فَخَرَجَ مُبَادِرًا فَقَالَ : مَا حَاجَتُكَ يَا أَبَا الْخَطَّابِ ؟ قَالَ :
تَزَوَّجْ ابْنَتَكَ فُلَانَةَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فُلَانٍ ، وَهَذَا الْمَهْرُ الَّذِي تَسْأَلُهُ يُسَاقُ إِلَيْكَ مِنْ
مَالِي ، قَالَ : فُلَانِي قَدْ فَعَلْتُ . قَالَ عَمْرٌ : إِنِّي أُحِبُّ أَنْ لَا أُبْرَحَ حَتَّى يَجْتَمِعَا ،
قَالَ : وَذَلِكَ أَيْضًا ، قَالَ : فَلَمْ يَتَّخِذْ حَتَّى جَمَعَهُمَا جَمِيعًا ، وَأَتَى مَنَزْلَهُ فَاسْتَلْقَى
عَلَى فِرَاشِهِ فَجَعَلَ النَّوْمَ لَا يَأْخُذُهُ ، وَجَعَلَ جَوْفُهُ يَجِيشُ^(٤) بِالشَّعْرِ ، فَأَنْكَرَتْ جَارِيَتُهُ
ذَلِكَ ، فَجَعَلَتْ تَسْأَلُهُ عَنْ أَمْرِهِ وَتَقُولُ : وَيْحَكَ مَا الَّذِي قَدْ دَهَكَ ؟ فَلَمَّا أَكْثَرَتْ
عَلَيْهِ جُلُوسَ وَأَنْشَدَ :

تَقُولُ وَلَيْدَتِي لَمَّا رَأَيْتَنِي طَرِبْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينَا

(١) الهدي : ما يهدي إلى الحرم من النعم .

(٢) البذنة : بقرة أو ناقة تنحر بمكة وسميت بذلك لأنهم يقدونها بسخاء لأجل ذلك .

(٣) رغب هني : انصرف هني .

(٤) يجيش : يفيض ويكثر .

أراك اليوم قد أحدثت شوقاً وهاج لك البكا داءً دفيناً^(١)
 بربك هل أتاك لها رسولٌ فشاقتك أم رأيت لها خديناً^(٢)
 فقلت شكاً إليّ أخٌ محبٌ كبعض زماننا إذ تعلمينا
 فعُدّ عليّ ما يلقى بهندٍ فوافق بعض ما كنّا لقينا
 وذو القلب المصاب وإن تعزى يهيج حين يلقي العاشقينا
 وكم من خلّة^(٣) أعرضت عنها لغير قلبي وكنّت بها ضيناً^(٤)
 رأيت صدودها فصلدت عنها ولو هام الفؤاد بها جنونا

وعرض خالد بن عبد الله القسريّ سجنه يوماً وكان فيه يزيد بن فلان
 البجلي^(٥) ، فقال له خالد : في أي شيء حبست يا يزيد ؟ قال : في تهمة - أصلح
 الله الأمير - قال : أفتعود إن أطلقتك ؟ قال : نعم ، وكره أن يعرض بقصته لثلا
 يفضح معشوقته ، فقال خالد : أحضروا رجال الحيّ حتى نقطع يده بحضرتهم ،
 وكان ليزيد أخٌ فكتب شعراً ووجه به إلى خالد :

أخالد قد أعطيت في الخلق رتبةً وما العاشق المسكينُ فينا بسارق
 أقرّ بما لم يأتِه المرءُ إنه رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق
 ولولا الذي قد خفت من قطع كفه لألفيت في شأن الهوى غيرَ ناطق
 إذا بدت الرايات للسبق في العلّى فأنت ابنُ عبد الله أولُ سابق

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله : فأحضر أولياء الجارية فقال : تزوجوا
 يزيد فتأنكّم ، فقالوا : أمّا وقد ظهر عليه ما ظهر فلا ، فقال : لئن لم تزوجوه
 طائعين لتزوّجنّه كارهين ، فزوّجوه ونقد خالد المهرَ من عنده .

(١) الداء الدفين : المضمّر غير الظاهر .

(٢) الخدين : الخليل والصديق وجمعه أخدان .

(٣) الخلّة : الخليل يطلق للمذكر والمؤنث .

(٤) ضنين بالشيء : شحيح به حريص على اقتنائه .

(٥) كذا وردت ولعلها (المجلي) كما في ديوان للصبابة وهو تحريف .

وذكر أبو العباس المبرّد قال : كان رجلٌ بالكوفة يدعى ليثُ بن زياد قد ربّى جاريةً وأدّبها فخرجت بارعةً في كل فنٍّ مع جمالٍ وافر ، فلم يزل معها مدّةً حتى تبيّنت منه الحاجة فقلت : يا مولاي لو بعثني كان أصلح لك مما أراك به وإن كنت لأظن أني لا أصبر عنك ، فقصّد رجلاً من الأغنياء يعرفها ويعرف فضلها فباعها بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال وجّه بها إلى مولاها وجزع عليها جزعاً شديداً ، فلما صارت الجارية إلى سيّدها نزل بها من الوحشة للأوّل ما لم تستطع دفعه ولا كتمه ، فباحته به وقالت :

أتاني البلاء حقّاً فما أنا صانعُ أمصطبر^(١) للبين^(٢) أم أنا جازعُ
كفى حزناً أني على مثل جمرَةٍ أقاسي نجومَ الليل والقلبُ نازعُ^(٣)
فإن يمنعوني أن أبوح بحبه فإني قتيْلٌ والعيونُ دوامعُ

فبلغ سيّدها شعرها فدعا بها وأرادها فامتعت عليه وقالت له : يا سيّدي إنك لا تتفع بي ، قال : ولم ذاك ؟ قالت : إني لما بي ، قال : وما بك ؟ صفيه لي قالت : أجد في أحشائي نيراناً تتوقّد ، لا يقدر على إطفائها أحد ، ولا تسأل عما وراء ذلك ، فرجّمها ورقّ لها وبعث إلى مولاها فسأل عن خبره ، فوجد عنده مثل الذي عندها ، فأحضره فردّ الجارية عليه ، ووهب له من ثمنها خمسين ألفاً ، فلم تزل عنده مدّةً طويلةً . وبلغ عبد الله بن طاهر خبرهما وهو بخراسان ، فكتب إلى خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعر الذي ذكر له من قبل الجارية أن يشترّيها له بما ملكت يمينه ، فركب إلى مولى الجارية فخبره بما كتب إليه عبد الله بن طاهر ، فلم يجد سيّدها بدّاً من عرضها عليه وهو كارهٌ فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول :

بديعُ حسنٍ رشيقٌ قد جعلت منّي له ملاذاً

(١) مصطبر : صابر .

(٢) البين : البعد .

(٣) نازع : من نزاع إلى فلانة إذا اشتاق إليها وحنّ إلى لقائها .

فأجابته الجارية :

فماتبوه فزاد عشقاً فمات شوقاً فكان ماذا

فعلم أنها تَصْلُحُ له ، فاشتراها بمائتي ألف درهم ، فجهّزها وحملها إلى عبدالله بن طاهر^(١) إلى خراسان ، فلما صارت إليه اختبرها فوجدها على ما أراد ، فغلبته على عقله ، ويقال : إنها أم محمد بن عبدالله بن طاهر ، ولم تنزل الطافها^(٢) وجوائزها تأتي مولاهما الأول حتى ماتت .

وقال عمر بن شبة ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْغَفَارِيِّ قَالَ : طَلَّقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ امْرَأَتَهُ ابْنَةَ سَهْلِ بْنِ عَمْرٍو ، فَقَدِمَتِ الْمَدِينَةَ وَمَعَهَا ابْنَتُهُ لَهَا ، وَمَعَهَا وَدِيعَةٌ جَوْهَرٍ اسْتَوْدَعَهَا إِيَّاهُ ، فَتَزَوَّجَهَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . ثُمَّ أَرَادَ ابْنُ عَامِرٍ الْحَجَّ فَأَتَى الْمَدِينَةَ فَلَقِيَ الْحَسَنَ فَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنْ لِي إِلَى ابْنَةِ سَهْلٍ حَاجَةٌ فَأُحِبُّ أَنْ تَأْذَنَ لِي عَلَيْهَا ، فَقَالَ الْحَسَنُ : الْبَيْسَى ثِيَابُكَ فَهَذَا ابْنُ عَامِرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَسَأَلَهَا وَدِيعَتَهُ فَجَاءَتْهُ بِهَا عَلَيْهَا خَاتَمَهُ . فَقَالَ لَهَا : خُذِي ثَلَاثَهَا فَقَالَتْ : مَا كُنْتُ لِأَخْذِ عَلَى أَمَانَةٍ اثْمُنْتُ عَلَيْهَا شَيْئاً أَبَدًا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهَا ابْنُ عَامِرٍ فَقَالَ : إِنْ ابْنَتِي قَدْ بَلَغَتْ فَأُحِبُّ أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، فَبَكَتْ وَبَكَتْ ابْنَتُهَا ، فَرَقَّ ابْنُ عَامِرٍ فَقَالَ الْحَسَنُ : فَهَلْ لَكُمْ؟ فَوَاللَّهِ مَا مِنْ مُحَلِّلٍ خَيْرَ مِنِّي قَالَ : فَوَاللَّهِ لَا أَخْرِجُهَا مِنْ عِنْدِكَ أَبَدًا ، فَكَفَلَهَا حَتَّى مَاتَ .

وذكر الزمخشري في « ربيع الأبرار » أن رُبَيْدَةَ بنت أبي جعفر قرأت في طريق مكة على حائط :

أما في عباد الله أو في إمائه كريمٌ يُجَلِّي^(٣) الهَمَّ عن ذاهب العقل

(١) عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي بالولاء أبو العباس أمير خراسان في العصر العباسي وقد توفي سنة ٢٣٠ هـ . راجع ابن الأثير (٥ / ٧) ، والطبري (١١ / ١٣) ، ووفيات الأعيان (١ / ٢٦٠) .

(٢) الطاف : جمع مفردة لطف وهي الهدايا .

(٣) يجلي : يكشف .

له مقلّة أما المآقي^(١) فقرحة وأما الحشا فالنار منه على رجل^(٢)

فندرت أن تحتال لقائلهما حتى تجمع بينه وبين من يحبه ، قالت : فإنني لِمُزْدَلِفَةٍ إذ سمعت من يشدهما ، فاستدعيت به فزعم أنه قالهما في بنت عمّ له وقد حلف أهلها أن لا يزوّجوها منه ، فوجّهت إلى الحيّ وما زالت تبذلّ لهم المال حتى زوّجه . وإذا المرأة عاشق من الرجل ، فكانت زبيّدة تعدّه في أعظم حسناتها وتقول : ما أنا بشيء أسرّمني بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة .

قال الزمخشري : وهوي أحمد بن أبي عثمان الكاتب جارية لزبيّدة اسمها « نغم » حتى مرض وقال فيها أبياتاً منها :

واني ليرضيني الممرّ بياها وأقنع منها بالشتيمة والزّجر
فوهبتها له .

وذكر الخرائطي أنه كان لبعض الخلفاء غلام وجارية من غلمانهِ وجواريهِ متحابّين ، فكتب الغلام إليها يوماً يقول :

ولقد رأيتك في المنام كأنما عاطّيتني من ريق فيك البارد
وكان كفك في يدي وكأننا بئنا جميعاً في فراش واحد
فطَفِقْتُ يومي كلّهُ متراقداً لأراك في نومي ولستُ براقداً
ثم انتهت ومغصمك كلاهما بيدي اليمين وفي يمينك ساعدي

فأجابته الجارية :

خيراً رأيت وكلّ ما أبصرته ستأله مني برغم الحاسد
إني لأرجو أن تكون معانقي فتيّت مني فوق نذي ناهد

(١) المآقي : جمع ماقّة وهي طرف العين مما يلي الأنف وهي مجرى الدمع .

(٢) على رجل : على أشدها .

وَأَرَاكَ بَيْنَ خِلَافِي^(١) وَدِمَاجِي^(٢) وَأَرَاكَ بَيْنَ تَرَاثِي^(٣) وَمَجَاسِدِي^(٤)
وَبَيِّتِ الطِّفْلِ عَاشِقَيْنِ تَعَاطِيَا طَرَفَ الْحَدِيثِ بَلَا مَخَافَةٍ رَاصِدَ

فَبَلَغَ الْخِلَافَةَ خَبَرُهُمَا فَأَنْكَحَهُمَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا عَلَى شِدَّةِ غَيْرَتِهِ .

وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوَازِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : سَمِعَ الْمُهَلَّبَ قَتَى يُتَغَنَّى بِشَعْرِ
فِي جَارِيَةٍ لَهُ فَقَالَ الْمُهَلَّبُ :

لَعَنُورِي إِنِّي لِلْمُحِبِّينَ رَاحِمٌ وَإِنِّي بِسُتْرِ الْعَاشِقِينَ حَقِيقٌ
سَاجِعٌ مِنْكُمْ شَمْلٌ وَدُّ مَبْدُودٌ وَإِنِّي بِمَا قَدْ تَرَجُّوْا خَلِيقٌ
ثُمَّ وَهَبَهَا لَهُ وَمَعَهَا خَمْسَةُ آلَافٍ دِينَارٍ .

وَقَالَ الْخِرَاطِيُّ : كَانَ رَجُلٌ نَخَاسٌ عِنْدَهُ جَارِيَةٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرُهَا ، وَكَانَ
يَعْرِضُهَا فِي الْمَوَاسِمِ فَتَغَالَى النَّاسُ فِيهَا حَتَّى بَلَغَتْ مَبْلَغًا كَثِيرًا مِنَ الْمَالِ وَهُوَ يَطْلُبُ
الزِّيَادَةَ ، فَعُلِّقَهَا^(٥) رَجُلٌ فَقِيرٌ فَكَادَ عَقْلُهُ أَنْ يَذْهَبَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ وَهَبَهَا لَهُ ،
فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْيَى
النَّاسَ جَمِيعًا ﴾^(٦) أَفَلَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا ؟

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ قَرِيْشٍ الْجَرَجَانِيُّ :

شَكُوتُ بَلَاءٍ لَا أَطِيقُ احْتِمَالَهُ وَقَلْبِي مَطِيعٌ لِلْهُوَى^(٧) غَيْرُ دَافِعٍ

(١) الْخِلَافُ : الرِّقِيقُ .

(٢) الدِمَاجُ : جَمْعُ دِمْلَجٍ ، وَدِمْلُوجٌ وَهُوَ حَلِيَّةٌ تَحِيطُ بِالْمَعْدِ .

(٣) التَّرَاثُ : جَمْعُ مَفْرَدَةٍ تَرِيَّةٍ وَهِيَ مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ مِنْ عِظَامِ الصَّدْرِ مِمَّا يَلِي التَّرْقُوتَيْنِ .

(٤) الْمَجَاسِدُ : جَمْعُ مَجْسَدٍ ، وَهِيَ الثَّوبُ الْمَلَامَسُ لِلْجَسَدِ . وَيُقَالُ جَسَدِيَّةٌ إِذَا لَصِقَتْ بِهِ .

(٥) عُلِّقَهَا : أَحْبَبَهَا .

(٦) الْمَائِدَةُ (٥ / ٣٢) ، يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : مَنْ قَتَلَ نَفْسًا وَاحِدَةً حَرَمَهَا اللَّهُ ، فَهُوَ مِثْلُ

مَنْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَمْتَنَ عَنْ قَتْلِ نَفْسٍ حَرَمَهَا اللَّهُ ، وَصَانَ حَرَمَتَهَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ، فَهُوَ كَمَنْ

أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا . مُخْتَصَرُ ابْنِ كَثِيرٍ (١ / ٥٠٩) بِتَصْرِيفٍ .

(٧) مَطِيعٌ لِلْهُوَى : مُتَقَادٌ لَهُ .

فأقسم ما تركي عتابك عن قلبي^(١) ولكن لعلمي أنه غير نافع
وإني متى لم ألزم الصبر طائعاً فلا بد منه مكرهاً غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعاً فلا خير في ود يكون بشافع

وكان أبو السائب المخزومي أحد القراء والفقهاء ، فرؤي متعلّقاً بأستار
الكعبة وهو يقول : اللهم ارحم العاشقين ، واعطف عليهم قلوب المعشوقين .
ف قيل له في ذلك فقال : الدعاء لهم أفضل من عمرة من الجعفرانة .

وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلاماً^(٢) وجارية كانا في كتاب فهويها
الغلام ، فلما كان في بعض أيامه في غفلة من الغلمان كتب في لوح الجارية :
ماذا تقولين فيمن شفه سقم من طول حبك حتى صار حيرانا
فلما قرأته الجارية أغرورت عيناها بالدموع رحمة له وكتبت تحته :

إذا رأينا محباً قد أضرب به طول الصبابة أولينا إحصانا

وذكر الهيثم بن عدي ، عن محمد بن زياد أن الحارث بن السليل الأزدي
خرج زائراً لعلقمة بن حزم^(٣) الطائي وكان حليفاً له ، فنظر إلى ابنة له تدعى
الرباب وكانت من أجمل النساء ، فأعجب بها وعشقها عشقاً حال بينه وبين
الانصراف إلى أهله ، فقال لعلقمة : إني أتيتك خاطباً وقد ينكح الخاطب ،
ويدرك الطالب ، ويمنح الراغب قال : كفوكريم فأقم ننظر في أمرك ، ثم انكفا^(٤)

(١) القلي : الكرامة والبغضاء .

(٢) وهو علي بن الجهم : وهو علي بن الجهم بن بدر ، أبو الحسن من بني سامة ، من لؤي بن غالب ،
شاعر رقيق الشعر ، أديب من أهل بغداد ، عاصر أبا تمام ، ثم غضب عليه السلطان المتوكل
المعاسي فنفاه إلى خراسان وتوفي سنة ٢٤٩ هـ . وفيات الأعيان (١ / ٣٤٩) ، والطبري
(١١ / ٨٦) ، وتاريخ بغداد (١١ / ٣٦٧) .

(٣) وهو علقمة بن خصفة ، وابنته اسمها الزباء .

(٤) انكفاً : رجع .

إلى أم الجارية فقال لها : إن الحارث سيّد قومه حسباً ومنصباً وبيتاً فلا ينصرفن من عندنا إلا بحاجته ، فشاوري ابتك وأديرها عما في نفسها ، فقالت لها : أي بُنيّة ، أي الرجال أعجب إليك ؟ الكهلُ الجحجاح^(١) ، المفضل الميّا^(٢) ، أم الفتى الوضّاح^(٣) ، المملو الطمّاح ؟ قالت : الفتى الوضّاح ، فقالت : إن الفتى يُغيرك^(٤) ، وإن الشيخ يُميرك^(٥) ، وليس الكهلُ الفاضل ، الكثير النائل^(٦) ، كالحديث السنّ ، الكثير المَنّ . فقالت : يا أمّاه أحبّ الفتى ، كحبّ الرّعاء أنيق الكلّا . قالت : يا بُنيّة ، إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب . قالت : يا أمّاه أخشى من الشيخ أن يدنس ثيابي ، ويُلَيّ شَبابي ، ويشمت بي أتراي . فلم تزل بها الأمّ حتى غلبتها على رأيها فتزوّجها الحارث على خمسين ومائة من الإبل وخادم وألف درهم ، فبنى بها وكانت عنده أحبّ شيء إليه ، فارتحل بها إلى أهله ، فإنه لجالس يوماً بفناء مَظَلّته وهي إلى جانبه إذ أقبل فتية يُعتلجون^(٧) الصراع فتنفّست الصُعّداء ، ثم أرسلت عينيها بالبكاء فقال ما يبيك ؟ فقالت : مالي وللشيوخ ، الناهضين كالفرّوخ^(٨) ، فقال : ثكلتك أمك قد تجوع الحرّة ولا تأكل بشديها ، فسارت مثلاً ، أي لا تكون ظُفراً^(٩) ، وكان أوّل من نطق بها ، ثم قال : أما وأبيك لربّ غارة شهدتها ، وسبيّة أردفتها ، وخمرة شربتها ، الحقي بأهلك فلا حاجة لي فيك ، ثم أنشأ يقول :

وعيّرت أن رأني لا بساً كبراً وغاية النفس بين الموت والكبر

(١) الجحجاح : السيد الكريم .

(٢) ماح : تبخر في مشيته .

(٣) الوضّاح : الحسن الطلعة كثير الابتسام .

(٤) يغيرها : يثير عزيمة الغيرة فيها .

(٥) يميرك : يهيئ لك رغد العيش ، من الميرة وهي الطعام .

(٦) النائل : الكثير المطاء الجزيل البذل .

(٧) اعتلج القوم : إذا اضطرعوا واقتلوا .

(٨) الفرخ : الولد الصغير للطائر والحيوان والنبات والذليل المهيز من الرجال .

(٩) الظفر : المرضع لغير ولدها .

فإن بقيت رأيت الشيبَ راغمةً^(١) وإن يكن قد علا رأسي وغيره
فقد أروح للذات الفتى جذلاً^(٢) وفي التفرُّق ما يقضي من العبر
صرفُ الزمان^(٣) وتقتيرُ من الشعر
وهمتي لم تُشب^(٤) فاستخبري أثري

(١) راغمة : على الرغم منك .

(٢) صرف الزمان : حدثاته ونوائبه ونوازله .

(٣) جذلاً : فرحاً مسروراً .

(٤) لم تشب : لم يصبها خور أو وهن .

الباب السادس والعشرون

في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في اعتلاهما

هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية التي لا تقنع بالدُّون ، ولا تبغ الأعلی بالأدنى بیع العاجز المغبون ، ولا يملكها لَطْخُ جمال مُعْشٍ^(١) عَلَى أنواع من القبايح ، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلى امرأة مبرقة :
مِرْقَعَة :

إذا بَارَكَ اللهُ في مَلْبَسٍ فلا بَارَكَ اللهُ في البُرْقَعِ
يُريكَ عِوْنَ المَهْمَا مُسْبِلًا ويكشِفُ عن منظرٍ في أَشْنَعِ
وقال الآخر :

لا يغرُنْكَ ما ترى من نقابٍ إن تحت النقاب داءً ذَوِيًا
فالنفس الأبية لا ترضى بالدُّون . وقد عاب الله سبحانه أقواماً استبدلوا طعاماً بطعام أدنى منه ، فنعى ذلك عليهم وقال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾^(٢) ، وذلك دليل على وضاعة النفس وقلة قيمتها .

وقال الأصمعي : خلا رجلٌ من الأعراب بامرأة فهم بالريّة ، فلما تمكّن منها

(١) معش : يخفي ما فيه من عيوب عن الناظرين .

(٢) البقرة (٢ / ٦١) .

تنحى سليماً وجعل يقول : إن امرأاً باع جنة عرضها السموات والأرض بفتر^(١) ما بين رجلَيْكَ لقليل البصر بالمساحة .

وقال أبو أسماء : دخل رجلٌ غَيضةً^(٢) فقال : لو خلوتُ هاهنا بمعصيةٍ من كان يراني ؟ فسمع صوتاً ملاً ما بين لابتَي^(٣) الغيضة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(٤) .

وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا هَيْثَمُ - هو ابن خارجة - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ ، عن عبد الرحمن بن عَدِي الْبَهْرَانِي ، عن يزيد بن مَيْسرة قال : إن الله تعالى يقول : أيها الشاب التاركُ شهوته لي ، المتبذل^(٥) شبابه من أجلي ، أنت عندي كبعض ملائكتي .

وذكر إبراهيم بن الجُنَيْد أن رجلاً راود امرأة عن نفسها فقالت له : أنت قد سمعت القرآن والحديث فأنت أعلم قال : فأغلقي الأبواب فأغلقتها ، فلما دنا منها قالت : بقي بابٌ لم أغلقه قال : أي باب ؟ قالت : الباب الذي بينك وبين الله ، فلم يتعرض لها .

وذكر أيضاً عن أعرابي قال : خرجتُ في بعض ليالي الظلم فإذا أنا بجارية كأنها علم^(٦) فأردتها عن نفسها فقالت : وملك أما كان لك زاجرٌ من عقل ، إذ لم يكن لك ناهٍ من دين ؟ فقلت : إنه والله ما يرانا إلا الكواكب ، قالت : فأين مُكْوِكُهَا ؟

(١) الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة عند فتحهما .

(٢) الغيضة : موضع يكثر فيه الشجر الكثيف الملتف .

(٣) اللابتة : الحرة والتوضوع ، ولابتا المدينة الوردتان في الحديث هما حرتان تكتنفانها لقوله صلى الله عليه وسلم : « حرام ما بين لابتَي المدينة » كذا قال أبو بنحوه عليه الصلاة والسلام .

(٤) الملك (٦٧ / ١٤) .

(٥) المتبذل شبابه : الذي يحرم نفسه من متعه .

(٦) العلم : الجبل .

وجلس زياد مولى ابن عياش رضي الله عنهما إلى بعض إخوانه فقال له : يا عبدَ اللَّهِ ، فقال له : قل ما تشاء ، قال : ما هي إلا الجنة أو النار ؟ قلت : نعم قال : وما بينهما منزل ينزله العباد ؟ قلت : لا والله فقال : والله إن نفسي ، لَنَفْسُ أَصْنُ بها على النار ، والصبرُ اليومَ عن معاصي الله خيرٌ من الصبرِ عَلَى الأغلال .

وقال وهب بن مُنْبِه : قالت امرأة العزيز ليوסף عليه السلام : ادخل معي القَيْطُون - تعني السَّتر - قال : إن القَيْطُون لا يسترني من رَبِّي .

وقال اليزيدي : دخلت عَلَى هارون الرشيد فوجدته مُكَبِّاً عَلَى وَرَقَةٍ ينظر فيها مكتوبةً بالذهب ، فلما رآني تَسَمَّ فقلت : فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال : نعم وجدتُ هذين البيتين في بعض خزائن بني أُمَيَّة فاستحسنتهما ، فأضفت إليهما ثالثاً ، فقال : ثم أنشدني :

إذا سَدَّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ فَدَعُهُ لآخرى يفتنح لك بابُها
فإن قُرَابَ البطن يكفيك مَلَأه ويكفيك سُوءَاتِ الأمور اجتنابُها
فلاتك مَبْذالاً لدينك واجتنب ركوبَ المعاصي يَجْتَنِيكَ عِقَابُها

وقال أبو العباس الناشيء :

إذا المرء يحمي نفسه جلُ شهوةٍ لصحة أيامٍ تبید وتَنَفَّدُ
فما باله لا يحتمي من حرامها لصحة ما يبقى له وَيُخَلَّدُ

وقيل : إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان ينشد هذين البيتين :

إقْدَع^(١) النفسَ بالكفافِ وإلَّا طلبْتُ منك فوق ما يكفيها
إنما أنتَ طولُ عمرِكَ ما عُمِرْتَ في الساعة التي أنتَ فيها

(١) اقدح النفس : كفها وامنعها .

ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص ^(١) يتمثل بهما :

إذا المرء لم يترك طعاماً أحبه ولم ينه قلباً غاوياً حيث يمما ^(٢)
قضى وطراً منه وغادر سبباً إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

وقال شُعْبَة : عن منصور ، عن إبراهيم ، كلّم رجلٌ من العباد امرأة فلم يزل
بها حتى وضع يده على فخذيها فانطلق فوضع يده على النار حتى نشت ^(٣) .

وقال زيد بن أسلم عن أبيه : كان عابدٌ في صومعةٍ يتعبّد فأشرف ذات يومٍ
فرأى امرأةً ففتن بها ، فأخرج إحدى رجله من الصومعة يريد النزول إليها ، ثم فكّر
وأدرك فأناب ، فأراد أن يعيد رجله إلى الصومعة فقال : والله لا أدخل رجلاً خرجت
تريد أن تعصي الله في صومعتي أبداً ، فتركها خارجة من الصومعة فأصابها الثلج
والبرد والرياح حتى تقطعت .

وقال بعض السلف : من كان له واعظٌ من قلبه زاده الله عزّ وجلّ عزّاً ، والذلّ
في طاعة الله أقرب من العزّ في معصيته .

وقال أبو العتاهية : لقيت أبا نؤاس في المسجد الجامع فعذلته ^(٤) وقلت له :
أما آن لك أن ترعوي ^(٥) وتزجر ؟ فرفع رأسه إليّ وقال :

(١) عمرو بن العاص : هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي ، أبو عبد الله ، فاتح مصر ، وأحد
عظماء العرب ودهاتهم وأولى الرأي والحزم والمكيدة فيهم كان شديداً في الجاهلية ، وأسلم في
هدنة الحديبية ، وولاه النبي صلى الله عليه وسلم إمرة جيش ذات السلاسل ، وأمه بأبي بكر
وعمر ، ثم استعمله على عمان ، وولاه عمر فلسطين ، ثم مصر ففتحها ، وعزله عثمان ، ولما كانت
الفتنة بين علي ومعاوية كان مع معاوية فولاه معاوية على مصر سنة ٣٨ هـ . وترك له خراجها ست
سنوات فجمع أموالاً طائلة ، وتوفي بالقاهرة سنة ٤٣ هـ . وله في كتب الحديث ٣٩ حديثاً .
الاستيعاب لابن عبد البر على هامش الإصابة (٢ / ٥٠١) ، والإصابة (ت ٥٨٨٤) وتاريخ
الإسلام للذهبي (٢ / ٢٣٥ - ٢٤٠) ، وجمهرة الأنساب (١٥٤) .

(٢) يمم : قصد .

(٣) نشت : احترقت وجفت .

(٤) عذله : لامته .

(٥) ترعوي : تكف وتنتهي .

اتراني يا عتاهي^(١) تاركاً تلك الملاهي
اتراني مفسداً بالنسك عند القوم جامي

فلما ألححت عليه في العذل أنشأ يقول :

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجرُ
فوددت أني قلت هذا البيت بكل شيء قلته .

وقال ابن السماك عن امرأة كانت تسكن البادية : لو طالعت قلوب المؤمنين
بفكرها ما دخر لها في حُجب الغيوب من خير الآخرة ، لم يصف لهم في الدنيا
عيشٌ ، ولم تقر لهم عين . وقال ضيغم لرجل : إن حبه عز وجل شغل قلوب
محبيه عن التلذذ بمحبة غيره ، فليس لهم في الدنيا مع محبته عز وجل لذة تداني
محبته ، ولا يأملون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه
محبوبهم^(٢) ، فسقط الرجل مغشياً عليه .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبدالرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه
عن الثَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصَّرَاطِ سُورَانِ وَفِي السُّورَيْنِ
أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرَخَّاءٌ وَعَلَى رَأْسِ الصَّرَاطِ دَاخٍ يَقُولُ : يَا
أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصَّرَاطَ وَلَا تُعْرِجُوا »^(٣) ، وَدَاخٍ يَدْعُو فَوْقَ الصَّرَاطِ إِذَا أَرَادَ
أَحَدٌ فَتَحَ شَيْءًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيَحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلَجَّهُ^(٤) ،
فَالصَّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّتُورُ الْمُرَخَّاءُ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ ،

(١) العتاهي : ناقص العقل والأحمق المتهوك ، والعتاهية : هم ضلال الناس وفساقهم .

(٢) اللهم متعنا بلذة النظر إلى وجهك الكريم في دار الكرامة .

(٣) لا تعرجوا : لا تميلوا عنه أو تتركوه .

(٤) تلجه : من ولج أي دخل .

وَالذَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصَّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالذَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصَّرَاطِ وَاعِظُ
اللَّهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ .

وقال خالد بن معدان : ما من عبدٍ إلَّا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمرَ
الدُّنيا ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمرَ الآخرة ، فإذا أراد الله بعبد خيراً ففتح عينيه
اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب ، وإذا أراد الله به غيرَ ذلك تركه على
ما هو فيه ، ثم قرأ : ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ^(١) .

وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم : « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا
بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » ^(٢) .

وفي المسند من حديث فضالة بن عُبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم :
« الْمَجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى
اللَّهِ » .

وقال الإمام أحمدُ رحمه الله تعالى : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ ، حَدَّثَنَا
عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ ، عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « مَنْ أَصْبَحَ وَأَكْثَرَهُمْ غَيْرَ اللَّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ » .

وقال الإمام أحمدُ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ
أَسْلَمٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَّارٍ قَالَ : قَالَ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا
رَبِّ مَنْ أَهْلَكَ الَّذِينَ تَظْلَهُمْ فِي ظِلِّ عَرْشِكَ ؟ قَالَ : هُمُ الْبَرِيثَةُ أَيْدِيهِمْ ، الطَّاهِرَةُ
قُلُوبُهُمُ الَّذِينَ يَتَحَابُّونَ بِجَلَالِي ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرُوا بِي ، وَإِذَا ذُكِرُوا بِي ذُكِرْتُ
بِذِكْرِهِمْ ، الَّذِينَ يُسَبِّغُونَ الْوُضُوءَ فِي الْمَكَارِهِ ، وَيُنْيِبُونَ إِلَى ذِكْرِي كَمَا تُنْيِبُ النَّسُورُ

(١) محمد (٤٧ / ٢٤) . راجع تفسير الفخر الرازي الكبير (٢٨ / ٦٦) .

(٢) الحديث : رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم في مستدركه وصححه السيوطي في
الجامع الصغير (٢ / ٩٨) .

إلى وكورها ، وَيَكْلَفُونَ بِحَيِّي كَمَا يَكْلَفُ الصَّبِيُّ بِحَبِّ النَّاسِ ، وَيَغْضِبُونَ
لِمَحَارِمِي إِذَا اسْتُحِلَّتْ كَمَا يَغْضِبُ النَّمِرُ إِذَا حَرِبَ » ^(١) .

وقال أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثني عبدالله بن يحيى قال :
سمعت وهب بن منبه يقول : قال موسى عليه السلام : « أَيُّ رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَحَبُّ
إِلَيْكَ ؟ قال : من أَدَّكَ بِرُؤْيَتِهِ » .

وقال أحمد : حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا هشام الدستوائي قال : بلغني أن
في حكمة عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « تعملون للدنيا وأنتم تُرزقون
فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا تُرزقون فيها إلا بالعمل ، ويُحَكِّمُ
علماء السوء ، الأجر تأخذون والعمل تُضيعون ، توشكون أن تخرجوا من الدنيا إلى
ظلمة القبر وضيقه ، واللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نهاكم عن المعاصي كما أمركم بالصوم
والصلاة ، كيف يكون من أهل العلم مَنْ دُنياء أَثَرُ عِنْدَهُ مِنْ آخِرَتِهِ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا
أَعْظَمُ رَغْبَةً ؟ كيف يكون من أهل العلم مَنْ مَسِيرُهُ إِلَى آخِرَتِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى دُنْيَا ،
وما يضره أَشْهَى إِلَيْهِ مِمَّا لَا يَضُرُّهُ ؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله عَزَّ وَجَلَّ
في قضائه فليس يرضى شيء أصابه ؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب العلم
ليُتَحَدَّثَ بِهِ وَلَمْ يَطْلُبْهُ لِيَعْمَلْ بِهِ ؟ » .

وقال عبدالله بن المبارك ، عن مَعْمَرٍ ، قال الصبيان ليحيى بن زكريا :
أذهب بنا نلعب ، قال : أَوَللَّعِبِ خُلِقْنَا ؟

وقال أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، حدثني
الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أمه فاطمة حدثته أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : « إِنْ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غَدُوا بِالنَّعِيمِ ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ
الطَّعَامِ ، وَالْأَلْوَانَ الثِّيَابِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلَامِ » .

(١) الحرب : بفتح الحاء المهملة وكسر الراء وفتحها التثنية والظعن .

وقال أحمد : حَدَّثَنَا أَبُو قَطَنِ ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ أَبِي مَسْلَمَةَ ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَبِي مُوسَى : يَا أَبَا مُوسَى شَوْقُنَا إِلَى رَبِّنَا ، قَالَ : فَقَرَأ . فَقَالُوا : الصَّلَاةُ : فَقَالَ عُمَرُ : أَوْلَسْنَا فِي الصَّلَاةِ ؟ .

فصل

وملاك الأمر كله الرغبة في الله وإرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل ، والشوق إلى الوصول إليه وإلى لقائه ، فإن لم يكن للعبد همّة إلى ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعدّ الله فيها لأولياته ، فإن لم تكن له همّة عالية تطالبه بذلك فخشية النار وما أعدّ الله فيها لمن عصاه ، فإن لم تطاوعه نفسه بشيء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم ، ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه ، فهذه فصول أربعة هن : ربيعُ المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه ، وهن منازل في سيره إلى الله عز وجل ، وليس له منزلة غيرها ، فأما مخالفة الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقاً غير مخالفته ، ولم يجعل للنار طريقاً غير متابعتها ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (٢) قيل هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربّه عليه في الدنيا ، ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله .

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيله ، فقال الله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله ومصيرهم فقال :

(١) النازعات (٧٩ / ٣٧ - ٤١) .

(٢) الرحمن (٥٥ / ٤٦) . راجع في تفسير هذه الآية تفسير الشيخ الصابوني (٢٧ / ١٤٦٢) ،

والفخر الرازي الكبير (٢٩ / ١٢٣) بتصرف .

(٣) (٢) ، ص (٣٨ / ٢٦) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾^(١) وأخبر سبحانه أن اتباع الهوى يطع على قلب العبد فقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾^(٢) وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن العاجز هو الذي اتبع هواه وتمنى على الله . وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد ، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ إِلَهٌ يُعْبَدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوًى مُتَّبَعٍ » .

وذكر من حديث جعفر بن حيَّان ، عن أبي الحكم ، عن أبي بَرْزَةَ الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتُ النَّفْسِ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَصْلَاتُ الْهَوَى » . وفي نسخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني ، عن أبيه ، عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي حُكْمُ جَائِرٍ ، وَزَلَّةُ عَالِمٍ ، وَهَوًى مُتَّبَعٍ ﴾^(٣) .

وقيل لبعض الحكماء : أيُّ الأصحاب أبرُّ ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأَيُّ شيءٍ أضرُّ ؟ قال : النفس والهوى . وقال بعض الحكماء : إذا اشتبه عليك أمران فانظر أقربهما من هواك فاجتنبه . وأَيُّ بعضُ الملوك بأسيرٍ عظيم الجُرم فقال : لو كان هواي في العفو عنك لخالفت الهوى إلى قتلك ، ولكن لما كان هواي في قتلك خالفته إلى العفو عنك . وقال الهيثم بن مالك الطائي : سمعت النعمان بن بشير يقول عَلَى المنبر : إن للشيطان فخوراً ومَصَالِي^(٤) وإن من مصالي

(١) ص (٢٦/٣٨) .

(٢) محمد (١٦ / ٤٧) .

(٣) الحديث : والحكم الجائر والعالم الحائد عن الحق وقياد الهوى من المعاول الهادمة التي تصدع أصرة الأمة وتفتك بيناتها وكيانها وعن النار في الهشيم .

(٤) المصالي : الشرك وهي جمع مفردة مصلاة .

الشیطان وفخوخه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبرياء على عباد الله ،
وإتباع الهوى في غير ذات الله .

وفي المسند وغيره من حديث قتادة ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مُهلِكَاتٌ ، وثلاثٌ مُنْجِيَّاتٌ ،
فالمُهلِكَاتُ : شُحُّ مَطَاعٍ ، وَهَوَى مُتَّبِعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ ، وَالْمُنْجِيَّاتُ :
تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَى ، وَالْقَصْدُ فِي
الْفَقْرِ وَالْغِنَى » (١) .

وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت عُمَيْسٍ رضي الله عنها قالت :
سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول : « بِشْرُ الْعَبْدِ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى ،
وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى . بِشْرُ الْعَبْدِ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالَ .
بِشْرُ الْعَبْدِ عَبْدٌ سَهَا وَلَهَا ، وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبَلَى . بِشْرُ الْعَبْدِ عَبْدٌ بَغَى وَعَتَا ،
وَنَسِيَ الْمَبْدَأَ وَالْمُنْتَهَى . [بِشْرُ الْعَبْدِ عَبْدٌ يَخْتَلِ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ] . بِشْرُ الْعَبْدِ عَبْدٌ
يَخْتَلِ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ ، بِشْرُ الْعَبْدِ عَبْدٌ طَمَعَ يَقْوَدُهُ . بِشْرُ الْعَبْدِ عَبْدٌ هَوَى يُضِلُّهُ .
[بِشْرُ الْعَبْدِ عَبْدٌ رَغَبَ يُذِلُّهُ] » (٢) .

وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمنُ العبدُ حتى يكونَ هواه تبعاً
لما جاء به ، فيكون هواه تابعاً لا متبوعاً ، فمن اتَّبَعَ هواه فهو هواه متبوعٌ له ، ومن
خالف هواه لما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم فهو هواه تابعٌ له ، فالْمُؤْمِنُ هواه
تابعٌ له ، والمنافقُ الفاجرُ هواه متبوعٌ له .

وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هُدى من الله أنه أظلم الظالمين ، فقال
الله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

(١) الحديث : رواه السيوطي بنحوه وضعفه في الجامع الصغير (١ / ١٣٨) .

(٢) الزيادة بين المعقوفين من الترمذي وقال فيه : « ليس إسناده بالقوي » أ هـ .

اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتَّبَعَ هواه ، وجعل سبحانه وتعالى المُنْعَ قسمين لا ثالث لهما : إما ما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم . وإما الهوى . فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر ، والشيطان يُطِيفُ بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلاً ولا إليه طريقاً إلا من هواه . فلذلك كان الذي يخالف هواه يَفْرُقُ^(٢) الشيطان من ظله ، وإنما تطاق مخالفة الهوى بالرغبة في الله وثوابه ، والخشية من حجابهِ وعذابه . ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى ، فإن متابعتَه الداء الأكبر ، ومخالفتَه الشفاء الأعظم . وقيل لأبي القاسم الجُنَيْد : متى تنال النفوسُ مُناها ؟ فقال : إذا صار داؤها دواها ، فقليل له : ومتى يصير داؤها ؟ فقال : إذا خالفت هواها ، ومعنى قوله : يصير داؤها دواها أن داءها هو الهوى ، فإذا خالفتَه تداوت منه بمخالفتَه . وقيل : إنما سُمِّيَ هوىً لأنه يهوى بصاحبه إلى أسفل السافلين . والهوى ثلاثة أرباع الهوان ، وهو شارع النار الأكبر كما أن مخالفتَه شارِع الجنة الأعظم . وقال أبو دُلْف العِجْلِي :

واسوأنا لفتى له أدبٌ يُضحى هواه قاهراً أدبه
يأتي الدنية وهو يعرفها فيثبُن عِرضاً صائناً أربه
فإذا أرعوى عادت بصيرته فبكى على الحين^(٣) الذي سلبه

وقال ابن المرتفق الهذلي :

أين لي ما ترى والمرء يأتي عزيزته ويغلبه هواه
فيعمي ما يرى فيه عليه ويحسب من يراه لا يراه

(١) القصص (٢٨ / ٥٠) .

(٢) يفرق : يخاف ويروع .

(٣) الحين : الوقت طال أم قصر .

فصل

وأما الرَغْبَةُ في الله وإرادة وجهه ، والشوقُ إلى لقائه فهي رأسُ مال العبد وملاكُ أمره وقوامُ حياته الطيبة ، وأصلُ سعادته وفلاحه ونعيمه وقُرَّةُ عينه ، ولذلك خُلق ، وبه أُمِرَ ، وبذلك أُرسلت الرُّسُلُ ، وأنزلت الكتب ، ولا صلاحَ للقلب ولا نعيمَ إلا بأن تكون رغبتهُ إلى الله عزَّ وجلَّ وحده ، فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ^(٢) .

والراغبون ثلاثة أقسام : راغِبٌ في الله ، وراغِبٌ فيما عند الله ، وراغِبٌ عن الله . فالمحبُّ راغِبٌ فيه ، والعاملُ راغِبٌ فيما عنده ، والراضي بالدُّنيا من الآخرة راغِبٌ عنه . ومن كانت رغبتهُ في الله كفاه الله كلَّ مهمٍّ ، وتولاهُ في جميع أموره ، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه ، ووقاه وقايةَ الوليد ، وصانه من جميع الآفات . ومن آثر الله على غيره آثره الله على غيره . ومن كان الله كان الله له حيث لا يكون لنفسه ، ومن عرف الله لم يكن شيء أحبَّ إليه منه ، ولم يبقَ له رغبةٌ فيما سواه ، إلا فيما يُقرِّبه إليه ويعينه على سفره إليه .

ومن علامات المعرفة الهيبةُ ، فكلَّما ازدادت معرفةُ العبد بربه ازدادت هيبةُ له وخشيتهُ إياه كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(٣) أي

(١) الإنشراح (٩٤ / ٧ - ٨) .

(٢) التوبة (٩ / ٥٩) ، وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل ، وهو كقولك للرجل : لو جئتنا . ثم لم تذكر الجواب ، أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً . راجع الفخر الرازي الكبير (٩٦ / ٩٩) .

(٣) فاطر (٣٥ / ٢٨) ، يقول الإمام ابن كثير في مختصره (٣ / ١٤٦) : « إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر ، أهـ . »

العلماء به . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «أَنَا أَعْرِفُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً»^(١) ومن عرف الله صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأُنِسَ بالله ، واستوحش من الناس ، وأورثته المعرفة الحياء من الله ، والتعظيم له ، والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه ، والإنابة إليه والرضا به والتسليم لأمره . وقيل للجُنَيْد رحمه الله تعالى : إن ها هنا أقواماً يقولون : إنهم يَصِلُونَ إلى البرِّ بترك الحركات ، فقال : هؤلاء تَكَلَّمُوا بِإِسْقَاطِ الأَعْمَالِ وهو عندي عظيم ، والذي يزني ويسرق أحسنُ حالاً من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألفَ عامٍ لم أنقص من أعمال البرِّ شيئاً .

وقال : لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البرُّ والفاجر ، وكالمطر يسقي ما يُحب وما لا يحب .

وقال يحيى بن مُعَاذ : يخرج العارف من الدُّنيا ولا يقضي وَطْرَهُ من شيئين : بكائِهِ على نفسه ، وشوقه إلى ربه . وقال بعضهم : لا يكون العارف عارفاً حتى لو أُعطي ملك سليمان لم يَشْغَلْهُ عن الله طَرْفَةُ عين . وقيل : العارف أُنِسَ بالله فاستوحش من غيره ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، ودَلَّ الله فاعزَّه في خلقه .

وقال أبو سليمان الدَّاراني : يُفْتَحُ للعارف على فراشه ما لا يُفْتَحُ له وهو قائم يصلي .

وقال ذو النون : لكل شيء عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وبالجملة فحيأة القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبداً ، ومتى واطأ^(٢) اللسان القلب في ذكره ، وواطأ القلب مرادَ حبيبه منه ، واستقلَّ له الكثير من قوله

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم باختلاف في اللفظ .

(٢) واطأ : طابق ووافق .

وعمله ، واستكثر له القليل من برّه ولطفه ، وعانق الطاعة وفارق المخالفة ، وخرج عن كلّ لمحبيه فلم يبقَ منه شيء ، وامتلاً قلبه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه ، وعزّ عليه الصبرُ عنه ، وعُدِمَ القرارُ دون ذكره والرغبة إليه والاشتياق إلى لقائه ، ولم يجد الأُنس إلا بذكره ، وحفظ حدوده ، وآثره على غيره فهو المحب حقاً .

وقال الجُنَيْد^(١) : سمعت الحارث المُحَاسِبِي يقول : المحبةُ ميلك إلى الشيء بكلّيتك . ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرّاً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه . وقيل : المحبةُ نارٌ في القلب تحرق ما سوى مراد الحبيب من محبه . وقيل : بل هي بذلُ المجهود في رضا الحبيب ، ولا تَصِحُّ إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب . وفي بعض الآثار الإلهية : عبيدنا أنا وحقك لك محبٌ فبحقي عليك كن لي محباً . وقال عبد الله بن المبارك : من أعطي شيئاً من المحبة ولم يُعْطَ مثله من الخشية فهو مخدوع .

وقال يحيى بن مُعَاذ : مثقال خردلةٍ من الحب أحبُّ إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وقال أبو بكر الكَتَّانِي : جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم ، فتكلّم الشيوخُ فيها ، وكان الجُنَيْدُ أصغرهم سنّاً فقالوا : هاتِ ما عندك يا عراقي ، فأطرق رأسه ودَمَعَت عيناه ثم قال : عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه ، متصلٌ بذكر ربه ، قائمٌ بأداء حقوقه ، ناظرٌ إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هُويّته ، وصفا شربُه من كأس ودّه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فمعن الله ، وإن تحرّك فبأمر الله ، وإن سكّت فمع الله ، فهو بالله والله ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين . وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود إني حرّمتُ على القلوب أن يدخلها حبي وحبٌ غيري ، فأجمع العارفون كلّهم أن المحبة لا تَصِحُّ إلاّ بالموافقة حتى قال بعضهم : حقيقة الحب موافقة المحبوب في مرضيه

(١) الإمام الجنيد : سبقت ترجمته .

ومساخطه ، واتفق القوم أن المحبة لا تصح إلا بتوحيد المحبوب . ويُحكي أن رجلاً ادعى الاستهلاك^(١) في محبة شخص فقال له : كيف وهذا أخي أحسن مني وجهاً وأتمّ جمالاً ؟ فالتفت الرجل إليه فدفعه الشاب وقال : من يدعي هوانا ينظر إلى سوانا ؟ وذكرت المحبة عند ذي النون فقال : كُفُوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخوف أولى بالمسيء إذا تألّه والحزن
والحبُّ يجمُل بالتقيء سيِّئ وبالتقيء من الدرن

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة . إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »^(٢) فهم مع الله في الدنيا والآخرة . وقال يحيى بن مُعَاذٍ : ليس بصادقٍ من ادعى محبته ثم لم يحفظ حدوده .

فصل

فالمحبة شجرة في القلب عروقها الذلُّ للمحبوب ، وساقها معرفته ، وأغصانها خشبته ، وورقها الحياء منه ، وثمرتها طاعته ، ومادتها التي تسقيها ذكره ، فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصاً .

وقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه يحب عباده المؤمنين ، ويحبونه ، فأخبر أنهم أشدَّ حباً لله ، ووصف نفسه بأنه الودود وهو الحبيب قاله البخاري . والود خالص الحب ، فهو يود عباده المؤمنين ويودونه .

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه

(١) استهلك نفسه في كذا : جهد نفسه فيه .

(٢) الحديث رواه الترمذي عن أنس ، وزاد « وله ما اكتسب » متفق عليه عن أنس وأبي موسى وابن مسعود رفعوه . وأورده المجلوني في كشف الخفا (٢ / ٢٨٣ - ٢٨٤) .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال : « مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمَحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا اقْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، فَمَنْ يَسْمَعُ وَيَبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي ، وَلَيْسَ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَيْسَ اسْتَعَاذَ بِي لِأُعِيْذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ . » وفي لفظ في غير الموافقة في الكراهة كيف اقتضى كراهة الرب تعالى لمساءة عبده بالموت لما كره العبد مساخط ربه ، وكمال الموافقة في الإرادة كيف اقتضى موافقته في قضاء حوائجه وإجابة طلباته وإعادته مما استعاذ به ، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أرى ربك إلا بارع في هواك^(١) ، وقال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي ما أرى ربك إلا يطيعك ، فقال له : وأنت يا عم لو أطعته أطاعك . وفي تفسير ابن أبي نُجَيْح عن مجاهد في قوله عز وجل : ﴿ وَأَتَّخِذُ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾^(٢) قال : حبيباً قريباً إذا سأله أعطاه ، وإذا دعاه أجابه . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : يا موسى كن لي كما أريد أكن لك كما تريد . وتأمل هذه الباء في قوله : في يسمع وبى يُبصر وبى يَبْطِش وبى يَمْشى كيف تجدها مبنية لمعنى قوله : كنت سمعاً الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به إلى آخره ، فإن سمع سمع بالله ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به . وهذا تحقيق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٤) وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ

(١) الحديث رواه الشيخان .

(٢) النساء (٤ / ١٢٥) .

(٣) آخر سورة النحل .

(٤) آخر سورة العنكبوت .

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ، وقوله فيما رواه عنه رسوله من قوله : « أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » . وهذا ضدّ قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ (٢) فالصحبة التي نفاهاها هنا هي التي أثبتتها لأحبابه وأوليائه ، فتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقة بأداء فرائضه ، وبالتقرب إليه بالنوافل بعدها لا غير ، وفي هذا تعزية لمُدعي محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها ، وإنما معه الأمانى الباطلة والدعاوي الكاذبة .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحبَّ الله العبد نادى جبريلُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبُّوه فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ » وفي لفظ لمسلم : « إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقالَ : إني أحبُّ فلاناً فأحبُّه قالَ فَيُحِبُّهُ جبريلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ : إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبُّوه فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، قالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ، وإذا أَبْغَضَ عبداً دعا جبريلَ فيقولُ : إني أَبْغَضُ فلاناً فأبْغِضُوهُ قالَ فَيَبْغِضُوهُ جبريلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ إنَّ اللهَ يُبْغِضُ فلاناً فأبْغِضُوهُ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ » وفي لفظ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال : كنّا بعرفة فمرَّ عمر بن عبدالعزيز وهو على الموسم فقام الناس ينظرون إليه فقلت لأبي : يا أبتَ إني أرى الله يحبُّ عمر بن عبدالعزيز ، قال : وما ذاك ؟ قلت : لما له من الحبِّ في قلوب الناس ، فقال : إني سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الحديث . وأخرجه الترمذي ثم زاد في آخره فذلك قولُ الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسِعًا ﴾ (٣) انتهى . وقال بعضُ السلف في تفسيرها : يحبُّهم ويحبُّهم إلى عباده .

(١) الأنفال (٨ / ١٩) .

(٢) الأنبياء (٢١ / ٤٣) .

(٣) مريم (١٩ / ٦٦) .

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال : « وما أعددت لها ؟ » قال لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ؟ فقال : « أنت مع من أحببت » قال أنس رضي الله عنه : فما فرحنا بشيء ؟ فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنت مع من أحببت » قال أنس : فانا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إليهم وإن لم أعمل أعمالهم .

وفي الترمذي عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المرأة مع من أحب وله ما اكتسب » . وفي سنن أبي داود عنه قال : رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيء أشد منه ، قال رجل : يا رسول الله الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل بمثله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرأة مع من أحب » . وهذه المحبة لله توجب المحبة في الله قطعاً ، فإن من محبة الحبيب المحبة فيه والبغض فيه .

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » . وفي جامع أبي عيسى الترمذي من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل : المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغطهم النبيون والشهداء » . وفي لفظ لغيره « المتحابون بجلال الله يكونون يوم القيامة على منابر من نور يغطهم أهل الجمع » . وفي الموطأ من حديث أبي إدريس الخولاني قال : دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الشيا والناس حوله فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا^(١) عن رأيه ، فسألت عنه فقالوا : هذا

(١) صدروا برأيه : أخذوا به وعملوا به .

مُعَاذِ بْنِ جَبَل ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَرْتُ (١) إِلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالْتَهْجِيرِ ، وَوَجَدْتُهُ يَصْلِي ، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ ، ثُمَّ جَثَّ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ فَسَلِمَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ قُلْتُ : وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ فِي اللَّهِ ، فَقَالَ : آله ؟ قُلْتُ : اللَّهُ ، فَقَالَ : اللَّهُ ؟ فَقُلْتُ : اللَّهُ ، فَأَخَذَ بِحَبْوَةٍ (٢) رَدَائِي فَجَبَذَنِي (٣) إِلَيْهِ وَقَالَ : أَبْشِرْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَجِبْتُ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » .

وفي سنن أبي داود من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ » (٤) . وفيه أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأَنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْطِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ » قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من هم ؟ قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنْ وَجَّهَهُمْ لَنُورٍ وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ وَلَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ » وقرأ هذه الآية : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٥) .

وفي لفظٍ لغيره : « إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْطِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ » قالوا : يا رسول الله صِفْهُمْ لَنَا ، حَلِّمْ لَنَا لَعَلَّنَا نَحِبَهُمْ ؟ قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَمْوَالٍ تَبَادَلُوهَا وَلَا أَرْحَامٍ تَوَاصَلُوهَا هُمْ نُورٌ وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ وَعَلَى كُرَاسِيٍّ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا »

(١) هَجَرْتُ إِلَيْهِ : بادرت وسارعت إليه ، والتهجير : السير في الهجرة .

(٢) صَبْوَةُ الرِّدَاءِ : مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ .

(٣) جَبَذَهُ : جَذَبَهُ .

(٤) الْحَدِيثُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَسَكَتَ عَلَيْهِ السَّيُوطِيُّ (١ / ٤٩) ، كَذَلِكَ رَوَاهُ الْعَجْلُونِيُّ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَيْضاً فِي كَشْفِ الْخَفَا (١ / ١٧٧) .

(٥) يُونُسَ (١٠ / ٦٢) . رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْإِمَامِ الطَّبْرِيِّ (١١ / ١٣٢) .

حَزَنَ النَّاسُ « ثم قرأ هذه الآية : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ ^(١) مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَالَ : لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ^(٢) ؟ قَالَ : لَا غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ : فَلَمَّ نِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أُحِبُّتَهُ فِيهِ » .

وقال رجلٌ لمعاذ بن جبل : إني أحبك في الله ، قال : أحبك الذي أحببتني له .

وفي سنن أبي داود أن رجلاً كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرَّ رجلٌ فقال : يا رسول الله إني لأحبُّ هذا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَعْلَمْتَهُ ؟ » قال : لا ، قال : « أَعْلِمْتُهُ » فلحقه فقال : إني أحبك في الله ، قال : أحبك الذي أحببتني له .

وفيهما أيضاً عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ » ^(٣) .

وفي الترمذي من حديث يزيد بن نَعَامَةَ الضَّبِّيِّ رضي الله عنه قال : قال

(١) المدرجة : الطريق .

(٢) تَرُبُّهَا : تتمهدها ، ويقال ربُّ فلان إذا أنعم عليه .

(٣) الحديث رواه البخاري في الأدب المفرد وأبو داود واللفظ له ، والترمذي والنسائي وآخرون وقال الترمذي : « حسن صحيح غريب » أ هـ . راجع المجلوني (١ / ٧٩ - ٨٠) ، وصححه السيوطي (١ / ١٦) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا آخَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَلْيَسَّأَلْهُ عَنِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَمَنْ هُوَ فَإِنَّهُ أَوْصَلَ لِلْمَوَدَّةِ » (١) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا . أَوَّلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » (٢) .

وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ الترمذي ، حَدَّثَنَا شَرِيكُ ، عَنْ أَبِي سَنَانٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْهَذِيلِ ، عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ أَنَّ أَصْحَابَهُ كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالُوا : مَا أَبْطَأَكَ عَنَّا أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟ قَالَ : أَمَّا إِنِّي سَوْفَ أَحَدِّثُكُمْ أَنْ أَخَا لَكُمْ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَهُوَ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : يَا رَبِّ حَدِّثْنِي بِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَحَبِّهِ بِحَبْكِ إِيَّاهُ ، قَالَ : عَبْدٌ فِي أَقْصَى الْأَرْضِ أَوْ طَرَفِ الْأَرْضِ سَمِعَ بِهِ عَبْدٌ آخَرُ فِي أَقْصَى أَوْ طَرَفِ الْأَرْضِ لَا يَعْرِفُهُ ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ فَكَأَنَّمَا أَصَابَتْهُ ، وَإِنْ شَاكَتُهُ شَوْكَةٌ فَكَأَنَّمَا شَاكَتُهُ ، لَا يَحِبُّهُ إِلَّا لِي ، فَذَلِكَ أَحَبُّ خَلْقِي إِلَيَّ . قَالَ : يَا رَبِّ خَلَقْتَ خَلْقًا تَدْخُلُهُمُ النَّارُ أَوْ تَعَذِّبُهُمْ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْكَ كَلِمَةً خَلَقْتَ ، ثُمَّ قَالَ : ازْرَعْ زَرْعًا فزرعه ، فَقَالَ : اسْقِهِ فسقاها ، ثُمَّ قَالَ : قُمْ عَلَيْهِ ، فَقَامَ عَلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَحَصَدَهُ وَرَفَعَهُ فَقَالَ : مَا فَعَلَ زَرْعُكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ : فَرَعْتُ مِنْهُ وَرَفَعْتُهُ ، قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْهُ شَيْئًا ؟ قَالَ : مَا لَا خَيْرَ فِيهِ أَوْ مَا لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، قَالَ : فَكَذَلِكَ أَنَا لَا أُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ .

(١) الحديث رواه ابن سعد والبخاري في التاريخ والترمذي عن يزيد بن نعيمة الضبي ، وضعفه السيوطي (١٥ / ١) .

(٢) الحديث أورده الإمام مسلم في صحيحه .

فصل

ولو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي محبة من عذابه لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوّض عنها بشيء أبداً . وسئل بعض العلماء أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فقال : في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ (١) الآية .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وَاللَّهِ لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ حَبِيبَهُ وَلَكِنْ قَدْ يَنْتَلِيهِ فِي الدُّنْيَا » (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا سيّار ، حدّثنا جعفر ، حدّثنا أبو غالب قال : بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الحواريين تحبّوا إلى الله بيبغض أهل المعاصي ، وتقرّبوا إليه بالمقّت لهم ، والتمسوا رضاه بسخطهم » قالوا : يا نبيّ الله فمن نجالس ؟ قال : « جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه ، ومن تذكركم بالله رؤيته ، ويزهّدكم في دنياكم علمه » .

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثواباً عاجلاً أن الله سبحانه وتعالى يُقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه ، كما أنه يُعرض بقلوبهم عن من أعرض عنه ، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا حسن في تفسير شيان عن قتادة قال : ذكر لنا أن هَرَمَ بن حيان كان يقول : ما أقبل عبدٌ على الله بقلبه إلا أقبل الله عزّ وجلّ بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهم .

(١) المائدة (٥ / ١٨) .

(٢) الحديث . رواه الحاكم بنحوه وصححه السيوطي (٢ / ١٩٦) .

وقد روي هذا مرفوعاً ولفظه : « وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ عَلَى اللَّهِ بِقَلْبِهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ يَقْلُوبُ عِبَادِهِ وَجَعَلَ قُلُوبَهُمْ تَفِدُ إِلَيْهِ بِالْوُدِّ وَالرَّحْمَةِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِلَيْهِ أَسْرَعَ » وإذا كانت القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وكل إحسان وصل إلى العبد فمن الله عز وجل كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ^(١) فلا ألام ممن شغل قلبه بحب غيره دونه .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية قال حدثني الأعمش ، عن المنهال ، عن عبد الله بن الحارث قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود أحبني وحبب عبادي إليّ وحببني إلى عبادي ، قال : يا رب هذا أنا أحبك وأحبب عبادك إليك فكيف أحبك إلى عبادك ؟ قال : تذكرني عندهم ، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن .

ومن أفضل ما سئل الله عز وجل حبه وحب من يحبه وحب عمل يقرب إلى حبه ، ومن أجمع ذلك أن يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حَبَّكَ وَحَبَّ مَنْ يَحُبُّكَ وَحَبَّ عَمَلٍ يَقْرِبُنِي إِلَى حَبِّكَ ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أَحَبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تَحِبُّ ، وَمَا زَوَيْتَ ^(٢) عَنِّي مِمَّا أَحَبَّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيمَا تَحِبُّ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حَبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَا ، اللَّهُمَّ حَبِّبْنِي إِلَيْكَ وَإِلَى مَلَائِكَتِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَرَسَلِكَ وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ، واجْعَلْنِي مِمَّنْ يَحِبُّكَ وَيَحِبُّ مَلَائِكَتَكَ وَأَنْبِيَاءَكَ وَرَسَلَكَ وَعِبَادَكَ الصَّالِحِينَ ، اللَّهُمَّ أَحْيِ قَلْبِي بِحَبِّكَ واجْعَلْنِي لَكَ كَمَا تَحِبُّ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَحَبَّ بِقَلْبِي كُلِّهِ ، وَأَرْضِيكَ بِجُهِدِي كُلِّهِ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حَبِّي كُلَّهُ لَكَ ، وَسَعْيِي كُلَّهُ فِي مَرْضَاتِكَ ^(٣) وهذا الدعاء هو فسطاط خيمة الإسلام الذي قيامها به ، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول

(١) النحل (١٦ / ٥٣) .

(٢) زويت عني : صرفت وصدفت عني .

(٣) الحديث : ورد في الجامع الصحيح للترمذي بنحوه .

الله ، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون . والله سبحانه تعرف إلى عباده من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له ، فإن القلوب مفطورة على محبة الكمال ومن قام به ، والله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق من كل وجه الذي لا نقص فيه بوجه ما ، وهو سبحانه الجميل الذي لا أجمل منه بل لو كان جمال الخلق كلهم على رجل واحد منهم وكانوا جميعهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قط نسبة إلى جمال الله ، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراج ضعيف إلى جذاء جرم الشمس ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ (١) .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ » عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وثابت بن قيس ، وأبو الدرداء ، وأبو هريرة ، وأبوريحانة رضي الله عنهم .

ومن أسمائه الحسنى : الجميل ، ومن أحق بالجمال ممن كل جمال في الوجود فهو من آثار صنعه ، فله جمال الذات ، وجمال الأوصاف ، وجمال الأفعال ، وجمال الأسماء ، فأسماءه كلها حسنى ، وصفاته كلها كمال ، وأفعاله كلها جميلة ، فلا يستطيع بشر النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار ، فإذا رآه سبحانه في جنات عدن أنستهم رؤيته ما هم فيه من النعيم ، فلا يلتفتون حينئذ إلى شيء غيره ، ولولا حجاب النور على وجهه لأحرقَت سُُبُحاتُ (٢) وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه ، كما في صحيح البخاري (٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَتَبَوَّعُ لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ (٤) وَيَرْفَعُهُ ، وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ

(١) النحل (١٦ / ٦٠) .

(٢) سبحات وجهه سبحانه وتعالى : أنواره .

(٣) كذا ورد والأصح (صحيح مسلم) .

(٤) القسط : العدل والميزان .

عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ
لَاخْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ .

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار نورُ
السموات من نور وجهه ، وإن مقدار كلِّ يومٍ من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة ،
فتعرض عليه أعمالكم بالأمس [فتعرض عليه] أولُ النهار أو اليوم فينظر فيها ثلاث
ساعات ، فيطلع منها على بعض ما يكره فيغضبه ذلك ، فأولُ من يعلم بغضبه
الذين يحملون العرش يجدونه يثقل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش
وسُرادات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة ، وينفخ جبريلُ في القرنِ
فلا يبقى شيءٌ إلا الثقلين الجنُّ والإنس ، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتليء
الرحمن رحمةً ، فتلك ستُّ ساعاتٍ ، ثم يؤتَى بما في الأرحام فينظر فيها ثلاث
ساعات فيصوِّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فتلك تسع
ساعات ، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلِّهم ثلاث ساعات ، فيبسط الرزق لمن يشاء
ويقدر إنه بكل شيءٍ عليم ، ثم قرأ : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾^(١) ، ثم قال
عبدالله : هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى (رواه عثمان بن سعيد
الدارمي) حدَّثنا موسى بن إسماعيل ، حدَّثنا حماد بن سلمة ، عن الزبير بن
عبد السلام ، عن أيوب بن عبدالله الفهري^(٢) ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .
رواه الحسن بن إدريس ، عن خالد بن الهياج ، عن أبيه ، عن عباد بن كثير ، عن
جعفر بن الحارث ، عن مَعْدَان ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن ربكم
ليس عنده نهار ولا ليلٌ ، وإن السموات مملوءاتُ نوراً من نور الكرسي ، وإن يوماً
عند ربك اثنتا عشرة ساعةً ، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات ، فيرى

(١) الرحمن (٥٥ / ٢٩) .

(٢) وقد ورد أن حماد بن سلمة يروي عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبدالله بن مكرز القرشي
عن ابن مسعود . راجع تهذيب التهذيب (١ / ٤٠٧) .

فيها ما يكره فيغضبه ذلك ، وإن أوَّلَ من يعلم بغضبه حَمَلَةُ العرش يرونها يَتَقَلُّ عليهم فيسَبِّحون له ويسبح له سُرَادِقَات العرش في ثلاث ساعات . من النهار ، حتى يمتلئ ربنا رِضاً فتلك ست ساعات من النهار ، ثم يأمر بأرزاق الخلائق فيعطي من يشاء في ثلاث ساعات من النهار ، فتلك تسع ساعات ، ثم يرفع إليه أرحام كل دابة فيخلق فيها ما يشاء ، ويجعل المدة لمن يشاء في ثلاث ساعات من النهار ، فتلك اثنتا عشرة ساعة ، ثم تلا ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى . وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي دعا به يوم الطائف : « أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَجِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » (١) وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلها كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ (٢) وقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : نور السموات والأرض من نور وجهه ، تفسير لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٣) .

وفي الصحيحين من حديث أبي بكر رضي الله عنه في استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم قيام الليل : « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » وفي سنن ابن ماجه وحرب السكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَيَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا

(١) الحديث : رواه الطبراني في المعجم الكبير .

(٢) الزمر (٣٩ / ٦٩) .

(٣) النور (٢٤ / ٣٥) .

أَهْلَ الْجَنَّةِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ ^(١) فيرفعون رؤوسهم فينظرون إليه وينظرون إليهم ولا يلتفتون إلى شيءٍ مِنَ النَّعِيمِ حتى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ فَيَقْبَى نَوْرُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى دِيَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ » لفظ حديث حرب : « فَمَا ظَنُّ الْمُحِبِّينَ بِلَذَّةِ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ؟ » وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : « أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ » . (ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن جبان في صحيحه) فاسمع الآن شأن أوليائه وأحبائه عند لقائه ثم اختر لنفسك :

أنت القَتِيلُ بكلٍّ من أَحِبَّتِهِ فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

قال هشام بن حسان عن الحسن : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى نسوا نعيم الجنة . وقال هشام بن عمار : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ سَابُورٍ . حَدَّثَنَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ سَلِيمَانَ ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَرَشِيُّ الْقَاضِي أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيَّ يَحْدُثُ عَنِ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَفَعَهُ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَسْكَنَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ بَعَثَ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الرُّوحَ ^(٢) الْأَمِينُ يَقُولُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ رَبَّكُمْ يُقَرِّبُكُمْ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكُمْ أَنْ تَزُورُوا إِلَى فِتْنَاءِ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَبْطَحُ ^(٣) الْجَنَّةِ ، تُرْبَتُهُ الْمِسْكُ وَحَصْبَاؤُهُ ^(٤) الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ وَشَجَرُهُ الذَّهَبُ الرَّطْبُ وَوَرَقُهُ الزُّمْرَدُ ، فَيُخْرِجُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مُسْتَبَشِرِينَ مُسْرُورِينَ ، فَمَنْ يَجْمَعُهُمْ وَتَمَّ كَرَامَةُ اللَّهِ وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ ، وَهُوَ مَوْعِدُ اللَّهِ أَنْجَزُهُ لَهُمْ ، فَيَأْذُنُ اللَّهُ لَهُمْ فِي السَّمَاعِ وَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، وَيُكْسَوْنَ حُلُلَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِمَّا وَعَدَّكُمْ اللَّهُ [رَبُّكُمْ] شيءٌ ؟ فيقولون لَا وَقَدْ أَنْجَزَنَا مَا وَعَدَنَا فَمَا بَقِيَ شَيْءٌ إِلَّا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ ، فَيَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) فِي

(١) بس (٥٨ / ٣٦) .

(٢) الروح الأمين : جبريل عليه السلام .

(٣) الأبطح : هو المكان الفسيح يمر به السيل فيترك فيه الحصى واحصباء ومنه أبطح مكة .

(٤) حصباؤه : جمع مفردة حصبة . وهي الحصى .

حُجِبَ فَيَقُولُ : يَا جَبْرِيلُ ارْقِعْ حِجَابِي لِعِبَادِي كَيْ يَنْظُرُوا إِلَى وَجْهِ ، قَالَ : فَيَرْفَعُ الْحِجَابَ الْأَوَّلَ فَيَنْظُرُونَ إِلَى نُورٍ مِنْ نُورِ الرَّبِّ فَيَخْرُونَ لَهُ سُجْدًا فَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ يَا عِبَادِي ارْقِعُوا رُؤُوسَكُمْ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ عَمَلٍ إِنَّمَا هِيَ دَارُ نَوَابٍ ، فَيَرْفَعُ الْحِجَابَ الثَّانِي فَيَنْظُرُونَ أَمْرًا هُوَ أَعْظَمُ وَأَجَلُ فَيَخْرُونَ لِلَّهِ حَامِدِينَ سَاجِدِينَ ، فَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ أَنْ ارْقِعُوا رُؤُوسَكُمْ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ عَمَلٍ إِنَّمَا هِيَ دَارُ نَوَابٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ . فَيَرْفَعُ الْحِجَابَ الثَّالِثَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيَقُولُونَ حِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِهِ : سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، فَيَقُولُ كَرَامَتِي أَمْكَنْتُكُمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ وَأَخْلَتُكُمْ دَارِي . فَيَأْذُنُ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ أَنْ تَكَلِّمِي فَتَقُولُ : طُوبَى لِمَنْ سَكَنَنِي وَطُوبَى لِمَنْ يَخْلُدُ فِي وَطُونِي لِمَنْ أُعِدْتُ لَهُ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا بِهِ ﴾ ^(١) وقوله تَعَالَى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ^(٢) .

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ آيَتُهُمَا وَجِلَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ آيَتُهُمَا وَجِلَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبَرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَذْنٍ » .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي : حَدَّثَنَا أَبُو الرَّبِيعِ ، حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ الحمِيدِ ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ ، عَنْ كَعْبٍ قَالَ : مَا نَظَرَ اللَّهُ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا قَالَ : طِيبِي لِأَهْلِكَ فزادت طيباً على ما كانت ، وما من يوم كان عيداً في الدُّنْيَا إِلَّا يَخْرُجُونَ فِي مَقْدَارِهِ إِلَى رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَيَبْرُرُّ لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَتَسْفِي ^(٣) عَلَيْهِمُ الرِّيحُ بِالطَّيِّبِ وَالْمِسْكِ فَلَا يَسْأَلُونَ

(١) الرعد (١٣ / ٢٩) .

(٢) القيامة (٧٥ / ٢٢ - ٢٣) .

(٣) سفت الريح التراب : ذرته أو حملته .

رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُمْ ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ وَقَدْ أَزْدَادُوا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَنِ وَالْجَمَالِ سَبْعِينَ ضِعْفًا .

وَقَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، أَخْبَرَنِي شَبَابَةُ عَنْ إِسْرَائِيلَ ، حَدَّثَنَا ثَوْبَرُ بْنُ أَبِي فَاخْتَةَ سَمِعْتُ ابْنَ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى خَدَمِهِ وَنَعِيمِهِ وَسُرُورِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَآكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غَدَوَةً وَعَشِيَّةً ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ » ^(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْهُ .

وَذَكَرَ عَثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا بَلَغَ مِنْهُمْ النَّعِيمُ كُلُّ مَبْلَغٍ وَظَنُّوا أَنْ لَا نَعِيمَ أَفْضَلَ مِنْهُ تَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَظَنُّوا إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ فَسَوَّاهُ كُلُّ نَعِيمٍ عَايَنُوهُ حِينَ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ » .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قَالَ : حَسَنُهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْضَرَّ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ : لَوْلَمْ يَكُنْ لِأَهْلِ الْمَحَبَّةِ - أَوْ قَالَ الْمَعْرِفَةِ - إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ لَأَكْتَفَوْا بِهَا .

وَذَكَرَ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : « هَلْ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ لَا غَيْمَ فِيهِ وَفِي الْقَمَرِ لَيْلَةٌ الْبَدْرِ لَا غَيْمَ فِيهَا ؟ » قُلْنَا : لَا ، قَالَ : « فَإِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَحَاضِرُهُ ^(٢) مُحَاضِرَةٌ فَيَقُولُ : عَبْدِي هَلْ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَلَمْ تُغْفِرْ لِي ؟ فَيَقُولُ : بِمَغْفِرَتِي صِرْتَ إِلَى هَذَا » .

(١) الْقِيَامَةُ (٧٥ / ٢٢ - ٢٣) .

(٢) يَحَاضِرُ الْقَوْمَ : يَجَالِسُهُمْ وَيَحَادِثُهُمْ .

وفي الصحيحين من حديث مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً » .

وفي الصحيح والسنن والمسند من حديث ثابت البناني ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويرجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم » .

وفي صحيح البخاري من حديث جرير بن عبد الله قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » .

وفي الصحيحين من حديث الزهري ، عن عطاء بن يزيد الليثي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تضارون^(١) في القمر ليلة البدر ؟ » قالوا : لا يا رسول الله قال : « فهل تضارون في الشمس ليس دوناً سحاب ؟ » قالوا : لا

(١) لا تضارون في رؤيته : لا يضر بعضكم بعضاً ويفرد برؤيته ، فلا يقع في رؤيته بكم ضر ولا يلحقكم ضيم .

يا رسول الله ، قال : « فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ » . وَفِي لَفْظٍ : « فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَاهُمَا » .

وقال الترمذي : حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ ، حَدَّثَنَا عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَطْلُعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ : لِيَتَّبِعْ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ ، فَيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلَيبِ صَلَيبُهُ وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ فَيَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَيَتَّبِعَى الْمُسْلِمُونَ فَيَطْلُعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ : أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ ؟ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ، اللَّهُ رَبُّنَا هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا ، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُسَبِّتُهُمْ . ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطْلُعُ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ : أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ، اللَّهُ رَبُّنَا ، وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا ، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُسَبِّتُهُمْ . قَالُوا : وَهَلْ نَرَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّهِ تِلْكَ السَّاعَةَ . قَالَ : ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطْلُعُ فَيَعْرِفُهُمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي ، فَيَقُومُ الْمُسْلِمُونَ وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ فَيَمْرُونَ عَلَيْهِ مِثْلَ جِيَادِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ ، وَقَوْلُهُمْ عَلَيْهِ : سَلَّمَ سَلَّمَ ، وَيَقْبَى أَهْلُ النَّارِ فَيُطْرَحُ مِنْهُمْ فِيهَا فَوْجٌ فَيُقَالُ هَلْ امْتَلَأَتْ ؟ فَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا فَوْجٌ فَيُقَالُ : هَلْ امْتَلَأَتْ ؟ فَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ حَتَّى إِذَا أَوْعَبُوا^(١) فِيهَا وَضَعَ الرَّحْمَنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا قَدَمَهُ فَأَزَوَى^(٢) بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ وَقَالَتْ : قَطَّ قَطَّ ، فَإِذَا ادْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ أَتَى بِالْمَوْتِ مُلَبِّياً فَيُوقِفُ عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَطْلَعُونَ خَائِفِينَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَطْلَعُونَ

(١) أَوْعَبُوا فِيهَا : ادْخَلُوا جَمِيعاً فِيهَا .

(٢) أَزَوَى بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ : ضَمَّ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ .

مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ الشَّفَاعَةَ فَيَقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ : هل تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ : قَدْ عَرَفْنَاهُ ، هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي وَكَّلَ بِنَا ، فَيُضْجَعُ فَيُذْنَعُ ذَنْبًا عَلَى السُّورِ . ثُمَّ يَقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ » .

قال الترمذي : هذا حديث حسنٌ صحيحٌ وأصله في الصحيحين لكن هذا السياق أجمع وأخصر . وفي لفظ الترمذي : « فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ فَرَحًا لَمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ حُزْنًا لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ » .

وفي مسند الحارث بن أبي أسامة من حديث قرّة ، عن مالك ، عن زياد بن سعد ، حدّثنا أبو الزبير قال : سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جُمِعَتِ الْأُمَمُ وَدُعِيَ كُلُّ أَنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَجِئْنَا آخِرَ النَّاسِ فَيَقُولُ قَائِلٌ مِنَ النَّاسِ : مَنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ ؟ قَالَ : فَيُشْرِفُ إِلَيْنَا النَّاسُ فَيَقَالُ : هَذِهِ الْأُمَّةُ الْإِمِينَةُ ، هَذِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ فِي أُمَّتِهِ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ إِنَّكُمْ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ ، قَالَ : فَتَأْتِي فَتَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ حَتَّى نَكُونَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَنَزَلَةً ، ثُمَّ يُدْعَى النَّاسُ كُلُّ أَنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَحْنُ الْيَهُودُ ، فيقول : مَنْ نَبِيِّكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَبِينَا مُوسَى ، فيقول : مَا كِتَابُكُمْ ؟ فيقولون : كِتَابُنَا التَّوْرَةُ ، فيقول : مَا تَعْبُدُونَ ؟ فيقولون : نَعْبُدُ عُزَيْرًا وَنَعْبُدُ اللَّهَ ، فيقول لِلْمَلَإِ حوله : اسْلُكُوا بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ . ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فيقول : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فيقولون : نَحْنُ النَّصَارَى ، فيقول : مَنْ نَبِيِّكُمْ ؟ فيقولون : نَبِينَا عِيسَى ، فيقول : مَا كِتَابُكُمْ ؟ فيقولون : كِتَابُنَا الْإِنْجِيلُ ، فيقول : مَا تَعْبُدُونَ ؟ فيقولون : نَعْبُدُ عِيسَى وَأُمَّهُ وَاللَّهَ . فيقول لِلْمَلَإِ حوله : اسْلُكُوا بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ ، فَيُدْعَى عِيسَى فيقول لعيسى : يَا عِيسَى ﴿ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(١) فيقول : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ ^(٢) إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ الْغَزِيرُ الْأَحْكِيمُ ﴾ ^(٣) ثُمَّ

يَدْعَى كُلُّ أَنَاسٍ بِإِلَهِهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ثُمَّ يَصْرُخُ الصَّارِخُ : أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ إِلَهًا فَلْيَتَّبِعْهُ ، تَقْدِمُهُمْ آلِهَتُهُمْ مِنْهَا الْخَشَبُ وَالْحِجَارَةُ ، وَمِنْهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، وَمِنْهَا الدُّجَالُ ، حَتَّى تَبْقَى الْمُسْلِمُونَ فَيَقِفُ عَلَيْهِمْ فيقول : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فيقولون : نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ ، قال : قال : خَيْرُ اسْمٍ وَخَيْرُ دَاعِيَةٍ ، فيقول : مَنْ نَبِيَّكُمْ ؟ فيقولون : مُحَمَّدٌ ، فيقول : مَا كِتَابُكُمْ ؟ فيقولون : الْقُرْآنُ ، فيقول : مَا نَعْبُدُونَ ؟ فيقولون : نَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، قال : سَيَنْفَعُكُمْ ذَلِكَ إِنْ صَدَقْتُمْ ، قالوا : هَذَا يَوْمُنَا الَّذِي وَعَدْنَا فيقول : أَتَعْرِفُونَ اللَّهَ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ ؟ فيقولون : نَعَمْ ، فيقول : وَكَيْفَ تَعْرِفُونَهُ وَلَمْ تَرَوْهُ ؟ فيقولون : نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عَدَلَ لَهُ ، قال : فَيَتَجَلَّى لَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيقولون : أَنْتَ رَبُّنَا تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُكَ ، وَيَخْرُونَ لَهُ سُجْدًا ، ثُمَّ يَمْضِي النُّورُ بِأَهْلِهِ .

وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه من حديث أبي الزبير قال : سألت جابراً عن الورد فأخبرني أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ ^(١) فَرَقَ النَّاسُ ، فَتَدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْلِيَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فيقول : مَا تَنْتَظِرُونَ ؟ فيقولون : نَنْتَظِرُ رَبَّنَا ، فيقول : أَنَا رَبُّكُمْ ، فيقولون : حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ فَيَتَّبِعُونَهُ » .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي أن أبا بُرْدَةَ بن أبي موسى الأشعري أتى عمر بن عبد العزيز فقال : حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَجْمَعُ اللَّهُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَإِذَا بَدَأَ لَهُ أَنْ يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ مِثْلَ لِكَلِّ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فَيَتَّبِعُونَهُمْ حَتَّى يَقْهَمُوهُمْ ^(٢) النَّارَ ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا وَنَحْنُ فِي مَكَانٍ فيقول : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فنقول : نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ ، فيقول : مَا تَنْتَظِرُونَ ؟ فنقول : نَنْتَظِرُ رَبَّنَا ، فيقول : مِنْ أَيْنَ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَبُّكُمْ ؟

(١) الكوم : التل المرتفع .

(٢) يقحموهم : يَكْبِتُونَهُمْ فيها على وجوههم .

فَنَقُولُ : حَدَّثَنَا الرَّسُلُ أَوْ جَاءَنَا الْكُتُبُ ، فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُونَهُ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عَذَلَ ، فَيَتَجَلَّى لَنَا ضَاحِكًا ، ثُمَّ يَقُولُ : أَبَشِّرُوا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُ مَكَانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » فَقَالَ عُمَرُ لِأَبِي بُرْدَةَ : أَللَّهُ ، لَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا مُوسَى يَحَدِّثُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : إِي وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ وَلَا ثَلَاثًا ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : مَا سَمِعْتُ فِي الْإِسْلَامِ حَدِيثًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ .

وفي الترمذي من حديث الأوزاعي حَدَّثَنِي حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ لَقِيَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سَوَاقِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ سَعِيدٌ : أَوْ فِيهَا سَوْقٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مَقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيُزَوِّرُونَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَيَبْرُزُ لَهُمْ عَرْشُهُ وَيَتَبَدَّى لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، فَتُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ ، وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ عَلَى كُتُبَانٍ ^(١) الْمَسْكُ وَالْكَافُورُ مَا يَرُونَ أَنَّ أَهْلَ الْكَرَاسِيِّ أَفْضَلُ مِنْهُمْ مَجْلِسًا .

قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله وهل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « نَعَمْ هَلْ تُمَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ » قلنا : لا ، قال : « كَذَلِكَ لَا تُمَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ وَلَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضِرُهُ اللَّهُ تَعَالَى مُحَاضِرُهُ حَتَّى يَقُولَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ : يَا فَلَانُ ابْنُ فَلَانٍ أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَذْكُرُهُ بِبَعْضِ عَذَابِهِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لِي ؟ فَيَقُولُ : بَلَى فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنَزِلَتَكَ هَذِهِ ، فَيُبَيِّنَانَهُمْ عَلَى ذَلِكَ غَشِيَتَهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ قُوْفِهِمْ

(١) الكتيب : التل من الرمل .

فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طَيْباً لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئاً قَطُّ ، ثُمَّ يَقُولُ : قُومُوا إِلَى مَا أَعَدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فَخُذُوا مَا اسْتَهْتَيْتُمْ ، فَنَاتِي سَوْقاً قَدْ حَفَّتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ ، فِيهِ مَا لَمْ تَنْظُرُ الْعُيُونُ إِلَى مِثْلِهِ وَلَمْ تَسْمَعْ الْأَذَانُ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْقُلُوبِ ، فَيُحْمَلُ إِلَيْنَا مَا اسْتَهْتَيْنَا لَيْسَ يَبَاعُ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يُشْتَرَى ، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ يَلْقَى أَهْلَ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فَيَقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَمَا فِيهِمْ ذَنْبٌ فَيَرَوْعُهُ مَا يَرَى عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ فَمَا يَنْقُضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتِمَثَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ مِنْهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا ، ثُمَّ نَنْصَرِفُ إِلَى مَنَازِلِنَا فَتَسْلُقَانَا أَزْوَاجُنَا فَيَقْلُنَ مَرْحَباً وَأَهْلاً لَقَدْ جِئْتَ وَإِنَّ بِكَ مِنَ الْجَمَالِ وَالطَّيِّبِ أَكْثَرَ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : إِنَّا جَالِسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا الْجَبَّارَ وَنَحْقَنَا أَنْ نَتَّقِلَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنَا .

وقال يعقوب بن سفيان في مسنده : حَدَّثَنَا ابْنُ الْمَصْفَى ، حَدَّثَنَا سُؤِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَزُورُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ وَذَكَرَ مَا يُعْطَوْنَ » قَالَ : ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اكْشِفُوا الْحُجُبَ ، فَيَكْشِفُوا حِجَاباً ثُمَّ حِجَاباً حَتَّى يَتَجَلَّى لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَانَهُمْ لَمْ يَرَوْا نِعْمَةً قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿ (١) .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي من حديث الحسن رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً أَنَّهُ قَالَ : « يَأْتِينَا رَبُّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَحْنُ عَلَى مَكَانٍ رَفِيعٍ فَيَتَجَلَّى لَنَا ضَاحِكاً » (مرسل صحيح) .

وقال عثمان الدارمي : حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ ، حَدَّثَنَا الْأَجْلَحُ حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ السَّمَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَنْشَقُّ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَحِيطُونَ بِالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا ، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ حَتَّى ذَكَرَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فَيَكُونُونَ

(١) ت (٥٠ / ٣٥) .

سبعة صفوف قد أحاطوا بالناس ، ثم ينزل المَلِك الأعلى جَلَّ جلاله في بهائه
وجماله ومعه ما شاء من الملائكة .

وقال عثمان بن سعيد : حَدَّثَنَا هشام بن خالد الدمشقي ، وكان ثقة ، حَدَّثَنَا
محمد بن شعيب بن شاور ، حَدَّثَنَا عمر بن عبد الله مولي غفرة ، عن أنس بن مالك
رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جَاءَنِي جِبْرِيلُ وَفِي
كَفِّهِ مِرَّةٌ فِيهَا نُكْتَةٌ ^(١) سَوْدَاءٌ ، فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذِهِ الْجُمُعَةُ أُرْسِلُ
بِهَا إِلَيْكَ رَبُّكَ فَتَكُونُ هُدًى لَكَ وَلَأَمَتِكَ مِنْ بَعْدِكَ ، فَقُلْتُ : وَمَا لَنَا فِيهَا ؟ قَالَ :
لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ أَنْتُمْ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَفَّقُهَا عَبْدٌ
مُؤْمِنٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْراً هُوَ لَهُ قَسَمٌ إِلَّا أَنَاهُ وَلَا خَيْراً لَيْسَ لَهُ بِقَسَمٍ إِلَّا دُخِرَ لَهُ
أَفْضَلُ مِنْهُ ، وَلَا يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِلَّا دُفِعَ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْهُ ، قُلْتُ : مَا
هَذِهِ النُّكْتَةُ السُّودَاءُ ؟ قَالَ : هَذِهِ السَّاعَةُ يَوْمَ تَقُومُ الْقِيَامَةُ وَهُوَ سَيِّدُ الْأَيَّامِ وَنَحْنُ
نُسَمِّيهِ عِنْدَنَا يَوْمَ الْمَزِيدِ ، قُلْتُ : وَلِمَ تُسَمُّونَهُ يَوْمَ الْمَزِيدِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : لِأَنَّ
رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَادِياً أَفِيحاً ^(٢) مِنْ مَسْكِ أَبْيَضٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ
الْآخِرَةِ هَبَطَ الْجَبَّارُ عَنْ عَرْشِهِ إِلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي وَقَدْ حُفَّ الْكُرْسِيُّ بِمَنَابِرٍ
مِنْ نُورٍ يَجْلِسُ عَلَيْهَا الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُ الْغُرَفِ حَتَّى
يَحْفُوا بِالْكَئِيبِ ، ثُمَّ يَبْدُو لَهُمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ : أَنَا الَّذِي
صَدَقْتُكُمْ وَعَدِي وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَأَحْلَلْتُكُمْ دَارَ كَرَامَتِي فَسَلُونِي ، فَيَقُولُونَ
بِأَجْمَعِهِمْ : نَسْأَلُكَ الرِّضَا عَنَّا ، فَيَشْهَدُ لَهُمْ عَلَى الرِّضَا ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ : سَلُونِي ،
فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ نَهْمُهُ ^(٣) كُلُّ عَبْدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ يَقُولُ : سَلُونِي ، فَيَقُولُونَ : حَسْبُنَا
رَبُّنَا رَضِينَا ، فَيَرْجِعُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَى عَرْشِهِ فَيَنْتَحِلُ لَهُمْ بِقَدْرِ إِشْرَاقِهِمْ مِنْ يَوْمِ
الْجُمُعَةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . وَيَرْجِعُ أَهْلُ

(١) النُّكْتَةُ : النُّقْطَةُ السُّودَاءُ فِي الْأَبْيَضِ أَوْ الْبَيْضَاءُ فِي السُّودِ .

(٢) أَفِيحٌ : فَسِيحٌ مَرْعٌ .

(٣) النِّهْمَةُ : الْحَاجَةُ ، وَاشْبَاعُ الشَّهْوَةِ فِي الْمَرَادِ .

الْغَرْفِ إِلَى غُرْفِهِمْ وَهِيَ غُرْفَةٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ بَيْضَاءَ وَيَأْقُوتَةُ حَمْرَاءَ وَزُرْمُودَةُ خَضْرَاءَ لَيْسَ فِيهَا قَصَصٌ^(١) وَلَا وَصَمٌ^(٢) مُطَرِّدَةٌ أَنْهَارُهَا مُتَدَلِّةٌ فِيهَا ثِمَارُهَا ، فِيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا وَمَسَاكِنُهَا فَلْيَسُوا إِلَى يَوْمٍ أُخْرِجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِيَزْدَادُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا .

رواه عن أنسٍ جماعةٌ منهم عثمان بنُ عُمَيْرٍ بنُ الْيَقْظَانِ^(٣) ومن طريقه رواه الشافعي في مسنده ، وعبدالله بن الإمام أحمد في السنة^(٤) ، ومنهم أبو صالح ، والزبير بن عدي وعلي بن الحكم البناني ، وعبد الملك بن عُمَيْرٍ ، ويزيد الرقاشي وعبدالله بن بُرَيْدَةَ ، كُلُّهُمْ عَنْ أَنَسٍ وَصَحَّحَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْحَفَظِ ، وَزَادَ الشَّافِعِيُّ فِي مَسْنَدِهِ فِي آخِرِهِ : « وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي اسْتَوَى فِيهِ رَبُّكُمْ عَلَى الْعَرْشِ » وَسَاقَهُ عثمان بن أبي شيبة من طرق ، وقال في بعضها : « ثُمَّ يَنْجَلِي لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ : أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعِدِي وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَهَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي » إِلَى أَنْ قَالَ : « ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَيَرْتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ وَالصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغَرْفِ إِلَى غُرْفِهِمْ » .

وروى محمد بن الزُّبَيْرِ قَانَ ، عَنْ مِقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَحْتَاجُونَ إِلَى الْعُلَمَاءِ فِي الْجَنَّةِ كَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَزُورُونَ رَبَّهُمْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ فَيَقُولُ لَهُمْ : تَمَنُّوا ، فَيَقُولُونَ : وَمَا نَتَمَنَّى وَقَدْ أَدْخَلْتَنَا الْجَنَّةَ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا أُعْطِينَا ، فَيَقَالَ لَهُمْ : تَمَنُّوا ، فَيَلْتَفِتُونَ إِلَى الْعُلَمَاءِ » وَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي قِصَّةِ الْجُمُعَةِ .

وروى ابن مَنْدَه من حديث الأعمش ، عن أبي وائل ، عن حذيفة رضي الله

(١) قصصه : كسره .

(٢) الوصم : الصدع والعيب .

(٣) كذا وردت بالأصل ، والأصح أبو اليقظان .

(٤) كذا . . . ولعل الأصح (في مسنده) .

عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قصّة الجمعة بطولها وفيها يقول : « سلّوني فيقولون : أَرَأَيْتَ رَجُلًا يَتَجَلَّى لِرَبِّ الْعَالَمِينَ نَتَظَرُّ إِلَيْكَ ، فَيَكْشِفُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تِلْكَ الْحُجُبَ وَيَتَجَلَّى لَهُمْ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ » .

وذكر عثمان الدارمي ، عن محمد بن كعب القرظي ، أنه حدث عمر بن عبدالعزيز قال : إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار أقيّل في ظلّل من الغمام والملائكة فيسلم على أهل الجنة في أوّل درجة فيردّون عليه السلام ، قال القرظي : وهذا في القرآن ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾^(١) فيقول : سلّوني ، يفعل بهم ذلك في درجهم حتى يستوي على عرشه ، ثم تأتيهم التّحفّ من الله تحمله^(٢) الملائكة إليهم .

وقال عبدالواحد بن زيد ، عن الحسن : لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدّنيا . وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك وتعالى يتجلّى لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة .

أعجبُ الصبر صبرُ المحبين . قال الشاعر :

والصبرُ يُحمَدُ في المواطنِ كلّها إلا عليك فإنه لا يُحمَدُ^(٣)

وقف رجلٌ على الشبلي فقال : أي الصبر أشدُّ على الصابرين ؟ قال : الصبر في الله ، فقال السائل : لا ، فقال : الصبر لله ، قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ، قال : لا ، قال : فما هو ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلي صرخةً كادت روحه تَزْهَقُ . قال الشاعر :

والصبرُ عنك فمذمومٌ عواقبُهُ والصبرُ في سائر الأشياء محمود

(١) يس (٣٦ / ٥٨) .

(٢) كذا وردت ببعض الأصول والأصح (تحملها) .

(٣) تقدم هذا البيت .

الخوف يبعدك عن معصيته ، والرجاء يخرجك إلى طاعته ، والحب يسوقك إليه سوقاً . لما علم الله سبحانه أن قلوب المشتاقين إليه لا تهدأ إلا بلاقائه ضرب لهم أجلاً للقاء تسكيناً لقلوبهم ، فقال الله تعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ ﴿١﴾ .

يا من شكى شوقه من طول فراقه إصبر لعلك تلقى من تحب غداً
وسر إليه بنار الشوق مجتهداً عساك تلقى على نار الغرام هدى
المحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد شوقاً إليه .

واعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام (٢)
كلما وقع بصر المحب على محبوبه أحدث له رؤيته شوقاً على شوقه :

ما يرجع الطرف عنه حين يبصره حتى يعود إليه الطرف مشتاقاً
المحب الصادق إذا سافر طرفه في الكون لم يجد له طريقاً إلا على
محبوبه ، فإذا انصرف بصره عنه رجع إليه خاسئاً (٣) وهو حسير (٤) .

ويسرح طرفي في الأنام ويشني وإنسان عيني بالدموع غريق
فيرجع مردوداً إليك وماله على أحد إلا عليك طريق

أقر شيء لعيون المحب خلوته بسرّه مع محبوبه . حدثني من رأى شيخنا في
عنفوان أمره ، خرج إلى البرية بكرة فلما أصحّر (٥) تنفس الصعداء ثم تمثل بقول
الشاعر :

(١) العنكبوت (٢٩ / ٥) .

(٢) وروي الشطر الثاني : (إذا دنت الديار من الديار) .

(٣) خاسئاً : ذليلاً .

(٤) حسير : كليل ، أعياه النظر وأضناه البحث .

(٥) أصحّر : خرج إلى الصحراء .

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عَنْكَ الْقَلْبَ بِالسَّرِّ خَالِيَا^(١)

الشوق يحمل المحبَّ على العَجَلَة في رضا المحبوب والمبادرة إليها على الفور ولو كان فيها تَلَفُهُ . ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾^(٢) قال بعضهم : أراد شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا .

ولو قلت طأ في النار أعلم أنه رضا لك أو مُدِنٍ لنا من وصالك
لقدّمت رجلي نحوها فوطئتها هدىً منك لي أو ضلّةً من ضلالك
ليَهْنِكَ إمساكي بكفّي على الحشا ورقراق عيني خشيةً من زِيالك^(٣)
وإن ساءني أن يلتني بمساءة لقد سرّني أنني خطرتُ ببالك
من علامات المحبة الصادقة أن المحب لا يَتِمُّ له سرورٌ إلّا بمحجوبه ، وما دام غائباً عنه فعيّشه كلّهُ مُنْعَصُ .

نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلّا بكم يَتِمُّ السرور
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غُيِّبُ ونحن حضور
وقال آخر :

من سرّه العيدُ الجديد فقد عَدِمْتُ به السرورا
كان السرور يَتِمُّ لي لو كان أحبابي حضورا
لوقيل للمحبّ ، على الدوام : ما تتمنى ؟ لقال : لقاء المحبوب .

ولما نزلنا منزلاً طلّهُ الندى أنيقاً وبستاناً من النورِ حالياً^(٤)

(١) تقدم ذكر هذا البيت .

(٢) طه (٢٠ / ٨٣ - ٨٤) .

(٣) رفرق الماء : صبه بركة ، وزايله : فارقه .

(٤) حالياً : متحلياً مزديناً .

أَجْدُ^(١) لَنَا طَيْبُ الْمَكَانِ وَحُسْنُهُ مِنْهُ فَمَتْنِينَا فَكُنْتَ الْأَمَانِيَا
 وَقَالَ الْجُنَيْدُ : سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ : الشُّوقُ أَجْلٌ مَقَامِ الْعَارِفِ إِذَا تَحَقَّقَ
 فِيهِ ، وَإِذَا تَحَقَّقَ بِالشُّوقِ لَهَا عَنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُهُ عَمَّنْ يَشْتَاقُ إِلَيْهِ . وَقِيلَ : أَوْحَى اللَّهُ
 تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قُلْ لِشِبَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَ تَشْغُلُونَ أَنْفُسَكُمْ بِغَيْرِي
 وَأَنَا مُشْتَاقٌ إِلَيْكُمْ ؟ مَا هَذَا الْجَفَاءُ ؟ وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُذْذِبُونَ عَنِّي كَيْفَ أَنْتَظِرُ لَهُمْ
 وَرَفَقِي بِهِمْ وَمَحَبَّتِي لَتَرَكُ مَعَاصِيَهُمْ لَمَاتُوا شَوْقاً إِلَيَّ وَانْقَطَعَتْ أَوْصَالُهُمْ مِنْ
 مَحَبَّتِي . هَذِهِ إِرَادَتِي لِلْمُذْذِبِينَ عَنِّي فَكَيْفَ إِرَادَتِي لِلْمُقْبِلِينَ عَلَيَّ ؟ وَسُئِلَ الْجُنَيْدُ
 مِنْ أَيِّ شَيْءٍ بَكَاءُ الْمُحِبِّ إِذَا لَقِيَ الْمُحِبَّوبَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ سُرُوراً بِهِ
 وَوَجْداً مِنْ شِدَّةِ الشُّوقِ إِلَيْهِ ، قَالَ : وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَخَوَيْنِ تَعَانَقَا فَقَالَ أَحَدُهُمَا :
 وَاشْوَقَاهُ وَقَالَ الْآخَرُ : وَاجْذَاهُ . وَكَانَتْ عَجُوزٌ لَهَا غَائِبٌ فَقَدِمَ مِنَ السَّفَرِ فَأَظْهَرَ
 أَهْلُهَا الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ بِهِ . فَجَعَلَتْ تَبْكِي فَقِيلَ لَهَا : مَا هَذَا الْبُكَاءُ ؟ فَقَالَتْ :
 ذَكَرَنِي قَدُومُ هَذَا الْفَتَى يَوْمَ الْقَدُومِ عَلَى اللَّهِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ : قُلُوبُ الْمُشْتَاقِينَ مَنْوَرَةٌ بِنُورِ اللَّهِ ، فَإِذَا تَحَرَّكَ اشْتِيَاقُهُمْ
 أَضَاءَ النُّورُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَيَعْرِضُهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْمَلَائِكَةِ
 فَيَقُولُ : هَؤُلَاءِ الْمُشْتَاقُونَ إِلَيَّ أَشْهَدُكُمْ أَنِّي إِلَيْهِمْ أَشُوقُ .

فصل

قَالَ ابْنُ أَبِي الْخَوَارِجِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : سُئِلَ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّارَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ
 وَأَنَا حَاضِرٌ مَا أَقْرَبُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ فَبَكَى ثُمَّ قَالَ : مِثْلِي يُسْأَلُ عَنْ
 هَذَا ؟ أَقْرَبُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَى قَلْبِكَ وَأَنْتَ لَا تَرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 إِلَّا هُوَ^(٢) . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ^(٣) : النَّسْكُ هُوَ الْعَنَاءُ بِالسَّرَائِرِ وَإِخْرَاجُ مَا سِوَى

(١) أجد : أحدث جديداً .

(٢) كذا . . . ولعله (والآخرة غيره) كما في حلية الأولياء .

(٣) يحيى بن معاذ : هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي ، أبو زكريا ، واعظ زاهد ، لم يكن له نظير في =

الله من القلب . وقال سهل بن عبدالله : ما من ساعة إلا والله سبحانه يطلع فيها على قلوب العباد ، فأَيُّ قلبٍ رأى فيه غيرَه سلطَ عليه إبليس . وقال سهل بن عبدالله : من نظر إلى الله عزَّ وجلَّ قريباً منه بُعد عن قلبه كلُّ شيءٍ سوى الله ، ومن طلب مرضاته أَرْضاه الله سبحانه وتعالى ، ومن أسلم قلبه إلى الله تَوَلَّى الله جوارحه . وقال سهل أيضاً : حرام على قلبٍ أن يَشتم رائحةَ اليقين وفيه سكونٌ إلى غير الله ، وحرامٌ على قلبٍ أن يدخله النورُ وفيه شيءٌ مما يكره الله . ومثل بعضهم عن أفضل الأعمال فقال : رعاية السرِّ عن الالتفات إلى شيءٍ سوى الله عزَّ وجلَّ . وقال مسلم^(١) : تركتموه وأقبل بعضكم على بعضٍ ، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب .

فصل

فإن تقاصرت^(٢) همَّتكَ الدُّنْيَةُ عن ترك الفواحش مجبةً لهذا المحبوب الأعلى ولست هناك فاتركها مجبةً للنساء اللاتي وصفهن الله في كتابه ، وبعث رسوله داعياً إلى وصالهن في جنة المأوى . وقد تقدّم ذكرُ بعض صفاتهن ولذّة وصالهن ، فإن تقاصرت همَّتكَ عنهنّ ولم تكن كفواً لخطبتهنّ ودعتك نفسك إلى إيثار ما هاهنا عليهنّ فكن من عقوبته العاجلة والأجلة على حذر . واعلم أن العقوبات تختلف ، فتارة تُعَجِّل وتارة تؤخّر وتارة يجمع الله على العاصي بينهما . وأشدُّ العقوبات العقوبة بسلب الإيمان ، ودونها العقوبة بموت القلب ومحو لذة الذكر والقراءة والدُّعاء والمناجاة منه ، وربما دَبَّت عقوبة القلب فيه ديبب الظلمة إلى أن يمتلئ القلب بهما فتعمي البصيرة ، وأهونُ العقوبة ما كان واقعاً بالبدن في الدنيا ، وأهونُ منها ما وقع بالمال ، وربما كانت عقوبة النظر في البصيرة أو في البصر أو فيهما .

= وقته ، من أهل الري مات بنيسابور سنة ٢٥٨ هـ . طبقات الصوفية (١٠٧ - ١١٤) ، وصفة الصفة (٨٠ - ٧١ / ٤) .

(١) وفي لسان الميزان (سلم) وحلية الأولياء (سالم بن سيمون الخواص) .

(٢) تقاصرت : تضاءلت .

قال الفضيل^(١) . يقول الله تعالى : ابن آدم إذا كنت ألقبك في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذر لثلا أصرعك بين معاصيك ، ابن آدم أتقني ونم حيث شئت ، إنك إن ذكرتني ذكرتك ، وإن نسيتني نسيتك ، والساعة التي لا تذكرني فيها عليك لا لك .

وقال الفضيل أيضاً : ما يؤمنك أن تكون بارزت الله تعالى بعملٍ مقتك عليه فأغلق عنك أبواب المغفرة وأنت تضحك ؟ وقال علقمة بن مرثد : بينا رجل يطوف بالبيت إذ برق له ساعد امرأة فوضع ساعده على ساعدها فالتد به فلصقت ساعدها ، فأتى بعض أولئك الشيوخ فقال : ارجع إلى المكان الذي فعلت هذا فيه فعاهد رب البيت أن لا تعود ، ففعل فخلى عنه .

وقال ابن عباس ، وأنس رضي الله عنهم : إن للحسنة نوراً في القلب ، وزيناً في الوجه ، وقوة في البدن ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق . وإن للسيئة ظلمة في القلب . وشيناً في الوجه ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق .

وقال الحسن : ما عصى الله عبداً إلا أذله الله . وقال المعتز بن سليمان : إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مدلته . وقال الحسن : هانوا عليه فقصوه ولو عزوا عليه لعصمهم . وكان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول : من سره أن تدوم له العافية فليتي الله .

وقال أبو سليمان الداراني : من صفا صفا له ، ومن كدر كدر عليه ، ومن أحسن في ليله كفي في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كفي في ليله ، ومن ترك الله شهوة من قلبه فالله أكرم أن يعذب بها قلبه . وكتبت عائشة أم المؤمنين رضي الله

(١) الفضيل : سبقت ترجمته .

عنها إلى معاوية : أما بعد فإن العامل إذا عمل بمعصية الله عاد حامدُه من الناس دأماً .

وقال مُحَارِبُ بنِ دَثَارٍ : إِنْ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فيجد له في قلبه وهنا .

وقال الحسين بن مطير :

ونفسك أَكْرَمَ عن أمورٍ كثيرةٍ فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها
ولا تقربِ الأمر^(١) الحرامَ فإنما حلاوته تفتى ويبقى مَرِيرُها

وكان سفيان الثوري يتمثل بهذين البيتين :

تفتى اللذائة ممن ذاق^(٢) صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ في مَغْيَبَتِها لا خيرَ في لذّةٍ من بعدها النارُ
فصل

واعلم أن الجزاء من جنس العمل ، والقلب معلق بالحرام كلما هم أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه ، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا .

وفي بعض طُرُق حديث سَمُرَةَ بنِ جُنْدَبٍ الذي في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أُتِيَانِي فَأَخْرَجَانِي فَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فَإِذَا بَيْتٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مِثْلِ بِنَاءِ الثَّنَوْرِ أَعْلَاهُ ضَبَقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَوْقَدُ تَحْتَهُ نَارٌ فِيهِ رَجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءٌ فَإِذَا أَوْقَدَتِ النَّارُ ارْتَفَعُوا حَتَّى يَكَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا فَإِذَا أُخِمِدَتْ رَجَعُوا فِيهَا فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هُمْ الزُّنَاةُ » . فتأمل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا فإنهم كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أركسوا^(٣) فيه وعادوا بعد أن كادوا يخرجون .

ولما كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقة وكانوا كلما هموا بالخروج

(١) تقدم هذان البيتان .

(٢) تقدم هذان البيتان أيضاً .

(٣) أركسوا فيه : قلبوا فيه وعادوا إليه بقبح وتنكيل .

منه إلى قضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على حوافرهم كان عقوبتهم في الآخرة كذلك ، قال الله تعالى : ﴿ كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ ^(١) . وقال في موضع آخر : ﴿ كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ ^(٢) فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم ، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألّفه ، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت ، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة ، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك ، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت ، وكان معذباً به هناك كما كان قلبه معذباً به في الدنيا ، فليس العساق ^(٣) والفجرة والظلمة في لذّة في هذه الدار ، وإنما هم يعذبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة ، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالآلم ، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أخضرت نفوسهم الآلم الشديد ، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم . فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفتنى ، والدود يأكل جسومهم .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال : حدثني عبد الصمد بن معقل ، حدثني وهب بن منبه قال : كان حزقيल قائماً فأثاه ملك فذكر حديثاً طويلاً وفيه أنه مرّ بقوم أموات فقبل له : ادعهم فدعاهم فأحياهم الله له فقال : سلمهم فيم كنتم ؟ فقالوا : لما فارقتنا الحياة لقينا ملكاً يقال له ميكائيل فقال : هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم فذلك سئتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم ، فنظروا في أعمالنا فوجدونا نعبد الأوثان ، فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألم ، وسلط الغم على أرواحنا وجعلت الأجساد تألم ، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا .

(١) السجدة (٣٢ / ٢٠) .

(٢) الحج (٢٢ / ٢٢) .

(٣) كذا وردت ببعض الأصول ولعلها (الفساق) وربما تكون تحريفاً .

الباب السابع والعشرون

فيم تركه مجبوراً هراماً فنزل له
هذا أول أعاضه الله خيراً منه

عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك لله شيئاً عوّضه الله خيراً منه ، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجن على الفاحشة فعوّضه الله أن مكّنه في الأرض يتبوا^(١) منها حيث يشاء ، وأنته المرأة صاغرة سائلة راغبة في الوصل الحلال فتزوجها ، فلما دخل بها قال : هذا خير مما كنت تريدن . فتأمل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن أن مكّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء ، وأذلّ له العزيز وامراته ، وأقرّت المرأة والنسوة ببراءته ، وهذه سنته تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة . ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الريح يسير على متنها^(٢) حيث أراد . ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التي هي أحبّ شيء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملّكهم شرق الأرض وغربها . ولو اتقى الله السارق وترك سرقة المال المعصوم لله لآتاه الله مثله حلالاً ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

(١) يتبوا منزلاً : ينزله .

(٢) متنها : ظهرها .

يَحْتَسِبُ ﴿١﴾ فَأَخْبِرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ إِذَا اتَّقَاهُ بَتَرَكَ مَا لَا يَجِلُّ لَهُ رَزْقَهُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَكَذَلِكَ الزَّانِي لَوْ تَرَكَ رُكُوبَ ذَلِكَ الْفَرْجِ حَرَاماً لِلَّهِ لِأَثَابِهِ اللَّهُ بِرُكُوبِهِ أَوْ رُكُوبَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ حَلَالاً .

وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا هَشِيمٌ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ ، عَنْ مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ ، عَنْ صِلَةَ ، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « النَّظَرَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ اللَّهِ أَثَابَهُ اللَّهُ إِيْمَاناً يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ » .

وقال عمرُ بنُ شَبَّةَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ ، حَدَّثَنَا عُبَيْسَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَنِيُّ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ السَّهْمِ أَعْقَبَهُ اللَّهُ عِبَادَةَ تَسْرَهُ » .

وقال أبو الفرج بن الجوزي (٢) رحمه الله تعالى : بلغني عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرة فإذا جاريةٌ حسناء عليها ثيابٌ سوداء ، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها :

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الشَّمْسَ وَاحِدَةً
وَالْبَدْرَ فِي مَنْظَرٍ بِالْحَسَنِ مَوْصُوفُ
حَتَّى رَأَيْتُكَ فِي أَثْوَابٍ ثَاكِلَةٍ
سُودٍ وَصَدُغُكَ فَوْقَ الْخَذِّ مَعْطُوفُ

(١) الطلاق (٦٥ / ٢ - ٣) .

(٢) أبو الفرج بن الجوزي : وهو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، أبو الفرج عالم عصره في التاريخ والحديث ، كثير التصانيف ، مولده ووفاته ببغداد سنة ٥٩٧ هـ . راجع وفيات الأعيان (١ / ٢٧٩) ، ومفتاح السعادة (١ / ٢٠٧) ، وابن الوردي (٣ / ٩١) ، ودائرة المعارف الإسلامية (١ / ١٢٥) .

فَرُحْتُ وَالْقَلْبُ مِنِّي هَائِمٌ دَنِفُ
 وَالْكَبِدُ حَرَى وَدَمْعُ الْعَيْنِ مَذْرُوفُ
 رُدِّي الْجُوبَ فِيهِ الشُّكْرُ وَاعْتَنِمِي
 وَصَلَ الْمَحَبَّ الَّذِي بِالْحَبِّ مَشْغُوفُ
 ورمى بالرقعة إليها ، فلما قرأتها كتبت :

إِنْ كُنْتَ ذَا حَسَبٍ زَاكِ وَذَا نَسَبٍ
 إِنْ الشَّرِيفَ بَغَضَ الطَّرْفَ مَعْرُوفُ
 إِنْ الزُّنَاةُ أَنْاسٌ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ يَوْمَ الدِّينِ مَوْقُوفُ
 واقطع رَجَاكَ لِحَاكَ اللهُ^(١) مِنْ رَجُلٍ فَإِنْ قَلْبِي عَنِ الْفَحْشَاءِ مَصْرُوفُ
 فلما قرأ الرُّقْعَةَ زَجَرَ نَفْسَهُ وَقَالَ : أَلَيْسَ امْرَأَةً تَكُونُ أَشْجَعُ مِنْكَ ؟ ثُمَّ تَابَ
 وَلَبَسَ مِذْرَعَةً^(٢) مِنْ الصُّوفِ وَالتَّجَأَ إِلَى الْحَرَمِ ، فَبَيْنَا هُوَ فِي الطَّوَافِ يَوْمًا وَإِذَا بِتِلْكَ
 الْجَارِيَةِ عَلَيْهَا دِرْعٌ مِنْ صُوفٍ فَقَالَتْ لَهُ : مَا أَلِيقَ هَذَا بِالشَّرِيفِ ، هَلْ لَكَ فِي
 الْمَبَاحِ ؟ فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أُرَومُ هَذَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ اللَّهَ وَأُحِبَّهُ ، وَالْآنَ قَدْ شَغَلَنِي حُبُّهُ
 عَنْ حَبِّ غَيْرِهِ ، فَقَالَتْ لَهُ : أَحْسَنْتَ ، ثُمَّ طَافَتْ وَهِيَ تَنْشُدُ :

فَطَفْنَا فَلَاحَتْ فِي الطَّوَافِ لَوَائِحُ غَنِينَا بِهَا عَنْ كُلِّ مَرَأَى وَمَسْمَعِ
 وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كَانَتْ امْرَأَةً بَغِيًّا قَدْ فَاقَتْ أَهْلَ عَصْرِهَا فِي الْحَسَنِ لَا
 تَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهَا إِلَّا بِمِائَةِ دِينَارٍ ، وَإِنْ رَجُلًا أَبْصَرَهَا فَأَعْجَبَتْهُ . فَذَهَبَ فَعَمِلَ بِيَدَيْهِ
 وَعَالَجَ^(٣) فَجَمَعَ مِائَةَ دِينَارٍ ، فَجَاءَ فَقَالَ : إِنَّكَ قَدْ أَعْجَبْتَنِي فَانْطَلَقْتُ فَعَمِلْتُ بِيَدَيِ
 وَعَالَجْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَقَالَتْ : ادْفَعِهَا إِلَى الْقَهْرَمَانِ^(٤) حَتَّى يَنْقُذَهَا

(١) لِحَاكَ اللهُ : قَبَحَكَ اللهُ وَلَعَنَكَ .

(٢) الْمِذْرَعَةُ : ثَوْبٌ مِنَ الصُّوفِ وَجِبَةٌ مَشْقُوقٌ مَقْدَمَتُهَا .

(٣) عَالَجَ الشَّيْءَ : مَعَالَجَهُ وَعَلَّجَهُ : زَاوَلَهُ وَمَارَسَهُ .

(٤) الْقَهْرَمَانُ : الْوَكِيلُ الْقَائِمُ بِتَدْبِيرِ شُؤْنِهَا وَأَعْمَالِهَا مِنْ صَادِرٍ وَوَارِدٍ .

وزينها ، فلما فعل قالت : ادخل ، وكان لها بيتٌ مُنْجَدٌ وسريرٌ من ذهب فقالت : هلمْ لك ، فلما جلس منها مجلس الخائن تذكر مقامه بين يدي الله فَأَخَذَتْهِ رِعْدَةٌ وَطَفِئَتْ شَهْوَتُهُ فقال : أتركيني لأخرج ولك المائة دينار ، فقالت : ما بدا لك وقد رأيتني كما زعمت فَأَعْجَبْتُكَ فذهبت فعالجت وَكَدَحَتْ حتى جمعت مائة دينار فلما قدرت عليّ فعلت الذي فعلت ؟ فقال : ما حملني على ذلك إلا الْفَرَقُ من الله ، وذكرْتُ مقامي بين يديه ، قالت : إن كنت صادقاً فما لي زوجٌ غيرُكَ قال : ذَرِنِي لأخرج قالت : لا إلا أن تجعل لي عهداً أن تتزوّجني فقال : لا حتى أخرج ، قالت : عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تتزوّجني ، قال : لعلّ ، فتقنع بثوبه ثم خرج إلى بلده ، وارتحلت المرأةً بدنياها نادمةً عَلَى ما كان منها حتى قدمت بلده ، فسألت عن اسمه ومنزله فدلّت عليه ، فقيل له : الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك ، فلما رآها شَهَقَ شَهَقَةً فمات ، فَأَسْقَطَ^(١) في يدها فقالت : أَمَا هذا فقد فاتني ، أَمَا له من قريب ؟ قيل : بلى أخوه رجلٌ فقيرٌ ، فقالت : إني أتزوّجك حباً لأخيك ، قال : فتزوّجته فولدت له سبعة أبناء .

وقال يحيى بن عامر التيمي : خرج رجلٌ من الحيّ حاجاً فورد بعض المياه ليلاً ، فإذا هو بامرأة ناشرة شعرها ، فأعرض عنها فقالت له : هلمْ إليّ فليَمَ تعرض عني ؟ فقال : إني أخاف الله ربّ العالمين ، فتجلّبت^(٢) ثم قالت : هُبْتُ والله مُهَاباً ، إِنَّ أَوَّلَى من شَرَك في الهيبة لَمَنْ أراد أن يَشْرَكَ في المعصية ، ثم ولّت فتبعها ، فدخلت بعض خيام الأعراب ، قال : فلما أصبحت أتيتُ رجلاً من القوم فسألته عنها وقلت : فتاةً صِفْتُهَا كذا وكذا فقال : هي واللّه ابنتي ، فقلت : هل أنت مُزوّجي بها ؟ فقال : عَلَى الأكفاء قَمْن أنت ؟ فقلت : رجلٌ من تَيْمِ الله ، قال : كُفُّو كريم ، فما رَمْتُ حتى تزوّجْتُها ودخلت بها ، ثم قلت : جهّزوها إليّ

(١) يقال أسقط في يده أو كسر في ذرعه أي تحير وأخذته الدهشة والحيرة والندم .

(٢) تجلبت البست الجلباب وهو القميص الذي يلبس كالملاءة فوق الثياب تشتمل به المرأة .

قدومي من الحجّ ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة ، وها هي ذي ولي منها بنون
وبناتٌ ، قال : فقلت لها : ويحك ما كان تعرّضُكِ لي حينئذٍ ؟ فقالت : يا هذا
ليس للنساء خيرٌ من الأزواج ، فلا تعجبني من امرأة تقول هويت ، فوالله لو كان عند
بعض السودان ما تريده من هواها لكان هو هواها .

وقال الحسن بن زيد : وَلَيْتَا بديار مصر رجلٌ فوجد^(١) على بعض عُمّاله
فحبه وقيّده ، فأشرفت عليه ابنة الوالي فهويته فكتبت إليه :

أيها الرامي بعينيه وفي الطرف الحُتُوفُ
إن تُردّ وصلًا فقد أمكَنَك الظبيُّ الألفُ
فأجابها الفتى :

إن تَرينِي زانيَ العَيْنَيْنِ فالفرجُ عفيف
ليس إلّا النظرُ الفا ترُ والشعرُ الظريفُ
فأجابته :

قد أردناك فالقَيْنَاك^(٢) إنساناً عفيفاً
فتأبّيت فلا زِلْتُ لقيديك حليفاً

فأجابها :

ما تأبّيت لأنّي كنت للظبي عيُوفاً^(٣)
غير أني خِفْتُ ربّاً كان بي برّاً لطيفاً
فذاع الشعر وبلغت القصّة الوالي فدعا به فزوّجه إياها ودفعها إليه .

(١) وجد عليه : غضب عليه .

(٢) ألفيناك : وجدناك .

(٣) عيُوفاً : زاهداً في الشيء كارهأ له .

وذكر أن رجلاً أحب امرأةً وأحبته ، فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال :
 إن أجلي ليس بيدي ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجل قد دنا فنلقي الله
 عاصيين ، فقالت : صدقت ، فتابا وحسنت حالهما وتزوجت به .

وذكر بكر بن عبدالله المزني أن قصاباً ولعَ بجاريةٍ لبعض جيرانه ، فأرسلها
 أهلها إلى حاجةٍ في قريةٍ أخرى ، فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل :
 لأننا أشدُّ حباً لك مني ، ولكنني أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ؟
 فرجع تائباً ، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه ، فإذا هو برسولٍ لبني
 إسرائيل ، فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ، فقال : تعالَ حتى ندعو الله حتى
 تظلنا سحابةً حتى ندخل القرية ، قال : مالي من عملٍ فادعوه ، قال : فأنا أدعوه
 وأمن أنت ، فدعا وأمن الرجل ، فأظلتها سحابةً حتى انتهينا إلى القرية ، فذهب
 القصاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه ، فرجع إليه الرسولُ فقال : زعمت أن
 ليس لك عملٌ وأنا الذي دعوت وأنت أمنت ، فأظلتنا سحابةً ثم تبعتك ، لتخبرني
 ما أمرُك ، فأخبره ، فقال الرسول : إن التائب إلى الله بمكانٍ ليس أحدٌ من الناس
 بمكانه .

وقال يحيى بن أيوب : كان بالمدينة فتى يُعجب عمر بن الخطاب رضي الله
 عنه شأنه ، فانصرف ليلةً من صلاة العشاء فتمثلت^(١) له امرأةٌ بين يديه .
 فعرضت^(٢) له بنفسها ففتنَ بها ومضت ، فاتبعها حتى وقف على بابها فأبصر وجلا
 عن قلبه وحضرته هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
 تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾^(٣) فخر مغشياً عليه ، فنظرت إليه المرأة فإذا هو
 كالميت ، فلم تزل هي وجارية لها يتعاونان عليه حتى ألقياه على باب داره ، فخرج

(١) تمثلت له : عرضت بنفسها له .

(٢) عرضت له بنفسها : أغرتة بنفسها وتصدت له .

(٣) الأعراف (٧ / ٢٠١) .

أبوه فرآه مُلقًى على باب الدار لما به فحمله وأدخله فأفاق ، فسأله ما أصابك يا بني ؟ فلم يخبره ، فلم يزل به حتى أخبره ، فلما تلا الآية شهق شهقة فخرجت نفسه ، فبلغ عمر رضي الله عنه قصته فقال : ألا آذنتموني ^(١) بموته ؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى : يا فلان ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ^(٢) فسمع صوتاً من داخل القبر : قد أعطاني ربي يا عمر .

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر رضي الله عنه على وجه آخر قال : كان شاباً على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ملازماً للمسجد والعبادة ، فهوَّيته جارية فحدثت نفسه بها ، ثم إنه تذكر وأبصر فشوق شهقة فغشي عليه منها ، فجاء عمُّ له فحمله إلى بيته ، فلما أفاق قال : يا عمَّ انطلق إلى عمر فأقرئه مني السلام وقل له : ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فأخبر عمر فأنابه وقد مات فقال : لك جنتان .

وفي جامع الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَانَ ذُو الْكِفْلِ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِينَ دِينَاراً عَلَى أَنْ يَطَّاهَا ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدُ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أُرْعِدَتْ وَبَكَتْ ، فَقَالَ مَا يُبْكِيكَ ؟ أَكْرَهْتُكَ ؟ قَالَتْ : لَا وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أُعْمَلْهُ وَإِنَّمَا حَمَلْتَنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ ، قَالَ : فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَأَنْتِ لَمْ تَفْعَلِيهِ [قَطُّ] ؟ ثُمَّ قَالَ ، اذْهَبِي وَالْدَّانِئُ لَكَ ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَعْصِي اللَّهَ ذُو الْكِفْلِ أَبَداً ، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَاصْبَحَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِهِ : قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَذِي الْكِفْلِ » . قال الترمذي : هذا حديث حسن .

وقال أبو هريرة ، وابن عباس رضي الله عنهما : خطب رسول الله صلى الله

(١) آذنتموني : أخبرتموني .

(٢) الرحمن (٥٥ / ٤٦) .

عليه وسلم قبل وفاته فقال في خطبته : « وَمَنْ قَدَرَ امْرَأَةً أَوْ جَارِيَةً حَرَاماً فَتَرَكَهَا مَخَافَةَ مَنْ اللَّهِ أَمَنَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ وَحَرَّمَهُ عَلَى النَّارِ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » .

وقال مالك بن دينار : جنات النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن ، فيها جوارٍ خُلِقْنَ من ورد الجنة ، يسكنها الذين همُّوا بالمعاصي فلما ذكروا الله عزَّ وجلَّ راقبوه ، فأنشئت رقابهم من خشية الله عزَّ وجلَّ .

قال ميمون بن مهران : الذَّكْرُ ذَكَرَان : فذكرُ الله عزَّ وجلَّ باللسان حسن ، وأفضل منه أن تذكر الله عزَّ وجلَّ عند ما تُشرف^(١) على معاصيه .

وقال قتادة رضي الله عنه : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : « لَا يَقْدِرُ رَجُلٌ عَلَى حَرَامٍ ثُمَّ يَدَّعِي لَيْسَ بِهِ إِلَّا مَخَافَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَبْدَلَهُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ » .

وقال عبيد بن عُمير : صدقُ الإيمان وبرُّه أن يخلو الرجل بالمرأة الحسنة فيدعها لا يدعها إلا لله عزَّ وجلَّ .

وقال أبو عمران الجوني : كان رجلٌ من بني إسرائيل لا يمتنع من شيء ، فَجَهِدَ^(٢) أهل بيتٍ من بني إسرائيل فأرسلوا إليه جاريةً منهم تسأله شيئاً فقال : لا أو تمكيني من نفسك ، فخرجت فجهدوا جهداً شديداً فرجعت إليه فقالت : أعطنا فقال : لا أو تمكيني من نفسك ، فرجعت ، فجهدوا جهداً كثيراً فأرسلوها إليه فقال لها ذلك ، فقالت : دونك ، فلما خلا بها جعلت تنتفض كما تنتفض السعفة ، قال لها : مالك ؟ قالت : إني أخاف الله ربَّ العالمين ، هذا شيء لم أصنعه قط ، قال : أنت تخافين الله ولم تصنعيه وأفعله ؟ أعاهد الله أني لا أرجع إلى شيء مما كنت فيه ، فأوحى الله إلى نبيٍّ من أنبيائهم أن فلاناً أصبح من كتب أهل الجنة .

(١) يشرف على المعصية : يقترب من المعصية ويصبح قاب قوسين أو أدنى منها .

(٢) جهد أهل البيت : أجذبوا .

وذكر أن شاباً في بني إسرائيل لم يكن فيهم شابٌ أحسن منه كان يبيع المَكَايِلَ ، فبينما هو ذاتَ يوم يطوف بمَكَايِلِه إذ خرجت امرأة من دارِ مَلِكٍ من ملوك بني إسرائيل ، فلما رآته رجعت مبادرةً فقالت لابنة الملك : إني رأيت شاباً بالبَابِ يبيع المَكَايِلَ لم أر شاباً قطُّ أحسنَ منه ، قالت : أدخله فخرجت فقالت : أدخل فدخل ، فأغلقت البابَ دونه ، ثم قالت : أدخل فدخل ، فأغلقت باباً آخرَ دونه ، ثم استقبلته بنتُ الملك كاشفةً عن وجهها ونحرها ، فقال لها : استتري عافاك الله ، فقالت : إنا لم نَدْعُكَ لهذا ، إنما دعوناك لكذا وراودته عن نفسه ، فقال لها : اتقي الله ، قالت : إنك إن لم تطاوعني على ما أريد أخبرتك الملك أنك إنما دخلت تكابرنِي^(١) على نفسي ، قال لها : فضعي لي وَضوءاً ، فقالت : أعلِيّ تتعلّل ؟ يا جارية ضعي له وَضوءاً فوق الجَوْسِقِ^(٢) مكاناً لا يستطيع أن يَفِرَّ منه ، فلما صار في الجَوْسِقِ قال : اللهم إني دُعِيتُ إلى معصيتك وإني أختار أن أَلْقِيَ نفسي من هذا الجَوْسِقِ ولا أركب معصيتك ، ثم قال : بسم الله وألقى نفسه من أعلاه ، فاهبط الله ملكاً أخذ بضِغْيِهِ^(٣) فوقه قائماً على رجله ، فلما صار في الأرض قال : اللهم إن شئتَ رزقتني رزقاً يغنيني عن بيع هذه المَكَايِلَ ، فأرسل الله عليه رجلاً^(٤) من جَرَادٍ من ذهبٍ فأخذ منه حتى ملأ ثوبه ، فلما صار في ثوبه قال : اللهم إن كان هذا رزقاً رزقتنيهِ من الدُّنْيَا فبارك لي فيه ، وإن كان ينقصني مما لي عندك في الآخرة فلا حاجة لي فيه ، فنودي إن هذا الذي أعطيناك جزءً من خمسة وعشرين جزءاً لصبرك على إلثاكَ نفسك ، فقال : اللهم فلا حاجة لي فيما ينقصني مما لي عندك في الآخرة ، فَرُجِعَ الجَرَادُ .

(١) تكابرنِي عن نفسي : تراودني عنها .

(٢) الجَوْسِقُ : الحصن أو القصر .

(٣) الضِغْيُ : هو ما بين الإبط إلى الكف .

(٤) رجلاً من جراد : طائفة هائلة منه .

وذكر أبو الفرج بن الجوزي عن رجلٍ من بعض المياسير^(١) قال : بينا أنا يوماً في منزلي إذ دخل عليّ خادمٌ لي فقال لي : رجلٌ بالباب معه كتابٌ ، فقلت : أدخله أوخذ كتابه ، فأخذ الكتاب منه فإذا فيه :

تَجَنَّبَكَ الرَّدَى^(٢) وَلَقِيتَ خَيْراً وَسَلَّمَكَ الْمَلِيكَ مِنَ الْغَمومِ
شَكُونََ بَنَاتِ أَحْسَانِي إِلَيْكُمْ وَمَا إِنْ تَشْتَكِينَ إِلَى ظُلومِ
وَسَأَلْتَنِي الْكِتَابَ إِلَيْكَ فِيمَا يَخَامِرُهَا - فَذَنُكَ - مِنَ الْهَمومِ
وَهَنْ يَظُنُّ يَا ابْنَ الْجِسودِ إِنَّا بَرٌّ مِنَّا مِنْ مَرَاعَةِ النُّجُومِ
وَعِنْدَكَ لَوْ مَنَنْتَ شَفَاءَ سَقَمٍ لِأَعْضَاءِ دَمِينٍ مِنَ الْكُلُومِ^(٣)

قال : فلما قرأت الأبيات قلت : عاشق ، فقلت للخادم : أدخله ، فخرج فلم يره فارتبّت في أمره ، فجعل الفكر يتردد في قلبي ، فدعوت جوارِي كلهن فجمعتهن فقلت لهن : ما قصة هذا الكتاب ؟ فحلفن لي وقلن : يا سيدنا ما نعرف لهذا الكتاب سبباً ، فمن جاءك به ؟ فقلت : قد فاتني وما أردت سؤالكن إلا أني ظننت له هوى في بعضكن ، فمن عرفت منكن أنها صاحبتة فهي له ، فلتذهب إليه ولتأخذ كتابي إليه ، وكتبت كتاباً أشكره على فعله وأسأله عن حاله ، ووضعت الكتاب في موضع من الدار ، فمكث الكتاب في موضعه حيناً لا يأخذه أحد ولا أرى الرجل ، فاغتممت غمّاً شديداً . ثم قلت : لعله بعض فتياننا ، ثم قلت : إن هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع ، وقد قنع ممن يحبه بالنظر ، فدبرت عليه فحجبت جوارِي عن الخروج ، فما كان إلا يومٌ وبعض الآخر إذ دخل عليّ الخادمُ ومعه كتابٌ قال : أرسل به إليك فلان ، وذكر بعضُ أصدقائي فضضته فإذا فيه مكتوبٌ :

(١) المياسير : جمع مفردة ميسور أي غني .

(٢) الردى : الهلاك .

(٣) الكلوم : جمع كلم وهو النجرح .

ماذا أردت إلى روحٍ معلقةً عند التراقي^(١) وحادي الموت يَحْدُوها
 حَسْتُ حادِيها ظلماً فجداً بها في السير حتى تولت عن تراقبها
 حجت من كان تحيا عند رؤيتها روحي ومن كان يشفني ترائبها
 فالنفسُ تجنحُ نحو الظلم جاهلةً والقلبُ مني سليمٌ ما يؤاتبها
 والله لو قيل لي تأتي بفاحشةٍ وإن عقبك ديانا وما فيها
 لقلت لا والذي أخشى عقوبته ولا بأضعافها ما كنتُ آتيا
 لولا الحياء لبخنا بالذي كتمت بنتُ الفؤاد وأبدينا تمنيا

قال : فهتُ وقلت : لا أدري ما أحتال في أمر هذا الرجل ، وقلت للخادم :
 لا يأتيك أحدٌ بكتابٍ إلا قبضت عليه حتى تدخله عليّ ، ثم لم أعرف له خبراً بعد
 ذلك ، فبينما أنا أطوف بالكعبة إذا فتىٌ قد أقبل نحوي رجعل يطوف إلى جنبي
 ويلاحظني ، وقد صار مثل العود ، فلما قضيت طوافي خرجت وأتبعني فقال : يا
 هذا أتعرفني ؟ قلت : لا أنكرك لسوء ، قال : أنا صاحب الكتابين ، فما تمالكت
 أن قبلت رأسه وبين عينيه وقلت : بأبي أنت وأمي ، والله لقد شغلت قلبي وأطلت
 غمي بشدة كتمانك لأمرك ، فهل لك فيما سألت وطلبت ؟ قال : بارك الله لك وأقر
 عينيك ، إنما أتيتك أستحلّك^(٢) من نظرة كنت نظرتها على غير حكم الكتاب
 والبسنة ، والهوى داع إلى كل بلاء ، وأستغفر الله العظيم ، فقلت : يا حبيبي أحب
 أن تصير معي إلى منزلي فأنس بك وتجري الحُرمة بيني وبينك ، قال : ليس إلى
 ذلك سبيل ، فقلت : غفر الله لك ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار ، ولك في
 كل سنة كذا وكذا ، قال : بارك الله لك فيها ، فلولا عهود عاهدت الله عليها وأشياء
 أكدتها عليّ لم يكن في الدنيا شيء أحب إليّ من هذا الذي تعرّضه عليّ ، ولكن
 ليس إلى ذلك سبيل والدنيا منقطعة ، فقلت له : فإذا أبيت أن تقبل مني ذلك

(١) التراقي : جمع ترقوة وهي العظمة المشرفة بين العاتق وثغرة النحر . وعند التراقي كتابة عن الموت .

(٢) استحلّه : طلب أن يحله له .

فأخبرني من هي حتى أكرمها لأجلك ما بقيت ، فقال : ما كنت لأذكرها لأحد ، ثم قام وتركني .

وذكر عبد الملك بن قُريب قال : هَوِيَ رجلٌ من النساءِ جاريةً فاشتدَّ حُبُّها . فبعث إليها يخطبها . فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك ^(١) ، فأبى وقال : لا إلَّا ما أحلَّ الله ، ثم إن محبته أُلقيت في قلبها فبذلت له ما سأل ، فقال : لا والله لا حاجة لي بمن دعوتها إلى طاعة الله ودعنتي إلى معصيته .

وحكى المبرِّدُ ^(٢) عن شيخه أبي عثمان المازني أنه قصده بعضُ أهل الذمة ليقرا عليه « كتاب سيبويه » ^(٣) وبذل له مائة دينار ، فامتنع وردَّه ، فقلت له : أتُرَدُّ هذا القدر مع شدة فافتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله ، ولست أرى تمكين هذا الدمي ^(٤) منها غيرَ عَلى القرآن . فاتفق أن غنَّت جاريةً بحضرة الواثق بقول العرجي :

أظلمُ إن مصابكم رجلاً أهدي السلامَ تحيةً ظلمُ ؟

فاختلف أهل مجلسه في إعراب رجلٍ ، فمنهم من قال : هو نصب وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية أصرت على النصب وقالت : لَقُنْني إياه كذلك شيخي أبو عثمان المازني ، فأمر الواثق بإحضاره إلى بين يديه ، قال : فلمَّا مَثَلْتُ بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني مازن ، قال : أيُّ

(١) أي امتنعت عن الزواج وأجابت إلى غير ذلك أي إلى الوصل الحرام .

(٢) المبرِّدُ : هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس إمام العربية ببغداد في زمنه ، وأحد أئمة الأدب والأخبار ، ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٢٨٦ هـ . وفيات الأعيان (١ / ٤٩٥) ، وتاريخ بغداد (٣ / ٣٨٠) ، وآداب اللغة (٢ / ١٨٦) ، ولسان الميزان (٥ / ٤٣٠) ، وطبقات النحويين (١٠٨ - ١٢٠) .

(٣) سيبويه : هو عمر بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء أبو بشر إمام النحاة ولد في إحدى قرى شيراز وعاش بالبصرة وتوفي شاباً سنة ١٨٠ هـ . وفيات الأعيان (١ / ٣٨٥) ، والبداية والنهاية (١٠ / ١٧٦) ، وطبقات النحويين (٦٦ / ٧٤) .

(٤) الدمي : هو المعاهد الذي أعطى عهداً يؤمن به على عرضه وماله ودينه .

الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ،
فكلمني بكلام قومي فقال لي : يا اسمك ؟ وقومي يقلبون الميم باء والباء ميما ،
فكرهت أن أواجهه بلفظة مكر فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ، ففطن لما قصدته
وأعجب به فقال : ما تقول في قول الشاعر :

أظلمُ إن مصابكم رجلاً أهدي السلام تحيةً ظلمُ ؟

أترفع رجلاً أم تنصبه ؟ فقلتُ : الوجهُ النصب يا أمير المؤمنين : فقال : ولم
ذلك ؟ فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيدا ظلمُ ، فرجلاً مفعول مصابكم
ومنصوبٌ به ، والدليل عليه أن الكلام معلقٌ إلى أن تقول ظلم فَيَتِمُّ ، فاستحسنه
الرائق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين بُنَيَّةٌ ، قال : فما قالت
لك عند مسيرك إلينا ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى :

أيا أبتا لا ترمُ^(١) عندنا فلنا بخير إذا لم ترمُ
ترانا إذا أضمرت^(٢)ك البلا دُ نُجفَى وتُقَطَّعُ مِنَّا الرَّجْمُ

قال : فما قلتَ لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقي بالله ليس له شريكُ ومن عند الخليفة بالنجاح
فقال : عليّ النجاح إن شاء الله ، ثم أمر لي بألف دينار ، وردّني إلى البصرة
مُكرَماً ، فقال أبو العباس المبرّد : فلما عاد إلى البصرة قال لي : كيف رأيتَ يا أبا
العباس ؟ ردّنا لله مائة دينار فعوّضنا الله ألفاً .

(١) رام مكانه : فارقه ويرحه .

(٢) أضمرته البلاد : بالطرد أو بالموت .

الباب الثامن والعشرون

في شرح أثر عاجل العقوبة والألام على لذة الوصال المحرام

هذا باب إنما يدخل منه رجلان : أحدهما من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه ، فأثر أدنى القوتين ، واختار أسهل العقوتين . والثاني رجل غلب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفساد ، وما في العُدول عنها من المصالح ، فأثر الأعلى على الأدنى ، وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين ، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام ، فقالت المرأة : ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ . قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١) فاختار السجن على الفاحشة ، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته ، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأيدته لا من نفسه فقال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته ، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان . وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شبثاً قليلاً ﴾^(٢) ولهذا

(١) يوسف (١٢ / ٣٢ - ٣٣) .

(٢) الإسراء (١٧ / ٧٤) .

كان من دعائه : « يا مُقَلِّبُ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ »^(١) ، وكانت أكثر يمينه « لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ »^(٢) كيف وهو الذي أنزل عليه : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾^(٣) وقد جرت سنة الله تعالى في خلقه أن من أثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدنيا المسرة التامة ، وإن هلك فالفوز العظيم ، والله تعالى لا يضيع ما تحمّل عبده لأجله .

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله سبحانه وتعالى : بعيني ما يتحمّل المتحمّلون من أجلي . وكل من خرج عن شيء منه الله حفظه الله عليه أو أعضاه الله ما هو أجلُّ منه ، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم الله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون ، وعوّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له أبدان طير خضر جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت . وتأوى إلى قناديل مُعلّقة بالعرش^(٤) ، ولما تركوا مساكنهم له عوّضهم مساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم .

وقال وهب بن مُنبّه : كان عابد من عبّاد بني إسرائيل يتعبّد في صومعة ، فجاء رجلٌ من بني إسرائيل إلى امرأةٍ بغيةٍ فبذل لها مالاً وقال : لعلك أن تقنتيه ، فجاءته في ليلةٍ مطيرةٍ فنادته فأشرف عليها ، فقالت : آوِني إليك ، فتركها وأقبل على صلاته ، فقالت : يا عبدالله آوِني إليك ، أما ترى الظلمة والمطر ؟ فلم يزل به حتى آواها ، فاضطجعت قريباً منه فجعلت تريه محاسنها حتى دعت نفسه إليها ، فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فتقدّم إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه حتى احترقت ، ثم عاد إلى صلاته فدعت نفسه إليها ، فعاود

(١) الحديث : رواه الترمذي وحسنه عن أنس والحاكم وصححه عن جابر بزيادة « قالوا : وتخاف يا رسول الله ؟ قال وما يؤمتني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبه كيف يشاء » وعند البخاري عن ابن عمر : لا ومقلب القلوب . كشف الخفا (٢ / ٥٤٥ - ٥٤٦) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه .

(٣) الأنفال (٨ / ٢٤) ، يقول الإمام الألوسي : يحول الله بين المرء وقلبه أي يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان . روح المعاني (٩ / ١٩١) .

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت ، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعاً وهي تنظر ، فَصَعِقَتْ وماتت .

وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ خَالِدٍ ، حَدَّثَنَا أُمِيَّةُ بْنُ شَبْلٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهَبٍ قَالَ : لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا ذَكَرَهُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عَابِداً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ فِي صَوْمَعَتِهِ يَتَعَبَّدُ ، فَإِذَا نَفَرَ مِنَ الْغَوَاةِ قَالُوا : لَوْ اسْتَرْزَلْنَاهُ بِشَيْءٍ فَذَهَبُوا إِلَى امْرَأَةٍ بَغِيٍّ فَقَالُوا لَهَا : تَعْرِضِي لَهُ ، فَجَاءَتْهُ فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ مَطِيرَةٍ فَقَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ آوِنِي إِلَيْكَ ، وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي وَمَصْبَاحُهُ ثَاقِبٌ^(١) ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ الظُّلْمَةُ وَالْغَيْثُ^(٢) ، آوِنِي إِلَيْكَ ، فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى أَدْخَلَهَا إِلَيْهِ فَاضْطَجَعَتْ وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي ، فَجَعَلَتْ تَتَقَلَّبُ وَتَرِيهِ مُحَاسِنَ خَلْقِهَا حَتَّى دَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَيْهَا . فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ حَتَّى أَنْظُرَ كَيْفَ صَبِرَكَ عَلَى النَّارِ ، فَدَنَا إِلَى الْمَصْبَاحِ فَوَضَعَ إَصْبَعاً مِنْ أَصَابِعِهِ فِيهِ حَتَّى احْتَرَقَتْ ، قَالَ : ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُصَلَّاهُ ، قَالَ : فَدَعَتْهُ نَفْسُهُ أَيْضاً ، فَعَادَ إِلَى الْمَصْبَاحِ فَوَضَعَ إَصْبَعَهُ أَيْضاً حَتَّى احْتَرَقَتْ أَصَابِعُهُ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ فَصَعِقَتْ فَمَاتَتْ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا لِيَنْظُرُوا مَا صَنَعَتْ ، فَإِذَا بِهَا مَيِّتَةً ، فَقَالُوا : يَا عَدُوَّ اللَّهِ يَا مُرَاثِي ! وَقَعْتَ عَلَيْهَا^(٣) ثُمَّ قَتَلْتَهَا ، قَالَ : فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ فَشْهَدُوا عَلَيْهِ ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ : دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ ، قَالَ : فَصَلَّى ثُمَّ دَعَا فَقَالَ : أَيُّ رَبِّ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ لَتؤْخِذْنِي بِمَا لَمْ أَفْعَلْ ، وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ أَنْ لَا أَكُونَ عَاراً عَلَى الْقُرَى بَعْدِي ، قَالَ : فَرَدَّ اللَّهُ نَفْسَهَا فَقَالَتْ : أَنْظُرُوا إِلَى يَدِهِ ، ثُمَّ عَادَتْ مَيِّتَةً .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ مَنْصُورٍ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : بَيْنَمَا رَجُلٌ عَابِدٌ عِنْدَ امْرَأَةٍ إِذْ عَمَدَ فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى فَخْذِهَا ، فَأَخَذَ يَدَهُ فَوَضَعَهَا فِي النَّارِ حَتَّى نَشَتْ^(٤) .

(١) ثاقب : مضيء .

(٢) الغيث : المطر .

(٣) وقع عليها : تشاها وجامعها .

(٤) نشت : احترقت ، ونش اللحم : سمع صوت قلبه على المقلي .

وقال حُصَيْن بن عبدالرحمن : بلغني أن فتىً من أهل المدينة كان يشهد الصَّلوات كُلِّها مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان عمر يتفقده إذا غاب ، فعشقه امرأة من أهل المدينة ، فذكرت ذلك لبعض نساائها ، فقالت : أنا أحتال لك في إدخاله عليك ، فقعدت له في الطريق ، فلما مرَّ بها قالت له : إني امرأةٌ كبيرة السن ولي شاةٌ لا أستطيع أن أحليها ، فلو دخلت فحلبتها لي ، وكانوا أرغب شيء في الخير ، فدخل فلم يرَ شاةً ، فقالت : اجلس حتى آتيك بها ، فإذا المرأة قد طلعت عليه ، فلما رأى ذلك عمَد إلى محرابٍ في البيت فقعد فيه فأرادته^(١) عن نفسه فأبى وقال : اتقي الله أيتها المرأة ، فجعلت لا تَكف عنه ولا تلتفت إلى قوله : فلما أبى عليها صاحت عليه فجاءوا ففجأوا فقالت : إن هذا دخل عليَّ يريدني عن نفسي ، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه ، فلما صلى عمرُ الغداةَ فقدّه ، فبينا هو كذلك إذ جاءوا به في وثاقٍ ، فلما رآه عمر قال : اللهم لا تُخلف ظني به ، قال : ما لكم ؟ قالوا : استغاثت امرأةٌ بالليل فجننا فوجدنا هذا الغلامَ عندها فضربناه وأوثقناه ، فقال عمر رضي الله عنه : اصدّقني ، فأخبره بالقصة على وجهها ، فقال له عمر رضي الله عنه : أتعرف العجوز ؟ فقال : نعم إن رأيتها عرفتها ، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهنَّ فجاء بهنَّ فعرضهنَّ ، فلم يعرفها فيهنَّ ، حتى مرت به العجوز فقال : هذه يا أمير المؤمنين ، فرفع عمر عليها الدرةَ وقال : اصدّقيني ، فقصّت عليه القصة كما قصها الفتى . فقال عمر : الحمد لله الذي جعل فينا شبيهة يوسف .

وقال أبو الزناد : كان راهبٌ يتعبَّد في صومعته فأشرف^(٢) منها فرأى امرأةً ففتن بها ، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها ، فزلت عليه العصمة فقال : رجلٌ خرجت من الصومعة لتعصي الله والله لا تعود معي في صومعتي ، فتركها

(١) أرادته عن نفسه : راودته عنها .

(٢) أشرف : اطلع .

معلقة خارج الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت ، فشكر الله ذلك من صنعه ، ومدحه في بعض كتبه بذى الرجل .

وقال مُصْعَب بن عثمان : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة بيته ، فسألته نفسه فامتنع عليها ، فقالت : إذن أَفْضَحْكَ ، فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه .

وقال جابر بن نوح : كنت بالمدينة جالساً عند رجل في حاجة ، فمر بنا شيخ حسن الوجه حسن الثياب ، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وقال : يا أبا محمد أسأل الله أن يعظم أجرك ، وأن يربط على قلبك بالصبر ، فقال الشيخ :

وكان يميني في الوغي^(١) ومساعدني فأصبحتُ قد خانت يميني ذراعها وقد صيرتُ حيراناً من الثكل باهتاً أخا كلفٍ ضاقت^(٢) علي رباعها^(٣)

فقال له الرجل : أبشر فإن الصبر مُعَوِّلُ المؤمن ، وإنني لأرجو أن لا يَحْرِمَكَ الله الأجرَ عَلَى مصيبتك ، فقلت له : من هذا الشيخ ؟ فقال : رجلٌ منا من الأنصار ، فقلت : وما قصته ؟ قال : أصيب بابه وكان به باراً قد كفاه جميع ما يعنيه ، وميئته عَجَبٌ ، قلت : وما كانت ؟ قال أحبته امرأة فارسلت إليه تشكوا حبه وتسأله الزيارة ، وكان لها زوج فآلحت عليه ، فأفشى ذلك إلى صديق له ، فقال له : لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك ، فأمسك ، وأرسلت إليه إما أن تزورني وإما أن أزورك فأبى ، فلما يشت منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب^(٤) في تهيجه ، فعملت لها في ذلك ، فبينما هو دات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمي لم يكن يعرفه

(١) الوغي : الحرب لما فيها من جلبة وصخب .

(٢) الكلف : هو حمرة كدرة تمرؤ الوجه .

(٣) الرباع : جمع ربع وهو الدار والمنزل والحي ويجمع الربع على رباع وأربع .

(٤) الرغائب : جمع رغبة ورغبة وهي العطاء الجزل .

واختلط^(١) ، فقام مسرعاً فصلى واستعاذ والأمر يشتد ، فقال : يا أبة أدركني بقيد ، فقال : يا بني ما قصتك ؟ فحدثه بالقصة ، فقام وقيدَه وأدخله بيتاً ، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور ، ثم هداً فإذا هو ميت والدّم يسيل من منخره .

فصل

وهذا ليس بعجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب . قال أبو إدريس الأودي : كان رجلان في بني إسرائيل عابدان ، وكانت جارية جميلة فأحبها وكنتم كلُّ منهما صاحبه ، واختبأ كلُّ منهما خلف شجرة ينظر إليها ، فَبَصُرَ^(٢) كلُّ منهما سرّه إلى صاحبه ، فاتفقا على أن يراودها ، فلما قُرِبَت منهما قالا لها : قد عرفت منزلتنا في بني إسرائيل ، وإنك إن لم تؤاتينا وإلا قلنا إذا أصبحنا : إنا أصبنا معك رجلاً ، وإنه أفلتنا ، وإنا أخذناك ، فقالت : ما كنت لأطيعكما في معصية الله ، فأخذها وقالوا : إنا أصبنا معها رجلاً فأفلتنا ، وأقبل نبيٌّ من أنبيائهم فوضعوا له كرسيّاً فجلس عليه وقال : أقضي بينكم ؟ فقالا : نعم اقض بيننا ، ففرّق بين الرجلين وقال لأحدهما : خلف أي شجرة رأيتها ؟ قال : شجرة كذا وكذا ، وقال للآخر ، فقال : شجرة كذا وكذا غير التي ذكر صاحبه ، ونزلت نازراً من السماء فأحرقتهما وأفلتت المرأة .

وقال عبدالله بن المبارك : عشق هارون الرشيد جاريةً من جواريه فأرادها فقالت : إن أباك مسني ، فشغف بها وقال فيها :

أرى ماءً وبني عطشٌ شديدٌ ولكن لا سبيلَ إلى الورد^(٣)
أما يكفيك أنك تملكيني وأن الناس عندي كالعبيد
وأنك لو قطعَ يدي ورجلي لقلت من الرضا أحسنَ زيدي

(١) اختلط عقله وغلط فيه : فسد .

(٢) أطلعه عليه : أظهره عليه .

(٣) إلى الورد : إلى بلوغه والقرب منه .

فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال : أو كلما قالت جارية شيئاً تصدّق ؟ قال ابن المبارك : فلا أدري ممن أعجب ، من هارون الرشيد حيث رغب فيها ، أو منها حيث رغب عنه ، أو من أبي يوسف حيث سوّغ^(١) له إتيانها .

وقال أبو عثمان التيمي : مرّ رجلٌ براهبةٍ من أجمل النساء فافتتن بها ، فتلطّف في الصعود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت : لا تغترّ بما ترى وليس وراءه شيءٌ ، فأبى حتى غلبها على نفسها وكان إلى جانبها مَجْمَرَةٌ فوضعت يدها فيها حتى احترقت ، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها : ما دعاك إلى ما صنعت ؟ قالت : إنك لما قهرتني على نفسي خِفْتُ أن أشاركك في اللذة فأشاركك في المعصية ففعلت ما رأيت ، فقال الرجل : والله لا أعصى الله أبداً وتاب مما كان عليه .

وذكر الحسين بن محمد الدماغاني أن بعض الملوك خرج يتصيد وأنفرد عن أصحابه ، فمر بقريّة فرأى امرأةً جميلةً فراودها عن نفسها ، فقالت : إني غير طاهر فأتطهر وآتيك ، فدخلت بيتها وخرجت إليه بكتابٍ فقالت : انظر في هذا حتى آتيك ، فنظر فيه فإذا فيه ما أعدّ الله للزاني من العقوبة فتركها وذهب ، فلما جاء زوجها أخبرته الخبر ، فكره أن يقربها مخافة أن يكون للملك فيها حاجةٌ فاعتزلها ، فاستعدى^(٢) عليه أهل الزوجة إلى الملك وقالوا : إن لنا أرضاً في يد الرجل فلا هو يعمّرُها ولا هو يردّها علينا وقد عطّلها ، فقال الملك : ما تقول ؟ فقال : إني رأيتُ في هذه الأرض أسداً وأنا أتخوّف دخولها منه ، ففهم الملك القصة فقال : اعْمُرْ أرضك فإن الأسد لا يدخلها ، ونعم الأرض أرضك .

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت في نفس رجلٍ مُوسِرٍ وكانت جميلة وكانت تُخَطِّبُ فتأبى ، فبلغ الرَّجُلُ أنها تريد الحجّ ، فاشتري ثلاثمائة بعيرٍ ونادى :

(١) سوّغ له : جوّزه .

(٢) استعداه : استنصره واستعان به .

من أراد الحج فليكثر من فلان ، فاكثرت منه المرأة ، فلما كان في بعض الطريق جاءها فقال : إِمَّا أَنْ تَرْوِجِي نَفْسَكَ ، وَإِمَّا غَيْرَ ذَلِكَ ، فقالت : ويحك اتّوَّ الله ! فقال : ما هو إلَّا ما تسمعين ، والله ما أنا بجمّالٍ ولا خرجت إلَّا من أجلك ، فلما خافت على نفسها قالت : ويحك انظر أبقَى في الرّجال عينٌ لم تنم ؟ فقال : لا . ناموا كلّهم ، قالت : أفنامت عين ربّ العالمين ؟ ثم شهقت شهقةً خرّت ميتة ، وخرّ الرّجل مغشيّاً عليه ، فلما أفاق قال : ويحي قتلت نفسك ولم أبلغ شهوتي .

وقال وهب بن مُنبّه : كان في بني إسرائيل رجلٌ متعبّدٌ شديدُ الاجتهاد فرأى يوماً امرأةً فوقعت في نفسه بأوّل نظرة ، فقام مسرعاً حتى لحقها فقال : رويدك يا هذه ، فوقفت وعرفته فقالت : ما حاجتك ؟ قال : أذاتُ زوجٍ أنت ؟ قالت : نعم فما تريد ؟ قال : لو كان غير هذا لكان لنا رأي ، قالت : على ذلك وما هو ؟ قال : عرض بقلبي من أمرك عارض^(١) ، قالت : وما يمنعك من إنفاذه ؟ قال : وتتابعيني على ذلك ؟ قالت : نعم ، فحلت به في موضعٍ فلما رآته مُجِدًّا في الذي سأل قالت : رويدك يا مسكين لا يسقط جاهدك عنده ، فانتبه لها وذهب عنه ما كان يجد فقال : لا حَرَمَكَ اللَّهُ ثَوَابَ فِعْلِكَ . ثم تنحى ناحية فقال لنفسه : اختاري إِمَّا عَمَى العين ، وإِمَّا الْعَجَبُ^(٢) ، وإِمَّا السّياحة مع الوحوش ، فاخترت السّياحة مع الوحوش ، فكان كذلك إلى أن مات .

وأحبُّ رجلٌ جاريةً من العرب وكانت ذاتَ عقلٍ وأدب ، فما زال يحتال في أمرها حتى اجتمع معها في ليلةٍ مظلمةٍ شديدة السّواد ، فحادثها ساعةً ثم دعتة نفسه إليها فقال : يا هذه قد طال شوقي إليك ، قالت : وأنا كذلك ، فقال : هذا الليل قد ذهب والصّبح قد اقترب ، قالت : هكذا تَقْنَى الشهوات وتنقطع اللذات فقال لها : لودنوت مني . فقالت : هيهات أخاف البعد من الله ، قال : فما الذي دعاك

(١) عرض بالقلب عارض : خطر بالنفس خاطر .

(٢) العجب : المقطوع والمبتوت ، والمجبوب : من استوصلت مذاكيره .

إلى الحصور معي ؟ قالت : شقوتي وبلاتي ، قال لها : فمتى أراك ؟ قالت : ما أنساك وأما الاجتماع معك فما أراه يكون ، ثم تولت . قال : فاستحييتُ مما سمعت منها ، وأنشد :

تَوَقَّتْ عَذَاباً لَا يَطَاقُ انتِقَامُهُ وَلَمْ تَأْتِ مَا تَخَى بِهِ أَنْ تُعَذَّبَا
وَقَالَتْ مَقَالاً كَدْتُ مِنْ شِدَّةِ الْحَيَا أَهْمِمْ عَلَى وَجْهِ حَيًّا وَتَعْجَبَا
أَلَا أَفَّ لِلْحَبِّ الَّذِي يورث العمى وَيُورِدُ نَاراً لَا تَمَلُّ التَّلْهَبَا
فَأَقْبَلَ عَوْدِي فَوْقَ بَدْنِي مَفْكَراً وَقَدْ زَالَ عَنِ قَلْبِي الْعَمَى فَتَسْرَبَا

وقال ابن خلف : أخبرني أبو بكر العامري قال : عشقت عاتكة المُرِّيَّة ابن عمِّ لها ، فأرادها عن نفسها فامتنعت عليه وقالت :

فَمَا طَعْمُ مَاءٍ مِنْ سَحَابٍ مُرَوِّقٍ تَحَدَّرَ مِنْ غَرٍّ طَوَالِ الذَّوَابِ^(١)
يُمْنَعَرَجُ^(٢) أَوْ يَطْنُ وَاذٍ تَطْلَعَتْ عَلَيْهِ رِيَّاحُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
تَرْتَوِقُ مَاءَ الْمَزْنِ^(٣) فِيهِنَّ وَالتَّقَتْ عَلَيْهِنَّ أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ الْغَرَائِبِ
نَفَتْ جَرِيَّةُ الْمَاءِ الْقَذَى^(٤) عَنْ مَتُونِهِ^(٥) فَلَيْسَ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ لَشَارِبٍ
بِأَطْيَبِ مِمَّا يَقْصُرُ الْطَرَفُ دُونَهُ تُقَى اللَّهُ وَاسْتَحْيَاءُ تِلْكَ الْعَوَاقِبِ

(١) تحدَّر : تنزل .

(٢) المنعرج : المنعطف للوادي .

(٣) المزن : جمع مزنة وهي السحابة تحمل الماء .

(٤) القذى : ما يقع بالعين فيؤثر على الرؤية بها .

(٥) المتون : جمع متن وهو الظهر ، والمتن للأرض : ما ارتفع منها وغلظ .

الباب التاسع والعشرون

في ذم الهوى وما في مخالفة من نيل النجى

الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ، وهذا الميلُ خلق في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح ، فالهوى مستحث لها لما يريده ، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه ، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً ، ولا مدحه مطلقاً ، كما أن الغضب لا يُذم مطلقاً ولا يُحمد مطلقاً ، وإنما يُذم المفرط من النوعين ، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار ، ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المتفع به أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر ، لأنه يتندر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده ، كما أنه يتندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه ، بل لا بد من غلبة أحد الأخلاط^(١) والكيفيات عليه ، فحرمُ الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه ، وهذا أمر يتعذر وجوده إلا في حق أفراد من العالم ، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه ، وكذلك في السنة لم يجيء إلا مذموماً إلا ما جاء منه مُقيداً كقوله صلى الله عليه وسلم : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ »^(٢) . وقد قيل : الهوى كمينٌ لا يؤمن . قال

(١) أخلاط الإنسان : أمزجته الأربعة التي قال بها القدماء وهي الماء ، النار والهواء والتراب .

(٢) تقدم هذا الحديث .

الشَّعْبِي : وسمي هوىً لأنه يهوي بصاحبه ، ومُطْلَقُهُ يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكرٍ في العاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وأجلاً ، فللدنيا عاقبةٌ قبل عاقبة الآخرة ، والهوى يُعمى صاحبه من ملاحظتها ، والمروءةُ والدين والعقل ينهي عن لذّة تعقب ألماً ، وشهوة تورث ندماً ، فكلُّ منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك : لا تفعلي ، والطاعة لمن غلب ، ألا ترى أن الطفل يُؤثر ما يهوي وإن أدّاه إلى التلّف لضعف ناهي العقل عنده ، ومن لا دين له يُؤثر ما يهواه وإن أدّاه إلى هلاكه في الآخرة لضعف ناهي الدين ، ومن لا مروءة له يُؤثر ما يهواه وإن نلّم^(١) مروءته أو عدمها لضعف ناهي المروءة ، فأين هذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى : لو علمتُ أن الماء البارد يثْلِمُ مروءتي لما شربته .

ولما امتحن المكلفُ بالهوى من بين سائر البهائم وكان كلّ وقتٍ تحدث عليه حوادثٌ جعل فيه حاكمان : حاكم العقل وحاكم الدين ؛ وأمر أن يرفع حوادثُ الهوى دائماً إلى هذين الحاكمين وأن ينقاد لحكمهما ، وينبغي أن يتمرّن على دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرّن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه . وليعلم اللبيب أن مُذْمِنِي الشهوات يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذّون بها . وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بدّ لهم منه ، ولهذا ترى مذمّن الخمر والجماع لا يلتذّ به عُشْرُ معشار التذاذ من يفعله نادراً في الأحيان ، غير أن العادة مقتضية ذلك فيُلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة ، ولو زال عنه رَيْن^(٢) الهوى لعلم أنه قد شَقِيَ من حيث قَدَّر السعادة ، واغتمّ من حيث ظنّ الفرح ، وألِم من حيث أراد اللذة . فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح ، لا هو نال الحَبّة ولا هو تخلص مما وقع فيه ، فإن قيل : فكيف يَخْلُص من هذا مَنْ قد وقع فيه ؟ قيل : يمكنه التخلّص بعون الله وتوفيّقه له بأمور :

(١) ثلّم الجدار وثلّم القدح : أحدث فيه شقاً .

(٢) الرين : الحجاب الكثيف ، والمانع السميك .

(أحدها) : عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها .

(الثاني) : جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة .

(الثالث) : قوّة نفس تشجّعه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعة كلّها صبر ساعة ، وخير عيش أدركه العبد بصبره .

(الرابع) : ملاحظته حسن موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة .

(الخامس) : ملاحظته الألم الزائد على لذّة طاعة هواه .

(السادس) : إيقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده ، وهو خير وأنفع له من لذّة موافقة الهوى .

(السابع) : إيثاره لذّة العفة وعزّتها وحلاوتها على لذّة المعصية .

(الثامن) : فرحه بغلبة عدوّه وقهره له وردّه خاسئاً بغيظه وغمّه وهمّه حيث لم ينل منه أميئته ، والله تعالى يحبّ من عبده أن يراغم^(١) عدوّه ويغيظه كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَلَا يَطُؤْنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾^(٢) وقال : ﴿ لَيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾^(٤) أي مكاناً يراغم فيه أعداء الله . وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم .

(التاسع) : التفكّر في أنه لم يُلَقَ للهوى وإنما هيءَ لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى كما قيل :

(١) يراغم عدوه : يهجره ويعدّيه .

(٢) التوبة (٩ / ١٢٠) .

(٣) آخر سورة الفتح .

(٤) النساء (٤ / ١٠٠) ، والمراغم : الملجأ والمهرب والحصن .

قد هيأوك^(١) لأمرٍ لو فَطِنْتَ له فاربأُ بنفسك أن ترغى مع الهَمَلِ
 (العاشر) : أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أحسنَ حالاً منه ،
 فإن الحيوانَ يميّزُ بطبعه بين مواقع ما يضرُّه وما ينفعه ، فيؤثّرُ النافعَ على الضارِّ ،
 والإنسانَ أعطى العقلَ لهذا المعنى ، فإذا لم يميّزْ به بين ما يضرُّه وما ينفعه أو عرف
 ذلك وآثر ما يضرُّه كان حال الحيوان البهيم أحسنَ منه ، ويدلُّ على ذلك أن البهيمة
 تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسان مع عيشٍ هنيئٍ خالٍ
 عن الفكر والهَمِّ ، ولهذا تُساقُ إلى مَنْحَرِها^(٢) وهي منهمكةٌ على شهواتها لفقدان
 العلم بالعواقب ، والآدمي لا يناله ما يناله الحيوان لقوّة الفكر الشاغل ، وضعف
 الآلة المستعملة وغير ذلك ، فلو كان نبيل المشتهى فضيلةً لما بُخس منه حقُّ
 الآدمي الذي هو خلاصة العالم ، ووفر منه حظُّ البهائم ، وفي توفير حظ الآدمي من
 العقل والعلم والمعرفة عَوَضٌ عن ذلك .

(الحادي عشر) : أن يسير بقلبه في عواقب الهوى فيتأمل كم أفاتت
 معصيته^(٣) من فضيلة ، وكم أوقعت في رذيلة ، وكم أكلّةٍ منعت أكلات ، وكم من
 لذّةٍ فوّتت لذات ، وكم من شهوةٍ كسرت جاهاً ، ونكست رأساً ، وقبّحت ذكراً ،
 وأورثت ذمّاً ، وأعقبت ذلّاً ، وألزمت عاراً لا يغسله الماء ، غير أن عينَ صاحب
 الهوى عمياء .

(الثاني عشر) : أن يتصوّر العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصوّر حاله
 بعد قضاء الوطر^(٤) وما فاتته وما حصل له .

فأفضل الناس من لم يرتكب سبباً حتى يميز لما تجنى عواقبه

(١) وفي لامية الطغرائي (قد رشحك) ، والهمل : المهمل .

(٢) المنحر : موضع النحر في الحلق ، ومكان الذبح في البهائم .

(٣) لعل الأصوب : (كم أفات طاعته من فضيلة) .

(٤) الوطر : الحاجة وجمعها أوطار .

(الثالث عشر) : أن يتصوّر ذلك في حقّ غيره حقّ التصوّر ، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة ، فحكم الشيء حكم نظيره .

(الرابع عشر) : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه عقله ودينه يُخبرانه بأنه ليس بشيء . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إذا أعجب أحدكم امرأةً فليذكر مناتنها ، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين :

لو فكّر العاشق في منتهى حسن الذي يسيبه^(١) لم يسيبه لأن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر الحال الحاضرة الملازمة ، والشاعر حال على أمر متأخر .

(الخامس عشر) : أن يأنف لنفسه من ذلّ طاعة الهوى ، فإنه ما أطاع أحدٌ هواه قط إلا وجد في نفسه ذلًّا ، ولا يفتّر بصولة^(٢) أتباع الهوى وكبرهم فهم أذلّ الناس بواطنً ، قد جمعوا بين فضيلتي الكبير والذلّ .

(السادس عشر) : أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة ، فإنه لا يحد بينهما نسبة البتّة ، فليعلم أنه من أسفه الناس بيعه هذا بهذا .

(السابع عشر) : أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوّه ، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمةً وميلًا إلى هواه طمع فيه وصرعه وأجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد ، ومتى أحسّ منه بقوة عزمٍ وشرفٍ نفسٍ وعلوّهمةٍ لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة .

(الثامن عشر) : أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده ، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء ، وإن وقع

(١) يسيبه : يأسره من السي وهو الأسر .

(٢) الصولة : السطوة والمقدرة .

في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة ، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحقّ ، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور ، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يؤلّي بهواه ويعزل بهواه ، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة ، فما قارن شيئاً إلا أفسده .

(التاسع عشر) : أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه ، فإنه يُطِيفُ به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله ، فلا يجد مدخلًا إلا من باب الهوى ، فيسري معه سرّيان السم في الأعضاء .

(العشرون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادًا لما أنزله على رسوله ، وجعل اتباعه مقابلًا لمتابعة رسله ، وقسم الناس إلى قسمين : أتباع الوحي ، وأتباع الهوى ، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ أَلْعَلِّمْ ﴾ (٢) ونظائره .

(الحادي والعشرون) : أن الله سبحانه وتعالى شبه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى ، فشبّههم بالكلب تارة كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَأَتْبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ (٣) وبالحُمُر تارة كقوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٤) وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة .

(١) القصص (٢٨ / ٥٠) .

(٢) البقرة (٢ / ١٢٠) .

(٣) الأعراف (٧ / ١٧٦) .

(٤) المدثر (٧٤ / ٥٠ - ٥١) ، والحمر المستنطرة : المتوحشة . والقسورة : الأسد

(الثاني والعشرون) : أن متَّبِع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون إماماً ولا متَّبوعاً ، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته ، أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) أي لا ينال عهدي بالإمامة ظالماً . وكل من اتبع هواه فهو ظالم كما قال الله تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ^(٢) وأما النهي عن طاعته فلقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ^(٣) .

(الثالث والعشرون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل متَّبِع الهوى بمنزلة عابد الوثن فقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ آلِهَهُ هَوَاهُ ﴾ ^(٤) في موضعين من كتابه ، قال الحسن : هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركه ، وقال أيضاً : المنافق عبد هواه لا يهوى شيئاً إلا فعله .

(الرابع والعشرون) : أن الهوى هو حظاً ^(٥) جهنم المحيط بها حولها ، فمن وقع فيه وقع فيها كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » .

وفي الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : انظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِكَ إِلَّا دَخَلَهَا ، فَأَمَرَ بِهَا فَحُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ وَقَالَ : ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانظُرْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ ،

(١) البقرة (٢ / ١٢٤) .

(٢) الروم (٣٠ / ٢٩) .

(٣) الكهف (١٨ / ٢٨) ، وفراطاً : إسرافاً .

(٤) الفرقان (٢٥ / ٤٣) .

(٥) حظار : هو كل شيء حصر بين شيئين مثل جدار البستان .

قَالَ : اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّتْ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجَاءَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا ، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، فَقَالَ : ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَارْجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، فَارْجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(الخامس والعشرون) : أنه يُخَافُ عَلَى من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ »^(١) . وصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتُ الْغَنِيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَضَلَاتُ الْهَوَى »^(٢) .

(السادس والعشرون) : أن اتِّبَاعَ الهوى من المهلكات . قال صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ فَتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالْقَوْلُ بِالْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالسُّخْطِ ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَهَوَى مُتَّبِعٌ ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَاعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ »^(٣) .

(السابع والعشرون) : أن مخالفة الهوى تورث العبد قُوَّةً في بدنه وقلبه ولسانه ، قال بعض السلف : الغالبُ لهواه أشدُّ من الذي يفتح المدينة وحده . وفي الحديث الصحيح المرفوع : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ »^(٤) . وكلما تمرَّن على مخالفة هواه اكتسب قُوَّةً إلى قُوَّته .

(الثامن والعشرون) : أن أغزر الناس مُرُوءَةً أشدهم مخالفةً لهواه . قال

(١) تقدم تخريج الحديث .

(٢) تقدم هذا الحديث .

(٣) تقدم هذا الحديث .

(٤) رواه الشيخان وغيرهما .

معاوية : المُرُوَّة ترك الشهوات وعصيان الهوى ، فاتَّباع الهوى يُزمن^(١) المُرُوَّة ، ومخالفته تنعُشها .

(التاسع والعشرون) : أنه ما من يومٍ إلا والهوى والعقل يعتلجان^(٢) في صاحبه ، فأبها قوَيَّ على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له . قال أبو الدرداء : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله^(٣) ، فإن كان عمله^(٤) تبعاً لهواه فيومُه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعاً لعمله^(٥) فيومُه يوم صالح .

(الثلاثون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ وأتباع الهوى قرينين ، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين ، كما قال بعض السلف : إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيها أرشد فخالف أقربهما من هواك ، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى .

(الحادي والثلاثون) : أن الهوى داء ودواؤه مخالفته ، قال بعض العارفين : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك ، داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك ومخالفته .

وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى : البلاء كُلُّه في هواك ، والشفاء كُلُّه في مخالفتك إياه .

(الثاني والثلاثون) : أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظمَ من جهاد الكفار فليس بدونه ، قال رجلٌ للحسن البصري رحمه الله تعالى : يا أبا سعيد ، أيَّ الجهاد أفضل ؟ قال : جهادُك هواك . وسمعت شيخنا يقول : جهادُ النفس والهوى

(١) يزمن : يذهب ويضعف .

(٢) يعتلجان : يصطركان .

(٣) (٤) و (٥) لعل الصواب (عقله) .

أصلُ جهاد الكفَّار والمنافقين ، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى ^(١) يخرج إليهم .

(الثالث والثلاثون) : أن الهوى تخليط ^(٢) ومخالفته جَمِيَّةٌ ^(٣) ، ويُخاف على من أفرط في التخليط وجانبَ الْجَمِيَّةِ أن يصرعه دأؤه . قال عبد الملك بن قُرَيْب : مررت بأعرابي به رَمَدٌ شديد ودموعه تسيل على خديه فقلت : ألا تمسح عينيك ؟ قال : نهاني الطبيب عن ذلك ، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر ، وإذا أمر لا ياتمر ، فقلت : ألا تستهي شيئاً ؟ فقال : بلى ولكني أحتمي ، إن أهل النار غلبت شهوتهم جَمِيَّتُهُم فهلكوا .

(الرابع والثلاثون) : أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق ، ويفتح عليه أبواب الخذلان ، فتراه يلج ^(٤) بأن الله لو وفق لكان كذا وكذا ، وقد سدَّ عَلَى نفسه طرقَ التوفيق باتباعه هواه . قال الفضيل بن عياض : من استحوز عليه الهوى واتباعُ الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق .

وقال بعض العلماء : الكفر في أربعة أشياء : في الغضب ، والشهوة ، والرغبة ، والرغبة ، ثم قال : رأيت منهن اثنتين : رجلاً غضب فقتل أمه ، ورجلاً عشق فتنصّر . وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال :

أهوى هوى الدِّين واللذاتُ تُعجبني
فكيف لي بهوى اللذاتِ والدين

فقلت : دع أحدهما تل الآخر .

(١) كذا وردت وربما يكون الصواب (ثم) .

(٢) التخليط : الاضطراب .

(٣) الحمية : الامتناع عن الضار .

(٤) لهج بالشيء : ولع به وأغرى به وثابر عليه .

(الخامس والثلاثون) : أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه ، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه ، وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانته في أمرٍ من الأمور ، فإنه يفسده عليه .

وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه : يا فلان إذا نُصر اله لا يقول لشيخنا : إذا خان الرجلُ في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد - أو قال نسيه - ، فقال الشيخ : هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم .

(السادس والثلاثون) : أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضُيق عليها في قبره ويوم معاده ، ومن ضُيق عليها بمخالفة الهوى وسَّع عليها في قبره ومعاده وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾^(١) . فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييقٌ ، جازاهم على ذلك نعمة الحرير وسعة الجنة . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى في هذه الآية : جزاهم بما صبروا عن الشهوات .

(السابع والثلاثون) : أن اتَّباع الهوى يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين ، كما صرع قلبه في الدنيا عن مرافقتهم . قال محمد بن أبي الورد : إن لله عزَّ وجلَّ يوماً لا ينجو من شرِّه منقادٌ لهواه ، وإن أبطأ الصُّرغى نهضةً يوم القيامة صريعٌ شهوته ، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرها حظاً من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر . والعقلُ مُعَدِنٌ ، والفكرُ مُعَوِّلٌ .

(الثامن والثلاثون) : أن اتَّباع الهوى يَحُلُّ العزائم ويوهنها ، ومخالفته تشدّها وتقويها . والعزائم هي مركبُ العبد الذي يسيره إلى الله والدَّار الآخرة ، فمتى تعطلَّ المركوبُ أوشك أن ينقطع المسافر . قيل ليحيى بن مُعَاذ : مَنْ أَصْحُ الناس عِزْماً؟ قال : الغالبُ لهواه . ودخل خلف بن خليفة على سليمان بن

(١) الإنسان (٧٦ / ١٢) .

حبيب بن المهلب وعنده جارية يقال لها البدر من أحسن الناس وجهاً ، فقال له سليمان : كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال : أصلح الله الأمير ما رأت عيناى أحسن منها قط ، فقال له : خذ بيدها ، فقال : ما كنت لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدة عجه بها ، فقال : ويحك خذها على شدة عجي بها ليعلم هواي أني له غالب ، وأخذ بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حباني وأعطاني وفضلني عن غير مسألة منه سليمان
أعطاني البدرَ خَوْذاً^(١) في محاسنها والبدر لم يُعْطه إنسٌ ولا جانٌ
ولست يوماً بناسٍ فضله أبداً حتى يغيبني لحدٌ وأكفانٌ

(التاسع والثلاثون) : أن مثل راكب الهوى كمثل راكب فرسٍ حديدٍ صعبٍ جموح لا لجام له فيوشك أن يصرعه فرسه في خلال جريه به أو يسير به إلى مهلك . قال بعض العارفين : أسرع المطايا إلى الجنة الزهد في الدنيا ، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات ، و على متن هواه أسرع به إلى وادي الهلكات . وقال آخر : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا ، واستصعب قياده على الهوى . وقال عطاء : من غلب هواه عقله وجزعه صبره اقتضح .

(الأربعون) : أن التوحيد واتباع الهوى متضادان ، فإن الهوى صنم ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه . وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له ، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام التي في القلب ، بل المراد كسرها من القلب أولاً . قال الحسن بن علي المطوعي : صنم كل إنسان هواه ، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة . وتأمل قول الخليل صلى الله عليه وسلم لقومه : « مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ »^(٢) كيف تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون

(١) الخود : الشابة اللدنة الناعمة الملساء .

(٢) الأنبياء (٢١ / ٥٢) .

الله ، قال الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (١)

(الحادي والأربعون) : أن مخالفة الهوى طَرْدَة للداء عن القلب والبدن ، ومتابعته لَبَّةٌ لداء القلب والبدن ، فأمرض القلب كلها من متابعة الهوى ، ولو فتشت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركه .

(الثاني والأربعون) : أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى ، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح . قال أبو بكر السورّاق : إذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وأبغضهم ، فانظر ماذا يتولد من التباعد من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها .

(الثالث والأربعون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوىً وعقلًا فأيهما ظهر توارى الآخر . كما قال أبو علي الثقفى : من غلبه هواه توارى عنه عقله ، فانظر عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه . وقال علي بن سهل رحمه الله : العقل والهوى يتنازعان ، فالتوفيق قرينُ العقل ، والخذلان قرينُ الهوى ، والنفس واقفةٌ بينهما ، فأيهما غلب كانت النفس سعة .

(الرابع والأربعون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب مَلِكًا للجوارح ومعدن معرفته ومحبه وعبوديته ، وامتنحه بسلطانين وجيشين وعونين وعُدَّتَيْنِ فالحقُّ والزهدُ والهدى سلطانٌ ، وأعوانه الملائكة وجيشه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى ، والباطل سلطانٌ ، وأعوانه الشياطين وجنده وعُدته اتباعُ الهوى ، والنفس واقفةٌ بين الجيشين . ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناجيتها ، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوه عليه فتكون الدائرة عليه ، فهي التي تعطي

(١) الفرقان (٢٥ / ٤٣ - ٤٤) .

عدوها عُدَّةً من قِبَلِها ، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب .

(الخامس والأربعون) : أن أعزى عدو للمرء شيطانُه وهواه ، وأصدق صديق له عقلُه والملك الناصح له ، فإذا اتَّبَعَ هواه أعطى بيده لعدوَه واستأسر له وأشمت به وساء صديقه ووليُّه ، وهذا هو بعينه هو جَهْدُ البلاء ، وذَرَكُ الشقاء ، وسوءُ القضاء ، وشماتة الأعداء .

(السادس والأربعون) : أن لكل عبدٍ بدايةً ونهايةً ، فمن كانت بدايتهُ اتباعَ الهوى ، كانت نهايتهُ الذلُّ والصغارَ والجرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتَّبَعَ من هواه ، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يُعَذَّبُ به في قلبه كما قال القائل :

مَارَبُ كَانَتْ فِي الشَّبَابِ لِأَهْلِهَا عَذَاباً فَصَارَتْ فِي الْمَشِيبِ عَذَاباً
فَلَوْ تَأَمَّلْتَ حَالَ كُلِّ ذِي حَالٍ سَيِّئَةٍ زَرِيَّةً لَرَأَيْتَ بَدَايَتَهُ الذَّهَابَ مَعَ هَوَاهُ وَإِيَّارَهُ
عَلَى عَقْلِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ بَدَايَتُهُ مُخَالَفَةَ هَوَاهُ وَطَاعَةَ دَاعِي رَشْدِهِ كَانَتْ نَهَايَتُهُ الْعُزَّ
وَالشَّرْفَ وَالغِنَى وَالْجَاهَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ . قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَاقُ : مَنْ مَلَكَ
شَهْوَتُهُ فِي حَالِ شَبَابِهِ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَالِ كِهْلَتِهِ . وَقِيلَ لِلْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي
صُفْرَةَ : بِمَ نَلْتَ مَا نَلْتَ ؟ قَالَ : بِطَاعَةِ الْحَزْمِ وَعَصْيَانِ الْهَوَى ، فَهَذَا فِي بَدَايَةِ
الدُّنْيَا وَنَهَايَتِهَا ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْجَنَّةَ نَهَايَةً مَنْ خَالَفَ هَوَاهُ ،
وَالنَّارَ نَهَايَةً مَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ .

(السابع والأربعون) : أن الهوى رِقٌّ في القلب ، وغُلٌّ في العنق ، وقيد في الرَّجُلِ ، ومُتَابِعُهُ أَسِيرٌ لكل سيِّئ الملكة ، فمن خالفه عَتَقَ من رِقِّهِ وصار حُرّاً ،
وخلع الغُلَّ من عنقه والقيدَ من رجله وصار بمنزلة رَجُلٍ سَالِمٍ لرجل ، بعد أن كان
رجلاً فيه شركاء متشاكسون^(١) .

(١) متشاكسون : متعاسرون مختلفون .

رُبَّ مُسْتَوِرٍ سَبَّهَ شَهْوَةً فَتَعَرَّى سِتْرَهُ فَانْهَتَكَ
صَاحِبُ الشَّهْوَةِ عَبْدٌ فَإِذَا غَلَبَ الشَّهْوَةُ أَضْحَى مَلِكًا
وقال ابن المبارك :

ومن البلاء وللبلاء علامة أن لا يرى لك عن هواك نزوع
العبدُ عبدُ النفس في شهواتها والحرُّ يشبع تارةً ويجوع

(الثامن والأربعون) : أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم
على الله لأبره ، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه ، فهو
كمن رغب عن بكرة فأعطي عوضها درة . ومتبع الهوى يفوته من مصلحته العاجلة
والآجلة والعيش الهنيء ما لا نسبة لما ظفر به من هواه البتة ، فتأمل انبساط يد
يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسيه بعد خروجه من السجن
لما قبض نفسه عن الحرام .

وقال عبدالرحمن بن مهدي^(١) : رأيت سفيان الثوري رحمه الله تعالى في
المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وضعت في لحدي حتى
وقفت بين يدي الله تبارك وتعالى ، فحاسبني حساباً يسيراً ثم أمر بي إلى الجنة ،
فبينما أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حساً ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول :
سفيان بن سعيد ، فقلت : سفيان بن سعيد ، فقال : تحفظ أنك آثرت الله عز
وجل على هواك يوماً ؟ قلت : إي والله ، فأخذني الشار^(٢) من كل جانب .

وقال عبدالرزاق : بعث أبو جعفر الخشابين حين خرج إلى مكة وقال : إن

(١) عبدالرحمن بن مهدي : هو عبدالرحمن بن مهدي بن حسان البصري اللؤلؤي ، أبو سعيد من كبار
حفاظ الحديث ، وله فيه تصانيف عديدة حدث ببغداد ، ومولده ووفاته بالبصرة قال عنه الإمام
الشافعي : « لا أعرف له نظيراً في الدنيا » اهـ . تهذيب التهذيب (٦ / ٢٧٩) ، وحلية الأولياء
(٩ / ٣) ، وتاريخ بغداد (١٠ / ٢٤٠) ، واللباب (٣ / ٧٢) .

(٢) الشار : ما ينثر في حفلات السرور من حلوى ونقود .

رَأَيْتُمْ سَفِيَانِ قَاصِلُوهُ ، فَجَاؤُوا وَنَصَبُوا الْخَشَبَ ، وَطَلَبَ وَرَأْسُهُ فِي جَبْرِ الْفَضِيلِ
فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : اتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَشْمِتْ بِنَا الْأَعْدَاءَ ، فَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَسْتَارِ ثُمَّ
أَخَذَهَا بِيَدِهِ وَقَالَ : بَرِئْتُ مِنْهُ إِنْ دَخَلَهَا أَبُو جَعْفَرٍ ، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ ،
فَتَأْمَلْ عَاقِبَةَ مُخَالَفَةِ الْهُوَى كَيْفَ أَقَامَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ .

(التاسع والأربعون) : أَنْ مُخَالَفَةَ الْهُوَى تَوْجِبَ شَرَفَ الدُّنْيَا وَشَرَفَ
الْآخِرَةِ ، وَعَزَّ الظَّاهِرَ وَعَزَّ الْبَاطِنَ ، وَتَابَعْتَهُ تَضَعُ الْعَبْدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَتَذِلُّهُ فِي
الظَّاهِرِ وَفِي الْبَاطِنِ ، وَإِذَا جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ نَادَى مَنْادٍ : لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ
الْجَمْعِ مِنْ أَهْلِ الْكَرَمِ الْيَوْمَ ، أَلَا يُيَقَّمُ الْمُتَقَوْنَ ، فَيَقُومُونَ إِلَى مَحَلِّ الْكِرَامَةِ ،
وَأَتْبَاعَ الْهُوَى نَاكِسُورُؤُسِهِمْ فِي الْمَوْقِفِ فِي حَرِّ الْهُوَى وَعَرَقِهِ وَالْمَهْ ، وَأُولَئِكَ فِي
ظِلِّ الْعَرْشِ .

(الخمسون) : أَنْكَ إِذَا تَأْمَلْتَ السَّبْعَةَ الَّذِينَ يَظْلِمُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظِلِّ
عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ^(١) ، وَجَدْتَهُمْ إِنَّمَا نَالُوا ذَلِكَ الظِّلَّ بِمُخَالَفَةِ الْهُوَى ، فَإِنْ
الْإِمَامُ الْمَسْلُطُ الْقَادِرُ لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْعَدْلِ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهُ ، وَالشَّابُّ الْمُؤَثِّرُ لِعِبَادَةِ
اللَّهِ عَلَى دَاعِي شِبَابِهِ لَوْلَا مُخَالَفَةُ هَوَاهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ، وَالرَّجُلُ الَّذِي قَلْبُهُ مَعْلُوقٌ
بِالْمَسَاجِدِ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ مُخَالَفَةُ الْهُوَى الدَّاعِي لَهُ إِلَى أَمَاكِنِ اللَّذَاتِ ،
وَالْمُتَصَدِّقُ الْمُخْفِي لَصَدَقَتِهِ عَنْ شِمَالِهِ لَوْلَا قَهْرُهُ لِهَوَاهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ، وَالَّذِي
دَعَتْهُ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ الشَّرِيفَةُ فَخَافَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخَالَفَ هَوَاهُ ، وَالَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَتِهِ ، إِنَّمَا أَوْصَلَهُ إِلَى ذَلِكَ مُخَالَفَةُ هَوَاهُ ، فَلَمْ يَكُنْ
لِحَرِّ الْمَوْقِفِ وَعَرَقِهِ وَشِدَّتِهِ سَبِيلَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَصْحَابُ الْهُوَى قَدْ بَلَغَ مِنْهُمْ
النَّحْرُ وَالْعَرَقُ كُلُّ مُبْلَغٍ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ بَعْدَ هَذَا دُخُولِ سَجْنِ الْهُوَى ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى الْمَسْئُولُ أَنْ يَعْيِزَنَا مِنْ أَهْوَاءِ نَفُوسِنَا الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ وَأَنْ يَجْعَلَ هَوَانًا تَبَعًا لِمَا
يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ .

(١) تقدم هذا الحديث .

المراجع

القرآن الكريم :

- ١ - أحكام القرآن للجصاص المتوفى سنة ٣٧٠ هـ .
- ٢ - أحكام القرآن لابن العربي الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .
- ٣ - آداب الزفاف في السنة المطهرة لمحمد ناصر الدين الألباني مؤسسة المصري للكتاب . ط . ثالثة سنة ١٣٨٨ هـ .
- ٤ - إرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود) المتوفى سنة ٩٥٢ هـ .
- ٥ - أساس البلاغة للزمخشري ط . الشعب بمصر سنة ١٩٦٠ م .
- ٦ - إعلام الموقعين لابن القيم .
- ٧ - الإعلام للزركلي ط . العربية بمصر سنة ١٣٤٧ هـ .
- ٨ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ط . دار الكتب المصرية .
- ٩ - الإفصاح في فقه اللغة لحسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي ط . دار الفكر العربي سنة ١٩٦٤ م .
- ١٠ - أمالي المرتضى للشرif العلوي بمصر سنة ١٩٥٤ م . ط . ثانية .
- ١١ - أنوار التنزيل للبيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ .

- ١٢ - البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر لمحمود فهمي المهندس ط . بولاق سنة ١٣١٣ هـ .
- ١٣ - البداية والنهاية لابن كثير ط . مصر سنة ١٣٥٨ هـ .
- ١٤ - البدر الطالع للشوكاني ط . مصر سنة ١٣٤٨ هـ .
- ١٥ - البيان والتبيين للجاحظ بتحقيق عبدالسلام هارون ط . لجنة التأليف سنة ١٣٦٩ هـ .
- ١٦ - تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ط . مصر سنة ١٢٨٢ هـ .
- ١٧ - تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان مصر .
- ١٨ - تاريخ الطبري .
- ١٩ - تفسير ابن كثير ومختصر ابن كثير .
- ٢٠ - تهذيب ابن عساکر ط . دمشق سنة ١٣٥١ هـ .
- ٢١ - تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ط . حيدرآباد الدکن سنة ١٣٢٧ هـ .
- ٢٢ - جامع البيان للطبري دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٨ م .
- ٢٣ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط . دار الكتب المصرية ط . سنة ١٩٥٢ م .
- ٢٤ - الجامع الصغير للسيوطي ط . العلمية سنة ١٩٥٤ م .
- ٢٥ - جمهرة أشعار العرب لابن أبي الخطاب ط . مصر سنة ١٣٠٨ هـ .
- ٢٦ - جمهرة رسائل العرب لزكي صفوت .
- ٢٧ - الحب وأخلاقيات الجنس في الإسلام للسيد الجميلي ط . دار المسلم بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م .
- ٢٨ - حلية الأولياء لأبي نعيم ط . مصر سنة ١٣٥١ هـ .
- ٢٩ - خزائن الأدب للبغدادی ط . مصر سنة ١٢٩٩ هـ .
- ٣٠ - ديوان حافظ إبراهيم ط . دار المعارف سنة ١٩٣٧ م .

- ٣١ - ديوان الشوقيات لأحمد شوقي ط . دار الكتاب العربي .
- ٣٢ - ديوان المتنبي بشرح العكبري بتحقيق مصطفى السقا والإيباري وشلي ط . دار المعرفة سنة ١٩٧٨ م .
- ٣٣ - زاد المعاد لابن القيم مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١ م .
- ٣٤ - زهرة الآداب وثمرة الألباب للحصري ط . مصر سنة ١٩٥٣ م .
- ٣٥ - صبح الأعشى للقلقشندي ط . مصر سنة ١٣٣٨ هـ .
- ٣٦ - صفوة التفاضل للصابوني .
- ٣٧ - طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ط . ليدن سنة ١٩١٣ م .
- ٣٨ - طبقات الشعراء لابن المعتز ط . مصر سنة ١٩٥٦ م .
- ٣٩ - طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي شرحه محمود محمد شاكر ط . مصر سنة ١٩٥٢ م .
- ٤٠ - العقد الفريد لابن عبد ربه ط . دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٢ م .
- ٤١ - العملة لابن رشيح القيرواني ط . مصر سنة ١٩٠٧ م .
- ٤٢ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ط . مصر سنة ١٢٩٩ هـ .
- ٤٣ - القاموس المحيط للفيروزآبادي ط . مصر سنة ١٣٣٠ هـ .
- ٤٤ - الكامل للمبرد في اللغة والأدب ط . مصر سنة ١٣٢٣ هـ .
- ٤٥ - كشف الخفا للعجلوني ط . دار التراث بمصر بدون تاريخ
- ٤٦ - كشاف الزمخشري في تفسير القرآن الكريم .
- ٤٧ - كشف الظنون ط . استنبول سنة ١٩٤١ م .
- ٤٨ - لسان العرب لابن منظور ط . بولاق سنة ١٣٠٨ هـ .
- ٤٩ - مجالس ثعلب بتحقيق عبدالسلام هارون ط . دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م .
- ط . ثلاثة .

- ٥٠ - مختار الصحاح للرازي بتحقيق محمود خاطر ط . وزارة المعارف العمومية سنة ١٩١٦ .
- ٥١ - مروج الذهب للمسعودي ط . باريس سنة ١٩٣٠ م .
- ٥٢ - المستطرف في كل من مستطرف للأبشيبي .
- ٥٣ - معجم الشعراء للمرزباني ط . مصر سنة ١٣٥٤ هـ .
- ٥٤ - المنتخب من أدب العرب ط . دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٠ ، ١٩٥٤ م .
- ٥٥ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري ط . مصر سنة ١٢٩٤ هـ .
- ٥٦ - الوافي بالوفيات للصفدي ط . استنبول سنة ١٩٣١ م .
- ٥٧ - وفيات الأعيان لابن خلكان ط . مصر سنة ١٣١٠ هـ .

الفهرس

٥	إهداء وتحية
٧	المقدمة
١١	بين يدي الكتاب
١٣	الإمام ابن قيم الجوزية
١٧	رب يسر ولا تعسر
٢٨	روضة المحبين ونزهة المشتاقين
٣١	الباب الأول : في أسماء المحبة
٣٣	الباب الثاني : في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها
	الباب الثالث : في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أو
٧١	التباين
	الباب الرابع : في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها وأن
	حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات
٧٣	وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب
٨٣	الباب الخامس : في دواعي المحبة ومتعلقها
١٠٩	الباب السادس : في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه
	الباب السابع : في ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل منهما صاحبه والحكم
١٢٣	بينهما
	الباب الثامن : في ذكر الشبه التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له

١٢٩	 الاستمتاع وأباح عشقه
	الباب التاسع : في الجواب عما احتجت به هذه الطائفة وما لها وما عليها في
١٣٩	 هذا الاحتجاج
١٥٣	 الباب العاشر : في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه
	الباب الحادي عشر : في العشق هل هو اضطراري خارج عن الاختيار أو أمر
١٥٩	 اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه
١٦٥	 الباب الثاني عشر : في سكرة العشاق
١٧١	 الباب الثالث عشر : في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان
١٨٣	 الباب الرابع عشر : فيمن مدح العشق وتمناه وغبط صاحبه على ما أوتي به مناه
	الباب الخامس عشر : فيمن ذم العشق وتبرم به وما احتج به كل فريق على
١٩٥	 صحة مذهبه
٢١١	 الباب السادس عشر : في الحكم بين الفريقين وفصل النزاع بين الطائفتين ..
	الباب السابع عشر : في استحباب تغيير الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله
٢١٥	 ورسوله
	الباب الثامن عشر : في أن دواء المحبين في كمال الوصال الذي أباحه رب
٢٢٣	 العالمين
٢٣١	 الباب التاسع عشر : في ذكر فضيلة الجمال وميل النفوس إليه على كل حال
٢٦١	 من قصيدة للمؤلف في وصف الحور
٢٦٧	 الباب العشرون : في علامات المحبة وشواهدا
	الباب الحادي والعشرون : في إقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم
٢٩٥	 التشريك بينه وبين غيره فيه
٣٠١	 الباب الثاني والعشرون : في غيرة المحبين على أحبائهم
٣٢٣	 الباب الثالث والعشرون : في عفاف المحبين مع أحبائهم
	الباب الرابع والعشرون : في ارتكاب سبيلي الحرام وما يقضي إليه في المفساد
٣٥٩	 والآلام
	الباب الخامس والعشرون : في رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أحبائهم في
٣٨١	 الوصال الذي يبيحه الدين
	الباب السادس والعشرون : في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في

٣٩٧	إعلامهما ..
	الباب السابع والعشرون : فمن ترك محبوبه حراماً فبذل له حلالاً أو أعاضه الله
٤٤٣	خيراً منه ..
	الباب الثامن والعشرون : فيمن أثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال
٤٥٧	الحرام ..
٤٦٧	الباب التاسع والعشرون : في ذم الهوى وما في مخالفته من نيل المنى ..
٤٨٣	المراجع ..